التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة حصرياً للناشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١/٩٢ / ٢٠٠٨)

٢٢٢

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)

التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٨.

صدر على شكل ستة أجزاء

(...) ص.

ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).

الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٨م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك ISBN 978-9957-492-02-1

دار الكتاب الثقافي

للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن / إربد

شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٧٢٦١٦١٦ - ٢-٠٠٩٦٢)

فاكس

(٧٢٥٠٣٤٧-٢-٠٠٩٦٢)

ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (211-620347)

E-mail:

Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع

الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ
سُلَيمَانِ بْنِ أحْمَدَ بنِ أيُوبَ الطَّبَرَانِيِّ
(٢٦٠-٣٦٠) مِنَ الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخَرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ
هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد السادس

دار الكتاب الثقافي
الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سُورَةُ الأَحْقَافِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَانِ وَخَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَسِتُّمِائَةٍ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَثَلاَثُونَ آيَةً. [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ رَمْلٍ فِي الدُّنْيَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ] هَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ ينتهي إليه وهو يومُ القيامةِ تنتهي إليه السَّمواتُ والأرض، وهذا إشارةٌ إلى فنائِهما وانقضائِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾ ؛ أي مُعرِضون عمَّا خُوِّفُوا به من القُرآن، ولا يتدبَّرون ولا يتفكَّرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الملائكةِ والأصنامِ، وتدَّعون أنَّها آلهةٌ، ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أخبروني ماذا خلَقُوا من الأرضِ، لأنَّ الخالقَ هو الذي يستحقُّ العبادةَ، ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أمْ لَهم نصيبٌ في خلق السَّموات، فذلك ما أشرَكتُموهم في عبادةِ الله تعالى، ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ ؛ القرآن فيه برهانُ ما تدَّعون، ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ ؛ معناه ائتُوني ببقية من علمِ المتقدِّمين، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤) ﴾ .

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج٤ ص٣٠٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ﷺ.

وَقِيلَ: الأَثَارَةُ؛ والأَثْرَةُ - بإسكان الثاء - والأَثَرَةُ - بفتحِها - معناها: الرِّوايَةُ من العُلماءِ، يقالُ: فلانٌ يَأثُرُ الحديثَ عن فلانٍ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[١]، والعلمُ الْمَأثُورُ هو الْمَرْوِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ﴾؛ أي أبْعَدُ ذهاباً عن الصَّواب ممن يدعُو مِن دون الله مَن لا يستجيبُ دعاءَ ولو دعاهُ، (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) يعني الأصنامَ، ﴿ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ ﴾ أي عن دُعاءِ مَن دعاها؛ لأنَّها جَمادٌ لا تسمعُ ولا تُبصِرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ معناهُ: وإذا جُمِعَ الناسُ يومَ القيامة صارتِ الأصنامُ أعداءً لِمَن عبدَها في الدُّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[٢]، وقال: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾؛ ويقولون: إنَّ مُحَمَّداً أتى به من نفسِه، وهو قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ﴾؛ أي لا يَقدِرون أن يردُّوا عنِّي عذابَهُ، فكيف أفتري على اللهِ لأجلِكم وأنتم لا تقدِرُون علي دفع عِقابهِ عنِّي إن افتريتُ عليهِ شيئاً؟ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾؛ أي اللهُ أعلَمُ بما تَقولون في القُرآن وتَخوضُونَ فيه من التَّكذيب به والقول فيه إنه سحرٌ وكهانةٌ، ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾؛ أي القرآنُ جاءَ من عندِ الله، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨ ﴾؛ في تأخيرِ العذاب عنكم حين لَمْ يعجِّلْ عليكم بالعقوبةِ.

قال الزجَّاجُ: (هَذا دُعاءٌ لَهُمْ؛ أي التَّوْبَةُ، مَعْنَاهُ: أنَّ مَنْ أتى مِنَ الْكَبَائِرِ بِمِثْلِ مَا أتَيْتُمْ بهِ مِنَ الافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ ثُمَّ تَابَ، فَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ أيْ غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بِهِ)[٤].

---

(١) المدثر / ٢٤ . (٢) فاطر / ١٤ .

(٣) القصص / ٦٣ .

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٤، والعبارة هنا أتم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ؛ أي ما أنا أوَّلُ رَسُول أرسِلَ إلى الناس، قد بُعِثَ قَبلِي كثيرٌ من الرُّسل. والبديعُ من كلِّ شيء المبتَدعُ، ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ ؛ أيَتركني بمكَّة أو يُخرجُني منها أو يُخرجكم. وَقِيْلَ: معناهُ: لا أدري أموتُ أم أقتَلُ، ولا أدري أيُّها المكذِّبون أتُرمَون بالحجارةِ من السَّماء أو يُخسَفُ بكم.

وهذا إنَّما هو في الدُّنيا، فأمَّا في الآخرةِ فقد عَلِمَ أنه في الجنَّة، وأنَّ مَن كذبَهُ في النار، ألاَ تراهُ يقول: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ؛ وقد أوحِيَ إليه ما يصيرُ إليه الكافرُ والمؤمنُ في الآخرةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وما أدري ماذا أوْمَرُ به في الكفَّار من حربٍ أو سِلمٍ، وما أدري ماذا يفعَلُ اللهُ بهم أيُعَاجِلُهم اللهُ بالعقوبةِ أو يؤخِّرُها عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ أتَّبعُ إلاَّ مَا يُوحَى إلَيَّ) أي ما أتَّبعُ إلاَّ القرآنَ ولا أبتَدِعُ من عندي شيئاً، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي أنذِرُكم وأبَيِّنُ لكم الشرائعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ ؛ ثم اختلفُوا، والمرادُ بشاهدٍ في هذه الآيةِ فقالَ مَن ذهبَ إلى أنَّ هذه السُّورةَ مكِّيةٌ كلُّها: أنَّ المرادَ به يَامِينَ بن يامين، فإنَّ عبدَالله بنَ سلام مِمَّن أسلمَ بالمدينةِ، وهذا شاهدٌ قَدِمَ بمكَّة فآمنَ. وَقِيْلَ: إنَّ المرادَ بالشاهدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ كان مِن بني إسرائيلَ، وكان شهادتهُ للنبيِّ ﷺ في التوراةِ من تصديقِ القُرآنِ، ومثل القرآن هو التوراةُ[1].

وقال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَم)، رُوِي: أنَّهُ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فأتَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَيْلاً وشَهِدَ أنَّ نَعتَهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ فَآمَنَ بِهِ، ثم قالَ: اخْبئْنِي فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ احْضِرِ الْيَهُودَ سَلْهُمْ عَنِّي، فَإنَّهُمْ سَيَذْكُرُونَنِي عِنْدَكَ وَيُخْبرُونَكَ بمَكَانِي مِنَ الْعِلْمِ.

فَفَعَلَ ذلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتَخْبَرَ الْيَهُودَ وَقَالَ لَهُمْ: [مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِاللهِ ابْنِ سَلاَمٍ ؟] فَقَالُوا: عَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَبَقِيَّةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَّا. فَقَالَ ﷺ: [أرَأيْتُمْ إنْ آمَنَ بي تُؤْمِنُوا أنْتُمْ ؟] فَقَالُوا: إنَّهُ لاَ يَفْعَلُ ذلِكَ.

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٥.

فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى قَالُوا: نَعَمْ، فَخَرَجَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَقَالَ لَهُمْ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ فِي التَّوْرَاةِ عَنْ مُوسَى عليه السلام: إذا رَأَيْتُمْ مُحَمَّداً ﷺ فَأَقْرِئُوهُ مِنِّي السَّلاَمَ وَآمِنُوا بِهِ؟ ثُمَّ جَعَلَ يُوقِفُهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ عَلَى مَوَاضِعَ مِنْهَا فِيهَا ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَتُهُ، وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ وَيَجْحَدُونَ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، أَرْسَلَكَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ. فَقَالُوا: مَا كُنْتَ أَهْلاً لِمَا أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ غَائِباً فَكَرِهْنَا أَنْ نَغْتَابَكَ[(١)].

ومعنى الآيةِ: أخبروني ماذا تقولون إنْ كان القرآنُ من عندِ الله، أنزلَهُ وكفرتُم أيُّها المشركون،(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) عبدُالله بن سلامٍ على صدق النبيِّ ﷺ في نبُوَّتهِ (عَلَى مِثْلِهِ) أي عليه أنَّهُ من عندِ الله، والْمِثْلُ صلةٌ. وقولهُ تعالى (فَآمَنَ) يعني الشاهدُ واستكبَرتُم أنتم عن الإيمانِ به، وجوابُ (إنْ) محذوفٌ؛ وتقديرُهُ: أليسَ قد ظلمهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ وَقِيْلَ: تقديرُ الجواب: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) أفأمِنُوا عقوبةَ اللهِ، (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) يعني المعانِدين بعدَ الوضُوحِ والبيان يَحرمُهم اللهُ الهدايةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾؛ أي قالَ الكفارُ مِن بني أسَدٍ وغطَفان وأشجَعَ لِمَن أسلمَ من جُهينَةَ ومُزَينَةَ وأسْلَمَ وغِفَار: (لَوْ كَانَ هَذا) يعنُونَ القرآنَ (خَيْراً) مما نحنُ عليهِ لَمَا سبقَ رعاةُ الشاةِ ونحن أرفعُ منهم، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾؛ مع ظُهورهِ ووضُوحِهِ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ مع ذلك، ﴿ هَـٰذَآ ﴾؛ القرآنُ؛ ﴿ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾؛ كَذِبٌ متقادِمٌ اتَّبعَهُ مُحَمَّدٌ وأحِبَّاؤهُ في عصرهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن: الآثار (٢٤١٧٢-٢٤١٧٦).

يقول اللهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ؛ أي ويشهدُ للقرآن كتابُ موسَى قبلَهُ إمامٌ يُقتدَى ونجاةٌ من العذاب لِمَن آمنَ به، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ وهَذَا القرآنُ مُصَدِّقٌ لِمَا في التوراةِ. وقولُهُ تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ؛ أي بلسانٍ عربيٍّ تَعقِلُونَهُ. ويجوزُ أن يكون منصوباً على الحال، ويكون (لِسَاناً) توكيداً، كما يقالُ: جاءَنِي زيدٌ رجلاً صالحاً، يريدُ: جاءَنِي زيدٌ صالحاً، وقال الزجَّاجُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى: (إمَاماً) نُصِبَ عَلَى الْحَالِ)(١)؛ تَقْدِيرُهُ: وَتَقَدَّمَهُ كِتَابُ مُوسَى عليه السلام إمَاماً.

وَفِي الْكَلام محذوفٌ تقديرهُ: إمَاماً ورحمةً فَلَمْ يَهْتَدُوا بهِ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾(٢) وذلك أنَّ المشركين لم يهتَدُوا بالتوراةِ فيتركُوا عبادةَ الأصنامِ ويعرفُوا منه صفةَ النبيِّ ﷺ.

ثم قالَ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾؛ غيرَ الكُتب التي قبلَهُ (لِسَاناً عَرَبِيّاً) منصوبٌ على الحال؛ أي مصدِّقٌ لما بين يَدَيهِ عَرَبيّاً. ومعنى قولِه تعالى (كِتَابُ مُوسَى إمَاماً) أي يُقتدَى بهِ؛ يعني التوراةَ، (وَرَحْمَةً) من اللهِ للمؤمنين به؛ قِيْلَ: القرآنُ.

وعن عروة عن أبيه(٣) قالَ: (كَانَتْ زِنِّيرَةُ(٤) امْرَأةً ضَعِيفَةَ الْبَصَرِ، فَلَمَّا أسْلَمَتْ كَانَ الأَشْرَافُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ يَسْتَهْزِئُونَ بهَا وَيَقُولُونَ: وَاللهِ لَوْ كَانَ مَا جَاءَ بهِ مُحَمَّدٌ خَيْراً مَا سَبَقَتْنَا إلَيْهِ زِنِّيرَةُ(٥). فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيْهَا وَفِي أمْثَالِهَا (وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بهِ فَسَيَقُولُونَ هَذا إفْكٌ قَدِيمٌ) أيْ أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(٦).

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٦.
(٢) الأحقاف / ١١ .
(٣) في المخطوط: (عن زياد عن أبيه).
(٤) في المخطوط: (زيرة وزبيرة).
(٥) زنيرة، هي مولاة لأبي بكر، وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذّبون في الله، اشتراها أبو بكر وأعتقها، وكانت مولاة لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى، فردَّ الله عليها بصرها. رواه هشام بن عمرة عن أبيه. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ٤ ص٤٠٦: الرقم(٣٣٨٨).
(٦) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٨٩؛ قال القرطبي: (قاله عروة بن الزبير).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ ؛ أي أنزلناهُ لِتُخوِّفَ، ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، يعني مُشرِكي مكَّة. ومَن قرأ بالياءِ أسندَ الفعلَ إلى الكتاب[١]. وقولهُ تعالى: ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ أي وهو بُشْرَى، ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ الموحِّدِين، يعني الكتابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ في الآيةِ دليلٌ[٢] على أنَّها نزَلت في رجُلٍ بعينهِ؛ لأنَّ الناسَ كلَّهم لا يكون حَملُهم ورضاعُهم ثلاثون شَهراً، ولا يقولون إذا بلَغُوا أربعين سَنَةً: (رَب أَوْزِعْنِي). وجاءَ في التفسيرِ: أنَّها نزلَت في أبي بكرِ الصدِّيق ﷺ[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ ؛ أي على كُلْفَةٍ ومشقَّةٍ، وأرادَ به الحملَ في البطنِ إذا ثَقُلَ عليها الولدُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ؛ يريدُ شدَّةَ الطَّلْقِ ومشقَّةَ الوضعِ. قرأ أهلُ الكوفة (إحْسَاناً) وهي قراءةُ ابنِ عبَّاس ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ ؛ أي حَملهُ سِتَّةُ أشْهرٍ ورضاعهُ أربعةٌ وعشرون شهراً. ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس ﷺ قال: (إذا حَمَلَتِ الْمَرْأةُ تِسْعَةَ أشْهرٍ أرْضَعَتْهُ أحَدَ وَعِشْرِينَ شَهْراً). وقال مقاتلُ وعطاء والكلبيُّ: (هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي أبِي بَكْرٍ ﷺ، وَكَانَ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ هَذا الْقَدْرَ)[٤]، ويدلُّ على صحَّة هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: (حَتَّى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ...) ثم إلى آخرِ الآيةِ. وقرأ الحسنُ ويعقوب (وَفَصْلُهُ) بغيرِ ألفٍ.

---

(١) و مَن قرأ بالياء، المعنى: لينذرَ الكتابُ الذين ظلموا، ومن قرأ بالتاء، المعنى: لينذر محمد ﷺ الذين ظلموا.

(٢) في المخطوط: (لها دليل).

(٣) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤١؛ قال السيوطي: (أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس) وذكره.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ؛ قال ابـنُ عبَّـاس ﷺ: (أشُـدُّهُ بضـعٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً) وقال: (ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً). وذلك أنه صَحِبَ رسولَ الله ﷺ وهو ابـنُ ثماني عشرةَ سنةً، والنبيُّ ﷺ ابنُ عشرين سَنة في تجارتهِ إلى الشام، وكان لا يفارقـهُ في أسفارهِ وحضورهِ. فلما ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ؛ ونُبـئَ رسـولُ الله ﷺ دعـا ربَّـهُ، ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ ؛ أي ألْـهِمْنِي شُـكْرَ نِعمَتِـكَ، ﴿ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ ؛ بالهدايةِ والإيمانِ حتى لم أشرِكْ بكَ شيئاً، ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ ؛ أبي قُحَافَةَ عثمان بن عُمر وأمِّي أمُّ الخيرِ بنت صخرِ بن عمر، قال عليٌّ ﷺ: (هَـذِهِ الآيَـةُ نَزَلَتْ فِي أبي بَكْرٍ أسْلَمَ أبَوَاهُ جَمِيعاً، وَلَمْ يَجْتَمِعْ أحَـدٌ مِـنَ الصَّحَابَـةِ وَالْمُـهَاجِرِينَ أبَوَاهُ غَيْرُهُ، وَأوْصَاهُ اللهُ بهِمَا)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ ؛ فأجابَ اللهَ وأعتقَ تسـعةً مِـن المؤمنين يعذبون في اللهِ ولم يُرِدْ شيئاً من الخَـيرِ إلاَّ أعانَـهُ اللهُ عليـه، واستجابَ اللهُ في ذُريَّتهِ حين قال: ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ ؛ فلم يبقَ له ولـدٌ ولا والـدٌ إلاَّ آمَنُـوا باللهِ وحدَهُ، قال موسى بنُ عُقبةَ[(٢)]: (لَـمْ يُـدْرِكْ أرْبَعَـةٌ النَّـبِيَّ ﷺ هُـمْ وَأبْنَـاؤُهُمْ إلاَّ هَؤُلاَءِ: أبُو قُحَافَةَ، وَأبُو بَكْرٍ، وَابْنُهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ، وَأبُو عَتِيقِ بْن عَبْدِالرَّحْمَـنِ بْـنِ أبـي بَكْرٍ ﷺ)[(٣)]. قال البخاريُّ: (أبُو عَتِيقٍ أدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ).

قولهُ (وَأصْلِحْ لِـي فِـي ذُرِّيَّتِـي) أي اجعَـلْ أولاَدِي كُلَّـهم صـالِحين، وقولـهُ: ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي أقبلْتُ إلى كلِّ مـا يجِبُ وأسلمتُ لكَ بقلبي ولساني وإنِّي من المخلِصين، فأسلمَ أبوهُ وأمُّهُ ولم يبقَ له ولـدٌ إلاَّ أسلمَ.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٤.

(٢) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي، مولى آل الزبير، تابعي روى عن جمع من الصحابة، ولـه كتاب المغازي، قال إبراهيم بن المنذر عن معن بن عيسى: كـان مـالك يقـول: (عليكـم بمغـازي موسى بن عقبة، فإنه ثقة) وفي رواية أخرى عنه: (عليكم بمغـازي الرجـل الصـالح موسـى بـن عقبة، فإنها أصح المغازي). ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٧٢٧٣).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٨٦، ولم يعزه إلى أحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ ؛ أي أهلَ هذه الصِّفةِ الذين يَتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عمِلُوا وهو الطاعاتُ، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ ؛ التي سبقت في الجهلِ، وقولهُ تعالى: ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ ؛ أي يدخلون في أصحاب الجنَّة وَعْداً صِدْقاً من اللهِ تعالى، ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ؛ به في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرسُلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ ؛ نزلت في عبدِالرَّحمنِ بن أبي بكر، قالَ لأَبيه وأمه قبلَ أن يسلمَ حين كانا يدعُوانهِ إلى الإسلام، ويُخبرانهِ بالبعثِ بعد الموت وهو يأبَى ويُسِيءُ القولَ لهما، فقالَ لهما: (أفٌّ لَكُمَا) أي أفٌّ قذفاً لكما، كما يقالُ عند شمِّ الرائحةِ الكريهة، ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ ؛ أي تُخوِّفانِي أن أخرجَ من القبرِ وقد مضَتِ القرونُ مِن قبل ولم يخرج أحدٌ منهم من قبرهِ، أين عبدُالله بن جدعان؟أين فلان وأين فُلان؟! ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ ؛ يعني أبَويهِ يدعُوان الله له بالْهُدَى ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ ؛ أي صدِّقْ بالبعثِ، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ، بالبعثِ، ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ ؛ فيقولُ لهما: ما هذا الذي تقُولان إلاَّ أكاذيبُ الأوَّلين[(١)].

والاستغاثةُ باللهِ دعاؤُكَ اللهَ ليُغِيثَكَ على ما نَابَكَ، والجارُّ محذوفٌ؛ تقديرهُ: يستغيثان باللهِ. وقرأ القرَّاء والأعمشُ (أنْ أخْرُجَ) بفتحِ الألف وضمِّ الراءِ[(٢)].

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا ألَحَّ عَلَيْهِ أبَوَاهُ فِي دُعَائِهِ إلَى الإيْمَان؛ قَالَ لَهُمَا: أحْيُوا لِي عَبْدَاللهِ بْنَ جَدْعَان، فَإنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً، وَأحْيُوا لِي عَامِرَ بْنَ كَعْبٍ، وَمَشَايخَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤١٩١) وإسناده ضعيف، ولم يسمه. والقصة حكاها مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٣. والقصة مختلَقَة من مروان بن الحكم على عبدالرحمن بن أبي بكر، فاتهمه مروان بهذا حين طلب من أهل المدينة البيعة ليزيد بن معاوية، فعارضه عبدالرحمن. وكذَّبت عائشة رضي الله عنها مروان في ادعائه وزعمه كما أخرجه البخاري في الصحيح:كتاب التفسير: سورة الأحقاف: الحديث (٤٨٢٧).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٧؛ قال القرطبي: (وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش) وذكره.

مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى اسْألَهُمْ عَنْ مَا تَقُولاَن، وَاخْرِجَا لِي بَعْضَ آبَائِي وَاجْدَادِي مِنْ قُبُورِهِمْ لأَسْألَهُمْ، فَإنْ صَدَّقُوكُمَا آمَنْتُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ ؛ أي وجبَتْ عليهم كلمةُ العذاب في أمَمٍ قد مضَتْ من قبلِهم،﴿مِّنَ﴾ ؛ كفار، ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ؛ الإيمانَ. ثم أسلمَ عبدُالرحمنِ وحَسُنَ إسلامهُ، وكان من أفاضلِ المؤمنين.

وذهب الحسنُ إلى أنَّ الآيةَ نزلت في كافرٍ عاقٍّ لوالديهِ مكذِّبٍ للبعثِ(٢)، ماتَ على كُفرهِ، قالَ: (لأنَّ قَوْلَهُ (أوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ) إعْلاَمٌ بأنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) وإلى هذا القولِ ذهبَ الزجَّاجُ(٣).

ويُروى أن معاويةَ كتبَ إلى مروان: (لَتَأْخُذَنَّ عَلَى النَّاسِ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ) فَكَرِهَ ذلِكَ عَبْدُالرَّحْمَنِ وَقَالَ: (أتَأْخُذُونَ الْبَيْعَةَ لأَبْنَائِكُمْ ؟!) قَالَ مَرْوَانُ: هَذا الَّذِي يَقُولُ اللهُ فِيْهِ ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍّ لَكُمَا﴾ فَلَمَّا بَلَغَ ذلِكَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: (كَذبَ مَرْوَانُ! وَاللهِ مَا هُوَ بهِ، إنَّمَا أنْزَلَ اللهُ ذلِكَ فِي رَجُلٍ مِنْ بَنِي أمَيَّةَ، وَلَوْ شِئْتُ أنْ أسَمِّيَهُ لَسَمَّيْتُهُ لَكُمْ، وَلَكِنْ أشْهَدُ أنَّ اللهَ لَعَنَ أبَاكَ وَأنْتَ فِي صُلْبهِ، فَهُوَ فِي قَصَصٍ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ)(٤).

---

(١) في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٢٩٥ نقله ابن أبي حاتم عن السدي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٩٧؛ قال القرطبي: (قال ابن عباس والسدي وأبو العالية ومجاهد) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٩٢).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٣٨؛ قال الزجاج: (فقال بعضهم: إنها نزلت في عبدالرحمن قبل إسلامه، وهذا يبطله قوله تعالى: ﴿أوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أمَمٍ قَدْ خَلَتْ...﴾ فأعلمَ اللهُ أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وإذا أعلم بذلك فقد أعلم أنهم لا يؤمنون، وعبدالرحمن مؤمن، ومن أفاضل المؤمنين وسَرَوَاتهم. والصحيح أنها نزلت في الكافر العاق).

(٤) القصة لها ألفاظ وإيجاز وتفصيل، في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٤؛ قال السيوطي: (أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك) وذكر القصة بلفظ: أن عبدالرحمن بعد أن أنكر على مروان، أمر مروان بأخذه، فدخل بيت عائشة فلم يقدر عليه، وجرى الحديث. ينظر: الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٨٢٧). وفي الشرح قال ابن حجر: (لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبدالرحمن وآل بيته، أصح إسناداً وأولى بالقبول).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ ؛ أي ولكلٍّ الفريقَين من الكـافرين والمؤمنـين منـازلُ مما عملـوا، ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنقَصُ من حسناتِهم ولا يُزادُ في سيِّئاتِهم.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ؛ أي وأنذِرهـم يـومَ يُعرَضُ كفَّارُ مكَّة على النار ويقالُ لـهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي أذهبتُم أموالَكم، وَقِيلَ: قوَّتكم وشبابَكم في لذاتِكم في الدُّنيا، لا في طلب رضَـى اللهِ، بل في وُجوهٍ مُحرَّمَةٍ، وانتقَصتُم بطيِّباتكم في الدُّنيا، ﴿ وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ ، (فَـ) ليـس لكم، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ ، ههنا حسناتٍ، وإنما ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي الْـهوَان الشـديدِ باسـتكبارِكم في الأرضِ بالبـاطلِ، وخُروجِكم من أمرِ الله تعالى إلى المعصيةِ.

وعن ابنِ عبَّاس: أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (أُدْعُ اللهَ أنْ يُوسِّـعَ عَلَـى أُمَّتِـكَ، فَقَدْ وَسَّعَ اللهُ عَلَىفَارس وَالرُّومِ وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى) فَقَالَ ﷺ: [أوَفِـي شَـكٍّ أنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب؟! أوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا](١).

ورُوِي: أنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْـتِ حَفْصَـةٍ وَإنَّـهُ لَمُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، وَإنَّ بَعْضَهُ لَعَلَى التُّرَاب، وَتَحْتَ رَاسِهِ وسَادَةٌ مَحْشُـوَّةٌ لِيفـاً، فَسَلَّمْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَصَفْوَتُهُ وَخِيرَتُهُ مِـنْ خَلْقِـهِ، وَكِسْرَى وَقَيْصَرَ عَلَى سُرُر الذهَب وَفُرُشِ الدِّيْبَاجِ وَالْحَرِير، فَقَالَ ﷺ: [يَا عُمَـرُ؛ إنَّ أوْلَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ وَهِيَ وَشِيكَةُ الانْقِطَاعِ، وَإنَّا أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا])(٢).

وعن سالِم بن عبدِالله بن عمر كان يقولُ: (وَاللهِ مَا نَعْبَأُ بلَذاتِ الْعَيْشِ بأنْ نَأمُرَ بصِغَار الْمِعْزَى فَتُسْمَطَ لَنَا، وَنَأمُرَ بلِبَاب الْحِنْطَةِ فَيُخْبَزُ لَنَا، وَنَـأمُرَ بـالنَّبيذِ فَيُنْبَذُ لَنَـا، حَتَّى إذا صَارَ مِثْلَ عَيْنِ يَعْقُوبَ أكَلْنَا هَذا وَشَرِبْنَا هَذا، وَلَكِنَّا أرَدْنَا أنْ نَسْتَبْقِيَ طَيِّبَاتِنَـا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المظالم: باب الغرفة والعلية: الحديث (٢٤٦٨). ومسـلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب في الولاء: الحديث (٣٤ و٣٥/ ١٤٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأطعمة: بـاب ذكـر معيشـة النبي ﷺ: الحديـث (٧١٥٤)، وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

لأنَّا سَمِعْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَذْكُرُ قَوْماً فَقَالَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بهَا)[١].

وعن جابر بن عبدِالله ﷺ قالَ: (رَأى عُمَرُ ﷺ فِي يَدَيَّ لَحماً مُعَلَّقاً فَقَالَ: مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قَالَ: اشْتَهَيْتُ لَحماً فَاشْتَرَيْتُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: وَكُلَّمَا اشْتَهَيْتَ يَا جَابرُ اشْتَرَيْتَ؟ أمَا تَخَافُ هَذِهِ الآيَةَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا)[٢].

وعن محمَّد بن مَيسَرة قالَ: قال جابرُ بن عبدِالله: (اشْتَهَى أهْلِي لَحْماً فَشَرَيْتُهُ وَمَرَرْتُ بعُمَرَ، فَقَالَ: مَا هَذا يَا جَابرُ ؟ قُلْتُ: اشْتَهَى أهْلِي اللَّحْمَ فَاشْتَرَيْتُ هَذا اللَّحْمَ بدِرْهَمٍ، فَقَالَ: أوَكُلَّمَا اشْتَهَى أحَدُكُمْ شَيْئاً جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ، أمَا تَخْشَى أنْ تَكُونَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا))[٣].

وعن عِمَارَةَ بن القَعْقَاع عن أبي زرعَةَ قالَ: (دَخَلَ عُتْبَةُ بْنُ فَرْقَدَ عَلَى عُمَرَ ﷺ وَهُوَ يُكَوِّمُ كَعْكاً شَامِياً وَيَتفَوَّقُ لَبَناً حَازِراً[٤] فَقَالَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أمَرْتَ أنْ يُصْنَعَ لَكَ طَعَامٌ ألْيَنُ مِنْ هَذا؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ فَرْقَد؛ أتُرَى أحَداً مِنَ الْعَرَب أقْدَرُ عَلَى ذلِكَ مِنِّي ؟ فَقَالَ: مَا أحَدٌ أقْدَرُ عَلَى ذلِكَ مِنْكَ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى عَيَّرَ أقْوَاماً فَقَالَ (أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بهَا) وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أنْ أكُونَ أصْلَبَكُمْ طَعَاماً وَأحْسَنَكُمْ ثِيَاباً لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أسْتَبْقِي دُنْيَايَ لآخِرَتِي)[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١ ص٤٩. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٦ عزاه السيوطي إلى أبي نعيم في الحلية.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٥؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان) وفي ص٤٤٦؛ قال: (أخرجه أحمد في الزهد عن الأعمش) وذكره بلفظه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٥٠) وفيه القاسم بن عبدالله العمري.

(٤) الحازر: العابس الباسر، والحزاور: الذي انتهى إدراكه. ينظر: لسان العرب: (حزر).

(٥) أخرجه أبو نعيم بأسانيد أخرى وألفاظ عن قول عمر ﷺ، كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:ج١ ص٤٩ عن الحسن وعبدالرحمن بن أبي ليلى وبعض أصحاب عمر ﷺ.

وعن حفصِ بن أبي العاصِ قالَ: (كُنْتُ أتَغَدَّى مَعَ عُمَرَ ﷺ فَيَجِيءُ بِخُبْزٍ مُتَقَطِّعٍ يَابسٍ غَلِيظٍ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَقُولُ لَنَا: كُلُوا، فَجَعَلَ يَعْتَذِرُ فَقَالَ: مَا لَكُمْ لاَ تَأْكُلُونَ ؟ قُلْنَا: لاَ نَأْكُلُهُ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا نَسْتَطِيعُ لَكِنَّا نَرْجِعُ إِلَى طَعَامٍ أَلْيَنَ مِنْ طَعَامِكُمْ هَذَا.

فَقَالَ: يَا ابْنَ الْعَاصِ أَمَا تَرَى أَنِّي قَادِرٌ أَنْ آمُرَ بِدَقِيقٍ أَنْ يُنْخَلَ بِخُرْقَةٍ، وَأَنْ يُخْبَزَ فِي تَنُّورٍ، وَآمُرَ بِعَنَاقٍ سَمِينَةٍ فَلْيُسْمَطَ عَنْهَا شَعْرُهَا ثُمَّ تُخْرَجُ مَصْلِيَّةً كَأَنَّهَا كَذَا وَكَذَا، أَمَا تَرَى أَنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَعْمَلَ إِلَى صَاعٍ أَوْ صَاعَيْنِ مِنْ زَبِيبٍ فَأَجْعَلُهُ فِي سِقَاءٍ ثُمَّ أَنُشُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُصْبِحُ كَأَنَّهُ دَمُ غَزَالٍ ؟ قَالَ: قُلْتُ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَجَادٌّ مَا نَعَتَ الْعَيْشَ؟ قَالَ: أَجَلْ وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقُصَ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَشَارَكْتُكُمْ فِي الْعَيْشِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)[١].

وكان يقولُ: (لاَ تَنْخِلُوا الدَّقِيقَ فَإِنَّهُ كُلُّهُ طَعَامٌ)، وكَانَ عُمَرُ ﷺ يَتَغَدَّى اللَّبَنَ وَالْقَدِيدَ، وعن الزهريِّ ﷺ قالَ:(حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُ عَلَى حَصِيرٍ مَرْمُولاً[٢] قَدْ أَثَّرَ الشَّرِيطُ فِي جَنْبِهِ مُتَوَسِّداً وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: فَالْتَفَتُّ فِي الْبَيْتِ فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ شَيْئاً يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلاَّ إِهَاباً جُلُوداً مَعْطُوفَةً قَدْ سَطَعَ رِيحُهَا، فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ خِيرَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَهَذَا كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ، فَاسْتَوَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِساً وَقَالَ: [أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا])[٣].

ورُوِي: أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فَصُنِعَ لَهُ طَعَامٌ طَيِّباً فَقَالَ: هَذَا لَنَا! فَمَا لِنُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ لاَ يَشْبَعُونَ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ؟ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ:

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج١٦ ص٢٠١. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٧، ذكره السيوطي مختصراً وقال: (أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد عن حميد بن هلال).

(٢) الأرمل: الرجل الذي لا امرأة له. وفي المخطوط: (سرير مرمولاً).

(٣) أخرجه ابن حبان في الإحسان: الحديث (٤١٨٨).

لَهُمُ الْجَنَّةُ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاغْرَورَقَتْ عَيْنَا عُمَرَ بالدُّمُوعِ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ كَانَ حَظُّنَا فِي الْخِطَامِ وَهُمْ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، لَقَدْ بَايَنُونَا بَوْناً بَعِيداً)[١].

ورُوِي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أهْلِ الصُّفَّةِ، فَرَآهُمْ يُرَقِّعُونَ ثِيَابَهُمْ بِالأدْمِ، مَا يَجِدُونَ لَهَا رقَاعاً، فَقَالَ: [هَلْ أنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمٍ يَغْدُو أحَدُهُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أخْرَى، وَيَغْدُ عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ[٢] بأُخْرَى][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُوْن) يعني يومَ القيامةِ تُجزَونَ العذابَ الذي فيه ذُلُّكم وخزيكم، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ ؛ أي اذكُرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ أهلِ مكَّة أخَا عادٍ وهو هودٌ عليه السلام، ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ ؛ أي إذ خَوَّفَ قومَهُ وحذرَهم عذابَ اللهِ إن لم يُؤمِنُوا بالأحقافِ، وهو جمعُ حُقْفٍ وهو المستطيلُ الْمُعْوَجُّ من الرَّملِ، قال عطاءٌ: (رمَالُ بلادِ الشِّعر)، وقال مقاتلُ: (هِيَ بالْيَمَنِ فِي حَضْرَمَوْتٍ)[٤]، وقال ابنُ عبَّاس: (وَادٍ بَيْنَ عُمَانَ وَمَهرة)[٥] وَإِلَى مَهْرَةَ يُنْسَبُ الْجِمَالُ الْمَهْرِيَّةُ.

وقال قتادةُ: (ذُكِرَ لَنَا أنَّ عَاداً كَانُوا حَيّاً بالْيَمَنِ أهْلَ رَمْلٍ مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الشِّعر، وَكَانُوا مِنْ قَبيلِ إرَمَ)[٦]. وقال ابنُ زيد: (الأحْقَافُ: مَا اسْتَطَالَ مِنَ الرَّمْلِ وَأشْرَفَ كَهَيْئَةِ الْجَبَلِ، وَلَمْ يَبْلُغْ أنْ يَكُونَ جِبالاً، وَجَمْعُهُ حُقُفٌ، وَالأحْقَافُ جَمْعُ الْجَمْعِ)[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٩٦).

(٢) في المخطوط: (بِخَصْلَةٍ وَيُرَاحُ).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤١٩٧) معلقاً. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الزهد: الحديث (٢٤٧٦)، وقال: حسن غريب. وأبو نعيم في الحلية: ج ١ ص٣٤٠: ذكر أهل الصفة.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٥.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤١٠٤).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٠٩) وفيه: (وكانوا أهل رملٍ).

(٧) بمعناه؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢١٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ ؛ أي وقد مضَتِ الرسُلُ من قبلِ هودٍ ومن بعدهِ إلى قومِهم، ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي لَمْ يُبعَثْ رسولاً قبلَ هودٍ ولا بعدَهُ إلاَّ بالأمرِ بعبادة اللهِ وحدَهُ، وهذا كلامٌ اعترض بين إنذار هود وكلامهِ لقومه، ثم عادَ إلى كلامِ هودٍ لقومه بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ تقديرُ الكلامِ: إذ أنـذرَ قومَهُ بالأحقافِ وقال: إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم، ويحتملُ أن يكون المرادُ بهذا العذاب عذابَ الدُّنيا، ويحتمل عذابَ الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ؛ أي قالوا: يا هودُ أجئتَنا لتصرفَنا عن عبادةِ آلهتنا بالإفكِ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ ؛ من العذاب، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ إنَّ العذابَ نازلٌ بنا، ﴿ قَالَ ﴾ ، لهم هودٌ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ بمجيءِ العذاب ، ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، يعلمُ متى يأتيكم العذابُ وأنا ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ ؛ إليكم من الوحي والإنذار، والمعنى: إنما أنا مُبلِّغٌ، والعلمُ بوقتِ العذاب عند الله، ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أمرَ اللهِ وعقابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأوا العذابَ الذي خوَّفُوا به عارضاً كهيئةِ السَّحاب تستقبلُ أودِيَتَهم التي كانوا إذا رأوا الغيمَ من نواحيها كانت سَنتهم سَنة خصبٍ، ظنُّوهُ سحابَ خيرٍ، ﴿ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ؛ أي هذا الذي وعَدتَنا به سحابٌ قد عرضَ في السَّماء مُمطِرُنا، فقال لهم هود: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي ريحُ الدَّبُور جاءت من قِبَلِ المغرب فيها عذابٌ أليم وجيع لكم.

قال المفسِّرون: كان عادٌ قد حُبسَ عنهم المطرُ أيَّاماً، فَسَاقَ اللهُ إليهم سحابةً سوداء فخرَجت عليهم من وادٍ لهم يقالُ له: الْمُغِيثُ، فلمَّا رأوهُ مستقبلَ أودِيتهم استكبَروا وقالوا: (هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) غيمٌ فيه مطرٌ، فقال هودُ: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ) ثُم بيَّنَ ما هو؛ فقالَ: (رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ ؛ أي تُهلِكُ كلَّ شيءٍ مرَّت به من الناسِ والدواب والأموالِ، ﴿ فَأَصْبَحُواْ ﴾ ؛ يعني عاداً؛ ﴿ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا

مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ ؛ قال الزجاج: (معناهُ لا ترَى شيئاً إلاَّ مساكنَهم، والمعنى: لا ترَ أيُّها المخاطَبُ إلاَّ مساكِنَهم، لأنَّ السُّكَّانَ والأنعامَ بادت بالريحِ)(١).

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ)، وعن ابنِ عبَّاس قالَ:(لَمَّا رَأوا الْعَارِضَ قَامُوا، فَأَوَّلُ مَا عَرَفُوا أنَّهُ عَذابٌ رَأوا مَا كَانَ خَارجاً مِنْ دِيَارهِمْ مِنَ الرُّعَاةِ وَالْمَوَاشِي تَطِيرُ بهِ الرِّيحُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرَأوا الْفَسَاطِيطَ وَ الضَّعَائِنَ تُرْفَعُهَا الرِّيَاحُ كَأنَّهَا جَرَادٌ فَدَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَأغْلَقُوا عَلَى أنْفُسِهِمُ الأَبْوَابَ، فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَقَلَعَتْ أبْوَابَهُمْ وَاحْتَمَلَتْهُمْ إلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ هَرَعَتْهُمْ وَأهَالَتْ الرِّمَالَ، فَكَانُوا تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيَّامٍ حُسُوماً لَهُمْ أنِينٌ، ثُمَّ أمَرَ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ فَاحْتَمَلَتْهُمْ فَرَمَتْ بهِمْ فِي الْبَحْرِ)(٢).

وقرأ الأعمشُ وحمزة وعاصم ويعقوب (فَأصْبَحُوا لاَ يُرَى) بياءٍ مضمومة (إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) بالرفع أي لا ترَى الناسُ إلاَّ مساكنَهم لأنَّهم كانوا تحتَ الرَّملِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي هكذا نَجزي مَن أجرمَ جُرمَهم بمثلِ ما جازَيناهم. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَأى الرِّيحَ فَزِعَ، وَقَالَ: [اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أرْسِلَتْ بهِ، وَأعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا أرْسِلَتْ بهِ] وَكَانَ يَقُومُ وَيَقْعُدُ وَيَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! فَيَقُولُ: [إنِّي أخَافُ أنْ تَكُونَ مِثْلَ قَوْمِ هُودٍ حَيْثُ قَالُوا: هَذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا](٣).

---

(١) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٤٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس). وأخرجه أبو الشيخ في العظمة: ص٢٨١: الرقم (٣٨/ ٨٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صلاة الاستسقاء: باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم: الحديث (١٥/ ٩٨٨). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٤٩)، وقال: حسن. وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٤٩؛ قال السيوطي:(أخرجه عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ ﴾ ؛ الخطـابُ لأهـلِ مكَّة، والمعنى: ولقد مكَّنا عَاداً فيما لم نُمكِّنكُم فيه من البَسطَةِ في المالِ والولـدِ وزيـادة القوَّةِ والقامَةِ وشدَّة الأبدانِ، قال المبرِّدُ: (مَا) في قَوْلِـهِ (فِيمَـا) بمَنْزِلَـةِ (الَّـذِي) و(إنْ) بمَنْزِلَةِ (ما)[1].

وتقديرهُ: ولقد مكَّنَّاهم في الذي مـا مكنَّـاكم فيـه، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ ؛ أي قُلوباً يعقلون بها فلم ينفعهم ذلك من عذاب الله إذ نزلَ بهم بسبب أنَّهم، ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ دلائـلِ الله، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي نزلَ بهم عقابُ استهزائِهم بالرُّسلِ، أخبرَ اللهُ أنَّهم أعرَضُوا عن قبولِ الْحُجَجِ والتفكُّر فيما يدلُّهم على التوحيدِ ما أعطاهم اللهُ من الحواسِّ التي تدرَكُ بها الأدلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ؛ هذه زيادةُ التخويـفِ لأهل مكَّة، والمعنى: ولقد أهلكنا ما حولكم من أهلِ القُرَى مثلَ عادٍ وقوم تُبَّعٍ باليمنِ وقومِ صالح بالحِجْرِ وقوم لوطٍ على طريقكم بالشَّـام، أرادَ بـالقُرَى الْمُهلكَـةِ بـاليمنِ والشَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ وبيَّنَّا لكم الآيـاتِ في كلِّ وجهٍ لكي تَرجِعُونَ من الكفرِ إلى الإيمانِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وبيَّنا الآياتِ لعلَّ أهـلَ القُرَى يرجِعون.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ ؛ فهلاَّ حين نزلَ بهم العذابُ أعانَهم الذين عبَدُوهم مـن دون الله ليُقرِّبوهـم إلى اللهِ في زَعمِهم، وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي بـل مـا نفعُوهـم، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّ دُعاءَهم آلهتَهم هـو إفْكُـهم وافـتراؤُهم، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، يعني اتِّخاذهم الآلهةَ من دون اللهِ هو كَذِبُـهم وافـتراؤُهم علـى اللهِ أنَّها آلهة.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣٤٠؛ قال الزجـاج: (..(إنْ) هـهنا في معنـى (مـا) و(إنْ) في النفي مع (ما) التي في معنى (الذي) أحسنُ في اللفظ من (ما)...).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ؛ معناهُ: اذكُر إذ وجَّهنا نفراً من الجنِّ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّـا آيَسَ مِـنْ إسْلاَمِ أهْلِ مَكَّةَ، خَرَجَ إلَى الطَّائِفِ لِيَدْعُوَهُمْ إلَى الإسْلاَمِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الطَّائِفِ رَاجِعاً إلَى مَكَّةَ[1] وَوَصَلَ بَطْنَ نَخْلَةَ، قَامَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي صَـلاَةِ الْفَجْـرِ، فَمَـرَّ بـهِ نَفَـرٌ مِـنْ أشْرَافِ جِنِّ نَصِيبِينَ مِنَ الْيَمَنِ فَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا تِسْعَةَ نَفَرٍ)[2]، وقـال الكلـبيُّ ومقـاتل[3]: (كَـانُوا سَـبْعَةً صُرِفُوا إلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْتَمِعُوا مِنْهُ وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ). وهـو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (يَسْـتَمِعُونَ الْقُرْآنَ).

فلمَّا انتهَوا إلى النبيِّ ﷺ قالَ بعضُهم لبعض: اسكتُوا حتـى تَسـتَمِعوا قـراءَتـهُ، وذلك معنى قولهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ ؛ أي فلما فرغ مـن التـلاوةِ قال بعضُهم لبعض: اسكتُوا حتى تَستمعوا قراءته، وإنما قالوا ذلك لأنهم سَمعوا شـيئاً لم يسمعوا مثلَهُ، فلما فرغ من القرآن انصرَفُوا إلى قومِهم مُخوِّفين لهم بـالقرآن، وذلـك معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، أي فلمـا فـرغ من التلاوةِ انصرفوا إلى قومهم مُنذرين؛ أي مُحذِّرين إياهم عذابـاً إن لم يُؤمنـوا، وهـذا قاله[4] سعيدِ بن جُبير وجماعةٍ من أئمَّة الخبرِ.

وقالَ آخَرُون: بل أمِرَ رسـولُ اللهِ ﷺ أن يُنـذِرَ الجـنَّ ويدعُوَهـم إلى اللهِ، فقـرأ عليهم القرآنَ، فصرفَ اللهُ نفراً من الجنِّ وجَمَعـهم لـه، فقـال ﷺ لأصحابـهِ: [إنِّـي اُمِرْتُ أنْ أقْرَأ عَلَى الْجِـنِّ اللَّيْلَـةَ، فَـأيُّكُمْ تَبعَنِـي] فَـأطْرَقُوا، فَقَـالَ لَـهُمْ مَـرَّةً ثَانِيَـةً، فَأطْرَقُوا، فَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً ثَالِثَةً، فَاتَّبَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: (لَـمْ يَحْضُرْ مَعَهُ أحَدٌ غَيْرِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى إذا كُنَّا بأعْلَى مَكَّةَ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ شِعْباً يُقَالُ لَهُ

(١) في المخطوط: (فلما انصرف إلى مكة راجعاً إلى مكة) وهو غير مناسب تماماً فأثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٢٦).

(٣) بمعناه؛ قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٨.

(٤) في المخطوط: (وهذه مقولة).

شِعْبُ الْحِجَوْنِ، وَحَطَّ لِي ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ أَجْلِسَ فِيْهِ، وَقَالَ: [لاَ تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أَدْعُوَ إِلَيْكَ].

ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَامَ فَافْتَتَحَ الْقُرْآنَ، فَجَعَلْتُ أَرَى أَمْثَالَ النُّور تَهْوِي، وَسَمِعْتُ لَفْظاً شَدِيداً حَتَّى خِفْتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، وَغَشِيَتْهُ سَوْدَةٌ كَبِيرَةٌ حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا سَمِعْتُ صَوْتَهُ، ثُمَّ طَفِقُوا يَتَقَطَّعُونَ أَمْثَالَ قِطَعِ السَّحَاب ذاهِبِينَ.

فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ الْفَجْرِ، وَقَالَ: [أَنِمْتَ؟] قُلْتُ: لاَ وَاللهِ؛ وَلَقَدْ هَمَمْتُ مِرَاراً أَنْ أَسْتَغِيثَ بِالنَّاسِ حَتَّى سَمِعْتُكَ تُفْزِعُهُمْ بِعَصَاكَ تَقُولُ: [اجْلِسُوا] فَقَالَ: [لَوْ خَرَجْتَ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ أَنْ يَخْتَطِفَكَ بَعْضُهُمْ] ثُمَّ قَالَ: [هَلْ رَأَيْتَ ؟] فَقُلْتُ: نَعَمْ؛ رَأَيْتُ رِجَالاً سُوداً.

قَالَ: [أُوْلَئِكَ جِنُّ نَصِيبِينَ، سَأَلُونِي الْمَتَاعَ فَمَنَعْتُهُمْ بِكُلِّ عَظْمٍ حَلِيلٍ وَرَوْثَةٍ وَبَعْرَةٍ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَذِّرُهَا لِلنَّاسِ عَلَيْنَا، فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُسْتَنْجَى بِالْعَظْمِ وَالرَّوْثِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا يَعْنِي ذلِكَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: [إِنَّهُمْ لاَ يَجِدُونَ عَظْماً إِلاَّ يَجِدُونَ عَلَيْهِ لَحْمَهُ يَوْمَ أُكِلَ، وَلاَ رَوْثَةً إِلاَّ وَجَدُوا فِيْهَا حَبَّهَا يَوْمَ أُكِلَتْ].

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ سَمِعْتُ لَفْظاً كَثِيراً شَدِيداً، قَالَ: [إِنَّ الْجِنَّ تَدَارَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَهُمْ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيَّ فَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ]. ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: [هَلْ مَعَكَ مَاءٌ ؟] فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَعِي نَبِيذُ تَمرٍ فِي إِدَاوةٍ، فَاسْتَدْعَاهُ فَصَبَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ بِهِ وَقَالَ: [ثَمَرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ][(١)].

وعن رسول الله ﷺ قال: [الْجِنُّ عَلَى ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ][(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٢٩ و٢٤٢٣٠ و٢٤٢٣١). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص١٧٧: الحديث (٥٧٣)، وليس فيه (كلاب) ولفظه: [وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ]. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا) أي قالَ بعضُهم لبعضٍ: أَنْصِتُوا، فأنصتُوا واستَمعوا القرآنَ حتى كان يقعُ بعضُهم على بعضٍ من شدَّة رغبتِهم في سماعِ القرآن؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَمَّا قُضِيَ) أي فلمَّا فرغَ من تلاوةِ القرآن، وقرأ لاحقُ ابن حميد[1] (قَضَى) بفتح القافِ والضاد يعني النبيَّ ﷺ؛ ثُم جعلَ النبيُّ ﷺ أولئكَ النفرَ من الجنِّ رسُلاً إلى قومِهم.

وأسماءُ أولئك النَّفرِ: شاضر وماصر ومنشي وماشي والأحقب[2] وعمرو بن جابر وزوبعة.

وعن ابنِ مسعود ﷺ: (أنْ كَانَ فِي نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ يَمْشُونَ، وَرُفِعَ لَهُمْ إعْصَارٌ، ثُمَّ جَاءَ إعْصَارٌ أعْظَمَ مِنْهُ، ثُمَّ انْقَشَعَ فَإذا حَيَّةٌ قَتِيلٌ، فَعَمَدَ مِنَّا رَجُلٌ إلَى ردَائِهِ فَشَقَّهُ وَكَفَّنَ الْحَيَّةَ بِبَعْضِهِ وَدَفَنَهَا! فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ إذا امْرَأتَانِ تَسْألاَنِ: أيُّكُمْ دَفَنَ عَمْرَو بْنَ جَابرٍ ؟! فَقُلْنَا: مَا نَدْري مَنْ عَمْرُو بْنُ جَابرٍ! فَقَالَتَا: إنْ كُنْتُمُ ابْتَغَيْتُمُ الأَجْرَ فَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ، إنَّ فَسَقَةَ الْجِنِّ اقْتَتَلُواْ مَعَ مُؤْمِنِيهِمْ، فَقُتِلَ عَمْرُو بْنُ جَابرٍ وَهُوَ الْحَيَّةُ الَّتِي رَأيْتُمْ وَهُوَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُواْ الْقُرْآنَ)[3].

وذكر: أنَّ حيةً دخلت على رجل من التابعين وهي تلهث عطشى فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأتي من الليل فسلَّم عليه وأخبر أن تلك الحية كانت رجُلاً من جنِّ نصيبين اسمه زوبعةُ.

=الحديث(٣٧٥٤)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: باب بدء الخلق: الحديث (٦١٥٦) كلهم عن ثعلبة الخشني. وفي إسناده قال الشيخ شعيب: (إسناده قوي). وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: ص٣٨٨ بإسناده واللفظ يطابق ما نقله المصنف رحمه الله. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٣٦؛ وقال: (رواه الطبراني ورجاله وثقوا، وفي بعضهم خلاف).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (وقرأ لاحقُ بن حميد وخبيب بن عبدالله بن الزبير) وذكره.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد، ومنهم عمرو بن جابر ذكره ابن سلام...).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٤؛ قال القرطبي: (ذكره ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سمَّاه).

وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز أنه كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها، فاذا قائل يقول يا سَرْق اشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول ستموت بأرض فلاة فيكفنك ويدفنك رجل صالح، فقال من أنت رحمك الله ؟ فقال رجل من الجن الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسَرْق[1]، وهذا سرق قد مات.

وقد قَتَلَتْ عائشةُ رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمعُ وعائشة تقرأ فأُتِيَتْ في المنام فقيل لها: إنكِ قد قتَلْتِ رجُلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخلَ على حريمِ رسول الله ﷺ، فقيل لها: ما دخلَ عليكِ إلاّ وأنتِ متقنِّعة، وما جاء إلاّ ليستمعَ الذِّكرَ، فأصبحت عائشةُ فزعةً واشترت رقاباً فأعتقَتهم[2].

ويقالُ: الذين جاءُوا ليستَمِعوا القرآنَ كانوا يهُوداً فأسلَمُوا، ولذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ ؛ يعني مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ فاستجابَ لهم من قومِهم نحو من سبعينَ رجُلاً من الجنِّ، فرجَعُوا إلى رسولِ الله ﷺ فواقَفُوهُ بالبطحاءِ، فقرأ عليهم القرآنَ، فقال بعضُهم: أمَرَهم ونَهاهم.

واختلفَ العلماءُ في مؤمني الجنِّ، فقال بعضُهم: ليس لِمُؤمِني الجنِّ إلاَّ نجا منهم من النار، وتأوَّلوا فيه، قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أليِمٍ)، وعن الليث أنه (الجنُّ ثوابُهم أن يُجارُوا من النار، ثم يقالُ لهم: كونوا تُراباً مثلَ البهائمِ)[3]. وقال آخرون: إذا كان عليهم العقابُ في الإساءة، وجبَ أن يكون لهم

---

(١) نقله القرطبي عن السهيلي كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٤.
(٢) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٥.
(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٢. ونقله القرطبي عن أبي حنيفة كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢١٧.

الثوابُ في الإحسانِ مثل الإنسِ، وعن الضحَّاك قال: (الْجِنُّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيَـأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لا يعجِزُ اللهَ ولا يفوتـهُ، ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ؛ الذيـن لا يُجِيبُـونَ الرسُلَ، ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ؛ أي لم يُضعِفْ عـن إبداعِـهنَّ، ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ والمعنى: أليسَ اللهُ بقادر على إحياءِ الموتَى فيما ترون يا أهلَ مكَّة، فإنَّ خلقَ السموات والأرضِ بما فيهنَّ من العجائب والبدائعِ أعظمُ مـن إعادةِ الحياة في الميِّت بعدَ ما كانت فيه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ الآيةُ ظاهرة المعنى.

وقولـهُ تعـالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ؛ وهـم خمسـةٌ أولُوا الكتب والشرائع: مُحَمَّدٌ ﷺ ونـوح وإبراهيـم وموسَى وعيسـى صَلَـواتُ اللهِ عليهم(٢)، وَقِيْلَ: إنَّهم رسلٌ سُلِخُوا من جلودِهم فلم يجزَعُوا.

وَقِيْلَ: أرادَ بأُولِي العزمِ الأنبياءَ كلَّهم، وحرف (مِنْ) علـى هـذا القـول لِتَبيِـين الجنسِ كما في قوله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ﴾(٣)، قال ابنُ يزيـد: (كُـلُّ الرُّسُـلِ كَانُوا أُوْلِي عَزْمٍ)(٤).

---

(١) نقله أيضاً البغوي في معالم التـنزيل: ص١١٩٢. والقرطبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٦ ص٢١٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبـي حـاتم وابـن مردويـه عـن ابـن عباس).

(٣) الحج / ٣٠.

(٤) ذكره بهذا المعنى أيضاً: البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٣. وأخرجه الطبري في جـامع البيـان: الأثر (٢٤٢٤٢).

وقال بعضُهم: كلُّ الأنبياءِ أُولوا عزمٍ إلاَّ يونسَ ، ألاَ ترَى أنَّ نبيَّنا ﷺ نُهي عن أنْ يكون مثلَهُ لخِفَّة وعجلةٍ ظهرت منـهُ حـين ولَّـى مُغَاضِبـاً لقومـهِ، فـابتلاهُ الله بالحوتِ فابتلعَهُ، وَقِيْلَ: أولُوا العزم نُجباءُ الرُّسلِ المذكـورون في سُـورةِ الأنعـامِ وهـم ثمانيةَ عشر، قَالَ اللهُ تَعالَى فيهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾[١].

وقال مقاتلُ: (أُوْلُوا الْعَزْمِ سِتَّةٌ: نُوحٌ صَبَرَ عَلَى أذى قَوْمِهِ وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ، وَإبْرَاهِيمُ صَبَرَ عَلَى النَّارِ، وَإسْحَاقُ صَبَرَ عَلَى الذبْحِ، وَيَعْقُوبُ صَبَرَ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ وَذهَاب بَصَرِهِ، وَيُوسُفُ صَـبَرَ عَلَـى الْبـئْرِ وَالسِّجْنِ، وأَيُّـوبَ صَبَرَ عَلَـى الضُّرِّ)[٢]. قال ابنُ عبَّاس: (الْعَزْمُ: الصَّبْرُ)، وقال القَرَظِيُّ: (الرَّأيُ وَالصَّوَابُ).

وقال الحسنُ: (أُوْلُوا الْعَـزْمِ أرْبَعَـةٌ: إبْرَاهِيـمُ وَمُوسَـى وَدَاوُدَ وَعِيسَـى عَلَيْـهِمُ السَّلاَمُ، أمَّا إبْرَاهِيمُ فَعَزْمُهُ أنَّهُ قِيلَ لَهُ: أسْلِمْ، فَقَالَ أسْلَمْتُ لِرَب الْعَالَمِينَ، وَابْتُلِيَ فِي وَلَدِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ، فَوُجِدَ صَادِقاً وَافِياً فِي جَمِيعِ مَا ابْتُلِيَ بـهِ، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَإذْ ابْتَلَى إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بكَلِمَاتٍ فَأتَمَّهُنَّ﴾[٣]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّـى﴾[٤]، وَأمَّا مُوسَى فَعَزْمُهُ أنَّ قَوْمَهُ كُلَّمَا قَالُوا لَـهُ: إنَّـا لَمُدْرَكُـونَ، قَـالَ: كَـلاَّ إنَّ مَعِـي رَبـي سَيَهْدِين. وَأمَّا دَاوُد فَعَزْمُهُ أنَّهُ أخْطَأ خَطِيئَةً فَبَكَى عَلَيْهَا أرْبَعِينَ سَنَةً. وَأمَّا عِيسَى فَعَزْمُهُ أنْ لَمْ يَضَعْ لَبنَةً عَلَى لَبنَةٍ زُهْداً فِي الدُّنْيَا)[٥].

فكأنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه ﷺ: فاصبرْ كما صبرَ أُولوا العزمِ من الرُّسلِ؛ أي كُـن صَادقاً فيما ابتُليت به مثلَ صدقِ إبراهيمَ ، وكُن واثقـاً بنصـرِ مَـولاكَ مثـلَ ثقـةِ مُوسَى مُهتمّاً بما سلفَ من هفوَاتِكَ مثل اهتمامِ داودَ ، زاهداً في الدُّنيا مثلَ زُهدِ عيسى ، فقالَ الشاعرُ:

---

(١) الآية ٩٠.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣١. ونقل عنـه القرطبي في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٦ ص٢٢٠.

(٣) البقرة / ١٢٤.

(٤) النجم / ٣٧.

(٥) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٢١.

أُوْلُوا الْعَزْمِ نُوحٌ وَالْخَلِيلُ كِلاهُمَا مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبيُّ مُحَمَّدُ

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: [واللهِ لأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَجْهَدُ كَمَا جَهِدُوا، ولاَ قُوَّةٍ إلاَّ بالله][(1)].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ ضَجِرَ بعضَ الضَّجرِ من كُفرهم، وأحبَّ أن ينْزلَ العذابُ بمَن أبَى منهم الإسلامَ، فأُمِرَ بالصَّبرِ وتركِ الاستعجالِ، ثم أخبرَ أنَّ العذابَ منهم قريبٌ، فقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ ؛ من العذاب في الآخرة؛ ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ﴾ ؛ أي إذا عايَنُوا العذابَ صارَ طولُ لُبثِهم في الدُّنيا والقبور كأنَّهُ ساعةٌ، لأنَّ ما مضَى كأنَّه لم يكن وإنْ كان طَويلاً.

وتَمَّ الكلامُ، ثم قال تعالى: ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ وما فيه من البيان بلاغٌ عن الله إليك، والبلاغُ بمعنى التبليغ بلَّغكم مُحَمَّدٌ ﷺ عن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يقعُ العذاب إلاَّ بالعاصِين الخارجين عن أمرِ الله تعالى، وَقِيْلَ: معناهُ: ما يهلكُ إلاَّ مشركٌ أو منافقٌ.

آخر تفسير سورة (**الأحقاف**) والحمد لله رب العالمين

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة رضي الله عنها). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: الحديث(١٨٥٨٣).

سُورَةُ مُحَمَّد ﷺ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَأَرْبَعُون حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٍ وَثَلاَثُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مُحَمَّدٍ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ تَعَالَى أنْ يَسْقِيَهُ مِنْ أنْهَارِ الْجَنَّةِ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: الذين كفرُوا بتوحيدِ الله وصَدُّوا الناسَ عن الإسلامِ، يعني كفارَ مكَّة أضلَّ أعمالَهم؛ أي أبطلَها وأذهبَها فلا أجْرَ لهم فيها وكأنَّها لم تكن، وأرادَ بأعمالِهم إطعامَهم الطعامَ وصِلَتهم الأرحامَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ ؛ أي صدَّقُوا بالقرآن الذي نزلَ على مُحمَّدٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي الصدقُ، ﴿ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ؛ أي غفرَها لهم فلا يُحاسَبون عليها، ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي حالَهم، قال المبرِّدُ: (الْبَالُ: الْحَالُ). وقال ابنُ عبَّاس: (عَصَمَهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ حَتَّى لَمْ يُمْنَعُوا)(2).

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج ٤ ص٣٢٢. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

(2) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٤ بلفظ: (حَتَّى لاَ يَعْصُوا).

وَقِيْلَ: معناهُ: وأظهرَهم على أعدائِهم وقوَّاهم من ضَعفِهم، قال ابنُ عبَّاس ﷺ: (الَّذِينَ كَفَرُوا صَدُّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ أهْلُ مَكَّةَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِلأَنْصَار)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ؛ أي ذلك الإضلالُ والإصلاحُ باتِّباعِ الذين كفرُوا الشِّركَ، ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ، واتِّباعُ المؤمنين التوحيدَ والقرآن، فالشِّركُ هو الباطلُ، والتوحيدُ هو الحقُّ والقرآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ معنى أنَّ مَن كان كَافراً أضلَّ اللهُ عملَهُ، ومَن كان مُؤمناً كفَّرَ اللهُ سيِّئاته وأصلحَ بالَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ ؛ أي إذا لَقِيتمُوهم في القتالِ فاضْرِبُوا رقابَهم؛ أي اقتلُوهم، والمعنى: فاضرِبُوا الرقابَ ضَرباً، وهذا مصدرٌ أُقِيمَ مقامَ الأمرِ، كما في قولهِ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[2]، وَقِيْلَ: انتصبَ قولهُ (فَضَرْبَ) على الإغراءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ ؛ أي حتى إذا أكثرتُم القتلَ فيهم وغلَبتُموهم وبالَغْتُم في قتلِهم فاستوثِقُوهم بالأسرِ، ولا يكون الأسرُ إلاَّ بعد المبالَغةِ في القتلِ، كما قال اللهُ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾[3]، والمعنَى حتى إذا قهرتُموهم وغلَبتُموهم وصَاروا أسَارَى في أيدِيكم فشُدُّوا وثاقَهم كَيلاَ يهربُوا، يقال: أوْثَقَهُ أي إيْثَاقاً وَوثَاقاً إذا شدَّ أسْرَهُ لِئَلاَّ يُفْلِتَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإما أن تَمُنُّوا عليهم بعد أن تأسِرُوهم وتطلقوهم بغيرِ فداءٍ، وإما تُطلِقُوهم يُفْدَوْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٤٥). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٤٥٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٥٥)، قال: (وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) البقرة / ٩٢.   (٣) الأنفال / ٦٧.

(٤) التوبة / ٥ .

بأسرَاكُم عندَهــم أو بمـالٍ، والمعنـى: فإمَّـا بعـدَ أن تأسِـرُوهم إما مَنَنْتُـمْ عليـهم مَنّـاً فأطلقتُموهم بغيرِ عِوَضٍ، وإما أنْ تُفْدُوا فِدَاءً.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُـوخَةٌ بقَوْلِـهِ ﴿فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١]). وَإلَيْهِ ذهَبَ أبو حَنِيفَـةَ وقـالَ: (لاَ يَجُـوزُ الْمَـنُّ عَلَـى الأَسِيرِ وَلاَ الْفِدَاءُ بالْمَالِ وَلاَ بغَيْرِ الْمَالِ مِنَ الأَسَارَى، وَلاَ يُبَاعُ السَّبْيُ مِنْ أهْلِ الْحَرْبِ)[٢].

ولم يختلف أهلُ التفسيرِ في أنَّ التوبةَ نزلت بعدَ سُورَةِ مُحَمَّـدٍ ﷺ، ولا خـلافَ بين العلماءِ في جواز قتل الأسيرِ وجـواز قِسمَةِ الأُسَـارَى بـين المسـلمِين إذا لم يكـن الأُسارَى من العرب، وإنما اختَلَفُوا في جواز الْمَنِّ عليهم في مَفَادَاتِهم بالمالِ أو النفس.

قال الشافعيُّ: (يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَيْهِمْ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَنَّ عَلَى أبي عَزَّةَ الشَّاعِرِ يَـوْمَ بَدْرٍ عَلَى أنْ لاَ يُقَاتِلَ، فَرَجَعَ إلَى مَكَّةَ ثُمَّ عَادَ بَعْدَ ذلِكَ لِلْقِتَال فَأُسِرَ، فَـأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بقَتْلِهِ)[٣]. فأجابَ أصحابُنا عن هذا إنَّما مَنَّ عليـه كمـا مَـنَّ العـربَ، وكـان لا يجـوزُ استرقاقهُ، وقال أبو يوسف ومحمَّد: (تَجُوزُ مُفَادَاةُ الأَسِيرِ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (حَتَّـى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أوْزَارَهَـا) أي حتـى يضـعَ أهـلُ الحـرب أسلِحتَهم، والأوْزَارُ في اللغة: الأَثْقَالُ، وَقِيْلَ: المرادُ بـالأوزار هنـا الآثـامُ، وقـال ابـنُ عبَّاس: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ (حَتَّـى تَضَـعَ الْحَـرْبُ أوْزَارَهَـا) أيْ حَتَّـى لاَ يَبْقَـى أحَـدٌ مِـنَ

---

(١) ليس هذا الرأيُ على إعمامه، فهو خاصٌّ بالعرب، قال التهنوي: (فإنا لا نجيز استرقاق مشـركي العرب، وهم المـرادون بقولـه تعـالى: ﴿فَـإذَا انسَـلَخَ الأَشْـهُرُ الْحُـرُمُ فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَـإنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصَّـلاَةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهم الذين ضربَ اللهُ لهم الأجل، أجلهم أربعة أشهر بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ ثم أمرَ بقتلِهم بعد انسلاخ أربعة أشهر، ولم يرخِّص في المـنِّ عليـهم ولا المفـاداة بهم، ولا في استرقاقهم). ينظر: إعلاء السنن: مج ٧ ج ١٢ ص١١٠-١١١.

(٢) ينظر: كتاب الأم للشافعي: كتاب اختلاف الحديث: ج ٨ ص٤٩٤: باب قتل الأسرى والمفـاداة بهم والمن عليهم.

(٣) في إعلاء السـنن: مـج ٧ ج ١٢ ص١١٤؛ قـال التـهانوي: (وقـال أبـو يوسـف: تجوز المفـاداة بالأسرى قبل القسمة لا بعدها. وعند محمد تجوز بكل حال).

الْمُشْرِكِينَ). وقال مجاهدُ: (حَتَّى لاَ يَكُونَ دِينٌ إلاَّ الإِسْلاَمُ)[١].

وَقِيْلَ: حتى تضعَ حربُكم وقتالُكم أوزارَ المشركين وقبائحَ أعمالِهم بأنْ يُسلِمُوا فلا يبقَى دينٌ غيرُ الإسلامِ، ولا يُعبَدُ وثنٌ. وقال الفرَّاءُ: (مَعْنَاهُ: حَتَّى لاَ يَبْقَى إلاَّ مُسْلِمٌ أوْ مُسَالِمٌ)[٢].

وَقِيْلَ: معناهُ: حتى تضعَ أهلُ الحرب آلَتها وعُدَّتَها، وآلَتُهم أسلِحَتُهم فيُمسِكُوا عن الحرب، وحربُ القومِ الْمُحاربُونَ كالرَّكْب والشُّرب، ويقال أيضاً للكِرَاعِ: أوْزَارٌ، قال الشاعرُ وهو الأعشَى:

وَأعْدَدْتَ لِلْحَرْبِ أوْزَارَهَا ... رِمَاحاً طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورَا

ومعنى الآية: أثْخِنُوا المشركين بالقتلِ والأسرِ حتى يظهرَ الإسلامُ على الأديان كلِّها، ويدخلُ فيه أهلُ مكَّة طَوْعاً وكَرْهاً، ويكون الدِّينُ كلُّه للهِ، فلا يحتاجُ إلى قتال ولا إلى جهادٍ، وذلك عند نُزول عيسَى عليه السلام من السَّماء فيكسِرُ الصليبَ ويقتلُ الخنْزيرَ، يَلقَى الذئبُ الشاةَ فلا يتعرَّضُ، ولا تكون عداوةٌ بين اثنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي ذلك الذي أمِرْتُم به من الجهاد[٣]، ولو يشاءُ الله لانتقمَ منهم؛ أي من الكفَّار من غيرِ أن يأمُركم بقتالِهم، المعنى: ولو يشاءُ اللهُ لانتصرَ من الكفَّار بإهلاكِهم، ويعذِّبُهم بما شاءُ، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؛ ولكن يأمُركم بالحرب ليَبلُوَ بعضَكم بعضاً، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ صَارَ إلَى الثَّوَاب، وَمَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ صَارَ إلَى الْعَذَاب)، يعني: ولكن ليتَعبَّدَكم بالقتال تعويضاً للثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾؛ قرأ العامَّةُ (وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) وقرأ أبو عمرو (قُتِلُوا) بضمِّ القاف وكسرِ التاء مخفَّفاً، وقرأ الحسنُ بضمِّ القاف وكسرِ التاء مشدَّداً، وقرأ عاصم والجَحْدَريُّ: (قَتَلُوا)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٦٢).

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٥٧.

(٣) في المخطوط: (الجهات) والصحيح: (الجهاد)؛ لأن سياق النص يقتضيه.

بفتحِ القافِ والتاءِ، والوجهُ قراءةُ العامَّة لأنَّها تشملُ مَن قاتلَ قُتِلَ أو لَمْ يُقْتَلْ، وقراءة أبي عمرو تخصُّ المقتولِين، ولأنَّه تعالى قال (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) قال ابنُ عباس: (سَيَهْدِيهِمْ إلَى أرْشَدِ الأمُورِ، وَيَعْصِمُهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا)، وهذا لا يُحسَنُ في وصفِ المقتولِين.

ومعنى الآيةِ: والذين قُتِلُوا في سبيلِ الله يومَ بدرٍ فلَنْ يُبطِلَ اللهُ ثوابَ أعمالِهم كما أبطلَ ثوابَ أعمالِ الكفَّارِ؛ و﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾؛ إلى ثوابِهِ وجنَّتِهِ، ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾؛ في النَّعيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾؛ أي بيَّنها لهم حتى عرَفُوها من غيرِ استدلالٍ، وذلك أنَّهم إذا دخَلُوا الجنةَ تعرَّفُوا إلى منازلِهم. وَقِيلَ: معناهُ: طيَّبَها لَهم من العُرْفِ وهي الرائحةُ الطيِّبة، وطعامٌ مُعرَّفٌ؛ أي مطيَّبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾؛ أي إن تَنصُروا دينَ اللهِ ونبيَّهُ ﷺ ينصرْكُم بالتوفيقِ والكفايةِ والإظهارِ على الأعداءِ، ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾؛ عندَ القتالِ بتقويةِ قُلوبكم، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾؛ أي فمَكرُوهاً لهم وسوءاً، والتَّعْسُ في اللغةِ: الانحطاطُ والعثُورُ، يقال: تَعَسَ يَتْعَسُ إذا انْكبَّ وعثَرَ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ: فِي الدُّنْيَا الْعَثْرَةُ، وَفِي الآخِرَةِ التَّرَدِّي فِي النَّارِ).

وانتصبَ قولهُ (فَتَعْساً لَهُمْ) على الدُّعاءِ؛ أي أتْعَسَهُمُ اللهُ تَعْساً، قال الفرَّاءُ: (هُوَ نَصْبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ)، وأصلُ التَّعْسِ في الدوابِ والناسِ، وهو أن يُقالَ للعاثرِ: تَعْساً؛ إذا لَمْ يُريدُوا قِيامَهُ، وضِدُّهُ لَعًا إذا أرادُوا قِيامَهُ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ﴾؛ أي أبْطَلَها وأحبَطَها لأنَّها كانت في طاعةِ الشيطان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾؛ أي ذلك التَّعْسُ والإضلالُ بأنَّهم كرِهُوا ما أنزلَ اللهُ على نبيِّه ﷺ وبيَّن من الفرائضِ من الصَّلاة والزكاةِ، ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ﴾؛ لأنَّها لم تكن في إيمانٍ.

---

(١) ل ع ا: يقال للعاثر: (لَعًا) لكَ، وهو دعاء له بأن ينتعش. ونقله أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٦٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّةَ، ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ من الأممِ المكذِّبةِ، ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ منازلَهم وأهلكَهم بالعذاب، والتدميرُ: الهلاكُ، ثم يوعِدُ مشركي مكَّةَ فقال: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ إنْ لم يُؤمِنوا؛ أي أمثالُ عقوبتِهم وأشباهُ عقوباتِ مَن كان قبلَهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ أي ذلكَ النَّصرُ للمؤمنين والهلاكُ للكافرين بأنَّ اللهَ وليُّ الذين آمَنُوا يلِي أمرَهم ويتولَّى نصرَهم، ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي ليس لَهم وليٌّ يُعِينُهم ولا ناصرَ يُنْجِيهم من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ تأكلُ وتشربُ ولا تدري ما في غدٍ، كذلك الكفارُ لا يلتَفِتُونَ إلى الآخرة، ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي منزِلُهم ومُقامُهم ومصيرُهم.

وأرادَ بالتمتُّعِ التعيُّشَ في الدنيا في الجهلِ، وشبَّهَ أكلَ الكافرِ بأكلِ الأنعامِ لأنَّهم يأكلُون للشَّبَعِ لا يَهمُّهم ما في غدٍ، والمؤمنُ هِمَّتُهُ مصروفةٌ إلى أمرِ دينه يأكلُ للقيامِ بعبادة اللهِ لا للشّبعِ، ويكون قصدهُ من التَّمتُّعِ إعفافَ نفسه وزوجتِهِ، وابتغاءَ ما كُتِبَ من الولدِ.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ، فَإنْ كَانَ لاَ بُدَّ: فَثُلُثاً لِلطَّعَامِ وَثُلُثاً لِلشَّرَاب وَثُلُثاً لِلنَّفَسِ][1]. وقال الحسنُ: (وَهُوَ أنَّكُمْ إذا أشْبَعْتُمْ عَصَيْتُمْ شِئْتُمْ أوْ أبَيْتُمْ).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٠ ص٢٢٤: الحديث (٦٤٤ و٦٤٥) وإسناده صحيح. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الرقائق: الحديث (٦٧٤)، وكتاب الأطعمة: الحديث (٥٢٣٦) وإسناده صحيح.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ ؛ هذا تحذيرٌ لأهلِ مكَّة بقولهِ: كم أهلَكنا من أهلِ قريةٍ مَـن كـان أكـثرَ عدداً وأبسطَ مُلكاً ويَداً من أهلِ قريتِـكَ؛ يعـني مكَّـة الـتي أخرجَتْـكَ أهلُـها، ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ فلم يكن لَهم ناصرٌ يُنجِيهم من عذاب الله، فحَذِّرْ قومَكَ يـا مُحَمَّدُ مثلَ حالَتِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: حالُ مَن كان على نصرهِ من ربهِ ويقين كحالِ مَن زُيِّنَ له قُبْـحُ عملـهِ فيعبُـدوا الأوثانَ، ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ في عبادتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ ﴾ ؛ أي صِفَةُ الجنَّة التي وُعِـدَ المتَّقـون الشِـركَ والكبـائرَ، ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ ؛ أي مُتغيِّر طعمـهُ وريحهُ، يقالُ: آسَنَ الماءُ يَأْسَنُ أُسُوناً وأَسَناً إذا تغيَّرَ، وهو الذي لا يشتهيه مِن نَتَنِهِ فـهو آسِنٌ وأسِنٌ، مثلُ حَـاذِرٍ وحَـذِرٍ. وَقِيْـلَ: إن الآسِـنَ مـا يعـرَضُ أن يتغـيَّر، والأَسِـنُ بالقَصْرِ: ما تغيَّرَ في الحالِ، وقرأ ابنُ كثير (أسِنٍ) بالقصرِ[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ ؛ أي لم يَحْمَـضْ كمـا تَحْمَضُ وتتغيَّرُ ألبانُ الدُّنيا؛ لأنه لم يخرُجْ من ضُروعِ الأنعـامِ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ؛ بخلاف خمرِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا تخلُو من المرارةِ، وعن مـا يحـدثُ فيـها مـن أنواعِ المرضِ ومن العقوبةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ ﴾ ؛ أي مُصفًّـى مـن الأقـذار، مـن العِكْرِ والكَدَرِ، بخلافِ عسلِ الدُّنيا الذي يكون من بطونِ النَّحـلِ، فإنـه لا يخلُـو مـن الشَّعرِ وغيرِهِ. قال مقاتلُ: (أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةُ تَتَفَجَّرُ مِنَ الْكَوْثَـرِ إلَـى الْجَنَّـةِ)[2]. ويقالُ: إنَّها تتفجرُ من تحتِ شجرة طُوبَى.

---

(١) أسِنٍ: بزنَةِ حَذِرٍ، وهو اسم فاعل من أسِنَ بالكسر يَأْسِنُ، فهو أسِنٌ، كحَذِرَ يَحْـذَرُ فـهو حَـذِرٌ. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٣٦. واللباب في علوم الكتاب: ج ١٧ ص٤٤٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ؛ أي ولَهم في الجنَّة من جميعِ أنواع الثَّمراتِ والفواكهِ مما عَلِموهُ وما لَمْ يعلموهُ، ومما سَمعوهُ وما لَمْ يسمعوهُ، ظاهرُها مثلُ باطنِها، لا يخالِطُها قشرٌ ولا رذالٌ[١] ولا نَوى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ؛ أي ولَهم مع ذلك النعيمِ المقيم مغفرةٌ مِن ربهم لذنوبهم، فلا يُذكرُ شيءٌ من معاريضِهم في الجنَّة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد ستَرَها عليهم فهي بمنْزلة ما لَمْ يُعمَلْ، ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ ؛ أي مَن كان في هذا النعيمِ كمَنْ هو خالدٌ في النار (وسُقُوا مَاءً حَميماً) شَديدَ الحرِّ تَسْتَعرُ عليه جهنَّم منذُ خُلِقت (فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ) في الجوفِ من شدَّة الحرِّ، والأمعاءُ: جميعُ ما في البطنِ من الحوايَا، واحدُها مِعَاءٌ، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[٢].

وعن رسول اللهِ ﷺ أنه قالَ: [إذا شَرِبَهُ صَاحِبُهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ][٣]. وعن مُحمَّد بن عبدِالله الكاتب قال: قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ، فَلَمَّا صِرْتُ إلَى طِيزْنَابَاذ ذكَرْتُ بَيْتَ أبي نُوَاسٍ[٤]:

بطِيزْنابَاذ كَرْمُ مَا مَرَرْتُ بِهِ ... إلاَّ تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ شَرِبَ الْمَاءَ

فهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ أسْمَعُهُ وَلاَ أراهُ:

فِي الْجَحِيمِ حَمِيمٌ مَا تَجَرَّعَهُ خَلْـ ... ـقٌ إلاَّ مَا بَقِي لَهُ بَطْنُ أمْعَاءِ

---

(١) في لسان العرب: ج ٥ ص١٩٩؛ قال ابن منظور: (ورذالَةُ كُلِّ شيء أردؤهُ).

(٢) الحج / ٢٠ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٦٥. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٢٨٣). والطبراني في المعجم الكبير: الحديث (٧٤٦٠). والترمذي في الجامع: أبواب صفة جهنم: الحديث (٢٥٨٣)، وقال: (هذا حديث غريب).

(٤) قال أبو نؤاس:

فتَكَتْنِي طِيزنَابَا ... دُ وَقَدْ كُنْتُ تَقِيَّا

إذْ تَرَكْتُ الْمَاءَ فِيهَا ... وَشَرِبْتُ الْخُسْرَوِيَّا

أرْضُ كَرْمٍ تَجْلِبُ الدَّ ... هْرَ شَرَاباً سَابِرِيَّا

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ خطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَعَـابَ الْمُنَافِقِينَ فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالُوا لِعَبْدِاللهِ بْنِ مَسْـعُودٍ: مَـاذا قَـالَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْمِنْبَرِ السَّاعَةَ ؟ فَقَدْ سَمِعْنَا قَوْلَهُ وَلَمْ نَفْهَمْهُ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَهَاوُنٍ وَاسْتِخْفَافٍ(١).

والآنِفُ: السَّاعَةُ؛ مِن قولِكَ: اسْتَأْنَفْتُ الشَّيءَ إذا ابتدأتَهُ، والمعنى: ومِن هؤلاءِ الكفَّار مَن يستمعُ إليك: المنافِقُون يستمِعون قولَكَ فلا يَعُونَهُ ولا يفهمونَهُ تَهَاوُناً منهم بذلكَ وتثَاقُلاً، فإذا خرَجُوا قالوا للَّذين أوْتُوا العلمَ من الصحابـةِ: مـاذا قـالَ مُحَمَّـدٌ الآنَ، وذلك أنَّهم سألُوا ابنَ مسعودٍ وابنَ عبَّاس عمَّا قالَ النبيُّ ﷺ استهزاءً وتَـهاوُناً، وهذا كالرجُلِ يستمعُ إلى غيرِ سماعٍ استخفافاً، ثم يقولُ بعدَ ذلـك لأصحابـهِ: أليـس الذي كانَ يقولُ فلانٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي خَتَمَ عليها بالكُفرِ فلا يعقِلُون الإيمانَ، والطبعُ هو الْخَتْمُ على القلب بسِمَةٍ تعلَمُها الملائكةُ بأنَّه جاحدٌ لا يفلحُ أبداً، ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ في الكفرِ والنِّفاق.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي والذين اهتدَوا بالإيمان بكَ والاستماعِ الى خُطبَتِكَ زادَهـم اللهُ بصـيرةً في دِينـهم، وألْهَمَهُم تركَ المعاصِي واجتنابَ المحارمِ. ويجـوزُ أن يكـون زادَهـم إعـراضُ المنـافقين هدًى، وأعطَاهم اللهُ ثوابَ تَقواهُم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ؛ أي مـا ينتظـرُ هؤلاءِ الكفارُ والمنافقون إلاَّ أنْ تأتِيَهم السـاعةُ فجأةً علـى غِـرَّةٍ منـهم، ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ؛ أي علامَاتُها، ومِن أشراطِها خروجُ نبيِّنا ﷺ، فإنَّها تأتيهِمْ بَغْتَةً في آخـرِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٧. ونقل القرطبي أيضاً عن مقـاتل والكلبي كمـا في الجـامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٣٨.

الزمان[١]، قالَ ﷺ: [بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ][٢]، ومِن أشراطِها أيضاً بيعُ الْحُكْمِ وقطيعةُ الرَّحم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي مِن أين لَهم التوبةُ ؟ ومِن أين لَهم أن يتذكَّروا أو يَتُوبُوا إذا جاءَتْهم الساعةُ حين لا ينفعُهم ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ بهِ غيرُهُ. والمعنى: إذا جاءَتْهم الساعةُ فاعلم أنَّه لا قاضيَ حينئذٍ إلاَّ اللهُ، ولا مَخرجَ يومئذٍ إلاَّ إليهِ، والنبيُّ ﷺ قد كان عَلِمَ ذلك، ولكن هذا خطابٌ يدخلُ فيه الناسُ.

والمعنى: مَن عَلِمَ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ فليَقُمْ على العلمِ ويَثْبُتْ عليهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ ؛ أي استَعصِمْ مِن مُواقعَةِ ذنبٍ يُوجِبُ الاستغفارَ. ويقالُ: معناهُ: استَغفِرْ لصَغائِركَ؛ فإنه لا صغيرةَ مع الإصرار، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، واستغفِرْ لذنوب المؤمنين والمؤمناتِ، وهذا إكرامٌ من اللهِ لهذه الأمةِ حين أمرَ نبيَّهم أنْ يستغفرَ لهم وهو الشفيعُ الْمُجَابُ فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي مُتصرَّفاتِكم في الدُّنيا من أوَّل ما ينقلِبُون من ظهرٍ إلى بطنٍ إلى أن تَخرُجوا من دُنياكم إلى قُبوركم، ويعلمُ أين مَثْوَاكُمْ في الآخرةِ، قال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ: واللهُ يَعْلَمُ مُتقلَّبَكُمْ مِنَ أصْلاَب الآبَاءِ إلَى أرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، وَمَثْوَاكُمْ مَقَامَكُمْ فِي الأَرْضِ)[٣]. وقال مقاتلُ: (وَاللهُ يَعْلَمُ مُنْتَشَرَكُمْ بالنَّهار وَمَأْوَاكُمْ باللَّيْلِ)[٤]. والمعنى: إنَّهُ عالِمٌ بجميعِ أحوالِكم، لا يَخفى عليه شيءٌ منها.

---

(١) في المخطوط: (فإن بغتة آخر الزمان).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٢٢ و٢٧٨. والبخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: الحديث (٦٥٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الفتن: باب قرب الساعة: الحديث (١٣٤/ ٢٩٥١).

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٨.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أنْ يُنْزِلَ سُورَةً فِيهَا ثَوَابُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ). وَقِيلَ: إنَّ المؤمنين كانُوا يَشتَاقُون إلى تَواتُرِ نزولِ القرآن، وكانوا يَستَوحِشُونَ إذا أبطأ الوحيُ، وهو قولُهم (لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ) أي هلاَّ نُزِّلَتْ سورةٌ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ ؛ أي بالأحكامِ التي لا يجري عليها النسخُ، يعني لا يُنسَخُ منها شيءٌ، قال قتادةُ: (كُلُّ سُورَةٍ يُذْكَرُ فِيهَا الْجِهَادُ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ وَهِيَ أشَدُّ السُّوَرِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ)(١).

والمعنى: أنَّ المؤمنين قالُوا: هلاَّ أُنزلَتْ سورةٌ تأمُرنا بالجهادِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (فَإذا أُنزلَتْ سُورةٌ مُحْكَمَةٌ) ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ ؛ أي إيجابُ القتال، ﴿ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ وهم المنافقون، ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ؛ عندَ ذكرِ القتال كنظَرِ الذي هو في غَشَيَانٍ من الموتِ، كراهةً منهم للقتال مخافةَ أن يُقتلوا في الحرب. قال الزجَّاجُ: مَعْنَاهُ: رَأيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَشْخَصُونَ نَحْوَكَ بأبْصَارِهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إلَيْكَ نَظَراً شَدِيداً، شَزراً بتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ كَرَاهَةً مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ كلمةُ وعيدٍ لهم، ومعناهُ: وَلِيَهُم المكروهُ والعقابُ أولَى لهم، وهذا كما قالَ تعالى ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾(٢)، قال الأصمعيُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: أوْلَى لَكَ فَأَوْلَى؛ أيْ وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ)(٣).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ؛ ابتداءٌ وخبرهُ محذوف، تقديرهُ: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ وأحسنُ، والمعنى على هذا: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: لو أطَاعُوا وقالوا قَوْلاً مَعْرُوفاً كان أمثلَ وأحسنَ. ويجوزُ أنْ يكون هذا متَّصلاً بما قبلَهُ على معنى: فأوْلَى لَهم طاعةٌ لله ولرسولهِ وقولٌ معروف بالإجابةِ والطاعة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٢٩٥).

(٢) القيامة / ٣٤ .

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٤٤؛ قال القرطبي: قال الأصمعي: (معناه قاربهُ ما يهلكه، أي نزلَ به...).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ؛ فإذا وُجِدَ الأمرُ ولَزِمَ فرضُ القتال، نَكلُوا وكذبوا فيما وعَدُوكَ من أنفسهم، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لو صدَّقوا اللهَ في إيمانِهم وجِهَادِهم لكان خيراً لَهم من المعصيةِ والكراهة والمخالفةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي فلعَلَّكم إنِ انصَرفتُم من مُحَمَّدٍ ﷺ وعن ما يأمُركم به أنْ تعودُوا إلى مثلِ ما كُنتم عليه من الكفرِ والفسادِ في الأرضِ من وَأدِ البناتِ، ومن قَتْلِ بعضِكم بعضاً كفعلِ الجاهليَّة، وَقِيْلَ: معناهُ: لعلَّكم إنْ تولَّيتُم أمرَ هذه الأمة بعدَ النبيِّ ﷺ أنْ تُفسِدُوا في الأرضِ بالقتال، ﴿ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ بالبغْيِ، فيقتلُ قريشٌ بني هاشِمَ، وبنو هاشمٍ قُريشاً.

وذهبَ كثيرٌ من الناسِ إلى أنَّ هؤلاءِ بنُو أميَّة، والمعنى: فلعلَّكم إنْ أعرَضتُم عن الإيمان والقرآن، وفارَقتم أحكامَهُ أن تُفسِدُوا في الأرضِ فتَعُودُوا إلى ما كُنتم عليه في الجاهليَّة من الفسادِ وقتلِ بعضكم بعضاً، وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ بسَفكِ الدماءِ بعد ما جَمَعكم اللهُ بالاسلامِ والألفة، فتَعُودوا إلى ما كُنتم عليه في جاهليَّتكم من القتلِ والبغيِ وقطيعة الرَّحم. وقال المسيَّب بن شُريك[1]: (مَعْنَاهُ: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أمْرَ النَّاسِ أنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بالظُّلْمِ، نَزَلَتْ فِي أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَفِي بَنِي هَاشِمٍ)[2].

قرأ يعقوبُ وأبو حاتم: (وَتَقْطَعُوا) مُخففاً من القطعِ اعتباراً بقولهِ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾[3]، وقولُ الحسن (وَتَقَطَّعُوا) بفتح الحروف المشدَّدة اعتباراً بقوله ﴿فَتَقَطَّعُوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾[4]، وقرأ الكافَّة (وَتُقَطِّعُوا) بضمِّ التاء وتشديدِ الطاء وكسرِها من القطعِ على التكثيرِ لأجل الأرحام.

---

(١) المسيَّب بن شُريك، أبو سعيد التميمي الشقري، كوفي الأصل، الغالب على ترك حديثه، توفي سنة (١٨٦) من الهجرة. ترجم له الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: الرقم (٧١٢٣).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١١٩٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٦ ص٢٤٥.

(٣) البقرة / ٢٧ .

(٤) المؤمنون / ٥٣ .

ثم ذمَّ اللهُ تعالى مَن يريدُ ذلك فقالَ تعـالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ فلاَ يَسمعون الحقَّ ولا يهتَدون للرُّشْـدِ، يعـني المنـافقِين الذين يُفسِدون في الأرضِ، ويُقطِّعون أرحامَهم، ونسَبَهم اللهُ تعالى إلى الصَّمَمِ والعمَى لإعراضِهم عن أمرِ الله تعالى، وأمَّا في مُشاهدَتِهم فإنَّهم لا يكونون صُمّاً ولا عُميانـاً، ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأبْصَاراً وَأفْئِدَةً فَمَا أغْنَى عَنْـهُمْ سَـمْعُهُمْ وَلاَ أبْصَارُهُمْ وَلاَ أفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَاتِ اللهِ﴾[١].

قولـهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ؛ فتعرِفـوا مـا يُوعَـدون للمُتمَسِّـكِ بـالقرآن، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ ؛ يعـني الطَّبْـعَ علـى القلـب، وهـذا استعارةٌ لإغلاقِ القلب عن معرفةِ الإسلامِ والقرآن، وكأنَّ على قُلوبِـهم أقفـالاً تَمْنَعُـهُمْ مِن الاستدلال.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ ؛ قال قتادة: (هُمْ كُفَّارُ أهْلِ الْكِتَاب،كَفَرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُـمْ يَعْرِفُونَـهُ وَيَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كِتَابِـهِمْ، وَنَعْتَـهُ مَكْتُوبـاً عِنْدَهُـمْ)[٢]. فمعنـاهُ: إنَّ الذيـن رجَعُـوا كفَّاراً من بعدِ ما ظهرَ لهم أمرُ النبيِّ ﷺ بنَعتـهِ وصفتـهِ في كتابـهم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ ؛ أي زَيَّنَ لهم القبيحَ، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ ؛ اللهُ تعـالى؛ أي أمْهَلَـهُمْ مُوَسِّعاً عليهم ليتَمادَوا في طُغيانِهم، ولم يُعجِّلْ عليهم بالعقوبةِ.

ويُحْسَنُ الوقوفُ على قول: (سَوَّلَ لَهُمْ) لأنه فِعلُ الشيطان، والإملاءُ فعلُ اللهِ تعالى، وعلى قول الحسنِ: لاَ يُحْسَنُ الْوُقُوفُ؛ لأنَّهُ يُقَالُ فِي تَفْسِيرِهِ: (وَأمْلَى لَهُمْ): مَدَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي الْعَمَلِ.

وقرأ أبو عمرو (وَأمْلِي لَهُمْ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، وهو حسَـنٌ للفصـلِ بـين فعلِ الشَّيطان وفعلِ الله تعالى، ونعلمُ يقيناً أنَّهُ لا يُؤَخِّرُ أحدٌ مدَّة أحدٍ ولاَ يُوَسِّعُ فيـها إلاَّ اللهُ تعالى. وقرأ مجاهدُ (وَأمْلِي) بضمِّ الهمزةِ وإسكانِ الياء على معنـى: وأنـا أمْلِـي لَهم.

---

(١) الأحقاف / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٠٨ و٢٤٣٠٩).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ معناهُ: ذلكَ الإملاءُ لليـــهودِ بأنَّـــهم قـــالُوا للمُشركين: سَنُطِيعُكُمْ في بعضِ الأمُورِ؛ أي في التَّعاوُنِ على عداوةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قـالُوا ذلك فيما بينَهم، فأخبرَ اللهُ تعالى عنهم وأعلمَ أنـه يعلَـمُ ذلـك فقـال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وقرأ بكسر الألفِ على المصدر؛ أي إسْـرَارَهُمْ بكسـر الألـف، والمعنى: وَاللهُ يعلَمُ أسرارَ اليهودِ والمنافقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ أي كيف يكونُ حالُهم إذا قبَضت أرواحَهم الملائكةُ، ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، وظُـهورَهم بمَقامعِ الحديدِ عند قبضِ الأرواح.

ثـم ذكَـرَ سببَ ذلـك الضَّـرب: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ بما كتَمُوا من التـوراةِ، وكفـرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ، وكَرِهُوا ما فيهِ رضوانُ اللهِ وهو الطاعةُ والإيمانُ (فَأَحْبَطَ أعْمَالَهُمْ)، معنى ما كان من برٍّ وصلةٍ وخير عَمِلوهُ في غيرِ الإيمان بكُفرهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ؛ أظَـنَّ المنـافقون؛ ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني أنْ لَنْ يَتْلُوا شيئاً يُظْـهرُ فيـه حِقدَهـم للمسلمين وضَغْنَهُمْ عليهم، فأمرَ اللهُ تعالى بالقتال والنَّفقةِ، فبَخِلَ المنافقون بالمال فظهرَ نفاقُهم، والضِّغْنُ: هو الحقدُ الذي يُضمِرهُ الإنسانُ بقلبهِ ولا يُظهِرهُ لغيرهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾ ؛ أي لعرَّفْنَاكَـــهُمْ وأعْلَمْنَاكَـــهُمْ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ ؛ أي بالعلامةِ القبيحةِ التي نظهرها عليهم، قـال الزجَّـاجُ: (مَعْنَاهُ: لَوْ نَشَـاءُ لَجَعَلْنَـا عَلَـى الْمُنَـافِقِينَ عَلاَمَـةً؛ وَهِـيَ السِّيمَاءُ؛ فَلَعَرَفْتَـهُمْ بِتِلْـكَ الْعَلاَمَةِ)[1].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أعلمَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنْ يُطلِعَـهُ على نفاقِهم في فَحْوَى كلامِهم، فكان لا يتكلَّمُ بعدَ نُزولِ الآية منـافقٌ عنـدَ النـبيِّ ﷺ إلاَّ عُرِفَ بكلامهِ وبما يعتذرون إليه به مِن المعاذيرِ الكاذبة.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٣.

قال المفسِّرون معنى قولهِ (فِـي لَحْـنِ الْقَـوْلِ) أي في فَحْـوَى القـول، ومعنـاهُ: ومَقْصَدِهِ، ويقالُ: فلانٌ لَحَنَ بحُجَّتِهِ ولاَحَنَ في كلامهِ، وفي الحديـث: [لَعَـلَّ بَعْضَكُـمْ أَلْحَنُ بحُجَّتِهِ][١] أي أذْهَبُ بها في الجهاتِ لقوَّتهِ علـى تصريـفِ الكـلام، وإذا قِيْـلَ: لَحَـنَ في كلامـهِ أو أَلْحَـنَ؛ فمعنـاهُ: ذهـبَ بـالكلامِ إلى خــلافِ جهــة الصَّــواب. ولَحَنَ القارئُ إذا تركَ الإعرابَ الصَّـوابَ وعـدلَ عنـه. وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي يعلمُ ظَواهِرَها وبوَاطِنَها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ؛ لنُعامِلُكم معاملةَ المختَبر فيما نأمُركم به من الجهادِ حتـى نُمَيِّزَ المجاهدينَ منكم مـن غيرِهم، والصابرِين في القتالِ من الذين لا يصبرُون.

وإنما كَنَّى بالعلمِ عن التمييزِ؛ لأنه يُتَوَصَّلُ بالعلمِ إلى التمييـزِ، فكـان اللهُ تعـالى عالِماً بكلٍّ منهم قبلَ أنْ خَلَقَهم، ولكن أرادَ بالعلمِ في هذه الآية العلمَ الذي يجبُ بـه الجزاءُ، وهو علمُ الشهادةِ لا علمُ الغيب.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي نَختَبرُ بما نأمرُكم بـه وننـهاكم عنه أخبارَكم وأحوالكم حتى يظهرَ للناسِ، وكان الفضيلُ بـن عِيَاضٍ إذا أتـى علـى هذه الآيةِ بَكَى وقالَ: (إنَّكَ إنْ بَلَوْتَ أخْبَارَنَا وَفَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أسْتَارَنَا)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعـني بنِـي قُريظةَ والنَّضير، ﴿ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ ؛ في التوراةِ، ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾ ؛ بتَركِـهم الهـدَى، إنمـا يضُـرُّون أنفُسَـهم، ﴿ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ فلا يُريدُونَ لها في الآخرةِ ثَواباً.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٣ ص٢٨١: الحديث (٨٠٣) عـن أم سـلمة، والحديث (٩٠٢) بإسناد صحيح. وأخرجه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الحيـل: بـاب (١٠): الحديث (٦٩٦٧). وله أسانيد عند الطبراني وغيره.

(٢) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٥٤.

(٣) الزمر / ٦٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي أطيعُوا اللهَ في الفرائضِ وأطيعُوا الرسولَ في السُّنن، (وَلاَ تُبْطِلُوا أعْمَالَكُمْ) بالشِّركِ والربا، فإن الشركَ يُبطِلُ العملَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]، والرِّياءُ يُحبطُ العملَ بالمعصيةِ، وَقِيْلَ: بالْعُجْب. وقال عطاءُ: (بالشَّكِّ وَالنِّفَاقِ)، قال الحسنُ: (بالْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ).

ويستدلُّ بظاهرِ هذه الآيةِ: على أنَّ مَنْ شَرَعَ في قُربَةٍ نحوَ الصلاةِ والصومِ والحجِّ، لم يَجُزْ له الخروجُ منها قبلَ إتْمَامِها؛ لِمَا فيه من إبطال عَمَلِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ وإنما ذُكِرَ الموتُ على الكفرِ؛ لأن الكفارَ قبلَ الموتِ يُفْرَضُ أن يُؤمِنَ فيُغفرَ له، وإذا ماتَ على كُفرهِ حَبطَ عملهُ حُبُوطاً لا يلحقهُ التداركُ والتَّلافِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ؛ أي لا تَعطِفُوا عن قتالِ الكفَّار وتدعُوهم إلى الصُّلحِ (وَأنْتُمُ الأعْلَوْنَ) بما وعدَكم اللهُ من النصرِ في الدُّنيا والثوابِ والكرامةِ في الأخرَى. قال الزجَّاجُ: (مَنَعَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَدْعُوا الْكُفَّارَ إلَى الصُّلْحِ وَأمَرَهُمْ بحَرْبهِمْ حَتَّى يُسْلِمُوا)[2] (وَأنْتُمُ الأعْلَوْنَ) أي الغَالِبُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ؛ أي بالعَوْنِ والنُّصرَةِ على عدُوِّكم بثَوابي حِفظِكم، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي لَن يَنْقِصَكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّهُ لا يجوزُ للإمامِ أن يدعُوا الكفارَ إلى الصُّلحِ، ولا أنْ يُجِيبَهم إلى الصُّلح في حال ما تكون الغَلَبَةُ للمسلمين، فإنَّ الواوَ في قولهِ: (وَأنْتُم الأَعْلَوْنَ) واوُ الحالِ،كما يقالُ: لا تُسَلِّمْ على فُلانٍ وأنتَ راكبٌ؛ أي في حال ما كُنتَ راكباً.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ؛ أي الدُّنيا بما فيها من زينَتِها باطلٌ وغُرورٌ، تفنَى وتزولُ عن قريبٍ، واللَّعِبُ: العملُ الذي لا تتعلَّقُ به فائدةٌ، واللَّهْوُ: هو الفرحُ الذي لا يبقَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ ؛ أي تُؤمِنُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، وتتَّقُوا الفواحشَ والكبائرَ، يُؤتِكُمْ ثوابَ أعمالكم كافياً وافِياً، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ كلَّها في الإنفاق في سَبيلهِ، بل يأمرُكم بالإيمان والطاعة ليُثِيبَكم الجنَّةَ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾[١].

وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يسألُكم مُحَمَّدٌ ﷺ أموالَكم، وَقِيْلَ: معناهُ: ولا يسألُكم اللهُ ورسولهُ أموالَكم كلَّها، إنما يسألُكم رُبعَ العُشرِ، فطيبُوا نَفْساً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُجهِدْكُم في المسألةِ، ويُلِحَّ عليكم ويسألُكم جميعَ أموالِكم، فبَخِلُوا بها ويمنَعُوا الواجبَ.

وقوله (وَيُخرِجْ أضْغَانَكُمْ) التي تحدثُ في القلوب بسبب البُخلِ، قال قتادةُ: (قَدْ عَلِمَ اللهُ أنَّ فِي مَسْأَلَةِ الْمَالِ خُرُوجَ الأَضْغَانِ)[٢]. وقوله (أضْغَانَكُمْ) أي بُغضَكم وعداوتَكم للهِ ولرسوله، ولكن فَرَضَ عليكم يَسِيراً وهو رُبُعُ العُشرِ. والإحْفَاءُ في المسألةِ: هو الإلْحَاحُ والتشديدُ. وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: ولا يسألُكم أموالَكم لنفسهِ، بل يسألُكم ليُؤتِكُمْ أجُورَكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني ما فَرَضَ عليهم في أموالِهم من الزكاةِ، ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ؛ بذلك، ﴿ وَمَن يَبْخَلْ ﴾ ؛ بذلك، ﴿ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ عاقبةُ بُخلِهِ تعودُ عليه في العقاب، فيصيرُ بُخلهُ على نفسهِ، ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ؛ عن ما عندَكم من الأموالِ وعن أعمالِكم، ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ ، وأنتم مُحتاجُون إلى اللهِ وإلى ما عندهِ من

---

(١) الذاريات / ٥٧ .

(٢) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٥٧.

الجزاءِ والرَّحمةِ والمغفرة، ثم يأمُركم بالإنفاقِ لحاجتِهِ ولا لِجَرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضَـرَّة، وإنما أمرُكم بذلك لمصالِحكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ؛ أي وإنْ تُعرضُوا عن طاعةِ الله يَسْتَبْدِلْ قَوماً لا يَعْصُونَ ويفعلون ما يُؤمَرون، وَقِيـلَ: معنـاهُ: وإنْ تُعرضُـوا عن الإسلام وعمَّا افترَضَ عليكم من حـقٍّ يستبدِلْ قومـاً غـيرَكم أطـوعَ للهِ منكـم، ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ بل يكون أمثلَ منكم وأطـوعَ. قـال الكلـبيُّ: (هُمْ كِنْدَةُ وَالنَّخعُ)، وقال الحسنُ: (هُمُ الْعَجَمُ)، قال عكرمةُ: (هُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ)(1).

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ؛ فَقِيلَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ مَـنْ هَـؤُلاَءِ الَّذِينَ إنْ تَوَلَّيْنَا اسْتُبْدِلُوا ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أمْثَالَنَا ؟ فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ فِي صَـدْرِ سَـلْمَانَ الْفَارِسِيَّ - وَقِيلَ: عَلَى فَخِذِهِ - وَقَالَ: [هَذا وَأصْحَابُهُ]. وَقَالَ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْ كَانَ الإيْمَانُ مُعَلَّقاً بالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رجَالٌ مِنْ أبْنَاءِ فَارسَ](2). قال الكلبيُّ فِي قَوْلِـهِ: (وَإنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) قَالَ: (لَمْ يَتَوَلَّوْا وَلَمْ يَسْتَبْدِلْ بهِمْ)(3).

آخر تفسير سورة (**محمد**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ذكر البغوي هذه الأقوال الثلاثة للكلبي والحسن وعكرمة في معالم التنزيل: ص١٢٠٠.

(٢) أخرجه بألفاظه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٣٣٧) عن أبي هريرة ﷺ. وابن أبي حـاتم في التفسـير الكبـير: الحديـث (١٨٥٩٢ و١٨٥٩٣). والطـبراني في المعجـم الأوسـط: ج ٩ ص٣٨٧: الحديث (٨٨٣٣). وابن حبان في الإحسان: كتاب إخباره ﷺ عن منـاقب الصحابـة: الحديث (٧١٢٣) وإسناده صحيح.

(٣) لم يتولَّ العربُ عن حمل مسؤولية الاسـلام، ولا المسلمون عـن أداء الأمانـة في إنفـاذ الشـريعة وحتى غياب الخلافة في بدايات القرن الرابع عشر مـن الهجـرة، حيـث تمكـن الكفـار مـن هـدم الخلافة وتعطيل الشريعة بالقوة وليس بالإقناع، ولم يرجع المسلمون عن إيمانهم.

ومن وجه آخر فإن هذا الحديث تشريف لسيدنا سلمان الفارسي وليس تخصيصاً للقوم، قال مجاهد: (مَن شاءَ). ودلالة الآية تفيد تأثيمَ التخلِّي عن تحمُّل مسـؤوليةِ رعايـة الدعـوةِ وسياسـة الأمَّة. والله أعلم.

سُورَةُ الْفَتْحِ

سُورَةُ الْفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفَان وَأَرْبَعمِائَةٍ وَثَمانِيَةٌ وَثَلاثُون حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَسِتُّونَ كَلِمَةً، وَتِسعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ كَانَ كَمَنْ بَايَعَ مُحَمَّداً ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ، وَتَجَهَّزَ مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَعَهُمُ الْهَدْيَ يَسُوقُونَهَا مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فَبَلَغَ ذلِكَ قُرَيْشاً فَاسْتَعَدُّوا لِيَصُدُّوهُ وَأَصْحَابَهُ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَزِعَ الْمُشْرِكُونَ بِنُزُولِهِ ﷺ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ لِيَأْتِيَهُمْ بِالْخَبَرِ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ عُرْوَةُ أَبْصَرَ قَوْماً عُمَّاراً لَمْ يَأْتُوا لِلْقِتَالِ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَأَخْبَرَهُمْ بِذلِكَ وَهُوَ كَارِهٌ لِصَدِّهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْكَعْبَةِ، فَشَتَمُوهُ وَاتَّهَمُوهُ.

ثُمَّ بَعَثُوا رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [ابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وُجُوهِهِمَا وَلَبُّوا] فَلَمَّا رَجَعَ الرَّجُلاَن إِلَيْهِمْ قَالاَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ عُرْوَةُ. فَبَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَالَ ﷺ حِينَ أَبْصَرَهُ: [هَذا رَجُلٌ فَاجِرٌ، وَمَا أَرَى إلاَّ قَدْ سَهُلَ أَمْرُكُمْ]. فَلَمَّا أَتَاهُمْ سُهَيْلُ تَذاكَرُوا الْمُهَادَنَةَ وَالْمُوادَعَةَ.

فَلَمَّا كَانَ فِي وَسَطِ النَّهَارِ، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيْعَةِ، فَنَادَى مُنَادِيهِ فِي الْعَزْمِ: [الآنَ رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عليه السلام نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَرَهُ بِالْبَيْعَةِ]. فَأَتَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ جَلَسَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وكَادَتْ[2] تِلْكَ الْبَيْعَةُ فِي صُدُورِ الْمُشْرِكِينَ.

---

(١) ذكره الزمخشري أيضاً في الكشاف: ج ٤ ص٣٣٩.

(٢) (كَادَ) يفعلُ كذا، يكَادُ كَوْداً، أي قاربَهُ ولم يفعَلْ، وكَادَ موضوعٌ لمقاربَةِ الفعلِ، فُعِلَ أمْ لم يُفعَلْ.

فَلَمَّا أَمْسَوا وَهُمْ عَلَى ذلِكَ، رَمَى رَجُلٌ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ بـاللَّيل فِـي أصْحَـاب رَسُول اللهِ ﷺ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ بالْحِجَارَةِ فَرَمَوا أعْـدَاءَ اللهِ حَتَّـى أدْخَلُوهُـمُ الْبُيُـوتَ وَهَزَمُوهُمْ بإذْن اللهِ. وَأقْبَلَ أشْرَافُهُمْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَذا لَمْ يَكُـنْ عَـنْ رضًى مِنَّا وَلاَ مُمَالأَةٍ، وَإنَّمَا فَعَلَهُ سُفَهَاؤُنَا، وَعَرَضُوا الصُّلْحَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَبلَهُ، وَلَمْ يُعْطِهِمُ الْمُشْرِكُونَ الصُّلْحَ حَتَّى قَهَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي غَيْرِ قِتَال بالرَّمْي بالْحِجَارَةِ.

فَاصْطَلَحَ الْفَرِيقَان عَلَى أنْ يَتَوَادَعُوا سِنِينَ، عَلَى أنْ يَرْجِعَ النَّـبِيُّ ﷺ وَأصْحَابُـهُ تِلْكَ السَّنَةَ، فَمَنْ لَحِقَ بالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقْبَلْهُ حَتَّـى تَنْقَضِـيَ الْمُـدَّةُ، وَمَـنْ لَحِقَ بالْمُشْرِكِينَ مِنْ أصْحَـاب النَّـبِيِّ ﷺ فَـهُوَ مِنْـهُمْ. عَلَـى أنَّ الْمُسْـلِمِينَ إذا شَـاؤُا اعْتَمَرُوا الْعَامَ الْقَابلَ فِي هَذا الشَّهْرِ الَّذِي صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِ، عَلَى أنْ لاَ يَحْمِلُـوا بأرْضِهِمْ سِلاَحاً.

فَصَالَحَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىذلِكَ، وَكَتَبُـوا كِتَـابَ الْقَضِيَّـةِ[1] بَيْـنَ النَّـبِيِّ ﷺ وَبَيْنَهُمْ، فَوَجَدَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذلِكَ الشَّرْطِ وَجْداً شَديداً، فَقَالُوا: يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ مَنْ لَحِقَ بنَا مِنْهُمْ لَمْ نَقْبَلْهُ، وَمَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَهُوَ مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أمَّا مَنْ لَحِقَ بهِمْ مِنَّا فَأبْعَدَهُمُ اللهُ، وَأمَّا مَنْ أرَادَنا مِنْهُمْ فَسَـيَجْعَلُ اللهُ لَـهُ مَخْرَجـاً، وَإنْ يَعْلَمِ اللهُ مِنْهُ الصِّدْقَ يُنَجِّيهِ مِنْهُمْ].

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ كِتَاب الْقَضِيَّةِ، أقْبَلَ جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ وَهُوَ يَرْشِـفُ فِـي قُيُـودِهِ، وَكَانَ أبُوهُ قَدْ أوْثَقَهُ حِينَ خَشِيَ أنْ يَذْهَبَ إلَى رَسُول اللهِ، فَجَاءَ حَتَّى وَقَعَ بَيْنَ ظَهْرَانِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَقَالَ: إنِّي مِنْكُمْ وَإنِّي أعُوذُ باللهِ أنْ تُرْجِعُونِي إلَى الْكُفَّار.

فَأرَادَ رجَالٌ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ أنْ يَمْنَعُـوهُ، وَنَاشَـدَهُمْ سُـهَيْلُ بْـنُ عَمْـرو الْعَـهْدَ وَالْمِيثَاقَ! فَقَالَ ﷺ:[خَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؛ فَسَيُنَجِّيهِ اللهُ مِنْهُمْ]. فَانْطَلَقَ بهِ أبُوهُ، وَكَانَ مَـاءُ الْحُدَيْبيَةِ قَدْ قَلَّ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَأُتِيَ بدَلْـو مِـنَ الْمَـاءِ، فَتَوَضَّـأ مِنْـهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ مَجَّـهُ فِـي الدَّلْـو، ثُـمَّ أمَرَهُـمْ أنْ يَجْعَلُـوهُ فِـي الْبـئْرِ، فَامْتَلأَتِ الْبئْرُ مَاءً حَتَّى جَعَلُوا يَغْرِفُونَ مِنْهُ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَفَةِ الْبـئْرِ، وَكَـانَ هَـذا شَأْنُ الْحُدَيْبيَةِ.

---

(١) هكذا في المخطوط: (كتاب القضية).

ولَبثَ رسولُ اللهِ ﷺ شهراً وَصَيْفاً فوعَدَهم اللهُ خَيراً أنْ يفتحَها لَهم، فلَمَّا رجعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً)، والفتحُ الْمُبِينُ: ما كان من استعلاءِ المسلمين عليهم حتى غلَبُوهم بالحجارةِ وأدخَلُوهم بيوتَهم، وتيسير الصلحِ أيضاً من الفتحِ المبين وظهور النبيِّ ﷺ على خَيبرَ من الفتح.

قال: (وَأنْجَى اللهُ أبَا جَنْدَلَ بْنَ سُهَيْلٍ مِنْ أيْدِيهِمْ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلاً كَرِهُوا أنْ يَقْعُدُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَعَلِمُوا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لاَ يَقْبَلُهُمْ حَتَّى تَنْقَضِي الْمُدَّةُ، فَجَعَلُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأرْسَلَ الْمُشْرِكُونَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ يُنَاشِدُونَهُ أنْ يَقْبضَهُمْ إلَيْهِ، وَقَالُوا: أنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّنِ اخْتَارَكَ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ؛ فَإنَّهُمْ إنْ يَكُونُوا مَعَكَ كَانَ أهْوَنَ عَلَيْنَا، فَلَحِقُوا بالنَّبِيِّ ﷺ)(١).

وعن قتادةَ قال: (بُشِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بفَتْحِ مَكَّةَ). ومعنى قولِه تعالى (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً) يعني صُلحَ الحديبيةِ، وكان صُلحاً بغيرِ قتالٍ، قال الفرَّاء: (وَالْفَتْحُ قَدْ يَكُونُ صُلْحاً)(٢).

ومعنى الفَتْحِ في اللُّغة: فتحُ الْمُغْلَقِ، والصُّلح الذي حصلَ مع المشركين بالحديبيةِ كان مَسْدُوداً متعَذّراً حتى فتحَ اللهُ. قال جابرُ: (مَا كُنَّا نَعُدُّ فَتْحَ مَكَّةَ إلاَّ يَوْمَ الْحُدَيْبيَةِ)(٣). وقال الزهريُّ: (لَمْ يَكُنْ فَتْحٌ أعْظَمُ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبيَةِ، وَذلِكَ أنَّ الْمُشْرِكِينَ اخْتَلَطُوا بالْمُسْلِمِينَ وَسَمِعُوا كَلاَمَهُمْ فَتَمَكَّنَ الإسْلاَمُ فِي قُلُوبهِمْ)(٤).

ويجوزُ أن يكون معنى الفتحِ: الإكرامُ بالنبوَّة والإسلامِ والأمرُ بدعوةِ الخلقِ إليهما. وَقِيلَ: معنى (فَتَحْنَا لَكَ) أي قضَينا لكَ بالنصر، ومنه المفتاحُ وهو القاضِي، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالْحَقِّ﴾(٥) أي اقْضِ بيننا.

---

(١) ينظر: كتاب المغازي للواقدي: ج ٢ ص٩٠-١٠٢. والسيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٣٢-٣٣٨.

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٤٧).

(٤) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١٢٠٢.

(٥) الأعراف / ٨٩.

وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالآيةِ فتحُ مكَّة بالغَلَبَةِ والقهرِ؛ لأنَّ الصُّلح لا يسمَّى فتحاً على الإطلاق، قال الشعبيُّ: (بُويعَ النَّـبِيُّ ﷺ فِـي ذلِـكَ الْوَقْـتِ بَيْعَـةَ الرِّضْوَان، فَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى خَيْبَرَ فِي مُنْصَرَفِهِ، وَظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَـارسَ فِـي ذلِـكَ الْوَقْتِ)[١]، والفتحُ في اللغة: هو الفَرَجُ المزيلُ لِلْهَمِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ؛ قـال ابـنُ الأنباريِّ: (سَأَلْتُ أبَا عَبَّاس[٢] عَنِ اللاَّمِ فِي قَوْلِهِ: (لِيَغْفِـرَ لَـكَ اللهُ)، فَقَـالَ: هُـوَ لاَمُ كَيْ، مَعْنَاهَا: إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِكَيْ يَجْتَمِعَ لَكَ مَعَ الْمَغْفِـرَةِ تَمَـامُ النِّعْمَـةِ فِـي الْفَتْحِ، فَلَمَّا انْضَمَّ إلَى الْمَغْفِرَةِ حادثٌ واقعٌ حَسُنَ مَعْنَى (كي).

وقولهُ تعالى (مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنبكَ وَمَا تَأَخَّرَ) المرادُ بـالذنب هـهُنا الصغـائرُ، فأمـا الكبائرُ فالأنبياء معصُومون منها أبداً؛ لأنَّهم الأُمَناء علـى الوحـيِ والرسـالةِ. وعـن أبـي هريرةَ ﷺ قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ حَتَّى تَدْمَى قَدَمَاهُ، فَقِيلَ: يَا رَسُـولَ اللهِ؛ أتَصْنَـعُ هَذا وَقَدْ جَاءَكَ مِنَ اللهِ أنْ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَـا تَـأَخَّرَ؟! قَـالَ: [أفَـلاَ أكُونُ عَبْداً شَكُوراً])[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي بالنبوَّة والمغفرةِ، والمعنى ليجتمعَ لكَ مع الفتحِ تَمامُ النِّعمة بالمغفرةِ والهداية إلى صراطٍ مستقيم وهـو الإسـلامُ. قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ينصُرَكَ بالحجَّةِ والسيفِ على عدُوِّك نصراً قوياً لا ذُلَّ معه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٥١).

(٢) أبو العباس: هو أحمد بن يحيى بن ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة ديناً صالحـاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب وروايته الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ مـذ هو حدَثٌ. قال أبو بكر بن الأنباري: (سمعـتُ أحمـد بـن يحيـى يقـول: سمعـت مـن عبيـد الله القواريري مائة ألف حديث) توفي سنة (٢٩١) من الهجرة، ترجم له الخطيـب في تـاريخ بغـداد: الرقم (٢٩٩٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حليـة الأوليـاء: ج ٧ ص٢٠٥. ولـه طـرق أخـرى عـن المغيـرة بـن شـعبة وعائشة. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٨٣٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ قِيلَ: السَّكينةُ هي ما أسكنَ اللهُ قلوبَهم من التعظُيم للهِ ولرسولهِ والوَقَار لئلاَّ تُزعَجَ نفوسُهم لِمَا يَرِدُ عليهم. وقوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ أي ليَزدَادُوا تَصديقاً إلى تصديقهم السابقِ. قال الكلبيُّ: (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَصَدَّقُوا بهَا ازْدَادُوا تَصْدِيقاً إلَى تَصْدِيقِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي جُمُوعُ أهلِ السَّموات والأرض، يعني الملائكةَ والجنَّ والإنس والشياطين، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ ؛ بمصالحِ خَلقهِ، ﴿ حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ فيما يأمُرهم به وينهاهُم عنه.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا نَزَلَ (إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيْناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبكَ وَمَا تَأخَّرَ) قَالَ الصَّحَابَةُ: هَنِيئاً لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا أعْطَاكَ اللهُ، فَمَا لَنَا ؟ فَأنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي نجاةً عظيمةً من النار وظَفَراً بالجنَّة[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا فتحنا لكَ لِيُدخِلَ اللهُ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ وليُعَذِّبَ المنافقين من الرِّجال والمنافقاتِ من النساءِ، وهُم أظهَرُوا الإيمانَ باللِّسان وأسَرُّوا الكفرَ من أهلِ المدينة، ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ ؛ مِن أهلِ مكَّة، ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ ؛ ومعنى ظنِّهم السوءَ: أنَّهم ظَنُّوا أن مُحمَّداً ﷺ لا يُنصَرُ عليهم وأنَّهم هم الذين ينصرُهم اللهُ على رسولهِ، وذلك قبيحٌ لا يجوز في صفةِ اللهِ تعالى. وقوله: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾ ؛ أي العذابُ والهلاكُ، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ أي وطردَهم عن رحمتهِ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٩٧. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٦٣). وابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: الحديث (٦٤١٠) عن أنس بإسناد صحيح على شرط الشيخين. وأما حديث ابن عباس فقد أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٥٣) مختصراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ وليس على وجهِ التّكرار؛ لأنَّ الأولَ في إعانةِ المؤمنين، وهذا متَّصلٌ بذكـر المنـافقين في الانتقـامِ منـهم، ومعنـى ذلك: أنَّ في الأولِ (وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فـاللهُ قـادرٌ علـى أن يُسَـخِّرهم لينتقمَ بهم من أعدائهِ مِن كلِّ ما دبَّ ودرجَ من ذلك حتى الـبرغوث والعقـربَ؛ لأنَّ اللهَ لم يأمُرِ المسلمين بالقتال لأجلِ هلاك المشـركين، وإنما أمَرَهـم بالقتـالِ ليُعوِّضَـهم بذلكَ جزيلَ الثواب الذي لا يُنَالُ إلاَّ بالقتال، وههنا متَّصل ذكرُ الانتقامِ من المنافقين.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي لم يَزَلْ مَنِيعاً مسـتغنياً من الكفَّار، حَكِيماً في أمرهِ وقضائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنـا أرسلناكَ يا مُحَمَّدُ شَاهداً على أمَّتِـكَ بتبليغِ الرسـالة، وَقِيْـلَ: شـاهدٌ علـى أقوالِـهم وأفعالهم فإنَّها تُعرَضُ عليه، (ومُبَشِّراً) بالجنةِ للمطيعـين، (ونَذِيـراً) أي مُخَوِّفـاً بالنـار لِمَن عصَى اللهَ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ ؛ أي قُرِئ بالتاءِ في الأربعةِ على معنى قولِهم: لتُؤمِنَ باللهِ ورسـوله، وقُـرئ باليـاءِ في الأربعـة أيضـاً؛ يعني: مَن آمنَ به وصدَّقَهُ، قَوْلُهُ تَعَـالَى: (وَتُعَـزِّرُوهُ) راجـعٌ إلى النـبيِّ ﷺ؛ أي يُعِينُـوهُ ويَنصرُونَهُ بالسَّيفِ واللسان، وقـرأ محمَّـد بـن السُّمَيقِعِ: (وَتُعَـزِّزُوهُ) بزائـين، وقولُـهُ (وَتُوَقِّرُوهُ) أي وتُعظِّموهُ وتُبجِّلوهُ، وهذا وقفٌ تامٌّ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ ؛ أي وتسَبحون اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يُصلُّونَ له بالغَداةِ والعشِيِّ، وفي قراءةِ ابن عبَّاس: (وَتُسَـبحُوا اللهَ بُكْرَةً وَأصِيلاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ؛ يعـني بيعـةَ الرِّضـوان بالحديبيـةِ، ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ، بايَعُوا النبيَّ ﷺ على أنْ لا يفِرُّوا ويقاتِلُوا، بايعَهم النبيُّ

---

(١) نقله الطبري في جامع البيان من غير عزوه إلى ابن عباس: الأثر (٢٤٣٦٠).

ﷺ تحتَ شجرةٍ استظلَّ بها بالحديبيةِ، وكان الذين بايعوهُ نحوَ ألفِ رجُلٍ وخمسمائة رجل، بايعوهُ على النُّصرةِ والنُّصحِ والسمعِ والطاعة، وأن لا يفِرُّوا من العدوِّ.

ومعنى الآيةِ: إنَّ الذين يُبايعونكَ يا مُحمَّدُ بالحديبيةِ على أن لا يفِرُّوا، إنما يُبايعُون في ذاتِ الله، ليس أنتَ المرادُ بذلك، بل المرادُ به القيامُ بعبادةِ الله. وَقِيْلَ: المرادُ بذلك أنَّهم بَاعُوا اللهَ أنفُسَهم بالجنَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي نِعمَةُ اللهِ في الهدايةِ فوقَ أيديهم في الطاعة، يعني إحسانَ اللهِ إليهم بأن هدَاهُم للإيمان أبلغُ وأتمُّ من إحسانِهم إليكَ بالنُّصرة والبيعةِ، وقال ابنُ كَيسان[1]: (مَعْنَاهُ: قُوَّةُ اللهِ وَنُصْرَتُهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ؛ أي اتَّق باللهِ وَنُصْرَتِهِ لَكَ لاَ بنُصْرَتِهِمْ، وَإنْ بَايَعُوكَ)، وقال:(مَعْنَاهُ: يَدُ اللهِ فِي الثَّوَابِ وَالْوَفَاءِ لَهُمْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ في الوفاء، فَإنَّهُمْ لَوْ وَفَّوا بمَا ضَمِنُوا فَاللهُ أوْفَى بمَا ضَمِنَ، وَأقْدَرُ عَلَى ذلِكَ). واليدُ ههنا هي القُدْرَةُ.

قولُهُ: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ ؛ أي مَن نقضَ عقدَ البيعةِ فضررُ نقضهِ عائدٌ عليه، وليس له الجنَّةُ ولا كرامةٌ،﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ ؛ مِن البيعة فتَمَّ على ذلك واستقامَ،﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾ ؛ فسيعطيهِ اللهُ في الآخرةِ ثواباً عظيماً في الجنة.

ورُوي أنَّ هؤلاء المبايعين لم ينقُضْ أحدٌ منهم البيعةَ؛ لأنَّهم كانوا مُخلِصين، ولذلك قالَ اللهُ (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) رضاهُ عنهم دليلٌ على أنَّهم كانوا مُؤمنين على الحقيقةِ، أولياءَ الله أهلَ النُّصرة، والذي لَمْ يدخُلْ معهم في البيعةِ يومئذٍ إلا رجلٌ من المنافقِين يقال له جَدُّ بن قيسٍ، اختبأ يومئذ تحتَ إبطِ بَعيرهِ ولم يدخُلْ في بيعتِهم، أماتَهُ اللهُ على نفاقهِ[2].

---

(١) ابن كيسان: عبدالرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم، المعتزلي، صاحب المقالات في الأصول، كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم. قال ابن حجر: (هو من طبقة أبي الهذيل العلاف، وأقدم منه) له تفسير القرآن، أفاد منه الثعلبي في كتابة الكشف. ترجم له ابن حجر في لسان الميزان: ج ٣ ص٤٢٥: الرقم (١٦٨٥).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص١٣٠. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أخبرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنه إذا رجعَ من الحديبيةِ إلى المدينةِ، أتاهُ الأعرابُ الذين يخلِفُون عنه بغير عُذرٍ، ولم يَخرُجوا معه وهم مُزينَةُ وجُهَيْنَةُ وغطَفَانُ وقومٌ من الدِّيلِ، فيقولون له: شَغَلَتْنَا أموالُنا وأهلُونا عن الخروجِ معك يا محمد، أي شغلَتنا النسـاءُ والـذراري فلـم يكن لنا مَن يخلِفُنا فيهم، ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ؛ من التخلُّفِ عنكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي يسألُون المغفرةَ بألسِنَتِهم (مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) يعني: لأنَّهم لا يُبَـالُون اسْتَغْفَرْتَ لَـهم أمْ لم تسـتغفِرْ لَهم.

وقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أرَادَ الْمَسِيرَ إلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، اسْتَنْفَرَ مَـنْ حَـوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الأَعْرَاب وَأهْلِ الْبَـوَادِي لِيَخْرُجُـوا مَعَـهُ حَـذراً مِـنْ قُرَيْـشٍ أنْ يُحَـارِبُوهُ وَيَصْرِفُوهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَأحْرَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بالْعُمْرَةِ وَسَاقَ الْهَدْيَ لِيُعْلِـمَ النَّـاسَ أنَّـهُ لاَ يُرِيدُ حَرْباً، فَتَثَاقَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الأَعْرَاب وَقَـالُوا: نَذْهَـبُ مَعَـهُ إلَـى قَـوْمٍ قَـدْ جَـاءُوا يَقْتُلُونَ أصْحَابَهُ فَيُقَاتِلُهُمْ، فَتَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَاعْتَلُّوا بالشُّغْلِ، فأنزلَ اللهُ تعالى (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الأَعْرَاب شَغَلَتْنَا أمْوَالُنَا وَأهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) الآيةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ؛ معناهُ: مَن يمنعُكم من عذاب الله إنْ أقمتُم على الكفر والنفاق، ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل كان اللهُ عالِماً بتخلُّفِكم عن القتـالِ مـن غير عُذرٍ.

قرأ حمزةُ والكسائي وخلفٌ (ضُرّاً) بضم الضاد وهو سُوءِ الحالِ، وقرأ البـاقون (ضَرّاً) بفتح الضادِ لأنه قابَلَـه بـالنفعِ، وأرادَ بـالنفعِ الغنيمـةَ. وذلـكَ أنَّـهم ظَنُّـوا أن تَخلُّفَهم عن النبيِّ ﷺ يدفعُ عنـهم الضُّـرَّ، ويعجِّـلُ لهم النفـعَ بالسـلامةِ في أنفسـهم وأموالِهم، فأخبرَهم اللهُ تعالى أنه إنْ أرادَ بهم شيئاً لم يقدِرْ أحدٌ على دفعهِ عنهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أظهرَ اللهُ نفاقَهم، وبيَّن أنَّ تخلُّفَهم عنه لم يكن بسبب أموالهم وأهلِيـهم، ولكـن كـانوا

يقُولون فيما بينهم: يَسْتَأْصِلُ مُحَمَّداً وأصحابَهُ عدوُّهم في هذهِ الكرَّة فلا يرجِعون إلى المدينةِ أبداً فنَستريحُ منهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ؛ أي زَيَّنَ الشيطانُ لكم ذلك الظنَّ في قُلوبكم، ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ؛ أي ظنَنتُم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ أنَّهم لن يرجِعُوا من سفَرِهم هذا وأنَّهم سيهلَكُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي هَلْكَى فاسدِي القلُوب لا تُصلُحون لخيرٍ، والبَوارُ الهلاكُ، وما بعدَ هذا، ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ ؛ يعني هؤلاءِ المخَلَّفين سيقولون لرَسُول اللهِ ﷺ وأصحابهِ: ﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ ﴾ ، خيبر، ﴿ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ ؛ نخرُجْ معكم، فأمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنْ يَمنَعَهم من ذلك بعدَ تخلُّفهم من غزوةِ الحديبية.

فلما رجعَ النبيُّ ﷺ من الحديبيةِ وانطلقَ إلى خيبرَ، قال هؤلاءِ المخلَّفون (ذرُونا نتَّبعْكُمْ) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي أنَّ اللهَ تعالى خصَّ أهلَ الحديبيةِ بمغانمِ خيبرَ، وأمرَ النبيَّ ﷺ أن لا يأذنَ للمنافقين أن يُخرجُوهم معهم إلاَّ متطوِّعين ليس لهم من المغانمِ شيءٌ. فأرادَ المنافقون أن يُشاركوا فيها ليُبطِلوا حكمَ اللهِ تعالى، ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ يعني: أمَرَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ أنْ لا يُسيِّرَ معه منهم أحداً.

ومعنى قوله (مِنْ قَبْلُ) أي قالَ اللهُ في ذلك بالحديبيةِ قبلَ خيبرَ، وقبلَ خروجنا إليكم: أنَّ غنيمةَ خيبر لِمَن شَهدَ الحديبيةَ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ ؛ أي سيقُولون للنبيِّ ﷺ لم يأمُركم اللهُ بذلك، ولكن تحسُدُوننا أن نُشارككم في الغنيمةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يعلمُون عن اللهِ ما لهم وعليهم مِن الدين إلاَّ قليلاً منهم، وهو مَن صدَّقَ الرسول ولم يُنافِقْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ؛ أي قُل لهؤلاء المخلَّفين عن الحديبيةِ: ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ ؛ بعدَ موتِ النبي ﷺ ﴿ إِلَىٰ ﴾ ؛ قتال؛ ﴿ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ أي أهلِ اليمامَةِ، قال الزهريُّ:(هُمْ أهْلُ الْيَمَامَةِ بَنُو حَنِيفَةَ أتْبَاعُ مُسَيْلَمَةَ، فَأتَاهُ أبُو بَكْرٍ ﷺ)، قال رافعُ بن خَديج: (كُنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ وَلاَ نَعْلَمُ مَنْ هُمْ حَتَّى دَعَا أبُو بَكْرٍ ﷺ إلَى قِتَالِ بَنِي حَنِيفَةَ فَعَلِمْنَا أنَّهُمْ هُمْ)(١).

وقال ابنُ جُريج: (سَيَدْعُوكُمْ عُمَرُ ﷺ إلَى قِتَالِ فَارسَ وَالرُّومَ) ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ؛ معناهُ: تُقاتِلُوهم أن يكون منهم الإسلام، ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ ﴾ ؛ أبَا بكرٍ وعمر، ﴿ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ؛ عظيماً في الجنَّة، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ عن طاعةِ مُحمَّدٍ ﷺ في المسيرِ إلى الحديبيةِ، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ شَديداً.

قرأ أُبَيُّ (أوْ يُسْلِمُوا) بحذفِ النُّون؛ أي حتى يُسلِمُوا، وكقول امرئ القيسِ: (أوْ نَمُوتَ)(٢)، وقرأ الكافَّة بإثباتِ النُّون في محل الرفعِ عطفاً على (تُقَاتِلُونَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ؛ أي ليس على هؤلاءِ إثْمٌ في قُعودِهم عن القتالِ لعَجزهم عنه، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ عائدٌ إلى مَن يلزمهُ الجهادُ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ ؛ عن الجهادِ مع قُدرتهِ عليه، ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ؛ يعني بيعةَ الرُّضوان بالحديبيةِ، وإنما سُميت بيعةُ الرضوان بهذه الآيةِ، وكان سببُ هذه البيعةِ(٣): أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا سَارَ يُرِيدُ مَكَّةَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحُدَيْبِيَةَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٤.

(٢) قال امرؤ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا　　　نُحَاوِلُ مُلْكاً أوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

قال الزجاج: (فالمعنى تقاتلونهم حتى يسلموا، وإلا أن لا يسلموا). ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٠. والشاهد من إعراب القرآن للنحاس: ج ٢ ص٥٦.

(٣) ذكره الواقدي في كتاب المغازي: ج ٢ ص٨٩.

وَقَفَتْ نَاقَتُهُ، فَزَجَرَهَا فَلَمْ تَنْزَجِرْ وَبَرَكَتْ، فَقَالَ ﷺ: [مَا هَذا بِعَادَةٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيْلِ].

وَدَعَا عُمَرَ ﷺ لِيُرْسِلَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَيَأْذَنُوا لَهُ بِأَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَيُحِلَّ مِنْ عُمْرَتِهِ وَيَنْحَرَ هَدْيَهُ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا لِي بِهَا حَمِيمٌ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيُّ بْنُ كَعْبٍ يَمْنَعُنِي، وَإِنِّي أَخَافُ قُرَيْشَ عَلَى نَفْسِي لأَنَّهَا قَدْ عَلِمَتْ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَلَكِنْ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ، قَالَ: [صَدَقْتَ]. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ فَأَرْسَلَهُ.

فَجَاءَ الشَّيْطَانُ وَصَاحَ فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: بِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَتَلُوا عُثْمَانَ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الشَّجَرَةِ فَاسْتَنَدَ إِلَيْهَا، وَبَايَعَ النَّاسَ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ مَكَّةَ.

قَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ مَعْقِلٍ: كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَبِيَدِي غُصْنٌ مِنَ الشَّجَرَةِ أَذبُّ بِهِ عَنْهُ وَهُوَ يُبَايِعُ النَّاسَ، كَانَ أَوَّلُ مَنْ بَايَعَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو سِنَانِ بْنِ وَهَبٍ(١).

واختلَفُوا في عددِ أهلِ البيعة، فقال قتادةُ: (كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً)، وقال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا أَلْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ)(٢)، وقال جابرُ: (كَانُوا أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةٍ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أي فعَلِمَ اللهُ ما في قلوبهم من الصِّدق والوفاءِ والإخلاصِ والعزمِ على القتال، ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني الطُّمأنينةَ والصبرَ والرضا حين بايَعُوا على أن يُقاتِلوا ولا يفِرُّوا، ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ ﴾ ؛ أي وأعطَاهم فتحَ خيبرَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٥). وذكره الواقدي في المغازي: ج ٢ ص٩١؛ ولكنه قال: (سنان بن أبي سنان بن محصَن) وأبو سنان هو وهب بن محصن، قاله ابن عبدالبر في الاستيعاب: الترجمة (١٠٧٧): ج ٢ ص٢١٨؛ وقال: (واسم أبي سنان وهب بن محصن) وسنان الابن، ورجح أن الأب هو أول من بايع.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٠١) وأصله عند مسلم في الصحيح.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٣٩٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ ؛ معناهُ: ومغانِمَ كثيرةً يأخذونَـها من أموال يهود خيبرَ، وكانت خيبرُ ذات عقـار وأمـوال، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ ؛ أي غالباً، ﴿ حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ في أمـرهِ، حكَـمَ لهـم بالغنيمـةِ، ولأهـلِ خيـبرَ بالسَّـبي والهزيمةِ.

وعن أنسٍ ﷺ: (وأنَا رَدِيفَ أبي طَلْحَةَ يَوْمَ أتَيْنَا إلَى خَيْـبَرَ، فَصَبَّحَـهُمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ أخَذُوا مَسَاحِيهِمْ وَفُؤُوسَهُمْ وَغَدَوا عَلَى حُرُوثِهِمْ، فَلَمَّا رَأوْنَـا ألْقَـوا مـا بأيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [اللهُ أكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذا نَزَلْنَا بسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَـاءَ صَبَاحُ الْمُنْذرينَ])[1].

وعن عبدِاللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أبيهِ قَالَ: (خَرَجْنَـا مَـعَ رَسُـول اللهِ ﷺ إلَـى خَيْـبَرَ، سَرَيْنَا لَيْلاً وَعَامِرُ بْنُ الأكْوَعِ مَعَنَا وَكَانَ شَاعِراً، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: ألاَ تُسْمِعُنَا يَا عَامِرُ، فَنَزَلَ يَحْدُوا بالْقَوْمِ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

اللَّـهُمَّ لَـوْلاَ أنْـتَ مَـا اهْتَدَيْنَـا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَـا وَلاَ صَلَّيْنَـا

هُـمُ الَّذِيـنَ بَغَـواْ عَلَيْنَـا ... وَنَحْـنُ مِـنْ فَضْلِـكَ مَـا اسْـتَغْنَيْنَا

فَـاغْفِرْ بفَضْلِـكَ مَـا أتَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الأقْـدَامَ إنْ لاقَيْنَـا

وَألْقِيَـنَّ السَّكِينَـةَ عَلَيْنَـا

قَالَ ﷺ: [مَنْ هَذا؟] قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأكْوَعِ، قَالَ: [قَـدْ غَفَـرَ لَـكَ رَبُّـكَ يَـا عَامِرُ] فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أمْتَعْتَنَا بهِ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ). وإنما قالَ ذلـكَ؛ لأنَّ رسـولَ الله ﷺ ما استغفرَ لرجُلٍ قطٌّ إلاَّ استُشهدَ.

قالَ: (فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ وَتَصَافَّ الْقَوْمُ، خَـرَجَ يَـهُودِيٌّ فَخَـرَجَ إلَيْـهِ عَـامِرُ بْـنُ الأكْوَعِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْـبَرُ أنِّـي عَـامِرُ ... شَـاكِي السِّـلاَحِ بَطَـلٌ مُغَـامِرُ

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٢٩٤٤ و٢٩٤٥) و(٢٩٩١). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب غزوة خيبر: الحديث (١٢٠/ ١٣٦٥).

وَاخْتَلَفَا بِضَرْبَتَيْنِ، فَوَقَعَ سَيْفُ الْيَهُودِيِّ فِي تِرْسِ عَامِرٍ، وَوَقَعَ سَيْفُ عَامِرٍ عَلَى رُكْبَةِ نَفْسِهِ وَسَاقِهِ فَمَاتَ مِنْهَا. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ: فَمَرَرْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: [كَذَبَ مَنْ قَالَ ذلِكَ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ].

ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيّاً ﷺ وَكَانَ حِينَئِذٍ أَرْمَدَ قَدْ عَصَبَ عَيْنَهُ بِشِقِّ بُرْدٍ، قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ: فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَا لَكَ يَا عَلِيُّ ؟] قَالَ: رَمِدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [أُدْنُ مِنِّي] فَدَنَا مِنْهُ، فَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرِئَ مِنْ سَاعَتِهِ، وَمَا وُجِعَتْ عَيْنَاهُ بَعْدَ ذلِكَ أَبَداً حَتَّى مَضَى سَبِيلَهُ. ثُمَّ أَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّايَةَ فَهَدَى بِهَا وَعَلَيْهِ حُلَّةُ أُرْجُوَانٍ حَمْرَاءُ، فَأَتَى مَدِينَةَ خَيْبَرَ، فَخَرَجَ مَرْحَبُ صَاحِبُ الْحِصْنِ وَعَلَيْهِ مِغْفَرٌ وَحَجَرٌ قَدْ ثَقَبَهُ مِثْلَ الْبَيْضَةِ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعَنُ أَحْيَاناً وَحِيناً أَضْرِبُ ... إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلْتَهِبُ(١)
كَانَ حِمَايَ مَانِعاً لاَ يَقْرَبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ ﷺ، وَقَالَ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ شَدِيدٍ قَسْوَرَهْ
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَاخْتَلَفَا بِضَرْبَتَيْنِ، فَبَدَرَهُ عَلِيٌّ ﷺ بِالضَّرْبَةِ فَقَدَّ الْحَجَرَ وَالْمِغْفَرَ وَفَلَقَ رَأْسَهُ فَوَقَعَ مَيِّتاً، وَكَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ)(٢).

ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ مَرْحَبَ أَخُوهُ يَاسِرُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي يَاسِرَهْ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُغَاقِرَهْ

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٤٧: (تَحَرَّبُ) بدل (تلتهب).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (١٨٠٧/١٣٢) عن طريق إياس بن سلمة عن أبيه.

إذا اللُّيُـــوثُ أَقْبَلَـــتْ مُبَـــادِرَهْ إنَّ سِـلاَحِي فِيْـــهِ مَـــوْتٌ حَـــاضِرَهْ

فَخَرَجَ إلَيْهِ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ:

قَـــدْ عَلِمْـــتَ أَنِّـــي زُبَـــارُ قَـــوْمٍ لِقَـــوْمٍ غَـــيْرُ نَـــاكِثٍ فَـــرَّار

ابْـــنُ حُمَـــاةِ الْمَجْـدِ وابْـــنُ الأَخْيَـــار يَاسِـــرُ لاَ يَغْـــرُرْكَ جَمْـــعُ الْكُفَّـــار

فَجَمْعُهُـــمْ مِثْـــلُ السَّـــرَاب جَـــار

فَقَالَتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِالْمُطَّلِب: أَيُقْتَلُ ابْنِي يَـا رَسُولَ اللهِ ؟ قَـالَ: [ابْنُـكِ يَقْتُلُهُ]. ثُمَّ الْتَقَيَا فَقَتَلَهُ زُبَيْرٌ[١].

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْتَحُ الْحُصُونَ حِصْناً حِصْناً، وَيَحُوزُ الأَمْوَالَ، فَلَمَّـا أَمْسَى النَّاسُ أَوْقَدَ نِيرَاناً كَثِيراً، فَقَالَ ﷺ: [عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ؟] قَالُوا: عَلَى لَحْمِ الْحُمُرِ الإِنْسِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أَهْرِقُوهَا وَاكْسِرُوا الْقُـدُورَ] فَقَـالُوا: نُـهْدِيكَ الْقُدُورَ وَنَغْسِلُهَا، فَقَالَ: [هِيَ أَوْ ذَاكَ].

ثُمَّ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حَيِيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَبِأُخْرَى مَعَهَا، أَتَى بِـهِمَا بِـلاَلٌ ﷺ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي مَعَ صَفِيَّةَ الْقَتْلَى مِـنَ الْيَـهُودِ صَرَخَـتْ وَصَكَّـتْ وَجْهَـهَا وَحَسَتِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَقَالَ ﷺ: [إعْزِلُوا عَنِّـي هَـذِهِ الشَّـيْطَانَةَ] وَأَمَـرَ بِصَفِيَّـةَ فَأُجْلِسَتْ خَلْفَهُ وَأَلْقَى عَلَيْهَا رِدَاءَهُ، فَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَصْفَاهَا لِنَفْسِهِ.

وَكَانَتْ قَدْ رَأَتْ فِي مَنَامٍ وَهِيَ عَرُوسُ كِنَانَةَ بْنَ رَبِيعٍ أَنَّ قَمَراً وَقَعَ فِي حِجْرِهَا، فَقَصَّتْ رُؤْيَاهَا عَلَى زَوْجِهَا فَلَطَمَ وَجْهَهَا لَطْمَةً اخْضَرَّتْ عَيْنَاهَـا مِنْـهَا، وَقَـالَ: إنَّـكِ تَتَمَنَّيْنَ مَلِكَ الْحِجَازِ مُحَمَّدًا.

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ خُضْرَةَ عَيْنِهَا سَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَأُوتِيَ مِـنْ زَوْجِهَا كِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيعِ كَانَ عِنْدَهُ كَنْزُ بَنِي النَّضِيرِ، فَسَأَلَهُ إيَّاهُ فَجَحَدَهُ أَنْ يَكُونَ عَالِمـاً بِمَكَانِهِ. فَجَاءَ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ كِنَانَةَ يَطُوفُ بِهَذِهِ الْخِرْبَةِ كُـلَّ غَـدَاةٍ، فَقَـالَ النَّبِيُّ ﷺ لِكِنَانَةَ: [أَرَأَيْتَ إنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَكَ أَأَقْتُلُكَ؟] قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٢١٧ مع بعض الاختلاف في ألفاظه. والواقدي في المغازي من ذون ذكر الرجز: ج ٢ ص١٣٠. وابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٣٤٨.

بالْخِرْبَةِ فَحُفِرَتْ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْضُ كَنْزِهِمْ، ثُمَّ سَأَلَهُ مَا بَقِيَ فَأَبَى أنْ يُؤَدِّيَهُ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَضُرِبَ عُنُقُهُ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ ؛ أي وعدَكم اللهُ في المستقبلِ من زمانٍ غنائمَ كثيرةً تأخذونها، قال مقاتلُ: (مَنْ قَاتَلَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[٢] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ ؛ يعني غنيمةَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ ؛ أي مَنَعَ أسَداً وغطفانَ من قتالِكم، وكانوا حُلفاء لأهلِ خيبرَ. وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قَصَدَ خَيْبَرَ وَحَاصَرَ أهْلَهَا، هَمَّتْ قَبَائِلُ مِنْ أسَدٍ وَغَطَفَانَ أنْ يُغِيرُواْ عَلَى عِيَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذرَارِيهِمْ بالْمَدِينَةِ، فَكَفَّ اللهُ أيْدِيَهُمْ بإلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبهِمْ[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أي ولتكون غنيمةُ خيبرَ دلالةً على المؤمنين على صدقِكَ يا مُحَمَّدُ، حيث إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّهم يُصيبونَها في المستقبلِ، ثم وجدَ المخبر على وفقِ الخبر، وقولهُ تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ ؛ أي ويُثيبكم على دينِ الإسلامِ، ويُرشِدكم إلى الأدلَّة في الدين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ ؛ أي وعدَكم فتحَ بلدةٍ أخرى لم يقدِرُوا عليها الآن، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ ؛ يفتحُها عليكم، قال الفرَّاءُ: (حَفِظَهَا لَكُمْ وَمَنَعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى يفتحهَا لَكُمْ)[٤].

واختلَفُوا فيها، فقالَ ابنُ عبَّاس وابن أبي ليلى والحسن ومقاتل: (هِيَ فَارسُ وَالرُّومُ) وَكَانَتِ الْعَرَبُ لاَ تَقْدِرُ عَلَى قِتَالِ فَارسَ وَالرُّومِ، وَفَتْحِ مَدَائِنِهَا حَتَّى قَدِرُواْ عَلَيْهَا بالإسْلاَمِ. وقال قتادةُ: (هِيَ مَكَّةُ)[٥]، وقال عكرمةُ: (هِيَ خَيْبَرُ). وقولهُ تعالى

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية: ج ٣ ص٣٥١. والبيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٢٣١-٢٣٢. وذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٠٦-١٢٠٧.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥١.

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥١.

(٤) بمعناه، قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٦٧.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٢١).

(قَدْ أحَـاطَ اللهُ بِـهَا) أي أحـاطَتْ قدرتـهُ بـها وبأهلِـها، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ كلُّ شيءٍ من فتحِ القُرَى والنصرِ وغيرِ ذلك قديرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ ؛ يعني أسَداً وغطفـانَ الذين أرَادُوا نَهب ذراري المسلمين فانْهَزَمُوا عنكم لأنَّ اللهَ ينصرُكم عليهم، ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ اللهِ خَذلَـهُ اللهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي سُـنة اللهِ الـتي قـد خلَتْ من قبلُ في نصرِ أوليائـهِ وقـهرِ أعدائـه؛ أي هـذه سُنَّتي في أهـلِ طاعـةٍ وأهـلِ معصيـةٍ أنصُـر أوليـائي وأخـذلُ أعدائـي، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لحكـمِ الله، ﴿ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ، تغييراً.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أوَّلُ هذه الآيةِ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منعَ أيدِي أهلِ مكَّة يومَ الحديبيةِ عن قتالِ المسلمين بالرُّعب، ومنعَ أيدينا عن قتالِهم بالنَّهي.

وَقِيْلَ: إنَّ المؤمنين لم يُنهَوا عن قتالِهم يومئذٍ، ولكن لم يقدِّرْ اللهُ ذلك للمؤمنـين إبقاءً للمؤمنين المستضعَفين الذين كانوا في أيدِي المشركين كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ .

وقولهُ تعالى: (مِنْ بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)، قال أنـسٌ ﷺ: (وَذلِـكَ أنَّ ثَمَـانِينَ رَجُلاً مِنْ أهْلِ مَكَّةَ هَبَطُـوا عَلَـى رَسُـول اللهِ مِـنْ جَبَـلِ التَّنْعِيـمِ عِنْـدَ صَـلاَةِ الْفَجْـرِ مُتَسَلِّحِينَ، يُرِيدُونَ غِرَّةَ[1] النَّبِيِّ ﷺ عَـامَ الْحُدَيْبِيَـةِ، فَـأَخَذهُمْ رَسُـولُ اللهِ وَأعْتَقَـهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَة) (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ببَطْنِ مَكَّة

---

(١) الغِرَةُ (بالكسر): الخدعة والغفلـة، أي يريـدون أن يجـدوا غفلـة مـن الاسـتعداد والتـأهب مـن الرسول ﷺ وأصحابه لينالوا منهم.

مِنْ بَعْدِ أنْ أظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)[١].

وقال ابنُ عبَّاس: (بَعَثَتْ قُرَيْشُ أرْبَعِينَ رَجُلاً أوْ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنْهُمْ، وَأمَرُوهُمْ أنْ يَطُوفُوا بعَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أصْحَابِهِ أحَداً. فَأُخِذُوا فَأُتِيَ بهِمْ رَسُولُ اللهِ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبيلَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا رَمَوا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ بالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). (هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)[٢] أي همُ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ والقرآنِ، يعني كفَّارَ مكة، وصَدُّوكم عن المسجدِ الحرام أن تطُوفوا به للعُمرة ويحلوا من عمرتِكم.

وقولهُ تعالى (وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً) أي وصَدُّوا الهديَ مَمْنُوعاً أن يبلغَ مَحِلَّهُ الذي إذا صارَ إليه حلَّ نحرهُ وهو الحرمُ، وكان النبيُّ ﷺ ساقَ في ذلك العام سَبعين بَدْنَةً إلى مكَّة. (مَعْكُوفاً) في اللغة هو الممنوعُ عن الذهاب في جهته بالإقامةِ في مكانه، يقالُ: عَكَفَ على الأمر عكوفاً، واعْتَكَفَ في المسجدِ إذا أقامَ به.

ومعنى الآيةِ: هم الذين كفَرُوا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام، وصدُّوا الهديَ وهي البُدْنُ التي ساقها رسولُ الله ﷺ وكانت سَبعين بَدْنَةً معكوفاً أي مَحْبُوساً أن يبلُغَ مَحِلَّهُ أي مسجدَهُ، وهذه الآيةُ دلالةٌ على أن مَحِلَّ الهدي الحرمُ، ولو كان محلهُ غيرُ الحرمِ لَمَا كان مَعْكُوفاً عن بلوغِ محلِّه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ولو تطَأُوا رجالاً مُؤمِنين ونساءً مُؤمِنات مُقيمَات بمكَّة لم تعلَمُوهم فتقتلوهم، ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم ﴾ ، قِبَلَهم، ﴿ مَّعَرَّةٌۢ ﴾ ؛ أي عَيْبٌ ومسَبَّة في العرب بأنَّكم قتَلتُم أهلَ دينِكم، ويقالُ: أراد بالْمَعَرَّةِ الغَمَّ والجزعَ. وجوابُ (لَوْلاَ) محذوفٌ تقديرهُ:

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب الآية: الحديث (١٣٣/١٨٠٨). وأبو داود في السنن: كتاب الجهاد: الحديث (٢٦٨٨). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٦٤)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٤٢٤) وفيه إسناد مجهول غير متهم عند محمد بن إسحق.

لولا ذلك لدَخلتُم على أهلِ مكَّة ولوطأتموهم لَيلاً ولضَربتُم رقابَ المشـركين بنَصرنـا إيَّاكم، ولكنَّ اللهَ منعَ من ذلك كراهةَ وطءِ المؤمنين المستضعَفين الذيـن كـانوا بمكَّـة، والمؤمناتِ بالقتلِ لأنَّهم لو دخَلُوا مكَّة لم يتميَّز لهم المؤمنون من الكفَّار، فلم يأمَنوا أن يَقتُلوا المؤمنين.

وَقِيْلَ: المراد بالْمَعَرَّةِ الإثْمُ والدِّية والكفَّارَةُ، إلا أن الصحيح[1] ما ذكرنـاهُ مـن قبلُ؛ لأنه لا خلافَ بين العلماءِ أنَّ المسلمين إذا قصَدُوا[2] حِصْناً من حُصون الكفـار وقاتلهم وأصَابُوا من في الحصنِ من أطفال الكفَّار ومن أسَارى المسـلمين أنـه لا إثـمَ عليهم ولا ديَّة ولا كفارة، ولقد حاصرَ رسولُ الله ﷺ أهلَ الطائفِ ورمَاهم بالمنجنيقِ مع نَهْيِهِ عن قتلِ النساء والولدان[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ موضعهُ التقديمُ، تقديرهُ: لولا أن تَطأُوهم بغيرِ علم، ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ اللامُ متعلِّقة بمحذوفٍ دلَّ عليه معنـى الكلامِ على تقدير: حالَ بينَكم وبينهم (لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَـنْ يَشَـاءُ) يعـني مَـن أسلمَ مِن الكفَّار بعـدَ الصُّلـح، ورحمـةُ الله جنَّتـهُ، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لو تميَّزَ المؤمنون عـن الكفَّـار لعَذبنا الكفارَ عَذاباً أليماً يعني بالقتلِ والسَّبي بأيدِيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ قال مقاتلُ: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْحُدَيْبِيَةَ وَمَعَهُ الْهَدْيُ، قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ: قَتَلَ مُحَمَّـدٌ أبْنَاءَنَا وَإخْوَانَنَا، ثُمَّ أتَانَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا فِي مَنَازِلِنَا، فَتُحَدِّثُ الْعَرَبُ أنَّـهُمْ دَخَلُـوا عَلَيْنَـا عَلَى رَغْمِ آنَافِنَا، واللاَّتِ وَالعُزَّى لاَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا. فَهَذِهِ الْحَمِيَّةُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّـةِ الَّتِـي دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ)[4].

---

(١) في المخطوط: (الآن الصحيح).

(٢) في المخطوط: (قصد).

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص١٢٦.

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٥٢-٢٥٣ مع اختلاف في بعض ألفاظه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حتى لم يدخلوا، ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ وهو كلمةُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، الكلمةُ التي يُتَّقي بها من الشِّرك.

والحميَّةُ في اللغة: هي الأَنَفَةُ التي تَحمِي الإنسان كأنَّ قُلوبَهم حَمِيَّةٌ لِمَعصيَةِ اللهِ، فأنزلَ اللهُ بدلُ ذلك على قلب نبيِّه ﷺ وعلى قلوب المؤمنين من الطُّمأنينةِ والسُّكون والوقَار والهيبةِ، وألزَمَهم توحيدَ اللهِ والإيمان برسولهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ؛ أي كانُوا أحَقَّ بكلمةِ التوحيد من كفَّار مكَّة وكانوا أهلَها في علمِ الله تعالى مستحقِّين لها في الدُّنيا، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من أمرِهم، ﴿ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

وعن وعثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقّاً مِنْ قَلْبهِ إلاَّ حَرَمَهُ عَلَى النَّار]، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: (أنَا أحَدِّثُكَ بهَا، هِيَ كَلِمَةُ الإخْلاَصِ الَّتِي ألْزَمَهَا اللهُ مُحَمَّداً وَأصْحَابَهُ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى)[(١)].

وقال عطاءُ الخراساني: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)[(٢)]. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنْ سُئِلَ عَنْ كَلِمَةِ التَّقْوَى فَقَالَ: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَاللهُ أكْبَرُ)[(٣)]، وهو قولُ ابن عمر[(٤)]. وقال عطاءُ بن رَباح: (هِيَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[(٥)].

وَقِيْلَ:إنَّ الْحَمِيَّةَ التي جعلَها الكفارُ في قلوبهم، هي مَا رُوي: أنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا سَأَلُواْ رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يَكْتُبَ لَهُمْ بكِتَاب الصُّلْحِ، قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: [أكْتُبْ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: أمَّا الرَّحْمَنُ فَلاَ نَدْري مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لاَ يَكْتُبُهَا إلاَّ بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد عن حمران مولى عثمان).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٤٦) بأسانيد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٥).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٥٨).

فَقَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ: [اُكْتُبْ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثُمَّ اكْتُبْ: هَذا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ]. فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: وَاللهِ لَوْ نَعْلَمُ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، لَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ وَاسْمِ أبيكَ، فَقَالَ ﷺ: [إنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَلَقَدْ كَذبْتُمُونِي].

وَقَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: [اُمْحُ رَسُولَ اللهِ ﷺ] فَقَالَ عَلِيٌّ: لاَ أمْحُوكَ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَمَحَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: [اُكْتُبْ: هَذا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ سُهَيْلَ ابْنَ عَمْرٍو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَ النَّاسِ بكَفٍّ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أنَّهُ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ مِنْ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَاجّاً أوْ مُعْتَمِراً أوْ يَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللهِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ. وَمَنْ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ قُرَيْشٍ مُجْتَازاً إلَى مِصْرَ أو الشَّامِ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ][(١)].

فهذه الحميَّةُ التي في قلوبهم، يعني الأنَفَةَ من الاستفتاح ببسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ومن قوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأى فِي الْمَنَامِ وَهُوَ بالْمَدِينَةِ قَبْلَ أنْ يَخْرُجَ إلَى الْحُدَيْبيَةِ كَأنَّهُ هُوَ وَأصْحَابُهُ حَلَقُوا وَقَصَّرُوا، فَأخْبَرَ بذلِكَ أصْحَابَهُ فَفَرِحُوا وَحَسِبوا أنَّهُمْ دَاخِلُوا مَكَّةَ عَامَهُمْ ذلِكَ، وَقَالُوا: إنَّ رُؤْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ حَقٌّ.

فَلَمَّا رَجَعَ وَأصْحَابُهُ مِنَ الْحُدَيْبيَةِ وَلَمْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، قَالَ الْمُنَافِقُونَ: وَاللهِ مَا حَلَقْنَا وَلاَ قَصَّرْنَا وَلاَ دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ[(٢)]. فأنزلَ اللهُ الآيةَ وأخبرَ أنه أرى رسولَ اللهِ الصِّدقَ في منامه، وأنَّهم يدخلونَهُ فقالَ اللهُ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ ؛ يعني العامَ المقبل، ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ ؛ قال أبو عُبيدة: (إنَّ مَعْنَى: إنْ شَاءَ اللهُ) حَيْثُ أُرِيَ رَسُولَ اللهِ فِي الْمَنَامِ. وقال أبو العبَّاس أحمدُ بن يحيى: (استَثْنَى اللهُ فِيمَا يَعْلَمُ، لِيَسْتَثْنِي الْخَلْقُ فِيمَا لاَ يَعْلَمُونَ)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلح: الحديث (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٦٤).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٠؛ قال القرطبي: (قاله ثعلب) وثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بـ (ثعلب).

وَقِيْلَ: معناهُ: بمشيئةِ اللهِ، وقال بعضُهم: هذا اللفظُ حكايةُ الرُّؤيا التي رَآها النبيُّ ﷺ، وذلك أنَّهُ رأى في المنامِ أنَّ ملَكاً يُنادي: (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ). وَقِيْلَ: إنما كان ذلك تأديباً للعبادِ لِيَدخُلوا كلمةَ الاستثناءِ فيما يُخبرونَ عنه في المستقبلِ من نفيٍ وإثبات، قوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ ؛ أي آمِنين من العدوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ؛ قَريباً أنَّهم يدخُلون مكَّة إلى أنْ يبلُغوا آخرَ النُّسُكِ، ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ ؛ العدوَّ، بخلافِ عامِ الحديبية. فيه دليلٌ أن الحلقَ والتقصيرَ قُرْبَةٌ في الإحرامِ من حيث إن الإحلالَ يقعُ بهما، وفيه دليلٌ أن المحرِمَ بالخيار عند التحليلِ من الإحرام إنْ شاءَ حَلَقَ وإنْ شاء قصَّرَ. وفي الحديثِ: [أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَعَا لِلْمُحَلِّقِينَ ثَلاثاً، وَلِلْمُقَصِّرِينَ مَرَّةً].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَخَافُونَ) أي لا تخافُون من المشركين، ﴿ فَعَلِمَ ﴾ ؛ اللهُ ما في تأخيرِ الدُّخول عامَ الحديبيةِ من الخيرِ والصَّلاحِ، ﴿ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ ؛ أنتم، ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي من قبلِ الدُّخول، ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ يعني فتحَ خيبر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ؛ أي أرسلَ رسولَهُ بالطريقِ المؤدِّي الى الجنَّة ودينِ الإسلام لِيُظهرَ دينَ الإسلامِ على الأديانِ كُلِّها بالحجَّة والغلَبَة، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ، على نبُوَّتكَ ورسالتكَ إنْ لم يشهَدْ سُهَيلُ وأمثالهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ هذا مبتدأ وخبرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ ؛ أي والَّذين معَهُ من المؤمنين أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار، غِلاَظٌ عليهم، والأشِدَّاءُ جمعُ الشَّديدِ، وهو قويٌّ في دينِ الله تعالى، القويُّ على أعداءِ الله، كانوا لا يَميلُونَ إلى الكفَّار لقرابَةٍ ولا غيرِها، بل أظهَرُوا لهم العداوةَ في الدينِ، وكانوا على الكفَّار كالأسَدِ على فرسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي مُتوادِدُون فيما بينَهم، مُتعاطِفُون حتى أنَّهم كانوا بعضَهم لبعضٍ كالوالدِ لولدِه، والعبدِ لسيِّدهِ، وقولهُ تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

﴿سُجَّدًا﴾ ؛ أي رَاكعين وساجِدين يُكثِرون الصلاةَ للهِ، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ ؛ يعني الجنَّةَ، ورضَى اللهِ تعالى.

قولهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ؛ أي علامةُ التهجُّد ظاهرةٌ على وجوهِهم من كثْرَةِ السُّجود بالليلِ، والمعنى يتبيَّن في وُجوهِهم أثرُ السَّهَر، قال الضحَّاك: (إذا سَهِرَ أصبَحَ مُصْفَرّاً)[1]، وقال عطيَّةُ: (مَوَاضِعُ السُّجُودِ أشَدُّ بَيَاضاً فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[2]. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي الأَثَرُ: الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُعُ وَالسَّمْتُ الْحَسَنُ)[3]. وقال عكرمةُ:(هُوَ التُّرَابُ عَلَى الْجِبَاهِ لأَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ عَلَى التُّرَاب لاَ عَلَى الثِّيَاب)[4].

وقال الحسنُ في وصفِهم: (إذا رَأيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مَرْضَى، وَمَا بالْقَوْمِ مَرَضٌ، وَيَقُولُ: لَعَلَّهُمْ خُولِطُواْ فِي عُقُولِهِمْ، وَاللهِ لَقَدْ خَالَطَهُمْ أمْرٌ عَظِيمٌ). يريدُ بذلك ما في قلوبهم من خوفِ الآخرةِ.

وقال بعضُهم: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ) هو نورٌ يجعلهُ الله في وجوهِهم يومَ القيامةِ، يُعرَفون بتلك العلامةِ أنَّهم سجَدُوا في الدُّنيا كما قالَ اللهُ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[5]، وقال النبيُّ ﷺ: [تُحْشَرُ أمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَار الْوُضُوءِ][6].

وقال منصورُ: (سَأَلْتُ مُجَاهِدَ عَنْ قَوْلِهِ: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ) قَالَ: لَيْسَ هُوَ الأَثَرُ الَّذِي يَكُونُ فِي جَبْهَةِ الرَّجُلِ مِثْلَ رُكْبَةِ الْبَعِيرِ، فَقَدْ يَكُونُ ذلِكَ برَجُلٍ هُوَ أقْسَى قَلْباً مِنَ الْحِجَارَةِ، وَلَكِنْ هُوَ نُورٌ فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٨٠).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٥.

(٥) آل عمران / ١٠٦ .

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب الحشر: الحديث (٦٥٢٤ و٦٥٢٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب فناء الدنيا: الحديث (٥٧/ ٢٨٦٠).

الْخُشُوعِ)(١). وقال ابن جُرَيج: (هُوَ الْوَقَارُ)، وقال سَمُرة: (هُوَ الْبَهَاءُ)، وقال سفيانُ:(يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ، فَإِذا أَصْبَحُوا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِهِمْ؛ بيانُهُ قولُهُ ﷺ: [مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَار](٢). وروي في بعض الأخبار: أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا نَارُ أَنْضِجِي، يَا نَارُ أَحْرِقِي وَمَوْضِعَ السُّجُودِ لاَ تقربي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ ؛ أي ذلك الَّذي ذكرَهُ في القرآن مَن وصفَهم هو ما وُصِفوا به في التَّوراةِ، ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ ؛ أيضاً، ثم ذكَرَ اللهُ وَصْفَهم في الإنجيلِ: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ ؛ أي سبيلَهُ، وقال ابنُ زيدٍ:(أوْلاَدَهُ). والشَّطْأُ: فِرَاخُ الزَّرعِ، يقالُ: الشَّطْأُ الزَّرْعُ أنْ يُخرِجَ سَبْعاً أو ثمانياً أو عَشْراً، وهذا مثَلٌ ضربَهُ اللهُ لأصحاب النبيِّ ﷺ، يعني أنَّهم يكُونون قَليلاً ثم يَزدَادون ويَكثُرون ويَقْوَوْنَ، قال قتادةُ: (مَكْتُوبٌ فِي الإنْجِيلِ: أنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)(٣).

قرأ العامَّةُ (شَطْأَهُ) بإسكان الطَّاء، وقرأ بعضُ أهلِ مكَّة والشامِ بفتحِها، وقرأ يحيى بن وثَّاب (شَطَأَهُ) مثل عصَاهُ، وقرأ الجحدري: (شِطْهُ) بلا همزةٍ، وكلُّها لغاتٌ(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ ؛ أي أعانَهُ الشَّطْأُ وقوَّاهُ وشَدَّهُ، مأخوذٌ من المؤازرةِ وهي المعاوَنَةُ، والأَزْرُ: الظاهرُ، والوزيرُ الْمُعِينُ، وأعانَهُ الزرعُ، الشطْ أنْ يَخرُجَ من الشَّطْأ ثمانٌ وتسع وعشرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ ؛ أي غَلُظَ ذلك الزَّرعُ وتقَوَّى، ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ ؛ أي قامَ على قَصَبهِ وسَاوَى الصِّغَارُ والكبارَ حتى استوَى بعضهُ مع

---

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٤٨٢) عن منصور عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب ما جاء في قيام الليل: الحديث (١٣٣٣). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٣؛ قال القرطبي: (وقال ابن العربي: ودسَّهُ قوم في حديث النبي ﷺ على وجه الغلط، وليس فيه عن النبي ﷺ ذكر بحرف).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٤٥٠٠).

(٤) ذكرها أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٢٩٥.

بعضٍ، وصارَ الفرعُ مثلَ الأُمِّ. والسُّوقُ: جمعُ سَاقٍ، وهو قصبةُ الزَّرعِ، وساقُ الشَّجرةِ حاملةُ الشَّجرةِ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالسَّاق: الكَعْبُ، وكلَّما ازدادَ الزَّرعُ كَعْباً ازدادَ قوَّةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾؛ أي يصيرُ بحالٍ يُعجِبُ الْحُرَّاثَ.

وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ تعـالى لِمُحَمَّـدٍ وأصحابـِهِ، فـالزَّرْعُ مُحَمَّـدُ ﷺ، والشَّـطْأُ أصحابهُ والمؤمنون حولَهُ، وكانُوا في ضَعْفٍ وقلَّةٍ كما كان أوَّلُ الزرعِ دَقيقـاً ثـم غَلُـظَ وقَوِيَ وتلاحَقَ، وكذلك المؤمنون قَوَّى بعضُهم بعضاً حتى استَغلَظُوا واسـتوَوا علـى أمرِهم، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾؛ أي إنَّما كثَّرهم وقوَّاهُم ليكونوا غيظاً للكافرين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ قال الزجَّاجُ: (مِنْهُمْ) لِلْجِنْسِ وَلَيْسَ يُرِيدُ بَعْضَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ كُلُّـهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَالأَجْرُ الْعَظِيمُ هُوَ الْجَنَّةُ)[1].

آخر تفسير سورة (**الفتـح**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٤-٢٥؛ قال الزجاج: (فيه قولان: أن تكون ﴿منهم﴾ هـهنا تخليصاً للجنس من غيره كما نقول: أنفق نفقتـك مـن الدراهـم لا مـن الدنانـير، المعنـى اجعـل نفقتك من هذا الجنس، وكما قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَـانِ﴾ لا يريـد أن بعضـها رجـس وبعضها غير رجس، ولكن المعنى اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسَبْعُون حَرْفاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْحُجُرَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَاهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي لا تقطعُوا أمراً دونَ اللهِ ورسولهِ، ولا تعجَلُوا بهِ، وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قولهِ (لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ): (أيْ تَصُومُوا قَبْلَ أنْ يَصُومَ نَبيُّكُمْ ﷺ)[2] ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في تَضييعِ حقِّه ومخالفةِ أمرهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ ؛ لأقوالِكم، ﴿ عَلِيمٌ ۝١ ﴾ ؛ بأفعالِكم، وقال جابر:(نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ) فِي النَّهْيِ عَنِ الذبْحِ يَوْمَ الأَضْحَى قَبْلَ الصَّلاَةِ)[3].

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (نَزَلْنَ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِّ)، وعن مسروقٍ قالَ:(دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي يَوْمِ الشَّكِّ، فَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ:

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٢٦٩، وهو من رواية الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٦٩.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٣ ص٣٤٤: الحديث (٢٧٣٤). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٥٤٧ عزاه السيوطي للطبراني في الأوسط وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥١٦) عن الحسن وقتادة. وأصله عن أنس وجندب والبراء رضي الله عنهم كما عند البخاري في الصحيح: كتاب الأضاحي: الحديث (٥٥٦١ و٥٥٦٢ و٥٥٦٣).

اسْقِيهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَتْ: قَدْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ صَوْمِ هَذا الْيَوْمِ، وَفِيهِ نَزَلَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ)(١).

وعن الحسن البصريّ قال: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الذبْحِ يَوْمَ الأَضْحَى، كَأَنَّهُ قَالَ: لاَ تَذْبَحُوا قَبْلَ ذَبْحِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذلِكَ أَنَّ نَاساً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ذَبَحُوا قَبْلَ صَلاَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعِيدُوا الذبْحَ)(٢).

وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنه قال: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَهْطاً مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ رَجُلاً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرو، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأَنْ يَمُرُّوا عَلَى بَنِي سُلَيْمٍ، فَبَاتُوا عِنْدَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الرَّحِيلِ، أَضَلَّ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعِيراً لَهُمْ، فَاسْتَأْذَنُوا الْمُنْذِرَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ حَتَّى يَطْلُبُوهُ، فَأَذِنَ لَهُمْ.

وَسَارَ الْمُنْذِرُ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ، وَكَانَتْ بَنُوا سُلَيْمٍ دَسَّتْ إِلَى بَنِي عَامِرٍ خَبَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَعَدُّوا لِقِتَالِهِمْ وَاجْتَمَعُوا لَهُمْ، فَسَارَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى بِئْرِ مَعُونَةَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً وَقُتِلَ الْمُنْذِرُ وَأَصْحَابُهُ، وَقُتِلَ أَحَدُ الأَرْبَعَةِ وَرَجَعَ الثَّلاَثَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَقُوا رَجُلَيْنِ خَارِجَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالُوا: مِمَّا أَنْتُمَا؟ فَقَالاَ: مِنْ بَنِي عَامِرٍ، فَقَالُوا: إِنَّهُمَا مِنْ عَدُوِّنَا، فَقَتَلُوهُمَا وَأَخَذُوا سَلْبَهُمَا.

وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذكَرُوا لَهُ الْقِصَّةَ، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: [بِئْسَمَا فَعَلْتُمْ، إِنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ مِيثَاقِي مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَهَذا الَّذِي مَعَكُمْ مِنْ سَلْبِهِمَا مِنْ كِسْوَتِي].

وَجَاءَ السُّلَيْمِيُّونَ يَطْلُبُونَ الْقَوَدَ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [إِنَّ صَاحِبَيْكُمْ اعْتَزَمَا إِلَى عَدُوِّنَا، فَلاَ قَوَدَ فِيهِمَا وَلَكِنَّا نُؤَدِّي إِلَيْكُمُ الدِّيَةَ] فَأَمَرَ عليه السلام أَنْ تُقْسَمَ دِيَتَهُمَا عَلَى أَهْلِ مِيثَاقِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

---

(١) ينظر: الرقم السابق.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥١٦).

(٣) أخرج مسلم قصته في الصحيح: كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد: الحديث (١٤٧/ ٦٧٧) بلفظ مختلف عنه. والقصة أيضاً في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص١٩٤٠.

والمعنى: لا تُقدِّموا بقولٍ ولا فعلٍ حتى يكون النبيُّ ﷺ هو الذي يأمُركم في ذلك. وَقِيْلَ: إنَّ ناساً كانوا يقولون: لو أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بكذا ونَهى عن كذا، فقِيلَ: لا تُقدِّموا بين يدَي اللهِ ورسولِه، فإنَّ اللهَ أعلمُ بصلاحِ خَلقهِ.

وقرئَ (لاَ تَقَدَّمُوا) بفتحِ التاء والدال، فيجوزُ أن يكون معناهما واحداً، يقالُ: قدَّمتُ في كذا وتَقدَّمتُ فيه، كما يقالُ عَجِلتُ في الأمر وتعَجَّلتُ فيه بمعنى واحدٍ، ويجوز أنْ يكون معنى الضمِّ: لا تُقدِّمُوا كلامَكم ولا فعلَكم وما أنتم صانِعون في أمرٍ من الأمُور قبلَ أن يأمُركم اللهُ ورسوله. ومعنى قراءةِ الفتحِ لا تَقَدَّموا بأمرٍ ولا فعلٍ بحضرةِ النبيِّ ﷺ حتى يأمُركم به.

وَقِيْلَ: إنَّها نزلت في قومٍ كانوا يحضُرون مجلسَ النبيِّ ﷺ، فإذا سُئل الرسولُ عن شيءٍ خاضُوا فيه، وتقدَّمُوا بالفتوَى والقول، فنُهوا عن ذلك وزُجِرُوا عن أنْ يقولَ أحدٌ في شيءٍ من دينِ الله قبلَ أن يقولَ رسولُ الله.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: لا تَمشُوا بين يدَي رسول الله ﷺ، وكذلك بينَ يدَي العُلماءِ؛ فإنَّهم ورثةُ الأنبياءِ، ودليلُ هذا ما رُوي عن أبي الدَّرداءِ ﷺ قال: رآني رَسُولُ اللهِ ﷺ أمْشِي أمَامَ أبي بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: [أتَمْشِي أمَامَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَى أحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ خَيْرٌ مِنْ أبي بَكْرٍ ﷺ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ رُوي: أنَّ رَهْطاً مِنْ بَنِي تَمِيمٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، مِنْهُمُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابسٍ وَعُطَاردُ ابْنُ الْحَاجِب وَالْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، فَقَامُوا عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ، فَنَادَى الأَقْرَعُ ابْنُ حَابسٍ: يَا مُحَمَّدُ أتَأذَنُ لِي فِي الْكَلاَمِ ؟ فَوَاللهِ إنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ وَذمِّي لَشَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: [كَذَبْتَ! ذلِكُمُ اللهُ تَعَالَى].

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٧١ بإسناده، وفيه مجهول. ووصله الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١٢ ص٤٣٣: ترجمة (٦٩٠١). ووصله أبو نعيم من طريق آخر في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٣٠١-٣٠٢.

ثُمَّ أذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، فَقَالَ: [يَا مُحَمَّدُ أتَأْذَنُ لِخَطِيبِنَا ؟] فَقَالَ ﷺ: [أُدْعُوا إلَيَّ ثَابتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ] فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: [لِيَتَكَلَّمْ صَاحِبُكُمْ] فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: [أجِبْ يَا ثَابتَ] فَأَجَابَهُ.

فَقَالَ الأَقْرَعُ: [إئْذَنْ لِشَاعِرِنَا يَا مُحَمَّدُ] فَقَالَ عليه السلام: [أُدْعُوا إلَيَّ الْقَارعَةَ] يَعْنِي حَسَّانَ، فَلَمَّا جَاءَ حَسَّانُ قَالَ ﷺ: [لِيَتَكَلَّمْ شَاعِرُكُمْ] فَلَمَّا تَكَلَّمَ، قَالَ ﷺ: [أجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَأَجَابَهُ، فَقَالَ عُطَارِدُ لِلأَقْرَعِ: وَاللهِ إنَّ مُحَمَّداً الْمُؤْتَى لَهُ - أيْ أعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ - فَإنَّ خَطِيبَهُ أخْطَبُ مِنْ خَطِيبنَا، وَشَاعِرُهُ أشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا[١].

وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَكَانَ أشَدَّهُمْ صَوْتاً وَأعْلاَهُمْ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ بهِ صَمَمٌ لاَ يَكَادُ يَسْمَعُ إلاَّ أنْ يُصَاحَ بهِ فَيُجِيبُ بمِثْلِهِ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، ونُهوا أن يَرفعُوا أصواتَهم على صوتِ النبيِّ ﷺ تعظيماً له؛ لأن رفعَ الصَّوت على الإنسانِ يُوهِمُ الاستخفافَ به في ظاهرِ الحال.

وعن جابر بن عبدِالله[٢] قال: (لَمَّا جَاءَ بَنُو تَمِيمٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَادَوا عَلَى الْبَاب: اخْرُجْ يَا مُحَمَّدُ؛ فَإنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ وَذمَّنَا شَيْنٌ، قَالَ: فَخَرَجَ إلَيْهِمْ وَقَالَ: [إنَّمَا ذلِكُمْ اللهُ الَّذِي مَدْحُهُ زَيْنٌ وَذمُّهُ شَيْنٌ] قَالُوا: نَحْنُ أنَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، جِئْنَا بشَاعِرِنَا وَخَطِيبنَا لِشَاعِرِكُمْ وَنُفَاخِرُكَ، فَقَالَ ﷺ: [مَا بالشِّعْرِ بُعِثْتُ وَلاَ بالْفَخَار أمِرْتُ، وَلَكِنْ هَاتُوا]. فَقَالَ لِشَابٍّ مِنْ شَبَابهِمْ: قُمْ يَا فُلاَنُ فَاذْكُرْ فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ فَقَالَ:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ، وَآتَانَا أمْوَالاً نَفْعَلُ فِيْهَا مَا نَشَاءَ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْر أهْلِ الأَرْضِ وَأكْثَرهِمْ عُدَّةً وَسِلاَحاً وَمَالاً، فَمَنْ أنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بقَوْلٍ هُوَ أحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا، وَفِعَالٍ هِيَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِنَا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٢٠٦-٢٠٨: قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات. وينظر: ج ٤ ص٢١٢.

(٢) الحديث بطوله في كنز العمال: الغزوات والوفود: الحديث (٣٠٣١٦)، ونسبه إلى الروياني وابن منده.

فَقَالَ ﷺ لثابتِ بن قَيس[1]، وكَانَ خَطِيبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: [قُمْ] فَقَامَ فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ أحْمَدُهُ وَأسْتَعِينُهُ وَأؤْمِنُ بهِ وَأتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهاً فَأعْظَمَهُمْ أخْلاَقاً فَأجَابُوهُ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنَا أنْصَارَهُ، وَرِدَّ اللهُ لِرَسُولِهِ وَعِزَّ الْمَدِينَةَ. فَنَحْنُ نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ، وَمَنْ أبَاهَا قَتَلْنَاهُ، وَكَانَ قَتْلُهُ فِي اللهِ عَلَيْنَا هَيِّناً، أقُولُ قَوْلِي وَأسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

فَقَالُوا لِشَابٍّ مِنْهُمْ: قُمْ يَا فُلاَنُ فَقُلْ أبْيَاتاً تَذْكُرُ فِيهَا فَضْلَكَ وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَامَ الشَّابُّ[2] وَقَالَ:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... مِنَّا الرُّؤُوسُ وَفِينَا تَقْسَمُ الرِّبَعُ
وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمُ ... لَحْمَ الشِّوَاءِ اذا لَمْ يُؤنَسِ الْقَزَعُ
إنَّا أبَيْنَا وَلاَ يَأْبَى لَنَا أحَدُ ... إنَّا كَذلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فَقَالَ ﷺ: [أجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَقَالَ:

إنَّ الذوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ[3]
يَرْضَى بِهِم كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الإلَهِ وكُلَّ الْخَيرِ يَصْطَنِعُ

ثُمَّ قَالَ حَسَّانُ أيْضاً:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ وَالدِّينَ عَنْوَةً ... عَلَى رَغْمِ عَاتٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ
بِضَرْبٍ كَإيْزَاعِ الْمَخَاضِ مَشَاشُهُ ... وَطَعْنٍ كَأفْوَاهِ اللِّقَاحِ الصَّوَادِرِ

---

(١) في المخطوط: (لقيس بن ثابت). وهو تحريف، والصحيح كما أثبتناه.

(٢) شعر الزبرقان بن بدر في الفخر بقومه، كما في السيرة النبوية: ج ٤ ص٢٠٨. و(القزعُ): السحاب الرقيق. يريد إذا لم تمطرهم السماء، فأجدبت أرضهم. و(وفينا تقسم الرِّبع)، أي إننا رؤساء وسادة، وذلك لأن الرئيس كان ياخذ ربع الغنيمة في الجاهلية.

(٣) الذوائب: السادة، وأصله من ذوائب المرأة، وهي غدائرها التي تعلو رأسها، وأصله كما في المخطوط: (إن الذوائب من فهر هم شرعوا لقومهم سنة للناس). وكأن فيه سقط، وضبطناه كما في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٢١٠.

وَسَلْ أُحُداً لَمَّا اسْتَقَلَّتْ شِعَابُهُ ... بضَرْبٍ لَنَا مِثْلَ اللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ
أَلَسْنَا نَخُوضُ الْخَوْضَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ... إذا طَابَ وِرْدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ
وَنَضْرِبُ هَامَ الدَّارِعِينَ وَنَنْتَمِي ... إلَى حَسَبٍ مِنْ جِذْمِ غَسَّانَ قَاهِرِ
فَلَوْلاَ حَيَاءُ اللهِ قُلْنَا تَكَرُّماً ... عَلَى النَّاسِ بِالْخَيفَيْنِ هَلْ مِنْ مُنَافِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى ... وَأَمْوَاتُنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَقَابِرِ

فَقَالَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: وَاللهِ لَقَدْ جِئْتَ لأَمْرٍ مَا حَالَ حَوْلاً، وَإنِّي قَدْ قُلْتُ شِعْراً فَاسْمَعْهُ، فَقَالَ هَاتِ، فَقَالَ:

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفِ النَّاسُ فَضْلَنَا ... إذا خَالَفُونَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَإنَّا رُؤُوسُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَعْشَرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ
وَإنَّ لَنَا الْمِرْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ ... تَكُونُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَائِمِ

فَقَالَ ﷺ: [أَجِبْهُ يَا حَسَّانُ] فَقَالَ:

بَنُو دَارِمٍ لاَ تَفْخَرُوا إنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبَالاً عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ ... لَنَا خَوَلٌ مَا بَيْنَ ظِئْرٍ وَخَادِمِ(١)

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَقَدْ كُنْتَ غَنِيّاً يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْكَ مَا قَدْ ظَنَنْتَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسَوْهُ] قَالَ: فَكَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ حَسَّان، ثُمَّ رَجَعَ حَسَّانُ إلَى شِعْرِهِ، فَقَالَ:

وَأَفْضَلُ مَا نِلْتُمْ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلاَ ... رِدَافَتُنَا عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ(٢)
فَإنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ ... وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ نِدّاً وَأَسْلِمُوا ... وَلاَ تَفْخَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ بِدَارِمِ
وَإلاَّ وَرَبِّ الْبَيْتِ مَالَتْ أَكُفُّنَا ... عَلَى هَامِكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ

---

(١) في كنز العمال: (ما بين قِنٍّ وخادم).

(٢) في كنز العمال:

وَأَفْضَلُ مَا نِلْتُمْ مِنَ الْفَضْلِ وَالْعُلاَ ... رِدَافَتُنَا مِنْ بَعْدِ ذِكْرِ الْمَوَاسِمِ

فَقَامَ الأَقْرَعُ وَقَالَ: إنَّ مُحَمَّداً الْمُؤْتَى لَهُ، وَاللهِ مَا أدْري مَا هَـذا الأَمْـرُ؛ تَكَلَّـمَ خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُمْ أحْسَنَ قَوْلاً، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُمْ أحْسَنَ شِعْراً.

ثُـمَّ دَنَـا مِـنَ النَّـبِيِّ ﷺ فَقَـالَ: أشْـهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّـكَ رَسُـولُ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: [مَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذا]. ثُمَّ أعْطَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَسَاهُمْ.

وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ فِي رِكَابِهِمْ عَمْرُو بْنُ الأَهْتَمِ، وَكَانَ قَيْسُ بْـنُ عَـاصِمٍ يَبْغَضُـهُ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ مَا أعْطَى الْقَوْمَ، فَازْدَرَى بِهِ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ (يَا أيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لاَ تَرْفَعُـوا أصْوَاتَكُـمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ)[١].

وعن أبي هُرَيرة ﷺ قالَ: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُـوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُـمْ لِبَعْـضٍ أنْ تَحْبَـطَ أعْمَالُكُمْ وَأنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ) قَالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: وَاللهِ لاَ أرْفَعُ أبَداً عَلَى صَـوْتِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ)[٢].

وعن ابن الزُّبير ﷺ أنه قالَ: (مَا حَـدَّثَ عُمَـرُ ﷺ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْـدَ ذلِـكَ فَسَمِعَ كَلاَمَهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ مِنْ شِدَّةِ خَفْضِ صَوْتِهِ)[٣].

وكان ثابتُ بن قيسٍ في أذنيه صَمَمٌ وكـان جَـهُوريَّ الصَّـوتِ، وكـان إذا كلَّـمَ إنساناً جهَرَ بصَوتِه، فرُبَّما كان يكلِّمُ رسولَ اللهِ ﷺ فيتأذى بصَوتـِه، فلمَّـا نـزلَ قَوْلُـهُ تَعَالَى: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُـمْ فَـوْقَ صَـوْتِ النَّـبِيِّ وَلاَ تَجْـهَرُوا لَـهُ بالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُمْ) أي لئلا تحبطَ أعمالُكم، يعني تَبطُـلَ حسنَاتُكم، جعلَ ثابتُ يبكِي على قارعةِ الطريق، فمَرَّ به عاصمُ بـن عَـدِيٍّ فقـالَ: مَـا

---

(١) ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص١٢٢٠. وأصله في السيرة النبوية: ج ٤ ص٢١٢-٢١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: تفسير سورة الحجرات: الحديث (٣٧٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وأخرجه في كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٤٥٠٦) عن أبي بكر، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٤ و٦. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٨٤٥). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٢٦٦).

يُبْكِيكَ يَا ثَابتُ ؟! فَقَالَ: أخَافُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَـةُ نَزَلَـتْ فِـيَّ، فَأخَـافُ أنْ تُحْبـطَ عَمَلِي وَأنْ أكُونَ مِنْ أهْلِ النَّار.

فَمَضَى عَاصِمُ إلَى رَسُـول اللهِ فَـأخْبَرَهُ، فَقَـالَ: [اذْهَـبْ وَادْعُـهُ لِـي] فَدَعَـاهُ لِرَسُول اللهِ، فَقَالَ: [مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابتُ؟] قَالَ: أنَا صَيِّـتٌ يَـا رَسُـولَ اللهِ؛ وَأخَـافُ أنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ، فَقَالَ ﷺ: [أمَا تَرْضَى أنْ تَعِيـشَ حَمِيـداً وَتَمُـوتَ شَـهِيداً وَيُدْخِلَكَ اللهُ الْجَنَّةَ؟] فَقَالَ: رَضِيتُ يَا رَسُـولَ اللهِ؛ لاَ أرْفَـعُ صَوْتِـي بَعْدَهَـا عَلَيْـكَ يَـا رَسُولَ اللهِ[1] . فأنزلَ اللهُ فيه وفي أبي بكرٍ ﷺ وعمر وأمثالِهم:

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي أخلصَها واصطفَاها واختبرَها، كما يُمتحَنُ الذهبُ بالنـار فيخرجُ خَالصاً، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أوْلَئِـكَ الَّذِيـنَ أكْـرَمَ اللهُ قُلُوبَـهُمْ). وَقِيْـلَ: أذهبَ الشهواتِ عنها.

قال الزجَّاجُ: أمَرَ اللهُ بتَبْجِيلِ نَبيِّهِ ﷺ وَأنْ يَغُضُّوا أبْصَـارَهُمْ عِنْدَمَا يُخَـاطِبُونَ بالسَّكِينَةِ وَالْوَقَار؛ لِئَلاَّ تَحْبَطَ أعْمَالُهُمْ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فلذلك قال: فَلَمَّا كَـانَ يَــوْمُ الْيَمَامَةِ فِي حَرْب مُسَيْلَمَةَ، قَاتَلَ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أبي حُذيْفَةَ قِتَالاً شَـدِيداً حَتَّى قُتِلاَ، وَاسْتُشْهِدَ ثَابتُ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ[2] .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: (يَغُضُّـونَ أصْوَاتَـهُمْ) الغَـضُّ النَّقْـصُ مِـن كـلِّ شـيءٍ، قَـالَ اللهُ تَعَالَى:﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[3]، وقولـهُ تعـالى (امْتَحَـنَ اللهُ قُلُوبَـهُمْ لِلتَّقْـوَى) أي أخلَصَـها للتَّقـوى. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي فِـي الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (٢٤٥٢٣). وفي الـدر المنثور: ج ٧ ص٥٤٩؛ قـال السيوطي: (أخرجه ابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٥٢٦).

(٣) لقمان / ١٩.

قَوْلُــهُ تَعــالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وذلك: أنَّ قَوْماً مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ وَهُمْ حَيٌّ مِنْ تَمِيمٍ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُيَيْنَةَ بْنَ الْحُصَيْنِ الْفَزَارِيَّ، فَهَرَبُوا فَسَبَى ذَرَارِيهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَجَاءَ بِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ رِجَالُهُمْ لِيُفَادُوا ذَرَارِيهِمْ، فَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ نَائِمٌ.

فَلَمَّا أَبْصَرَهُمُ الْعِيَالُ بَكَوا عَلَيْهِمْ، فَنَهَضُوا وَعَجَّلُوا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، وَكَانَ ﷺ حِينَئِذٍ نَائِماً، فَتَأَذَّى بِأَصْوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا فِي أَيِّ حُجْرَةٍ هُوَ، فَجَعَلُوا يَطْرُقُونَ عَلَى جَمِيعِ حُجُرَاتِهِ، وَكَانَ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُجْرَةٌ وَبَيْتٌ، فَطَافُوا عَلَى جَمِيعِ الْحُجُرَاتِ وَهُمْ يُنَادُونَ: اخْرُجْ عَلَيْنَا[1].

وقولهُ تعالى: (أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) وصَفَهم اللهُ بالجهلِ وقلَّة العقلِ وقلَّة الصبر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ؛ يعني ولو أنَّهم صبَرُوا حتى تخرجَ إليهم للصَّلاة لَخلَّى سبيلَهم بغيرِ فداءٍ، فلما نادَوهُ وأيقظُوهُ أعتَقَ نصفَ ذرَاريهم وفادَى نِصفَهم بقوله تعالى (وَلَوْ أنَّهُمْ صَبَرُوا) كُنتَ تُعتِقُ كُلَّهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ لِمَن تابَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾ ؛ وذلك: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ مُصَدِّقاً إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَحِنَةٌ[2]، فَلَمَّا اتَّصَلَ خَبَرُهُ بِهِمْ وَسَمِعُوا بِهِ اجْتَمَعُوا لِيَتَلَقَّوهُ، فَفَرَّ مِنْهُمْ وَكَرَّ رَاجِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُمْ قَدْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلاَمِ وَقَصَدُوا قَتْلِي.

فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي جَيْشٍ، وَقَالَ لَهُ: [انْزِلْ بِسَاحَتِهِمْ لَيْلاً، فَإِنْ رَأَيْتَ مَا يَدُلُّ عَلَى الإِسْلاَمِ مِنَ الأَذَانِ لِلصَّلاَةِ وَالتَّهَجُّدِ أَمْسِكْ عَنْ مُحَارَبَتِهِمْ، وَطَالِبْهُمْ بِصَدَقَاتِهِمْ].

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢١٩.

(٢) الأَحْنَةُ: الحقدُ في الصَّدر، والجمع: حِنَاتٌ، والْمُوَاحَنَةُ: المعاداةُ. ينظر: لسان العرب: ج ١ ص٨٣: (أحن).

فَلَمَّا سَارَ إلَيْهِمْ خَالِدُ لَيْلاً سَمِعَ فِيهِمُ الأذانَ وَالتَّهَجُّدَ، فَكَفَّ عَنْهُمْ إلَى أنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ لاَ عَلَى وَجْهِ قِتَال، وَقَالُوا: قَدِ اسْتَبْطَأْنَا رسَالَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الصَّدَقَاتِ، فَسَلَّمُوهَا إلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ[1].

وسَمَّى الوليدَ بن عُقبة فاسقاً، لِكَذِبِهِ الذي وقعَ به. الأغرُّ أو الفاسقُ: الخارجُ عن طاعةٍ بارتكاب كثيرٍ من الذُّنوب. وَقِيْلَ: الفاسقُ الذي لا يَستَحِي من اللهِ. وَقِيْلَ: هو الكذابُ الْمُعلِنُ بالذنب. والنَّبَأُ: الخبرُ عمَّا يَعظُمُ شأنهُ فيما يعملُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ؛ قد ذكَرنا قِراءَتين فيه في سُورة النساءِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ ؛ أي لِئَلا تُصيبوا قَوماً وهم مُسلمون، ﴿ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ معناهُ: إعْلَمُوا أنَّ رسولَ الله لو يُجِيبُكم في كثيرٍ مما سألتموهُ لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثْمُ والمشقَّة. وَقِيْلَ: اتَّقُوا أن تَكذِبُوا رسولَ اللهِ وتقولوا بَاطلاً، فإنَّ اللهَ يخبرهُ فتُفتَضحُوا، ثم قال: لو يُطِيعُكم الرسولُ في كثيرٍ مما تُخبرونَهُ فيه بالباطلِ لَعَنِتُّمْ؛ أي لوقَعتُم في العَنَتِ وهو الإثمُ والهلاكُ.

ثم خاطبَ المؤمنين الذين لا يَكذِبُون فقالَ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ ؛ أي جعلَهُ أحبَّ الأديان إليكم، ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ ؛ حتى اخترتُموهُ، ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ ؛ أي بَغَّضَ إليكم هذه الأشياءَ: الكفرُ ظاهر المعنى، والفُسُوق وَالكَذِبُ والخروجُ عن أمر الله، والعصيانُ: جمعُ معاصِي الله.

ثم عادَ إلى الخبرِ عنهم فقالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ ﴾ ؛ أي المهتَدُون إلى محاسنِ الأمُور. ثم بيَّنَ أنَّ جميعَ ذلك تفضُّلٌ من اللهِ تعالى فقال: ﴿ فَضۡلٗا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٥٥٥؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣٠٣: الحديث (١٨٦٠٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٠٨-١١٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات).

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ ؛ أي تفضُّلاً مِن اللهِ ورحمةً، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ؛ بما في قُلوبهم، ﴿حَكِيمٌ ۝٨﴾ ؛ فيهم بعلمهِ.

قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ ؛ نزلَ ذلك في الأوْسِ والخزرَجِ بسببِ الكلامِ الذي جرَى بين عبدِالله بن أُبَي رأسِ المنافقين وعبدِالله ابن رَوَاحة لَمَّا استَبَّا[1] جاءَ قوْمُ هَذا فاقْتَتلُوا بالنِّعَالِ وَالتَّرامِي بالْحِجَارةِ، ولَمْ يَكُنْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ سَيْفٌ.

وَسَبَبُ اخْتِصَامِهِمَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ، فَبَالَ حِمَارُهُ وَهِيَ أرْضٌ سَبْخَةٌ، فَأَمْسَكَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ أنْفَهُ وَقَالَ: إلَيْكَ عَنِّي فَوَاللهِ لَقَدْ آذانِي نَتَنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: وَاللهِ لَنَتَنُ حِمَارِ رَسُولِ اللهِ أطْيَبُ رِيْحاً مِنْكَ.

فَغَضَّبَ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، وغَضِبَ لاِبْنِ رَوَاحَةَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فاسْتَبُّوا وَتَحَامَلَ أصْحَابُ كُلٍّ واحِدٍ مِعَ أصْحَابِ الآخَرِ، فَتَجَادَلُوا بالأَيْدِي وَالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فقَرَأهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاصْطَلَحُوا وَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

وَأقْبَلَ بَشِيرُ بْنُ النُّعْمَانِ الأَنْصَارِيُّ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ فَوَجَدَهُمْ قَدِ اصْطَلَحُوا، فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أعَلَيَّ تَشْتَمِلُ بالسَّيْفِ يَا بَشِيرُ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي أحْلِفُ بِهِ لَوْ جِئْتُ قَبْلَ أنْ تَصْطَلِحُوا لَضَرَبْتُكَ حَتَّى أقْتُلَكَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) أي بالدُّعاء إلى حُكم اللهِ والرِّضا بما في كتابِ اللهِ لهما وعليهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ؛ أي طَلبت ما ليس لها ولم ترجعْ إلى الصُّلح، ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ؛ حتى ترجعَ عن البغيِ إلى كتاب الله، والصُّلح الذي أمر اللهُ تعالى به.

---

(١) المعنى: سبَّ بعضهم بعضاً.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلح: الحديث (٢٦٩١). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: الحديث (١١٧/١٧٩٩). والطبراني في الأوسط: الحديث (٤٦٦٩).

والبغيُ هو الاستطالَةُ، والعدولُ عن الحقِّ وعمَّا عليه جماعةُ المسلمين. والطائفةُ الباغِيَةُ هي التي تطلبُ ما ليس لها أنْ تَطلُبَهُ، قولـهُ (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ) أي حتى ترجعَ إلى طاعةِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ﴾ ؛ أي واعدِلُوا في الإصلاحِ بينهما، وفي كلِّ حكمٍ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي يحبُّ الذين يَعدِلُون في حُكمِهم وأهليهم وما تولَّوهُ، الإقْسَاطُ في اللغة هو العَدْلُ، يقالُ: أقسطَ الرجلُ إذا عدَلَ، وقَسَطَ إذا جَارَ، ومنه قولهُ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[(١)].

وعن ابنِ عُمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: [يَا ابْنَ أمِّ عَبْدٍ؛ هَلْ تَدْرِي كَيْفَ حُكْمُ اللهِ فِيمَنْ يَفِيءُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؟] قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [لاَ يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا وَلاَ يُقْتَلُ أسِيرُهَا وَلاَ يُطْلَبُ هَارِبُهَا وَلاَ يُقْسَمُ فِيْهَا][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ؛ يعني في الدُّنيا والولايةِ، ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ؛ يعني بين كلِّ مُسلِمين تَخاصَما و تقاتَلاَ واختلَفا، قرأ ابنُ سيرين (بَيْنَ أخَوَيْكُمْ) بالجمعِ، وقرأ حسن (بَيْنَ إخْوَانِكُمْ) بالألف والنُّون.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ولا تُخالفوا أمرَهُ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ . وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: (الْمُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ؛ لاَ يَظْلِمُهُ؛ وَلاَ يَعِيبُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ؛ وَلاَ يَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ بالْبُنْيَانِ فَيَسْتُرُ عَنْهُ الرِّيحَ إلاَّ بإذْنِهِ، وَلاَ يُؤْذِيهِ بقِتَارِ[(٣)] قِدْرِهِ إلاَّ أنْ يَغْرِفَ لَهُ مِنْهُ، وَلاَ يَشْتَرِي لِبَيْتِهِ الْفَاكِهَةَ فَيَخْرِجُونَ بهَا إلَى أوْلاَدِ جَارِهِ إلاَّ أنْ يُطْعِمُوهُمْ مِنْهَا)[(٤)].

---

(١) الجن / ١٥ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب قتال أهل البغي: الحديث(٢٧٠٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٤٣؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الأوسط وقال: لا يروي عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قلتُ: وفيه كوثر بن حكيم وهو ضعيف متروك).

(٣) القِتَارُ: ريحُ القِدْرِ والشِّواء.

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفاء: ج ٢ ص١٨٧؛ وقال: (رواه الثعلبي). وأخرجه الثعلبي في=

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا يَستهزئُ الرجلُ من أخيهِ فيقولُ: إنَّكَ رَدِيءُ المعيشـةِ لَئِيـمُ الْحَسَـبِ وأشباهُ ذلك مما يَنتَقِصهُ به وهو خيرٌ منه عندَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يُعَيِّرْ قومٌ قومـاً لعـلَّ المسخُورَ منه أفضلُ عنـدَ الله تعـالى مـن السَّـاخِرين، ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ، ولا يُعَيِّرُ نساؤُنا نساءَنا لعلَّ الْمَسخُورَةَ منهنَّ أفضـلُ مـن السَّـاخراتِ. وَقِيلَ: معناهُ: لا يسخَرْ غنيٌّ من فقيرٍ لفَقرهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي لا تُعِيبُـوا إخوانكـم الذيـن هـم كأنفُسكم، ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ ؛ أي لا يَـدْعُ بعضُكـم بعضـاً بـاللَّقب الـذي يكرههُ صاحبهُ؛ لأن عليه أنْ يخاطِبَ أخاهُ بأحب الأسماءِ إليه.

وقـال قتـادةُ: (مَعْنَـاهُ: لاَ تَقُـلْ لأَخِيـكَ الْمُسْـلِمِ: يَـا فَاسِـقُ وَيَـا مُنَـافِقُ، وَلاَ يَقُولُ لِلْيَهُودِيِّ بَعْدَ أنْ آمَنَ: يَـا يَـهُودِيُّ) وذلـك معنـى: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ قال عطاءُ: (هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أغْضَبْتَ بِهِ أخَاكَ كَقَوْلِكَ: يَا كَلْبُ؛ يَا خِنْزِيرُ؛ يَا حِمَارُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ ﴾ ؛ أي مَن لَمْ يَتُـبْ مـن التَّنـابُزِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ، وقال: (نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ) فِي نِسَاءِ رَسُول اللهِ عَيَّرْنَ أمَّ سَلَمَةَ بالْقِصَرِ). ويقالُ: نزلَت في عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أشَارَتْ بيَدِهَا فِـي أمِّ سَلَمَةَ أنَّها قَصِيرَةٌ[1].

ورَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ صَفِيَّةَ بنْتَ حَيِيٍّ بْن أخْطَبَ أتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: إنَّ النِّسَاءَ يُعَيِّرْنَنِي يَا يَهُودِيَّةُ بنْتُ يَهُودِيِّين، فَقَالَ ﷺ: [هَـلاَّ قُلْـتِ: أبـي

=التفسير: ج ٩ ص٧٩. وبلفظ آخر أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب مـا يُنـهى عن التحاسد والتدابر: الحديث (٦٠٦٤-٦٠٦٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٨٩. والترمذي في الجامع: كتاب صفة القيامة: الحديث (٢٥٠٢)، في (صفية) رضي الله عنها وليس أم سلمة. وذكره الثعلبي في الكشـف والبيـان: ج ٩ ص٨١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٢٦: أنها أم سلمة رضي الله عنها.

هَرُونُ وَعَمِّي مُوسَى وَأَنَّ زَوْجِي مُحَمَّدٌ])[١] فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ (وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ) أي لا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ولا يطعَنْ بعضُكم على بعضٍ.

وَقِيْلَ: اللَّمْزُ العيبُ في الْمَشْهَرِ، والْهَمْزُ فِي الْمَغِيبِ، وقال مُحَمَّدُ بن زيدٍ: (اللَّمْزُ يَكُونُ باللِّسَانِ وَالْعَيْنِ وَالإشَارَةِ، وَالْهَمْزُ لاَ يَكُونُ إلاَّ باللِّسَانِ)، قال الشاعر[٢]:

إنْ لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وَإنْ أغِبْ فَلأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وذلك أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا غَزَا أوْ سَافَرَ، ضَمَّ الرَّجُلَ الْمُحْتَاجَ إلَى رَجُلَيْنِ مُوسِرَيْنِ يَخْدِمُهُمَا وَيُهَيِّءُ لَهُمَا طَعَامَهُمَا وَشَرَابَهُمَا، وَيُصِيبُ مِنْ طَعَامِهِمَا، فَضَمَّ سَلْمَانَ إلَى رَجُلَيْنِ مِنْ أصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أسْفَارِهِ، فَتَقَوَّمَ سَلْمَانُ مَعَهُمَا.

فاتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ أنَّهُ لَمْ يُعِدَّ لَهُمَا شَيْئاً فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَلَمَّا قَدِمَا قَالاَ لَهُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً ؟ قَالَ: لاَ، قَالاَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَقَالاَ: انْطَلِقْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاطْلُبْ لَنَا مِنْهُ طَعَاماً وَإدَاماً- وَقِيلَ: إنَّهُمَا قَالاَ لَهُ: انْطَلِقْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ وَاسْألْهُ لَنَا فَضْلَ إدَامٍ إنْ كَانَ عِنْدَهُ - فَذهَبَ فَسَألَ فَقَالَ ﷺ: [إنْطَلِقْ إلَى الْخَازِنِ فَلْيُطْعِمْكَ إنْ كَانَ عِنْدَهُ] وَكَانَ الْخَازِنُ يَوْمَئِذٍ أسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَانْطَلَقَ إلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئاً.

فَرَجَعَ إلَيْهِمَا فَأخْبَرَهُمَا بذلِكَ، فَقَالاَ: إنَّهُ بَخِيلٌ يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللهِ وَيَبْخَلُ هُوَ عَلَيْنَا، فَقَالاَ فِي سَلْمَانَ: لَوْ بَعَثْنَاهُ إلَى بِئْرِ سَمِيحَةٍ لَقَالَ: لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ! ثُمَّ جَعَلاَ يَتَجَسَّسَانِ هَلْ كَانَ عِنْدَ أسَامَةَ مَا أمَرَ لَهُمَا بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الإدَامِ. فَلَمَّا جَاءَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُمَا: [مَا لِي أرَى حُمْرَةَ اللَّحْمِ عَلَى أفْوَاهِكُمَا ؟] قَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا تَنَاوَلْنَا يَوْمَنَا هَذا لَحْماً ؟ فَقَالَ: [ظَلْتُمَا تَأْكُلاَنِ لَحْمَ سَلْمَانَ وَأسَامَةَ

---

(١) ذكره الثعلب في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٢٦. والواحدي في أسباب النزول: ص٢٦٤.

(٢) في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨١؛ قال الثعلبي: (وقال محمد بن يزيد) وذكره بلفظ:

إذا لَقِيتُكَ عَنْ شَخْطٍ تُكَاشِرُني وَإنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

] فأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ)(١) ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ ؛ والظنُّ الذي هو الإثْـمُ: أن يُعرَضَ بقلب الإنسان في أخيه ما يوجبُ الريبةَ فيحقِّقهُ من غير سببٍ يوجبُهُ، كما رُوي في الخبر: [إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أكْذبُ الْحَدِيثِ](٢).

وقولهُ تعالى (وَلاَ تَجَسَّسُوا) التَّجَسُّسُ: البحثُ عن عيب أخيهِ الذي سترَهُ اللهُ عليه. ومعنى الآيةِ: خُذوا ما ظهرَ ودعُوا ما سترَ اللهُ ولا تتَّبعوا عوراتِ الناس، قال ﷺ: [لاَ تَجَسَّسُوا؛ وَلاَ تَحَاسَدُوا؛ وَلاَ تَبَاغَضُوا؛ وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً](٣).

ورُوي: أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ لَهُ: (إنَّ فُلاَناً يُوَاظِبُ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ، فَقَالَ لَهُ: إذا عَلِمْتَهُ يَشْرَبُهَا فَأَعْلِمْنِي. فَأَعْلَمَهُ فَذهَبَ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَى إلَى دَارِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: أنْتَ الَّذِي تَشْرَبُ الْخَمْرَ ؟ فَقَالَ: وَأنْتَ تَتَجَسَّسُ عُيُوبَ الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: تُبْتُ أنْ لاَ أعُودَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَأنَا تُبْتُ لاَ أعُودُ)(٤).

وروى زيدُ بن أسلمَ: (أنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ خَرَجَ ذاتَ لَيْلَةٍ وَمَعَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إذْ شَبَّتْ لَهُمَا نَارٌ، فَأتَيَا الْبَابَ فَاسْتَأْذنَا فَفُتِحَ لَهُمَا فَدَخَلاَ، فَإذا رَجُلٌ وَامْرَأةٌ تُغَنِّي وَعَلَى يَدِ الرَّجُلِ قَدَحٌ، فَقَالَ عُمَرُ لِلرَّجُلِ: وَأنْتَ بِهَذا يَا فُلاَنُ ؟ فَقَالَ: وَأنْتَ بِهَذا يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ عُمَرُ: مَنْ هَذِهِ مَعَكَ ؟ قَالَ: امْرَأتِي، قَالَ: وَفِي الْقَدَحِ ؟ قَالَ: مَاءٌ زُلاَلٌ، فَقَالَ لِلْمَرْأةِ: وَمَا الَّذِي تُغَنِّينَ؟ فَقَالَتْ: أقُولُ:

تَطَاوَلَ هَذا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأرَّقَنِي أنْ لاَ حَبِيبَ ألاَعِبُهْ

فَوَاللهِ لَوْلاَ خِشْيَةُ اللهِ وَالتُّقَى ... لَزُعْزِعَ مِنْ هَذا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٧٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي عن سلمان).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: الحديث (٦٠٦٦).

(٣) تقدم في الرقم السابق.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٣؛ قال القرطبي: (وقال أبو قلابة) وذكر القصة وأن الرجل أبو محجن الثقفي. والحديث أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب اللقطة: باب التجسس: الحديث (١٩٨٤٤).

وَلَكِــنَّ الْعَقْــلَ وَالْحَيَــاءَ يَكُفُّنِــي وَأَكْــرِمُ بَعْلِــي أَنْ تُنَــالَ مَوَاكِبُــهُ

ثُمَّ قَالَ: يَـا أَمِـيرَ الْمُؤْمِنِـينَ قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: (وَلاَ تَجَسَّسُـوا) قَـالَ: صَدَقْـتَ، وَانْصَرَفَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ؛ أي لا يتنـاولُ بعضُكـم بعضـاً بظهرِ الغَيب بما يسوءُ مما هو فيه، فإنْ يتناولْهُ بما ليس فيه فهو بُهْتَانٌ، وسُئل رسولُ اللهِ ﷺ عن الغيبةِ فقال: [أنْ تَذْكُرَ مِنَ الرَّجُلِ مَا يَكْرَهُهُ إذا سَمِعَهُ] فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإنْ كَانَ حَقّاً ؟ فَقَالَ: [وَإنْ كَانَ حَقّاً، وَأمَّا إذا كَانَ بَاطِلاً فَهُوَ الْبُهْتَانُ](٢).

وعن جابرٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إيَّـاكُمْ وَالْغِيبَـةَ، فَـإنَّ الْغِيبَـةَ أشَـدُّ مِـنَ الزِّنَى] قِيلَ: وَكَيْفَ ذلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [إنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي وَيَتُوبُ، فَيَتُـوبُ اللهُ عَلَيْهِ، وَإنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لاَ يُغْفَرُ لَـهُ حَتَّـى يَغْفِـرَ لَـهُ صَاحِبُـهُ](٣). وقـال ﷺ: [إذا اغْتَابَ أحَدُكُمْ أخَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَهُ، فَإنَّ ذلِكَ كَفَّارَةٌ لَهُ](٤).

وعن ابنِ عمر ﷺ قَالَ: (جَاءَ مَاعِزُ إلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: إنِّـي زَنَيْـتُ، فَـأعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى أقَرَّ أرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَأمَرَ برَجْمِهِ، فَمَرَّ النَّبيُّ ﷺ عَلَـى رَجُلَيْـنِ يَذْكُـرَانِ مَـاعِزاً،

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: (أخرجـه عبـد بـن حميـد والخرائطي في مكـارم الأخلاق عن زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة عـن عبدالرحمـن بـن عوف) وذكره من غير ذكر الشعر. وأخرجـه عبدالـرزاق في المصنـف: بـاب التجسـس: الحديـث (١٨٩٣٩). وأخرجه الثعلبي بكماله في التفسير: ج ٩ ص٨٣.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الغيبة: الحديث (٧٠/ ٢٥٨٩). وأبـو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الغيبة: الحديـث (٤٨٧٤). والـترمذي في الجـامع: كتـاب البر والصلة: باب ما جاء في الغيبة: الحديث (١٩٣٤).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨٥ عن جابر وأبي سعيد رضي الله عنهما. وأخرجـه الطبراني في الأوسط: ج ٧ ص٣٠٦: الحديث (٦٥٨٦). وفي مجمع الزوائـد: ج ٨ ص٩٢؛ قـال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك).

(٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات: ج ٣ ص١٨. والسيوطي في اللالئ المصنوعـة في الأحـاديث الموضوعة: ج ٢ ص١٦٢. والشوكاني في الفوائد: ص٢٣٣. وابن عـدي في الكـامل في ضعفـاء الرجال: ج ٤ ص٢٢٢.

فَقَالَ أحَدُهُمَا: هَذا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ كَرَجْمِ الْكَلْبِ، فَسَكَتَ عَنْهُمَا حَتَّى مَرَّا عَلَى جِيفَةِ حِمَارٍ، فَقَالَ ﷺ: [إنْزِلاَ فَأصِيبَا أكْلَةً مِنْهُ] فَقَالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ أنَأكُلُ مِنْ هَذِهِ الْجِيفَةِ ؟! فَقَالَ: [فَمَا أصَبْتُمَا مِنْ لَحْمِ أخِيكُمَا أعْظَمُ عَلَيْكُمَا، أمَا إنَّهُ الآنَ فِي أنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيْهَا](١).

وقال ﷺ: [لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَوْمٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَلُحُومَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ](٢). وقال رجلٌ لابنِ سيرين: إنِّي قَدِ اغْتَبْتُكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ، قَالَ: (إنِّي أكْرَهُ أنْ أحِلَّ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى)(٣).

والغِيبَةُ في اللغة: هي ذِكرُ العيب بظهرِ الغيب، وذِكرُ عيب الفاسق المصرِّ على فِسقِهِ بمعنى يرجعُ إلى قبائحِ أفعالِهِ على وجه التحقير له فليس بغيبة كما وردَ في الحديثِ: [اذْكُرُوا الْفَاجِرَ عَمَّا فِيْهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ](٤).

وكان الحسنُ يقول في الحجَّاج: (جَاءَنَا أخَيْفِشُ وَأعَيْمِشُ، يَخْرُجُ إلَيْنَا ثِيَاباً قَصِيرَةً، وَاللهِ مَا عَرَفَ فِيهَا عَيْنَانِ فِي سَبيلِ اللهِ، يُرَجِّلُ جُمَّتَهُ وَيَخْطُرُ فِي مِشْيَتِهِ، وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْدِرُ حَتَّى تَفُوتُهُ الصَّلاَةُ، لاَ مِنَ اللهِ يَتَّقِي وَلاَ مِنَ النَّاسِ يَسْتَحِي، فَوْقَهُ اللهُ وَتَحْتَهُ مِائَةُ ألْفٍ أوْ يَزِيدُونَ، لاَ يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ: الصَّلاَةُ أيُّهَا الرَّجُلُ) ثم جعلَ الحسنُ يقول: (هَيْهَاتَ وَاللهِ!! حَالَ دُونَ ذلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ)(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الحدود: باب رجم ماعز: الحديث (٤٤٢٨). والدارقطني في السنن: ج ٣ ص١٩٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ١ ص٣٢: الحديث (٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٩٩. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في الغيبة: الحديث (٤٨٧٨).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٨٦.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٩ ص٣٥٧-٣٥٨: الحديث (١٠١٠). وفي المعجم الأوسط: ج ٥ ص١٨٩: الحديث (٤٣٦٩). وفي المعجم الصغير: ج ١ ص٣٥٧: الحديث (٥٩٨). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٤٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الثلاثة وإسناد الأوسط والصغير حسن رجاله موثوقون واختلف في بعضهم اختلافاً لا يضر).

(٥) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ ؛ أي كما كرهتُم أكلَ لحمِ الميت طَبعاً فاكرَهُوا غيبةَ الحيِّ عقلاً، فإنَّ العقلَ أحقُّ أن يُتَّبَعَ من الطَّبعِ. ووجهُ تشبيهِ الغيبةِ بأكلِ لحمهِ مَيتاً أنَّ الاغتيابَ ذِكرٌ له بالسُّوءِ من غيرِ أن يُحِسَّ هو بذلكَ، فهو بمَنْزِلة الأكلِ من لحمه وهو ميِّت لا يحسُّ بذلك.

وعن ابنِ عبَّاس أنَّهُ دَخَلَ الْكَعْبَةَ فَقَالَ: (مَا أطْيَبَ ريحَكِ وَأعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَلَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ حُرْمَتِكِ، إنَّمَا جعَلَكِ اللهُ حَرَاماً، وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ، وَأنْ يُظَنَّ بِهِ السُّوءُ).

وعن الحسن أنه قِيْلَ لهُ: إنَّ أقْوَاماً يَجْلِسُونَ مَجْلِسَكَ وَيَحْفَظُونَ عَلَيْكَ سَقَطَ كَلاَمِكَ ثُمَّ يَغِيبُونَكَ. فَقَالَ: طَمَّعْتُ نَفْسِي فِي جِوَارِ الرَّحْمَنِ وَطُول الْجِنَانِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النِّيرَانِ وَمُرَافَقَةِ الأَنْبيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وَلَمْ أطْمِعْ نَفْسِي فِي السَّلاَمَةِ مِنَ النَّاسِ، إنَّهُ لَوْ سَلِمَ مِنَ النَّاسِ أحَدٌ لَسَلِمَ مِنْهُمْ خَالِقُهُمْ، فَإذا لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ خَالِقُهُمْ فَالْمَخْلُوقُ أجْدَرُ أنْ لاَ يَسْلَمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ؛ أي كما كَرِهتُم هذا فاجتَنِبُوا ذِكرَهُ بالسُّوء غائباً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في الغِيبةِ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ ؛ على مَن تاب، ﴿ رَحِيمٌ (١٢) ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ ؛ نزلت في نفرٍ من قريشٍ قالوا حِينَ سَمعوا أذانَ بلال: أمَا وجدَ مُحَمَّدٌ مؤذِّناً غيرَ هذا الغُراب؟ والمعنى: يا أيُّها النَّاسُ إنا خلَقناكم من آدمَ وحوَّاء، فكلُّكم مُتساوون في النَّسب، لأنَّ كلَّكم يرجعُ إلى أبٍ واحد وأمٍّ واحدةٍ. ومعنى الآيةِ: الزَّجرُ عن التفاخُر بالأنساب، قال ﷺ: [إنَّمَا أنْتُمْ مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأةٍ وَاحِدَةٍ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أحَدٍ فَضْلٌ إلاَّ بالتَّقْوَى][(١)].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٣٩-٣٤٠؛ قال القرطبي: (وقد أخرج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وذكره بمعناه. وعن عقبة بن عامر ﷺ أخرجه الطبري بمعناه أيضاً في الحديث (٢٤٦٠٤).

ثُم ذكرَ أنه إنما فرَّقَ أنسابَ الناسِ ليتعَارفُوا لا ليتفَاخَروا فقالَ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ؛ الشُّعوب جمعُ شَعبٍ بفتح الشِّين؛ وهو الحيُّ العظيمُ مثل رَبيعةَ ومُضَرَ، والقبائلُ دونَها وهو كبَكرٍ من ربيعةَ، وتَميم من مُضر، هذا قولُ جماعةٍ من المفسِّرين.

ورَوى عطاءُ عن ابن عباس أنه قال: (يُرِيدُ بالشُّعُوب الْمَوَالِي، وَبالْقَبَائِلِ الْعَرَبَ)[١] وإلى هذا ذهبَ قومٌ فقالوا: الشُّعوب من العجَمِ مَن لا يُعرَفُ لهم أصلُ نَسَبٍ كالهندِ والتُّرك، والقبائلُ من العرب. وَقِيْلَ: معناهُ: وجعلَكم متشَعِّبين مفرَّقين نحو العرب وفارسَ والرُّوم والهند وقبائلِ العرب وبيوتات العجَمِ. والشِّعبُ بكسرِ الشين: الطريقُ في الجبلِ، وجمعه شِعَابٌ.

والحاصلُ أنَّ الشعوبَ رُؤوسُ القبائلِ مثلَ رَبيعةَ ومُضر والأوسَ والخزرجَ، والقبائلُ دُونَ الشُّعوب وهم كبكرٍ من ربيعةَ وتَميم من مُضر، ودونَ القبائلِ العَمَائِرُ؛ واحدَتُها عَمَارَةٌ بفتحِ العين، وهم كشَيبان من بكرٍ ودَارمٍ من تَميم، ودونَ العمائرِ البطونُ؛ واحدُها بطنٌ وهو كبَني غالبٍ ولُؤَي من قريشٍ، ودونَ البطُون الأفخاذُ؛ واحدُها فَخْذٌ وهم بني هاشمٍ وبني أمية من لُؤي، ثم الفصَائِلُ واحدها فَصِيلَةٌ وعشيرةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِتَعَارَفُوا) أي ليَعرفَ بعضكم بعضاً في النَّسَب لا لتُفاخِرُوا فيما بينَكم، كما أنَّ اللهَ تعالى خَالَفَ بين خَلقِكم وصُوَرِكم لتَعرفُوا بعضَكم بعضاً، وقرأ الأعمشُ (لِتَعَارَفُوا) وقرأ ابنُ عبَّاس (لِتَعْرِفُوا) بغير ألفِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، (أنَّ أكْرَمَكُمْ) بفتحِ الألف، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ أكرمَكم في الآخرةِ اتقَاكُم للهِ في الدُّنيا، وقال ﷺ: [إنَّ اللهَ قَدْ أذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعْظِيمِهَا بالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ؛ وَآدَمُ مِنَ التُّرَاب؛ أكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ، لاَ فَضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إلاَّ بالتَّقْوَى][٢].

---

(١) ذكره عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص٣٤٤.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر) وذكره=

وقال ﷺ: [مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ][(١)] وقَالَ: [كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ وَتَقْوَاهُ، وَفَضْلُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ][(٢)].

وقال ﷺ: [إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إلَى أَقْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَإنَّمَا أَنْتُمْ بَنِي آدَمَ؛ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ][(٣)].

وقال ابنُ عبَّاس: (كَرَمُ الدُّنْيَا الْغِنَى، وَكَرَمُ الآخِرَةِ التَّقْوَى)، وقال الشاعرُ:

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي
مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِي

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾؛ نزلت في نفرٍ من بني أسَدِ بن خُزيمة قَدِمَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فِي سَنَةِ جَدْبَةٍ، وَأَظْهَرُوا شَهَادَةَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فِي السِّرِّ، وَأفْسَدُوا طُرُقَ الْمَدِينَةِ بالعَذِرَاتِ وَأغْلَوْا أسْعَارَهَا، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِي إيْمَانِهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا كَذلِكَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَأْتِيكَ الْعَرَبُ بأنْفُسِهَا عَلَى ظُهُور رَوَاحِلِهَا وَأتَيْنَاكَ بالأَثْقَال وَالْعِيَال وَالذرَاري، يَمُنُّونَ عَلَى رَسُول اللهِ، وَلَمْ نُقَاتِلْكَ كَمَا تُقَاتِلُكَ بَنُو فُلاَنٍ وَبَنُو فُلاَنٍ، وَيُرِيدُونَ بذلِكَ الصَّدَقَةَ وَيَقُولُونَ: أعْطِنَا. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[(٤)].

=بمعناه. ورواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٦١. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٥١١٦). والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: باب ومن سورة الحجرات: الحديث (٣٢٧٠)، وقال: هذا حديث غريب.

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الأدب: باب لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل: الحديث (٧٧٧٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب العلم: باب كرم المؤمن: الحديث (٤٣٣-٤٣٤). وابن حبان في الإحسان: كتاب البر والإحسان: الحديث (٤٨٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٥١؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط) وسكت عنه. وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٦٨٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم وخذله: الحديث (٣٤٠٣٣/ ٢٥٦٤).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٣ ص١٨٣: الأثر (٢٤٦١٢). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٥٨٣، ونسبه إلى عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

والمعنى: أنَّهم قالوا صدَّقنا باللسان والقُلوب، قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: لَمْ تُؤْمِنُوا؛ أي لَمْ تُصدِّقوا بقُلوبكم كما صدَّقتم بألسِنَتِكم (وَلَكِنْ قُولُوا) اسْتَسْلَمْنَا وانقَدْنا مَخافةَ السَّبي والقتلِ، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ في السِّر كما أطَعتُم في العَلانية، فتُوبوا من الكفرِ والنفاق، ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لا يَنقِصْكُم من ثواب أعمالكم شيئاً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ لِمَن تاب. ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بمَن ماتَ على التوبةِ.

ومن قرأ (لاَ يَأْلِتْكُمْ) بالهمزةِ فهو من ألَتَ يَألِتُ ألتاً إذا نَقَصَ، ويقال: لاتَ يَلِيتُ لَيْتاً بهذا المعنى، وكِلا القراءَتين بمعنىً واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي هم الذين أقَرُّوا وصدَّقوا بوحدانيَّةِ اللهِ ونُبوَّة رسولِه، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ ؛ أي لَمْ يَشُكُّوا في دينِهم بعدَ الإيمان، ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ ﴾ ؛ العدوَّ، ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ طاعةً، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الإيمان.

فلمَّا نَزلت هذه الآيةُ جاءَ القومُ يَحلِفون لرسول الله ﷺ إنَّهم يُؤمنون في السرِّ والعلانيةِ، وقد عَلِمَ الله منهم غيرَ ذلك، فأنزلَ اللهُ:

قولهُ تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كيف يُعلِّمونَ اللهَ بالدِّين الذي أنتُم عليه، وهو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ من كلِّ وجهٍ، وكيف يجوزُ أن يُعَلَّمَ مَن كان بهذه الصِّفَة.

وقوله (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَمُوا) وذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافقين كانوا يقُولون للنبيِّ ﷺ: قَاتَلَتْكَ العربُ بأسيافِهم ونحنُ جِئناك بالأهلِ والذراري والأثقال، ولم نُقاتِلْكَ كما قاتَلَك بنو فلان، فقال اللهُ تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ؛ ﴿ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ ؛ فإنَّ إجابَتكم إلى الإسلامِ لم تكن إلاَّ لاجابتكم على أنفُسِكم لاَ إنَّكم أنعمتُم على مَن دعاكُم إلى ذلك.

ومِن المعلومِ أنَّ حقَّ الداعِي إلى الهدايةِ أعظمُ من حقِّ المطيعِ بالإجابةِ، فليس للمطالِب أن يُطالِبَ بالحقِّ الذي لَهُ وينسَى الحقَّ الأعظمَ الذي عليهِ، ولذلك قالَ اللهُ:

﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ وأخرجكم من الضَّلال، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧ ﴾ ؛ في مَقالَتِكم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنه لا ينفعُ المنافقَ عندَ اللهِ كتمانُ الكفرِ؛ لأنـه تعـالى عالِمٌ به.

فإن قِيْلَ: كيف تجوزُ الْمِنَّةُ من اللهِ تعالى، والمنَّـةُ مما يُكَـدِّرُ الصنيعـةَ؟ قِيْـلَ: إنَّ الْمِنَّةَ عمَّن يُستغنى عنه تكدِّرُ الصنيعةَ، وأمَّا اللهُ تعالى ليس من أحَـدٍ إلاَّ وهـو محتـاجٌ إليه، فليس في مِنَّتِهِ تكديرٌ للنعمةِ لاستحالةِ أن يُستغنى بغَـيرِهِ عنـه. وقـد يقـالُ: إذا كُفرت النعمةُ حَسُنَتِ الْمِنَّةُ، وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**الحجرات**) والحمد لله رب العالمين

سُـــورَةُ ق~

سُورَةُ ق~ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْــعُونَ حَرْفـاً، وَثَلاثُمِائَـةٍ وَخَمْسُـونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً، قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قٓ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ اسْمٌ مِـنْ أسْـمَاءِ اللهِ أقْسَـمَ بِـهِ)[2]، وقـال القرطبيُّ: (هُوَ افْتِتَاحُ اسْمِهِ: قَدِيرٌ؛ وَقَادِرٌ؛ وَقَاهِرٌ؛ وَقَابضٌ)[3]، وقال عكرمةُ والضحَّاك وجماعةُ المفسِّرين: (هُوَ اسْمُ جَبَلٍ مُحِيطٍ بالدُّنْيَا مِنْ زُبُرْجُدٍ أخْضَـرَ اخْضَـرَّتِ السَّـمَاءُ مِنْهُ، وَهُوَ وَرَاءَ الْحِجَاب الَّذِي فِيهِ تَغِيبُ الشَّمْسُ مِنْ وَرَائِهِ بمَسِيرَةِ سَـنَةٍ، وَلَيْـسَ فِـي الأَرْضِ بَلَدٌ إلاَّ وَتَحْتَهَا عِرْقٌ مِنْ عُرُوقِ ذلِكَ الْجَبَـلِ، فَـإذا أرَادَ اللهُ أنْ يُزَلْـزِلَ تِلْـكَ الأَرْضَ حَرَّكَ عِرْقَهُ ذلِكَ فَزَلْزَلَ، وَإذا أرَادَ اللهُ بأهْلِ مَدِينَةٍ هَلاَكاً أمَـرَهُ فَحَـرَّكَ عِرْقَـهُ فَخَسِفَ بهِمْ).

قال وهبُ: (إنَّ ذا الْقَرْنَيْنِ أتَى عَلَى جَبَلِ قَاف، فَسَألَهُ: هَلْ وَرَاءَكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: وَرَائِي أرْضٌ مَسِيرَةَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ فِي عَرْضِ خَمْسَمِائَةٍ مِنْ جِبَالِ الثَّلْجِ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَمِنْ وَرَائِكَ أيْضاً أرْضٌ مِثْلُهَا مِنَ الْبَرَدِ، لَوْلاَ ذلِكَ الثَّلْجُ وَالْبَرَدُ لاحْتَرَقْتَ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج٤ ص٣٨٤. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٩٢ وإسناده واهٍ ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٣ ص١٨٩: الأثر (٢٤٦٢٥).

(٣) ذكره البغوي في التفسير: ص١٢٢٦.

وقال بعضُهم: معنى قوله تعالى (ق~) قُضِيَ الأمرُ ما هو كائنٌ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق: (مَعْنَاهُ: قِفْ عِنْدَ أمْرِنَا وَنَهْيِنَا وَلاَ تُعَدِّيهِمَا). وَقِيْلَ: معناهُ: قُلْ يا مُحَمَّدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ ؛ أي الشَّريفِ الكريمِ على اللهِ. واختلفَ العلماءُ في جواب القسَمِ، فقال أهلُ الكوفةِ جوابهُ: (بَلْ عَجِبُوا)، وقال الأخفشُ: (جَوَابُهُ مَحْذُوفٌ؛ تَقْدِيرُهُ: وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لَتُبْعَثُ).

وَقِيْلَ: جوابهُ (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ). وَقِيْلَ: جوابهُ (قَدْ عَلِمْنَا) كما قالَ اللهُ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[1] إلى أنْ قالَ ﴿قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[2] فذلكَ جوابُ القسَمِ، إلاَّ أن اللامَ حُذفت منه، ويجوزُ أن تُجعل (بَلْ) في جواب القسَمِ موضعَ (لَقَدْ).

وجواباتُ القسَمِ ستَّةٌ[3]:

١. (إنَّ) شديدةٌ كقوله ﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[4] إلى أنْ قالَ ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[5].

٢. و (مَا) في النَّفي كقولهِ ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إذا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾[6].

٣. و(لا) أي النافية، واللامُ مفتوحةٌ كقوله ﴿فَوَرَبكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجْمَعِينَ﴾[7].

٤. و(إنْ) الخفيفةُ كقوله ﴿تَاللهِ إنْ كُنَّا﴾[8].

٥. و(لاَ) كقوله ﴿وَأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[9].

٦. و(قَدْ) كقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾[10] إلى أنْ قالَ ﴿قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[11].

٧. و(بَلْ) كقولهِ ﴿ق~ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا﴾.

---

(١) الشمس / ١ . (٢) الشمس / ٩ .

(٣) الصحيح: سبعة، أي جواباتُ القسم سبعة، وقد ذكرها سبعة، وعلى ما يبدو أنه تصحيف من الناسخ.

(٤) الفجر / ١و٢ . (٥) الفجر / ١٤ .

(٦) الضحى / ١-٣ . (٧) الحجر / ٩٢ .

(٨) الشعراء / ٩٧ . (٩) النحل / ٣٨ .

(١٠) الشمس / ١ . (١١) الشمس / ٩ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾، أي مُخَـوِّفٌ يعرفُـون حسَبَهُ ونسَبَهُ وصِدقَهُ وأمانتَهُ، ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾؛ عَجِبـوا لكون مُحَمَّدٍ رسُولاً إليهم، فأنكرُوا رسالتَهُ وأنكروا البعثَ بعـد المـوتِ، وهـو قولـهُ: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾؛ أي أنُبعثُ إذا مِتنا؟ قالوا ذلك متعجِّبين أنَّـهم إذا مـاتُوا وصارُوا تُراباً كيف يُبعثون بعـدَ ذلـك؟ وقـالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي الردُّ إلى الحياةِ بعيدٌ غيرُ كائنٍ أبداً، استبعَدُوا بجهلِهم أنْ يُبعثوا بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾؛ أي ما تأكلُ الأرضُ من لُحومِهم ودِمائهم وأشعَارهم، والمعنى: لا يخفَى علينا شيءٌ مما تأخذُ الأرض من أبدانِ الموتَى، فمَن عَلِمَ ذلك فهو قادرٌ على إعادةِ ذلك الخلقِ بعَينهِ إلى الحياةِ.

وقوله: ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾؛ أرادَ به اللوحَ المحفوظَ، حُفِظَ مـن الزِّيادة والنُّقصان، عِندَنا كتابٌ حافظٌ لعِدَّتِهم وأسمائِهم، وقد أثبَتنا فيه ما يكـون مـن جميعِ الأشياء المقدَّرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾؛ أي كذبُوا بالقرآنِ لَمَّا جاءَهم بدلائـلِ الله، ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي مُختَلـطٍ مُلتَبـسٍ عليـهم، لا يَثبُتون على شيءٍ واحد، مرَّةً يشُكُّون وأخرى يجحَدُون، ومرَّة يقولون في النبيِّ ﷺ: إنَّه ساحرٌ، ومرَّة يقولون: هو شاعرٌ، ومرَّة يقولون: مُعَلَّمٌ مجنونٌ، وتارةً يقولـون للقـرآنِ: هو سِحرٌ يُؤثَرُ، وتارةً يقولون: هو أساطيرُ الأوَّلين، وتارةً يقولون: سِحرٌ مُفترَى.

وقال الحسنُ: (مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْحَقَّ إلاَّ مَرِجَ أمْرُهُمْ)(١)، وقالَ قتـادةُ: (مَـنْ تَـرَكَ الْحَقَّ مُرِجَ عَلَيْهِ رَأيُهُ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ دِينُهُ)(٢)، ومن ذلـك الْمَـرْجُ لاختـلاطِ أشـجَارها بعضُها من بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ ودلَّهم بهذا على قُدرتهِ بعظيمِ خَلقهِ، فقالَ: أفلَمْ ينظُروا كيـف بَنَيناها وزيَّناها بالكواكب وما لَها من فُتوقٍ وشُقوقٍ وصُدوعٍ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٢٧.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: مج ١٣ ج ٢٦ ص١٩٢: الأثر (٢٤٦٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ ؛ أي بسطناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ أي جبالاً، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ لونٍ حَسَنٍ منظرُه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي فَعَلنا ذلك الذي ذكرناهُ ليُبصَرَ به ويُتَذكَّرَ به، فهو تذكيرٌ وعِظَةٌ وتنبيهٌ لكلِّ عبدٍ مُنِيبٍ يرجعُ إلى اللهِ ويتفكَّرُ في قُدرتهِ.

قال أبو حاتم: (قَوْلُهُ (تَبْصِرَةً) مَنْصُوبٌ عَلَىالْمَصْدَر) يعني تَبصيراً وتَذكيراً وتَنبيهاً له[1]؛ لأن مَن قَدرَ على خَلقِ السَّموات والأرضِ والنبات قَدرَ على بعثِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ ؛ أي بساتينَ، ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ يعني الزرعَ الذي من شأنهِ أن يُحصدَ حَصِيداً، حُصد أم لم يُحصَدْ، وذلك البُرُّ والشعيرُ وسائرُ الحبوب التي تُحصَدُ وتدَّخَرُ وتُقتَاتُ. وإضافةُ الحب إلى الحصيدِ وهما واحدٌ لاختلافِ اللَّفظين، كما يُقال مسجدُ الجامعِ، وربيعُ الأوَّل، وخُفُّ البعيرِ، وحبلُ الوريدِ ونحوُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأنبَتنا النخلَ طِوَالاً، يقالُ: بَسقَتِ النَّخلةُ إذا طَالَتْ. والطَّلعُ النَّضِيدُ: هو الكُفُرِّيُّ ما دامَ في أكمَامِها، فهو مَنضُودٌ بعضهُ فوقَ بعضٍ، وإذا خرجَ من أكمَامِها فليس بنَضيدٍ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ ؛ انتصبَ على وجهَين: أحدهما: رَزَقناهُم هذهِ الأشياءَ، والثاني: أنبَتنَاها للرِّزقِ، فهو منصوبٌ؛ لأنه مفعولٌ لَهُ؛ ولأنه مصدرُ فعلٍ محذوف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ؛ أي أحيينا بالمطرِ مَكاناً مَيْتاً لا نباتَ فيه، فكما أحيَينا هذه الأرضَ الْمَيْتَة بالماءِ، وأنبَتنا هذه الأقواتَ من الحبوب اليابسةِ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي كذلك تُنبَتُونَ بالمطرِ في قُبوركم ثم

---

(١) نقله عنه أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٦.

(٢) علقه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة ق~: جعله مفتاح الباب. وفي الشرح: ج ٨ ص٧٦٤؛ قال ابن حجر: (هو قول أبي عبيدة بمعناه).

تُخرَجون للبعثِ. والقدرةُ على إعادةِ النَّبات دليلٌ على القدرةِ على إعــادةِ الحيـاة إلى الميْت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ؛ فيـه تسـليةٌ للنبيِّ ﷺ يقــولُ: إنَّ هؤلاءِ الكفار سَلَكوا التكذيبَ طريقةَ مَن قبلِهم من الأُمم المكذِّبة لرُسلِهم، وقد رأيتُم كيف كان إنْكَاري عليهم، وكيف أهلَكناهم.

والرَّسُّ: برزون اليَمامَةِ[١]، والنبيُّ هو حَنظَلُ بـن سِـنَان[٢]. وأصحـابُ الأيْكَـةِ قومُ شُعيب عليه السلام، والأيكةُ غَيْطٌ. وأما قومُ تُبَّعٍ فقد تقدَّم أن تُبَّـعَ اسـمُ ملـكِ حِمـيَر، وقد ذُكر ذلك في قولِهِ تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[٣].

---

(١) في الجامع لأحكـام القـرآن: ج ١٣ ص٣٢؛ قـال القرطـبي: (قـال قتـادة: والـرَّسُّ: قريـة بفَلْـجِ اليمامة). وأصله أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٤) عن قتادة، والأثـر (٢٠٠١٥) عن عكرمة: تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٢) هكذا رسمها الناسخ حنظل، وعلى ما يبدو أن الصحيح هو: خالد بن سـنان كمـا ورد في الحديث الضعيف:[ذاكَ نَبِيُّهُ أضاعَهُ قَوْمُـهُ]. قـال السـيوطي في الـدر المنثـور: ج٢ ص٧٤٧-٧٤٨: أخرجـه الطبراني والحاكم وصححه من طريق أبي يونس. قال الحاكم في المستدرك: كتاب تواريـخ المتقدمـين من الأنبياء والمرسلين: الحديث (٤١٧٣/ ١٨٣): قد رويـت أخبـار في خـالد بـن سـنان وابنتـه الـتي دخلت على رسول الله ﷺ وقوله: [أنْتِ بِنتُ أخِي؛ نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ]. قال الذهـبي في التلخيـص: إن أبا يونس هو حاتم بن أبي صغيرة. ونقل السيوطي عن الذهبي قوله فيه (منكر). ولم أجد إنكار الذهبي على أبي يونس في التلخيص؛ وله ترجمة في تهذيب التهذيب: الترجمة (١٠٤٥) ونقل ابن حجر فيها: قال ابن معين، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة، زاد أبو حاتم: صالح الحديث.

وإسناد الحديث ضعيف لضعف المعلى بن مهدي الذي روى الحديث عن أبي عوانـة عـن ابن يونس. والمعلى بن مهدي قال ابن حجر في لسان الميزان: هو بصري، وقال أبـو حـاتم: يـأتي أحياناً بالمناكير: الترجمة(٢٥١) ج ٦ ص٦٥. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: باب ما جاء في خالد ابن سنان: ج ٨ ص٢١٣-٢١٤؛ قال: رواه الطبراني موقوفاً وفيه المعلى بن مـهدي ضعفـه أبـو حاتم؛ قال: يأتي أحياناً بالمناكير. قلت: وهذا منها. ثم قـال: وهـذا الحديـث معـارض للحديـث الصحيح قوله ﷺ: [أنَا أوْلَى النَّاسِ بعِيْسَى بن مَرْيَمَ، الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةُ العلات، وَلَيْسَ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ نَبِيٌّ]. رواه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الأنبيـاء: بـاب ٤٨: الحديـث(٣٤٤٢) و(٣٤٤٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب فضائل عيسى: الحديث (١٤٣-١٤٥/ ٢٣٦٥).

(٣) الدخان / ٣٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاءِ المذكُورين كذبَ الرُّسل، ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فوجبَ عليهم عذابهُ، وحقَّ عليهم كلمةُ العذاب.

وسُمي تُبَّعاً لكثرةِ أتباعهِ وكان يعبدُ النارَ فأسلمَ ودعَا قومَهُ إلى الإسلامِ وهم حِميَرُ فكذبوهُ، قال حاتِمُ الرقَّاشي[1]: كَانَ أَسْعَدُ الْحِمْيَرِيُّ مِنَ التَّتَابعَةِ، آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ بسَبْعِمائَةِ سَنَةٍ، وَقَالَ:

شَهِدْتُ عَلَى أحْمَدَ أنَّهُ ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ

فَلَوْ مَدَّ عُمْرِي إلَى عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ وَابْنُ عَمْ

قال قتادةُ: (ذمَّ اللهُ قَوْمَ تُبَّعٍ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَكَانَ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، فَسَارَ بالْجُيُوشِ وَافْتَتَحَ الْبلاَدَ وَقَصَدَ مَكَّةَ لِيَهْدِمَ الْبَيْتَ، فَقِيلَ لَهُ: إنَّ لِهَذا الْبَيْتِ رَبّاً يَحْمِيهِ، فَنَدِمَ وَأحْرَمَ وَدَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بالْبَيْتِ وَكَسَاهُ، وَهُوَ أوَّلُ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقولِهم (ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ). والمعنى: أعَجزْنا حين خلَقناهم أوَّلاً ولم يكونوا شيئاً، فكيف عن بعثِهم، وهذا تقريرٌ لهم لأنَّهم اعترَفُوا بأنَّ اللهَ الخالقُ وأنكرُوا البعثَ. ثم ذكَرَ أنَّهم في شَكٍّ من البعثِ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي بل هُم في شَكٍّ من البعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ؛ أي ولقد خلَقنا لبني آدمَ ونعلمُ ما يُحدِّثُ به قلبهُ؛ أي نعلَمُ ما يُخفِي ويُكِنُّ في نفسهِ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ بالعلمِ بأحوالهِ وبما في ضميرِه، ﴿ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وهو عِرْقٌ في باطنِ العُنقِ بين العَلبا والْحُلقُومِ، وهما وَريدان عن يَمين ثغرَةِ النَّحرِ ويسارِها، يتَّصِلان من نَاحِيَتي الحلقِ والعاتقِ، ينصبَّان أبداً من

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٩٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص١٤٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: تفسير سورة الدخان: الأثر (٢٤٠٨٩).

الإنسان. وقال الحسنُ: (الْوَرِيدُ: الْوَتِينُ؛ وَهُوَ عِرْقٌ مُعَلَّقٌ بِهِ الْقَلْبُ، وَاللهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْمَرْءِ مِنْ قَلْبِهِ)[١].

ومعنى الآيةِ: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) أي أعلَمُ به وأقدَرُ عليه مِن بعضهِ، وإنْ كان بعضهُ له حجابٌ فلا يحجِبُنا شيءٌ؛ أي لا يحجبُ عِلمُنا عنه شيءٌ.

ثم ذكرَ أنه مع علمهِ وكَّلَ به مَلَكين يكتُبان ويحفَظان عليه عملهُ إلزاماً للحجَّة، فقال: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (هُمَا مَلَكَان يَتَلَقَّيَان عَمَلَ ابْنِ آدمَ وَمَنْطِقِهِ)[٢] أي يَأخُذان ذلك ويُثبتانه في صحائِفهما، أحدُهما عن يمينٍ يكتبُ الحسَنات، والثاني عن شِمالٍ يكتبُ السيِّئات، فذلك قولهُ (وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) ولم يقل قَعِيدَان؛ لأنه أرادَ عن اليمينِ قعيدٌ وعن الشمالِ قعيدٌ، فاكتفَى من أحدِهما عن الأخرى، كقولِ الشَّاعر[٣]:

نَحْنُ بِمَا عِندَنَا وَأَنْتَ بِمَا ... عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي نحنُ بما عندَنا رَاضُون. والقعيدُ مثل قاعدٍ كالسَّميع والعليمِ والقدير، وقال أهلُ الكوفةِ: أرَادَ قُعُوداً.

رُوي: [أنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بالإنْسَان مَلَكَيْن باللَّيل، وَمَلَكَيْن بالنَّهَار يَحْفَظَان عَمَلَهُ، أحَدُهُمَا يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَالثَّانِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، فَإذا تَكَلَّمَ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا الَّذِي عَلَى الْيَمِينِ عَشْراً، وَإذا تَكَلَّمَ بسَيِّئَةٍ قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِلآخَرِ: أنْظِرْهُ، فَنَظَرَهُ سِتَّ سَاعَاتٍ أوْ سَبْعَ سَاعَاتٍ، فَإنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهَا، وَإنْ لَمْ يَتُبْ كَتَبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً] هكذا قال ﷺ[٤].

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٩.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٠.

(٣) قيس بن الخطيم الأوسي (؟؟-٢ ق.هـ).

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة) وذكره. وفي مجمع الزوائد: كتاب التوبة: ج ١٠ ص٢٠٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير وهو كذاب).

وعن أنسٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَكَّلَ بعَبْدِهِ مَلَكَيْـنِ يَكْتُبَـان عَلَيْـهِ، فَـإذا مَاتَ الْعَبْدُ قَالاَ: يَا رب قَدْ قَبَضْتَ عَبْدَكَ؛ أفَتَأْذنُ لَنَا أنْ نَصْعَدَ إلَـى السَّـمَاءِ ؟ فَيَقُـولُ اللهُ تَعَالَى: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِـي يُسَبحُونَ، فَيَقُـولاَن: أنُقِيـمُ فِـي أرْضِـكَ ؟ فَيَقُولُ: إنَّ أرْضِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ خَلْقِي يَعْبُدُونَنِي، فَيَقُولاَن: أيْنَ نَذْهَبُ ؟ فَيَقُـولُ: قُومَـا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي وَهَلِّلاَنِي وَكَبرَانِي وَاكْتُبَا ذلِكَ لِعَبْدِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَعِيدٌ) أي رَصِيدٌ حـافظٌ حـاضر مـلازمٌ لا يـبرحُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي حافظٌ حاضر (عَتِيدٌ) أي مُعْتَدٌّ لَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ ؛ أي جـاءَت غمَـرَاتُ المـوتِ وأهوالهُ وشدَّتُها التي تَغشَى الإنسانَ وتَغلِبُ على عقلِه، (بالْحَقِّ) أي بما يصيرُ إليه من أمر الآخرةِ من شَقاوةٍ أو سَعادةٍ تُحقِّقُ عليه عندَ المـوتِ. ويقـالُ لـه: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي تَميلُ وتَهربُ وتَكرَهُ، قد أيقَنْتَ أنه الآنَ. يقـالُ: حـادَ عـن الشيءِ يَحِيدُ عنهُ حَيْداً؛ إذا مَالَ وزَاغَ ونَكَصَ، وقرأ أبو بكـرِ الصدِّيـق ﷺ (وَجَـاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالْمَوْتِ)[(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ يريـدُ نفخـةَ البعثِ، يكون يومُ القيامةِ وهو يومٌ يتحقَّقُ فيـه الوعيـدُ، وهـو اليـومُ الموعُـود للأوَّلـين والآخِرين يجتمعون فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: ذلك الذي وعدَ اللهُ الكفارَ أنْ يُعذِّبَهم فيه.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي سـائِقٌ يَسُوقُها إلى الْمَحْشَرِ، وشاهدٌ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْ، قال الكلبيُّ: (السَّائِقُ هُـوَ الَّـذِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَالشَّهِيدُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ الْحَسَـنَاتِ)، والمـرادُ بـالنَّفسِ هـهُنا نفس

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٥٩٧؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان) وذكره.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٤ ص١٥٠؛ قال النحاس: (وصحَّ عـن أبي بكـر الصديـق ﷺ) وذكـره. وقال: (وكذا عن عبدالله بن مسعود رحمه الله قال: هذه قراءة على التفسير).

الكافر، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ ؛ اليومِ في الدُّنيا، ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ ؛ الذي كان في الدُّنيا يغشى قلبَكَ وسمعَكَ وبصرَكَ، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ ؛ أي فأنتَ اليومَ عالِمٌ نافذُ البصرِ، تُبصِرُ ما كنتَ تُنكِرُ في الدُّنيا. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أي فعِلمُكَ نافذٌ، وهو من البَصِيرَةِ لا بصرَ العينِ، كما يقالُ: فلانٌ بصير بهذا الأمرِ؛ أي عالِمٌ به. وَقِيْلَ: معناهُ: فبصرُكَ اليوم شاخصٌ لِمَا ترى من الْهَوْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ ؛ يعني الْمَلَكَ الذي يكتبُ عملَهُ السَّيِّءَ في الدُّنيا يقول: هذا الذي كَتَبتهُ من عملهِ مُعَدٌّ محفوظٌ مُحصَى، يعني أن الملَك يقولُ: لديه هذا الذي وكَّلتَني به قد أحضرتهُ، فيقولُ الله تعالى لقَرينهِ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ ؛ إطرَحا فيها، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ؛ بالله وبنعمتهِ، ﴿عَنِيدٖ ٢٤﴾ ، مُعرضٍ عن الإيمانِ والقرآنِ إعراضَ المضادِّ لهُ. وهذا خطابُ الواحدِ بلفظ التَّثنيَةِ على عادةِ العرب، يقولون للواحدِ: ارحلاها وآزجراها[1]. وَقِيْلَ: الخطابُ لخازنِ النَّار، ومخاطبَةُ الواحدِ بلفظ الاثنين من فصيحِ كلامِ العرب، ومنه قولُهم للواحدِ في الشِّعر (خَلِيلَيَّ)، قال امرؤُ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ لِلْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وقالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال الفرَّاءُ والسديُّ وأبو ثروان[2]:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

ومنه قولُ الحجَّاج: (يَا حَرَسِيُّ إضْرِبَا عُنُقَهُ)[3]، قال الزجَّاج: (تَثْنِيَةٌ عَلَى

---

(١) في معاني القرآن: ج ٣ ص٧٨؛ قال الفراء: (وسمعتُ بعضهم: ويحك! ارحلاها وازجراها).
(٢) سويد بن كراع، من بني عكل، شاعرٌ فارسٌ (؟؟-١٠٥هـ). وذكره الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٧٨. وذكر القرطبي هذه الشواهد الشعرية أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦.
(٣) نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٣٨.

الْحَقِيقَةِ وَالْخِطَابُ لِلْمُتَلَقِّيَنِ معاً، وَالسَّائِقُ وَالشَّهِيدُ جَمِيعاً)، وقرأ الحسنُ: (أَلْقِيَنْ) بنونِ التأكيد كقوله تعالى ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي لا يُنْزِلُ خيراً ولا يُعطي شيئاً من حقِّ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ؛ أي ظالِم لا يُقِرُّ بتوحيدِ الله، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي شَاكٌّ في البعثِ والتوحيد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ أي شريكاً، ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي إطرحاهُ في النار.

وقولُهُ: ﴿ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ ؛ أي شيطانهُ: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ ؛ أي ما أغويتهُ، ما أضلَلتهُ؛ أي لم أتَوَلَّ ذلك. وَقِيْلَ: معناهُ: قال قَرينهُ الذي يشهَدُ عليه من الملائكةِ: (رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) أي ما عجِلتُ عليه في الكتابةِ وما كتبتُ عليه إلاَّ ما قالَ وفعلَ، ﴿ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ ؛ خطأ، ﴿ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ من الصَّواب. وإنما يقولُ الْمَلَكُ هذا القولَ بعدَ ما يقولُ الكافرُ: يا رب عليَّ كتبَ ما لَمْ أقُلْ ولم أفعَلْ وما أنظَرَني، ولكن عجَّلَ في الكتابةِ عليَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ ﴾ ؛ أي يقولُ اللهُ تعالى: لا تختصِمُوا عندِي كما تختصِمُوا عند مُلوكِ الدُّنيا، فإنِّي مَلِكٌ لا يُكرَّرُ الكلامُ عندي، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم ﴾ ؛ على ألْسِنَةِ الرسُلِ بالوعدِ و؛ ﴿ بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ لا ينفعُكم الاختصامُ بعدَ أن أخبَرتُكم على ألسِنَةِ الرُّسل بعذابي في الآخرةِ لِمَن كفرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ ؛ أي لا خَلْفَ لوَعدِي ووعيدي، وقد قَضيتُ ما أنَا قاضٍ عليكم من العذاب، لا تبديلَ له. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يُكذبُ عندي ولا يغيَّرُ القولُ من جُملتهِ؛ لأنِّي أعلمُ الغيبَ وأعلمُ كيف ضَلُّوا وكيف أضْلَلتُموهم، ولا يقدرُ أحدٌ أن يُشقِي أحداً مِمَّن أسعَدتُهُ، ولا يُسعِدُ أحدٌ ممن أشقَيتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي لا أعاقِبُ أحداً من غيرِ جُرمٍ، ولا أخذُلُ أحداً من غيرِ ذنبٍ، ومَن عَمِلَ سيِّئةً فلا يُجزَى إلاَّ مِثلَها.

---

(١) العلق / ١٥ . وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ قرأ نافعُ (يَقُولُ) بالياءِ على معنى: يقولُ اللهُ. والمعنى: أنذِرْهُم يومَ يقولُ لجهنَّم: هَلِ امْتَلأْتِ كما وعَدتُّكِ، فتقولُ: (هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) أي لَمْ يبقَ موضعٌ لم يمتلئ فلا مزيدَ، على هذا قال المفسِّرون: أراها اللهُ تصديقَ قوله ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[1] فلمَّا امتلأتْ قالَ لَها: هلِ امتلأتِ؟ فتقولُ: هل مِن مزيدٍ على هذا الامتلاءِ؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي قدِ امتلأتُ ولم يبقَ فِيَّ موضعٌ خالٍ. هذا قولُ عطاء ومجاهد. وقال ابنُ عبَّاس في رواية أبي صالِح: (أنَّها تَسْتَزِيدُ إِلَى مَا فِيهَا)[2] ووجهُ هذا القولِ أنَّ هذا السؤالَ في قوله (هَلِ امْتَلأْتِ) كان قبلَ دُخولِ جميعِ أهلها فيها. ويجوزُ أن يكون المعنى: أنَّها طَلَبت أن تُزَادَ في سِعَتِها لتَضايُقِها بأهلِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي قريبٍ، وادِّيت الجنةُ للمتَّقين الشِّركَ غيرَ بعيدٍ، ينظُرون إليها قبلَ دخولِها، ويقالُ لَهم عندَ تَقريبِها: ﴿ هَٰذَا ﴾ ؛ الذي ترَونَه، ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ ؛ في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرُّسلِ، ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي لكلِّ رجَّاعٍ عن معاصِي اللهِ إلى طاعةِ الله، حافظٍ لحدُودِ اللهِ من الخروجِ إلى ما لا يجوزُ.

قال مجاهدُ: (الأَوَّاب الَّذِي يَذْكُرُ اللهَ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ)[3]، وَقِيْلَ: هو الذي يُذنِبُ ثم يتوبُ، ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ. وَقِيْلَ: الأوَّابُ المُسَبحُ مِن قوله ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[4]. وَقِيْلَ: هو الذاكرُ للهِ، وقال مقاتلُ: (الْمُطِيعُ)[5]. وَقِيْلَ: هو الذي لا يقومُ من محلِّه حتى يستغفرَ اللهَ، وقال أبو بكرٍ الورَّاق: (هُوَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لاَ يَهْتَدِي إِلَى غَيْرِ اللهِ). وَقِيْلَ: هو الذي لا يشتَغِلُ إلاَّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ صفةٌ للأوَّاب الحفيظِ، والمعنى: مَن خافَ اللهَ وخَافَ من عذابهِ وأطاعَهُ ولم يَعْصِهِ، وعبدَهُ حيث لا يراهُ إلاَّ اللهُ، وهو

---

(١) الأعراف / ١٨ .   (٢) ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٧٤٠).

(٤) سبأ / ١٠ .

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٢.

معنى قولـهِ (بـالْغَيْب) ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي جـاءَ بقلـبٍ مُخلِـصٍ راجعٍ عن معاصِي الله إلى طاعتهِ، والقلبُ الْمُنِيبُ: هو التَّائِبُ، وموضِعُ (مَنْ خَشِـيَ) الخفضُ على نعتِ الأَوَّاب.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ ؛ يعـني سـلامة مـن الهمومِ والعـذاب وأمانٍ من كلِّ مكروه، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ في الجنَّة لأنه لا مـوتَ فيـها ولا فنـاءَ ولا انقطـاعَ، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ ؛ مـن أنـواعِ النَّعيـمِ، ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي نَزيدُهم من عندِنا ما لم يسألوهُ، ولا خَطَرَ علـى قلـوبٍ، ولا بلغَتهُ أفهامُهم، وقال جابرُ: (الْمَزِيدُ هُوَ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ بلاَ كَيْفٍ)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ ؛ هذا تخويفٌ لأهلِ مكَّة؛ أي كم أهلَكنا من قـومٍ هُـم أشَـدُّ مِنْـهُمْ بَطْشـاً، ﴿ فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ ؛ أي سَارُوا وتَقلَّبُوا وطافُوا في البلادِ. وأصلهُ مـن النَّقـب وهـو الطريـقُ؛ وكأنَّهم سلَكُوا كلَّ طريقٍ فلم يجِدُوا مَخْلَصاً عن أمرِ الله.

قال الزجَّاجُ: (لَمْ يَرَوا مَخْلَصاً مِنَ الْمَوْتِ، كَأَنَّهُمْ ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ مَعَ شِـدَّةِ شَوْكَتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ، وَفِي هَذا إنْذارٌ لأَهْلِ مَكَّةَ أنَّهُمْ عَلَى مِثْلِ سَبيلِهِمْ لاَ يَجِدُونَ مَفَـرّاً مِنَ الْمَوْتِ، يَمُوتُونَ فَيَصِيرُونَ إلَى عَذاب اللهِ)(٢).

قرأ الحسنُ: (فَنَقَبُوا) بالتخفيف، وقرأ السُّلَمي على اللفظِ الأمر علـى التـهديدِ والوعيد؛ أي أقبِلُوا في البلادِ وأدبِرُوا يا أهلَ مكَّة وتصرَّفُوا منها كلَّ مُتصَرَّفٍ، وسِيرُوا في الأرضِ فـانْظروا، ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ ؛ أي إنَّ ما صُنِعَ بهم من هلاكِ القُرى لعبرَةً وعِظَةً؛ ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، عقلٌ وحزْمٌ وبصيرة، ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ ؛ أي استمعَ ما يقالُ لـه علـى جهـة التَّفـهُّمِ، يقـولُ العـربُ: أَلْـقِ سَـمْعَكَ؛ أي اسْتَمِعْ مِنِّـي؛ ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي شـاهِدُ القلب حاضرهُ غير غافلٍ ولا سَاهٍ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٠.

(٢) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ واللُّغوبُ هو التَّعَبُ، وذلك أنَّ اليهودَ لَعَنَهُمُ اللهُ قالُوا: خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّام، أوَّلُها يوم الأحَدِ، وآخرُها يومُ الجمعةِ، فأعيَا واستراحَ يومَ السبتِ! فذلكَ لا يُعمَلُ فيهِ شيئاً. فأكذبَهم اللهُ بقولِهِ (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، واللُّغوبُ هو التعبُ، وسُبحانَ اللهِ أن يُوصَفَ بتَعَبٍ أو نصَبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي إصبرْ يا مُحمَّدُ على ما يقُولون من الأذى والتكذيب، وهذا قبلَ أن يؤمَرَ بالقتال، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي صَلِّ بأمرِ ربكَ واحْمَدْهُ، ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بذلك صلاةَ الفجر وصلاةَ العصر. وَقِيْلَ: معناهُ: قبلَ الغروب: الظهرَ والعصرَ، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ؛ يعني: صلاةَ المغرب والعشاءِ. وسُمِّيت الصلاةُ تَسبيحاً لِمَا فيها من التسبيح: (سُبْحَانَ رَبيَ الْعَظِيمِ، وَسُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يعني الرَّكعتين بعدَ المغرب وقبلَ الوتر. وَقِيْلَ: التسبيحُ في أواخرِ الصَّلاة، يُسَبحُونَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، ويَحمَدُون ثلاثاً وثلاثين، ويُكبرُونَ ثلاثاً وثلاثين. وعن رسول الله ﷺ: [أنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ صَلاَتِهِ عِنْدَ انْصِرَافِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبكَ رَب الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ إلَى آخرِ السُّورة][1].

وعن الشعبيِّ والأوزاعيِّ أنَّهما قالا: (أدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَان بَعْدَ الْمَغْرِب، وأدْبَارُ النُّجُومِ: الرَّكْعَتَان قَبْلَ الْفَجْرِ)[2]. وقال ابنُ زيدٍ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (أَدْبَارَ السُّجُودِ) وَهُوَ النَّوَافِلُ، وَأدْبَارُ الْمَكْتُوبَاتِ)[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٩ ص١٩٥: الحديث (١١٢٢١) عن ابن عباس بلفظ: [كُنَّا نَعْرِفُ انْصِرَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بقَوْلِهِ...] وذكره. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٠٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه محمد بن عبدالله بن عبيد بن عمير، وهو متروك). وذكر في ج ٢ ص١٤٧-١٤٨ عن أبي مثله، وقال: (رواه أبو يعلى ورجاله ثقات). وذكره النووي برواية عن ابن السني في الأذكار: ص٦٩، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٢ ص٢٥٩: الحديث (٨٧٤٧).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٦؛ نقله القرطبي بلفظ: (هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة).

قرأ الحسنُ وأبو عمرٍو ويعقوبُ وعاصم والكسائيُّ وابنُ عامرٍ: (وَأَدْبَارَ) بفتحِ الألف جمعُ الدُّبُرِ. وقرأ الباقون بالكسرِ على المصدر مِن أَدْبَرَ يُدْبِرُ إِدْبَاراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي استمِعْ يا مُحَمَّدُ صيحةَ القيامةِ والبعثِ والنَّشرِ، ويومَ النداءِ هو يومُ صَيحَةِ إسرافيلَ، وهو يومُ النَّفخةِ الأخيرةِ، يقومُ فيـه علـى صخـرةِ بيـتِ المقـدسِ فينفـخُ في الصُّـور، والصَّخرةُ أقربُ مكانٍ من الأرضِ إلى السَّماء باثْني عشر مِيلاً كذا قال الكلبيُّ.

وفي الحديثِ: [أنَّهُ يُنَادِي: أيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْعُـرُوقُ الْمُتَمَزِّقَـةُ، وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، اُخْرُجْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ فِيكُنَّ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ][(1)].

وقولـه تعـالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بـالبعثِ، وَقِيـلَ: إنَّـها كائنةٌ بالحقِّ، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن القبور إلى المحشَرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ ؛ أي نُحيـي الأمـواتَ ونُميـتُ الأحياءَ، ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ للجزاءِ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ﴾ ؛ أي تتصَـدَّعُ عنـهم مُسرعين، والمعنى يوم تشقَّقُ الأرضُ عنـهم خـارجين سِـراعاً يُسـرعُونَ إلى الدَّاعـي، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الحشرُ، ﴿ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي هَيِّنٌ وسَهْلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ مِن تكذيبكَ من أمرِ البعث وغيرِ ذلك، يعني كفَّارَ مكَّة، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ ﴾ ؛ أي بمُسلَّطٍ قهَّارٍ تُجبرُهُم على الإسلامِ، إنما بُعِثتَ مُذكِّراً مُحذِّراً، وذلك قبـلَ أن يُؤمَـرَ بالقتـال. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي عِظْ به، ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ وإنما خَصَّ الخائفِين بالوعظِ؛ لأنَّهم همُ الذين يَنتفِعُونَ بذلك، والمعنى: ذكِّرْ بالقرآنِ مَن يخافُ مـا وعَدتُ مَن عصَاني من العذاب.

آخر تفسير سورة (قٓ) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٧٩٠) موقوفـاً عـن كعـب. وفي الـدر المنثور: ج ٧ ص٦١١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عساكر والواسطي في فضائل بيت المقدس).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سُورَةُ الذارِيَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسُتُّونَ كَلِمَةً، وَسُتُّونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الذارِيَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ رِيحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ فِي الدُّنْيَا][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ ﴾ ؛ يعني الرِّياحَ تَذرُوا الترابَ، وتهشِمُ النباتَ؛ أي تُفرِّقهُ، وهي مخفوضةٌ على القسَمِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ ﴾ ؛ يعني السَّحابَ تحمِلُ ثُقلاً من ماءِ المطرِ، فتصيرُ كالْمُوقَدَةِ، والوِقْرُ بكسرِ الواو الْحِمْلُ، والوَقْرُ بفتح الواو الثُّقلُ في الأذن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ ﴾ ؛ يعني السُّفن تجري في الماءِ جَرْياً سَهْلاً مع عِظَمِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ ﴾ ؛ يعني الملائكةَ يَقسِمُونَ الأُمورَ بين الخلقِ على ما أُمِرُوا به من الأرزاقِ وغيرِها.

أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالةِ على صَنعَتِهِ وقُدرتهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ ﴾ ؛ يعني إنَّ الذي تُوعَدون من الثَّواب والعقاب لصادقٌ، ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ ؛ أي الجزاءَ، ﴿ لَوَٰقِعٞ ۝٦ ﴾ ؛ كائنٌ يومَ القيامةِ.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف:ج٤ ص٣٩٧. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٠٩ عن أبي بإسناد ضعيف.

وعن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قَالَ ذاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَةٍ: (سَلُونِي فَوَاللهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ وَسَأُخْبِرُكُمْ بِهِ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا الذارِيَاتِ ذرْواً؟ فَقَالَ: الرِّيَاحُ. وَقَالَ: مَا الْحَامِلاَتِ وقْراً؟ قَالَ: السَّحَابُ. قَالَ: مَا الْجَارِيَاتِ يُسْراً؟ قَالَ: السُّفُنُ. قَالَ: مَا الْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً؟ قَالَ: الْمَلاَئِكَةُ)[١].

وعن الأعرجِ قال: (بَلَغَنَا أنَّ مَسَاكِنَ الرِّيَاحِ تَحْتَ أَجْنِحَةِ الْكُرُوبِيِّينَ حَمَلَةِ الْكُرْسِيِّ، فَتَهِيجُ مِنْ ثَمَّ فَتَقَعُ بعَجَلَةِ الشَّمْسِ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ عَجَلَةِ الشَّمْسِ فَتَقَعُ برُؤُوسِ الجِبَالِ، ثُمَّ تَهِيجُ مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ فَتَقَعُ فِي البَرِّ، وأمَّا الشَّمَالُ فإنَّها تَمُرُّ بجَنَّةِ عَدْنٍ، فَتَأْخُذُ مِنْ عَرْفِ طِيبِهَا، فَتَمُرُّ عَلَى أَرْوَاحِ الصِّدِّيقِينَ، ثُمَّ يَكُونُ مَهَبُّهَا مِنْ كُرْسِي بَنَاتِ نَعْشٍ إلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَتَهُبُّ الدَّبُورُ مِن مَغْرِبِ الشَّمْسِ إلى مَطْلَعِ سُهَيْلٍ، وَتَهُبُّ الصَّبَا مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إلى مَغْرِبِ بَنَاتِ نَعْشٍ، لاَ تَدْخُلُ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ، وَلاَ هَذِهِ فِي حَدِّ هَذِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾؛ هذا قسَمٌ آخرُ، ومعناهُ: والسَّماءِ ذاتِ الْخَلْقِ الْحَسَنِ المستَوِي، هذا قولُ عكرمةَ، قالَ: (أَلَمْ تَرَ إلَى النَّسَّاجِ إذا نَسجَ الثَّوْبَ فَأَجَادَ نَسْجَهُ، قِيلَ: مَا أَحْسَنَ حَبْكَهُ!)[٣]، وبهِ قالَ ابنُ عبَّاس وقتادةُ والربيع[٤]. وقال سعيدُ بن جبير: (وَمَعْنَاهُ: ذاتِ الزِّينَةِ)[٥].

وقال مجاهدُ: (وَالسَّمَاءِ ذاتِ الْبُنْيَانِ الْمُتْقَنِ)[٦]. وقال الضحَّاكُ: (ذاتِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُرَى فِيهَا كَحُبُكِ الْمَاءِ إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيَاحُ، وَحُبُكِ الرَّمْلِ إذا سَفَتْهُ الرِّيحُ، وَحُبُكِ الشَّعْرِ الْجَعْدِ، وَحُبُكِ الثَّوْبِ الْحَسَنِ النَّسِيجِ)[٧].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٨٨)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١١.
(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٠٩ بلاغاً بإسناده عن عمر الأعرج.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٢)
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٤٨١٣-٢٤٨١٥).
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٠).
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٧). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٢.
(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨١٨).

والْحُبُوكُ في اللغة: مَا أُجِيدَ عَمَلُهُ، وواحدُ الْحُبُكِ حِبَاكٌ، مثلُ مِثَال ومُثُل. ويجوزُ أن يكون واحدةُ حَبيكَةٍ مثلُ طَرِيقَةٍ وَطُرُق[١]. وَقِيْلَ: الْحُبُكُ طَرِيقُ الْملائكةِ، وقال الحسنُ: (حَبَكَهَا زَيَّنَهَا بالنُّجُوم). وَقِيْلَ: (ذَاتِ الْحُبُكِ) أي ذاتِ الْخَلْقِ الشَّدِيدِ، قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾[٢].

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾؛ هذا جوابُ القسَمِ الثاني، والمعنى: إنَّكم يا أهلَ مكَّة لَفِي قولٍ مُختَلِفٍ من بين مُصَدِّق بالنبيِّ ﷺ ومُكَذِّبٍ به، ومُتوَقِّفٍ في أمرِه، وبعضُكم يقولُ في مُحَمَّدٍ: هو شاعرٌ، وبعضكم يقول: مجنونٌ، وفي القرآن يقول بعضُكم: هو سحرٌ، وبعضكم يقول: هو كهانةٌ، وبعضكم يقولُ: هو أساطيرُ الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي يَنصَرِفُ عن الإيمانِ مَن صُرِفَ حتى يُكَذِّبَ بهِ، يعني بذلك مَن حَرَمَهُ اللهُ الإيمان بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي لُعِنَ الكذابُونَ، وقال ابنُ عبَّاس: (الْمُرْتَابُونَ)[٣]، والقَتْلُ إذا أخبرَ به عن اللهِ كان بمعنى اللَّعْنِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَهُ اللهُ فهو بمنْزلة المقتول الهالكِ، كما قالَ اللهُ ﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[٤] أي لُعِنَ. والْخَرَّاصُونَ: همُ الكذابُونَ.

قال الفرَّاء: (وَالْمُرَادُ بِهِمْ هَهُنَا الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ وَكَذابٌ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ)[٥]. والْخَارِصُ: هو الذي يقطعُ في الأمور والْحُكمِ بمقدارهِ بالتَّخمِينِ، يعني مِن غير علمٍ، ومنه خَارِصُ الذي يقطعُ في مقدارهِ بغيرِ حقيقةٍ.

---

(١) ينظر: لسان العرب: مادة (حبك).

(٢) النبأ / ١٢ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٢٧).

(٤) عبس / ١٧ .

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٣ ص٨٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾؛ نعتٌ لهم، والغَمْرَةُ هي الجهلُ، ومنه الغَمْرُ الجهلُ، والسَّاهِي هو الغافلُ عن أمرِ الآخرة. والمعنى: الذين هُم في غفلةٍ وعمًى وجهالةٍ عن أمرِ الآخرة، سَاهُونَ لاَهُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾؛ أي يسألون متى يكونُ الجزاءُ على وجهِ الإنكار، يقولون: يا مُحَمَّدُ متى يومُ الجزاءِ، تكذيباً منهم واستهزاءً، فأُجِيبُوا بما يَسُوءُهم، فقيل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي يُحرَقون ويُنضَجون ويعذبون بها.

يقالُ: فَتَنْتُ الذهبَ إذا أحرقتُ الغشَّ الذي فيه، والكفارُ غِشٌّ كلُّهم فيُحرَقون، ويقولُ لَهم خزَنَةُ النار: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ أي حَرِيقكم وعذابكم، ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ في الدُّنيا تكذيباً به. وإنَّما لم يقُل: فِتنَتكم هذهِ؛ لأنَّ الفتنةَ ههُنا بمعنى العذاب، فردَّ الإشارةَ إلى المعنَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قَابلين ما أعطَاهُم ربُّهم من كرامةٍ في الجنَّة. وَقِيْلَ: معناهُ: عَامِلين بما أمرَهم ربُّهم في الدُّنيا، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ في الدُّنيا في أعمالِهم. وقولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي ما ينامُون، هذا بيانُ إحسانِهم.

والْهُجُوعُ: النَّومُ باللَّيلِ دون النَّهار، و(مَا) زائدةٌ، والمعنى: كانُوا يَهجَعُونَ قليلاً من اللَّيلِ ويُصَلُّونَ أكثرَ اللَّيلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: قَلَّ ليلةً أتت عليهم هَجَعُوها كلَّها، وقال مجاهدُ: (كَانُوا لاَ يَنَامُونَ كُلَّ اللَّيْلِ)(١).

واختارَ قومٌ الوقفَ على قولهِ (كَانُوا قَلِيلاً) على معنى: كَانُوا من الناسِ قَليلاً، وهو قولُ الضحَّاك ومقاتل(٢). ثم ابتدأ فقالَ: (مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وهذا على نفيِ النومِ عنهم البتَّةَ. وَقِيْلَ: معناهُ: كانوا لا ينامُون حتى يُصَلُّوا الْعَتَمَةَ، وقالَ أنسُ بن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٦٦).

(٢) ينظر: تفسير مقاتل: ج ٣ ص٢٧٦.

مالكٍ ﷺ: (يُصَلُّونَ مَا بَيْنَ الْمَغْرب وَالْعِشَاءِ)(١). وعن جعفرَ بن محمَّد أنه قال: (مَنْ لَمْ يَهْجَعْ مَا بَيْنَ الْمغْرب وَالْعِشَاءِ فَهُوَ مِنْهُمْ)، عن أبي ذرٍّ(٢) قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ: أيُّ صَلاَةِ اللَّيْلِ أفْضَلُ ؟ قَالَ: [نِصْفُ اللَّيْلِ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ](٣). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ قال الحسنُ: (كَانُوا يَمُدُّونَ الصَّلاَةَ إلَى الْعَصْرِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ فِي الاسْتِغْفَار بالأَسْحَار)(٤).

وقولهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾؛ يعني بذلك الحقّ الزكاةَ، فليس عليهم مِن سِوَاها، والسائلُ: هو الذي يسألُ الناسَ، والْمَحْرُومُ: هو الذي لا يسألُ، يَحرِمُ نفسَهُ بتركِ سُؤالِه، ويحرِمهُ الناسُ بتركِ إعطائهِ.

وقال إبراهيمُ: (الْمَحْرُومُ: هُوَ الَّذِي لاَ سَهْمَ لَهُ فِي الْغَنِيمَةِ)(٥)، وقال زيدُ بن أسلَم: (هُوَ الْمُصَابُ ثَمَرُهُ أوْزَرْعُهُ أوْنَسْلُ مَاشِيَتِهِ)(٦)، ويقالُ: هو صاحبُ الحاجةِ بذهاب مالهِ بدليلِ قوله ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾(٧).

عن أبي قُلابة قال: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْيَمَامَةِ لَهُ مَالٌ، فَجَاءَ سَيْلٌ فَذهَبَ مَالُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أصْحَاب النَّبيِّ ﷺ هَذا الْمَحْرُومُ فَأقْسَمَ لَهُ)(٨). وقال قتادةُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٥٧). ورواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٧٨٩).

(٢) في المخطوط: (أبي الدرداء) وهو تحريف من الناسخ، والصحيح كما أثبتناه.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب قيام الليل: باب أي صلاة الليل أفضل: الحديث (١٣٠٨) وإسناده صحيح. واختلفوا في (مهاجر) من رواته. وابن المبارك في الزهد: ص٤٢٨: الحديث (١٢١٧). وابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: الحديث (٢٥٦٤). والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة: الحديث(٤٧٦٨) وإسناده حسن.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٤٨٧١) بلفظ: (نشطوا فمَدُّوا إلى السَّحَر) (ومدوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار بسَحر) وهو كذلك في الأثر (٢٤٨٨٣).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٠).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٢).

(٧) الواقعة / ٦٦-٦٧.

(٨) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦١٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر). وأخرجه الطبراني في جامع البيان: الأثر (٢٤٨٩١).

والزهري: (هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ)[١]، وقد ذكرَ النبيُّ ﷺ فقالَ: [لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ لِحَاجَتِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ][٢].

وعن عبدِالله بن عمرَ والشعبيِّ والحسن ومجاهد أنَّهم قالوا: (فِي الْمَالِ حَقٌّ وَاجِبٌ سِوَى الزَّكَاةِ)[٣]، وَهِيَ الْحُقُوقُ الَّتِي تَلْزَمُ عِنْدَمَا يُعْرَضُ مِنَ الأَمْوَالِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ إذا كَانَا فَقِيرَيْنِ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ الْمَحْرَمِ، وَمَا يَجِبُ مِنْ إطْعَامِ الْمُضْطَرِّ وَحَمْلِ الْمُنْقَطِعِ وَغَيْرِ ذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ آياتُ الأرضِ جبالُها وأنْهارُها واختلافُ نباتِها وبحارِها وأشجارِها، بذلك كلِّه دلائلُ توحيدِ الله لِمَن أيقنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وفي أنفُسِكم آياتٌ إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم عَظْماً إلى نَفْخِ الروحِ.

وقال عطاءُ: (يَعْنِي اخْتِلاَفَ الأَلْسِنَةِ وَالصُّوَرِ وَالأَلْوَانِ وَالطَّبَائِعِ). وقال ابنُ الزُّبَيرِ: (هُوَ أنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ بَعْدَ ذلِكَ مِنْ مَكَانَيْنِ، مَكَانِ الْغَائِطِ وَمَكَانِ الْبَوْلِ، حَتَّى أنَّهُ لَوْ شَرِبَ لَبَناً مَحْضاً خَرَجَ مَاءً)[٤]. وقولهُ تعالى (أفَلاَ تُبْصِرُونَ) أي أفلا تنظُرون بقلوبكم نظرَ مَن كان يرَى الحقَّ بعَينهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ؛ يعني المطرَ الذي هو سببُ النباتِ، والنباتُ هو مما قَسَمَهُ اللهُ تعالى للعبادِ وكَتَبَهُ في السَّماء، أخبرَ اللهُ تعالى أنَّ أرزاقَ العبادِ حيث لا يأكلهُ السُّوس ولا تنالهُ اللُّصوصُ، فقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٤٨٩٧ و٢٤٨٩٥) عن قتادة، و(٢٤٨٩٥ و٢٤٨٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان مرسلاً: الحديث(٢٤٨٩٦):(عن الزهري أن النبي ﷺ قال...) وذكره.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير:ج ١٠ ص٣٣١١: الأثر(١٨٦٥٣) عن ابن عباس. ونقله السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص٦١٦؛ وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد). ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩٠٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١٢.

وعن واصل الأحدب[(١)] أنَّهُ قرأ هذه الآيةَ فقال: (إنِّي أرَى رزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأنَا أطْلُبُهُ فِي الأرْضِ، فَدَخَلَ خَرِبَةً فَمَكَثَ فِيهَا لَيَالِيَ لاَ يُصِيبُ شَيْئاً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الرَّابعِ إذْ هُوَ خُوصِ صُرَّةٍ مِنْ دَوْخَلَّةٍ رُطَب[(٢)]، فَلَمْ يَزَلْ كَذلِكَ حَتَّى مَاتَ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: وَفِي السَّمَاءِ مَا تُوعَدُونَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مَكْتُوبٌ)، وقال الكلبيُّ: (وَمَا تُوعَدُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)، وقال مجاهدُ: (الْجَنَّةِ وَالنَّارِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى بنَفسهِ، والذي بَيَّنَهُ مِن أمرِ الرِّزق وغيرِه (لَصِدْقٌ) كان نِطقُكم الذي هو الصدقُ من كلمةِ التَّوحيدِ ونحوِها حقٌّ قراءةُ أهلِ الكوفة (مِثْلُ مَا أنَّكُم) برفعِ (مِثْلُ) على أنَّهُ صفةٌ لقوله (لَحَقٌّ). وقرأ الباقون بالنصب على التركِ على معنى إنه يَحِقُّ حقاً (مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تَنطِقُونَ)؛ وَقِيْلَ: تقديرهُ: كَمِثْلِ ما أنَّكم تَنطِقُونَ.

وقالَ بعضُ الحكماء: معنى قولِهِ: (مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) أي كما أنَّ كلَّ إنسان لا ينطقُ بلسانِ غيرِهِ، كذلك لا يأكلُ إنسانٌ رزقَ غيرِهِ والذي قُدِّرَ له، ولا يأكلُ إلاَّ رزقَ نفسهِ، كما لا يتكلَّمُ إلاَّ بلسانِ نفسه.

قال الحسنُ: (بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [قَاتَلَ اللهُ أقْوَاماً أقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بنَفْسِهِ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ][(٤)]، وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَوْ أنَّ أحَدَكُمْ فَرَّ مِنْ رزْقِهِ لَتَبعَهُ كَمَا يَتْبَعُهُ الْمَوْتُ][(٥)]، قال الشاعرُ[(٦)]:

---

(١) في المخطوط: (فاضل بن الحدب) وضبطت الاسم كما في جامع البيان للطبري.

(٢) دَوْخَلَّة: مشددة اللام سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب، وهي كالزنبيل، والقوصرة يترك فيها الرُّطَب. لسان العرب: (دخل): ج ٤ ص٣١٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٤٩١٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٤٩١٩). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ١٠ ص٣٣١٢.

(٥) ذكره الديلمي في الفردوس: الحديث (٥٠٩٢). وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١١٦.

(٦) دعبل الخزاعي (١٤٨-٢٤٦هـ).

أَسْــعَى لأَطْلُبَــهُ وَالــرِّزْقُ يَطْلُبُنِــي وَالــرِّزْقُ أَكْـثَرُ لِــي مِنِّــي لَــهُ طَلَبَـا

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي قد أتاكَ يا مُحَمَّدُ أضيافُ إبراهيم عليه السلام الذي أكرَمَهم بخِدمَتهِ وقيامهِ بين أيديهم، قال ابنُ عبَّاس ومقاتل: (مَعْنَى الآيَةِ: قَدْ أتَاكَ وَلَمْ يَكُنْ إذْ ذاكَ آتَاكَ إيَّاهُ)(١)، وقولهُ تعـالى (الْمُكْرَمِينَ) يعني عندَ اللهِ.

وذكرَ ابنُ عبَّاس: (أنَّ أضْيَافَ إبْرَاهِيمَ: إسْرَافِيلُ وَجِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ)(٢). وقال مقاتلُ: (يَعْنِي بقَوْلِهِ (الْمُكْرَمِينَ) أيْ أكْرَمَهُمْ إبْرَاهِيمُ فَأَحْسَنَ عَلَيْهِمُ الْقِيَـامَ، وَكَـانَ لاَ يَقُومُ عَلَى رَأسِ ضَيْفٍ، فَلَمَّا رَأى هَيْئَتَهُمْ حَسَنَةً قَامَ هُوَ وَامْرَأتُهُ سَارَةُ لِخِدْمَتِـهِمْ)(٣). وقال الكلبيُّ: (أكْرَمَهُمْ بالْعِجْلِ). قال ﷺ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لِيَسْكُتْ](٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ وهم جبرَائِيلُ ومعه مِن الملائكةِ، قال ابـنُ عبَّاس ومقاتلُ: (كَانُوا اثْنَىعَشَرَ مَلَكاً)(٥)، وقال مُحمَّدُ بن كعبٍ: (كَانُوا سَبْعَةً مَا خَـلاَ جِبْرَائِيلَ)، وقال عطاءُ: (كَانُوا ثَلاثَةً: جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإسْرَافِيلُ)(٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: سَلَّمُوا عليه سَلاَماً. وَقِيْلَ: قالوا أسْلِمْ سَلاماً؛ كأنَّهم آنسوهُ من الوَجَلِ. فقـال سـلامٌ مِنكُـم؛ أي أمِنتُ بما جاءَني من السَّلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَوْمٌ مُنكَرُونَ) أي إنـه لم يَعرِفْـهم لأنـه ظنَّ أنَّهم من الإنسِ.

---

(١) في التفسير: ج٣ ص٢٧٧؛ قال مقاتل:(يعني قد أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم).

(٢) قاله مقـاتل في التفسـير: ج ٣ ص٢٧٧. وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٧ ص٤٤؛ قـال القرطبي: (زاد عثمان بن حصين: وروفائيل عليهم السلام).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٧.

(٤) تقدم وهو حديث صحيح.

(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٢٤.

(٦) هذه الأقوال أيضاً ذكرها البغوي في معالم التنزيل: ص٦٢٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ ؛ أي عَدَلَ ومالَ إلى سارة من حيث لم يَعلَمْ أضيافهُ لأيِّ شيءٍ عدلَ، ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي كَثِيرِ الشَّحم فوَضَعَهُ بين أيدِيهم، قال قتادةُ: (وَكَانَ عَامَّةَ مَالِ إبْرَاهِيمَ الْبَقَرُ)(١) ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ ليأكلوهُ، فلم يأكلوا، ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ من طعامِي، ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ؛ أي فأضمرَ في نفسهِ خيفةً منهم حيث لم يأكلُوا من طعامهِ، ظَنَّ أنَّهم يُريدون به سوءً، فلمَّا عَلِموا خوفَهُ، ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ ؛ إنَّا رسُلُ ربكَ، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ حَليمٍ في صِغَرِهِ، عليمٍ في كِبَرِهِ وهو إسحقُ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ ؛ أي في ضجَّةٍ وصَيحَةٍ؛ أي أخذتْ تُوَلْوِلُ؛ أي تقولُ: يا وَيْلَتَا. وَقِيلَ: الصَّرَّةُ جماعةُ النساءِ، مأخوذٌ من الصَّرَّةِ التي هي مجمَعُ الدراهم، ومنه الشَّاةُ الْمُصَرَّاةُ، وقولهُ تعالى: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ والكلبي: (جَمَعَتْ أصَابعَهَا فَضَرَبَتْ جَنْبَيْهَا تَعَجُّباً)(٢).

ومعنى الصَّكِّ: الضربُ للشيءِ بالشيءِ العريض، والصَّرَّةُ مأخوذٌ من الصَّرِّ وهو الصوتُ، كأنَّها جاءت بشِدَّة الصياحِ فلطَمَتْ وجهَها وهي تقولُ: ٱألِدُ وأنا عجوزٌ عاقرةٌ، وكانت يومَ البُشرى بنتَ ثمان وتسعين سَنة، وكان إبراهيمُ أكبرَ منها بسَنةٍ.

ومعنى قولهِ تعالى: (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)؛ تقديرهُ: أتَلِدُ عجوزٌ عقيم، وكانت سَارَةُ لَمْ تَلِدْ قبلَ ذلك، وكان بين البشَارَةِ والولادةِ سنةٌ، فولدَت سارةُ وهي بنتُ تسعٍ وتسعين سَنة، وإبراهيمَ يومئذ ابنُ مائةِ سَنة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ؛ أي كما قُلنا لكِ إنَّكِ ستَلِدِينَ غُلاماً عليماً، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الحكيمُ من العَقيمِ بالولد

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٦.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٥. ومقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٨.

وغيرِ العقيم، العليمُ بمصالحِ العباد. والعقيمُ في النِّساء هي التي لا تأتِي بالولدِ، وفي الرِّياح هي التي لا تأتِى بالمطر، ولا يكون فيها الخيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ: ما شأنُكم وفيما أرسِلتُم، ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ ؛ كافرِين لنُهلِكَهم بكُفرهم وعمَلِهم الخبيثِ، أرادُوا بذلك قومَ لوطٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ ؛ أرادَ به الحجارةَ المطبوخةَ كالآجُرِّ، ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ ، والْمُسَوَّمَةِ الْمُعَلَّمَةِ. رُوي: أنَّها كانت مُخَطَّطَةً بسَوَادٍ في حُمرةٍ، وكان على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن جُعِلَ إهلاكهُ. والْمُسْرِفُ هو الخارجُ من الحقِّ، والشِّركُ أسرَفُ الذنوب وأعظَمُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) ﴾ ؛ أرادَ به لُوطاً ومَن كان معه آمَن وهُما ابنتاهُ، وهما زَعُورَا و ريثا، أمرَهم اللهُ تعالى بأنْ يخرجُوا بقِطَعٍ من الليلِ، ومعنى قولهِ تعالى (مَنْ كَانَ فِيهَا) أي في قريةِ لوطٍ، وذلك قولهُ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾(١) أمرَ اللهُ لوطاً بأنْ يخرُجَ هو ومَن معه مِن المؤمنين لئَلاَّ يُصيبَهم العذابُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ ؛ أي غيرَ أهلِ بيتٍ مِن المسلمين، يعني لُوطاً وبنتَيهِ، وصَفَهم اللهُ بالإيمان والإسلام جميعاً؛ لأنه مَا مِن مؤمنٍ إلاّ وهو مسلمٌ، والمرادُ بالإسلامِ هَهُنا الإيمانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ ؛ أي وتَركنا في مدينةِ قومِ لوطٍ عليه السلام علامةً، ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾ ؛ تدُلُّهم على أنَّ اللهَ أهلكَهم فيخَافُون مثلَ عذابهم، فإن اقتلاعَ البُلدان لا يقدرُ عليه أحدٌ إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ ؛ أي وفِي خبرِ موسى عليه السلام وقضيَّتهِ مع فرعون آيةٌ أيضاً، وقولهُ تعالى (بسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ وهي العصَا واليدِ.

---

(١) هود / ٨١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ ؛ أي أعـرضَ فرعـونُ عـن الإيمـان بـه بجَمعهِ وجُندهِ الذين كان يتقَوَّى كالرُّكن الـذي يتقـوَّى بـه البنيـان، ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، ونَسَبَ موسى إلى السِّحر والجنون مع ظُهور حُجَّتهِ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ ؛ أي فعاقَبناهُ وجُموعَـهُ فطَرحنَـاهُم في البحـرِ وأغرقنـاهم، ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي وهـو مُسـتَوجِبٌ الْمَلاَمَةَ؛ لأنه أتَى بما يُلامُ عليه حين ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ وكذبَ الرُّسلَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي وفي خَبرِ قومِ هودٍ آيةٌ أيضاً، حين أرسَلنا عليهم الدُّبُورَ والعقيمَ التي لا خيرَ لَهم فيـها ولا بركةَ ولا تلقَحُ شَجراً ولا تَحمِلُ مَطراً، إنما هي ريحُ الهلاكِ، وكانت تلـك الريـحُ الـتي أهلكَتْ بها عادٌ ريحَ الدَّبُور، قال ﷺ: [نُصِرْتُ بالصَّبَا وَأهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور][(١)].

وقولهُ تعالى: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ما تترُكُ من شيءٍ مرَّت عليه مِن أنفُسِهم وأنعامِهم إلاَّ جعلَتْهُ كالْحَطِيمِ البَـالِي الْمُنْسَحِقِ. ويقالُ: الرَّمِيمُ: هو الورقُ اليَابسُ المتحطِّم مثل الْهَشِيمِ الذي يَسِيرُ كالْـهَبَاءِ بأيسَرِ ما تَجرِي عليه.

قال قتادة: (مَعْنَاهُ: إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ الشَّجَرِ)، وقـال أبـو العاليـةِ: (كَـالتُّرَاب الْمُدَقَّق)، وقال ابنُ عبَّاس: (كَالشَّـيْءِ الْـهَالِكِ)[(٢)]، وفي الحديـثِ: [أنَّ تِلْـكَ الرِّيـحَ كَانَتْ تَتْبَعُ مُسَافِرِيهمْ وَمَا شُدَّ مِنْ مَتَاعِهِمْ فَتَحْمِلُهُ فَتُلْقِيَهُ فِي وَادِي صَنْعَاءَ، وَلَمْ تَضُـرَّ غَرِيباً لَيْسَ مِنْهُمْ][(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: الحديث (٣٢٠٥). ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة الاستسقاء: الحديث(١٧/ ٩٠٠). الصَّبَا: ريحُ الشرق تهبُّ من مطلعِ الشـمس. والدَّبُورُ: عكسُ الصَّبا تهبُّ مِن الغربِ.

(٢) أخرج هذه الآثار الطبري في جامع البيان: الأثار (٢٤٩٥٣-٢٤٩٥٥).

(٣) في الدر المنثور: ج٧ ص١٤١؛ قال السيوطي:(أخرجه الطبراني عن ابن عباس، وأخرجه سـعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبـو يعلى عـن أبـي سعيد، وأخرجه الدارقطني في الافراد عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه الخطيب عن أبي سعيد الخدري).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي في خبرِ ثمود وإهلاكِهم آيةٌ أيضاً، إذ قِيْلَ لَهم تَمتَّعُوا إنْ أطعتُم اللهَ إلى آجالِكم، ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فأعرَضُوا عن قَبولِ أمرِ الله، فأخذهم العذابُ الْمُحْرِقُ وهم ينظُرون إلى أنفُسِهم وإلى قومِهم يحترِقُون في العذاب. وَقِيْلَ: معناهُ: لما عقَرُوا الناقةَ قالَ لهم صالِحُ: تَمتَّعُوا ثلاثةَ أيامٍ، وهو قولهُ (حَتَّى حِينٍ)، والتَّمتُّعُ: التَّلَذُّذُ بأسباب اللَّذة من المناظرِ والروائحِ الطيِّبة وأشباهِ ذلك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ ﴾ ؛ يعـني بعـدَ مُضِـيِّ ثلاثـةِ أيَّام. والصَّاعِقَـةُ: كـلُّ عـذابٍ مُهلِكٍ، وقـرأ الكسـائيُّ (الصَّعْقَـةُ) وهـي الصـوتُ الشَّديد، ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ ذلـك عَيَاناً، ﴿ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ ﴾ ؛ ما قَدَروا علـى النُّهوض مـن مقامِـهم حـين غَشِـيَهم العـذابُ فـيَرُدُّوهُ، ﴿ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي مَا كانت لهم قوَّةٌ يمتنِعُونَ بها مِنَّا، ولا كانوا طَالِبين نـاصراً لهم يمنعُهم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ فيه قراءَتان، قـرأ أبـو عمـرو وحمـزةُ والكسائي وخلَف (وَقَوْمِ) بالخفضِ؛ أي وفِي قومِ نوحٍ وهلاكِهم بالطُّوفان آيَةٌ أيضـاً، وقرأ الباقون بالنَّصب على معنى: وأهلَكنا قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود. وَقِيْلَ: نُصب على تقدير: وَاذكُرْ قومَ نوحٍ من قبلِ عادٍ وثمود وقومِ فرعـون، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي خارجين من طاعةِ الله. وَقِيْلَ: انتصـبَ قولـهُ (وَقَـوْمَ نُـوحٍ) علىقراءةِ النصب عَطفاً على الهاءِ والميم في قوله (فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) كأنه قالَ وأغرَقنا فرعونَ وجنودَهُ، وأغرَقنا قومَ نوحٍ من قبلُ[(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ ﴾ ؛ أي بقُـدرةٍ وقـوَّة، ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ في السَّماء على الأرضِ في كلِّ جهاتٍ، ونحن نقدرُ علـى أكـثرَ من ذلك، ولم يكن هذا جهدُ قوَّتنا، وقال الحسنُ: (وَإنَّا لَمُوسِـعُونَ الـرِّزْقَ عَلَـى مَـنْ فَوْقَهَا وَمَنْ تَحْتَهَا).

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٦٥-١٦٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ ؛ أي بسَطناها على الماءِ، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ الفارشُون، والْمَاهِدُ في اللغة: هو الْمُوَطِّبُ للشَّيءِ الْمُهَيِّءُ لِمَا يصلحُ الاستقرارُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ؛ أي ومِن كلِّ شيءٍ خلقنا مِن الحيوان ذكراً أو أنثى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ . وَقِيلَ: المرادُ بالزَّوجين صِنفَين ولَونَين من حلوٍ وحامضٍ وأبيض لكي يعتَبروا ويتَّعظوا بذلك، ويعلموا أنه ليس مع اللهِ تعالى إلهٌ غيره.

قولهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ ؛ أي اهربُوا من عقابهِ إلى رَحمتهِ بالإخلاصِ في طاعته وتركِ ما يشغَلُكم عن أوامرِه. وَقِيلَ: معناهُ: فَفِرُّوا إلى الله مِن ذُنوبكم واهربُوا من الكفرِ إلى الإسلامِ، ومِن العصيان إلى الطاعةِ، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ؛ أنذِرُكم العقابَ على الكفرِ والمعصيةِ وأخوِّفُكم عذابَ الله بلُغةٍ تَعرفُونها متى تركتم الفرار إلى الله من الله، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ ؛ أي تَصِفُوهُ بالشَّريك والولدِ، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ ؛ رسولٌ أخوِّفُكم لِتَمتنِعُوا أنْ تجعَلُوا مع اللهِ إلهاً آخرَ غيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ ؛ أي كمَا نَسبَكَ قومُكَ إلى السِّحر مرَّةً والجنون أخرى، هكذا ما أتَى الذين من قبلِ قَومِكَ من رسولٍ دعَاهُم إلى اللهِ إلاَّ قالوا لذلك الرسُولِ: هو (سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ).

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ ؛ معناهُ: أتَواصَوا بهذا القول فتوافقُوا عليهِ وأوصَى كلُّ قوم مَن بعدَهم أنْ يقولوا مثلَ هذا لرسُولهم، هذا اللفظُ لَفظُ الاستفهامِ، ومعناهُ: التوبيخُ والإنكار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة قومٌ طاغُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ ؛ أي أعرِضْ يا مُحَمَّدُ عن هؤلاءِ المشركين، فما أنتَ عندنا بمَلُومٍ، فأنَّكَ قد بلَّغتَ وأنذرتَ، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ؛ أي وعِظْ أهلَ مكَّة بالقرآنِ، فإن العِظَةَ

بالقرآن تنفعُ المؤمنين وتَزيدُهم صَلاحاً، يعني تنفعُ مَن عَلِمَ اللهُ أنْ يُؤمِنَ منهم. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: عِظْ بالْقُرْآنِ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ، فَإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ يعني: ما خَلقتُهم لجرِّ منفعةٍ ولا لدفعِ مضرَّة ولا الاستكثار بهم من قلَّة، وما خلَقتُهم إلاَّ لآمُرَهم بعبادَتِي وأنْهَاهُمْ عن مَعصِيَتِي، ولو أنَّهم خُلِقُوا لعبادةِ ربهم لَمَا عَصَوا ربَّهم طرفةَ عينٍ. وقال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ لأَهْلِ طَاعَةِ اللهِ لأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَقَدْ ذرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإنسِ﴾[2]).

وقرأ ابنُ عبَّاس: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ)، وقال عليُّ بن أبي طالبٍ: (مَعْنَى الآيَةِ: مَا خَلَقْتُهُمْ إلاَّ لآمُرَهُمْ لِيَعْبُدُونِي وَأدْعُوَهُمْ إلَى عِبَادَتِي)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾؛ أي لم يكلِّفهُم أن يرزُقوا أنفُسَهم، ولا أحَداً من خلقِي، ولم أكلِّفهُم أن يرزقُونِي، ولا يُعِينُونِي على عطاءِ الرزقِ لعبادِي.

والمعنى: ما أريدُ منهم أن يَرزُقوا أحَداً من خلقِي، ولا أنْ يرزقُوا أنفُسَهم، وما أريدُ أن يُطعِمُوا أحداً من خَلقِي، ولا أنْ يُطعِمُوا أنفسهم، وإنَّما أسندَ الإطعامَ إلى نفسهِ؛ لأن الخلقَ عيالُ اللهِ، فمَن أطعمَ عيالَ أحدٍ فقد أطعمَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ جميعَ خَلقِه، ذو القوَّة والاقتدار على جميعِ ما خلَقَ، (الْمَتِينُ) يعني القويُّ. قرأ العامَّة (الْمَتِينُ) بالرفعِ (ذُو) أو هو اللهُ سبحانه[4]، وقرأ الأعمشُ (الْمَتِينِ)

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٦.

(٢) الأعراف / ١٧٩ .

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٣٦.

(٤) المعنى: أو (ذو) من قوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أو يكون خبر ابتداء محذوف. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٦.

بالخفضِ على نعتِ القوَّة، وكان مِن حقّه أن يقولَ: الْمَتِينَةِ، وإنما ذكرَهُ لأنه ذهبَ به إلى الشيء الْمُبْرَمِ الْمُحْكَمِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ أخبرَ اللهُ تعالى بهذا أن لِمُشركي مكَّة من العذاب مثلَ ما لغيرهم من الأمم الكافرةِ. والمعنى: فإنَّ للذين كفَرُوا نَصيباً من العذاب مثلَ نصيب أصحابهم الذين هلَكُوا نحوُ قومِ نوحٍ وعاد وثمود.

وأصلُ الذنوب الدَّلْوُ المملوءَةُ بالماءِ، قال ابنُ قتيبة: (كَانُوا يَسْقُونَ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ ذَنُوبٌ)[2]، فجعل الذنوبَ مكان الحظِّ والنصيب، قال الشاعرُ:

لَنَا ذنُوبٌ وَلَكُمْ ذنُوبُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال آخرُ[3]:

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ لِكُلِّ بَنِي أبٍ مِنْهَا ذنُوبُ

وقولُهُ تعالى (فَلاَ يَسْتَعْجِلُون) أي لا يستَعجِلُوني بالعذاب، فإنِّي قد أخَّرتُهم إلى يومِ القيامة، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾؛ يعني يومَ القيامةِ.

آخر تفسير سورة (**والذاريات**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره أيضاً القرطبي عن الفراء في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٦-٥٧.

(٢) في غريب الحديث: ج ١ ص٣٨٨؛ قال ابن قتيبة: (الذَّنُوبُ: الدَّلْوُ).

(٣) قائله: أبو ذؤيب.

سُورَةُ الطُّـورِ

سُورَةُ الطُّور مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْـفٌ وَخَمْسُـمِائَةِ حَـرْفٍ، وَثَلاَثُمِائَـةٍ وَاثْنَتَـي عَشَـرَةَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّور كَانَ حَقّاً عَلَـى اللهِ أَنْ يُؤَمِّنَـهُ مِـنْ عَذَابِـهِ وَأَنْ يُنَعِّمَهُ مِنْ جَنَّتِهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ ؛ الطورُ هو الجبلُ الذي كلَّم اللهُ موسَى وهو بمَدْيَنَ بالأرضِ المقدَّسة، واسمهُ زُبَيْرُ، وكلُّ جبلٍ فهو طورٌ بالسِّريانية، قـال أبـو عُبيـدة: (الطُّـورُ الْجَبَـلُ بالْعَرَبِيَّـةِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَـالَى قَـالَ: ﴿وَرَفَعْنَـا فَوْقَــهُمْ الطُّورَ﴾[2]). والكتابُ المسطور: هو اللَّوحُ المحفوظُ المتضمِّن كلَّ الأمُور.

وقولهُ تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ ؛ يعني اللَّوح أيضاً تنشـرهُ الملائكـةُ للدراسةِ وليعلَمُوا ما فيهِ. وَقِيْـلَ: الكتـابُ المسـطورُ: صحـائفُ أعمـال بـني آدمَ يـومَ القيامةِ، فيُعطى كلُّ واحدٍ كتابَهُ بيمينهِ أو بشِمالهِ، ونظيرهُ ﴿وَإذا الصُّحُفُ نُشِـرَتْ﴾[3] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[4].

---

(١) هو الحديث في فضائل القرآن سورة سورة، أخرجه الثعلبي بسنده عن أبي بن كعب، وهو إسـناد باطل. ينظر: الكشف والبيان للثعلبي: ج ٩ ص١٢٣.

(٢) النساء / ١٥٤ .

(٣) التكوير / ١٠ .

(٤) الاسراء / ١٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ ﴾ ؛ هو بيتٌ في السَّماء الرابعةِ بحِيَال الكعبةِ، معمورٌ لِحُسْنِ الثناءِ وزيارةِ الملائكة، حُرمَتهُ في السَّماء كحُرمَةِ الكعبةِ في الأرضِ، ما بينَهُ وبين الكعبةِ إلى نجومِ الأرض السابعةِ حَرَمٌ يدخلهُ كلَّ يومٍ سَبعون ألفَ ملَك، ثم لا يعُودون إليه أبَداً، لو سقطَ منه حجرٌ لوقعَ على ظهرِ الكعبة. ويقال: البيتُ المعمور هو الكعبةُ، مَعْمُورٌ بزيارةِ الناس إياهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ ﴾ ؛ يعني السَّماء، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[(١)] سَمَّاها سَقْفاً؛ لأنَّها للأرضِ كالسَّقفِ للبيتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ ﴾ ؛ يعني الموقَدِ الْمَحْمِيِّ، بمنْزلة التَّنُّور المسجُور، كأنه قالَ: والبحرِ المملوءِ بالنَّار الموقَدة، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (هُوَ بَحْرٌ حَارٌّ يُفْتَحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ)، وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إلاَّ حَاجٌّ أوْ مُعْتَمِرٌ أوْ مُجَاهِدٌ فِي سَبيلِ اللهِ، فَإنَّ تَحْتَ الْبُحُور نَاراً][(٢)].

وقال قتادةُ: (الْمَسْجُورُ: الْمَمْلُوءُ)، وفي الحديثِ: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْبحَارَ كُلَّهَا نَاراً، فَيَسْجُرُهَا فِي جَهَنَّمَ]. وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (الْمَسْجُورُ الْمَحْبُوسُ).

وعن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ بَحْرٌ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ، عُمْقُهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ إلَى الأَرْضِ السَّابعَةِ وَهُوَ بَحْرٌ غَلِيظٌ، سُمِّيَ الْحَيَوَانُ يُحْيي بهِ اللهُ الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْبَعْثِ تُمْطَرُ أرْبَعِينَ صَبَاحاً فَيَنْبُتُونَ بهِ فِي قُبُورهِمْ).

أقسمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من الدَّلالة الواضحةِ على وحدانيَّة اللهِ تعالى وعِظَمِ قُدرتهِ على أنَّ تعذيبَ المشركين حقٌّ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾ ؛ أي كائنٌ في الآخرةِ واقعٌ بأهلهِ، ﴿ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ ؛ يدفعهُ عنهم.

---

(١) الأنبياء / ٣٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الجهاد: باب في ركوب البحر في الغزو: الحديث (٢٤٨٩). ورواه البزار وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٨٢.

ثُم بيَّن متى يقعُ بهم ذلك العذابُ فقال: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ أي تَدُورُ دَوَراناً وتضطربُ وتتحرَّكُ، والْمَوْرُ في اللغـة: الذهـابُ والْمَجِـيءُ والـتَّرَدُّد والدورانُ. قِيْلَ: إنَّها تدورُ كما تدورُ الرَّحَى، ويَمُوجُ بعضُها في بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي تسيرُ الجبال علـى وجـهِ الأرض كما يسيرُ السَّحابُ في الدُّنيا فيستَوي بالأرض. وَقِيْلَ: معناهُ: تزولُ الجبالُ عن أماكنِـها وتصـيرُ هَبَــاءً مَنثــوراً، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي فشِـدَّةُ العذاب يومئـذ للمُذنبِـين، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ يخوضُـون في حديثِ مُحَمَّدٍ بالتَّكذيب والاستهزاءِ، يَلْهُونَ بذكرِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يُدفعـون إلى نار جهنَّم دَفْعاً على وُجوهِهم يَحُفُّونَهُ[1]، قال مقاتلُ:(تُغَلُّ أيْدِيـهِمْ إلَـى أعْنَاقِـهِمْ وَتُجْمَعُ نَوَاصِيهِمْ إلَى أقْدَامِهِمْ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَفْعاً عَلَى وُجُوهِهِمْ، حَتَّـى إذا دَنُوا مِنْهَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ذُوقُوا عَذابَ النَّار الَّتِي كُنْتُمْ بهَا تُكَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا)[2].

وَالدَّعُّ: هو الدفعُ بشِدَّة وعُنفٍ، تدفعُهم الملائكةُ فيُلقُونَهم في النـار علـى وجـه الاستخفافِ، ويقولــون لَـهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾. قرأ أبو رجاء العطاردي: (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إلَى نَار جَهَنَّمَ دَعًا) بالتخفيفِ من الدُّعاء.

وتقولُ لهم ملائكةُ العذاب: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ ؛ كما كُنتم تَزعُمون في الدُّنيا وتَنسُبون الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ إلى ذلك، ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ، أي قد غَطَّى على أبصاركم، وهذا على وجهِ التَّوبيخ، والمعنى: أتُصَدِّقُونَ الآنَ أنَّ عـذابَ الله واقعٌ، ويقالُ لَهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ ؛ أي اصْلَوا النارَ، الْزَمُوهـا وقَاسُـوا شـدَّتَها، ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ ؛ علـى العــذاب، ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ الصــبرُ والجزَعُ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ مِن الكفرِ والتكذيب.

---

(١) حَفُّوا حولَهُ: أي أطافوا به واستداروا.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٨٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ؛ أي فَاكِهِين؛ أي ذوُوا فَاكِهَةٍ كثيرةٍ، وفكِهين متعجِّبين نَاعِمين، ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) ﴾ ؛ أي ضُرَّهُ عنهم، يقالُ لَهم: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ ؛ أي كُلوا أكْلاً هنيئاً، واشربُوا شُرباً هَنيئاً، مأمون العافيةِ من التُّخمة والسَّقم.

وَقِيْلَ: انتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (هَنِيئاً) لأنه في صفةِ المصدر؛ أي هَنِئتُمْ هَنِيئاً، وهو أنْ يكون خَالصاً من جميعِ الآفاتِ وأسباب التَّنغيصِ.

قال زيدُ بن أرقم: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أبَا الْقَاسِمِ؛ تَزْعُمُ أنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ يَأكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ. فَقَالَ:[وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُؤْتَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْب وَالْجِمَاعِ] قَالَ الرَّجُلُ: فَإنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ يَكُونُ مِنْهُ الْغَائِطُ؟ فَقَالَ ﷺ: [ذاكَ عَرَقٌ يَفِيضُ مِثْلَ ريحِ الْمِسْكِ، فَإذا كَانَ ذلِكَ ضَمُرَ لَهُ بَطْنُهُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ ؛ في ذِكْرِ حالهم معناهُ: جالِسين جلسةَ الْمُلُوكِ على سُرر قد صُفَّ بعضُها إلى بعضٍ، وقوبلَ بعضُها ببعضٍ، ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾ ؛ الْحُورُ: الْبَيْضَاءُ نَقِيَّةُ البياضِ من الْحُسْنِ والكمال، والْعِينُ: الواسعاتُ الأعْيُن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ ؛ يعني أولادَهم الصِّغار والكبار؛ لأن الكبارَ يتبعُون الآباءَ بإيمانِهم منهم، والصغارَ يتبعُون الآباءَ بإيمان من الآباءِ، والولدُ يُحكَمُ له بالإسلامِ تَبعاً للوالدِ، ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ؛ يُرفعون إليهم لتقرَّ بهم أعينُهم وإنْ كانوا دُونَهم في العملِ تكرُمَةً لآبائهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٥ ص١٧٧-١٧٨: الحديث (٥٠٠٤-٥٠٠٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٦٧ و٣٨١. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤١٦؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة).

وعن عليٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأوْلاَدُهُمْ فِـي الْجَنَّـةِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَأوْلاَدُهُمْ فِي النَّارِ][(١)]. ورُوي: أنَّ خَدِيجَةَ بنْتَ خُوَيْلِدٍ سَأَلَتِ النَّـبيَّ ﷺ عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: [هُمَا فِي النَّارِ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾؛ أي لَمْ نُنْقِصْ الآباءَ من الثواب حين ألْحقْنا بهم ذُرِّيَّتهم.

قرأ أبو عمرٍو (وَأتْبَعْنَاهُمْ) بالألفِ والنُّون (ذُرِّيَّاتِـهِمْ) بـالألف وكسـرِ اليَـائين لقولِهِ (ألْحَقْنَـا) و(مَـا ألَتْنَـا) لئـلا يكـون الكـلامُ علـى نسـقٍ واحـد. وقـرأ البـاقون (وَاتَّبَعَتْهُمْ) بالتاء من غيرِ ألف.

واختلفُوا في قوله (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالتاءِ فقرأ نافعُ الأولَ (ذُرِّيَّتُهُمْ) بالتاءِ وضمِّها بغيرِ ألفٍ، وقرأ الثاني (ذُرِّيَّاتِهِمْ) بالألف وكسرِ التاء. وقرأ ابنُ عـامر (ذُرِّيَّاتِـهِمْ) بـالألف فيهما وكسرِ التاء، وقرأ الباقون بغير ألفٍ فيهما وفتحِ الثانية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ ٱمْرِىٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي كلُّ امرئٍ كافرٍ بمـا عَمِلَ من الشِّرك مُرتَهَنٌ في النار، والمؤمنُ لا يكون مُرتَهناً لقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إلا أصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[(٣)] واستثنى المؤمنين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ معنـاهُ: نَزيدُهم في كلِّ وقتٍ مِن ألوانِ الفاكهة، ومن كلِّ لَحمٍ مما يشتَهُون من الأنعامِ والطُّيور المطبوخِ والمشويِّ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث(٣٧٩٦). وفي مجمع الزوائد: ج٧ ص١١٤؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف). وليس في إسناد الحاكم قيس هذا، وفي إسناده عمرو بن مرة، وثقه ابن معين وغيره.

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٧ ص٢١٧: باب ما جاء في الأطفال؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وأبو يعلى ورجالهما ثقات إلا عبدالله بن الحارث وابن بريدة لم يدركا خديجة).

(٣) المدثر / ٣٨-٣٩.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ ؛ أي يتعَـاطَون ويتنـاوَلون فيـها آنيـةً مملوءة من الخمرِ، هذا من يدِ ذاك، وذاكَ مِن يدِ هذا، ولا يكون الكـأسُ في اللغـة إلاَّ إذا كان مَمْلُوءاً، فإذا كان فَارِغاً فليس بكأسٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ ؛ أي لا يجري بينَهم كلامُ لغوٍ ولا بـاطلٍ، ولا تخاصُمَ، ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يكون منهم في حال شُربها ما فيه إثْمٌ كمـا يكونُ في خمرِ الدُّنيا، وقال ابنُ قتيبة: (مَعْنَاهُ: لاَ تَذْهَبُ بعُقُولِهِمْ فَيَلْـهُوا وَيَرْفُثُـوا كَمَـا يَكُونُ مِنْ خَمْرِ الدُّنْيَا، وَلاَ يَكُونُ مِنْـهُمْ مَـا يُؤْثِمُـهُمْ)، والمعنـى: أنَّ تلـكَ الكـأسَ لا تجعلُهم آثِمين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ ؛ أي يطـوفُ عليـهم الْخَدَمَةُ بالفواكـهِ والأشـربةِ وصَفـاء ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ ؛ في الْحُسْـنِ والبيـاضِ، ﴿ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ مَصُونٌ لا تَمسُّهُ الأيدِي.

قال قتادةُ: (ذُكِرَ لَنَا: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ؛ هَذا الْخَادِمُ فَكَيْـفَ الْمَخْـدُومُ؟ فَقَالَ:[وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ إنَّ فَضْلَ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْـلِ الْقَمَـرِ لَيْلَـةَ الْبَـدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ])(١). قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْـهَا: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ مَنْ يُنَادِي الْخَادِمَ مِنْ خَدَمِةِ، فَيُجِيبُهُ أَلْفٌ يَقُولُونَ كُلُّهُمْ: لَبَّيْكَ لَبَّيْـكَ لَبَّيْكَ](٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي أقبـلَ بعضُهم على بعضٍ في الزِّيادة يتحدَّثون في الجنَّة، ويتذاكَرُون ما كانوا فيهِ مـن التعب والخوفِ في الدُّنيا، ويتساءَلون عن أحوالِهم التي كانت في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّهم يقولون إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ أنْ ندخُلَ الجنَّة خائفِين في الدُّنيـا مـن القيامـةِ وأهوَالـِها، ومِن النار وعذابها بمعصيةٍ وقَعَتْ منَّا أو تقصيرٍ في طاعتنـا، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٠٥٤).

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الحديث (٨٣١).

بالمغفرةِ وقَبُول الطاعةِ، ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي دفعَ عنَّـا عـذابَ سَـمُوم جهنَّم، ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ ؛ أي نُوَحِّدهُ ونعبدهُ في الدُّنيـا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ ؛ أي هو اللَّطيفُ بعبادهِ، الرَّحيمُ بهم.

والسَّمُومُ: من أسماءِ جهنَّم في قول الحسن، وقال الكلبيُّ: (عَذابُ النَّار)، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ لَفْحُ جَهَنَّمَ وَحَرُّهَا). ومن قـرأ (إِنَّـهُ هُـوَ) بكسـر الهمـزِ فإنـه اسـتأنفَ الكلامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي فَعِظْ بالقرآن أهلَ مكَّة، ولا تـتْرُكْ وَعْظَـهم لِنسبَتِهم إيـاكَ إلى الكهانـةِ والجنُـون، فلستَ بحمدِ الله كما يقولون.

والكاهنُ هو الْمُبْتَدِعُ القولَ الذي يقولُ: معي تابعٌ من الجنِّ، والمعنى فما أنـتَ بنعمةِ ربكَ بإنعامهِ عليكَ بالنبُوَّة بكاهنٍ، وهو الذي يُوهِمُ أنه يعلمُ الغيبَ ويُخبـرُ بمـا في غدٍ من غيرِ وحيٍ؛ أي لستَ تقولُ ما تقولهُ كهانةً ولا تنطقُ إلاّ بالوحيِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ ؛ أي بل يقولون هو شاعرٌ نَنتَظِرُ به نوائبَ الْمَنُونِ فنستريحُ منه، ورَيْـبُ الْمَنُـون: حـوادثُ الدَّهرِ وصُروفهُ؛ أي ننتظرُ به حَدَثانَ الموتِ وحدَثان الدَّهرِ، فيهلَكُ كما هلكَ مَن قبلَهُ من الشُّعراء.

وفي اللغة: مَنَنْتُ الْحَبَلَ؛ أي قَطَعْتهُ ومَنَنْتُ الشيءَ إذا أنقضتـهُ، والمـوتُ يقطـعُ الأجلَ فسُمِّيَ الْمَنُونَ، والدهرُ ينقضُ فسُمي المنونُ، وقد يكون المنونُ بمعنى الْمَنِيَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ ؛ أي انتَظِروا فِـيَّ المـوتَ، ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ ؛ أي مِن المنتَظِرين عذابَكم، فعُذِّبوا يـومَ بـدرٍ بالسَّـيف. وَقِيْـلَ: معناهُ: قل تَربَّصُوا بيَ الدوائرَ، فإنِّي معكم مِن المتربصين بكُم.

فأهلكَ اللهُ القومَ الذين قالُوا للنبيِّ ﷺ هذا القولَ قبل قَبضهِ عليه السَّلام وكان منهم أبُو جهلٍ، وكانوا يعلَمُون أنَّ النبيَّ ﷺ ليس بشـاعرٍ كمـا عَلِمُـوا أنـه ﷺ ليـس بمجنونٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ ؛ معناهُ: أم تأمُرهم عُقُولُهم بـهذا، وذلك أنَّ قريشاً كانوا يُعَدُّونَ في الجاهليَّة أهلَ الأحلامِ ويُوصَفُون بالعقلِ، فأزرَى اللهُ بحُلُومِهم حيث لم يُثْمِرْ لَهم معرفةُ الحقِّ من الباطلِ. وَقِيْلَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: (مَا بَـالُ قَوْمِكَ لَـمْ يُؤْمِنُـوا وَقَـدْ وَصَفَـهُمُ اللهُ بـالْعُقُولِ؟ فَقَـالَ: تِلْـكَ عُقُـولٌ لَـمْ يَصْحَبْـهَا التَّوْفِيقُ)(١).

وقولـهُ تعـالى: ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي بَـلْ هـم قـومٌ طَـاغُونَ حَمَلَهم الطُّغيانُ على تكذيبكَ يا مُحَمَّدُ، وكانوا يزعُمون أنَّ مُحَمَّداً كـان لاَ يُوَازِيـهم في عقُولِهم وأحلاَمِهم، فقيل لَهم على وجـهِ التعجُّـب: أتـأمُرهم أحلامُـهم بـهذا الـذي يفعلونَهُ أم طُغيَانُهم وإفراطُهم في الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: يقولون إنَّ مُحَمَّداً اختَلَقَ القرآنَ من تلقَاءِ نفسهِ، والتَّقَوُّلُ: تكلُّفُ القول، لا يسـتعمَلُ إلاَّ في الكَـذِب، بـل ليـس كمـا يقولون، ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ استكباراً. ثم ألزَمَـهم الحجَّـة فقـال تعـالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مثلِ القرآن في نَظْمِهِ وحُسـنِ بنائـهِ، ﴿ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أن مُحَمَّداً تقَوَّلَهُ في نفسهِ، فإنَّ اللسانَ لسَانُهم وهم مُستَوُون في السِّربَةِ(٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أخُلقوا من غيرِ رَبٍّ، وتَكَوَّنُوا من ذاتِ أنفسِهم ؟ أم همُ الخالِقُون فلا يُسـألُون عن أعمالهم؟ قال ابنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: أخُلِقُـوا مِـنْ غَـيْرِ أمٍّ وَأبٍ فَـهُمْ كَالْجَمَـادِ لاَ يَعْقِلُونَ وَلاَ تَقُومُ للهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ، ألَيْسُوا خُلِقُوا مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ). وقال ابنُ كَيسان: (مَعْنَاهُ: أخُلِقُوا عَبَثاً فَيُتْرَكُونَ سُدًى، لاَ يُؤْمَرُونَ وَلاَ يُنْهَوْنَ، أمْ هُـمُ الْخَالِقُونَ لأَنْفُسِهِمْ؟ فَلاَ يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ أمْرٌ)(٣).

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٧٣.

(٢) السِّرْبُ – بالكسر-: النَّفْسُ، يقال: فلان آمن في سربه؛ أي في نفسه. مختار الصحاح: ص٢٩٣.

(٣) نقل البغوي هذه الأقوال في معالم التـنزيل: ص١٢٤٠. والقرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٧ ص٧٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ؛ فيكونـوا هـمُ الخـالقون، بل ليـس الأمـرُ علـى هـذا، ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ بـالحقِّ وهـو توحيـدُ اللهِ وقدرتهُ على البعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: أبأيديهم مفاتيحُ ربكَ بالرِّسالة، فيضعونـها حيـث شـاءُوا ؟ وَقِيـلَ: معنـاهُ: أبأيديـهم مقدُوراتُ ربكَ. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: خَزَائِنَ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ)[(١)].

قوله: (أمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ) أي أمْ هُم المسَلَّطون على الناس، فلا يكونوا بحيث أمرٍ ولا نهيٍ يفعَلُون ما شاءُوا. ويقرأ (الْمُصَيْطِرُونَ) بالصادِ، والأَصلُ فيه السِّين، إلاَّ أنَّ كلَّ سين بعدها (طاء)[(٢)] يجوزُ أن تُقلبَ صاداً. وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ علـى عجزهـم وتلبيسٌ لسوءِ طَريقتهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ ؛ أي لَـهم مَصْعَـدٌ ومَرْقَـاةٌ يرتَقُون بها إلى السَّماء يستمعون فيه الوحيَ ويعلَمُون أنَّ ما هم عليـه حـقٌّ، ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم ﴾ ؛ إنْ كان لهم مُستَمِعٌ، ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، بحجَّة ظاهرةٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ هـذا إنكـارٌ عليـهم وتسفيةٌ لأحلامِهم، ومبالغةٌ لتجهيلِهم حيث يَصِفون البناتِ إلى اللهِ بقولهم: بناتُ اللهِ، ويُضِيفُونَ البنين إلى أنفُسِهم.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ ؛ معناهُ: اتَسألُهم يا مُحَمَّدُ على ما جئتـهم من الدِّين والشـريعة أجْـراً؛ أي جُعْـلاً، ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أثقلَهم ذلك الغرمُ الذي سألتَهم، فمنَعَهم ذلك عن الإسلامِ. والمعنى: أسألتَهم أجـرة تُثقِلُهم وتُجدِهُم وتَمنعهم عن الاستماعِ إلى ذلك.

---

(١) ذكره القرطبي عن ابن عباس كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٧٤.

(٢) في المخطوط: أسقط (الطـاء) وجعلـها (فـلا). وضبـط النـص كمـا في معـاني القـرآن وإعرابـه للزجاج: ج ٥ ص٥٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ قال قتادةُ: (هَذا جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُون. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَعِنْدَهُمُ الْغَيْبُ حَتَّى عَلِمُوا أنَّ مُحَمَّداً يَمُوتُ قَبْلَهُمْ فَهُمْ يَكْتُبُونَ). وَقِيلَ: معناهُ: أعِندَهم علمُ الغيب حتى عَلِمُوا أنَّ ما يُخبرُهم به النبيُّ ﷺ من أمرِ القيامة والبعثِ والحساب والثواب والعقاب باطلٌ غيرُ كائنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي بل يُريدون بكَ كَيداً ومَكْراً ليَهلَكوا بذلك المكرِ، وهو كَيدُهم به في دار النَّدوةِ، فالذين كفَرُوا هم الْمُجَازُونَ على كَيدِهم، ويَحِيقُ ذلك الكيدُ والمكر بهم، فقُتِلوا يومَ بدر وأُسِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؛ يمنعُهم من مكر الله وعذابهِ ويحفظُهم وينصرهم، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ به من آلهةٍ، وسُبحانَهُ عن أن يكون له ولدٌ.

و(أمْ) في هذه السُّورة في خمسةَ عشر مَوضعاً، عشرةٌ منها ليست إلاَّ على وجهِ الإنكار، وفي الخمسةِ ما يحتملُ الإنكار ويحتملُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ معناهُ: إنَّ هؤلاءِ لا يُؤمنون حتى لو رَأوا قِطَعاً من العذاب سَاقطاً عليهم لطُغيانِهم وعُتُوِّهم، يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ، قد رُكِمَ بعضهُ على بعضٍ، فيُلبسُوا على أنفسِهم بغايةِ جَهلِهم ما يُشاهِدُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾؛ أي اترُكْهم، ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ ﴾؛ يُعَايِنُوا، ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾؛ أي يُهلَكون، والصَّعْقُ: الهلاكُ بما يَصْدَعُ القلبَ، وَقِيلَ: المرادُ بالصَّعق ههنا اليومَ الذي فيه النفخةُ الأُولى. قرأ الأعمشُ وعاصم وابنُ عامر (يُصْعَقُونَ) بضمِّ الياء؛ أي يُهلَكون من أصعقَهم الله إذا أهلكَهم، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ وذلك اليومُ لا ينفعُهم كيدهم ولا يَمنعُهم من العذاب مانعٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَالِكَ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنَّ لهـؤلاء الكفَّار عذاباً دون عذاب الآخرة، يعني القبرَ. وَقِيْلَ: معنـاهُ: إنَّ لكُفَّـار مكَّـة عذابـاً في الدُّنيا قبلَ عذاب الآخـرة، يعـني القتـلَ ببـدر، وقـال مجـاهد: (الْجُـوعُ وَالْقَحْـطُ)[1]، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ ما هو نازلٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي اصـبرْ لِحُكـم ربـكَ إلى أن يقـعَ بهم العذابُ، وَقِيْلَ: اصبرْ على تبليغ الوَحيِ والرسالةِ إلى أن يَقضِي لكَ ذلـك ربُّـكَ فيهم، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي فـإنَّكَ بحيـثُ نـراكَ ونحفظُـكَ ونرعـاكَ، وإنَّـهم لا يَصِلُونَ إلى مكرُوهِكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ يعـني تقـومُ مـن النَّوم، كما رُوي: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا انْتَبَهَ قَالَ: [الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أحْيَانَا بَعْدَمَا أمَاتَنَا وَإلَيْهِ النُّشُورُ][2].

وعن الربيعِ بن أنس: (أنَّ الْمُرَادَ بهِ الْقِيَامُ فِي الصَّلاَةِ، وَهُوَ مَا يُقَالُ عِنْدَ تَكْبيرَةِ الافْتِتَاحِ [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلاَ إلَهَ غَيْرُكَ])[3].

وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية صلاةُ الفجرِ عند القيامِ من النَّـوم، ويقـالُ: المـرادُ منـه التسبيحُ عند القيامِ من كل مجلسٍ، كما رُوي عـن رسـول الله ﷺ أنـه قـالَ: [كَفَّـارَةُ الْمَجَالِسِ كَلِمَاتٌ جَاءَنِي جِبْرِيلُ بهِنَّ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدِكَ، أشْـهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاَّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٧٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٩٧ و٤٠٧. والبخاري في الصحيح: كتاب الدعـوات: باب ما يقول إذا نـام: الحديـث (٦٣١٢). وابـن حبـان في الصحيـح: كتـاب الزينـة والتطيـب: الحديث (٥٥٣٢).

(٣) الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ؛ أخرجه الإمـام أحمـد في المسـند: ج ٣ ص٥٠ و٦٩. وأبـو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب مـن رأى الاسـتفتاح بسـبحانك: الحديـث (٧٧٥) ووهنـه، وعن عائشة في الرقم (٧٧٦) ووهنه أيضاً. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الصلاة: الحديث (٢٤٢) عن أبي سعيد وضعفه، ونقل عن الإمام أحمد قوله: (لا يصح هذا الحديث)، وفي الرقـم (٢٤٣) عن عائشة وضعفه أيضاً.

أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. فَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ ذِكْرٍ، كَانَ كَالطَّابعِ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ لَغْوٍ، كَانَ كَفَّارَةً لِمَا كَانَ قَبْلَهُ][1].

والأقربُ إلى الظاهر من هذه التَّأويلاتِ: أنه صلاةُ الفجر؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَقَّبَهُ بقولِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾؛ والمرادُ به صلاةُ المغرب والعشاء، وأما، ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ فركعتان قبلَ فريضةِ الفجر، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: (إِدْبَارُ السُّجُودِ الرَّكْعَتَان بَعْدَ الْمَغْرِب، وَإِدْبَارُ النُّجُوم الرَّكْعَتَان قَبْلَ الْفَجْرِ)[2]. وعن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا][3].

آخر تفسير سورة (**الطــور**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٦٩. والطبراني في الأوسط: الحديث (٧٧ و٦٨٥٠)، وفي الكبير: الحديث (١٥٨٦). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٨٦ و٢٥٠٨٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٥٠ و٥١. ومسلم في الصحيح: كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب ركعتي الفجر: الحديث (٦٩ و٩٧/ ٧٢٥).

سُورَةُ النَّجْمِ

سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسَةُ أَحْـرُفٍ، وَثَلاثُمِائَـةٍ وَسُـتُّونَ كَلِمَةً، وَاثْنَانِ وَسُتُّونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ، فَلَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذَبَ بِهِ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾ ؛ اختلفُوا في القسَـمِ الـذي في أوَّل هـذه السُّورة، وقال بعضُهم - وهو الأظهر-: أنَّ النجمَ اسمُ جنسٍ أُريدَ به النُّجومَ كلَّها إذا هَوَتْ للأفُول.

فائدةُ القسَمِ بها ما فيها من الدلالةِ علـى وحدانيَّة اللهِ تعـالى؛ لأنـه لا يَملِـكُ طُلوعَها وغروبَها إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فالقسَمُ قسَمٌ بربِّـها. وجـوابُ القسَـمِ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ يعني النبيَّ ﷺ؛ أي ما ضلَّ عن طريقِ الْهُدَى وعن الصَّواب فيما يُؤَدِّيهِ عنِ اللهِ تعالى.

وعن مجاهد: (أنَّهُ أرَادَ بالنَّجْمِ الثُّرَيَّا إذا سَقَطَتْ وَغَـابَتْ)(2)، والعـربُ تُسـمِّي الثُّريا نَجماً وإنْ كانت في العددِ نُجوماً، قال أبو بكرٍ الدينـوري: (هِـيَ سَبْعَةُ أنْجُـمٍ، فَستَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَوَاحِدٌ مِنْهَا خَفِيٌّ يَمْتَحِنُ النَّاسُ فِيْهِ أبْصَارَهُمْ).

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٤٣١ من غير إسناد. وأصله عند الثعلبي كما في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٣٤. وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ﷺ، وإسناده لا يصح.

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٠٩٠).

وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: وَالْقُرْآنُ إذا نَزَلَ ثَلاَثَ آيَاتٍ أَوْ أَرْبَعَ آيَاتٍ وَسُورَةً، كَانَ أَوَّلُ الْقُرْآنِ وَآخِرُهُ ثَلاَثٌ وَعِشْرِينَ سَنَةً، أَقْسَمَ اللهُ بالْقُرْآنِ إذْ نَزَلَ نُجُوماً مُتَفَرِّقَةً عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ).

وذلك: أنَّ كُفَّارَ مكَّة قالوا: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ القرآنَ من تلقاءِ نفسهِ، فأقسمَ اللهُ بالقرآن ونزولهِ نَجْماً بعد نجمٍ، أنَّ مُحَمَّداً لم ينطِقْ إلاَّ عن وحيٍ يُوحَى، وإنه لم ينطِقْ به من هوَى نفسهِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾؛ يعني جبريلَ ﷺ هو شديدُ البُنيَةِ والْخِلقَةِ، ومن قوَّة جبريلَ: أنه أدخلَ جناحَهُ تحت قَرياتِ قومِ لُوطٍ فقلَعَها من الماءِ الأسوَدِ ورفعَها إلى السَّماء، ثم قلَبَها فأقبلَتْ تَهوي من السَّماء إلى الأرضِ، وكان من شدَّتهِ أيضاً أنه أبصرَ إبليس وهو يكلِّمُ عيسَى ﷺ على بعضِ أعتاب الأرض المقدَّسةِ، فنفخَهُ بجناحهِ نفخةً ألقاهُ إلى أقصَى جبَلٍ بالهندِ، وكان من شدَّته أيضاً أنه أهلكَ بصَيحَتهِ ثمودَ فأصبَحُوا جاثِمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾؛ أي جبريل ﷺ ذو قوَّةٍ وشدَّةٍ في خَلقهِ. وَقِيلَ: ذُو مَنظَرٍ حسَنٍ، قال قطرب: (يَقُولُ الْعَرَبُ لِكُلِّ جَزلِ الرَّأيِ حَصِيفِ الْعَقْلِ: ذُو مِرَّةٍ). قال الشاعرُ:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ

وكان من جَزَالَةِ رأيه وحصافة عقلهِ إنَّ اللهَ تعالى ائتمنَهُ على تبليغِ وَحيهِ إلى جميعِ رُسلهِ.

وقولهُ تعالى (فَاسْتَوَى) يعني جبريلَ، وَقِيْلَ: المعنى: (ذُو مِرَّةٍ) أي ذُو مُرورٍ في الجوِّ مُنحَدرٍ أو صاعدٍ على السُّرعة. وقولهُ تعالى (فَاسْتَوَى) أي فانتصبَ وَاقعاً على صورةِ الملائكةِ التي خلقَهُ اللهُ عليها، فرآهُ النبيُّ ﷺ مُنتصباً في السَّماء بعدَ أن كان مُسرِعاً، فاستوَى في أُفقِ المشرقِ في رَأيِ العينِ، كما رُوي في الحديثِ: [أنَّهُ طَبَقَ الأُفُقَ

كُلَّهُ بكَلْكَلِهِ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ فِيهَا أَلْوَانٌ زَاهِرَةٌ، وَتَتَنَافَرُ مِنْهُ الدُّرَرُ][(١)]. وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾؛ يعني جانبَ المشرقِ وهو فوق جانب المغرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي دنا جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ بالأفق الأعلى، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾، قال المفسِّرون: وذلك أنَّ جبريلَ كان يأتِي النبيَّ ﷺ في صُورَةِ الآدميِّين، فسألَهُ النبيُّ ﷺ أن يُرِيَهُ نفسَهُ على صورتهِ التي خُلق عليها، فأراهُ نفسَهُ مرَّتين، مرَّةً في الأرضِ ومرةً في السَّماءِ.

فأمَّا في الأرضِ ففِي الأفق الأعلى، يعني أُفُقَ المشرق، وذلك أنَّ مُحَمَّداً ﷺ كان بِحِرَاء فطلَعَ له جبريلُ من المشرق فسَدَّ الأُفُقَ إلى المغرب، فخَرَّ النبيُّ ﷺ مَغْشِيّاً عليه، فنَزلَ جبريلُ عليه السلام في صُورةِ الآدميِّين وضَمَّهُ إلى نفسهِ، وهو قولهُ (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) أي قَرُبَ بعدَ بُعدهِ وعُلُوِّهِ في الأُفق الأعلى.

والمعنى: نَزَلَ جبريلُ عليه السلام بعدَ استوائهِ، فدَنَا إلى رسول الله ﷺ وتَدَلَّى اليه بأنْ نَكَّسَ رأسَهُ فرآهُ النبيُّ ﷺ مُتَدَلِّياً كما رآهُ مُنتصباً حتى بينَهُ وبينَ النبيِّ ﷺ قدرَ قاب قَوسَينِ مِن قِسِيِّ العرب أو أدنَى، معناهُ: وأقربُ في رأي العينِ.

قال الزجَّاجُ: (كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُول اللهِ ﷺ مِقْدَارَ قَوْسَيْنِ، وَإنَّمَا خصَّ الْقَوْسُ فِي الآيَةِ؛ لأنَّ مِقْدَارَهَا فِي الأَغْلَب لاَ يَتَفَاوَتُ بزِيَادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ). ويقالُ: إنَّ المرادَ بالقوسِ هنا الذراعُ، وسُمي الذراعُ قَوْساً لأنه تُقَاسُ به الأشياءُ، قال ابنُ مسعودٍ: (مَعْنَاهُ: فَكَانَ قَدْرَ ذِرَاعَيْنِ أوْ أدْنَى مِنْ ذِرَاعَيْنِ)[(٢)].

وأما دخول (أوْ) ههُنا في قولهِ: (أوْ أدْنَى) معناهُ: أو أدنَى فيما تقَدِّرون أنتُم واللهُ تعالى عالِمٌ بمقاديرِ الأشياءِ، ولكنَّهُ يُخاطِبُنا على ما جرَتْ به عادةُ المخاطَبة فيما بيننا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٣٣). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٦٤٤؛ قال السيوطي: (أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١١٥).

ومعنى قولهِ تعالى (قَابَ قَوْسَيْنِ) أي قَدْرَ قوسَين، يقالُ (قَابَ قَوْسَين) وَقِيبَ قَوسَين وقَيْدَ قَوسَين، كلٌّ بمعنىً واحد. والتَّدَلِّي في اللغة: هو الامتدادُ إلى جهةِ الأسفَلِ، ومنه تَدَلَّى القبرُ، ومنه إدلاءُ الدَّلْوِ وهو إرسالُها في البئر.

ومن الدليلِ على أنَّ المرادَ بشَدِيدِ الْقِوَى جبريل ﷺ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾(١) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(٢) وهو مَطلِعُ الشَّمسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي فأوحَى جبريلُ ﷺ إلى عبدِالله مُحمَّدٍ ﷺ ما أمرَهُ اللهُ أن يُوحِيَهُ إليه، ويجوزُ أن يكون معناهُ: فأوحَى اللهُ إلى عبدهِ ما أوحَى، قال سعيدُ بن جبير: (أوْحَي إلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى...﴾ إلى قولهِ تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٣)). وَقِيْلَ: أوحَى إليه (أنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ)(٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؛ أي ما كَذبَ فؤادُ مُحمَّدٍ ﷺ فيما رآهُ ببَصَرهِ من صورةِ جبريل ﷺ، ومن عجائب السَّموات؛ يَكُ قَبلَ القَلْب ذلك(٥)، وأيقنَ أنَّ ما رآهُ حقٌّ، كما هو لم يشُكَّ فيه ولا أنكرَهُ ولم يعتقِدْ عن تَخَيُّلٍ ولا أخبرَ عن توهُّم. وقرأ الحسنُ وأبو جعفر وقتادة وابن عامر: (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ) بالتشديد؛ أي ما كذَّبَ قلبُ مُحمَّدٍ ما رأى بعَينهِ تلك الليلةَ، بل صدَّقَهُ وحقَّقه.

وَقِيْلَ: هذا إخبارٌ عن رؤيةِ النبيِّ ﷺ ليلةَ المعراجِ رَبَّهُ! قال ابنُ عبَّاس: (رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بفُؤَادِهِ وَلَمْ يَرَهُ بعَيْنِهِ، وَيَكُونُ ذلِكَ عَلَى أنَّ اللهَ جَعَلَ بَصَرَهُ فِي فُؤَادِهِ أوْ

---

(١) التكوير / ١٩-٢٠ .

(٢) التكوير / ٢٣ .

(٣) الانشراح / ٤ .

(٤) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٣٩.

(٥) هكذا العبارة في المخطوط، وهي مضطربة غير واضحة. وحاولت أن أقربها من معنى يفيده رسم الحرف.

خَلَقَ لِفُؤَادِهِ بَصَراً حَتَّى رَأى رَبَّهُ رُؤْيَةً غَيْرَ كَاذِبَةٍ كَمَا يُرَى بالْعَيْنِ)[(١)]. وقال عكرمةُ: (إنَّهُ رَأى رَبَّهُ بعَيْنِهِ!) وكان يحلفُ باللهِ لقد رأى مُحمَّد ربَّهُ.

ومذهبُ ابنِ مسعود وعائشة في هذه الآية: (أنَّهُ رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا). وَالْفُؤَادُ دعاء القلب، فما ارتيابُ الفؤادِ فيما رأى الأصلُ وهو القلبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ من آياتِ الله، قرأ عليٌّ وابنُ مسعود وابن عبَّاس وعائشة ومسروق والنخعيّ وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: (أَفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاءِ من غير ألفٍ على معنى أفتَجْحَدُونَهُ، تقولُ العربُ: مَرَيْتَ الرَّجُلَ حَقَّهُ إذا جَحَدْتَهُ.

وقرأ سعيدُ بن جبير وطلحة وابن مصرف (أَفَتُمْرُونَهُ) بضمِّ التاءِ من غير ألفٍ؛ أي تُشَكِّكُونَهُ. وقرأ الباقون (أَفَتُمَارُونَهُ) أي أفَتُجَادِلُونَهُ. وفي الحديثِ: [لاَ تُمَارُوا فِي الْقُرْآنِ، فَإنَّ الْمِرَاءَ فِيْهِ كُفْرٌ][(٢)].

وعن الشعبيِّ عن عبدِالله بن الحارث قال: (اجْتَمَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَعْبٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أمَّا نَحْنُ بَنُو هَاشِمٍ فَنَقُولُ: إنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أتَعْجَبُونَ أنْ تَكُونَ الْخُلَّةُ لإبْرَاهِيمَ وَالْكَلاَمُ لِمُوسَى وَالرُّؤْيَةُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ).

وقال الشعبيُّ: (فَأَخْبَرَنِي مَسْرُوقُ أنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا أمَّاهُ؛ هَلْ رَأى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَطْ؟ قَالَتْ: إنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً لَيَقِفُ مِنْهُ شَعْرِي، قَالَ: قُلْتُ: رُوَيْداً فَقَرَأ عَلَيْهَا ﴿وَالنَّجْمِ إذا هَوَى...﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى﴾. فَقَالَتْ: أيْنَ يَذْهَبُ بكَ! إنَّمَا رَأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ﴾[(٣)].

---

(١) هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٣٠) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٥ ص١٥٢: الحديث (٤٩١٦). وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٥٧؛ قال الهيثمي: (رجاله موثوقون).

(٣) الانعام / ١٠٣ .

وفي الرؤية قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (مَنْ زَعَمَ أنَّ مُحَمَّداً رَأى رَبَّهُ فَقَدْ أعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّهُ يَعْلَمُ الْخَمْسَ مِنَ الْغَيْبِ فَقَدْ كَذَبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[1]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّداً كَتَمَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ فَقَدْ كَذَبَ)[2]، قال عبدُالرزاق: (فَذَكَرْتُ هَذا الْحَدِيثَ لِمُعَمَّرٍ فَقَالَ: مَا عَائِشَةُ عِنْدَنَا بِأعْلَمَ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي رأى مُحَمَّدٌ جبريلَ مرَّة أخرى، فسمَّاها (نَزْلَةً أخْرَى) على الاستعارةِ، وذلك أنَّ جبريلَ رآهُ النبيُّ ﷺ على صُورَتهِ التي خُلق عليها مرَّتين، مرَّةً في الأرضِ بالأُفق الأعلى، ومرَّةً في السماءِ عند سِدرَةِ المنتهى، ولأنه قال (نَزْلَةً أخْرَى) تقديرهُ: ولقد رَآهُ نازلاً نزلةً أخرى.

والسِّدرَةُ: هي شَجَرَةُ النَّبَق، وههنا شجرةٌ في السَّماء السابعةِ، قِيلَ: إنَّها شجرةُ طُوبَى، وقال الكلبيُّ: (هِيَ شَجَرَةٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ، نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرٍ وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذانِ الْفِيلَةِ، يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِهَا نَهْرَان بَاطِنَان وَنَهْرَانِ ظَاهِرَان.

أمَّا الْبَاطِنَان فَفِي الْجَنَّةِ، وَهُمَا التَّسْنِيمُ وَالسَّلْسَبِيلُ – وَقِيلَ: التَّسْنِيمُ وَالْكَوْثَرُ. وَأمَّا الظَّاهِرَان فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، وَهِيَ تَحْمِلُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَجَمِيعَ الثِّمَار، وَسُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى؛ لأنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، لاَ يَعْلَمُ مَا وَرَاءَهَا إلاَّ اللهُ سُبْحَانَهُ).

وقال ابنُ مسعودٍ: (سُمِّيَتِ الْمُنْتَهَى؛ لأنَّهُ يَنْتَهِي إلَيْهَا مَا يُصْعَدُ بهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ فِيهَا، وَإلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ فِيهَا)[4]. وَالْمُنْتَهَى: مَوْضِعُ الانْتِهَاءِ.

---

(١) لقمان / ٣٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٣٧ و٢٥١٣٨) و(٢٥١٤٤)، وإسناده صحيح.

(٣) تفسير عبدالرزاق: ج ٣ ص٢٥٢: النص (٣٠٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٥٠).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: [لَمَّا أسْرِيَ بالنَّبِيِّ ﷺ فَانْتَهَى بهِ إلَى السِّدْرَةِ، فَإذا هِيَ شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أصْلِهَا أرْبَعَةُ أنْهَارٍ: نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، ونَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَنَهْرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذةٍ لِلشَّاربينَ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى. وَهِيَ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَاماً لاَ يَقْطَعُهَا، وَالْوَرَقَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا تُغَطِّي الأمَّةَ كُلَّهَا][1].

وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ؛ قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَذْكُرُ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى قَالَ: [يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ][2]. وقال مقاتلٌ: (هِيَ شَجَرَةٌ لَوْ أنَّ وَرَقَةً مِنْهَا وُضِعَتْ فِي الأَرْضِ أضَاءَتْ لأَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، تَحْمِلُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَالثِّمَارَ وَجَمِيعَ الأَلْوَانِ، وَهِيَ طُوبَى الَّتِي ذكَرَهَا اللهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ معناه: عندَ سدرةِ المنتهى جنةُ المأوَى، وهي جنةٌ يأوي إليها جبريلُ والملائكة، وقال مقاتلُ والكلبي:(جَنَّةٌ تَأوي إلَيْهَا أرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يغشَى السِّدرةَ من النور والبَهاء والْحُسنِ والصَّفاء ما ليس لوصفهِ مُنتهَى. وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَا يَغْشَى السِّدْرَةَ فَقَالَ:[يَغْشَاهَا جَرَادٌ مِنْ ذهَبٍ] ورُوي [فَرَاشٌ مِنْ ذهَبٍ][4]. وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّهُ يَغْشَاهَا مَلاَئِكَةٌ أمْثَالُ الْغِرْبَان حَتَّى يَقَعْنَ عَلَى الشَّجَرَةِ). قال رسولُ اللهِ ﷺ: [رَأيْتُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكاً قَائِماً يُسَبحُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ][5]. وَقِيْلَ: يغشَى من جهةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فاستنَارَتْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ما مالَ بصرُ النبيِّ ﷺ يَميناً ولا شِمالاً ولا طغَى ولا تجاوزَ ما رأى، وهذا وصفُ أدبهِ في ذلك المقامِ إذ لم يلتفتْ جَانباً، ولم يُمِلْ بصرَهُ ولم يَمُدَّهُ أمامَهُ إلى حيث ينتهِي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥١٥٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٥٨).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٩٠.

(٤) أخرجهما الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٦٩)؛ قال: (عن ابن زيد قال...) وذكره.

(٥) بمعناه ذكره الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٧٣) عن أبي هريرة، وفي إسناده شك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ لقد رأى تلك الليلةِ من عجائب ربه عجيبةً عظماءَ، وهي جبريلُ على صورتهِ، وقال ابنُ مسعود: (رَأى رَفْرَفاً مِنَ الْجَنَّةِ أخْضَرَ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ)[١]. وَقِيْلَ: هي الآياتُ العظمى التي رآهَا تلكَ الليلةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ قرأ مجاهدُ وأبو صالح (اللاَّتّ) بتشديد التاء، وقالوا: كان رجُلاً يَلُتُّ السَّويقَ للحاجِّ، فلما ماتَ عكفُوا على قبرهِ يعبدونَهُ. وروَى السديُّ عن أبي صالح: (أنَّهُ كَانَ رَجُلاً بالطَّائِفِ يَقُومُ عَلَى آلِهَتِهِمْ وَيَلِتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ بالزَّيْتِ، فَلَمَّا مَاتَ عَبَدُوهُ)[٢]. وقال الكلبيُّ: (هُوَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ بْنُ عُمَرَ، كَانَ يَسْلِي السَّمْنَ فَيَضَعُهُ عَلَى صَخْرَةٍ، فَتَأْتِي الْعَرَبُ فَتَلُتُّ بِهِ أسْوِقَتَهُمْ).

وأما العُزَّى فقال مجاهدُ: (شَجَرَةٌ لِغَطَفَانَ يَعْبُدُونَهَا) وَهِيَ الَّتِي بَعَثَ إلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَطَعَهَا، وَجَعَلَ خَالِدُ يَضْرِبُهَا بِالْفَأْسِ وَيَقُولُ: يَا عُزَّى كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ، إنِّي رَأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكِ. فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِهَا شَيْطَانَةٌ عَرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، دَاعِيَةٌ بوَيْلِهَا، وَاضِعَةٌ يَدَهَا عَلَى رَأسِهَا، فَقَتَلَهَا خَالِدٌ ثُمَّ رَجَعَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأخْبَرَهُ بذلِكَ، فَقَالَ: [تِلْكَ الْعُزَّى، وَلَنْ تُعْبَدَ أبَداً][٣].

وأما مَنَاة فهو صنمٌ لخزاعة، وقال الضحَّاك: (مَعْنَاهُ: صَنَمٌ لِهُذَيْلَ)، وقال: (إنَّ مَنَاةَ صَنَمٌ كَانَتْ لِهُذَيْلَ وَخُزَاعَةَ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله). وقال بعضُهم: اللاَّتُ والعُزَّى ومناةُ أصنامٌ من حجارةٍ كانت في جوفِ الكعبةِ.

والمعنى: أخبرُونا عن الآلهةِ التي تَعبُدونَها من دونِ الله، هل لها قدرةٌ تُوصَفُ بها كما يوصَفُ اللهُ بالقدرةِ والعَظَمةِ، وهي أسماءُ أصنامٍ يَعبدونَها، وانتقَوا لها اسماً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥١٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: عن ابن عباس ومجاهد وأبي صالح في الآثار (٢٥١٨٠ و٢٥٨١ و٢٥١٨٢).

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٧٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف).

من أسماءِ الله تعالى، فقالوا: مِن الله اللاَّت، ومِـن العزيزِ العـزَّى، ومِـن المنَّـانِ منـاةُ بالهاءِ.

وقال الزجَّاجُ: (الْوَقْفُ عَلَيْهَا بالتَّاءِ لاتِّبَاعِ الْمُصْحَفِ)[1]، وكان ابنُ كثيرٍ يقولُ: (وَمَنَأَةُ) بالمدِّ والهمزةِ[2]، والصحيحُ: قراءةُ العامَّة بالقصرِ، و(الثَّالِثَةَ) نعتٌ لِمَنَاة، يعني الثالثةَ للصَّنمين في الذّكر، والأخرى نعتٌ لها أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ هذا إنكارٌ عليهم في أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ هذه الأصنامَ بناتُ الله، فقيل لَهم: كيف جعَلتُم هذه الأشياءَ المؤنَّثة أولادَ اللهِ وأنتم لا تَرضَون لأنفسِكم الإنـاثَ وتكرَهونـها؟ وقولـه تعـالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي قِسمَةٌ جَائِرَةٌ غيرُ عادلةٍ، يقالُ: ضَازَهُ يَضِـيزُهُ إذا نقصَـهُ حقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ؛ معناهُ: وما هذهِ اللاَّتُ والعُزَّى ومَناة إلاّ أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم الذيـن مَضَـوا قبلَكُـم، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ ؛ وبرهان؛ أي لم يُنْزِلْ كِتَابـاً لكـم حجَّـة بمـا تقولـون أنَّـها آلهةٌ، والمعنى: مـا أنـزَلَ اللهُ بعبادَتِـها مـن سُـلطان، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ ؛ في قولِهم: إنَّها آلهةٌ، وقولِهم: هذه بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولقـد جـاءَهم من ربهم الكتابُ والرسولُ والبيانُ أنَّها ليست بآلهةٍ، وأنَّ العبـادةَ لا تصلـحُ لَـها، وإنما تصلحُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. والمعنى: أنَّهم يَعقِلُون ذلك بعدَ أنْ جاءَهـم الهـدَى، وذلـك أبلَغُ في الذمِّ.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٥٩؛ قال الزجاج: (والأجود في هذا اتباع المصحف والوقف عليها بالتاء).

(٢) قال ابن عادل في اللباب: ج ١٢ ص١٨٠: (فأما قراءة ابـن كثـير، فاشـتقاقها مـن النَّـوءِ، وهـو المطر، لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء، ووزنها حينئذ (مَفْعَلَـة) فألفـها عـن واو وهمزتـها أصلية وميمها زائدة).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي ما اشتهى، والمرادُ بالإنسان الكافرُ، وكان الكفَّارُ يعبُدون الأصنامَ، ويزعُمون أنَّها تشفعُ لهم عند اللهِ، ويتمنَّون على اللهِ الجنَّة. والمعنى: أيظُنُّونَ أنَّ لهم ما يتمنَّون من شَفاعةِ الأصنامِ، وليس كما يظُنُّون ويتمنون، بل ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ لاَ يُعطِي أحداً شيئاً بالتمنِّي، وإنَّما يعطِي بالحكمةِ وعلى سبيلِ الاستحقاق، فيزيدُ مِن فَضلهِ مَن يشاءُ. وَقِيْلَ: معناهُ (فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُوْلَى) أنْ لا يملِكُ فيهما أحدٌ شيئاً إلاَّ بإذنهِ، يُعطي مَن يشاءُ ويَحرمُ مَن يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ جمعَ الكنايةَ لأن المرادَ بقوله (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ) الكثرةُ، والمعنى: لا تُغني شفاعتُهم أحداً إلاَّ مِن بعدِ أنْ يأذنَ اللهُ لهم في الشَّفاعةِ، ويرضَى بشفاعتِهم. ويقالُ: ويرضَى المشفوعُ له، وهذا كقولهِ ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ يعني أنَّهم قالوا: إنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾؛ أي ما لَهم بتلك التَّسميةِ مِن علم وما يستبقون أنَّهم إناثٌ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي لا يقومُ الظنُّ مقامَ الحقِّ، وهذا يدلُّ على أن الظَّانَّ غيرُ عالِم، وأنَّ العبادةَ بالظنِّ لا تدفعُ من عذاب الله شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾؛ أي أعرضْ يا مُحَمَّدُ عمَّن أعرضَ عن القرآن، ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾، أي ولَمْ يُرِدْ بعلمهِ إلاَّ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها، وهذا مما نَسخَتْهُ آيةُ القتال، وقولهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾؛ أي لم يبلغُوا من العلم إلاَّ ظنَّهم أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وأنَّها تشفعُ لَهم، فاعتمَدُوا ذلك وأعرَضُوا عن القرآنِ.

---

(١) الأنبياء / ٢٨.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ غايةَ عِلمِهم أنْ آثرُوا الدُّنيا على الآخرةِ، وهذا غايـةُ الجـهلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ أي إنه عالِمٌ بـهم، فـهو يُجازيهم، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي إنه عالِمٌ بالفريقين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ إخبارٌ عن قُدرتـهِ وسِعَةِ مُلكهِ، ليَجزيَ في الآخرةِ المحسنَ والمسيءَ، معناهُ: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ﴾ ؛ أي أشركُوا، ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ ؛ من الشِّركِ، ﴿ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ ؛ أي وحَّدُوا ربَّهم، ﴿ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بالجنَّة.

ثم نعتَهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ؛ فكبائرُ الإثـم وهوِ كلُّ ذنبٍ خُتِـمَ بالنـار، والفواحـشُ: كـلُّ ذنـبٍ فيـه حَـدٌّ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ؛ هذا استثناءٌ منقطعُ ليس الكبائرَ والفواحشَ.

وقال ابنُ عبَّاس:(أشْبَهُ شَيْءٍ باللَّمَمِ مَا قَالَهُ أبُو هُرَيْرَةَ عَـنْ رَسُـول اللهِ ﷺ أنَّـهُ قَالَ: [إنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْن آدَم حَظَّهُ مِنَ الزِّنَـى، وَهُـوَ اللهُ يُـدْرِكُ ذلِـكَ لاَ مَحالَـةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَزِنَى الشَّفَتَيْنِ التَّقْبِيلُ، وَزِنَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَى الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَـدِّقُ ذلِـكَ كُلَّـهُ أوْ يُكَذِّبُـهُ، فَإنْ تَقَدَّمَ بفَرْجِهِ كَانَ زَانِياً وَإلاَّ فَهُوَ اللَّمَمُ])[1].

وفي هذا دليلٌ أن الأشياءَ إذا وُجدت على التعمُّدِ لم تكن مِن اللَّمَمِ، واللَّمَمُ ما يكون من الفلتات النادرةِ التي لا يملِكُها ابنُ آدمَ من نفسهِ؛ لأنَّ الأُمَّة اجتمعَـتْ علـى أنَّ مُتَعَمِّدَ النظرِ إلى ما لا يحلُّ فاسقٌ.

واللَّمَمُ في اللغة: هو مُقَارَبَةُ الشَّيءِ من غيرِ دُخولٍ فيه، يقالُ: ألَمَّ بالشَّيءِ يَلِـمُّ إلْمَاماً إذا قاربَهُ. وعن هذا يقالُ: صغائرُ الذُّنوب كالنَّظرةِ والقُبلَةِ والغمـزَةِ، ومـا كـان

(١) أخرجه البخـاري في الصحيـح: كتـاب الاستئذان: بـاب زنـا الجـوارح دون الفـرج: الحديـث (٦٢٤٣). ومسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب قدر على ابن آدم حظـه مـن الزنـا: الحديـث (٢٠/ ٢٦٥٧) عن أبي هريرة ﷺ. وعن ابن مسعود ﷺ أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (٢٥٢٠٣) وذكر الزيادة فيه.

دُون الزِّنَى، وقال ابنُ عبَّاس: (اللَّمَمُ: النَّظْرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ وَهُوَ مَغْفُورٌ، فَإِنْ أَعَادَ النَّظَرَ فَلَيْسَ بلَمَمٍ وَهُوَ الذنْبُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ؛ أي إنَّ رحمةَ ربكَ تسَعُ جميعَ الذُّنوب، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ معناهُ: هو أعلمُ بكم مِن أنفُسِكم إذ خلق أباكُم آدمُ من الترابِ. والجنينُ: ما كنتم صِغَاراً في أرحامِ أمَّهاتِكم عَلِمَ عند ذلك ما يستَحصِلُ منكم، والأَجِنَّةُ: جمعُ جَنِينٍ، والمعنى: عَلِمَ اللهُ مِن كلِّ نفسٍ ما هي صَانِعَةٌ، وإلى ما هي صائرةٌ، ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ بما ليسَ فيها ولا تُبرِّؤُونها من العيُوب التي فيها.

وَقِيْلَ: معناهُ: لا تُزكُّوا أنفُسَكم بما عَمِلتم، لا يقولَنَّ رجلٌ: عملتُ كذا، وتصدَّقتُ بكذا؛ ليكون أبلغَ بالخضُوعِ وأبعدَ من الرِّياء. وَقِيْلَ: معناهُ: لا تُبرِّؤُوا أنفُسَكم من الآثامِ وتمدَحُونها بحُسنِ عملِها، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ الشِّركَ وآمَنَ وأطاعَ وأخلصَ العملَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني الوليدَ بنَ المغيرةِ، أعرضَ عن التصديقِ بالنبيِّ ﷺ وأعطَى قليلاً من الحقِّ بلسانهِ ثم قطعَ، وكان الوليدُ قد اتَّبعَ النبيَّ ﷺ على دينهِ، فعَيَّرهُ بعضُ المشركين فتركَ دينَهُ، فقالَ: إنِّي خشيتُ من عذاب اللهِ، فضمنَ الذي عاينَهُ إنْ هو أعطاهُ شيئاً من مالهِ ورجعَ إلى شِركهِ، أن يتحمَّلَ عنه العذابَ، ففعلَ. يعني رجعَ إلى الشِّرك وأعطاهُ ذلك الرجلُ بعضَ ما كان ذكَرَ له من المال ومنعَهُ تمامَهُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ: (أفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلاً)[2] أي أدبرَ عن إيمانهِ وأعطَى صاحبَهُ قليلاً من المال الذي وعدَهُ به (وَأَكْدَى) أي بَخِلَ بالباقِي.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٨ من كلام الحسين بن الفضل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٢٦-٢٥٢٢٧). وذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٩٨.

قال المفسِّرون: (أَكْدَى) أي قطعَهُ ولم يُتِمَّ عليهِ، وأصله من الكِدْيَةِ، وهو حجَرٌ يظهرُ في البئر ويمنعُ من الحفر ويُؤيِسَ من الماءِ، قال الكلبيُّ: (يُقَالُ: أَكْدَى الْحَافِرُ وَأَجْبَلَ؛ إذا بَلَغَ فِي الْحَفْرِ الْكِدْيَةَ وَالْجَبَلَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي يعلَمُ أن صاحبَهُ يتحمَّلُ عنه عذابَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾؛ معناهُ: ألَمْ يُخبَرْ بما كان مَكتوباً في صُحفِ موسَى؛ يعني التوراةَ، وما فِي صُحفِ إبراهيم (الَّذِي وَفَّى) أي تَمَّمَ وأكملَ ما أُمِرَ بِهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وإبراهيمَ الذي بلَّغَ قومَهُ وأدَّى إليهم ما أُمِرَ به.

وَقِيْلَ: أكملَ ما يجبُ للهِ عليه من الطاعةِ في كلِّ ما أمر به وامتُحِنَ به كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1]. وَقِيْلَ: معنى ذلك: أنَّهُ كان عَاهدَ أنْ لا يسألَ مَخلوقاً قطُّ خَوْفاً بذلك، حتى قالَ له جبريلُ في الوقتِ الذي أرادَ قومهُ أنْ يُلقوه في النار: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ ؟ أجَابَهُ: أمَّا إلَيْكَ فلاَ. وَقِيْلَ: معناهُ: وفي رُؤياه وقَدِمَ بذبحِ ابنه. وَقِيْلَ: أدَّى الأمانةَ ووفَّى شأنَ المناسكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾؛ هذا بيانٌ لِمَا في صُحفِ موسَى وإبراهيمَ الذي وفَّى، ومعناهُ: لا تَحمِلُ حَامِلَةٌ حملَ أخرى؛ أي لا تُعذبُ نفسٌ بذنب غيرها، هذا إبطالٌ لقولِ مَن ضَمِنَ الوليد أنْ يحملَ عنه الإثمَ، وهذا عامٌّ في كلِّ شريعةٍ.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنه قالَ: (كَانُوا قَبْلَ إبْرَاهِيمَ يَأْخُذُونَ الرَّجُلَ بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وَيَأْخُذُونَ الْوَلِيَّ فِي الْقَتْلِ بِابْنِهِ وَأخِيهِ وَأبِيهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ، وَالزَّوْجَ يُقْتَلُ بِامْرَأتِهِ، وَالسَّيِّدُ بِعَبْدِهِ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَهَاهُمْ عَنْ ذلِكَ وَبَلَّغَهُمْ أنْ لاَ تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرَى)[2].

---

(١) البقرة / ١٢٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٣٤). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٣.

يقال: وَزَرْتُ الشَّيْءَ آزُرُهُ إذا حَمَلْتَهُ، والأَوْزَارُ: الأحمالُ، ويسمَّى الإثمُ وزراً؛ لأن الإثمَ يُثقِلُ صاحبَهُ، كما قال تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[١]. ويسمَّى الوزيرُ وزيراً ليَحمِلَ ثقلَ الملكِ في قيامهِ بالتدبُّر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي ليس له إلاَّ جزاءُ ما عَمِلَ من خيرٍ و شَرٍّ، وهذا عطفٌ على قولهِ تعالى (ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ) وهو أيضاً مما في صُحف موسَى وإبراهيم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ معناهُ: وإنَّ عملَهُ سوف يُرى في الأُخرى في ديوانهِ وميزانه، ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾؛ لا يُنقَصُ من ثواب عَمَلهِ شيءٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي مُنتهى العبادِ ومَصيرُهم، وهو مجازيهم بأعمالهم. وَقِيْلَ: منه ابتداءُ الْمِنَّةِ وإليه انتهاءُ الآمال.

وعن أُبَي بن كعبٍ عن النبيِّ ﷺ في قولهِ تعالى (وَأَنَّ إِلَى رَبكَ الْمُنْتَهَى) قال: [لاَ فِكْرَ فِي الرَّب][٢]. والشاهدُ في هذا الحديثِ قولهُ ﷺ: [إذا ذُكِرَ اللهُ فَانْتَهُواْ][٣].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أصْحَابهِ وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، فَقَالَ:[فِيمَ أنْتُمْ تَتفكَّرُونَ؟] قَالُوا: نَتَفَكَّرُ الْخَالِقَ، فَقَالَ: [تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ، فَإنَّهُ لاَ يُحِيطُ بهِ الْفِكْرُ، تَفكَّرُوا فِي أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ سَبْعاً وَالأَرْضَ سَبْعاً ثِخَانَةً؛ كُلُّ أرْضٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ أرْضَيْنِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَثِخَانَةُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ

---

(١) الانشراح / ٢و٣.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه الدارقطني في الافراد والبغوي في تفسيره عن أبي بن كعب) وذكره. وقال: (وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠. وأبو الشيخ في العظمة: الأثر (٦/٦ و٩/٩): ص١٩ عن سفيان الثوري.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء: ج ٤ ص٣٩٦، وفيه عبيد الله بن أبي حميد، أجمعوا على ضعفه.

سَمَائِيْن خَمْسُمِائَةٍ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ بَحرٌ عُمْقُهُ مِثْلُ ذلِكَ كُلِّهِ، فِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لَمْ يُجَاوز الْمَاءُ كَفَّيْهِ](١).

قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي أضحكَ مَن شاءَ من خلقهِ، وأبكَى مَن شاءَ منهم، وقال الكلبيُّ: (أضْحَكَ أهْلَ الْجَنَّةِ فِيْهَا، وَأبْكَى أهْلَ النَّار فِيْهَا). وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: وَإنَّهُ هُوَ أفْرحَ وَأحْزَنَ). وقال الضحَّاكُ: (أضْحَكَ الأَرْضَ بالنَّبَاتِ، وَأبْكَى السَّمَاءَ بالْمَطَرِ). وقِيلَ: أضْحَكَ الأَشْجَارَ بالأَثْمَار، وَأبْكَى السَّحَابَ بالأَمْطَار).

وقال ذُو النُّون: (أضْحَكَ قُلُوبَ الْعَارفِينَ بشَمْس مَعْرفَتِهِ، وَأبْكَى قُلُوبَ الْعَاصِينَ بظُلْمَةِ نُكْرَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ). وقال سهلٌ: (أضْحَكَ الْمُطِيعَ بالرَّحْمَةِ، وَأبْكَى الْعَاصِي بالسُّخْطِ). وسُئِلَ ظاهرُ المقدسيُّ: أتَضْحَكُ الْمَلاَئِكَةُ؛ فَقَالَ: (مَا ضَحِكَتْ مِنْ دُونِ الْعَرْشِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ).

وَقِيْلَ لِعُمَرَ ﷺ: هَلْ كَانَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ يَضْحَكُونَ ؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَالإيْمَانُ وَاللهِ أثْبَتُ فِي قُلُوبهِمْ مِنَ الْجِبَال الرَّوَاسِي)(٢). وقال محمَّد بن علي الترمذي: (مَعْنَى الآيَةِ: هُوَ أضْحَكَ الْمُؤْمِنَ فِي الآخِرَةِ وَأبْكَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَأضْحَكَ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا وَأبْكَاهُ فِي الآخِرَةِ)(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أماتَ في الدُّنيا وأحيَا في البعث للجزَاءِ. وَقِيْلَ: أماتَ الآباءَ وأحيَا الأبناءَ. وَقِيْلَ: أماتَ الكافرَ بالنكدةِ والقطيعةِ، وأحيَا المؤمنَ بالمغفرةِ والوَصلَةِ، قال اللهُ ﴿أوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٤).

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص٦٣١٥ عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: [تَفكَّرُوا فِي آلاَءِ اللهِ وَلاَ تَفكَّرُوا فِي اللهِ]. ورواه أبو الشيخ في العظمة: ص١٧.

(٢) ذكر هذه الآثار البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٦-١١٧.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٧.

(٤) الانعام / ١٢٢ .

سَمَائيْن خمْسُمِائَةٍ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ بَحْرٌ عُمْقُهُ مِثْلُ ذلِكَ كُلِّهِ، فِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لَمْ يُجَاوز الْمَاءُ كَفَّيْهِ][1].

قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي أضحكَ مَن شاءَ من خلقه، وأبكَى مَن شاءَ منهم، وقال الكلبيُّ: (أضْحَكَ أهْلَ الْجَنَّةِ فِيهَا، وَأبْكَى أهْلَ النَّار فِيهَا). وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ: وَإنَّهُ هُوَ أفْرحَ وَأحْزَنَ). وقال الضحَّاكُ: (أضْحَكَ الأَرْضَ بالنَّبَاتِ، وَأبْكَى السَّمَاءَ بالْمَطَرِ). وقِيلَ: أضْحَكَ الأَشْجَارَ بالأثْمَار، وَأبْكَى السَّحَابَ بالأَمْطَار).

وقال ذُو النُّون: (أضْحَكَ قُلُوبَ الْعَارفِينَ بشَمْس مَعْرفَتِهِ، وَأبْكَى قُلُوبَ الْعَاصِينَ بظُلْمَةِ نُكْرَتِهِ ومَعْصِيَتِهِ). وقال سهلٌ: (أضْحَكَ الْمُطِيعَ بالرَّحْمَةِ، وَأبْكَى الْعَاصِي بالسُّخْطِ). وسُئِلَ ظاهرُ المقدسيُّ: أتَضْحَكُ الْمَلاَئِكَةُ؟ فَقَالَ: (مَا ضَحِكَتْ مِنْ دُونِ الْعَرْشِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ جَهَنَّمَ).

وَقِيْلَ لِعُمَرَ ﷺ: هَلْ كَانَ أصْحَابُ رَسُول اللهِ يَضْحَكُونَ ؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَالإيْمَانُ وَاللهِ أثْبَتُ فِي قُلُوبهِمْ مِنَ الْجِبَال الرَّوَاسِي)[2]. وقال محمَّد بن علي الترمذي: (مَعْنَى الآيَةِ: هُوَ أضْحَكَ الْمُؤْمِنَ فِي الآخِرَةِ وَأبْكَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَأضْحَكَ الْكَافِرَ فِي الدُّنْيَا وَأبْكَاهُ فِي الآخِرَةِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي أماتَ في الدُّنيا وأحيَا في البعث للجزَاءِ. وَقِيْلَ: أماتَ الآباءَ وأحيَا الأبناءَ. وَقِيْلَ: أماتَ الكافرَ بالنكدةِ والقطيعةِ، وأحيَا المؤمنَ بالمغفرةِ والوَصلَةِ، قال اللهُ ﴿أوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[4].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الطبراني في الأوسط: ج ٦ ص٦٣١٥ عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: [تَفَكَّرُوا فِي آلاَءِ اللهِ وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ]. ورواه أبو الشيخ في العظمة: ص١٧.

(٢) ذكر هذه الآثار البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٦-١١٧.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١١٧.

(٤) الانعام / ١٢٢ .

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾؛ أي خلقَ الصِّنفين الذكر والأنثى من كلِّ حيوانٍ من نُطفَةٍ إذا تقذفُ في الرَّحِمِ لتقديرِ الولد، والمعنى: ما يقدَّرُ منه الولـدُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾؛ يعني بالنَّشأةِ الأخرى الخلقَ الثاني للبعثِ يومَ القيامةِ يُعيدُهم أحياءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾؛ قال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: أغْنَى بالذهَبِ وَالْفِضَّةِ وَصُنُوفِ الأَمْوَالِ كَالإبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَـمِ)[١]. وقـال الحسـنُ وقتـادة: (أغْنَى وَأخْدَمَ)[٢].

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (أغْنَى وَأرْضَى بمَا أعْطَى)[٣]. وَقِيْلَ: معناهُ: أغنَى وأفقرَ، وَقِيْلَ: أغنَى؛ أي أكثرَ، وأقنَى أي أقلَّ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَـنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ﴾[٤].

وقال الأخفشُ: (أقْنَى: أفقَرَ وَأجْوعَ)، وَقِيْلَ: أقْنَى بأربـاحِ الأمـوالِ وفُروعِـها، وأقنَى بأُصُولِها، فالأولى: مثلُ الذهب والفضَّة، يتصرف بهما ويربـحُ عليـهما، والثانيـة: مثلُ الضِّياعِ والأنعامِ، يستبقِي الإنسانُ أُصولَها وينتفعُ بما يحصلُ له منها.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾؛ وهو كوكبٌ خلفَ الجوزاءِ، كـان يعبدهُ أناسٌ من خُزَاعَةَ، قال اللهُ: أنا ربُّ الشِّعرَى فاعبُدوني، يقـالُ للشِّـعرى: مِـرْزَم الجـوزاء[٥]. وهمـا شِـعرَتَان؛ أحدُهمـا: العَبُـورُ؛ والأخـرى: الغُمَيصَـاءُ، وأراد هـهنا الشِّعرَى العَبُورُ، أعلمَ اللهُ تعَالى أنه ربُّ الشِّعرَى وخالِقُها، وأنه هو المعبـودُ لا معبـودَ سواهُ.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٥١-٢٥٢٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٥٥).

(٤) الروم / ٣٧ .

(٥) في المخطوط: (مريم الحـوري) والصحيـح كمـا أثبتنـاه. ينظـر: جـامع البيـان: مـج ١٣ ج ٢٦ ص١٠١: الأثر (٢٥٢٦٠) عن مجاهد، والأثر (٢٥٢٦٢) عن ابن زيد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأنه أهلكَ قومَ هودٍ بريحٍ صَرْصَرٍ، وهم أوَّلُ عادٍ كـانوا، وأوَّل عـادِ الأخـرى فاقتَتَلوا فيما بينهم فتفَانَوا بالقتلِ، وكانت عادٌ الأخرى من نسلِ عادٍ الأولى.

وقرأ نافعُ وأبو عمرٍو ويعقوبُ: (عَـاداً الأولـى) مُدغمـاً، وهمـزَ الـواوَ نـافعُ، وقرئَ بإسكانِ اللامِ وإثباتِ الهمزِ وهي الأصلُ في الكلامِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى) وأهلكَ قومَ صالحٍ بالصَّيحة فمـا أبقـى منـهم أحداً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ أي وأهلَكنا قومَ نـوحٍ مـن قبـلِ عـادٍ وثمودَ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ مـن غـيرهم، لأنَّ نوحـاً عليه السلام لَبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاّ خمسين عاماً فما آمَنَ منهم إلاَّ أنفسٌ يَسِيرَةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وقُرَى قوم لوطٍ الأربعُ رفعَـها جـبريلُ إلى السَّـماء الدنيـا فأسـقطَها إلى الأرض. والمعنـى: أهوَاهَـا جـبريلُ إلى الأرض بعدَ ما رفعَها، وأتبعَـهم اللهُ الحجارةَ، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ يعني الحجارةَ والجـزاءَ والنَّكـالَ. وسُـميت الْمُؤْتفِكَـةُ مـن قولِـهم: أفكْتُهُ؛ أي قَلَبْتُهُ، والمؤتفكةُ هي الْمُنْقلِبَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي فبأيِّ نِعَـمِ ربـكَ أيُّـها الإنسان تَتَشكَّكُ وتَرتَابُ، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ: فبـأيِّ نِعَـمِ ربـكَ الَّتـي تَـدُلُّ عَلَـى وَحْدَانِيَّتِهِ تُشكِّكُ وَتُكَذِّبُ يَا وَلِيدُ) يعني الوليدَ بن المغيرةِ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عدَّدَ ما فعلَهُ مما يـدلُّ علـى وحدانيَّتـهِ قـال (فبـأيِّ آلاءِ ربكَ تَتَمارَى). فإنْ قيلَ: ما معنى ذِكْرِ النِّعَمِ ههنا وقد تقدَّمَ ذِكرُ الإهـلاكِ؟ قُلْنـا: إنَّ النِّعَمَ التي عُدَّتْ قبلَ هذه نِعَمٌ علينا لِمَا نالَنَا فيها من المزاجرِ، كيـلاَ يَسْـلِكَ منـا أحـدٌ مَسالِكَها.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص٩٠٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ ؛ يعني مُحَمَّد ﷺ من النُّذُرِ الأُولَى من الرُّسُلِ قبلَهُ، والمعنى: هذا الرسولُ نَذِيرٌ لكم مَجْرَاهُ في الإنكار مَجْرَى من تَقدَّمَهُ من الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ.

وقولُهُ تعالَى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ ؛ أي دَنَتِ القيامةُ واقتربَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ ؛ أي ليس للقيامةِ إذا غَشِيَتِ الخلقَ شدَائِدُها أحدٌ يكشِفُ عنهم، وهذا قولُ عطاءٍ والضَّحاك[١] وقتادةُ وثابت، (كَاشِفَةٌ) على تقدير: ليس لها نفسٌ كاشفةٌ، ويجوزُ قوله (كَاشِفَةٌ) مصدراً كالجاثيةِ والعاقبةِ؛ أي (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ) أي لا يكشِفُ عنها غيرُهُ، ولا يعلَمُ متى هو إلاَّ هو، وهذا كقولِهِ ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الخطابُ لِمُشركي قريشٍ، والمعنى: أفَمِنْ هذا القرآنِ الذي يُتلَى عليكم تَعجَبُونَ من إنزالهِ على مُحَمَّدٍ تكذيباً، وتضحكُون استهزاءً ولا تَبْكُونَ مما فيه من الوعيدِ والزَّواجرِ والتخويفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ ؛ أي لاَهُونَ غافلون عنه، يقال: دَعْ عنكَ سُمُودَكَ؛ أي لَهْوَكَ، قال أُمَيَّةُ:

أَلاَ أَيُّهَا الإنْسَانُ إنَّكَ سَامِدُ لاَ تَفْنَى وَلاَ أَنْتَ هَالِكُ

والسُّمُودُ: هو الغفلَةُ والسَّهوُ عن الشيءِ، وقال الكلبيُّ: (السَّامِدُ: الجِدُّ[٣] بلِسَانِ قُرَيْشٍ، وبلِسَانِ اليَمَنِ: اللاَّهِي)، قال الضحَّاكُ: (سَامِدُونَ: أيْ أشِرُونَ بَطِرُونَ)[٤]، وقال مجاهدُ: (سَامِدُونَ؛ أيْ مُبَرْطِمُونَ)[٥]، والبَرْطَمَةُ: أن يُدلِي الإنسانُ شَفَتَهُ من الغضب، وفي لُغة اليمنِ: أَسْمِدْ لنَا؛ أي أعِنْ لَنَا.

---

(١) في الدر المنثور: ج٧ ص٦٦٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر عن الضحاك) وذكره.

(٢) الأعراف / ١٨٧ .

(٣) في المخطوط: (الجدر).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥١.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٢٨٥).

وعن أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (أَفَمِنْ هَذا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ) بكَى أَهْلُ الصُّفَّةِ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ حَنِينَهُمْ بَكَى مَعَهُمْ فَبَكَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: [لاَ يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مَعَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي اخضَعُوا له بالتوحيدِ واعبدوهُ ولا تعبُدوا أحَداً غيرَهُ. ويجوزُ أن يكون السُّجود ههنا كنايةٌ عن الصَّلاة.

وعن ابن عبَّاس قال: (قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ فِيهَا مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ)[(٢)].

آخر تفسير سورة (**والنجم**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص٤٨٩: الحديث (٧٩٨). وفي الدر المنثور: ج٧ ص٦٦٧ عزاه السيوطي إلى البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب سجود القرآن: باب سورة النجم: الحديث (١٠٧١)، وفي كتاب التفسير: الحديث (٤٨٦٢). وفي فتح الباري: ج ٨ ص٧٩٠؛ قال ابن حجر: (روى النسائي بإسناد صحيح عن المطلب بن أبي وداعة؛ قال: [قرأ النبي ﷺ بمكة والنجم، فسجد وسجد من عنده، وأبيت أن أسجد] ولم يكن يومئذ أسلم، وقال المطلب: فلا أدع السجود فيها أبداً). وأخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب افتتاح الصلاة: باب السجود في النجم: الحديث (١٠٣٠/ ١) بإسناد صحيح رجاله ثقات.

سُورَةُ الْقَمَرِ

سُورَةُ الْقَمَرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقَمَرِ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ](1).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ معناه: دنَتِ القيامةُ وحدَثَ عَلَمٌ من أعلامِها، وهو انشقاقُ القمرِ، ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة علامةً تدلُّهم على وحدانيَّة اللهِ ونبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، ﴿ يُعْرِضُوا۟ ﴾ ؛ أي يَجحَدُوا، ﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي شديدٌ قويٌّ من الْمِرَّةِ وهي القوَّةُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ؛ أي كذبُوا الرُّسُلَ وثبَتوا على التكذيب وعَمِلُوا بهوَى أنفُسِهم في عبادةِ الأصنام، ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ ﴾ ؛ بما أخبرَ اللهُ به من الأمُور الماضيةِ والمنتظَرَةِ، ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ثابتٌ لا تلحقهُ الزيادةُ والنقصان والتغيير والتبديلُ.

وسببُ نزول هذه الآياتِ، هو ما رُوي: أنَّ أهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ آيَةً وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ قَالَ أبُو جَهْلٍ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ أتَيْتَ آيَةً كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، فَقَالَ ﷺ: [وَمَاذا عَلَيْكَ لَوْ حَلَفْتَ باللهِ الْعَظِيمِ؟] فَقَالَ: وَرَب هَذِهِ الْكَعْبَةِ لَئِنْ أتَيْتَ بآيَةٍ كَمَا أتَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَكَ لآمَنَّا بكَ.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٤٣١. وقال السيوطي في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٦٨: (أخرجه ابن الضريس عن إسحق بن عبدالله بن أبي فروة رفعه) وذكره.

وقال ابنُ عبَّاس ﷺ: (اجْتَمعَ الْمُشْرِكُونَ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إنْ كُنْتَ صَادِقاً فَشُقَّ لَنَا القَمَرَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:[إنْ فَعلْتُ تُؤْمِنُونَ؟] قَالُوا: نَعَمْ، فَسأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ أنْ يُعْطِيَهُ مَا قَالُوا، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ ﷺ: [يَا فُلاَنُ؛ وَيَا فُلاَنُ؛ وَيَا فُلاَنُ: إشْهَدُوا])[1].

وعن ابن مسعودٍ قالَ: (أشَارَ إلَى الْقَمَرِ فَانْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ، فَكَانَتْ إحْدَاهُمَا فَوْقَ الْجَبَلِ، وَالأُخْرَى أسْفَلَ مِنَ الْجَبَلِ حَتَّى رَأى الْجَبَلَ بَيْنَ فِلْقَتَي الْقَمَرِ، وَقَالَ: [اشْهَدُوا] فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: إنَّ مُحَمَّداً سَحَرَ الْقَمَرَ! ثُمَّ قَالَ أبُو جَهْلٍ لأَصْحَابهِ: ابْعَثُوا بالرُّسُلِ إلَى الْبلاَدِ فَإنْ عَايَنُوا مِنْ ذلِكَ مَا عَايَنَّا فَهُوَ آيَةٌ، وَإلاَّ فَهُوَ سِحْرٌ. فَبَعَثُوا الرُّسُلَ إلَى جَمِيعِ الْبلاَدِ، فَإذا النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فَلَمَّا رَجَعُوا إلَيْهِمْ وَأخْبَرُوهُمْ بهِ قَالُوا: إنَّ هَذا سَاحِرٌ دَاهِي!)[2]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة جاءَهم من أخبار الأُمم المكذِّبة في القرآنِ ما فيه مُنتهَى لهم عمَّا هم فيه من الكُفرِ والفُسوق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ ﴾ ؛ بدلَ من (مَا) والمعنى: جاءَهم حِكمَةٌ في نِهايَةِ الْحُكْمِ والصَّواب. وَقِيْلَ: المرادُ بالحكمةِ البالغةِ القرآنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ ما تُغني الرُّسُل صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ عن قومٍ لا يتدبَّرون ولا يتفكَّرون في الآية والنُّذر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ ؛ أي أعرِضْ عنهم فليسَ عليكَ إجبارُهم على الدِّين، وإنَّما عليكَ إقامةُ الْحُجَّة وقد بالَغْتَ فيها، وهذه الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ. وهذا وقفٌ تامٌّ، وقوله تعالى (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) ابتداءُ الكلامِ كلام.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٧١؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو نعيم في الحلية عن طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس) وذكره.

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وانشق القمر﴾: الحديث (٤٨٦٥).

قال مقاتلُ:(أَرَادَ بالدَّاعِي إسْرَافِيلَ يَنْفُخُ قَائِماً عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ) ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ ؛ أي إلى أمرٍ فَظِيعٍ لَمْ يرَوا مِثلَهُ فينكرونَهُ استِعظَاماً[١]، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ). وقولُه تعالى (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) منصوبٌ على معنى واذكُرْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحال مِن يخرجُون، وذلك دليلٌ على تقدُّمِ الحالِ على الفعلِ المتصرِّف، وكذلك يقالُ: رَاكباً جاءَ زيدٌ كما يقالُ جاء زيد راكباً، وتقديرُهُ: ويُخرَجُون من الأجداثِ خُشَّعاً أبصارُهم.

قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزةُ والكسائي وخلف: (خَاشِعاً) بالألفِ، وقرأ الباقون: (خُشَّعاً) على الجمع[٢]. قال الفرَّاءُ: (يَجُوزُ فِي أسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ إذا تَقَدَّمَتْ عَلَى الْجَمَاعَةِ التَّوْحِيدُ وَالْجَمْعُ وَالتَّأنِيثُ، يُقَالُ: مَرَرْتُ بشَبَابٍ حَسَنٍ أوْجُهُهُمْ، وَحِسَانٍ أوْجُهُهُمْ، وَحَسَنَةٍ أوْجُهُهُمْ)[٣]. وفي قراءةِ عبدِالله: (خَاشِعَةً أبْصَارُهُمْ) أي ذليلةً خاضعةً عند رُؤية العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ ؛ أي يَخرجون عندَ النَّفخةِ من القُبور فَزِعِينَ لا يَهتَدُون إلى شيءٍ، يجولُ بعضُهم إلى بعضٍ مثلَ الجرادِ المنتشر. والمعنى: أنَّهم يخرجون فزعين لا جهةَ لأحدٍ منهم فيقصِدُها، والجرادُ لا جهةَ له تكون أبداً مختلفةً بعضها فوقَ بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ ؛ أي مُنقلِبِينَ إلى صَوتِ إسرافيلَ نَاظِرين مُتحيِّرين مُسرعين إليه، ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾ ؛ أي صَعْبٌ شديدٌ، قال ابنُ عبَّاس:(عَسِرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَسَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). والإهْطَاعُ: الإسْرَاعُ.

---

(١) في المخطوط تحريف من الناسخ: (استعظ ماله) وضُبطت كما في معالم التنزيل للبغوي: ص١٢٥٣.

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١١. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص١٩٣.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٠٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ ؛ أي كذبت قبلَ قومِكَ قومُ نوحٍ كما كذبَكَ قومُك، ونَسَبُوا نوحاً إلى الجنُون، كما نسبَكَ قومُكَ إلى الجنون، ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي فكذبُوا عَبدَنا نُوحاً وقالوا: مجنونٌ وزَجَرُوهُ عن دُعَائِهم إياهُم إلى الإيمانِ بالشَّتمِ والوعيدِ، فـ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فدَعَا نوحُ ربَّهُ أنِّي مغلوبٌ بينَهم ومقهورٌ، فانتَقِمْ لِي مِمَّن كذبَنِي، ومعنى قولهِ تعالى (فَانْتَصِرْ) أي فَانتَقِمْ منهُم لدِينِكَ، وإنما دعَا عليهم بالهلاكِ بعد ما أُذِنَ له في الدُّعاء.

فأجابَ اللهُ دعاءَهُ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ أي بماءٍ سَيلٍ مُنْصَبٍّ انْصِبَاباً شَديداً لا ينقطعُ، متدفِّقٌ مع كثرةٍ شديدة، قال الكلبيُّ: (إنْصَبَّ أرْبَعِينَ يَوْماً). وقُرئ (فَفَتَّحْنَا) بالتشديدِ على تكثيرِ الفعلِ، وذكرُ الأبوابِ في الآيةِ على معنى أنَّ إجراءَ الماءِ كان بمَنْزلة جَرَيانهِ كأنَّهُ فُتِحَ عنه باباً كان مانِعاً له.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ؛ أي شقَّقنا الأرضَ عُيوناً، ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ ؛ ماءُ السَّماء وماءُ الأرضِ؛ ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ في اللَّوحِ المحفوظِ وهو هلاكُ القومِ، وقرأ الجحدري: (فَالْتَقَى الْمَاءَان).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وحَملنا نُوحاً ومَن آمَنَ معه على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ وهي خشَباتُها، (ودُسُرٍ) يعني المساميرَ يُشَدُّ بها الألواحُ واحدها دِسَارٌ، والمعنى على سفينةٍ ذات ألواحٍ ومَساميرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي تجري بحفظِنا، ووَحينا وأمرنا حتى لا يقعَ فيها شيءٌ من الماءِ وتتكسَّرُ ولا تغرَقُ، وقوله تعالى: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فعَلنا ذلك مِن إنجائهِ وإغراقِهم ثواباً لِمَن كُفِرَ به وجُحِدَ أمرهُ، وهو نوحُ عليه السلام كفرَهُ قومهُ وجَحَدُوا به، وقرأ مجاهدُ (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كفَرَ) بفتحِ الكافِ والفاءِ، يعني كان الغرقُ

---

(١) الشعراء / ١١٦.

جَزاءً لِمَن كفرَ باللهِ وكذبَ رسولَهُ[١].

قولهُ تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ ؛ يعني تركنا هذه الفعلةَ، ويقالُ: السفينةُ التي يصنعُها الناسُ على مثال سفينة نُوح عليه السلام علامةٌ للناسِ ليَعتَبروا ويستَدِلُّوا بها على توحيدِ الله، ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ، فهل من مُتَّعظٍ مُعتَبرٍ متدبرٍ متفكِّرٍ يعلمُ أنَّ ذلك حقٌّ فيعتبرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فانظُرْ يا مُحَمَّدُ كيف كان عُقوبَتي فيمَن أنذرَهم الرسلُ فلم يُؤمنوا، وهذا استفهامٌ ومعناهُ: التعظيمُ لذلكَ العذاب، وهذا تخويفٌ لِمُشركي مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ ؛ أي سهَّلنَاهُ للحِفْظِ والقراءةِ والكتابة، وقال سعيدُ بن جُبير: (لَيْسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُب اللهِ يُقْرَأُ كُلُّهُ ظَاهِراً إلاَّ الْقُرْآنُ)[٢]، وقولهُ تعالى: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي فهَل ذاكِرٌ يذكرهُ وقارئٌ يقرؤهُ، ومعناه: الحثُّ على قراءةِ القرآن ودَرسهِ وتعلُّمهِ، ولولا تسهيلُ اللهِ علينا ذلك لم يستطِعْ أحدٌ أن يَلْفِظَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ؛ أي باردةِ شَديدةَ البردِ وشديدةِ الهُبُوب، ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي يوم مَشْؤُوم عليهم، دائم الشُّؤم، رُوي: أنه كان يومَ الأربعاءِ الذي في آخرِ الشَّهر لا يدورُ. ويقال: معنى قولهِ (مُسْتَمِرٌّ) استمرَّ بهم العذابُ إلى نارِ جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي تَقلَعُ الناسَ من الأرضِ من تحتِ أقدامِهم، ثم تَرمِي بهم على رُؤوسِهم فتدقُّ رقابَهم وتقطعُ أعناقَهم، فتُبقِي أجسادَهم كأنَّها أعجازُ نخلٍ مُقطَّعٍ.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص١٩٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٤٥.

ويقالُ في معنى (تَنْزِعُ النَّاسَ) لأنَّهم ضَرَبُـوا بأرجُلِـهم في الأرضِ فغَيَّبوهـا إلى قريبٍ مِن رُكوبهم وقالوا: قُل للرِّيحِ حتى يرفَعنا، فجُعلت الريحُ تدخلُ تحتَ أقدامِهم وترفعُ كلَّ اثنـين وتضـربُ بأحَدِهمـا إلى الآخـرِ في الهـواء، ثـم تُلقيـهما في الـوادِي، والباقون ينظُرون إليهم حتى رفعتهم كُلَّهم وصيَّرتْهم في الأرضِ (كَأَنَّهُمْ أعْجَازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِرٍ) أي سَاقِطٍ، ثم رَمَت بالتُّراب عليهم، فكان يُسمَعُ أنينُهم من تحتِ التُّراب.

يقالُ: قَعَرَ النَّخلةَ إذا قلَعتَها من أصلِها حتى تسـقُطَ، شـبَّهَهم في طُولِـهم حـين صرَعتهم الريحُ وكَبَّتْهُم على وُجوهِهم بالنَّخلة الساقطةِ علـى الأرضِ الـتي ليـس لها رُؤوس، وذلك أنَّ الريح قَلَعَتْ رُؤوسَهم أوَّلاً ثم كبَّتهم على وُجوهِهم .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ إنما كرَّرَهُ لأنـه ذكـر في كـلِّ فصـلٍ نوعـاً مـن الإنـذار والتَّعذيب، انعقدَ التذكيرُ شيء شيء منه على التفصيلِ.

قال ابنُ الأنباريِّ: (وَسُئِلَ الْمُبَرِّدُ عَنْ الْفِ مَسْأَلَةٍ هَـذِهِ مِـنْ جُمْلَتِـهَا: وَهُـوَ أنَّ السَّائِلَ قَالَ لَهُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[1] وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾[2]، وَقَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَأَنَّـهُمْ أعْجَـازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِـرٍ﴾و ﴿أعْجَـازُ نَخْـلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3]، فَقَالَ: كُلُّ مَا وَرَدَ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا الْبَاب فَلَكَ أنْ تَرُدَّهُ إلَى اللَّفْـظِ تَذْكِـيراً، وَلَكَ أنْ تَرُدَّهُ إلَى الْمَعْنَى تَأْنِيثاً)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي بالإنذار الذي جاءَهـم بـه صالِحُ عليه السلام، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ ؛ أي هو آدَميٌّ مِثلُنا وهو واحدٌ فـلا نكون له تَبعاً، ﴿ إِنَّا إِذًا ﴾ ؛ إنْ فعَلنا ذلك، ﴿ لَّفِي ضَلَالٍ ﴾ ؛ وذهابٍ عن الحقِّ، ﴿ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي وشقاءٍ وشدَّةِ عذابٍ مما يُلزِمُنا مـن طاعتـهِ، وقـال عطـاءُ:

---

(١) يونس / ٢٢ . (٢) الأنبياء / ٨١ .

(٣) الحاقة / ٧ .

(٤) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٦٦. ونقله القرطبي أيضـاً في الجـامع لأحكـام القرآن: ج ١٧ ص١٣٧.

(مَعْنَى قَوْلِهِ (وَسُعُرٍ) أيْ وَجُنُون، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ؛ إذا كَانَ بِهَا جُنُونٌ مِنَ النَّشَاطِ، وَهُوَ مِنْ سُعُرِ النَّارِ إذا الْتَهَبَتْ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ ؛ أنْكَروا أنْ يكون الوحيُ يأتِيه، فقالوا: كيف خُصَّ مِن بيننا بالنُّبوَّة والوحي، ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ فيما يقولُ، (أشِرٌ) أي بَطِرٌ متكبِّرٌ يريدُ أن يتكبَّرَ علينا بالنبوَّةِ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ ؛ حين ينْزِلُ بهم العذابُ، يعني يومَ القيامةِ، ﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أهُمْ أمْ صالِحٌ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ ؛ أي إنَّا مُخرجو الناقةِ من الصَّخرة تَشديداً عليهم في التكليفِ، وذلك أنَّهم تَعَنَّتُوا صَالحاً فسألُوا أن يُخرِجَ لهم من صخرةٍ حمراءَ عشراءَ، وقوله: ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ ؛ أي فانتظِرْهم ما هم صَانِعون، ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ على أذاهُم ولا تَعْجَلْ حتى يَأْتِيَهُمْ أمري.

قوله: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي أخبرهُم أنَّ الماءَ مقسومٌ بين الناقةِ ووَلَدِها، وبينهم وبين مَواشِيهم، يومٌ لَهُما ويومٌ لَهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي كلٌّ منهم يحضرُ نَوبتَهُ، فتحضرُ الناقةُ وولدُها يومَ نَوبَتِهما، ويحضرُ القومُ يومَ نَوبَتهم. والشِّرْبُ: نصيبٌ من الماءِ، والشُّرْبُ -بضم الشِّين-: فعلُ الشَّارب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ ؛ أي نادَوا قُدارَ بنَ سَالِفٍ عَاقِرَ الناقةِ، ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّهم لَمَّا مكثُوا قسمةَ الماء زَماناً، ثم ضاقَ عليهم الأمرُ على مواشِيهم بسببِ الناقة، غلبَ عليهم الشَّقاءُ، وتوَاطَأَ طائفةٌ منهم على قَتلِها، فنادَوا صاحبَهم الذي كَمَنَ لهما.

وذلك أنه رمَاها رجُلٌ منهم يقالُ له: مصدع بن دَهْرٍ بسَهم فضرَبَها على سَاقِها، فنادَوا قُدَارَ بن سالف، وقالوا له: دونَكَ الناقةُ قد مرَّتْ بكَ فاضربْها، فتعاطَى قُدارُ عقرَ الناقةِ، فعقرَها بأنْ ضربَ ساقَها الأُخرى فسَقطَتْ على جَنبِها، وقطَّعُوا

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٣٨؛ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

لَحمَها وقسَموهُ، فعاقبَهم اللهُ بصيحةٍ فأهلَكَهم وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ قَـال عطاءُ: (يُريـدُ صَيْحَـةَ جِبْرِيلَ عليه السلام أَسْمَعَهُمُ اللهُ إيَّاهَـا فَـهلَكُوا، وَصَـارُوا كَـالْوَرَقِ الْمُتَهَشِّـمِ الَّـذِي يَجْمَعُـهُ صَاحِبُ الْحَضِـيرَةِ إذا يَبِـسَ غَايَـةَ الْيُبْـسِ، وَتَحَطَّـمَ غَايَـةَ الانْحِطَامِ)(١).

قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ رَجُلٌ يَجْعَلُ الْغَنَمَةَ حَظِيرَةً بالشَّجَرِ وَالشَّوْكِ لِيَحْرُسَهَا مِنَ السِّبَاعِ، فَمَـا سَقَطَ مِـنْ وَرَق ذَلِـكَ الشَّـجَرِ وَيَبِـسَ، وَدَاسَتْهُ الْغَنَـمُ وَتَحَطَّـمَ وَهُـوَ الْهَشِيمُ)(١). وقال ابنُ زيدٍ: (الْهَشِيمُ هُوَ الشَّجَرُ الْبَالِي الَّذِي تَهَشَّمَ حَتَّى ذرَّتْهُ الرِّيـحُ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ كَانَ رَطْباً فَيَبسَ فَـهُوَ هَشِيمٌ)(١) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ؛ أي ريحاً ترميهم بالْحَصْبَاءِ، والحصباءُ: هي الحجارةُ التي هي دُونَ مِلْءِ الكَفِّ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ مَا صُبُّوا بِهِ مِنَ السَّمَاءِ مِـنَ الْحِجَـارَةِ)، وقولُـهُ تعـالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني بنْتَيْهِ وزوجَتَهُ المؤمنةُ، نَجَّاهم اللهُ مـن العـذاب، ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ، بأنْ أمرَهم بالخروجِ في وقت السَّحَر، وكانت نَجاتُـهم نعمـةً من اللهِ عليهم، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ وكذلـك يَجـزِي اللهُ كُـلَّ مَـن عرفَ إنعَامَهُ وقابلَهُ بالشُّكر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ ؛ أي خوَّفَـهم لـوطُ عذابَنـا، ﴿ فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ، فشَكُّوا في الإنـذار؛ أي فتدَافَعـوا بالْحِجَـاجِ البَـاطِلِ، ويقالُ: جادلوهُ في أمرِ الرِّسالةِ ولم يُصدِّقوهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ ؛ أي طلَبُـوا أن يُسَـلِّمَ إليـهم أضيافَهُ وهم الملائكةُ قَصْداً منهم إلى عمَلِهم الخبيث، فـأمرَ اللهُ جـبريلَ أن يَصْفِـقَ بجناحـهِ فأعمَـاهُم فبقَـوا حيَـارَى، ومعنـى: ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ ؛ أي أعمينَـاهُم

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٥.

وصيَّرناهم كسائرِ الوجهِ لا يُرَى له شَقٌّ، فكانوا عُمياناً متحيِّرين لا يهتدون إلى الباب، فقيل لَهم: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ يقال: فلانٌ مَطمُوسُ البصَرِ إذا كان موضعُ عَينَيه أملسَ، لا أثرَ به للعَينِ من الْجَفْنِ والْحَدَقَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ ؛ أي أتَاهم العذابُ صَباحاً، يعني أخذهم عند الصُّبحِ، ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، عذابٌ دائِمٌ متَّصِلٌ بعذاب الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ قد مضَى تفسيرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ المرادَ بالنُّذر: موسَى عليه السلام وهارون، وأسماءُ الجمعِ يطلَقُ على الاثنين. وَقِيْلَ: أرادَ به الآياتِ التي فيها الإنذارُ، وَقِيْلَ: المواعظُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ ؛ أي فأخذناهم بالعذاب، ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، غالبٍ في انتقامه، متقدرٍ قادر على إهلاكِهم، والعزيزُ القويُّ الذي لا يلحقهُ ضَعْفٌ ولا عجزٌ، ولا يعتريهِ منعٌ ولا دفعٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أكُفَّارُكم يا أهلَ مكَّة أشدُّ وأقوى من أولَئِكُمْ الذين قصَصنا ذِكرَهم، وهذا استفهامٌ ومعناهُ الإنكارُ؛ أي لَيسُوا أقوى من قومِ نوح وعادٍ وثمود. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَكُم براءةٌ من العذاب في الكُتب لن يُصيبَكم ما أصابَ الأُمم الخاليةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أم يقولون نَحنُ جميعٌ واحد ومتَّفِقُون على الانتصار من أعدائنا. ووُحِّدَ المنتصرُ للفظِ الجميع وهو واحدٌ في اللفظِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي سيُهزَمُ الجمعُ كفَّارُ مكة يومَ بدرٍ، ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ مُنهزِمِين. ومعنى الآيَة: أنَّ كفار مكَّة يقولون: (نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) أي جماعةٌ لا نُضَامُ[1] ولا نُرَامَ، ولا يصدُّنا أحدٌ بسوءٍ ولاء، ولا أحدٌ

---

(١) أي لا نُظلم، والضَّيمُ: الظُّلم. وأنهم لا يزاحمون على ما يريدون. ينظر: لسان العرب: ج ٨ ص١١٢: (ضيم).

يفَرِّقُ جمعَنا، وكان من حقِّه أن يقولَ: نحنُ جميع منتصرون؛ إلاّ أنه تَبعَ رؤوسَ الآي. وقوله تعالى (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ) قراءةُ الكافَّة بالياءِ على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ. وقرأ يعقوبُ بالنون وكسرِ الزاي (الْجَمْعَ) بالنصب.

وإنما وحَّدَ الدُّبر لأجلِ رُؤوسِ الآي، قال مقاتلُ: (ضَرَبَ أبُو جَهْلٍ فَرَسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَتَقَدَّمَ الصَّفَّ، وَقَالَ: نَحْنُ نَنْتَصِرُ الْيَوْمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأصْحَابِهِ، فَهَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى)[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ ما نزَلَ بهم من القتلِ والأسرِ ببدرٍ لم يكن كافياً في عُقوبَتهم، بلِ القيامةُ موعِدُهم، والقيامةُ أعظَمُ في الدَّهاءِ وأشَدُّ مَرارةً من القتلِ والأسرِ في الدُّنيا، وكلُّ دَاهِيَةٍ فمعناها الأمرُ الشَّديدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالضَّلال الذهابَ عن الصَّواب في الدُّنيا، وبالسُّعُرِ عذابَ النار في العُقبَى.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ؛ يوم تَجُرُّهم الملائكةُ في النار على وُجوهِهم فيقولُ لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ وسَقَرُ اسمٌ من أسماءِ دَرَكَاتِ جهنَّم.

قال أبو أمَامَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْقَدَرِيَّةِ: ﴿إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرْ﴾][(٢)].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الْقَدَرِيَّةُ، وَهُمُ الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ ﴿إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾][(٣)].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٠١.

(٢) في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عدي وابن مردويه وابن عساكر والديلمي بسند ضعيف).

(٣) لم أقف عليه. عن عائشة رضي الله عنها، وله طرق وألفاظ.

وعن هشامِ بن حسَّان قال: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: (وَاللهِ لَوْ أنَّ قدرياً صَامَ حَتَّى يَصِيرَ كالْجَبَلِ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى يَصِيرَ كَالْوَتَرِ، ثُمَّ اخِذ ظُلْماً وَزوراً حَتَّى ذُبحَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، لَكَبَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَجْهِهِ فِي سَقَرٍ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ذُقْ مَسَّ سَقَرْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ معناهُ: كلُّ ما خلقْنا فمَقدورٌ ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبل وُقوعِهِ.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: [إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَتَدَبَّرَ التَّقْدِيرَ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ آدَمَ ﵇ بِألْفَي عَامٍ][٢]. وَقَالَ ﵇: [الإيْمَانُ بِالْقَدَرِ يُذْهِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ][٣]. وانتصبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلَّ شَيْءٍ) بفِعلٍ مُضمرٍ؛ كأنه قال: إنَّا خلقنَا كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ.

وعن عمر ﵁ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إذا جَمَعَ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَادَى مُنَادٍ يَسْمَعُهُ الأوَّلُونَ وَالآخِرُونَ: أيْنَ خُصَمَاءُ اللهِ؟ فَتَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ فَيُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرٍ][٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ معناهُ: وما أمرُنا بقيامِ السَّاعة أو غيرِ ذلك إلاَّ كلمةً واحدةً لا تُثنَّى كطَرفِ البصرِ، بل هو أسرَعُ، ومعنى اللَّمحِ: النَّظرُ بالعجَلةِ.

---

(١) في تفسير الحسن البصري: جمع وتوثيق الدكتور محمد عبدالرحيم: ج ٢ ص٣١٢؛ قال: (رواه هشام بن حسان عن الحسن: كما في زاد المسير لابن الجوزي: ج ٨ ص١٠٢). وكنز العمال: الحديث (٤٨١).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وله أصل من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب القدر. والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب القدر: الحديث (٢١٥٦). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٦٩.

(٣) رواه القضاعي في مسند الشهاب: ج ١ ص١٨٧: الحديث (٢٧٧)، وضعفه المحقق حمدي السلفي.

(٤) بمعناه؛ في الدر المنثور: ج ٧ ص٦٨٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: ولقـد أهلكنـا أشبَاهَكم ونُظرَاءَكم في الكُفـرِ مـن الأمـمِ الماضيـة، ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ، هـل مـن مُتَّعِظٍ يتَّعِظُ بهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ ومعنـاهُ: كـلُّ شـيءٍ فعَلوهُ وقالوا مِن خيرٍ أو شرٍّ؛ يعني الأشياعَ؛ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يفعلوهُ، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ ؛ من الذُّنوب والخلـق والأعمـال، ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مكتوبٌ على فَاعلـهِ قبـلَ أنْ يفعلـوهُ، تكتبـهُ الملائكـةُ في ديـوانٍ ليَجزِيَـهم اللهُ علـى أفعالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين يتَّقُـونَ الشِّركَ والكبائرَ والفواحشَ في بساتين وأنْهَارٍ جاريةٍ من الماءِ والخمرِ واللَّبن والعسـلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ ؛ أي مجلسٍ حَسَنٍ وموضعِ قرارٍ وأمنٍ من وُقوعِ الحوادثِ، ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي عنـد مَليـكٍ قـادرٍ علـى الثَّـواب والعقاب، قادرٍ لا يعجزهُ شيءٌ وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، ومَقْعَدُ الصِّدقِ هو الجنَّةُ، مدحَ اللهُ المكان بالصِّدقِ، ولا يقعدُ فيه إلاَّ أهلُ الصِّدقِ.

وإنما قال (وَنَهَرٍ) مُوَحِّداً لأجـلِ رُؤوسِ الآيِ كقولـه تعـالى (وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ)، وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: فِي فَضَاءٍ وَسِعَةٍ وَنُورٍ وَمِنْهُ النَّهَارُ، وَمِنْ ذلِـكَ نَـهَرْتُ الْفِضَّـةَ إذا وَسَّعْتَهَا)[1]، وقرأ الأعرجُ وطلحة (وَنُهُرٍ) بضمَّتين كأنه جمعُ نَهارٍ لا ليلٍ[2].

آخر تفسير سورة (القمـر) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٣. والبغوي في معالم التـنزيل: ص١٢٥٧. وأصل الكلام كما نقله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١١١ مـن غير أن ينسبه، ولفظـه: (في ضِيَـاءٍ وسَعَةٍ). وفي أصل المخطوط كما أثبتناه.

(٢) في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٤؛ نقله الثعلبي عنهما، وقال: (كأنها جمعُ نهار يعـني لا ليـل لهـم). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٥٠؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو مِجلَـز وابـو نـهيك والأعـرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة (نُهُرٍ) بضمتين، كأنهم جمع نهار لا ليل لهم؛ كسَحَابٍ وسُحُبٍ).

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سُورَةُ الرَّحْمَنِ مَكِّيَّةٌ، فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: (مَدَنِيَّةٌ)، وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةٍ وَسِتٌّ وَثَلاثُونَ حَرْفاً، وَثَلاثُمِائَةٌ وَوَاحِدٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٍ وَسَبْعُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ رَحِمَ اللهُ ضَعْفَهُ، وَكَانَ مُؤَدِّياً شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لقول كفَّار قُريش حين قالوا: إنَّ مُحَمَّداً يقولُ ما يقول من تِلقاء نفسهِ، ولم يُوحَ إليه شيءٌ، ومنهم مَن كان يقولُ: إنما يعلِّمهُ بشرٌ، فردَّ اللهُ عليهم مقالتَهم وبيَّن أنه هو الذي علَّمَ مُحَمَّداً القرآنَ على لسانِ جبريلَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ قِيلَ: المرادُ منه آدمُ عليه السلام علَّمَهُ اللهُ جميعَ اللُّغات وأسماءَ كلِّ شيءٍ، وكان آدمُ عليه السلام يتكلَّمُ سبعَمائة ألف لُغة أفضلُها العربيةُ.

ويجوز أنْ يكون الإنسانُ اسمُ جنسٍ بمعنى جميعَ الناسِ، (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وهو المنطِقُ والكتابةُ والحِفْظُ والفهمُ والإفهام حتى عرَفَ الإنسانُ ما يقول وما يُقال له.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج٩ ص١٧٦ بإسناده إلى أبي بن كعب، وإسناده واه.

وَقِيْلَ: معنى البيان: بيانَ الحلال والحرام، وبيان الخير والشرِّ، وما يأتي وما يذرُ. وقال أبو العاليةِ: (يَعْنِي الكَلاَمَ). الْحَسَنُ[١] (النُّطْقَ وَالتَّمْيِيزَ)[٢]، وَقِيْلَ: الكتابةُ بالقلمِ، وقال السديُّ: (عَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ)[٣].

قولُهُ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾؛ معناهُ: أنَّهما يَجريان على حسابٍ مُستقيمٍ لا يختلفُ، يدُلاَّن على عددِ الشُّهور والسِّنين والأوقاتِ، فإنَّ الشمسَ تقطعُ الفَلَكَ في ثلاثمائة وخمسةٍ وستِّين يوماً، والقمرَ يقطعُ الفلكَ في ثمانيةٍ وعشرين يوماً، وستِّين في يومين، وفي جَريهما دلالةٌ على التوحيدِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّهما تُحسَبُ بهما الأوقاتُ والآجالُ، ولولا الليلُ والنهار، والشمسُ والقمر لم يدرك أحدٌ كيف يَحسِبُ شيئاً، لو كان الدهرُ كلُّه ليلاً كيف يحسبُ تقديرُ الآية. والشمسُ والقمر يَجريان بحُسبان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾؛ معناهُ: والنجمُ في السَّماء، والشجرُ في الأرضِ يسجُدان لله تعالى. وَقِيْلَ: معناهُ: النباتُ والشجرُ يسجُدان، فإنَّ النَّجْمَ ما نبتَ على غيرِ ساق، والشجرَ ما نبتَ على ساقٍ في اللغة، كما يقالُ في كلِّ ما طلعَ: إنه نجمٌ، ومن ذلك نَجْمُ القرآن.

ومعنى سُجودِهما؛ أي يُسَبحوهُ ظِلاَلُهما كقولهِ ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ﴾[٤]. وَقِيْلَ: يسجُدان للهِ على الحقيقةِ، إلاّ أنَّنا لا نَفْقَهُ[٥] على سُجودِهما كقولهِ تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن زيد: الأثر (٢٥٤٣١). وفي الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧؛ قال الثعلبي: (وقال أبو العالية وابن زيد) وذكره.

(٢) نقله الثعلبي عن أبي العالية وابن زيد في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧.

(٣) ذكره عنه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٥٧.

(٤) النحل / ٤٨.

(٥) في المخطوط العبارة مبهمة ومرسومة بالشكل الآتي: (الا ان لا نقف) ونهاية (ف) أقرب إلى رسم الهاء. وأثبتناه على معنى الآية من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾؛ معناهُ: رفعَ السماءَ فوقَ الأرضِ ليُستَدَلَّ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وكمالِ قُدرتِهِ، وقولُهُ تعالى (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)، قال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَأَمَرَ بِالْعَدْلِ)[٢]، وقال الضحَّاكُ وقتادةُ: (يَعْنِي الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ لِيُتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى الإنْصَافِ وَالانْتِصَافِ، وَلَوْلاَ الْمِيزَانُ لَتَعَذرَ الْوُصُولُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحُقُوقِ)[٣].

وقال بعضُهم: أنزلَ اللهُ الميزانَ على هَيئَتِهِ في زمنِ نُوحٍ عليه السلام ولم يكن قبلَ ذلك. وقال بعضُهم: عرَّفَ اللهُ الناسَ ذلك على لسانِ بعضِ الأنبياء، وَقِيلَ: إلهامٌ الْهَمَهُمْ[٤] كيف يتَّخِذُون الميزانَ ويزنُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾؛ معناهُ: لئَلاَّ تَميلُوا وتَضِلُّوا وتُجاوزُوا الحدَّ في الميزان. وَقِيْلَ: معناهُ: لئلا تظلِمُوا وتأخُذوا الأكثرَ وتُعطوا الأقلَّ. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي سَوُّوا الميزانَ بالعدلِ والإنصافِ، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾؛ وَقِيلَ: معناهُ: أقِيمُوا ساقَ الميزانِ بالقسطِ ولا تَخونُوا من وَزْنِتِهِمْ له، ولا تبخَسُوا الوزنَ، وكلُّ شيءٍ نقَصتَهُ فقد أخسَرتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾؛ معناهُ: والأرضَ بسَطَها على الماءِ لجميعِ الخلقِ مِن الجنِّ والإنسان، مكَّنَها للأحياءِ، ويُدفَنُ فيها الموتَى، تدلُّ على وحدانيَّةِ اللهِ، وقال الشعبيُّ: (الأَنَامُ: كُلُّ ذِي رُوحٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾؛ أي في الأرضِ ألوانُ الفاكهةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾؛ أي ذاتُ الأغطيَةِ، وهي أوعيةُ التمرِ، وأكمامُ النَّخلَةِ فإغطاء ثَمرِها يكون في غُلفٍ ما لم يُشَقُّ. ومِن ذلك يقالُ للقَلَنْسُوَةِ: الأَكَمَةُ؛

---

(١) الحج / ١٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٥٣).

(٣) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٧٨.

(٤) في المخطوط: (الها الههم).

لأنها تُغَطِّي الرأسَ، وقال الحسنُ: (أَكْمَامُـهَا لِيفُـهَا)[١]، وقـال ابـنُ زيـدٍ: (أَكْمَامُـهَا: طَلْعُهَا قَبْلَ أَنْ يَنْفَتِقَ)[٢]، والحاصلُ أنَّ كلَّ ما يسترُ شـيئاً فـهو كُـمٌّ وَكُمَّـةٌ، ومنـه كُـمُّ القميص.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ يريدُ جميعَ الحبوب مما في الأرضِ من الحنطة والشعير وغيرهما، وقولهُ تعـالى (ذُو الْعَصْـفِ) أي ذُو الـورَق الأخضرِ الذي يصيرُ تِبْناً وتُقْتَـاتُ بـه البـهائمُ، ويسـمَّى ورقُ الـزرعِ عَصْفـاً لِخِفَّتِـهِ، وعصُوفُ الريحِ به مع ثبُوتِ الحب في مكانهِ. وَقِيْلَ: سُمي عَصْفاً لأنَّ الريحَ تذهبُ به في وقتِ حَاجَتِهم إلى تَمْييزِهِمْ الحبَّ من التِّبنِ.

وقوله تعالى: (وَالرَّيْحَانُ) يعني الورقَ في قول الأكـثرين، وقـال الحسـنُ: (هُـوَ رَيْحَانُكُمُ الَّذِي يُشَمُّ)[٣]، وقال مقاتلُ: (الرَّيْحَانُ هُوَ الْوَرَقُ بِلُغَةِ حِمْيَرَ)[٤]، كأنه قـال: والحبُّ ذو العَصْفِ والورَقِ، وقال سعيدُ بـن جبـير: (الرَّيْحَـانُ: الـزَّرْعُ وَيَكُـونُ فِـي سُنْبَلٍ)[٥].

وأما الْحَبُّ المذكورُ في الآيةِ، فهو ما يُلقَى في الأرضِ من البَذْر، والرَّيحانُ هو ما يُخلَقُ من الحب في سُنبُلٍ رزْقاً للعبادِ، وقد يُذكَـرُ الرَّيحـانُ بمعنـى الـورَق كمـا يقـولُ العربُ: خرَجنا نطلبُ ريحانَ اللهِ؛ أي رزقَهُ. والعَصْفُ: هو التِّبْنُ، والرَّيحانُ هو ثَمرَتُهُ. وعن ابنِ عبَّاس: (الرَّيْحَانُ هُوَ خُضْرَةُ الزَّرْعِ)[٦].

قرأ العامةُ: (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) كلٌّ بالرفعِ عطفـاً علـى الفاكهـةِ، والمعنى فيها الحبُّ وفيها الرَّيحانُ، ونصَبَها كلَّها ابنُ عامرٍ علـى معنـى خلـقَ الإنسـانَ وخلقَ هذه الأشياءَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٦٦).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٦٨).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٤).
(٤) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣٠٤.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٧).
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٤٨٦).

وقرأ أهلُ الكوفة إلاَّ عاصماً: (وَالرَّيْحَانِ) بالكسر عطفاً على (الْعَصْفِ) كأنه قال: والحبُّ ذو العصفِ وذو الرَّيحانِ، وهو الرزقُ الذي يخلَقُ في السُّنبل، فالريحانُ رزْقُ الناسِ، والعصفُ رزق الدواب، فذكرَ قوتَ الناسِ والأنعام[١].

ثم خاطبَ الجنَّ والإنسَ فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؛ وإنّما قالَ الخطابُ للجنِّ والإنس؛ لأن تلك الأيامَ فيما مضَى تشتملُ على الجنِّ والإنس، والمعنى: فبأيِّ نعمةٍ من نِعَمِ ربكُما تُكذّبان من هذه الأشياءِ المذكورة، فإنَّها كلَّها مما أنعمَ اللهُ بها عليكم، من دلالتِهِ إيَّاكم على توحيدِهِ، ومن رزقهِ إيَّاكم ما به قِوَامُكم.

وإنما خاطبَ الجنَّ والإنسَ لأنَّهما مُشتركان في الوعدِ والوعيدِ. وإنما كُرِّرَتْ هذه الآيةُ في هذه السُّورة تقديراً للنِّعمةِ وتأكيداً للتذكيرِ بها على عادةِ العرب في الإبلاغ والاتِّباع.

وقال الحسينُ بن الفضلِ: (التِّكْرَارُ لِطَرْدِ الْغَفْلَةِ وَتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ)[٢]. وَقِيْلَ: لَمَّا عدَّدَ اللهُ نعمةً بعد نعمةٍ، كرَّرَ هذا القولَ ترغيباً في الشُّكر، وتحذيراً من الكُفرِ والتكذيب بنِعَمِ اللهِ.

وهذه على وجهِ الحقيقة ليس بتكرار؛ لأنه ذكَرَ كلَّ واحدٍ منها عُقيبَ نعمةٍ لم يتقدَّمْ ذِكرُها. وعن جابر بن عبدِالله قالَ: (قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: [مَا لِي أرَاكُمْ سُكُوتاً ؟ لَلْجِنُّ كَانُوا أحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً، مَا قَرَأتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلاَّ قَالُوا: لاَ بشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ])[٣].

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٣-١٤.

(٢) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٠. وذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٤٩٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما. والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ج ٥ ص٥٩: حديث الترجمة (٢٣٩٦). وفي الدر المنثور: ج٧ ص٦٩٠؛ قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الافراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي خلقَ أصلَ الإنسانِ وهو آدمُ من طينٍ يابسٍ إذا نُقِرَ صَلَّ؛ أي صَوَّتَ كالفخَّار وهو الْخَـزَفُ الذي طُبخَ بالنار، يُسمَعُ منه الصوتُ إذا نُقِرَ وإذا اصْطَكَّ بعضهُ ببعضٍ. والمعنى: مِـن طينٍ يابسةٍ كالْخزَفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَـآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾؛ معنـاهُ: وخلـقَ أصلَ الجنِّ وهو الْجَانُّ أبو الجنِّ من مارجٍ من نارٍ، وهو الصَّافِي مـن لَـهَب النـار، لا دُخَّانَ فيه. وَقِيْلَ: من لَهَب من نارٍ مختلطٍ بسوَادِ النار. وَقِيْـلَ: إنـه لسـانُ النـار الـذي يكون في طرَفِها إذا التَهبت.

وقال مجاهدُ: (هُـوَ مَـا اخْتَلَـطَ بَعْضُـهُ ببَعْـضٍ مِـنَ اللَّـهَب الأَحْمَـرِ وَالأَصْفَـرِ وَالأَسْوَدِ الَّذِي يَعْلُو النَّارَ إذا أُوْقِدَتْ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَـرِجَ إذا اخْتَلَـطَ)[1]. وَقِيْـلَ: إنه نارٌ لا دخانَ لها تكون بين السَّماء الدُّنيا وبين حجاب دونَـها فـأديمُ السَّماء يُـرَى مـن ذلـكَ الحجـاب، ومـن تلـك النـار تكـون الصواعـقُ. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي مَشرقُ الشَّمسِ في الشِّتاء، ومشرقُها في الصَّيفِ، ومغربُها في الشِّتاء ومغربُها في الصَّيف، ويعـني هـو ربُّ المشرقَين وربُّ المغربَين. وَقِيْلَ: معناهُ: هـو ربُّ مشـرقِ الشـمس والقمرِ ومغرِبـهما. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي أرسلَ البَحرَين العـذبَ والمالِحَ بالإجراءِ في الأرضِ. ومَرَجْتَ الدابَّةَ إذا أرسَلتَها ترعَى، ويجوزُ أن يكون معنى مَرَجَ: خَلَطَ، ومنه الْمَرَجُ لاختلاطِ أشجارهِ، وقولهُ تعالى (يَلْتَقِيَان) أي يُلاقِي أحدُهما صاحبَهُ، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي بينهم حـاجزٌ مـن قُـدرَةِ اللهِ لا يبغِي العذبُ على المالحِ فيكونان عَذباً، ولا يبغِي المالِحُ عليه فيكونان مالحاً.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٠٥).

والمعنى: أنَّ اللهَ ذكرَ عظيمَ قُدرتهِ حيث خَلاَ البحرَ من العذب والمالح يلتقيان، وجعلَ بينَهما حاجزاً من قُدرتهِ وحِكمتِهِ، لا يبغِي أحدُهما على صاحبِهِ، فلا الملحَ يبغِي على العذب فيُفسِدهُ ولا العذبُ على الملح فيخلطُ بهِ. وقيل معنى قولهِ (لاَ يَبْغِيَان) أي لا يَطغيَانِ على الناسِ بالغرَق. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ؛ فيه بيانُ نِعَم البحرِ، واللُّؤلؤ معروفٌ وهو الكبارُ من جنسِ اللُّؤلؤ، والمَرْجَانُ: صِغَارُهُ، وإنما يخرُجان من الملحِ دونَ العذب، كاللُّقاحِ للملحِ، إلاّ أنه قالَ (يَخْرُجُ مِنْهُمَا) لأن ذلك لا يوجَدُ إلاَّ بحيث يكون العذبُ والملحُ جميعاً. وَقِيلَ: المرجَانُ: ضربٌ من الجوهرِ كالقُضْبَانِ يخرجُ من البحرِ.

وقال ابنُ عبَّاس: (يَخْلِقُ اللهُ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ مِنْ قَطْرِ الْمَطَرِ، وذلك أنَّ السماءَ إذا أمطَرَتْ فتحتِ الأصدافُ أفواهها على وجهِ الماء في البحرِ الملح، فما وقعَ من المطرِ في أفواهِها نزلَ إلى صدرِها فانعقدَ لُؤلؤاً)[(١)].

وقال السديُّ: (الْمَرْجَانُ الْخَرَزُ الأَحْمَرُ). وعن ابنِ مسعودٍ: (أنَّ الْمَرْجَانَ حَجَرٌ)[(٢)]. وذكرَ إنْ كانت في جوفهِ صدفةٌ، فأصابت قطرةٌ بعضَ النواةِ ولم تُصِبْ بعضَها، فكان حيث أصابَ القطرةَ من النواةِ لؤلؤةٌ وَسَائِرُهُ نواةٌ.

وسائرُ القرَّاء على أنَّ (يُخْرجُ) بضمِّ الياء وفتحِ الراء[(٣)]، وهو اختيارُ أبي عُبيدة وأبي حاتم؛ لأنه يُخرجُ ولا يخرجُ بنفسهِ. وقرأ (يَخْرُجُ) بفتحِ الياء وضمِّ الراء؛ لأنه إذا أخرِجَ خرجَ[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٤١).

(٣) في الحجة للقراءات السبعة: ج ٤ ص١٥؛ قال أبو علي الفارسي: (روى حسين عن أبي عمرو ﴿يُخرِجُ﴾ برفع الياء وكسر الراء، ﴿اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ نصباً).

(٤) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٥.

فإن قِيْلَ: كيف قال (يَخْرُجُ مِنْهُمَا) وإنما يخرجُ من أحدِهما وهو الملحُ ؟ قِيْلَ: هذا جائزٌ في كلامِ العرب أن يذكر شَيئان[١] ثم يخصُّ أحدَهما وهو يفعلُ دون الآخر[٢] كقوله تعالى ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾[٣] والرُّسل من الإنسِ دون الجنِّ. قال الكلبيُّ: (وَكَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾[٤] وَإنَّمَا هُوَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا). وَقِيْلَ: يخرجُ من ماءِ السَّماء ماءٌ وماء البحر. و﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ فيه بيانُ نِعَمِ الله تعالى بالسُّفن العظامِ التي ينتفعُ بها للتِّجاراتِ وغيرِها، الْمُنْشَآتُ: المرفوعاتُ الشِّراع، وما لم يُرفَعْ منها شِراعها فلا تكون مُنشَأةً. وَقِيْلَ: المنشآتُ هي اللَّواتي ابتدأ بهنَّ في الجري، والأعلامُ الجبالُ العظام، شبَّهَ السُّفن في البحرِ بالجبال في البرِّ.

وقرأ حمزةُ (الْمُنْشِآتُ) بكسر الشِّين، يعني المبتدئاتُ في السَّير اللاتي انسابَ جريُهن وسيرُهنَّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي كلُّ مَن على الأرضِ يَفنَى، وهذه كنايةٌ عن غيرِ مذكور، ومعنى الآية: كلُّ مَن دبَّ ودرجَ على الأرضِ من حيوانٍ فهو هالكٌ، وفي هذا منعٌ من الرُّكون إلى الدُّنيا والاغترار بها. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الأَرْضِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[٥] فَأَيْقَنَتِ الْمَلاَئِكَةُ بالْهَلاَكِ)[٦].

---

(١) توهم الناسخ وأسقط(يذكر شيئان) وأدرج فقط(شيئان). ينظر: معالم التنزيل: ص١٢٥٩.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٣؛ قال القرطبي: (لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما). وقال: (وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما). وقاله أبو علي في الحجة على القراء السبعة: ج ٤ ص١٥.

(٣) الأنعام / ١٣٠. (٤) نوح / ١٦.

(٥) القصص / ٨٨.

(٦) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ويبقى ربُّكَ، والوجهُ يُذكَرُ على وجهَين: أحدُهما: بعضُ الشَّي كوجهِ الإنسان، والآخر: يقتضِي الشيءَ العظيمَ في الذِّكر كما يقالُ: هذا وجهُ الرَّأي ووجهُ التَّدبير، ولَمَّا ثبتَ أنَّ اللهَ تعالى ليسَ بجسمٍ، كان المعنى: ويبقَى اللهُ الظاهرُ بأدلَّته كظُهور الإنسانِ بوجههِ.

وقولهُ تعالى: (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) أي ذُو العَظَمةِ والكبرياءِ واستحقاق المدحِ بإحسانهِ وإنعامهِ. والإكرامُ: إكرامهُ أنبياءَهُ وأولياءَهُ، فهو مُكرِمُهم بلُطفِه مع جلالهِ وعظَمتهِ.

وعن معاذ بن جبل قال: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ برَجُلٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَقُولُ: يَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:[قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ](١). وعن أنس ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [الِظُّوا بيَا ذا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ](٢). ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي لا يستغنِي عنه أهلُ السَّماء ولا أهلُ الأرضِ، قال أبو صالح: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ الرَّحْمَةَ، وَيَسْأَلُهُ مَنْ فِي الأَرْضِ الْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ، وَالْكُلُّ يَلْجَأُونَ إلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ حَوَائِجَهُمْ)(٣).

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: مِن شأنهِ أنه يُحيي ويُميتَ، ويرزُقَ، ويُعِزَّ ويُذِلَّ، ويُشفي مريضاً، ويجيبُ داعياً، ويعطِي سائلاً، ويغفِرُ ذنباً، ويكشِفُ كَرْباً إلى ما لا يُحصَى من أفعالهِ وإحداثهِ في خلقهِ ما شاءَ. وعن أبي الدَّرداءَ عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قَالَ: [مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَغْفِرَ ذنْباً وَيُفَرِّجَ كَرْباً وَيَرْفَعَ قَوْماً وَيَضَعَ آخَرِينَ](٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٢١-٣٢٢ شطر حديث طويل.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب الدعوات: الحديث(٣٥٢٥)، وقال: هذا حديث غريب. والإمام أحمد في المسند:ج٤ ص١٧٧ عن ربيعة بن عامر. وإسناده صحيح.

(٣) في الدر المنثور:ج٧ ص٦٩٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر) وذكره.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: المقدمة: الحديث (٢٠٢) عن أبي الدرداء، وإسناده حسن.=

وقال مجاهدُ: (هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يُجِيبُ دُعَاءَنَا، وَيُعْطِي سَائِلَنَا، وَيُشْفِي سَـقِيمَنَا، وَيَغْفِرُ ذُنُوبَنَا وَيَتُوبُ عَلَى قَوْمٍ، وَيُشْقِي آخَرِينَ)[1]. وَقِيْلَ: شأنهُ يخرجُ كـلَّ يـوم وليلـة ثلاثة عساكرَ: عسكراً من أصلاب الآباءِ إلى الأرحامِ، وعسكراً من الأرحامِ إلى الدُّنيا، وعسكراً من الدنيا إلى القبور، ثم يرحَلون جميعاً إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[2].

وحُكي: أنَّ بعضَ الملوكِ سألَ وزيرَهُ عن معنى هذه الآيةِ، فاستمهلَهُ إلى الغـدِ، ورجعَ الوزيرُ إلى دارهِ كئيباً لم يعرفْ ما يقولُ، فقالَ له غـلامٌ أسـودُ مـن غِلمَانِـهِ: يـا مولايَ ما أصابَكَ ؟ فزجرَهُ، فقالَ: يا مولاي أخبرْني فلعلَّ اللهَ يُسهِّلُ لك الفرجَ على يديَّ، فأخبرَهُ بذلك، فقالَ: عُدْ إلى الملكِ فقل له: إنَّ لي غُلاماً أسودَ إنْ أذنْتَ له فسَّـرَ لكَ هذه الآيةَ، ففعلَ ذلكَ. فدعَا الملكُ الغلامَ فسألَهُ عن ذلك، فقالَ: أيُّها الملِكُ؛ شأنُ اللهِ تعالى أنه يولِجُ الليلَ في النهارِ ويولِجُ النهارَ في الليلِ، ويُخـرِجُ الحـيَّ مـن الميِّـت، ويخرجُ الميتَ من الحيِّ، ويُشفِي مَريضاً ويُسقِمُ سَليماً، ويَبتَلِي معافًى، ويُعافِي مُبتَلِيـاً، ويذِلُّ عزيزاً ويُعِزُّ ذليلاً. فقال له الملكُ: أحسنتَ يا غلامُ فرَّجتَ عني. ثم أمـرَ الوزيـرَ فخلعَ ثيابَ الوزراء فكسَاها الغلامَ، فقال: يا مولاي هـذا شـأنُ اللهِ تعـالى[3] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ هذا وعيدٌ من اللهِ تعالى للخلق بالمحاسبة، كقول القائلِ: لأتفرَّغنَّ لكَ وما بـه شـغلٌ، وهـذا قـولُ ابـنِ عبـاس والضحَّاك[4]، وقال الزجاجُ: (مَعْنَاهُ: سَنَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ بَعْدَ التَّرْكِ وَالإِمْهَالِ، وَنَـأْخُذُ

=والطبراني في الأوسـط عنـه: ج ٤ ص١٠٩: الحديـث (٣١٦٤). وأخرجـه في الأوسـط: ج ٧ ص٣٢٥: الحديث (٦٦١٥) من طريق منيب بن عبدالله الأزدي. وفي مجمع الزوائـد: ج ٧ ص١١٧؛ قال الهيثمي: (اخرجه الطبراني في الكبير والأوسط (عن طريق منيب) وفيه من لم أعرفه).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٥٠).

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٤.

(٣) ونقل هذه الأقوال أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٤-١٨٥.

(٤) في الدر المنثور: ج ٧ ص٧٠١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابـن جريـر والضحـاك)، وقال: (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيـهقي في الأسمـاء والصفـات عـن ابـن عباس).

فِي أَمْرِكُمْ وَنَجْزِيَكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ بَعْدَ طُولِ الإِمْهَالِ)[(١)]. وهذا على وجهِ التهديدِ على ما جرَتْ به العاداتُ في استعمال هذا اللفظِ، كما يقولُ الرجُل: سأفرُغُ لغُلامِي، يريد سأجعلُ قَصدِي له، ولا يريدُ بذلك الفراغَ من شُغلٍ هو فيه.

قرأ أبَي (سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ). وقرأ الأعمشُ (سَيُفْرَغُ لَكُمْ) بياءٍ مضمومة وفتحِ الرَّاء[(٢)]. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف بياءٍ مفتوحة وبضمِّ الراء، وقرأ الباقون بنونٍ مفتوحة وضمِّ الراء[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ) الثَّقَلان الجنُّ والإنسُ، يدلُّ على ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى بعد ذلك، سُمِّيا ثقلين لأنَّهما ثقلٌ على الأرضِ أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[(٤)]. وقال جعفرُ الصَّادق: (سُمِّيَ الْجِنُّ وَالإِنْسُ ثَقَلَيْنِ؛ لأَنَّهُمَا مُثْقَلاَنِ بالذُّنُوب)[(٥)]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾؛ في هذا بيانُ ضَعفِ الخلائقِ عن دفعِ ما يـنْزِلُ بهم من قضاءِ الله وعذابهِ، يقولُ: إنْ قَدَرْتُم على الخروجِ من نواحِي السَّموات والأرض فاخرُجوا هَرباً مما ينْزِلُ بكم في الدُّنيا، لا تقدِرُون أن تخرجُوا إلاّ بسُلطان يعطيكم اللهُ من قوَّةٍ وحُجةٍ، فحيث ما كُنتم شاهَدتُم بسُلطان اللهِ تعالى، وذلك يدلُّكم على وحدانيَّة اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إن استطعتُم أن تَهرُبوا من الموتِ بالخروجِ من أقطار السموات والأرض فاهربُوا واخرجوا. والمعنى: أنَّكم حيث ما كنتم أدرَكَكم الموتُ، ولن تستطِيعُوا أن تَهربوا منه.

وَقولُه تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي لا تنفُذون إلاّ بمُلكي، أي حيث ما كنتم وحيث ما توجَّهتم فثَمَّ مُلكِي وقُدرَتِي. وأقطارُ السموات

(١) قاله الزجاج بإيجاز في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٧٨.
(٢) قراءة على ما لم يسمَّ فاعلهُ، ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج ١٧ ص١٦٩.
(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٦٩.
(٤) الزلزلة / ٢ .
(٥) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان:ج٩ ص١٨٦. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٠.

والأرضِ: أطرَافُهما ونواحيهما. وَقِيْلَ في معنى هذه الآيةِ: يأمرُ الله تعالى الملائكةَ يومَ القيامةِ أن تَحُفَّ بأقطار السموات والأرضِ، ثم يقالُ للجنِّ والإنسِ: إن استطعتُم أن تَنفذُوا من أقطار السَّموات والأرضِ هَرباً من الحساب والعقاب فاهرُبوا. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ ؛ أي يرسِلُ على مَن استحقَّ منكما بمعاصيهِ لهبٌ من النار، والشُّوَاظُ: اللهبُ الذي لا دخانَ فيه. وقرأ ابنُ كثير (شِوَاظٌ) بكسر الشين وهي لغةُ أهلِ مكة، قال حسانُ يهجو أميَّة بن أبي الصَّلت:

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لَهَا بِذُلٍّ بقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنُحَاسٌ)؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: (وَنُحَاسٍ) بالخفض عَطفاً على النار، وقرأ الباقون بالرفع عطفاً على الشُّواظ. واختلَفُوا في معنى النُّحاس[1]، قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ الدُّخَانُ)[2] وأكثرُ القراءةِ فيه بالرفع عَطفاً على (شُواظٌ)، والمعنى: يرسلُ عليكما شِوَاظٌ، ويرسل نُحاسٌ؛ أي يرسِلُ هذا مرَّة وهذا مرَّةً، ويجوز أن يُرسَلا معاً من غيرِ أن يمتزجَ أحدُهما بالآخر. وَقِيْلَ: النحاسُ هو الصُّفْرُ المذابُ يُصَبُّ على رُؤوسِهم، وقال مقاتلُ: (هِيَ خَمْسَةُ أنْهَار مِنْ صُفْرٍ مُذابٍ تَجْرِي عَلَى رُؤُوسِ أهْلِ النَّار)[3]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فلا تمتنِعَانِ عن ما يرادُ بكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ وجهُ إنعامِ الله تعالى علَينا في إنزال آيات الوعيدِ: أنه تعالى لَمَّا حذرَنا من العذاب بأبلَغِ أسباب التحذيرِ حتى نتَّقِي المَعاصِي خوفاً من عذابهِ، ونرغَبُ في الطاعاتِ طَمعاً في ثوابهِ، كان ذلك نعمةً منه علينا فلذلك قالَ تعالى (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِكُمَا تُكَذِّبَان).

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٤ ص٢٠٩. والحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٧٥).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٠٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إذا انشقَّت وذابَتْ حتى صارَتْ حمراءَ كلَونِ الوردةِ الحمراء أو كالدُّهنِ الأحمر من نار جهنَّم مع عِظَمِ السَّماء وكبرها، فكيف بأبدانِكم الضَّعيفة في ذلك اليوم، وهذا كما رُوي عن عليٍّ ﷺ: أنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْحَدَّادِينَ فَقَالَ: (أَمَّا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْحَدَّادِينَ أَحَقُّ النَّاسِ بالاتِّعَاظِ وَالاعْتِبَار، أمَا تَرَوْنَ تَأْثِيرَ هَذِهِ النَّار الضَّعِيفَةِ فِي هَذَا الْحَدِيدِ الشَّدِيدِ ؟ فَكَيْفَ تَأْثِيرُ تِلْكَ النَّار الْعَظِيمَةِ فِي هَذِهِ الأَبْدَانِ الضَّعِيفَةِ).

ويقالُ في تشبيهِ السَّماء بالوردةِ: أنَّها تتكوَّنُ في ذلك اليوم، قال الحسنُ: (إنَّ السَّمَاءَ أوَّلَ مَا تَنْشَقُّ تَحْمَرُّ ثُمَّ تَصْفَرُّ ثُمَّ تَخْضَرُّ كَالْفَرَس الْوَرْدِ[١]، تَكُونُ فِي الرَّبيعِ وَرْدَةً إلَى الصُّفْرَةِ[٢]، فَإذا اشْتَدَّتْ كَانَ الشِّتَاءُ كَانَتْ وَرْدَةً حَمْرَاء، فَإذا كَانَ الْخَرِيفُ كَانَتْ وَرْدَةً أغْبَرَ)[٣].

وشبَّهَها بالدهان المختلفة التي تُصَبُّ بعضُها على بعضٍ، والدُّهْنُ والدِّهَانُ واحدٌ، قال قتادةُ: (إنَّ السَّمَاءَ الْيَوْمَ خَضْرَاءُ وَسَتَكُونُ يوم الْقِيَامَةِ حَمْرَاءَ كَالدِّهَان)[٤]. وَقِيلَ: إنَّ الدهانَ جمعُ الدُّهن، قال عطاءُ:(يَعْنِي عَصِيرَ الذائِب)، وقال ابن جُريج: (مَعْنَاهُ: أنَّ السَّمَاءَ تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّهْنُ الذائِبُ وَذلِكَ حِينَ يُصِيبُهَا حَرُّ نَار جَهَنَّمَ). ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) الفرَسُ الوَرْدُ: هو بين الكُمَيْتِ والأشْقَر، لونه أحمرٌ يضرب إلى الصفرة. أي كانت كلون الفرس الوردة والكميت الورد يتلون، فيكون كما قال. ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٥ ص٨٠. ولسان العرب: ج ١ ص٢٦٧: (ورد).

(٢) كأن في الكلام سقط، بمعنى: (كفَرسِ الورد، أو كالفَرسِ الورديٍّ يكون في الربيع وردة إلى الصفراء...).

(٣) أصل العبارة كما في معاني القرآن: ج ٣ ص١١٧؛ قال الفراء: (أراد بالوردة: الفَرسُ، الوردة تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء، فإذا كان بعد كانت وردة إلى الغُبْرَةِ، فشبَّهَ تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٥٨٨).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ يُسـأَلُ سُؤالَ استفهامٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُظهرُ على كلِّ مُجرمٍ علامةً تدلُّ على معصيتـهِ، وعلى كلِّ مُطيعٍ علامةً على إطاعتـهِ، لأنَّ اللهَ تعالى قـال بعـدَ هـذه الآيـة: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾؛ أي بعَلامَتِهم مـن سَوادِ الوُجـوهِ وزُرقـةِ الأعيُـنِ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾، فيُجعَـلُ أقدامُـهم مغلولةً إلى نواصِيهم مِن خَلْفٍ ويلقَونَ في النار كذلك، والناصيةُ: شَعرُ مقدمِ الـرَّأسِ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ويقـال للمجرمـين عندمـا يُقذفـون في النـار: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ يعـني المشـركين. قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ معناهُ: يطُوفون بين أطباقِ النِّيران وبين ماءٍ حارٍّ قد انتـهَى حـرُّهُ، إذا استغَاثُوا من الحميمِ من النار، جُعِلَ غِيَاثُهم الحميمُ الآخر، وإذا استغَاثُوا مـن الحميـمِ جُعِلَ غِياثُهم النارُ، فيُطاف بهم مرَّة إلى الحميمِ ومرَّةً إلى النار.

يقال: آنَى يَأْنِي أناً فهو آن، إذا انتهَى في النُّضجِ والحرارةِ، قال قتادةُ:(طُبخَ مُنْـذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)[1]. حدَّثنا المردوية الصانع قال: صلَّى بنا الإمـامُ صـلاةَ الصُّبحِ، فقـرأ فيـها سُـورةَ الرَّحمـن ومعَنـا علـيُّ بـنُ الفُضيـلِ[2]، فلمـا قـرأ (يُعْـرَفُ الْمُجْرِمُونَ بسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ) خَـرَّ مَغشـيّاً عليـه حتـى فَزعنـا مـن الصَّلاة، فقُلنا له بعدَ ذلك: يا عليُّ أمَا سَمعتَ الإمـامَ يقـولُ (حُـورٌ مَقْصُـورَاتٌ فِـي الْخِيَـامِ) قـالَ: شَـغَلَنِي عنـها (يُعْـرَفُ الْمُجْرِمُـونَ بسِـيمَاهُمْ فَيُؤْخَـذُ بـالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ)[3]. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٠٤).

(٢) علي بن الفضيل بن عياض، قـال النسـائي: (ثقـة، مـأمون) ترجـم لـه ابـن حجـر في تـهذيب التهذيب: الرقم (٤٩٣٣)، وقال: (قال ابن المبارك: خير الناس يعني في ذلك الوقـت فضيـل بـن عياض، وابنه علي خير منه، وأخباره في الخوف شهيرة، وفضائله كثيرة).

(٣) ذكر القصة أبـو نعيـم في حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصفيـاء: ج ٨ ص٢٩٧، ترجمـة علـي بـن الفضيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولِمَن خافَ وُقوفَهُ في عرَصَاتِ القيامةِ بين يَدَي اللهِ تعالى، فترَكَ المعصيةَ رهبةً من اللهِ تعالى له جنَّتان بُستَانَان من الياقوتِ الأحمرِ والزمُرُّد الأخضر، تُرابُهما الكافورُ والعنبرُ، وحصَاهُما المسكُ الأذفَرُ، كلُّ بستانٍ منهما مسيرةُ مائةِ سنة، في وسطِ كلِّ بستانٍ دارٌ من نور، وقال محمَّد بن علي الترمذي[1]: (جَنَّةٌ دَاخِلَ قَصْرِهِ لِخَوْفِهِ، وَجَنَّةٌ خَارِجَ قَصْرِهِ لِتَرْكِهِ)[2]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

وفي الحديث: [أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إلَى الْمَعْصِيَةِ، فَإذا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَدَرَ عَلَيْهَا وتَذكَّرَ مَا فِي ارْتِكَابهَا مِنَ الْعِقَاب، وَمَا فِي تَرْكِهَا مِنَ الثَّوَاب، فَتَركَهَا فَلَهُ جَنَّتَان][3] هذه صِفتُهما: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ذواتَا أغصان، واحدُها فَنَنٌ وهو الغصنُ المستقيم طُولاً. وقال الزجَّاج: (الأَفْنَانُ: الأَلْوَانُ وَالأَغْصَانُ)[4] أي ذوائي الألوان وأصنافٍ من الفاكهةِ لا يُعدَمُ فيه لونٌ من ألوانِها، واحدُها فَنٌّ، وجمعَ عطاءُ بين القولَين فقالَ: (يُرِيدُ فِي كُلِّ غُصْنٍ فُنُونٌ مِنَ الْفَاكِهَةِ)[5]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وفي ذكرِ الأغصان بيانُ كثرَةِ الأشجار، وبكثرةِ الأشجار تمامُ حال البُستان، فإنَّ البستانَ لا يكملُ إلاَّ بكثرةِ الأشجار، والأشجارُ لا تحسُن إلاَّ بكثرةِ الأغصان، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي في البساتين عينان تجريان، إحداهما: السَّلْسَبيلُ، والأخرى: التَّسْنِيمُ، تجرِيان في غيرِ شقٍّ ولا أخدُودٍ. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾ .

---

(١) محمد بن علي بن الحسن المؤذن، أبو عبدالله الترمذي المعروف بالحكيم. كان إماماً من أئمة المسلمين، له المصنفات في أصول الدين ومعاني الأحاديث، وله كتاب (نوادر الأصول) ينظر: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ج ٢١ ص٢٠: الرقم (١٨).

(٢) ذكره الثعلبي عنه في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٨٩: بلفظ: (جنةٌ لخوفهِ ربَّه، وجنَّةٌ بتركهِ شهوتَهُ).

(٣) على ما يبدو أن هذا ليس لفظ حديث، وإنما هو معنى المراد يطلبه المصنف رحمه الله. ولم أقف على لفظ أصله.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٨١.

(٥) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص١٢٦٣.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي نوعَـــان وصِنفَان، حلوٌ وحامضٌ، وأحمرٌ وأصفرٌ، ورَطبٌ ويابسٌ. ويقال: صِنفَان: صنفٌ عَهِدُوهُ في الدُّنيا، وصنفٌ لم يَعهَدوهُ ولا خطرَ في قلوبهم، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ؛ أي جالسِين جلسةَ الملوكِ مُكرَمِين على فُرُشٍ بَطَائِنُها من استبرق، البطانَةُ: الصَّفحَةُ مما يلِي الأرضَ في البطانةِ، والاستبرقُ: الدِّيبَاجُ المنسوجُ بالذهب.

وإنما ذُكرت البطائنُ من استبرقَ لتعرف أنَّ البطائنَ إذا كانت هكذا، فالظاهرُ لا شكَّ أنّها أشرفُ منها على ما عليهِ العادةُ، وقال أبو هريرة ﷺ: (هَـذِهِ الْبَطَـائِنُ؛ فَمَا ظَنُّكُمْ بالظَّوَاهِرِ)[١]. وقيل لسعيدِ بن جُبير: الْبَطَائِنُ مِنْ اسْتَبْرَقَ فَمَا الظَّوَاهِرُ؟ قَالَ: (هَذا مِمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾[٢])[٣]. وقال ابنُ عبَّاس: (وَصفَ الْبَطَائِنَ وَتَرَكَ الظَّوَاهِرَ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي الأَرْضِ أحَدٌ يَعْرِفُ مَا الظَّوَاهِرُ ؟)[٤].

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ثَمرُهما قريبٌ مُتَناوَلُه، يناوَلُهُ القائمُ والقاعد والمضطجعُ، يأخذهُ كيف ما أرادَ، ويدنُو إلى أفواهِهم حتى يناولونَهُ بالأفواهِ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ؛ أي في هائين الجنَّتين وما حولهما من الجنان حورٌ غاضَّاتُ الأعيُنِ، قد قَصَرْنَ أطرافَهُنَّ على أزواجِهن لا ينظُرنَ إلى غيرِهم ولا يَبغِينَ بهم بدَلاً.

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي عن أبي هريرة وابن مسعود في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٠. وأخرجه الطبري عن ابن مسعود في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٢٩).

(٢) السجدة / ١٧.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٣١).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٢.

والطَّرْفُ: جَفْنُ العينِ، ويجوز أن يكون معنى (فِيهنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) أي في الفُرُشِ التي بَطائِنُها من استبرقَ، وقال زيدٌ: (إنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ تَقُولُ لِزَوْجِهَا: وَعِزَّ رَبِي مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئاً أحْسَنَ مِنْكَ، فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَنِي زَوْجَكَ وَجَعَلَكَ زَوْجِي)(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ ؛ أي لم يَفْضُضْهُنَّ، والطَّمْثُ: هو النكاحُ بالتدميةِ، وامرأةٌ طَامِئَةٌ؛ أي حائضٌ، وطَمَثْتَ الجارية إذا افْتَرَعتَها، والمعنى: لم يَغْشَهُنَّ ولا يُجامِعهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ؛ لأنَّهن خَلَقَهُنَّ في الجنَّة، وَقِيلَ: الطمثُ هو الْمَسُّ، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ ؛ أي كأنَّهن في صَفاءِ الياقوتِ وبياضِ المرجان، والمرجانُ: هو صغارُ اللُّؤلؤ وهو أشدُّ بَياضاً من كبارهِ. وعن عبدِالله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ: [أنَّ الْمَرْأةَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ يُرَى بَيَاضُ مُخِّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً مِنْ حَرِيرٍ](٢)، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ ؛ أي ما جزاءُ مَن أحسنَ في الدُّنيا إلاَّ أن يُحسَنَ إليه في الآخرةِ، قال ابنُ عباس: (هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَعَمِلَ بمَا جَاءَ بهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إلاَّ الْجَنَّةُ)(٣). وعن ابن عمرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [هَلْ جَزَاءُ مَنْ أنْعَمْتُ عَلَيْهِ بمَعْرِفَتِي وَتَوْحِيدِي إلاَّ أنْ أسْكِنَهُ جَنَّتِي وَحَضِيرَةَ قُدْسِي بِرَحْمَتِي](٤). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٣٦).

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب صفة الجنة: الحديث (٢٥٣٣). وأبو الشيخ في العَظَمة بلفظ قريب منه: ص٢٠٧: الحديث (٧/ ٥٨١).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٤.

(٤) بلفظ قريب رواه البيهقي في شعب الإيمان: ج ١ ص٣٧٢: الحديث (٤٢٧)؛ وقال: (تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفي هذا، وهو منكر). وفي الدر المنثور: ج ٧ ص٧١٣-٧١٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبدالله، وأخرجه الحكيم الترمذي والبغوي في التفسير والديلمي في الفردوس عن أنس، وأخرجه البخاري في تاريخه عن علي بن أبي طالب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وله جنَّتان سِوَى الجنَّتين الأولَيَين، وهما دون الأولين. قال بعضُهم: أرادَ بالجنَّتين الأولين جنَّتين في العُلُوِّ، وأراد بهذين جنَّتين في السُّفلِ، قال ﷺ: [هُمَا جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ فِضَّةٍ][١]. وَقِيْلَ: معناهُ: (ومِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان) أي أقربُ إلى قصرهِ ومَجالسهِ من الجنَّتين الأولين، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي خَضراوَان تضربُ خُضرتُهما من الرَّائي إلى السَّواد، وذلك أحسنُ ما يكون في الْخُضرةِ أولاهم الأسودُ، يقال: ادْهَامَّ الزرعُ إذا علاهُ السَّواد رَياً. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي فوَّارتان بالماءِ من الامتلاءِ، تنضخُ على أولياءِ الله بالمِسْكِ والعنبرِ والكافور والخيرِ والبركة، بخلافِ العَينين للأولين، والنضخُ أكثر من النضحِ[٢]، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي فيهما ألوانُ الفاكهةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرُمَّانٌ) يستدلُّ لأبي حنيفة أنَّ النخلَ والرُّمان ليسا من الفاكهةِ؛ لأن الشيءَ لا يعطفُ على نفسهِ، وعند أبي يوسفَ ومحمَّد هما من الفاكهةِ، وإنَّ عَطفَهما على الفاكهةِ لزيادةِ معنى فيهما لا يوجدُ في سائرِ الفواكهِ، كما في قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[٣]. ورُوي: أنَّ نخيلَ الجنةِ: عُروقُها من فضَّة، وجذوعُها ذهبٍ، وسقفها حُلَلٌ، وثمرُها أحلَى من العسلِ وألينُ من الزُّبد، ليس له عجمٌ[٤]. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب من دونهما جنتان: الحديث (٤٨٧٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٢٩٦/ ١٨١٠).

(٢) النضحُ بالمهملة: الرشُّ والرسْحُ، وبالمعجمة: فوران الماء.

(٣) البقرة / ٩٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٦٧٦) عن سعيد بن جبير، وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ قرأ أبو رَجاء (خيِّرَاتٌ) بالتشديدِ، وهما لُغتان مثل هَين وهيِّنٍ ولِين وليِّنٍ، وعن أمِّ سلمَةَ قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أخبرْني عَنْ قَوْلِهِ (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) قَالَ: [خَيِّرَاتُ الأَخْلاَقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ][1]. وَقِيْلَ: خيِّراتٌ فاضلات مختاراتٌ ليس بذربَاتٍ ولا دَفواتٍ ولا بَحِراتٍ ولا مُتسلِّطاتٍ ولا طمَّاحَاتٍ ولا طوَّافات في الطُّرق، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ الحورُ البيضُ الحسانُ البياضِ، والمقصوراتُ هن المحجوباتُ المحبوسات والْمَصُونَاتُ. والخِيَامُ: جمعُ خيمةٍ، وهي خيمةٌ من دُرَّةٍ مجوَّفةٍ فيها أربعةُ آلافِ مِصراعٍ من ذهبٍ، طولُ الخيمةِ في السَّماء ستُّون ميلاً، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ لا يراهم الآخَرُون. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ يعني أنَّ صِفَتَهُنَّ كصفةِ القاصرات الطَّرف. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ قال أبو عُبيدة: (الرَّفْرَفُ: البُسُطُ)، قاله الضحَّاكُ ومقاتلُ[2] والحسن[3]. وقال الزجَّاجُ: (الرَّفْرَفُ هَهُنَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ)[4]. وَقِيْلَ: الرَّفرَفُ الوسائدُ. وأما العبقريُّ: فهو البُسُطُ من الزَّرَابيِّ وغيرها، وكلُّ ما بُولِغَ في وَصفهِ فهو عبقريٌّ، وأصلهُ أنَّ عَبْقَرِيَّ اسمُ بلدٍ كان يُوَشَّى فيها البُسُطُ، وكانت العربُ تعتقدُ أنَّ أفضلَ البُسُطِ ما نُسِجَ بعَبْقَرَ، فأضافَهُ اللهُ تعالى على عادَتِهم. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج٤: الحديث(٣١٦٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي).

(٢) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣١٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٢٦).

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٨٣.

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي عَظُمَــتِ البركةُ في اسم ربكَ، فاطلبُوا البركةَ في كلِّ شيء يُذكَرُ فيه اسمهُ، قــرأ ابــنُ عــامر (ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)[1].

آخر تفسير سورة (**الرحمن**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) قاله أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة: ج ٤ ص١٩.

سُورَةُ الْوَاقِعَـــة

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةُ أَحْرُفٍ، وَثَمَانُمِائَـةٍ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَتِسْعُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْوَاقِعَةَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَـافِلِينَ](١)، وَقَـالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ](٢). وعن مسروق قالَ: (مَنْ أرَادَ أنْ يَعْلَمَ نَبَأَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَنَبَأَ أهْلِ الْجَنَّةِ، وَنَبَأَ أهْـلِ النَّـار، وَنَبَـأَ الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ، فَلْيَقْرَأ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ)(٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: إذا قَـامَتِ الْقِيَامَةُ)(٤)، والواقعةُ اسمُ القيامةِ، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: إذا نزَلـتِ الصَّيحَـةُ وتلـك النفخـةُ الآخرة.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد في فضائله وابن الضريس والحرث بن أبي أسـامة وأبـو يعلى وابـن مردويـه والبيـهقي في شـعب الإيمـان عـن ابـن مسـعود ﷺ) وقال: (أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما). وفي المطالب العالية بزوائد المسـانيد الثمانية: ج ٣ ص٣٨٣: الحديث (٣٧٦٥): نسبه ابن حجر للحـارث. وقـال البوصـيري: (رواه الحارث عن العباس بن الفضل، وهو ضعيف).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص١٩٩. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٩٥.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٤٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لِمَجيئها وظُهورها كاذبةٌ ولا ردٌّ ولا خلاف، وقوله (رَافِعَةٌ) أي تخفِضُ ناساً وترفعُ آخرين، قال عطاءُ: (تَخْفِضُ أقْوَاماً كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرَفَّعِينَ، وَتَرْفَعُ أقْوَاماً كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَّضِعِينَ). وَقِيْلَ: تخفضُ قوماً إلى النار، وترفعُ آخرين إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي زُلزلَتِ الأرضُ ورُجِّعَتْ وتحرَّكت حركةً شديدة حتى ينهدمَ كلُّ بناءٍ على وجهِ الأرض. قولُهُ: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي فُتَّتْ فَتّاً فصارت كالدَّقيق الْمَبْسُوس وهي المبلولُ، والبَسِيسَةُ عند العرب الدقيقُ والسَّويقُ يُلَتُّ ويُتَّخذ زَاداً. قِيْلَ: إنَّ الجبالَ تصيرُ يومئذٍ كالدَّقيق أو السَّويق.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي صَارَتْ غُباراً متفرِّقاً كالذي يسفعُ من حوافرِ الدَّواب، ويجولُ في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دخلَ من الكُوَّةِ وهو الهباءُ، فيَقبضُ القابضُ فلا يحصِّلُ بيدِه، وقرأ النخعيُّ (مُنْبَتّاً) بالتاء أي مُنقطِعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وكنتم يومئذٍ أصْنَافاً ثلاثةً، ثم فسَّرَهم فقالَ اللهُ: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ يعني الذين يُعطَون كُتُبَهم بأيمانِهم. وَقِيْلَ: همُ الذين يُسلَكُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هم أصحابُ الشُّؤْمِ والتكذيب، وَقِيْلَ: هم الذين يُعطَون كُتبَهم بشِمَالهم، ويُسلَكُ بهم طريقَ الشِّمال إلى النار، ويقالُ لليد اليُسرى الشُّوْمَاءَ، قال الشاعرُ:

الشَّتْمُ وَالشَّرُّ فِي شُوْمَاءِ يَدَيْكَ لَهُمْ وَفِي يَمِينِكَ مَاءُ الْمُزْنِ وَالضَّرْب

ومنه الشَّامُ واليمنُ؛ لأن اليمنَ على يمينِ الكعبةِ، والشامُ على شِمَالِها إذا دخلتَ الحِجْرَ تحت الميزاب. وَقِيْلَ: هم الذين كانوا على شِمَالِ آدمَ عندما أخرجَ الذُّريةَ، وقال اللهُ لَهم: (هَؤُلاَءِ فِي النَّارِ وَلاَ أُبَالِي)[1].

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠١.

وقوله تعالى: (مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) و(مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) تعجيبٌ لشأن أصحاب الْمَيمَنَةِ في الخيرِ، والترغيبُ في طريقتِهم، كما يقالُ: فقيهٌ أيُّ فقيهٍ، وتعظيمٌ لشَرِّ أصحاب المشأمة والتحذيرُ عن طريقتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾؛ بيانٌ للصِّنفِ الثالثِ، والمعنى: والسَّابقون في الدُّنيا إلى الطاعاتِ، هم السَّابقون في العُقبَى إلى الدرجاتِ. وَقِيلَ: هم الذين سَبَقوا إلى توحيدِ الله والإيمانِ برسوله.

وقال ابنُ سِيرين: (هُمُ الَّذِينَ صَلَّوا إلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَشَهِدُوا بَدْراً)[1]، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾[2]، وقال ابنُ عبَّاس: (هُمُ السَّابِقُونَ إلَى الْهِجْرَةِ)[3]، وقال عليٌّ ﷺ: (هُمُ السَّابِقُونَ إلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ)[4]، وقال ابنُ جبير: (الْمُسَارِعُونَ إلَى التَّوْبَةِ وَإلَى أعْمَالِ الْبِرِّ)[5]، ونظيرهُ ﴿سَابِقُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِكُمْ﴾[6]، وقال ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[7].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾؛ أي هم المقرَّبُون إلى كرامةِ الله تعالى وجزيلِ ثوابهِ في أعلَى الدرجاتِ، ثم أخبرَ أين محِلُّهم فقالَ (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾؛ أي جماعةٌ من أوائلِ الأمم مِمَّن صدَّق بالنبيِّين من ولدِ آدم إلى زمان نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ١٤﴾؛ أي مِن هذه الأمَّة، وذلك أنَّ الذين عَايَنُوا جميعَ النبيِّين وصدَّقُوا بهم أكثرُ ممن عايَنَ نبيَّنا ﷺ، ألاَ ترَى إلى قولهِ تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[8] هؤلاءِ سِوَى مَن آمنَ بجميعِ الأنبياء وصدَّقهم، والثُّلَّةُ في اللغة: هي القِطْعَةُ، الكثرةُ من النَّاسِ، والجماعةُ الذين لا يُحصَى عددُهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٧٧٠).

(٢) التوبة / ١٠٠ .

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٢.

(٤) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٢.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص١٩٩.

(٦) الحديد / ٢١. (٧) المؤمنون / ٦١. (٨) الصافات / ١٤٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ ؛ أي على سُرُرٍ منسُوجَةٍ بقُضبَانِ الذهب والفضة والجواهر، قد أُدخِلَ بعضُها في البعضِ مضاعفةً. قال الأعشَى:

وَمِـــــنْ نَسْـــــجِ دَاوُودَ مَوْضُونَـــــةً ... تُسَـــاقُ مَـــعَ الْحَـــيِّ عِـــيراً فَعِـــيرَا

وإنما قالَ (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ) لأنَّها إذا كانت على هذهِ الصِّفَـةِ، كـانت أنعـمَ وألينَ من السُّرُر التي تُعمَلُ من الخشب، قال الكلبيُّ: (طُولُ كُلِّ سَرِيرٍ ثَلاَثُمِائَـةِ ذِرَاعٍ، فَإذا أرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْـهَا تَوَاضَعَـتْ، فَـإذا جَلَـسَ عَلَيْـهَا ارْتَفَعَـتْ)[(١)]. وقـالَ الضَّحاكُ:(مَوْضُونَةٌ: أيْ مَصْفُوفَـةٌ)[(٢)]، يقـالُ: آجُـرٌّ مَوْضُـونٌ إذا صُـفَّ بعضـهُ علـى بعضٍ[(٣)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ ؛ أي جَالِسـين عليـها جلسةَ الملوكِ للرَّاحةِ مُتقَابلِينَ، يقـال بعضُـهم بعضـاً في الزِّيـادة: إذا اشـتهَى أحدُهـم حديثَ صاحبِهِ، ألقَى اللهُ في نفسِ الآخرِ مثلَ ذلك، وأمَـرَ كـلُّ واحـدٍ منـهم بسَـريره فأُخرِجَ على باب مَنْزلِه، ثم جلَسَا على سَريرَيهما يتحدَّثان، يسمعُ كـلُّ واحـدٍ منـهما حديثَ صاحبِهِ وإن بَعُدَ عنهُ، وإذا شاؤوا سارَتْ سريرُهم إلى حيث يشَاؤونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ ؛ أي يطـوفُ عليـهم للخِدمَةِ غِلمَانٌ لا يهرَمُون ولا يتغيَّرون ولا يموتون، خُلِقُـوا للخُلـودِ وهـم دَائِمُـون، ويقالُ: معنى (مُخَلَّدُونَ) مقرَّطُون مُسَوَّرونَ من الْخِلْـدَةِ وهـي الْحُلِـيُّ، يقـالُ: خَلَّـدَ جَاريَتَهُ إذا أحْلاَهَا بالْخُلْدِ وهو القُرْطُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ ؛ الأكـوابُ جمـع كُـوبٍ، وهـي الكـيزانُ العِظَامُ المدوَّرَةِ الرؤوس التي لا آذانَ لها ولا خرطومَ ولا عُـرًى، والأبـاريقُ والأوانِـي التي لها عُرًى وخراطيمُ، واحدها إبريقٌ، وهو الذي يَبرقُ من صفائـهِ وحُسـنهِ وبريـقِ لَونهِ.

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣.

(٢) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٦.

(٣) نقله الثعلبي عن ابن عباس، ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾؛ الكأسُ: الإناءُ الذي فيه الشَّرابُ، والْمَعِينُ: الخمرُ الذي يجري من العُيون الظَّاهرةِ لا في الأُخدُودِ، والمعنى: وكأسٍ من خمرٍ جاريةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي لا يُصيبُهم من شربها صداعٌ كما يكون في شُرب خمرِ الدُّنيا، ولا تُنْزِفُ عقولَهم، يقال للرَّجُلِ إذا سَكِرَ: نَزَفَ عقلهُ، والنَّزيفُ هو السُّكرانُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ معناه: ويُؤتَونَ بفاكهةٍ مما يتخيَّرون ليس لها فناءٌ ولا نَوَى، ظاهرُها مثلُ باطنِها، وباطِنُها مثلُ ظاهرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي يُؤتَون بلحم طيرٍ مما يتمنَّون، كما رُوي في الحديثِ: [أنَّهُمْ إذا اشْتَهَوا لَحْمَ الطَّيْرِ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مَشْوِيّاً، فَيَتَنَاوَلُونَ مِنْهُ قَدْرَ الْحَاجَةِ، ثُمَّ يَطِيرُ كَمَا كَانَ][1] وهذا لأنَّ الذبحَ لا يكون إلاَّ بإراقةِ الدمِ، وذلك لا يكون في الجنَّة.

وعن أبي سعيدٍ الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْراً فِيْهِ تِسْعُونَ أَلْفَ رِيشَةٍ، يَجِيءُ فَيَقَعُ عَلَى صَحْفَةِ الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَنْتَفِضُ فَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ رِيشَةٍ لَوْنُهُ أبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَعْذَبُ مِنَ الشَّهْدِ، لَيْسَ فِيهِ لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ، ثُمَّ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قرأ أبو جعفرٍ وحمزةُ والكسائي (وَحُورٍ) بالخفضِ على معنى ويُنَعَّمُونَ بحُورٍ عِينٍ، ويجوزُ أن يكون خَفْضاً على الْمُجَاوَرَةِ؛ لأنه معطوفٌ على قولهِ (وَفَاكِهَةٍ وَلَحْمِ طَيْرٍ).

والْحُورُ: الْبِيضُ الْحِسَانُ، والعِينُ: الواسعةُ الأَعيُنِ حِسَانُها، وقرأ النخعيُّ وأشبهَ العقلي (وَحُوراً عِيناً) بالنصب على معنى ويُزَوَّجُونَ حُوراً عِيناً، وبالرفع على معنى: ولهم حورٌ عين.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبدالله بن مسعود) وقال: (أخرجه ابن أبي شيبة وهناد عن الحسن).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١١؛ قال السيوطي: (أخرجه هناد عن أبي سعيد الخدري) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ صفـاءَ هـذه كصَفاءِ الدُّرِّ حينَ يخرجُ من صَدَفِهِ قبلَ أن تُصيبَهُ يدٌ أو هواءٌ أو شمس أو غبارٌ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [خُلِقَ الْحُورُ الْعِينُ مِنْ زَعْفَرَان](١). وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّـةَ إلاَّ وَهُـوَ مُـزَوَّجٌ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً، لَيْسَ مِنْهُنَّ امْرَأةٌ إلاَّ وَلَهَا قُبُلٌ شَهِيٌّ، وَلَهُ ذكَرٌ لاَ يَنْثَنِي](٢).

وعن ابنِ مسعودَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [سَطَعَ نُورٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَـالُوا: مَا هَذا ؟ قَالُوا: ضَوْءُ ثَغْرِ حُورٍ تَبَسَّمَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا](٣).

ويُروى: أن الحـورَ إذا مشَـتْ سُـمِعَ تقديـسُ الْخَلاَخِـلِ وتمجيدُ الأَسَاور في سَاعِدَيها، إن عِقْدَ الياقوت في نَحرِها، في رجلَيها نَعلاَنِ من ذهبٍ شِراكُهما من اللُّؤلؤ يَصِرَّانِ بالتسبيحِ والتحميدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ هذه الأشـياءَ جزاءٌ لهم على أعمالِهم الصالحةِ التي كانوا يعملونَها في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لا يسـمَعون في الجنَّة إلاَّ قولاً يَسلَمُون فيه من اللَّغوِ والتأثيمِ، واللَّغوُ: الكلامُ الذي لا فـائدةَ فيـه، التَّأثيمُ: أن يُؤثِمَ بعضُهم بعضاً ولا يتكلَّمون بمـا فيـه إثـمٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي ولكن يقُولون قِيْلاً ويَسمَعون قِيْلاً سَلاَماً يَسـلَمُون فيـه من اللَّغوِ والإثمِ. قال عطاء: (يُحَيِّـي بَعْضُـهُمْ بَعْضـاً بالسَّـلاَمِ عَلَـى أحْسَـنِ الآدَاب وَكَرِيمِ الأَخْلاَقِ مَعَ كَمَالِ النَّعِيـمِ، وَيَقُـولُ لَـهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ: سَـلَّمَكُمُ اللهُ تَعَـالَى مِـنَ الْمَكَارِهِ).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٠٩) عن مجاهد موقوفاً. وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٧ ص١٠٢: الرقم (٣٥٤٠) ترجمة بنان بن سليمان الدقاق بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب صفة الجنة: الحديث (٤٣٣٧) وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ٨ ص٢٤٧: الرقم (٤٣٥٤): ترجمة حبيب بـن نصـر. وأبـو نعيم في الحلية: ج ٦ ص٣٧٤.

هذا كله نعتُ السَّابقين، ثم ذكرَ الصنفَ الثاني:

فقال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ وهم عامَّةُ المؤمنين دون النَّبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، ما تَدري ما لَهم يا مُحَمَّدُ في الجنَّة من النعيمِ والسُّرور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ السِّدرُ شجرٌ مُثمِرٌ مرتفعُ المنظر، طيِّبُ الرائحةِ. والمعنى: في ظِلاَلِ سِدْرٍ قد نُزِعَ شوكهُ وكَثُرَ حَملهُ، والْخَضْدُ عطفُ العُودِ اللَّيِّنِ، ولذلك قِيْلَ: لا شوكةَ فيهِ، قد خَضَّدَ شوكَهُ؛ أي قطعَ، ومنه الحديثُ: [لاَ يُخْضَدُ شَوْكُهَا وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا][1].

وقال مجاهدُ والضحاك ومقاتل: (مَعْنَى قَوْلِهِ (مَخْضُودٍ) أيْ مُوقَرُ حِمْلاً)[2]، ويقالُ: إنَّ السِّدْرَ شجرُ النَّبَقِ إلاَّ أنَّ ثَمَرَةَ تلك الشجرةِ لا تكونُ مثل شجرِ النَّبَقِ في الدُّنيا ولا رائحتُها تشبهُ رائحتَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ الطَّلْحُ شجر الْمَوْز، وقوله (مَنْضُودٍ) أي بتَرَاكُبِ الموز على أغصانِها من أوَّلها إلى آخرها، فليس لها شَوكٌ بارزٌ، وقال الحسنُ: (الطَّلْحُ شَجَرٌ لَهُ ظِلٌّ بَاردٌ طَيِّبٌ)، وقرأ علي ﷺ (مَعْضُودٍ)[3] بالعينِ أي تحل بتراكُب الرُّطب على أغصانِها كما في قوله ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لا تنسخهُ الشمسُ، قال الربيعُ: (يَعْنِي ظِلَّ الْعَرْشِ)، قال عمرُو بن ميمون: (مَسِيرَةَ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[5]. وعن أبي

---

(١) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٦، وعلى ما يبدو لي أن الحديث ليس هذا لفظه، وأصله: [لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا]، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب جزاء الصيد: باب لا يحل القتال بمكة. ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٢٠).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٢٢).

(٤) ق / ١٠ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٣٥).

هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، شَجَرُ الْخُلْدِ، إقْرَأوا إنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي ماءٍ مَصبُوبٍ عليهم من ساق العرشِ في أوعِيَتِهم يشربُوهُ على ما يرَونَ من حُسنهِ وصفائهِ وطيبِ رائحتهِ. وَقِيلَ: معناهُ: وماءٍ مَصبُوبٍ يجري دائماً في غيرِ أخدُودٍ لا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي وأنواعِ فاكهةٍ كثيرةٍ، لا ينقطعُ عنهم في وقتٍ من الأوقاتِ، بخلافِ فاكهةِ الدُّنيا، ولا تكون مَمنوعةً ببُعدِ مُتناوَلٍ أو شوكةٍ تُؤذِي، بخلافِ ما يكون في الدُّنيا. وَقِيلَ: لا مقطوعةٍ بالأزمان ولا ممنوعةٍ بالأثمان، ولا ينقطعُ ثمرُها إذا جُنيَت بل يخرجُ مكانَها مثلُها. قال ﷺ: [مَا قُطِعَتْ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ إلاَّ أبْدِلَ مَكَانَهَا ضِعْفَيْنِ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ قال ﷺ: [ارْتِفَاعُهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، مَوْضُوعَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إذا أرَادَ الْعَبْدُ أنْ يَجْلِسَ عَلَيْهَا تَوَاضَعَتْ حَتَّى يَجْلِسَ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ](٣). قال عليٌّ ﵁: (مَرْفُوعَةً عَلَى الأَسِرَّةِ)(٤).

وَقِيلَ: إنه أرادَ بالفُرشِ هَهُنا النساءَ المرتفِعات القدر في عُقولِهنَّ وحُسنِهنَّ وكمالهن، رُفِعْنَ بالْحُسنِ والجمال والفضل على نساءِ الدُّنيا، ودليلُ هذا التأويل قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾؛ وقد تُسمَّى المرأةُ فِراشاً ولِبَاساً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٨٣٦) بأسانيد، والحديث (٢٥٨٣٧ و٢٥٨٣٨)، وعن أنس الحديث (٢٥٨٣٩). والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾: الحديث (٤٨٨١)، وكتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة: الحديث (٣٢٥١).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٨. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث، (٢٥٨٤٥) عن أبي سعيد. والترمذي في الجامع: أبواب صفة الجنة: باب ثياب أهل الجنة: الحديث (٢٥٤٠) وإسناده ضعيف.

(٤) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٠٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أنشأْنَاهُنَّ إنشَاءً) أي خلقناهُنَّ لأوليائِنا بلا ولادةٍ ولا تربية، بخلافِ نساء الدُّنيا. وَقِيْلَ: المرادُ بهذه الآية نساءَ أهلِ الدُّنيا يُخلقْنَ خَلْقاً بعدَ خلق، كما رُوي في بعضِ الأحاديثِ: [أنَّهُنَّ عَجَائِزُكُمْ فِي الدُّنْيَا جُعِلْنَ صَبَايَا، وَيُلْبَسْنَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ أكْثَرَ مِمَّا يُلْبَسُ الْحُورُ الْعِينُ؛ لأَنَّهُنَّ عَمِلْنَ فِي الدُّنْيَا، وَالْحُورُ لَمْ يَعْمَلْنَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾؛ العُرُبُ: جمعُ عَرُوبٍ، وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إلى زوجِها اللاَّعبَةُ معه أنْساً به ومحبَّةً له، قال المبرِّدُ: (هِيَ الْعَاشِقَةُ لِزَوْجِهَا الْحَسَنَةُ التَّبَعُّلِ لَذِيذَةُ الْكَلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أتْرَاباً) أي مُستويات في السنِّ على ميلادٍ واحد، كلُّهن في سنِّ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، سِنُّهُنَّ مثلُ سنِّ أزواجِهن، ومثلُ هذا يكون أبلغُ في اللَّذة. قوله (لأَصْحَابِ الْيَمِينِ) أي جميعُ الذي ذكرناهُ لأصحاب اليمين. وَقِيْلَ: معناه: فأنشأْناهنَّ إنشاءً لأصحاب اليمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي جماعةٌ من أوائلِ الأمم، وجماعةٌ من أمَّة نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ. ورُوي: أنَّهُ لَمَّا أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ) بَكَى عُمَرُ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَنْ يَنْجُو مِنْ قَلِيلٍ؟ فأنزل الله (ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ).

وعن رسول الله ﷺ قالَ: [يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؛ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيمَا قُلْتَ، فَجَعَلَ ثُلَّةً مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةً مِنَ الآخِرِينَ] فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: (رَضِينَا عَنْ رَبنَا وَتَصْدِيقِ نَبِيِّنَا ﷺ؛ مِنْ آدَمَ إلَيْنَا ثُلَّةٌ، وَمِنَّا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُلَّةٌ)[(٢)]. وقال مجاهدُ والضحاك: (الثُّلَّتَانِ جَمِيعاً

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٦؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة) وذكره بمعناه. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٥٨٥٣) عن أم سلمة بمعناه أيضاً. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١١٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سلمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢١١. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٢٦٩-١٢٧٠. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبدالله) وذكره.

مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ يعني الذين يُعطَون كُتبَهم بشَمائِلِهم، ما تَدري يا مُحَمَّدُ ما لَهم من الهوان في العذاب من حرِّ نارٍ وريحٍ حادَّةٍ تدخلُ في مسامِّهم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي في حرِّ نارٍ وماءٍ حارٍّ، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي من دُخَان شديدِ السَّوادِ لا كبَردِ ظلِّ الدُّنيا؛ لأنه ظلُّ دُخانِ جهنَّم.

وقال ابنُ زيدٍ: (الْيَحْمُومُ جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ)[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي لا باردِ الْمُدخَلِ ولا كريمِ المنظرِ. وَقِيْلَ: لا باردِ المنْزل ولا حسنِ المنظرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ سببِ العقوبةِ، معناهُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا مُنَعَّمِينَ مُتكبرين في تركِ أمرِ الله، وكانوا مُمتَنِعين من الواجب الذي عليهم طَلَباً للترَفُّهِ، ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي وكانُوا يُقيمون على الشِّركِ باللهِ. وسُمي الشِّركُ حِنثاً؛ لأنَّهم كانوا يَحلِفُونَ أنَّ اللهَ لا يبعثُ مَن يموتُ، والْحِنثُ: الإثمُ.

وقال الشعبيُّ: (الْحِنْثُ الْعَظِيمُ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ)[٣] وهم كانُوا يحلِفون باللهِ أنَّهم لا يُبعثون وكذبُوا في ذلك، ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ بيانُ إنكارهم للبعثِ، وقولُهُ تعالى: ﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ هذا القولُ منهم زيادةُ استبعادٍ واستنكار.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّ آباءَكم ومَن قبلَهم وأنتم ومَن بعدَكم لَمجمُوعون في قبورهم إلى يومِ القيامة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٥٨٨٦) عن ابن عباس.

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢١٣.

(٣) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾. وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى يُلقي عليهم الجوعَ حتى يضطرَّهم إلى أكلِ الزَّقُّومِ، فيأكُلون منه حتى تَمتَلئَ بطونُهم، ثم يُلقِي عليهم العطشَ فيضطرُّهم ذلك إلى شُرب الحميمِ، فيشرَبون شُربَ الإبلِ العِطَاشِ التي يُصيبها داءُ الهيامِ فلا تروَى من الماءِ.

والْهِيمُ: الإبلُ العِطَاشُ التي بها الْهِيَامُ لا تروَى، وواحدُ الْهيمِ أهْيَمُ، والأُنثى هَيْمَاءُ، ويقالُ: الْهِيمُ هي الرمالُ التي لا يَرويها ماءُ السَّماء، مأخوذٌ من قولِهم: كثيبٌ أهيَمُ، وكثبانٌ هِيمٌ. قرأ نافع وعاصم وحمزةُ (شُرْبَ) بضم الشين، وقرأ الباقون بفتحِها، والمعنى فيها واحدٌ مثل ضَعف وضُعف[1]، ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي هذا غِداؤُهم وشرابُهم يومَ الجزاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ ؛ أي نحن خلقناكُم أيُّها الكفارُ ولم تكونوا شيئاً، ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي فهلاَّ تُصدِّقون بالبعثِ اعتباراً بالخِلْقةِ الأُولى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أخبرُوني يا أهلَ مكَّة ما تقذفونَهُ من المنِيِّ وتصبُّونَهُ في أرحامِ النساء، أأنتُم تخلُقونَهُ ولداً أم نحنُ نخلُقه ونجعله بَشراً سوِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ ؛ أي كتبناهُ عليكم وسوَّينا به بين أهلِ السَّماء والأرضِ على مقادير آجالهم في مكانٍ معلوم وفي زمانٍ معلومٍ، فمِنكُم مَن يموتُ صغيراً ومَن يموتُ كبيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ ؛ أي ما نحنُ بمَغلُوبين عاجزين على أن نُبدِّلَ غيرَكم أطوعَ وأخشعَ منكم، وعلى أنه ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي في موضعٍ لا تعلمونَهُ وهو النارُ. وَقِيْلَ: في صُوَرٍ لا تعلمونَها من سَوادٍ في الوُجوهِ وزُرقَةِ الأعيُنِ، ولو أردنا أنْ نجعلَ منكم

---

(١) ذكره أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٤؛ قال:(لغتان جيدتان).

القردةَ والخنازيرَ لَم نُسبَقْ ولا فَاتنَا ذلك. قرأ ابنُ كثير (نَحنُ قَدَرْنا) مخفَّفاً وهما لُغتان[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي قد عَلِمتُم الْخِلقَةَ الأُولى ولَم تكونوا شيئاً، فخلَقناكم من نُطفةٍ وعلقة ومُضغَةٍ، وهلاَّ تذكَّرُونَ أنِّي قادرٌ على إعادَتِكم كما قَدرتُ على أعدائكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ معناهُ: أخبِروني ما تُلقُونَ من البَذرِ في الأرضِ؛ أأنتم تُنبتُونَهُ وتجعلونَهُ زَرعاً أم نحنُ فَاعِلُونَ ذلك ؟.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ ؛ أي يَابساً مُتَنَكِّساً بعدَ خُضرَتِهِ لا حبَّ فيه فأبطلناهُ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي فصِرتُم تَعجَبُونَ مما نزلَ بكم في زَرعِكم، ونادمون على ما أنفقتُم فيه وتحمَّلتُم فيه مِن المشقَّة، وتقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي طَقنا[٢] غُرمٌ عظيمٌ فهذا الزرعِ، وغُرمُ الْحَبِّ الذي بَذرنَاهُ فذهبَ علينا بغيرِ عِوَضٍ، ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي ممنُوعون من الرِّزقِ منه.

وأصلُ ظَلْتُمْ: ظَلَلْتُمْ فحَذفَ اللامَ الأُولى. والتَّفَكُّهُ من الأضدادِ، يقالُ: تَفَكَّهَ؛ أي تَنعَّمَ، وتفكَّهَ؛ تَحزَّنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ أي من السَّحاب، ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ عليكم منه، ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ ؛ أي مُرّاً شَديداً، مِرَاراً مُحرِقاً للحَلقِ والكبدِ، لا يمكنُ شُربه والانتفاعُ بِهِ،

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢١٦؛ قال القرطبي: (وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن وابن كثير) وذكره.

(٢) الطاقةُ: الوسعُ والإمكان، بمعنى أنهم قوم غلبهم اليأسُ وضعف الجدِّ؛ فهم قومٌ غير مجدُودين، ليس لهم جد. يكثرون القول: إنا معذبون، محرومون. فلا يمكننا تحمل هلاك الزَّرعِ أو قلَّة اثماره، فكيف من سبيل إلى الْحَبِّ. غلبهم العجز والتواكل. والله أعلم.

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، فهلاَّ تُنكِرون عُذوبَتَهُ. وَقِيْلَ: الأُجَاجُ: شَديدُ الملوحةِ مع المرارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾؛ يعني التي تُظهرُونَها بالزِّنادِ من الأعوادِ، ومعنى: تُورُونَ: تَقدَحُونَ وتستخرجون من زنادِكم، يقالُ: أَوْرَيْتُ النارَ إذا قدحتُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي أأنتم أنبتُّم شجرةَ النار أم نحن الْمُنبتُونَ لها في الأرضِ، وجعلناها خضراءَ وفيها النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ أي نحن جعَلنا النارَ عِظَةً ليتَّعِظَ بها المؤمنُ. وَقِيْلَ: جعلناها تذكِرَةً للنار الكُبرَى؛ إذا رآها الرَّائِي ذكرَ جهنَّم، فذكرَ اللهَ تعالى فاستجارَ به منها، وتركَ المعصيةَ.

وقوله تعالى (وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ) أي وجعَلناها منفعةً للمُسافِرين الذين ينْزلون في الأرضِ القَيِّ في المفَاوز، يقالُ: أقوَى الرجلُ إذا نـزلَ بالأرضِ القوى وهي الخاليةُ القَفرَاءُ، ويقال: أرضٌ قَيٌّ أي القفرى، قال الراجزُ:

قَيٌّ يُنَاصِيهَا بلاَدٌ قَيُّ

والقَيُّ والقَوَى هي الأرضُ القَفْرَى الخاليةُ البعيدةُ من العِمرَانِ، يقالُ: أقْوَتِ الأرضُ مِن سُكَّانِها، قال النابغةُ:

يَا دَارَ مَيَّةَ بالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ   أقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَمَدِ

ومنفعةُ المسافرين بالنار أكثرُ من منفعةِ المقيمين؛ لأنَّهم يُوقِدونَها ليلاً لتَهرُبَ منها السِّباعُ، ويهتَديها الضالُّ من الطريقِ، ويستَضيئوا بها في ظُلمَةٍ، ويصطلوا بها من البردِ ويطبخون بها ويخبزُوا، وضررُ فَقدِها عليهم أشدُّ. وقد يقالُ للذي فقدَ زادَهُ: الْمُقْوِي من أقْرَتِ الدارُ إذا خلَتْ، ويقالُ للمُقْوِينَ: مُقوٍ لِخُلُوِّهِ من المال والغِنَى، مُقْوٍ لقُوَّتهِ على ما يريدُ، فعلَى هذا الْمُقْوِي من الأضدادِ، والمعنى: متَاعاً للغَنيِّ والفقيرِ، وذلك أنه لا غِنَى لأحدٍ عنها.

ولَمَّا ذكرَ اللهُ سبحانهُ ما يدلُّ على توحيدِهِ وما أنعمَ به، فقالَ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾؛ أي بَرِّئِ اللهَ مما يقولُ الظَّالمون في وصفهِ ونزِّهْهُ عمَّا

لا يليقُ به. وفي الحديثِ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ ﷺ: [اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ][١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾ ؛ معناهُ: فأقسِمُ، وإنما دخلت (لاَ) زائدةً للتوكيدِ، ويجوزُ أن يكون قولهُ: (فَلاَ) رَدّاً لِمَا يقولهُ الكفَّارُ في القرآنِ: أنه سِحرٌ أو شعرٌ أو كهانة، ثم استأنفَ القسَمَ على أنه قرآنٌ كريم في كتابٍ مكنون، ويعني بقوله (بمَوَاقِعِ النُّجُوم) نجومُ القرآنِ التي كانت تـنْزلُ على رسول الله متفرّقاً قِطَعاً نُجوماً، وَقِيْلَ: يعني مغاربَ النُّجوم ومساقِطَها، وقرأ حمزةُ والكسائي (مَوْقِعَ) على المصدر، والمصدرُ يصلح للواحدِ والجمع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (هَذا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الْمُرَادَ بمَوَاقِعِ النُّجُوم نُـزُولَ الْقُرآن)[٢] والضميرُ في (إنَّـهُ) يعودُ على القَسَمِ ودلَّ عليه (أُقْسِمُ)، والمعنى: أنَّ القسَمَ بمواقعِ النجومِ عظيمٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ ﴾ ؛ هذا جوابُ القسَم، ومعنـاهُ: كثيرُ الخيرِ دالٌّ على أنه من عندِ الله لأنَّـهُ لا يـأتي أحـدٌ بمثلهِ ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ ﴾ ؛ هَهُنا هو اللوحُ المحفوظُ مَصُونٌ عن التغيُّرِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾ ؛ قال بعضُهم: الضميرُ يعود إلى الكتاب الْمَكْنُون، معناهُ: لا يَمَسُّ اللوحَ المحفوظَ إلاَّ المطهَّرون من الذّنوب وهم الملائكةُ. وقال: الضميرُ يعود إلى القرآن، ومعناهُ: الْمُصْحَف لا يَمسُّه إلاّ المطهَّرون من الأحداثِ والجنابـاتِ والحيضِ، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: [لاَ يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلاَّ طَاهِرٌ][٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٧٥: الحديث (٨٨٩). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده: الحديث (٨٦٩)، وإسناده صحيح.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٢.

(٣) هو شطر حديث طويل من كتاب النبي ﷺ، رواه عمرو بن حزم، أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص٧٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والصغير ورجاله موثوقون).

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: لا يعملُ به إلاّ الموَفَّقُون. وَقِيْلَ: لا يجدُ حلاوتَهُ إلاّ المفسِّرون. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يقرؤه إلاّ الموحِّدُون المطَهَّرون من الشِّركِ، وكان ابنُ عبَّاس (يَنْهَى أنْ يُمَكَّنَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ). وَقِيْلَ: معناهُ: لا يَجِدُ لذتَهُ إلاّ مَن آمَنَ به. وَقِيْلَ: لا يُوفَّقُ للعملِ به إلاّ السُّعداءُ.

فظاهرُ الآيةِ: لا يجوزُ للمُحْدِثِ مَسُّ المصحفِ، وإنْ كان ظاهرُها نفيٌّ، فمعناهُ: النهيُ؛ أي لا يَمَسُّ المصحفَ إلاّ المطَهَّرون من الأحداثِ، وإلى هذا ذهبَ جمهورُ الفقهاءِ.

وذهبَ حكيمُ وداودُ بن عليٍّ إلى أنه يجوزُ للمُحدِثِ مسُّ المصحَفِ اذا كان مُسلِماً، ولا يجوزُ ذلك للمُشركِ.

والدليلُ على أنه لا يجوزُ للمُحدِثِ مسُّهُ قوله ﷺ: [لاَ تَمَسَّ الْقُرْآنَ إلاَّ وَأنْتَ طَاهِرٌ][1] وعليه إجماعُ الصَّحابة. وسُئِلَ عليٌّ رضي الله عنه: أيَمَسُّ الْمُحْدِثُ الْمُصْحَفَ؟ فَقَالَ: (لاَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾؛ معناهُ: أفبهذا القرآن الذي يُقرَأ عليكم يا أهلَ مكَّة أنتم تكفُرون وتُكذِّبون. والْمُدْهِنُ والْمُدَاهِنُ: الكذابُ المنافقُ. وَقِيْلَ: معنى تُدهِنُونَ: تُظهِرُونَ خلافَ ما تُضمِرُونَ، مأخوذٌ من الدُّهنِ ومُدَاهَنَةِ العدوِّ ومُلاينَتِهِ ومُصانعتِهِ وإظهار مُسالَمتِهِ خلافَ ما يضمرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي وتجعلُون شُكرَكم أنَّكم تكذِّبون بنعمةِ اللهِ عليكم، فيقولون: سُقِينا بنَوءِ كذا. وذلك أنَّهم كانوا يقُولون: مُطِرنا بنوءِ كذا، لا ينسِبُون السُّقيا إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ، فقيلَ لهم: وتجعلُون شُكرَ رزقكم التكذيبَ؛ أي تجعلون بدلَ شُكركم تكذيبَكم بأنه من عندِ الله الرزَّاق.

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَوْ حَبَسَ اللهُ عَنْ أمَّتِي الْمَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ أنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ لأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ:

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: ج ١ ص٢١.

مُطِرْنَا](١).

ورُوي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ فِي سَفَرٍ، فَنَزَلُوا فَأَصَابَهُمُ الْعَطَشُ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: [أَرَأَيْتُمْ إِنْ دَعَوْتُ لَكُمْ إِنْ سُقِيتُمْ، فَلَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ: سُقِينَا هَذَا الْمَطَرَ بِنَوْءِ كَذَا ؟] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا هَذَا بِحِينِ الأَنْوَاءِ ! فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَاجَتِ رِيحٌ ثُمَّ هَاجَتْ سَحَابَةٌ، فَمُطِرُوا حَتَّى سَالَتِ الأَوْدِيَةُ وَمَلأُوا الأَسْقِيَةَ.

فَرَكِبَ ﷺ فَمَرَّ بِرَجُلٍ يَغْرِفُ بِقَدَحٍ لَهُ وَهُوَ يَقُولُ: سُقِينَا بِنَوْءِ كَذَا، وَلَمْ يَقُلْ: هَذَا مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعَالَى. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)(٢) أي وتجعلون شُكرَكم للهِ على رزقهِ إيَّاكم أنَّكم تُكذّبون بنعمتهِ، وتقولون: سُقينا بنوءِ كذا.

وعن معاويةَ الليثي: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [يُصبحُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ، فَيَأْتِيهُمُ اللهُ بِرِزْقٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا](٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ معناه: وهلاَّ إذا بلغَتِ النَّفسُ الحلقومَ عند الموتِ، ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ ﴾ ، يا أهلَ الميِّتِ، ﴿ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ، مآلَ الميتِ، وأنتم حولَهُ ترَونَ نفسَهُ تخرجُ ولا تقدِرون على ردِّها، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ ، منكم، ورسُلنا أقربُ إليه، ﴿ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

ويجوزُ أن يكون معناهُ: يعني مَلَكَ الموتِ وأعوانَهُ، والمعنى: ورسُلنا القابضُون روحَهُ أقربُ إليه منكم، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ونحنُ أقربُ إليه منكم بالعلمِ والقُدرَةِ، نراهُ من غيرِ مسافةٍ بيننا وبينَهُ، وأنتم لا تنظرونَهُ إلاَّ بمسافةٍ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧. وابن حبان في الصحيح: كتاب النجوم والأنواء: الحديث (٦١٣٠)، وإسناده صحيح.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٨-٢٩؛ قال: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣١؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد عن معاوية الليثي) وذكره.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي فهلاَّ إن كنتم غيرَ مجزيين ومحاسَبين كما تزعُمون ترُدُّون نفسَ هذا الميِّت إلى جسدهِ إذا بلغَتْ تَرَاقِيَهُ إنْ كُنتم صَادِقين في ظَنِّكم أنَّ لكم شَيئاً من القُدرةِ، فعجزُكم عن ردِّ هذه الروحِ إلى الجسدِ دليلٌ على أنَّكم مَقهُورون عاجزون.

والمعنَى: إنْ كان الأمرُ كما يقولون إنَّهُ لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاءَ ولا إلهَ يحاسِبُ ويُجازي، فهلاَّ ترُدُّون نفسَ من يعزُّ عليكم إذا بلغتِ الحلقومَ، وإذا لم تقدروا على ذلك فاعلَمُوا أنَّ الأمرَ إلى غيركم وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَرْجِعُونَهَا) جوابٌ عن قولهِ (فَلَوْلاَ إنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أُجيب بجوابٍ واحد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾؛ معناهُ: فأما إنْ كان هذا المحتضِرُ الذي بلَغت نفسهُ الحلقومَ من السَّابقين المقرَّبين عندَ اللهِ، فله رَوْحٌ وهو الرَّوحُ والاستراحةُ، وقال مجاهد: (الرَّوْحُ: الْفَرَحُ، وَرَيْحَانٌ يَعْنِي الرِّزْقَ فِي الْجَنَّةِ). قرأ الحسنُ وقتادة ويعقوب: (فَرُوحٌ) بضمِّ الراء، معناهُ: الحياةُ الدائمةُ التي لا موتَ فيها.

ويقالُ: إن الرَّوح بنصب الراء نسيمٌ تستريحُ إليه النفسُ، والرَّيحانُ هو السَّمُومُ[1]، قال أبو العاليةِ: (يُؤْتَى بَعْضٌ مِنْ رَيْحَانِ الْجَنَّةِ فَيَشُمُّهُ قَبْلَ أنْ يُفَارِقَ الدُّنْيَا ثُمَّ تُقْبَضُ رُوحُهُ). وقال أبو بكر الوراق: (الرَّوْحُ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَالرَّيْحَانُ دُخُولُ الْقَرَارِ).

وقال الترمذيُّ: (الرَّوْحُ الرَّاحَةُ فِي الْقَبْرِ، وَالرَّيْحَانُ دُخُولُ الْجَنَّةِ). وقال بسطامُ: (الرَّوْحُ السَّلاَمَةُ، وَالرَّيْحَانُ الْكَرَامَةُ). وقال الشعبيُّ: (الرَّوْحُ مُعَانَقَةُ الأَبْكَارِ، وَالرَّيْحَانُ مُرَافَقَةُ الأَبْرَارِ).

وَقِيْلَ: الرَّوحُ كَشفُ الكروب، والريحانُ غُفران الذنوب. وَقِيْلَ: الرَّوح تخفيفُ الحساب، والريحانُ تضعيفُ الثواب. وَقِيْلَ: الرَّوح عفوٌ بلا عتابٍ، والرَّيحان رزقٌ بلا حسابٍ. وَقِيْلَ: الرَّوح لأرواحِهم، والريحانُ لقلوبهم، وجنةُ النعيمِ لأبدانِهم.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان: بعد الرقم (٢٦٠٠)، وقال: (فأولى الأقوال) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وأما إنْ كان هذا المتوفَّى من أصحاب اليمين، يعني من عامَّة المؤمنينَ دون السابقين، فسلامٌ لكَ أيُّها الإنسانُ الذي مِن أصحاب اليمين مِن عذاب الله، وسلَّمت عليكَ ملائكةُ اللهِ، وسَلِمْتَ مما تكرهُ لأنَّك من أصحاب اليمين، وترَى في الجنةِ ما يجبُ من السَّلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَسَلَامٌ لَكَ) رُفع على معنى: لكَ سلامٌ؛ أي سلامةٌ من العذاب. وَقِيلَ: معناهُ: فسلامٌ عليكَ من أصحاب اليمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ؛ وأما إنْ كان هذا المتوفَّى من المكذِّبين بالبعثِ والرسالةِ، ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ، من الْهُدَى، ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ ، أي فالحقُّ الذي يُعَدُّ له حميمُ جهنَّمَ، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ ، أي أدخِلَ ناراً عظيمةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ يعني ما ذُكِرَ من قصَّة الْمحتَضِرين، وجميعُ ما سبقَ ذِكرهُ ليقينٌ حقُّ اليقين لا شكَّ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي نزِّهِ اللهَ عن السُّوء، والباءُ زائدةٌ، والاسمُ بمعنى الذات والنفسِ، كأنه قِيلَ: فسبح ربَّكَ العظيمَ.

آخر تفسير سورة (**الواقعة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْحَدِيدِ

سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ الْفَان وَأرْبَعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وسَبْعُونَ حَرْفاً، وَخَمْسُمِائَةٍ وَأرْبَعٌ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْحَدِيدِ كُتِبَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ](1).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي خضعَ وصلَّى للهِ ما في السَّموات من الملائكةِ من الخلْق، ونزَّهوهُ عن السُّوء والأنداد، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكهِ وسلطانه، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ ﴾ ؛ في أمرهِ وقضائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي لـه خزائـنُ السَّموات والأرضِ من المطرِ والنبات وغير ذلك، ﴿ يُحۡيِۦ ﴾ ؛ للبعثِ، ﴿ وَيُمِيتُۖ ﴾ ؛ عند انقضاءِ الآجالِ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ؛ من الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾ أي قادرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾ ؛ أي هو الأولُ بلا ابتداءٍ، والآخرُ بلا انتهاءٍ، لم يزَلْ قديماً قبلَ كلِّ شيء، وهو الدائمُ بعد فناءِ كلِّ شيء، وهو الظاهرُ الغالبُ على كلِّ شيء، والظاهرُ هو القاهرُ، ومنه قولـهُ ﴿فَأَصۡبَحُوا

---

(1) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٢٧ عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف.

ظَاهِرِينَ﴾(1) أي غالبين. ويقالُ: ظهرَ الأميرُ على بلدِ كذا؛ إذا غلبَ عليها، وهو الباطنُ الذي لا يدركُ بالحواسِّ ولا يقاسُ بالناسِ. وَقِيْلَ: معناهُ: هو الظاهرُ بأدلّتهِ العالِمُ بما بَطَنَ من أمور خلقهِ. وَقِيْلَ: الباطنُ الْمُحْتَجِبُ عن الأبصار، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ من الظاهرِ والباطنِ، ﴿عَلِيمٌ ۝٣﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي ما يدخلُ فيها فيُستَرُ، كما يعلمُ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ فيظهرُ، و يعلمُ، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، من مَلَكٍ ورزقٍ ومطرٍ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ وما يصعدُ إليها من الملائكةِ وأعمالِ العباد، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي وهو أعلمُ بأقوالِكم وأفعالِكم وعزائمكم في أيِّ موضعٍ كنتم، فليس يخلُو أحدٌ من علمِ اللهِ وقُدرتهِ أينما كان في الأرضِ أو في السَّماء أو في برٍّ أو في بحرٍ، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾. وما بعدَ هذا: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾. ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي صدِّقوا باللهِ بأنَّهُ خالقُكم وإلهكم، وصدِّقوا برسولهِ أنَّهُ صادقٌ فيما يؤدِّيه إليكم، ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾؛ في الجهادِ وعلى الضُّعفاء، وغيرِ ذلك من سُبلِ الخيرِ من الأموالِ التي جعلَكم اللهُ مُستَخلفين فيها بأن أورثَكموها ممن كان قبلَكم.

ويقال: إنَّ الأموالَ التي في الدُّنيا لا تخلُو إمَّا أنْ تكون قد صارت إلينا فنحنُ خلفاؤُهم فيها، أو تصيرُ منَّا إلى غيرنا فهم خلفاءنا فنحفظُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾؛ أي لهم ثوابٌ عظيم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؛ هذا استفهامُ إنكارٍ؛ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم من الثَّواب في الآخرةِ إذا لم تُؤمنوا باللهِ بعدَ قيامِ الحجَّة عليكم على

---

(1) الصف / ١٥ .

وحدانيَّة اللهِ تعالى وتمام علمهِ وكمال مُلكهِ، وأيُّ عُذرٍ يَمنَعُكم من الإيمان بالله تعالى، ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ ﴾ ؛ في ظهرِ آدم بأنَّ اللهَ ربَّكم لا إلهَ إلاّ هو ولا معبودَ سواهُ. وَقِيْلَ: معنى (أخذ مِيثاقكُمْ) ركَّبَ فيكم العقولَ وأقامَ الحججَ والدلائل التي تدعُو إلى متابعةِ الرَّسول ﷺ.

قرأ العامَّةُ (أخَذ) بفتحِ الهمزة وفتحِ القاف(١)، وقرأ أبو عمرٍو بضمِّها على ما لَمْ يسَمَّ فاعلهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ يعني إنْ كُنتم مُصدِّقين كما تزعُمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؛ معناهُ: هو الذي يُنَزِّلُ على عبدهِ مُحمَّدٍ ﷺ آياتٍ بيِّناتٍ، يعني القرآنَ، ليُخرجَكم من ظُلماتِ الشِّرك إلى نُور الإيمان، ومِن ظُلماتِ الجهلِ إلى نور العلم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ يعني حين بعثَ الرسولَ ونصبَ الأدلَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناهُ: أيُّ شيءٍ لكم في تركِ الإنفاقِ في نُصرةِ الإسلام ومُواساةِ الفُقراءِ وأنتم ميِّتون تاركون أموالَكم، واللهُ سبحانه يرزُقكم، ويرثُ ما في السَّموات والأرضِ، يُميتُ مَن فيهما ويرثُ مَن عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ﴾ ؛ معناهُ: لا يستوِي منكم في الفضلِ مَن أنفقَ مالَهُ وقاتلَ العدوَّ مِن قبلِ فتح مكَّة مع مَن أنفقَ من بعدُ وقاتلَ. قال الكلبيُّ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه)(٢) قِيلَ: هذا أنَّهُ كان أوَّلَ مَن أنفقَ المالَ على رسول الله ﷺ في سبيلِ الله، وأوَّلَ مَن قاتلَ في الإسلام. قال ابنُ مسعودٍ: (أوَّلُ مَنْ أظْهَرَ إسْلاَمَهُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه،

---

(١) فتح القاف من ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾.

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان:ج٩ ص٢٣٢. والبغوي في معالم التنزيل:ص١٢٧٦.

وَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بأَنَّهُ أنْفَقَ مَالَهُ قَبْلَ الْفَتْحِ)[١].

قال العلاءُ بن عمرو: (بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَعِنْدَهُ أبو بَكْرٍ ﷺ وَعَلَيْهِ عَبَاءَةٌ، قَدْ خَلَّهَا عَلَى صَدْرِهِ بِخِلاَلٍ[٢] إذْ نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: مَا لِي أرَى أبَا بَكْرٍ عَلَيْهِ عَبَاءَةٌ ؟ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إنَّهُ أنْفَقَ مَالَهُ قَبْلَ الْفَتْحِ عَلَيَّ، قَالَ: فَأقْرِئْهُ مِنِّي السَّلاَمَ وَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ: أرَاضٍ أنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هَذا أمْ سَاخِطٌ؟ فَقَالَ ﷺ: [يَا أبَا بَكْرٍ؛ هَذا جِبْرِيلُ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ لَكَ رَبُّكَ: أرَاضٍ أنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هَذا أمْ سَاخِطٌ؟] فَبَكَى أبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: أعَلَى رَبِي أغْضَبُ؟! أنَا عَنْ رَبي رَاضٍ)[٣].

وفي هذه الآيةِ دلالةٌ واضحة وحُجَّةٌ بَيِّنَةٌ على فضلِ أبي بكر وتَقديمه على سائر الصَّحابة، كما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قالَ: (لاَ أوْتَي برَجُلٍ فَضَّلَنِي عَلَى أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ إلاَّ جَلَدْتُهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ ؛ معناهُ: أولئكَ أعظمُ ثواباً وأفضلُ درجةً عند اللهِ من الذين أنفقُوا من بعدِ فتحِ مكَّة وقاتَلُوا بعدَهُ، وإنما فضَّلَ اللهُ المنفقِين والمقاتلين من قبلِ الفتح؛ لأن الإنفاقَ والقتالَ في ذلك الوقتِ كان أشدَّ على النفسِ، وكانت الحاجةُ اليها أمَسَّ لقلَّة المسلمِين.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٢٤٠.

(٢) الخِلاَلُ: العُودُ الذي يتخلَّلُ به، وما يُخلُّ بهِ الثوبُ، فيُربط به طرفي فُرجتهِ. مختار الصحاح: ص١٨٧.

(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٧٦-١٢٧٧ بسنده (عن العلاء بن عمرو الشيباني ثنا أبو إسحق الفزاري ثنا سفيان بن سعيد عن آدم بن علي عن ابن عمر قال: كنت عند رسول الله ﷺ) وذكره. وفي تفسير القرآن العظيم: ج ٤ ص٣٠٨؛ قال ابن كثير: (هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم).

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٣٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٠؛ وقال: (فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ).

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ لِكِلاَ الفريقين الحسنَى وهو الجنــةُ، إلاّ أنَّــهم مُتفـاوتون في الدَّرجَات فقال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي وكِـلاَ الفريقـين وعـدَ اللهُ الجنـةَ، وقرأ ابنُ عامرٍ (وَكُلٌّ) بالرفعِ على الاستئنافِ على لُغة مَن يقولُ: زيدٌ ضرَبتُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بما يعملهُ كلٌّ واحدٍ منكم.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ في البقرةِ. قـال أهـلُ العلـمِ: القـرضُ الحسَـنُ أنْ يكون من الحلالِ؛ لأنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلاّ طيِّباً، وأنْ يكون من أحسَنِ ما يملكهُ دون أن يقصِدَ الرديءَ لقولِهِ تعالى ﴿لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[١]، وأن يتصدَّقَ وهــو لِحُبِ المالِ ويرجُـو الحيـاةَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عـن أفضـلِ الصَّدقـات فقـالَ: [أنْ تَتَصَدَّقَ وَأنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأمَلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلاَ تُمْهِلْ حَتَّـى إذا بَلَغَـتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلاَنٍ كَذا وَلِفُلاَنٍ كَذا، وَأنْ تَضَعَ الصَّدَقَةَ فِي الأَحْوَجِ الأَوْلَـى][٢]. وأنْ يكتُمَ الصدقةَ ما أمكنَ لقولهِ ﴿وَإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَـيْرٌ لَكُـمْ﴾[٣]، وإن لا يتبعَ الصدقةَ المنَّ والأذى لقوله تعالى ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالْمَنِّ وَالأَذى﴾[٤]، وأن يقصِدَ بها وجهَ اللهِ ولا يُرائِي بها، وأن يستحقرَ مـا يُعطي وإنْ كَـثُرَ؛ لأن الدُّنيـا كلها قليلةٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٥] وأن يكون مِن أحب مالـهِ، قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّـا تُحِبُّـونَ﴾[٦]. وهــذه تسعةُ أوصـافٍ إذا استكمَلَتها الصدقةُ كانت قَرْضاً حَسناً.

---

(١) البقرة / ٢٦٧ .

(٢) إسناده صحيح، أخرجه الإمام أحمد في المســند: ج ٢ ص٢٥و٢٣١و٤١٥ و٤٤٧. والبخـاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب فضل صدقـة الصحيـح الشـحيح: الحديـث (١٤١٩)، وفي كتـاب الوصايا: باب الصدقة عند الموت: الحديث (٢٧٤٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الزكـاة: بـاب أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح: الحديث (١٠٣٢).

(٣) البقرة / ٢٧١ .

(٤) البقرة / ٢٦٤ .

(٥) النساء / ٧٧ .

(٦) آل عمران / ٩٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) فيه قراءَتان: مَن قرأ بالرفعِ فعلى العطفِ على (يُقْرِضُ) أو على الاستئنافِ على معنى فهو يضاعفُهُ، ومَن قرأ بنصب الفاء فعلى جواب الاستفهامِ بالفاء[(١)]، وقولهُ تعالى (وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) الأجرُ الكريم الذي يقعُ به النفعُ العظيم وهو الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ معناهُ: اذكُرْ يومَ تراهُم، ويجوزُ أن يكون انتصابُ اليومِ على معنى ولَهم أجرٌ كريم يسعَى نورُهم بين أيدِيهم وبأيمانِهم على الصِّراطِ يومَ القيامةِ، وهو دليلُهم إلى الجنَّة.

وأرادَ بالنور القرآنَ، وَقِيْلَ: نورُ الإيمان والطاعةِ، تظهرُ لهم فيمشون فيه، قال ابنُ مسعودٍ: (يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالنَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَى نُورَهُ كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأدْنَاهُمْ نُوراً نُورُهُ عَلَى إبْهَامِهِ يُطْفِيءُ مَرَّةً وَيُوقَدُ أخْرَى)[(٢)]. وقال قتادةُ: (الْمُؤْمِنُ يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ كَمَا بَيْنَ عَدَنَ وَصَنْعَاءَ وَدُونَ ذلِكَ، حَتَّى أنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لاَ يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ إلاَّ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَبِأَيْمَانِهِمْ) قال الضحَّاكُ ومقاتل: (وَبِأَيْمَانِهِمْ كُتُبُهُمُ الَّتِي أعْطُوهَا، فَكُتُبُهُمْ بأَيْمَانِهِمْ، وَنُورُهُمْ بَيْنَ أيْدِيهِمْ)[(٤)]. وتقولُ لهم الملائكةُ: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ يعني أنْهارَ اللَّبَنِ والخمرِ والعسلِ والماءِ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ لا يَموتون ولا يُخرَجون منها، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ ؛ أي احذرُوا يومَ يقولُ المنافقون للمؤمنين

---

(١) قاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٤. وصححه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: سورة الحديد: الحديث (٣٨٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٤).

(٤) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٢٢. ومن قول الضحاك بمعناه أيضاً، أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٠٢٦).

المخلصِين: انظُرونا نُضِيءُ بنُوركم فنَمضِي معَكم على الصِّراطِ، وذلك أنَّ المنافقين تغشَاهُم ظلمةٌ حتى لا يكادُون ينظرون مواضعَ أقدامِهم، فينادون المؤمنين نَقتَبسْ من نُوركم.

قرأ حمزةُ (أَنْظِرُونا) بقطع الألف وكسر الظاء؛ أي أمهِلُونا، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: انْتَظِرُونا أيْضاً)، وقال عمرُو بن كلثوم[١]:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

قال المفسِّرون: إذا كان يومُ القيامةِ، أعطَى اللهُ المؤمنين نُوراً على قدر أعمالهم يَمشُون به على الصِّراطِ، وأعطَى اللهُ المنافِقِين نُوراً كذلكَ خديعةً لَهم فيما بينهم كذلك يَمشون، إذا بعثَ اللهُ ريحاً وظلمةً فانطفأ نورُ المنافِقِين، فعندَ ذلك يقولُ المؤمنون: ربَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا، مخافةَ أن يُسلَبَ كما سُلِبَ المنافِقُون.

ويقولُ المنافِقُون حينئذٍ للمؤمنين: انْظُرُونا نَقتَبسْ من نُوركم، فيقولون لَهم: لا سبيلَ لكم إلى الاقتباسِ من نُورنا، فارجِعُوا وراءَكم فاطلُبوا هنالكَ لأنفسِكم نُوراً، فيرجِعُون في طلب النُّور فلا يجِدُون، فيقولُ لَهم الملائكةُ: ارجعوا إلى الموضعِ الذي أخَذنا منه النُّور[٢] فاطلُبوا نوراً، فإنَّ المؤمنين حَمَلُوا النورَ من الدُّنيا بإيمانِهم وطاعتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ ؛ معناهُ: فيُميِّزُ بين المؤمنين والمنافقين بأنْ يُضرَبَ بينهم بجدارٍ كبيرٍ يقالُ له السُّورُ، وهو الذي يكونُ عليه أصحابُ الأعرافِ، وهو حاجزٌ بين الجنَّة والنار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ بَابُۢ ﴾ ؛ أي للسُّور بابٌ، ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ ؛ وهي الجنَّة التي فيها المؤمنون، ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ ﴾ ؛ أي وخارجُ السُّور، ﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ يعني جهنَّمَ والنارَ.

---

(١) قاله الزجاج ونقل الشعر في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٩٨.

(٢) لم يكن رسمها واضح في المخطوط، وجرى ضبط العبارة من الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٤٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ المنافقِين يُنادون المؤمنين من وراءِ السُّور: ألَمْ نكن معكم في الدُّنيا على دينِكم نناكحكم ونوارثكم ونصلِّي معكم في مساجدِكم، ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؛ أي أهلَكتُموها بالنِّفاقِ والمعاصِي والشَّهوات وكلُّها فتنةٌ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ ؛ بمُحَمَّدٍ الموتَ وبالمؤمنين الدوائرَ، وقُلتم: يوشِكُ أن يموتَ مُحَمَّدٌ فنستريحَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ ؛ أي شَكَكْتُمْ في توحيدِ الله وفي نُبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ ؛ يعني: ما كانوا يتمنَّون من قتلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وهلاكِ المسلمين، وغرَّتكم أيضاً الأباطيلُ وطولُ الآمال، ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ؛ يعني الموتَ والبعثَ، ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي وغرَّكم الشيطانُ بحُكمِ اللهِ وإمهالِه عن طاعة اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ ؛ لا يُقبَلُ منكم بَذْلٌ تَفدُون به أنفسَكم من العذاب، ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ولا من الذين يُظهِرُون الكفرَ. قرأ ابنُ عامرٍ والحسن ويعقوب: (لاَ تُؤْخَذُ) بالتاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ؛ أي أولَى بكم وأحقُّ أن تكون مَسكَناً لكم قد ملَكَت أمرَكم، فهي أولَى بكم من كلِّ شيءٍ، وأنتم أولى بها، ومنه المولَى لأنه أولَى بعبيدهِ من غيره، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ النارُ، قال قتادةُ: (مَا زَالُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى قَذفَهُمُ اللهُ فِي النَّار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ؛ معناهُ: أمَا حانَ للمؤمنين الذين تكلَّموا بكلمةِ الإيمان إذا سَمِعُوا القرآنَ أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وتَلِينُ وترقُّ، قال ابنُ مسعود: (مَا كَانَ بَيْنَ إسْلاَمِنَا وَبَيْنَ أنْ عَاتَبَنَا اللهُ بهَذِهِ إلاَّ أرْبَعَ سِنِينَ)(١). والمعنى: يجبُ أن يُورثَهم الذكرُ خُشوعاً ولا يكونوا كمَنْ يَذكُره بالغَفلَةِ، ولا يخشعُ للذِّكر قلبُهُ. وقوله (وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ) يعني القرآنَ، قرأ نافع وعاصم مخفَّفاً.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨؛ قال السيوطي: (أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود) وذكره. وصححه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ وهم اليهودُ والنصارى، وموضعُ (وَلاَ يَكُونُوا) النصبَ عطفاً على قولِهِ تعالى (أَنْ تَخْشَعَ) و(وَلاَ يَكُونُوا)، قال الأخفشُ: (وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ نَهْياً) وهذه زيادةٌ في وعظِ المؤمنين، معناهُ: ولا يَكُونوا في قَسَاوَةِ القلوب كالذين أعطُوا التوراةَ والإنجيلَ من قبلِ المؤمنين، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ ؛ الزمانُ بينهم وبين أنبيائهم، ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس:(مَالُوا إلَى الدُّنْيَا وَأعْرَضُوا عَنْ مَوَاعِظِ اللهِ، فَلَمْ تَلِنْ قُلُوبُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ كَلاَمِ اللهِ تَعَالَى)[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي خارجون عن طاعةِ الله، وإنَّما قالَ (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ) لأنه كان منهم مَن أسلمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ تنبيهٌ على الاستدلالِ بإحياءِ الأرض بعدَ مَوتِها على البعثِ والنُّشور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير وعاصم بتخفيفِ الصَّاد من التَّصْدِيق، تقديرهُ: إنَّ المؤمنين والمؤمنات، وقرأ الباقون تشديدِها، يعني الْمُصَّدِّقِينَ من الصَّدَقةِ، أدغمت التاءُ في الصادِ، ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصَّدقة والنفقةِ في سبيله، ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ ، قرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر (يُضَعَّفُ) بالتشديدِ، وقوله: ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ؛ واحدُهم صِدِّيقٌ وهو الكثيرُ الصِّدقِ، والصِّدِّيقونَ لَمْ يَشُكُّوا في الرُّسل حين أخبَرُوهم، ولم يُكذِّبُوهم ساعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ قال بعضُهم: تمامُ الكلام عند قولِهِ (الصِّدِّيقُونَ)، ثم ابتدأ فقالَ: (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِهِمْ) وخبرهُ: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ والشهداءُ على هذا القولِ يحتملُ أنَّ المرادَ بهم الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ الذين يَشهَدُون يومَ القيامةِ لِمَن صدَّقَ بالتصديقِ وعلى مَن كذبَ بالتكذيب، ويحتملُ أنَّ المرادَ بهم الذين قُتِلُوا في سبيلِ الله.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٧.

وقال بعضُهم: وقوله (وَالشُّهَدَاءُ) عطفٌ على الصِّدِّيقِينَ، ومعنى: الشُّهداء على سائرِ المؤمنين، ففي الحديثِ: [الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ][١]. وقالَ ﷺ: [كُلُّ مُؤْمِنٍ شَهِيدٌ][٢]. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٩ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ ﴾ ؛ يعني الحياةَ الدُّنيا كاللَّعب واللَّهو في سُرعَةِ فنائِها وانقضائـها، ونظيرُ هذا قولُهُ ﷺ: [الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلاَةٌ][٣] أي كالصَّلاة، ويقالُ: فلانٌ يجري كالبحرِ في السَّخاء، وفلانٌ أسدٌ؛ أي كالأسدِ في الشَّجاعة.

وقولهُ تعالى (وَزِينَةٌ) أي منظرٌ حسَنٌ، والمعنى: إنما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولَهوٌ كلعب الصبيان، وزينةٌ كزينَةِ النِّسوانِ، ﴿ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ كتكاثُرِ الدُّهقان[٤].

قال عليُّ بن أبي طالبٍ لعمَّار بن ياسرٍ: (لاَ تَحْزَنْ عَلَى الدُّنْيَا؛ فَإنَّهَا سِتَّةُ أشْيَاءِ: مَطْعُومٌ؛ وَمَشْرُوبٌ؛ وَمَلْبُوسٌ؛ وَمَشْمُومٌ؛ وَمَرْكُوبٌ؛ وَمَنْكُوحٌ، فَأكْبَرُ طَعَامِهَا الْعَسَلُ وَهُوَ بُزَاقُ ذُبَابَةٍ، وَأكْبَرُ شَرَابِهَا الْمَاءُ وَفِيهِ يَسْتَوِي جَمِيعُ الْحَيْوَانَاتِ، وَأكْبَرُ مَلْبُوسِهَا الدِّيبَاجُ وَهُوَ نَسْجُ دُودَةٍ، وَأكْبَرُ مَشْمُومِهَا الْمِسْكُ وَهُوَ دَمُ فَأْرَةٍ أوْ ظَبْيَةٍ، وَأكْبَرُ مَرْكُوبِهَا الْفَرَسُ وَعَلَيْهِ يُقْتَلُ الرِّجَالُ، وَأكْبَرُ مَنْكُوحِهَا النِّسَاءُ وَهُوَ مُبَالٌ فِي مُبَالٍ)[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص١٨٦. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب آداب القاضي: باب اعتماد القاضي على تزكية المزكين وجرحهم: الحديث (٢٠٩٧١)، وقال: (رواه البخاري في الصحيح عن سليمان بن حرب ورواه مسلم عن أبي الربيع).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٠٥٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٢٩: الحديث (١٠٩٥٥). والترمذي في الجامع: أبواب الحج: باب ما جاء في الكلام في الطواف: الحديث(٩٦٠). والنسائي في السنن: كتاب الحج: باب إباحة الكلام في الطواف: ج ٥ ص٢٢٢، وإسناده صحيح.

(٤) الدُّهقان: بكسر الدال أو ضمها: التاجر، فارسي معرب.

(٥) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٤٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٥٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ ؛ أي مثَلُ الدُّنيا كمثلِ مطَرٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ نباتهُ، والكفرُ في اللغةِ هو التَّغطِيَةُ، وسُمِّي الكافرُ كافراً؛ لأنه يُغطِّي الحقَّ بالباطلِ، والزَّارعُ يُغَطِّي الحبَّ بالأرضِ.

والمعنى: كمَثَلِ غيثٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ ما نبتَ من ذلك الغيثِ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ؛ أي ثم يَبِينُ فيصير مُصْفراً بعدَ خُضرَتِهِ وريِّهِ، ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ ؛ أي متكَسِّراً مفتَّتاً تحتَ أرجُلِ الدواب، كذلك الدُّنيا تزولُ وتفنَى، كما لا يبقَى هذا الزرعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ ؛ أي عذابٌ شديد للكفَّار والمنافقين، ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ للمؤمنين المطيعِين، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ هي في سُرعَةِ فَنائِها ونفَادِها مثل متاعِ البيت في سُرعةِ فنائه وفراغهِ وسقوطه وانكسارهِ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّهُ كان يقولُ في صفةِ الدنيا: (أمَّا مَاضِي فحكَم، وَأمَّا مَا يُغْنِي فَأمَانِيٌّ وَغرُورٌ). وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [الرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ أي سَابقوا إلى ما أمِرتُم وإلى التَّوبةِ لتنالوا مغفرةً من ربكم جنَّةٍ سِعَتُها كسِعَةِ السَّماء والأرضِ. وَقِيْلَ: المرادُ بالآيةِ السَّبْقُ إلى الجهادِ والجمُعةِ والجماعاتِ وسائر أعمال البرِّ، وباقي الآيةِ ظاهرٌ. ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ ؛ معناهُ: ما أصابَ أحداً مصيبةً في الأرضِ من

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٨٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه أشعث بن نزار ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٦١١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قحطِ المطر وقلَّة النباتِ ونقص الثِّمار، (وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ) من المـرضِ والمـوتِ وفَقدِ الأولادِ، إلاَّ وهو مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظِ من قبل أن نَخلُقَ الأرضَ. ويقالُ: من قبلِ أن نَخلُقَ النَّفسَ، ويقالُ: من قبلِ أن نقدِّرَ تلك المصيباتِ في اللَّوح المحفوظِ؛ لأن خلـقَ ذلك وتقديرَهُ على الله هيِّنٌ. والْبَرَأ في اللغة هو الْخَلْـقُ، والبَـارِئُ: الخـالقُ، والبَرِيَّـةُ: الخليقةُ. قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ ﴾ ؛ يعني إثبـاتُ ذلـك كلـه مـع كَثرتهِ على الله هيِّنٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ؛ بالصبرِ عند المصائب، والشُّكرِ عند النِّعَمِ، لأنَّ العاقلَ إذا عَلِمَ الذي فاتَهُ كان مكتوبـاً عليه، دعاهُ ذلك إلى تركِ الْجَزَعِ، وكانت نفسهُ أسكنَ وقلبهُ أطيبَ، وإذا عَلِمَ أنَّ الذي أتاهُ من الدنيا كان مَكتوباً له قبلَ أن يصيرَ إليه، وأنه لا يبقَى عليه، دعاهُ ذلك إلى تركِ النظرِ.

قرأ أبو عمرو (أتَاكُمْ) بالقصرِ؛ أي جاءَكُم، واختارَهُ أبو عُبيد لقوله (فَاتَكُمْ) ولم يقل: أفَاتَكُمْ، وقرأ الباقون (آتَاكُمْ) بالمدِّ؛ أي أعطَاكُم، واختارَهُ أبو حاتم، وكان الحسَنُ يقولُ لصاحب المال: (فِي مَالِهِ مُصِيبَتَانِ لَمْ يَسْمَعِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ بمِثْلِـهَا: يُسْـلَبُ عَنْ كُلِّهِ وَيُسْأَلُ عَنْ كُلِّهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ﴾ ؛ فيـه ذمٌّ للفـرحِ الذي يختالُ ويبطرُ بالمالِ والولدِ والولايةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ ؛ يعـني الذيـن يمتَنِعون عن أداءِ الحقوق الواجبة في المالِ، ويمنَعُون الناسَ عن أداءِ تلك الحقوق، وهذا نعتُ المختال الفخور.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤ ﴾ ؛ أي مَـن يعرضْ عن الإيمان وعن أداءِ الحقوق، فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ عنه وعن إيمانهِ، وهو المحمـودُ في أفعالهِ. قرأ نافعُ وابن عامر (فَإنَّ اللهَ الْغَنِيُّ)، وقرأ الباقون (هُوَ الْغَنِيُّ).

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾؛ الحواريِّين وأتباعـهم، ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾؛ يعني المودَّة، كانوا مُتوادِّين بعضهم لبعضٍ كما وصفَ اللهُ تعالى أصحابَ مُحمَّدٍ ﷺ بقوله تعالى ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾؛ ليس بعطفٍ على ما قبلَهُ، وانتصابهُ بفعلٍ مُضمَرٍ يدلُّ عليه ما بعدَهُ، كأنه قالَ: وابتدَعُوا رهبانيةً؛ أي جاءُوا بها من قِبَل أنفسِهم، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾؛ معناهُ: ما فرَضناها عليهم تلك الرهبانيَّة، بل هي غلُوُّهم في العبادةِ من حملِ المشاقِّ على أنفسِهم، وهي الامتناعُ من المطعمِ والمشرب والملبَسِ والنِّكاحِ والتعبُّدِ في الجبال، ما فرَضنَا عليهم ذلك إلاّ أنَّهم طلَبُوا بها رضوانَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناها: ما فرَضنا عليهم إلاَّ اتباعَ ما أمرَ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾؛ أي قصَّرُوا فيما ألزَمُوه أنفسَهم ولم يحفَظُوها حقَّ الحفظِ، ويقالُ: إنه لَمَّا لم يُؤمِنوا بالنبيِّ ﷺ حين بُعث كانوا تاركين لطاعةِ اللهِ تعالى غيرَ مُراعين لها فضيَّعوها وكفرُوا بدينِ عيسى بن مريم، وتَهوَّدوا وتنَصَّروا وتركوا الترهيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾؛ وهم الذين أقَامُوا على دينِ عيسى حتى أدركُوا مُحمَّداً ﷺ فآمَنُوا به فأعطيناهم ثوابَهم، قال ﷺ: [مَنْ آمَنَ بي وَصَدَّقَنِي وَاتَّبَعَنِي فَقَدْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْنِي فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَالِكُونَ][2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ معناهُ: وكثيرٌ منهم خالَفُوا دينَ عيسى فقالوا هو ابنُ اللهِ أو نَحواً من هذا القولِ.

---

(١) الفتح / ٢٩ .

(٢) إسناده حسن، في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٤-٦٥؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان وابن عساكر من طرق عبدالله بن مسعود) وذكره مطولاً. وفي مجمع الزوائد: ج١ ص١٦٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني بإسنادين رجال احدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف وثقه أحمد وغيره، وفيه ضعف).

والرهبانيَّةُ في اللغة: خَصْلَةٌ يظهرُ فيها معنى الرَّهْبَنَةِ، وذلك إمَّا في لبسهِ أو انفرادهِ عن الجماعة للعبادةِ، قال رسولُ الله ﷺ: [لاَ تُشَدِّدُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإنَّ قَوْماً شَدَّدُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، ﴿رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾][1].

وعن عروةَ قال: (دَخَلَتِ امْرَأةُ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بَاذةُ الْهَيْبَةِ، فَسَألَتْهَا: مَا شَأْنُكِ؟ فَقَالَتْ: زَوْجِي يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ، فَذكَرَتْ عَائِشَةُ ذلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ، فَقَالَ لَهُ: [يَا عُثْمَانُ إنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا، فَمَا لَكَ فِيَّ أسْوَةٌ، فَوَاللهِ إنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأحْفَظُكُمْ لِحُدُودِهِ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ أي يا أيُّها الذين آمَنُوا بموسَى وعيسى اتَّقُوا الله وآمِنُوا برسولهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُؤْتِكُمْ نَصِيبَين من ثوابهِ وكرامته، نَصيباً لإيمانكم به اليومَ ونصيباً لإيمانكم المتقدِّم بالأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ على الصِّراط، كما قال تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أيْدِيهِمْ﴾[3] فهذا علامةُ المؤمنين في القيامةِ. وَقِيلَ: معناهُ: ويجعَلْ لكم نُوراً بالإيمان في الدُّنيا، يعني الهدَى والبينات تهتدون به إلى طاعةِ الله، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ ؛ لمن ماتَ على التوبةِ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليعلَمَ أهلُ الكتاب الذين لم يُؤمِنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ وحسَدُوا المؤمنين منهم أن لا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٦؛ قال السيوطي: (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن جبير عن أبيه عن جده) وذكره، وقال: (أخرجه أبو يعلى عن أنس) وذكره.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: كتاب النكاح: باب وجوب النكاح وفضله: الحديث (١٠٣٧٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٢٦، وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٠٢: كتاب النكاح: باب حق المرأة على الزوج؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى والطبراني بأسانيد وبعض أسانيد الطبراني رجالها ثقات).

(٣) التحريم / ٨ .

يَصرِفوا النبوَّةَ عمَّن تفضَّلَ اللهُ بها عليه إلى غيرِهِ، وأنَّ التوفيقَ بتقديرِ الله يُعطي النبوَّةَ مَن يشاءُ ممن كان أهلاً لها، صَالحاً للقيامِ بها. وَقِيْلَ: ليعلمَ الذين لَم يؤمنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ أنَّهم لا أجـرَ لهـم ولا نصيـبَ لهـم في فضـلِ الله، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ؛ فـآتى المؤمنـين منـهم أجرَيـن، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ ؛ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ من عبادِهِ المؤمنين، و(لاَ) في قوله (لِئَلاَّ) زائدةُ المعنى، لأن يعلمَ مثل قولِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾[1].

آخر تفسير سورة **(الحديد)** والحمد لله رب العالمين.

(١) ص~/ ٧٥.

سُورَةُ الْمُجَادَلَـةِ

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَـةٍ وَثَلاَثٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُجَادَلَةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ ؛ هذه الآياتُ نزلَت في خَوْلَةَ بنتِ ثعلبـةَ، وهـي امرأةٌ من الخزرجِ من بني عمرو بن عـوفٍ، وفي زوجِـها أوسَ ابـنِ الصَّـامت، وكَـانَ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ أخَوَيْنِ، وكَانَتْ خَوْلَةُ حَسَـنَةَ الْجِسْـمِ، فَرَآهَـا زَوْجُهَا سَاجِدَةً فِي صَلاَتِهَا، فَنَظَرَ إلَى عَجُزِهَا، فَلَمَّا فرغَتْ مِنْ صَلاَتِهَا رَاوَدَهَا فَأَبَتْ، فَغَضِبَ عَلَيْهَا، فقَالَ لَهَا: أنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أمِّي، وَنَدِمَ بَعْدَ ذلِكَ عَلَـى مَـا قَـالَ، وكَـانَ الظِّهَارُ طَلاَقاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

فَمَضَتْ خَوْلَةُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَوَجَدَتْ عَائِشَةَ تَغْسِلُ رَأسَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ زَوجِي أوْسَ بْنَ الصَّامِتِ تَزَوَّجَنِي وَأنَا شَابَّةٌ غَنِيَّةٌ ذاتُ مَـالٍ وَأهْلٍ، حَتَّى إذا أكَلَ مَالِي وَأفْنَى شَبَابي وَتَفَرَّقَ أهْلِي وَكَبُرَ سِنِّي ظَاهَرَ مِنِّي، وَقَدْ نَـدِمَ عَلَى ذلِكَ، فَهَلْ شَيْءٌ يَـا رَسُـولَ اللهِ يَجْمَعُنِـي وَإيَّـاهُ؟ فَقَـالَ ﷺ: [مَـا أرَاكِ إلاَّ قَـدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذكَرَ طَلاَقَـاً، وَإنَّـهُ أبُو وَلَدِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَقَالَ ﷺ: [حَرُمْتِ عَلَيْهِ]. فَقَالَتْ: أشْكُوا اللهَ تَعَالَى.

---

(١) ذكره ابن حجر في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٤٩٧ وعزاه إلى الثعلبي وابـن مردويـه والواحـدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٥٢.

ثُمَّ جَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: [حَرُمْتِ عَلَيْهِ] فَقَالَتْ: أَشْكُوا إِلَى اللهِ فَاقَتِي وَشِدَّةَ حَالِي. فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى الْوَحْيُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [ادْعِي زَوْجَكِ] فَتَلاَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوجِهَا وَتَشتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسمَعُ تَحَاوُرَكُما إِن اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(١).

وروي: أنَّ خَوْلَةَ لَمَّا أتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ أوْساً تَزَوَّجَنِي وَأنَا شَابَّةٌ مَرْغُوبٌ فِيَّ، فَلَمَّا خَلاَ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي وَنَثَرْتُ ذا بَطْنِي جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَأُمِّهِ، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى قَوْلِهِ، وَلِي مِنْهُ صِبْيَةٌ صِغَارٌ؛ إنْ ضَمَمْتَهُمْ إلَيْهِ ضَاعُوا، وَإنْ ضَمَمْتَهُمْ إلَيَّ جَاعُوا، فَقَالَ ﷺ: [مَا عِنْدِي فِي أمْرِكِ شَيْءٌ] فَقَالَتْ: زَوْجِي وَابْنُ عَمِّي وَأبُو أوْلاَدِي وَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَخْدِمَ نَفْسَهُ، فَقَالَ ﷺ: [مَا أرَاكِ إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ].

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ تَقُلْ ذلِكَ؛ إنَّهُ مَا ذكَرَ طَلاَقاً وَإنَّمَا قَالَ كَلِمَةً، فَقَالَ ﷺ: [مَا أمِرْتُ فِي شَأْنِكِ بشَيْءٍ، وَإنْ نَزَلَ فِي شَأْنِكِ شَيْءٌ بَيَّنْتُهُ لَكِ] فَهَتَفَتْ وَبَكَتْ وَجَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ إنِّي أشْكُو إلَيْكَ شِدَّةَ وَجْدِي وَمَا يَشُقُّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، وَرَفَعَتْ يَدَهَا إلَى السَّمَاءِ تَدْعُو وَتَتَضَرَّعُ.

فَبَيْنَمَا هِيَ كَذلِكَ، إذْ تَغَشَّى رَسُولَ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ، فَلَمَّا سَرَى عَنْهُ قَالَ: [يَا خَوْلَةُ قَدْ أنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي زَوْجِكِ الْقُرْآنَ](٢) ثُمَّ تَلاَ (قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إلَى الله وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ الله سَمِيعٌ).

معناهُ: قد سمعَ اللهُ قولَ المرأةِ التي تُسائِلُكَ وتخاصمُكَ في أمر زوجِها، وترفعُ إلى الله ما بها من المكروهِ، واللهُ يسمَعُ تحاوُرَكما ومراجعتكما، إنَّ اللهَ سميعٌ لمقالتِكما عليم بأمرِها وأمرِ زوجها. والتَّحَاوُرُ: تَراجُعُ الكلامِ.

---

(١) ذكر البخاري شطراً منه معلقاً في الصحيح: كتاب التوحيد: الحديث (٧٣٨٥). وأخرج بعضه ابن ماجة في السنن: كتاب السنة: الحديث (١٨٨)، وكتاب الطلاق: الحديث (٢٠٦٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٤٣). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦١٠٨-٢٦١٢٠) بأسانيد عديدة وألفاظ. والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٤٦، وإسناده صحيح. وبطوله ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٥٣.

(٢) ينظر ما قبله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) وهو أنَّ النبيَّ ﷺ كلَّما قالَ لها [قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ] قالت: واللهِ ما ذكرَ طَلاقاً، فكان هذا جِدالاً، وقولهُ تعالى (وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ) وهو قولُها: أشكُوا إلى اللهِ فاقَتِي ووحدَتِي وإنَّ لي صبياناً صِغاراً إذا ضممتهم إليه ضاعُوا، واذ ضممتهم إليَّ جاعُوا.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ ؛ أي ليس هُنَّ بأُمَّهاتِهم، وما هُنَّ كأُمَّهاتِهم في الْحُرمَةِ، وقرأ عاصمُ (مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ) بالرفع، كما يقالُ: ما زيدٌ عالِمٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ؛ معناهُ: وإنَّ المظاهرين ليقولون، ﴿ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ ؛ أي قَبيحاً من حيث يُشبهُوا المرأةَ التي هي في غايةِ الإباحةِ بما هو في غايةِ الْحُرمَةِ وهو ظهرُ الأُمِّ، والمنكرُ الذي هو الذي لا يُعرَفُ في الشَّرعِ، والزُّورُ الكذبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ ﴾ ؛ أي لكثيرُ العفوِ عن ذُنوبِ عبادهِ، كثيرُ الغفران والسَّترِ عليهم، عفَا عنهم وغفرَ لَهم بإيجاب الكفَّارة عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ ؛ اختلف المفسِّرون في معنى العودِ المذكور في الآيةِ[1]، فذهبَ أصحابُ الظَّواهرِ إلى أنَّ المرادَ به إعادةُ كلمةِ الظِّهار، وهذا قولٌ مخالفٌ لقولِ أهلِ العلمِ، وقد أوجبَ النبيُّ ﷺ الكفارةَ على أوسٍ حين ظاهرَ من امرأتهِ، ولم يسأَلْ أكرَّرَ الظهارَ أم لا ؟.

وذهبَ مالكٌ إلى أن العَوْدَ هو العزمُ على الوطءِ، قال: (وإذا عَزَمَ عَلَى وَطْئِهَا بَعْدَ الظِّهَار فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، سَوَاءٌ أمْسَكَهَا أوْ أبَانَهَا أوْ عَاشَتْ أوْ مَاتَتْ). وقال الشافعيُّ: (الْعَوْدُ هَا هُنَا هُوَ الإمْسَاكُ عَلَى النِّكَاحِ، إذا أمْسَكَهَا عُقَيْبَ الظِّهَار وَلَمْ يُطَلِّقْهَا، فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ وَلاَ تَسْقُطُ عَنْهُ تِلْكَ الْكَفَّارَةُ وَإنْ أبَانَهَا بَعْدَ ذلِكَ.

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٨٠؛ ذكر القرطبي قال: (وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على سبعة أقوال) وذكرها.

وذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ إلى أنَّ معنى العَوْدِ هو أن يعودَ المقولُ فيه فيستبيحُ ما حرَّمَهُ بالظهار، وقد يُذكَرُ المصدرُ ويراد به المقولُ كما قال ﷺ:[الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْب يَعُودُ فِي قَيْئِهِ](١) وإنَّما هو عائدٌ في الموهوب. ويقالُ: اللهُمَّ أنتَ رجَاؤُنا؛ أي مَرجُوُّنا، وقال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٢) أي الْمُوقَنُ به، والعَوْدُ في الشَّيءِ هو فعلُ ما يناقضُ ذلك الشيءَ، وحروفُ الصِّفات يقومُ بعضها مقامَ بعضٍ كما في قولِهِ تعالى ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾(٣)، فيكون المعنى: ثُمَّ يعُودون فيما قَالُوا.

والإمساكُ على النِّكاح عُقيبَ الظِّهار لا يكون عَوْداً على وجهِ التَّراخي ولا يناقضُ لفظَ الظِّهار، فإنَّ الظهارَ لا يوجِبُ تحريمَ العقدِ حتى يكون إمساكُها على النكاحِ عَوْداً، ثم على مذهب أبي حنيفةَ: إذا قصدَ أن يستبيحَها ثم أبانَها سقطَتِ الكفارةُ عنه.

وفي قولِهِ تعالى (مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَمَاسَّا) دليلٌ على أنَّ هذه الكفارةَ إنما شُرعَتْ لدفعِ الْحُرمَةِ في المستقبلِ، وفيه دليلُ تحريمِ التَّقبيلِ واللَّمسِ قبلَ التكفيرِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى (مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَمَاسَّا) يتناولُ جميعَ ضُروب الْمَسِيسِ.

وفي قولهِ تعالى (مِنْ نِسَائِهِمْ) دليلٌ على أنَّ الظِّهارَ لا يكون في الإماءِ إلاّ إذا كُنَّ زوجاتٍ؛ لأنَّ إطلاقَ لفظِ النساء ينصرفُ إلى الحرائرِ كما في قولِهِ تعالى ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾(٤). وفي قولِهِ تعالى (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) دليلٌ على جواز إعتاقِ الرَّقبة الكافِرة في الظِّهار؛ لأن ذِكرَ الرَّقبة مطلقٌ في الآيةِ، بخلافِ كفَّارة القتلِ.

والأصلُ في الظِّهار أنه إذا ذكرَ في المرأةِ ما يجمَعُها مثلُ الجسدِ والبدن والرأسِ والرَّقبة ونحوها، والظهرِ والبطن والفرجِ والفخذ وشبَّهَها بمحارمهِ كان مُظَاهِراً. وإنْ

(١) إسناده صحيح، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٢٩٠: الحديث (٢٠٦٩٢ و١٠٦٩٣). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٨٠ و٣٤٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الهبة: باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته: الحديث (٢٦٢١).

(٢) الحجر / ٩٩ .

(٣) طه / ٧١ .

(٤) النور / ٣١ .

قال: أنتِ عليَّ كَيَدِ أمِّي أو رجلِها، أو قال: يدُكِ عليَّ أو شَعرُكِ عليَّ كظهرِ أمي كان بَاطلاً.

وقال مالكٌ: (يَصِحُّ الظِّهَارُ بالتَّشْبيهِ بالأَجْنَبيَّةِ). وقال الشعبيُّ: (لاَ يَصِحُّ الظِّهَارُ إلاَّ بالأُمِّ)، وقال الشافعيُّ: (إذا قَالَ: يَدُكِ، أوْ قَالَ: أنْتِ عَلَيَّ كَيَدِ أمِّي، فَهُوَ ظِهَارٌ). ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ ﴾ ؛ أي فمَن لم يجِدْ مِن المظاهرين الرقبةَ ولا قِيمَتَها، فعليه أنْ يصُومَ شَهرَين متتابعين قبلَ الْمَسِيسِ. وهذا يقتضِي أنه إذا أفطرَ فيهما لِمَرضٍ أو غيرِهِ كان عليه استقبالُ الصَّومِ أيضاً، وكذا إذا قدرَ على الرقبةِ في خلالِ الصَّوم فلم يُعتِقها حتى عجزَ عنها كان عليه الاستقبالُ أيضاً في قولِ أبي حنيفةَ ومحمَّد، سواءٌ كان المسيسُ بالليلِ أو بالنهار. وقال أبو يوسف: (إذا مَسَّهَا باللَّيْلِ عَامِداً أوْ بالنَّهَار نَاسِياً لَمْ يَسْتَقْبلْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ﴾ ؛ إذا عجزَ عن الصَّومِ لكِبَرٍ أو مرضٍ فكفَّارتهُ أن يُطعِمَ ستِّين مِسكيناً، وإنْ مسَّها المظاهرُ بعدَ ما أطعمَ بعضَ الطعامِ لم يستقبلِ الإطعامَ؛ لأنه ليس في ذكرِ الإطعامِ في هذه الآيةِ مِن قَبلِ أن يتماسَّا، إلاَّ أنَّا إنما أمَرناهُ بالإطعامِ قبلَ المسيس؛ لأنَّا لو لم نَأمُرْهُ بذلكِ لم يُؤمَنْ أن يَمسَّها فيَقدِرَ على العتقِ قبلَ الإطعامِ أو يقدرَ على الصَّومِ قبلَ الإطعامِ فيحصلُ أو الصومُ بعدَ المسيسِ، وذلك خلافُ ما أوجبَهُ اللهُ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ ﴾ ؛ أي ذلك الذي أمركم اللهُ به لتَستَديمُوا الإيمانَ باللهِ ورسولِه، وتُصدِّقوا أنَّ اللهَ أمرَ بذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ ؛ أي التي شرَّعَها اللهُ تعالى في الظِّهار أحكامُ اللهِ وفرائضُهُ، ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ، وللجاحِدين لحدودِ الله عذابُ جهنم.

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ قَالَ النَّبيُّ ﷺ لأَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ: [هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟] قَالَ: فَإنِّي قَلِيلُ الْمَالِ، قَالَ: [فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ؟] قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي إذا لَمْ آكُلْ فِي الْيَوْمِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ كَلَّ بَصَرِي وَخَشِيتُ أنْ تَعْشُو عَيْنِي، قَالَ: [فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِيناً ؟] قَالَ: لاَ وَاللهِ إلاَّ أنْ تُعِينَنِي يَا رَسُولَ

اللهِ، فقَالَ ﷺ:[إنِّي مُعِينُكَ بخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعاً وَأدْعُو لَكَ بالْبَرَكَةِ] فَأعَانَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[١].

ورُوي: أنَّ خَوْلَةَ لَمَّا ظَاهَرَ مِنْهَا أوْسُ بْنُ الصَّامِتِ، خَرَجَ فَجَلَسَ فِي قَوْمِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إلَيْهَا فرَاوَدَهَا عَنْ نَفسِهَا، فَقَالَتْ: كَلاَّ؛ وَالَّذِي نَفْسُ خَوْلَةَ بيَدِهِ لاَ تَصِلُ إلَيَّ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ فِيَّ وَفِيكَ. ثُمَّ مَضَتْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَتْ عَلَيْهِ قِصَّتَهَا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ.

فَقَالَ ﷺ: [مُرِيهِ أنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً] فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدَهُ ذلِكَ، قَالَ: [مُرِيهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابعَيْنِ] قَالَتْ: يَا نَبيَّ اللهِ إنَّهُ شَيْخٌ كَبيرٌ مَا بهِ مِنْ صَوْمٍ، قَالَ: [مُرِيهِ فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً] قَالَتْ: وَاللهِ مَا يَجِدُ مَا يُطْعِمُ، قَالَ: [إنَّا سَنُعِينُهُ بعِرْقٍ مِنْ تَمْرٍ] - وهو مكتل سبعٍ وثلاثين صَاعاً — قَالَتْ: أنَا أُعِينُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بعِرْقٍ آخَرَ[٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ معناهُ: إنَّ الذين يخالِفُون اللهَ ورسولَهُ في الدِّين، ويصِيرُون في حدٍّ غير الحدِّ الذي فيه أولياءُ اللهِ، أذِلُّوا وأخزُوا بالعذاب كما أذِلَّ الذين أشرَكُوا من قبلِ أهلِ مكَّة، مِن الذين خالَفُوا الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم.

والْكَبْتُ في اللغة: الكَبُّ، ومنه كَبَتَ اللهُ عدُوَّكَ. وَقِيلَ: معناهُ: كُبدُوا أي ضُرِبُوا على أكبَادِهم، فقُلبت الدالُ تاءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ ﴾ ؛ أي فرائضَ معروفةٍ، ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ ﴾ ؛ أي ولِمَن لم يعمَلْ بها ولم يصدِّقْ بها عذابٌ مُهينٌ. ثم بيَّن ذلك العذابَ فقال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ ﴾ ؛ ويَجزيهم عليه، وقولهُ تعالى: ﴿ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ؛ مما يجبُ لهم وعليهم، ﴿ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ ؛ عالِمٌ.

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: كتاب النكاح: باب المهد: ج ٣ ص٣١٦: الحديث (٢٥٩) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٥.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ يعلمُ بكلِّ ما في السَّمواتِ وكلِّ ما في الأرضِ مما ظهرَ للعبادِ، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١).

وقولُهُ تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ) يعني الْمُسَّار؛ ما تُناجِي به صاحبَكَ من شيءٍ إلاّ هو رابعُهم بالعلم، يعني نجوَاهم معلومةٌ عندَهُ كما تكون معلومةً عند الرابعِ الذي هم معهم، ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ ، ولا أقلَّ من ثلاثةٍ ولا أكثرَ من الخمسةِ إلاَّ وهو عالِمٌ بهم وقادرٌ عليهم في أيِّ موضعٍ كانوا، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ ؛ عند الجزاءِ والحساب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ ؛ وهذه الآيةُ نزلت في اليهودِ والمنافقين لَمَّا أعيَاهُم الإسلامُ وظهورهُ وجعلوا يتناجَون فيما بينهم فيُوهِمون المؤمنين أنَّهم يتناجَون فيما يسُوءُهم.

وكانوا إذا خَرجت سريَّةٌ من سَرايا رسول الله ﷺ، فرَأى هؤلاءِ رجَالاً مِمَّن خرجَ لهم في السريَّة صديقٌ أو قريب تنَاجَوا فيما بينهم ليَظُنَّ الرجلُ أنه حدثَ بصاحبِهِ حادثٌ فيحزنُ عليه لذلك. فلمَّا كثُرَ ذلك وطالَ شَكَوا ذلك إلى رسول ﷺ فنهَاهُم عن المناجاةِ دون المسلمين، فلم ينتَهُوا وعادُوا إلى مُناجَاتِهم، فأنزلَ اللهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ ترَ إلى هؤلاءِ الذين نَهاهُم اللهُ عن مُناجَاةِ بعضهم بعضاً دون المؤمنين في الآيةِ التي قبلَ هذه، ثم عَادُوا إليها مُغَايَظَةً لأصحاب رسول الله ﷺ، ويتشَاوَرُون فيما بينهم بالكَذِب والاعتداء، ويُوصِي بعضُهم بعضاً بمخالفةِ النبيِّ ﷺ، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾ ؛ يا مُحَمَّدُ، ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ﴾ ؛ أي سلَّمُوا عليك بما لم يسَلِّمْ به اللهُ عليك.

---

(١) يونس / ٦١.

وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ! وَكَانَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ سِتْرٍ فَلَعَنَتْهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [مَهْلاً يَا عَائِشَةُ] فَقَالَتْ: أمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا ؟ قَالَ: [أوَمَا سَمِعْتِ كَيْفَ أجَبْتُهُمْ ؟] ثُمَّ قَالَ: [إذا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ مَا قُلْتَ]. والسَّامُ هو الموتُ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم كانوا يقُولون فِي أنفسِهم: ألاَ ينزِّلُ اللهُ العذابَ بنا بما نقولُ لنبيِّهِ إنْ كان نَبيّاً كما يزعمُ، فلو كان مُحمَّدٌ نبيّاً لعذبَنا اللهُ بما نقولُ، فقَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ؛ أي كَافِيهم جهنمُ عذاباً لَهم يلزمُونَها ويُقاسُون حرَّها، ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨ ﴾ ؛ أي فبئْسَ الْمَرْجِعُ يرجعون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ معناهُ: يا أيُّها الذين آمَنُوا إذا تجالَستُم للسرِّ فيما بينكم، فلا تُجالِسُوا وتخالفوا بالمعصيةِ والظُّلم ومخالفةِ الرسول، ولا تكونوا كاليهودِ والمنافقين، ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ ؛ أي بفِعْلِ ما أمِرتُم به، وتركِ ما نُهيتم عنه، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ ﴾ ، واتَّقوا عذابَ اللهِ الذي إليه تُرجَعون في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّما النَّجوَى الذي يفعلهُ اليهود والمنافقون من عملِ الشَّيطان ووَسَاوسِهِ لِيُحزنَ به الشيطانُ الذين آمَنوا وأخلَصُوا، وليس تناجيهم يضرُّ المؤمنين شيئاً إلاَّ بعلمِ اللهِ وقضائهِ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠ ﴾ ؛ ويستَعِيذُوا به من الشَّيطانِ. ويقرأ (لِيُحْزِنَ) بضمِّ الياء وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْرِمُ أهْلَ بَدْرٍ مِنَ

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ١٠ ص٣٩٢: كتاب الجامع: باب السلام على أهل الشرك: الحديث (١٩٤٦٠). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٧ و٥٨. والبخاري في الصحيح: كتاب استتابة المرتدين: الحديث (٦٩٢٧).

الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَمِنْهُمْ ثَابتُ بْنُ قَيْس بْن شَمَّاس وَقَدْ سَبَقُوا فِي الْمَجْلِس، فَقَامُوا حِيَالَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ. ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذلِكَ، فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ.

فَقَامُوا عَلَى أرْجُلِهِمْ يَنْتَظِرُونَ أنْ يُوَسَّعَ لَهُمْ، فَعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ ضَرَرِ الْقِيَام، فَشُقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أهْلِ بَدْرٍ:[قُمْ يَا فُلاَنُ وَأنْتَ يَا فُلاَنُ] فَأقَامَ مِنَ الْمَجْلِسِ بقَدْرِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أهْلِ بَدْرٍ.

فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى مَنْ أُقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ فِي وُجُوهِهِمْ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: ألَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أنَّ صَاحِبَكُمْ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ؟ فَوَاللهِ مَا عَدَلَ عَلَى هَؤُلاَءِ إنَّ قَوْماً أخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، وَأحَبُّوا الْقُرْبَ مِنْ نَبِيِّهِمْ فَأقَامَهُمْ وَأجْلَسَ غَيْرَهُمْ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[١].

قولهُ تعالى: (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ) أي أوسِعُوا في المجلسِ (فَافْسَحُوا) أي أوْسِعُوا على مَن حضرَ مجلسَ رسولِ الله ﷺ وأحبَّ سماعَ كلامهِ؛ لتَشتركُوا في سماعِ الدِّين منه، وهذا أمرٌ لهم بالتأديب كي لا يؤذِي أحدٌ جليسَهُ بفعلِ الزِّحام، ولئلاَّ يكون غرضُهم إلاَّ التواضعُ للهِ تعالى وللدِّين، وذلك أنَّهم كانوا قد جلَسُوا مُتضايقين حولَ النبيِّ ﷺ، فأُمِروا أن يتنحَّوا عنه في الجلوسِ ويتوسَّعوا المجلسَ غيرَهم معهم. قَوْلُهُ تَعَالَى:(يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ) أي يُوسِّع مجالِسَكم في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: وإذا قِيلَ: انْهَضُوا إلى صلاةٍ أو أمرٍ بمعروف ونُودِيَ للصَّلاة فانْهَضوا. وَقِيْلَ: معناهُ: وإذا قيلَ لكم اخرجُوا إلى الجهادِ فاخرُجوا يرفعِ الله درجاتِكم في الجنَّة، ويرفعِ اللهُ الذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ فوقَ درجاتِ الذين أكرمُوا بالإيمانِ بغيرِ علمٍ.

وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [إنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الَّذِي لَيْسَ بعَالِمٍ سَبْعُونَ دَرَجَةً،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٣.

اللهُ أَعْلَمُ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ][(١)]. وقال ﷺ: [فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى سَائِرِ أُمَّتِي][(٢)]، وقال ﷺ: [يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْعَابِدِ، فَيُقَالُ لِلْعَابِدِ: اُدْخُلِ الْجَنَّةَ، وَيُحْبَسُ الْفَقِيهُ فَيَقُولُ: فَبِمَ حَبَسْتُمُونِي؟! فَيُقَالُ لَهُ: اشْفَعْ].

قرأ أهلُ المدينة والشام وعاصم (انْشُزُوا فَانْشُزُوا) بضمِّ الشين، وقرأ الآخرون بكسرِها، وهما لُغتان، ومعناهما: إذا قيلَ لكم: تحرَّكوا وقُوموا وارتفعوا وتوسَّعوا لإخوانِكم فافعَلُوا. وقِيْلَ: معناهُ: إذا قيل لكم انْهَضُوا إلى الصَّلاة والذِّكر وعملِ الخير، فانشُزوا ولا تقصِّروا.

وقولُه تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ ؛ يعني يرفعُهم بطاعةِ رسول الله ﷺ وقيامِهم من مجالسِهم وتوسعِهم لإخوانِهم، ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ ﴾ ؛ منهم بفضلِ عَمَلِهم، قال ﷺ: [مَنْ جَاءَتْ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَنْبِيَاءِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الأغنياءَ كانوا يَسْتَخْلُونَ بالنبيِّ ﷺ فيُشاوِرُونَهُ بما يريدون ويُلِحُّونَ عليه بالحاجاتِ والمسائل، ويشغَلُون بذلك أوقاتَهُ التي كانت مستغرقةً بالعبادةِ والإبلاغِ إلى الأمة، وكان الفقراءُ لا يتمكَّنون من النبيِّ ﷺ كتمكُّنِ الأغنياءِ منه.

---

(١) معنى الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٩٦. وأبو داود في السنن: كتاب العلم: الحديث (٣٦٤١)، وإسناده ضعيف، وله شواهد يتقوى بها. وفي موارد الضمآن: الحديث (٨٠)؛ قال ابن حبان: (حسن).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب العلم: باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: الحديث (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي، وقال: حسن صحيح. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٢٣٣: الحديث (٧٩١١)، وإسناده صحيح. وفي مجمع الزوائد: ج ١ ص١٢٤-١٢٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه القاسم أبو عبدالرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: ص١١٥: الحديث (٥٣٧) وفيه علي بن زيد الجدعاني.

فأمرَ اللهُ الناسَ بتقديمِ الصَّدقةِ على نجوَاهُم مع النبيِّ ﷺ إعْظَامـاً لـه وتوقِـيراً لمقامِ مُناجاتهِ، ونفعاً للفُقراءِ بتلك الصَّدقة، وبيَّن أنَّ ذلك خـيرٌ لهـم مـن الكـفِّ عـن الصدقةِ وأصلحُ لقُلوبهم وقلـوب الفقـراء، ورخَّـصَ مَـن لم يجـد مـا يتصـدَّقُ بـه أن يُكلِّمَ النبيَّ ﷺ بما شاءَ من غـيرِ صدقـةٍ، وهـو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

فلمَّا عَلِمَ اللهُ ضيقَ صدر كثيرٍ منهم من ذلك الوجوب نَسَخَ اللهُ ذلـك الحكـمَ بقولـه: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ﴾ ؛ معنـاهُ: أبَخِلتُـمْ يـا أهـلَ الميسرةِ، وثقُلَ عليكم تقديمُ الصَّدقةِ بين نجوَاكم مـع النـبيِّ ﷺ، ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ وخففَ اللهُ عنكم بإسقاطِ تلك الصَّدقة ، ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي دَاومُوا عليها، يعني الصَّلاةَ المفروضةَ، ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضةَ، ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في الفرائضِ، ﴿ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ في السُّنن، ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ من الخيرِ والشرِّ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: (إنَّ فِي كِتَابِ اللهِ آيَةً مَا عَمِلَ بهَا أحَـدٌ قَبْلِـي، وَلاَ يَعْمَـلُ بهَا أحَدٌ بَعْدِي وَهِيَ آيَةُ النَّجْوَى، كَانَ لِي مِثْقَالٌ فَبعْتُهُ بعَشْرَةِ دَرَاهِمَ، فَكُلَّمَا أرَدْتُ أنْ أنَاجِيَ رَسُولَ اللهِ قَدَّمْتُ دِرْهَمـاً، فَقَدَّمْـتُ هَـذِهِ الصَّدَقَـاتِ بَيْـنَ يَـدَي نَجْـوَايَ، ثُـمَّ نُسِخَتْ)(١). قال مجاهدُ: (نُهُوا عَنْ مُنَاجَاةِ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى يَتَصَدَّقُوا، فَلَمْ يُنَاجِهِ إلاَّ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، قَدَّمَ دِينَاراً فَتَصَدَّقَ بهِ، فَنَزَلَتِ الرُّخْصَةُ)(٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ نزَلت هذه الآيةُ في قومٍ من المنافقين كانوا يتولَّون اليـهودَ وينقُلـون أسـرارَ المسلمين إليهم مُغَايَظَةً لَهم، ولم يكونوا من المؤمنين ولا من اليهودِ، وكـانوا يَحلِفُـون للمؤمنين بأنَّا مُؤمِنون مصدِّقون، وهم يعلمون أنَّهم كَاذِبون في حلفِهـم، قَـالَ اللهُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسـير: سـورة المجادلـة: الحديـث (٣٨٤٦)، وقـال: (هـذا حديث صحيح على شرط الشيخين) وليس فيه علي بن علقمة الأنماري.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦١٦٩) بأسانيد.

تَعَالَى: (مَا هُـمْ مِنكُـمْ وَلاَ مِنْـهُمْ) أي وَلا مـن اليـهود، ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أنَّهم كَذَبةٌ.

وقال السديُّ ومقاتلُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْـدِاللهِ بْـنِ نَبْتَـلِ الْمُنَـافِقُ، كَـانَ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْفَعُ حَدِيثَهُ إلَى الْيَهُودِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ إذْ قَالَ: [يَدْخُلُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّار، وَيَنْظُرُ بعَيْنَي الشَّيْطَانِ] فَدَخَلَ عَبْـدُاللهِ بْـنُ نَبْتَـل، وَكَانَ أزْرَقاً.

فَقَالَ ﷺ:[عَلامَ سَبَبْتَنِي أنْتَ وَأصْحَابُكَ؟] فَحَلَفَ باللهِ مَا فَعَلَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: [وَقَدْ فَعَلْتَ] فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بأَصْحَابهِ فَحَلَفُـوا بـاللهِ مَـا سَبُّوهُ، فَـأَنْزَلَ اللهُ هَـذِهِ الآيَةَ): (أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ تَوَلَّـوْا قَوْمـاً غَضِـبَ اللهُ عَلَيْـهِمْ مَـا هُـمْ مِنْكُـمْ وَلاَ مِنْـهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِب وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ)[1] ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ أي هَيَّـأَ لهم عَذاباً شَديداً في قُبورهم، ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا مـن مُوالاةِ اليهودِ وكتمان الكُفرِ والحلف الكاذب مع العلمِ به.

وقولهُ تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ ؛ أي اتَّخذوا أيمانَهم الكاذبةَ تِرْساً مـن القتلِ وجعلُوها عُدَّة ليدفعُوا عـن أنفسـهم التهمـةَ، وقـرأ الحسـنُ (إيْمَانَـهُمْ) بكسـر الألف، وقولهُ تعالى: ﴿ فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي صرَفُوا الناسَ عـن ذكـرِ الله وطاعتهِ بإلقاء الشُّبهة عليهم في السرِّ. وَقِيْلَ: فصَدُّوا المؤمنـين عـن جـهادِهم بـالقتلِ، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ يُهينُهم في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لـن يدفعَ عنهم كثرةُ أموالِهم ولا كثرةُ أولادِهـم مـن عـذاب الله شـيئاً، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٤ مختصراً. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتـاب التفسـير: الحديث (٣٨٤٧) من غير ذكر الاسم، وقال: (حديث صحيح على شرط مسلم). والطـبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٣٠٧). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص١٢٢؛ قـال الهيثمـي: (رجالـه رجال الصحيح). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦١٨٠ و٢٦١٨٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ ؛ انتصبَ على الظَّرفيةِ من قوله (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار) ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يحلِفون للهِ يومئذ أنَّهم كانوا مُخلِصين في الدُّنيا، ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ ﴾ ؛ يومئذٍ؛ ﴿ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ على صوابٍ، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ عندَ اللهِ في حلفهم.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ خُصَمَاءُ اللهِ، فَيَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ مُسْوَدَّةٌ وُجُوهُهُمْ مُزْرَقَّةٌ أَعْيُنُهُمْ، مَائِلَةٌ أَشْدَاقُهُمْ يَسِيلُ لُعَابُهُمْ، يَقُولُونَ: وَاللهِ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِكَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ صَنَماً وَلاَ وَثَناً وَلاَ اتَّخَذْنَا مِنْ دُونِكَ إلَهاً].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (صَدَقُوا وَاللهِ؛ أتَاهُمُ الشِّرْكُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) ثُمَّ تلاَ ابنُ عبَّاس هذه الآيةَ (وَيَحْسَبُونَ أنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ألاَ إنَّهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ) هُمْ وَاللهِ الْقَدَرِيُّونَ، هُمْ وَاللهِ الْقَدَرِيُّونَ)[1].

وقولُهُ تعالَى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ؛ أي غلبَ عليهم واستولَى عليهم وحوَلَهم، ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي شغَلَهم عن ذكر الله وعن طاعته حتى ترَكُوهُ وصاروا إلى الْخسرَان، ﴿ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ ؛ أي جُنْدُهُ، ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ؛ أي يُخالِفُون اللهَ ورسولَهُ، ﴿ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي في الْمَغْلُوبينَ المقهورين، ومِن جُملة مَن يلحقُهم الذلُّ في الدُّنيا والآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ ؛ أي كتبَ ذلك في اللوحِ المحفوظ، وقال الحسنُ: (مَا أُمِرَ نَبِيٌّ بِحَرْبٍ فَغُلِبَ قَطُّ، وَإنَّ الرُّسُلَ عَلَى نَوْعَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ بُعِثَ بِالْحَرْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ بُعِثَ بِغَيْرِ حَرْبٍ، فَهُوَ غَالِبٌ بِالْحُجَّةِ)[2]، وقال تعالَى:

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٨٣٧ وعزاه للثعلبي. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٧ ص٣٠٥. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٦٣.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٢٨٩، وعزاه للزجاج.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي مَانِعٌ حِزْبَهُ من أنْ يَذِلَّ، عَزِيزٌ غالبٌ لِمَن نازعَ أولياءَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ؛ نزَلت هذه الآيةُ في حاطب بن أبي بَلْتَعَة، وذلك أنَّهُ كتبَ إلى أهلِ مكَّة: أنَّ مُحمَّداً يُريدُ أنْ يَغزُوكُمْ فَاسْتَعِدُّوا لَهُ، فأعلمَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ بذلكَ. فَقَالَ ﷺ: [مَا دَعَاكَ يَا حَاطِبُ إلَى مَا فَعَلْتَ؟] فَقَالَ: أحْبَبْتُ أنْ أتَقرَّبَ إلَى أهْلِ مَكَّةَ لِمَكَانِ عِيَالِي فِيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى عِيَالِي ذابٌّ هُنَالِكَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ(٢).

ومعناها: لا تجدُ قوماً يصدِّقون بوحدانيَّة اللهِ تعالى وبالبعثِ بعد الموت يُناصِحُون ويطلبُون مَوَدَّةَ مَن خالفَ اللهَ ورسولَهُ في الدِّين، ولو كانوا أقاربَهم في النَّسب، فإن البراءةَ واجبةٌ من الْمُحَادِّينَ للهِ. وسنذكرُ هذه القصَّة أولَ سورةِ الممتحنة إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

أخبرَ اللهُ تعالى بهذه الآية: أنَّ إيمانَ المؤمنين يَفسُد بمودَّةِ الكفَّار، وإنَّ مَن كان مُؤمناً لا يُوالِي مَن كفرَ، وإنْ كان أباهُ أو ابنَهُ أو أخاهُ أو أحداً من عَشيرتهِ. وعن عبدِالله بن مسعودٍ في هذه الآية أنَّهُ قال: (قَتَلَ أبُو عُبَيْدَةُ أبَاهُ يَوْمَ أحُدٍ)(٣)، فمعنى قولهِ (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ).

وقوله (أوْ أبْنَاءَهُمْ) يعني أبَا بكرٍ رضي الله عنه دعَا ابْنَهُ يَوْماً إلَى الْبرَازِ وَقَالَ: (دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أكِرُّ عَلَيْهِ) فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: [مَتِّعْنَا بنَفْسِكَ يَا أبَا بَكْرٍ، أمَا تَعْلَمُ أنَّكَ عِنْدِي بمَنْزِلَةِ سَمْعِي وَبَصَرِي](٤).

---

(١) الصافات / ١٧٣ . (٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٦.

(٣) في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٦٤؛ قال الثعلبي: (وروى مقاتل بن حيان عن مُرَّة الهمذاني عن عبدالله بن مسعود في هذه الآية).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٧٨. وعزاه ابن حجر في تخريج الكشاف:ج٤ ص٤٩٧ إلى الثعلبي في تفسيره. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:ج ١٧ ص٣٠٧-٣٠٨. وعزاه الثعلبي إلى مقاتل بن حيان كما في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٦٤.

وقوله تعالى: (أَوْ إِخْوَانَهُمْ) يعني مصعبَ بن عُمير قتلَ أخاهُ عبيدَ بن عُمير بأُحُد. وقولهُ تعالى (أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) يعني عمرَ ﷺ قتلَ خالدَ العاصِي بن هشامِ بن المغيرة يومَ بدر، وكذلك عليٌّ ﷺ قتلَ شَيبَةَ بن ربيعةَ، وكذلك حمزةُ ﷺ قتلَ عُتبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ يعني الذين لا يُوادُّون من حَادَّ اللهَ ورسولَهُ أثبتَ اللهُ في قلوبهم حُبَّ الإيمان كأنَّهُ مكتوبٌ في قلوبهم (وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) أي قوَّاهم بنور الإيمانِ حتى اهتَدَوا للحقِّ وعَمِلُوا به. وَقِيْلَ: المرادُ بالرُّوحِ جبريل ﷺ يُعِينُهم في كثيرٍ من المواطنِ. وَقِيلَ: معناهُ: وأيَّدهم بنصرٍ منه في الدُّنيا على عدوِّهم؛ لأنَّهم عَادَوا عشيرتَهم الكفار وقاتلوهم، غضباً لله ولدينهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. وقولهُ تعالى: ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ؛ بإخلاصِهم في التوحيدِ والطاعة، ورَضُوا عنه بما أعدَّ لهم من الثَّواب والكرامةِ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي يا أهلَ هذه القصَّة جندُ اللهِ وأولياؤهُ، ألاَ إنَّ جُنْدَ اللهِ همُ الفائزون بالبقاءِ الدائم والنعيمِ الْمُقيمِ.

آخر تفسير سورة (**المجادلة**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْحَشْرِ

سُورَةُ الْحَشْرِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُ كَلِمَاتٍ، وَأَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ لَمْ يَبْقَ جَنَّةٌ وَلاَ نَارٌ وَلاَ كُرْسِيٌّ وَلاَ حِجَابٌ وَلاَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَلاَ الأَرْضُونَ السَّبْعُ وَالْهَوَامُ وَالرِّيحُ وَالطَّيْرُ وَالدَّوَابُ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْمَلاَئِكَةُ، إلاَّ صَلَّوا عَلَيْهِ، فَإنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أوْ لَيْلَتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ ثُمَّ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أوْ لَيْلَتِهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ عَمِلَهَا][(1)]. وباللهِ التوفيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾؛ قال المفسِّرون: نزلت هذه الآيةُ والسُّورة بأسرِها في بني النَّضير واليهودِ، وعاهدوهُ أن لا يكُونوا معَهُ ولا عليهِ، لا يُقاتِلون معه ولا يقاتلونَهُ، فكانوا على ذلكَ حتى كانت وقعةُ أحُدٍ، فأصابَتِ المسلمين يومئذٍ نَكْبَةٌ، فنقَضُوا العهدَ، وركِبَ كعبُ ابن الأشرَفِ في أربَعين راكباً إلى مكَّة، فأتَوا قُريشاً فطلَبُوا إلى أبي سُفيان وأصحابهِ فحالَفُوهم وعاقَدُوهم بين الكعبةِ والأستار على حرب النبيِّ ﷺ، وأنَّ كلمتَهم واحدةٌ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج٩ ص٢٦٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١؛ قال القرطبي: (أخرجه الثعلبي في تفسيره، وإسناده ضعيف).

ثم رجعَ كعبُ بن الأشرف وأصحابهُ إلى المدينةِ. فنزل جبريلُ عليه السلام على النبيِّ ﷺ وأخبرَهُ بأمرهم وقال له: [إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ بقَتْلِ كَعْب بْن الأَشْرَفِ] فجمَعَ النَّبيُّ ﷺ أصْحَابَهُ وَأخْبَرَهُمْ بمَا صَنَعَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ وَقَالَ لَهُمْ:[إنَّ اللهَ أمَرَنِي بقَتْلِهِ، فانْتَدِبُوا إلَى ذلِكَ].

فانْتَدَبَ رَهْطٌ مِنْهُمْ وَفِيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسلمَةَ، وكَانَ أخَا كَعْبٍ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَحَلِيفَهُ، فَانْطَلَقُوا فِي أوَّلِ اللَّيْلِ إلَى دَار كَعْبٍ، فَنَادَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَاسْتَنْزَلَهُ مِنْ دَارهِ، وَأوْهَمَهُ أنَّهُ يُكَلِّمُهُ فِي حَاجَةٍ، فَلَمَّا نَزَلَ أخَذ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بنَاصِيَتِهِ وكَبَّرَ، فَخرَجَ أصْحَابُهُ وكَانُوا مِنْ وَرَاءِ الْحَائِطِ، فضَرَبُوهُ حَتَّى بَرُدَ مَكَانُهُ، فَصَاحَتِ امْرَأتهُ وَتَصَايَحَتِ الْيَهُودُ، فَخَرَجُوا إلَيْهِمْ وَقَدْ رَجعَ الْمُسْلِمُونَ.

فَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ إلَىرَسُول اللهِ ﷺ وَأخْبَرُوهُ بذلِكَ، فَلَمَّا أصْبَحَ النَّبيُّ ﷺ خَرجَ إلَيْهِمْ غَازِياً، فَتَحَصَّنُوا فِي دُورهِمْ فَوَجَدَهُمْ فِي قَرْيَةٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهَا (زَهْوَةُ) وَهُمْ يَنُوحُونَ عَلَى كَعْبٍ وكَانَ سَيِّدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ؛ بَاغِيَةٌ عَلَى إثْر نَاعِيَةٍ، وَبَاكِيَةٌ عَلَى إثْرِ بَاكِيَةٍ ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالُوا: ذَرْنَا نَبْكِي شَجْواً عَلَى كَعْبٍ.

وَقَدْ كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي سَلُول الْمُنَافِقُ وَأصْحَابُهُ أمَرَ إلَى الْيَهُودِ سِرّاً بأنْ لاَ تَخْرُجُوا مِنَ الْحِصْنِ، وَقَاتِلُوا مُحَمَّداً وَأصْحَابَهُ، فَإنْ قَاتَلُوكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ وَلاَ نَخْذُلُكُمْ وَلَنَنْصُرَنَّكُمْ، وَلَئِنْ أخْرجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ. فَدَرَبُوا عَلَى الأَزِقَّةِ وَحَصَّنُوهَا، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إحْدَى وَعِشْرينَ لَيْلَةً.

فَلَمَّا عَجزُوا عَنْ مُقَاوَمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَآيَسُوا مِنْ نَصْر الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ طَلَبُوا الصُّلْحَ، فَأبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلاَّ أنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَدِينَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْمُرُهُمْ بهِ، فَقبلُوا ذلِكَ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى الْجَلاَءِ، وَعَلَى أنْ يَحْمِلَ كُلُّ أهْلِ ثَلاَثَةِ أبْيَاتٍ مِنْ مَتَاعِهِمْ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ مَا شَاءَ، وَلِنَبيِّ اللهِ مَا بَقِيَ، وَيَخْرُجُوا إلَى الشَّامِ، فَفَعَلُوا ذلِكَ وَخَرجُوا إلَى الشَّامِ إلَى أذْرعَاتٍ وَأريحَا وَالْحِيرَةَ وَخَيْبَرَ.

فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)[١] يعني بني النَّضير من ديارهم التي كانت بيثربَ وحصونِهم. قال ابنُ اسحق : (كَانَ إِجْلاَءُ بَنِي النَّضِيرِ عِنْدَ مَرْجِعِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ فَتْحُ قُرَيْظَةَ عِنْدَ مَرْجِعِهِ مِنَ الأَحْزَابِ، وَبَيْنَهُمَا سَنَتَانِ).

قولُهُ (لأَوَّلِ الْحَشْرِ) معناهُ: هو الذي أخرجَ هؤلاءِ اليهود من منازلهم وحصونِهم لأوَّلِ جمعٍ أجْلُوا من جزيرةِ العرب وهي أرضُ الحجاز حُشِرُوا إلى الشام، وذلكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لَهم يومئذٍ: [اخْرُجُوا] قَالُوا إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ: [إِلَى الْمَحْشَرِ] فَخَرَجُوا إِلَى أَذْرُعَاتٍ وَأَرِيْحَا مِنَ الشَّامِ[٢].

وأمَّا ثاني الحشرُ فهو أن يُحشَرَ الخلائقُ يومَ القيامةِ إلى أرضِ الشَّام أيضاً. ويقالُ: إنما قالَ (لأَوَّلِ الْحَشْرِ) لأنَّ الحشرَ أربعةٌ: حشرُ بني النَّضِيرِ أوَّلاً، ثم حشرُ خَيبر، ثم أهلُ نجران، ثم حشرُ جميعِ أهلِ الكتاب من جزيرةِ العرب في خلافة عُمر رضي الله عنه على ما رُوي: أنَّهُ أجْلاَهُمْ مِنْهَا، وَقَالَ: (عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ لاَ يَجْتَمِعَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ ؛ أي ما ظَننتُم أيُّها المؤمنون أن يخرجَ بنُو النضير من منازلِهم لشدَّة تمكُّنِهم وقوَّتِهم بالأموالِ والمنَعَةِ، وذلك أنَّهم كانوا أهلَ حصُونٍ وعقارٍ ونخيلٍ كثيرة وسلاح.

قولُهُ: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ وظنَّ بنو النضير أنَّ حُصونَهم تمنعُهم من اللهِ؛ أي من أمرِ الله فيهم، ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ؛ أي فأتَاهم أمرُ اللهِ من حيث لم يظُنُّوا أن ينْزِل بهم ما نزلَ من قتلِ كعب ابن الأشرف وقتلِهم وإجلائِهم ونصرِ رسولِ اللهِ ﷺ من حيث لم يتوهَّمَ القومُ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦١٩٥).

(٢) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٤٣؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه أبو سعد البقال والغالب عليه الضعف).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: تسمية النفر الداريين: ج ٣ ص٣٧١.

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ ؛ بقتلِ سيِّدِهم كعبَ بن الأشرف، وكان ذلك أعظمُ شيءٍ عليهم إذ أتاهم ما لم يظنُّوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا أيقنُوا بالجلاءِ حَسَدُوا المسلمين أن يَسكُنوا منازلَهم، فجعلوا يُخرِّبونَها من داخلٍ، والمسلمون يُخرِّبونَها من خارجٍ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يَهدِمُونَها من داخلٍ بأيديهم ليَرمُوا المسلمين بأحجَارها، ويَهدِمُها المؤمنون ليتمَكَّنوا من قتالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ معناه: فَليَعتَبرْ بما أصابَ بني النضير كلُّ مَن له بصرٌ بأمر الله، ولينظر إلى عاقبةِ الكُفرِ والغدر[1] والطَّعنِ في النبُوَّة، وليحذرْ كلُّ قومٍ من الكفَّار مثلَ صنيعِ بني النضير. والمعنى: تدبَّرُوا وانظرُوا فيما صنع، نزلَ بهم يا أهلَ البيتِ والعقل والبصائر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ)، قرأ العامَّة بالتخفيفِ من الإخْرَاب؛ أي يَهدِمُونَها، وقرأ الحسنُ وأبو عمرٍو (يُخَرِّبُونَ) بالتشديد من التَّخريب، قال أبو عمرٍو: وإنَّما اخترتُ التشديدَ؛ لأنَّ الإخرابَ تركُ الشيءِ خَراباً بغيرِ ساكنٍ، وبنو النضير لم يترُكوا منازلَهم فيرتَحِلُوا عنها، ولكنَّهم خرَّبُوهَا بالنقض والهدمِ.

وقال بعضُهم: التخريبُ والإخرابُ بمعنى، قال الزهريُّ: (وَذلِكَ أنَّهُمْ لَمَّا أيْقَنُوا بالْخُرُوجِ كَانُوا يَهْدِمُونَ أعْمِدَةَ بُيُوتِهِمْ وَيَنْتَزِعُونَ الْخَشَبَ وَالآلاَتِ وَيَنْقُضُونَ السُّقُوفَ وَيَنْقبُونَ الْجِدَارَاتِ وَيَقْتَلِعُونَ الْخَشَبَ حَتَّى الأَوْتَادَ لِئَلاَّ يَسْكُنَهَا الْمُسْلِمُونَ حَسَداً وَبَغْضَاءً، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُخَرِّبُونَ مَا بَقِيَ مِنْ بنَائِهِمْ)[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ معناهُ: لولا أنْ قضَى اللهُ عليهم في اللَّوح المحفوظِ بالانتقال والخروج من أوطانِهم إلى الشَّام وخيبرَ لعَذبَهم في الدُّنيا بالقتلِ والسَّبي كما فعلَ ببني قُريظة، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ ؛ مع ما أصابَهم في الدُّنيا، ﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ ولكنْ عَلِمَ اللهُ أن الجلاءَ أصلحُ.

---

(١) في المخطوط: (والقدر) وهو غير مناسب.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٤.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ؛ أي ذلـكَ الجـلاءُ والعذابُ بأنَّهم خالَفُوا أولياءَ اللهِ وأخذُوا في شِقٍّ غير شِقِّ أولياءِ الله ورسولِه، ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾ ، ومَن يخالفِ اللهَ ورسولَهُ في الدِّين ففعَلَ فِعْلَ هؤلاءِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ له في الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ ببَنِي النَّضِيرِ وَتَحَصَّنُوا فِي حُصُونِهِمْ، أمَرَ بقَطْعِ نَخِيلِهِمْ وَإِحْرَاقِهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إلاَّ بالصَّلاَحِ، وَلَيْسَ فِي هَذا إلاَّ إفْسَادُ الْمَعِيشَةِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إنَّكَ تُرِيدُ الصَّلاَحَ، أفَمِنَ الصَّلاَحِ قَطْعُ النَّخِيلِ وَالأَشْجَارِ؟ وَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا زَعَمْتَ أنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ.

فَشَقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي أنْفُسِهِمْ مِنْ ذلِكَ مَشَقَّةً، وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُمْعِنُونَ فِي قَطْعِ النَّخْلِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْهَى عَنْ ذلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ تَصْدِيقاً لِلَّذِينَ نَهَوا عَنْ قَطْعِ النَّخِيلِ وَتَحْلِيلاً لِمَنْ قَطَعَهُ، وَبَرَاءَةً لَهُمْ مِنَ الإثْمِ وَتَصْوِيباً لِلْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أصُولِهَا فَبِإِذْنِ الله) بيَّن أنَّ ما قُطِعَ منها قُطِعَ بإذنِ الله، وما تُرِكَ منها بإذنِ الله[(١)].

واللِّينَةُ هي النَّخلَةُ، قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: (اللِّينَةُ هِيَ كُلُّ نَخْلَةٍ مَا لَمْ تَكُنْ عَجْوَةً)، وَقِيلَ: اللِّينَةُ: مَا خَلاَ العجوة والبرني وجمعه لِيَانٌ، ورُوي: [أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ نَخِيلَهُمْ إلاَّ الْعَجْوَةَ][(٢)] قال عكرمةُ: (وَالنَّخْلُ كُلُّهُ لِيَانٌ مَا خَلاَ الْعَجْوَةَ)[(٣)]، وقال سفيانُ: (اللِّينَةُ هِيَ كِرَامُ النَّخْلِ)[(٤)]. وقال مقاتلُ: (هُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّخْلِ ثَمَرُهَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢١٩-٢٦٢٢٢).

(٢) أخرجه مقاتل في التفسير:ج٣ ص٣٣٩ بسنده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والعَجْوَةُ ضربٌ من أجودِ التُّمور بالمدينةِ، ونخلتُها تسمى (لِيْنَةً). مختار الصحاح: ص٤١٦.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة) وذكره.

(٤) ذكره الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٧١.

شَدِيدُ الصُّفْرَةِ يَغِيبُ فِيْهِ الضِّرْسُ عِنْدَ أكْلِهِ، وَكَانَ مِنْ أجْوَدِ ثَمَرِهِمْ وَأعْجَبِهِ إلَيْهِمْ)[١]، والعربُ تُسمِّي النخلَ كُله لِيَانٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولِيُهينَ اللهُ ويُذِلَّ اليهودَ ويُخْزِيَهُمْ بأن يُرِيَهم أموالَهم يتحكَّمُ فيها المؤمنون كيف أحَبُّوا لأنَّهم نقضُوا العهدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ؛ معناهُ: وما ردَّ اللهُ على رسولِهِ من غنائمِ بني النضيرِ، فمِمَّا لم تُوجِفُوا عليه أنتم خيلاً ولا ركَاباً ولكن مَشَيْتُم إليه مَشياً؛ لأن ذلك كان قَريباً من المدينة؛ أي لم يحصُلْ ذلك بقتَالِكم، فلا شيءَ لكم مِن ذلك، ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ إنما كان ذلك بتسليطِ الله تعالى نبيَّهُ ﷺ، واللهُ يُمكِّنُ رُسُلَهُ صلواتُ الله عليهم من أعدائهِ بغيرِ قتالٍ، واللهُ على كلِّ شيءٍ من النَّصرِ والغنيمةِ قادرٌ.

والضميرُ في قوله (أوْجَفْتُم عَلَيْهِ) أي على ما أفاءَ اللهُ، والإيجافُ الإسراعُ والإزعاجُ للسَّير، يقالُ: أوجفَ السَّيرَ، وأوْجَفْتُهُ أنا، والوَجِيفُ: نوعٌ من السَّيرِ فوق التَّقريب، ويقال: وَجَفَ الفرسُ والبعير يَجِفُ وَجْفاً إذا أسرعَ السَّيرَ، وأوْجَفَهُ صاحبهُ إذا حملَهُ على السَّيرِ السريعِ.

ومعنى الآية: (وَمَا أفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) من مالِ بني النَّضيرِ (فَمَا أوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ) أي فما وضَعتُم عليه من خيلٍ ولا إبلٍ ولم تنَالُوا فيه مشقَّةً ولم تلْقَوا حَرباً وإنما مَشَيْتُم إليه مَشْياً، إلاَّ النبيّ ﷺ فإنه رَكِبَ جَملاً فافتَتَحها النبيُّ ﷺ وأجلاَهُم وأخذ أموالَهم.

فسألَ المسلمون النبيَّ ﷺ في القِسْمَةِ في تلك الأموال، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ، فجعلَ أموالَ بني النضير خاصَّة لرسول الله ﷺ يضعُها حيث يشاء، فقسَمَها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرِين ولم يُعطِ الأنصارَ منها شيئاً، إلاَّ ثلاثةَ نفرٍ كانت لهم حاجةٌ،

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٣٨.

وهم: أبو دُجانَةَ؛ وسَهلُ بن حنيف؛ والحارثُ بن الصِّمَّةِ[١].

وعن عمرَ ﷺ: (أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ نَفَقَةَ سَنَةٍ، وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكِرَاعِ وَالسِّلاَحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ لأَنَّهُ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَلَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ بِخَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ، فَكَانَ خَالِصاً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ)[٢].

وأرادَ بهذا ما كان يحصلُ من غَلَّةِ أراضِيهم في كلِّ سنةٍ. وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مالٍ من أموالِ أهلِ الشِّرك لم يغلِبْ عليه المسلمون عَنْوَةً وإنما أخِذ صُلحاً أنْ يُوضَعَ في بيتِ مالِ المسلمين ويُصرَفَ إلى الوجُوهِ التي تُصرَفُ فيها الجزيةُ والْخَرَاجُ؛ لأن ذلك بمَنْزلَة أموالِ بني النضيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ اختلفَ أهلُ اللغةِ في الفَيْءِ ما هُوَ ؟ فقالَ بعضُهم: هو مما مَلَّكَهُ اللهُ المسلمين من أموالِ المشركين بغيرِ قتالٍ أو بقتالٍ، فالغنيمةُ فَيْءٌ والخراجُ فَيْءٌ.

قال بعضُهم: الْغَنِيمَةُ اسمٌ لِمَا أخذهُ المسلمون من الكفَّار عَنْوةً وقهراً، والفَيْءُ ما صالَحُوا عليهِ، فبيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ حُكمَ الفيءِ، فقالَ تعالى (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) أي من غنائمِ قُرَى المدينةِ في قريظةَ وبني النضير وفدَكٍ، فإنَّ ذلك خاصَّة للنبيِّ ﷺ دون الغانمين، وكان أمرُ النبيِّ ﷺ في ذلك جائزاً، فكان النبيُّ ﷺ يصرفُها بأمرِ الله تعالى إلى قرائب نفسه وفُقراءِ قرابَتهِ ويتامَى الناسِ عامَّة والمساكين عامَّة، يعني المحتاجين وأبناءِ السَّبيل والفُقَراء المهاجرين.

واختلفَ العلماءُ في حُكمِ هذه الآيةِ، فقالَ بعضُهم: أرادَ بقولهِ (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) الغنائمَ التي يأخذُها المسلمون من أموالِ الكفَّار عَنوةً

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٤٢).

(٢) هو شطر حديث طويل في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠١-١٠٢؛ قال السيوطي:(أخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن مردويه عن مالك بن أنس بن الحدثان، قال: بعث عمر بن الخطاب) وذكره.

وغَلبةً، وكانت في بدءِ الإسلام لعامة الغانِمين المسلمين دون الغانِمين الْمُوجِفين عليها، ثم نَسخَ اللهُ ذلك بقولهِ تعالى في سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾(١) والآيةُ التي قبلَ هذه الآية في بيانِ حُكم أموالِ بني النضير خاصَّة، وهذه الآيةُ في بيان حُكمِ جلب الأموال التي أصيبت بغيرِ قتالٍ ولم يوجَفْ عليها بالخيلِ والجمالِ.

وقال آخَرُون: هما واحدٌ، والثانيةُ بيان قسمِ المال الذي ذكر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الأولى، والغنائمُ كانت في بدءِ الإسلام لرسول الله ﷺ يصنَعُ بها ما يشاءُ، كما قال تعالى ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾(٢) ثم نُسِخَ ذلك بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ الآيةُ، فجعَلَ أربعةَ أخماسِها للغانِمين يُقسَمُ بينهم، وأما الْخُمُسُ الباقي فيقسمهُ على خمسةِ أسهُمٍ: سهمٌ لرسول الله ﷺ، وسهمٌ لذوي القُربَى، وسهمٌ لليتامَى، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لبني السَّبيل.

وقولهُ تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ ؛ معناه: كَي لا يكون الفَيءُ مُتداولاً بين الأغنياءِ منكم، والفرقُ بين الدُّولَةِ والدَّوْلَةِ بفتحِ الدال عبارةٌ عن المدَّة من الاستيلاءِ والغَلبَةِ، والدُّولَةُ اسمٌ للشيءِ المتداوَل، والمعنى: كي لا يتداولهُ الأغنياءُ منكم، يكون لِهذا مرَّة ولهذا مرة، كما يُعمَلُ في الجاهليَّة، وكانوا إذا أخذُوا غنيمةً أخذ الرئيسُ رُبعَها وهو الرِّباعُ، والأغنياءُ والرُّؤساء، وقال مقاتل: (كَيْ لاَ يَغْلِبَ الأَغْنِيَاءُ الْفُقَرَاءَ فَيَقْسِمُونَهُ بَيْنَهُمْ).

ثم قال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ ؛ من الفَيءِ والغنيمةِ، ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ ؛ فهو حلالٌ لكم، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ ؛ أي عن أخذهِ، ﴿ فَانتَهُوا ﴾ ؛ وهذا نازلٌ في أمرِ الفيءِ، ثم هو عامٌّ في كلِّ ما أمَرَ اللهُ به النبيَّ ﷺ ونَهى عنه، قال الحسنُ في قولهِ: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا):(يَعْنِي مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْغُلُول)(٣). وقولهُ تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ معناهُ: اتَّقوا عذابَ اللهِ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ ، إذا عاقبَ فعقوبتهُ شديدةٌ.

---

(١) الآية ٤١ . (٢) الأنفال / ١ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٣٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ؛ معناه: كَي لا يكون دُولَةً بين الأغنياءِ، ولكن يكون للفُقراء المهاجرين الذين أخرجُـوا من ديارهم، يعني أنَّ كفارَ مكَّـةَ أخرَجُوهـم، ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي رزْقـاً يأتيـهم، ﴿ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ؛ رضَـى ربـهم حـين خرَجُـوا إلى دار الهجرة ينصرون الله ورسوله، ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ في إيمانِهم.

والمعنى بقوله (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) بيانُ المحتاجِين المذكورين في الآيةِ الـتي قبـلَ هذه الآيةِ، كأنَّهُ قال: لهؤلاءِ الفقراء المحتاجِين ما تقدَّمَ ذِكرهُ من الفَيءِ، وكانوا نحواً من مائةِ رجُلٍ، وكانوا شَهدُوا بَدراً أجمعين، ولذلك أثنَى اللهُ عليهم بقولهِ (يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً) أي يطلُبون بتلك الهجرةِ ثوابَ الله ورضوانَـهُ، وينصُـرون بالسَّـيف والجهادِ أولياءَ اللهِ وأولياءَ رسُولهِ، (أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) في الإيمان وطلب الثَّواب.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ) مُبْتَدَأ، وَخَبَرُهُ (يُحِبُّونَ)). وَهَذا ثناءٌ على الأنصار، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا أعْطَى الْمُهَاجِرِينَ مَا قَسَمَ لَـهُمْ مِـنْ فَـيْءِ بَنِي النَّضِيرِ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى غَيْرِهِمْ أنْ يَحْسِدَهُمْ إذْ لَمْ يَقْسِمْ لَهُمْ.

فَقَالَ لِلأَنْصَارِ: [إنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لَهُمْ مِنْ دُورِكُمْ وَأمْوَالِكُمْ، وَقَسَمْتُ لَكُمْ مَـا قَسَمْتُ لَهُمْ، وَإمَّا أنْ يَكُونَ لَهُمُ الْقَسْمُ وَلَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأمْوَالُكُمْ] فَقَالُوا: لاَ؛ بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنا وَأمْوَالِنَـا وَلاَ نُشَـارِكُهُمْ فِـي قَسْـمِهِمْ. فَـأثْنَى اللهُ تعـالَى عليـهم بـهذه الآيةِ[1].

والمعنى: لَزِمُوا دارَ الهجرةِ ولَزِمُوا الإيمانَ مـن قبـلِ هجـرةِ المـهاجرين ووطَنُـوا منازلَ أنفسِهم، فهم يحبُّون مَن هاجرَ إليهم من مكَّة مـن أصحـاب النـبيِّ ﷺ، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ ؛ ضيقـاً وحسَـداً، ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ ؛ ممـا أعطِـيَ المهاجرين من الغنائم.

---

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب المغازي: شرح الحديـث (٤٠٢٩): ج ٧ ص٤٢٢؛ قال ابن حجر:(وروى الحاكم في الإكليل مـن حديـث أم العـلاء قـال النبي ﷺ للأنصـار لَمَّـا فتـح النضير: [إن أحببتم...] وذكره.

ومعنى الآيةِ: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ) يعني المدينةَ، وهي دارُ الهجرةِ، وتبوَّأها الأنصارُ قبلَ المهاجرين. وتقديرُ الآية: والَّذين تبوَّءوا الدارَ مِن قبلِهم والإيمانَ؛ لأن الأنصارَ لم يُؤمِنوا قبلَ المهاجرين، وعطفُ (الإِيمَانَ) على (الدَّارَ) في الظاهرِ لا في المعنى؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكانٍ تَبوُّءٍ. والتقديرُ: وآثرُوا الإيمانَ واعتقدُوا الإيمانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ؛ معناهُ: ويُؤثِرُون المهاجرين علىأنفُسِهم بأموالِهم ومنازلِهم، ولو كان بهم فقرٌ وحاجة إلى الدار والنَّفقةِ، بيَّن اللهُ أن إيثارَهم لم يكن عن غِنًى عن المالِ ولكن عن حاجةٍ، فكان ذلك أعظمَ لأجرِهم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: (جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي؟ فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى أحَدِ أزْوَاجِهِ: [هَلْ عِنْدَكُنَّ شَيْءٌ؟] فَكُلُّهُنَّ قُلْنَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ مَا عِنْدَنَا إلاَّ الْمَاءُ، فَقَالَ ﷺ:[مَا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ مَا يُطْعِمُكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ] ثُمَّ قَالَ: [مَنْ يُضِيفُ هَذا هَذِهِ اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟].

فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أنَا يَا رَسُولَ اللهِ، - قالَ في صحيحِ مُسلم: هُوَ أبُو طَلْحَةَ، وَقِيلَ: أبُو أيُّوبٍ، والضَّيْفُ أبُو هريرة[1]- فَمَضَى بِهِ إلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: هَذا ضَيْفُ رَسُول اللهِ ﷺ فَأكْرِمِيهِ وَلاَ تَدَّخِرِي عَنْهُ شَيْئاً، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: قُومِي فَعَلِّلِيهِمْ عَنْ قُوتِهِمْ حَتَّى يَنَامُوا، ثُمَّ أسْرِجِي وَأحْضِرِي الطَّعَامَ، فَإذا قَامَ الضَّيْفُ لِيَأْكُلَ قُومِي كَأنَّكِ تُصْلِحِينَ السِّرَاجَ فَأَطْفِئِيهِ، وَتَعَالَي نَمْضُغْ ألْسِنَتَنَا لِضَيْفِ رَسُول اللهِ ﷺ حَتَّى يَشْبَعَ.

فَقَامَتْ إلَى الصِّبْيَةِ فَعَلَّلَتْهُمْ حَتَّى نَامُوا وَلَمْ يَطْعَمُوا شَيْئاً، ثُمَّ قَامَتْ فَأَسْرَجَتْ، فَلَمَّا أخَذ الضَّيْفُ لِيَأْكُلَ قَامَتْ كَأنَّهَا تُصْلِحُ السِّرَاجَ فَأَطْفَأَتْهُ، وَجَعَلاَ يَمْضُغَانِ ألْسِنَتَهُمَا، فَظَنَّ الضَّيْفُ أنَّهُمَا يَأْكُلاَن مَعَهُ، فَأكَلَ الضَّيْفُ حَتَّى شَبعَ، وَبَاتَا طَوِيَّيْنِ. فَلَمَّا أصْبَحَا غَدَوا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَيْهِمَا تَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: [لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ فُلاَنٍ وَفُلاَنَةٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: باب اكرام الضيف: الحديث (١٧٣/ ٢٠٥٤).

كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[(١)])[(٢)].

وقال أنسٌ ﷺ: (أُهْدِيَ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ رَأسَ شَاةٍ مَشْوِيَّةٍ وَكَانَ مَجْهُوداً، فَقَالَ: لَعَلَّ جَارِي أحْوَجُ إلَيْهِ مِنِّي، فَبَعَثَ بِهِ إلَيْهِ، ثُمَّ إنَّ جَارَهُ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ، فَوَجَّهَ بِهِ إلَى جَارٍ لَهُ، فَتَدَاوَلَهُ تِسْعَةُ أنْفُسٍ حَتَّى رَجَعَ إلَى الأوَّلِ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾)[(٣)].

ويُحكى عن أبي الحسنِ الأنطاكيِّ: أنه اجتمعَ عندَهُ نيِّفٌ وثلاثون رجلاً بقريةٍ من قُرى الريِّ ومعَهم أرغفةٌ قليلةٌ لم تُشبعْ جوعَتَهم، فكسَّروا الرِّغفانَ وأطفأُوا السِّراجَ وجلَسُوا ليأكلُوا، فلمَّا رفعَ فإذا الطعامُ بحالهِ لم يأكُلْ منه أحدٌ إيْثاراً لصاحبهِ على نفسهِ[(٤)].

ويُحكى عن حذيفةَ العدويِّ قال: (انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أطْلُبُ ابْنَ عَمٍّ لِي وَمَعِي شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَإذا أنَا بِهِ فَقُلْتُ: أسْقِيكَ ؟ فَأشَارَ: أيْ نَعَمْ، فَإذا رَجُلٌ يَقُولُ: آهِ، فَأشَارَ ابْنُ عَمِّي أنْ انْطَلِقَ بهِ إلَيْهِ، فَإذا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ، فَقُلْتُ: أسْقِيكَ ؟ فَسَمِعَ آخرَ يَقُولُ: آهِ، فَأشَارَ هِشَامُ: أن انْطَلِقْ بهِ إلَيْهِ، فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى هِشَامٍ فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إلَى ابْنِ عَمِّي فَإذا هُوَ قَدْ مَاتَ)[(٥)].

ويحكى عن أبي يزيدِ البسطاميِّ قال: (مَا غَلَبَنِي إلاَّ شَابٌّ مِنْ أهْلِ بَلْخٍ قَدِمَ عَلَيْنَا حَاجّاً، فَقَالَ لِي: يَا أبَا يَزِيدِ مَا حَدُّ الزُّهْدِ عِنْدَكُمْ ؟ قُلْتُ: إذا وَجَدْنَا أكَلْنَا، وَإذا فَقَدْنَا صَبَرْنَا. قَالَ: هَكَذا عِنْدَنَا كِلاَبُ بَلْخٍ! فَقُلْتُ: مَا حَدُّ الزُّهْدِ عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: إذا فَقَدْنَا صَبَرْنَا، وَإذا وَجَدْنَا آثَرْنَا). وسُئل ذو النونُ عن الزُّهد فقالَ: (ثَلاَثٌ: تَفْرِيقُ الْمَجْمُوعِ، وَتَرْكُ الْمَفْقُودِ، وَالإيْثَارُ عِنْدَ الْقُوتِ).

---

(١) الحشر / ٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: باب اكرام الضيف: الحديث (١٧٣/ ٢٠٥٤).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٠٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر) وذكره. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٥٢)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٤) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٩.

(٥) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٧٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي مَن يدفَعُ عنه غائلةَ نفسهِ وحرصَ النفسِ حتى تطيبَ نفسهُ بذلك، فأُولئك هم النَّاجُونَ السُّعداء، الباقون في الآخرةِ. والشُّحُّ في الآخرة: منعُ النَّفعِ، وأمَّا في الدُّنيا فهو منعُ الواجب، وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: [بَرِئَ مِنَ الشُّحِّ مَنْ أدَّى زَكَاةَ مَالِهِ، وَأقْرَى الضَّيْفَ، وَأعْطَى فِي النَّائِبَةِ](1). وقال سعيدُ بن جبير: (شُحُّ النَّفْسِ هُوَ أخْذُ الْحَرَامِ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ).

وَجَاءَ رَجُلٌ إلَى عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَقَدْ خِفْتُ أنْ لاَ تُصِيبَنِي هَذِهِ الآيَةُ (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وَاللهِ مَا أقْدِرُ أعْطِي شَيْئاً أطِيقُ مَنْعَهُ، فَقَالَ عَبْدُاللهِ: (إنَّمَا ذلِكَ الْبُخْلُ وَبئْسَ الشَّيْءُ الْبُخْلُ، وَلَكِنَّ الشُّحَّ أنْ تَأْخُذ مَالَ أخِيكَ بغَيْرِ حَقِّهِ)(2).

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:[لاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإيْمَانُ فِي قَلْب رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ مُسْلِمٍ قَطُّ](3).

واختلفَ العلماءُ في الشُّحِّ والبُخلِ، فقال بعضُهم: هما واحدٌ، وهو منعُ الفَضْلِ. وقال بعضُهم: بينهما فَرْقٌ، والبخلُ أنْ يبخلَ الرجلُ بما في يدهِ، والشحُّ أن يبخلَ بما في أيدِي الناسِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٤ ص١٨٩: الحديث (٤٠٩٦) عن خالد بن زيد الأنصاري. وفي الإصابة في معرفة الصحابة: ج ٢ ص٢٣٦: الرقم (٢١٦٨) قال ابن حجر: (روى أبو يعلى الطبراني) وذكره. وقال:(إسناده حسن لكن ذكره البخاري وابن حبان في التابعين). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الجود والسخاء: الحديث(١٠٨٤٢) عن أنس بن مالك. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٤٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٤٢. والنسائي في السنن: كتاب الجهاد: باب فضل من عمل في سبيل الله على قدره: ج ٦ ص١٣-١٤. والحاكم في المستدرك: كتاب الجهاد: باب أي المؤمنين أكمل ايماناً: الحديث(٢٤٤١) وذكر له شاهداً وقال:(صحيح على شرط مسلم). وأخرجه ابن حبان في الصحيح:كتاب الزكاة: الحديث (٣٢٥١).

وعن جابرِ بن عبدِالله قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ أنْ سفكُوا الدِّمَاءَ واسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ][١].

وعن أبي الْهَيَّاجِ الأسديِّ قال:(كُنْتُ أطُوفُ بالْبَيْتِ، فَرَأيْتُ رَجُلاً يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، لاَ يَزِيدُ عَلَىذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذلِكَ، فَقَالَ: إذا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أسْرِقْ وَلَمْ أزْنِ، وَإذا الرَّجُلُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ)[٢].

ويُحكى أنَّ كسرَى قال لأصحابهِ ذاتَ يومٍ: أيُّ شيءٍ أضرُّ بابنِ آدمَ ؟ قالوا: الْفَقْرُ، فقال كسرى: والشُّحُّ أضرُّ من الفقرِ؛ لأن الفقيرَ إذا وجدَ شَبعَ، وإن الشحيحَ لا يشبعُ أبداً[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ ؛ يعني التَّابعين وهمُ الذين جاءُوا بعدَ المهاجرين والأنصار إلى يومِ القيامة، قال ابنُ عمر: (هَـؤُلاَءِ هُـمُ التَّابعِينَ بالإحْسَانِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). قال ابنُ أبي ليلى: (النَّاسُ عَلَى ثَلاَثَةِ مَنَازِلَ: الْفُقَرَاءُ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيْمَانَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاجْهَدْ أنْ لاَ تَكُونَ خَارجاً مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ)[٤].

ثم ذكرَ اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء التابعين يدعُون لأنفُسِهم وللسَّلَفِ الذين سبَقُوهم، فقالَ تعالى (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا وَلإخوَانِنَا الَّذِينَ سبَقُونا بالإيمَان) ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠ ﴾ ؛ أي لا تجعَلْ في قُلوبنا غِشّاً وحسَداً وبُغْضاً وحِقْداً للمؤمنين، فكلُّ مَن لم يترحَّمْ على جميعِ الصَّحابة وكان في قلبهِ غِلٌّ لَهم على أحدٍ منهم كان خارجاً من أقسامِ المؤمنين؛ لأنَّ اللهَ رتَّبَ المؤمنين على ثلاثِ مراتب: المهاجرين، والأنصار، والتابعين إلى يومِ القيامة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٢٣. ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم: الحديث (٥٦/ ٢٥٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٤٨).

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨١. وأيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٥٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ ؛ يعني عبدَالله بنَ أُبَيٍّ وأصحابَهُ، ومعنى (نافقوا) أي أظهَرُوا خلافَ ما أضمَرُوا، ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ؛ وهم بنُو قريظةَ وبنو النضِير، سَمَّاهم إخوانَهم لأنَّهم كفارٌ مثلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ ؛ أي لئن أخرجتُم من دياركم؛ أي لغربة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ ؛ أي لا نُساكِنُ مُحمَّداً، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ ؛ ولا نطيعُهُ على قتالِكم، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ؛ فإنْ قاتلَكم مُحمَّدٌ وأصحابُهُ، لنُعاونَنَّكم عليه حتى تكون أيدِينا يَداً واحدةً في المقاتَلة حتى نغلبَهم، وعَدُوهُمْ أنَّهم ينصرونَهم، فكذبَهم اللهُ في ذلك بقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مُقاتَلتِهم، وقد بانَ كذِبُهم في ما نزلَ ببني النَّضيرِ من الجلاءِ وفيما أصابَ بني قريظةَ من القتلِ.

ثم ذكرَ اللهُ أنَّهم يُخلِفُونَهم ما وَعَدُوهم من الخروجِ والنصر، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ؛ فكان الأمرُ على ما ذكرَ اللهُ تعالى؛ لأنَّهم أخرجُوا من ديارهم فلم يَخرُجْ معهم المنافقون، وقُوتِلُوا فلم يَنصُرونَهم أظهرَ اللهُ كَذِبَهم وأبانَ صِدْقَ ما قَالَ اللهُ تَعَالَى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ؛ معناهُ: ولئن قُدِّرَ وجودُ نصرِهم؛ لأن ما نفاهُ الله لا يجوزُ وجودُه، قال الزجَّاجيُّ: (مَعْنَاهُ: لَوْ قَصَدُوا نَصْرَ الْيَهُودِ لَوَلَّوا الأَدْبَارَ مَهْزُومِينَ). (ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ) يَعْنِي بَنِي النَّضِيرِ لا يُصِيرون مَنصُورين إذا انْهزَمَ ناصِرُوهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ معناهُ: لأَنتم يا معشرَ المسلمين أهْيَبُ في قُلوب المنافقين واليهودِ من عذاب الله، وخَوفُهم منكم أشدُّ من خوفِهم اللهَ لعِلمِهم بكم وصفاتِكم، وجَهلِهم باللهِ وعظَمَتِه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ الخوفُ الذي بهم منكم دونَ اللهِ، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ ؛ لاَ يعرِفُون اللهَ تعالى، ولو عَرفوهُ لعَلِمُوا أنَّ عقوبةَ اللهِ أعظمُ مما عساهُ يقع بهم من فعلِ المؤمنين.

وفي هذه الآيةِ بيانُ أنَّهُ لا ينبغِي لأحدٍ أنْ يكون خَوفهُ من الناسِ أزيَدُ من خوفهِ من اللهِ تعالى، وإنَّ من زادَ خوفهُ من أحدٍ من الناسِ على خوفهِ من اللهِ فليس بفقيهٍ، إنما الفقيهُ من يخشَى اللهَ كما في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1]، والفقهُ: العِلْمُ بمفهومِ الكلامِ في إدراكِ ظَاهرهِ بمضمونهِ، والناسُ يتفاضَلون في الإدراكِ لاختلافِهم في جَوْدَةِ القريحةِ وسُرعَةِ الفطنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ ومعناهُ: لا يُقاتِلُونكم بنو قُريظةَ إلاَّ في حُصُونٍ موثَّقةٍ أو من خَلفِ جِدَار، لِمَا قذفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعبَ، ولا يُقاتونكم مبارزةً.

قرأ ابنُ عبَّاس ومجاهدُ وابن كثير وأبو عمرٍو (أوْ مِنْ وَرَاءِ جِدَار) بالألفِ على الواحد. ويَروي بعضُ أهلِ مكَّة (جَدْر) بفتحِ الجيم وجزمِ الدال وهي لغةٌ في الجدار، وقرأ يحيى بن وثَّاب (جُدْر) بضم الجيم وجزمِ الدال، وقرأ الباقون بضمِّهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ ؛ يعني بُغْضُهم وعداوةُ بعضِهم لبعضٍ شديدٌ، وبينهم مخالفةٌ وعداوة عظيمةٌ، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي تحسَبُهم متَّفقين على أمرٍ واحد بنيَّات مجتمعةٍ إذا قاتلُوا المؤمنين، ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ ؛ أي متفرِّقةٌ لا يتعاوَنون لمعاداةِ بعضهم بعضاً، وإنْ أظهَرُوا الموافقةَ، والمعنى: أنَّهم مختَلِفُون لا تستوي قلوبُهم ولا نيَّاتُهم لأنَّ اللهَ خذلَهم، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ الاختلافُ، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ ما فيه الحظُّ لهم ولا يعقِلُون الرُّشدَ من الغيِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ ؛ معناهُ: مَثَلُ هؤلاءِ اليهود كمَثَلِ الذين مِن قَبلِهم وهم كفارُ مكَّة، يعني: مثلُهم في ما ينْزلُ من العقوبةِ كمَثَلِ مُشركي مكَّة، وقوله تعالى (قَريباً ذاقُوا وَبَالَ أمْرِهِمْ) يعني القتلَ والأسرَ ببدر، وكان ذلك قبلَ غزوةِ بني النَّضير بستَّة أشهرٍ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

---

(١) فاطر / ٢٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ ؛ أي مثَلُ الكافرين في غُرورهم لبني النضير وخِلاَنِهم، كمثَلِ الشَّيطان في غُرورهِ لابنِ آدمَ إذ دعاهُ إلى الكُفر بما زَيَّنَهُ له من المعاصِي، فلمَّا كَفَرَ الآدميُّ تبرَّأ الشيطانُ منه ومن دينهِ في الآخرة.

ويقال: إنَّ المرادَ بهذه الآيةِ إنسانٌ بعَينهِ يقالُ له بَرصِيصَا، عَبَدَ اللهَ تعالى في صَومعَةٍ له سَبعين سنةً، وكان من بني إسرائيلَ، فعالَجهُ إبليس فلم يقدِرْ عليه، فجمعَ ذاتَ يومٍ مَرَدَةَ الشياطين وقال لَهم: ألاَ أحدٌ منكم يكفِيني أمرَ برصيصا؟ فقال له الأبيضُ: أنا أكفِيكَهُ، وكان من شدَّة تَمرُّد هذا الأبيضِ أنه اعترضَ النبيَّ ﷺ ليُوَسوِسَ إليه، فدفعَهُ جبريلُ دفعةً هيِّنة فوقعَ في أقصى أرضِ الهند .

فقالَ الأبيضُ لإبليسَ: أنا أزَيِّنُ له، فتزَيَّنَ بزينةِ الرُّهبان ومضَى حتى أتَى صومعةَ برصيصا، فأقبلَ على العبادةِ في أصلِ الصَّومعة فانفتلَ برصيصا فاذا هو يراهُ قائم يصلِّي في هيئةٍ حسَنةٍ من هيئة الرُّهبان، فأقبلَ إليه وقالَ: يا هذا ما حاجَتُكَ؟ فقال: أحبُّ أن أكون معكَ فأتعلَّمَ منكَ وأقتبسَ عِلمَكَ، فتدعُو لي وأدعُو لكَ، فقال برصيصا: إنِّي لفِي شُغلٍ عنكَ، فإن كُنتَ مُؤمِناً فسيجعلُ الله لكَ نَصيباً مما أدعوهُ للمؤمنين والمؤمناتِ.

ثم أقبلَ على صلاتهِ وتركَ الأبيضَ، وقامَ الأبيضُ يصلِّي فلم يلتَفِتْ برصيصا إلاَّ بعد أربعين يَوماً، فلمَّا التفتَ بعد الأربعين رآهُ قائماً يصلِّي، فلما رأى برصيصا شدَّةَ اجتهادهِ وكثرةَ ابتهالهِ وتضرُّعه أقبلَ إليهِ، وقالَ: اطلُبْ حاجتَكَ، قال: حاجَتي أن تأذنَ لي فارتفعَ إليك فأكونَ في صَومَعَتِكَ، فأذِنَ له فارتفعَ اليهِ.

فأقامَ في صَومعتهِ حَوْلاً كاملاً يتعبَّدُ، لا يفطرُ إلاّ في كلِّ أربعين يَوماً يوماً، ولا ينفتِلُ إلاّ في كلِّ أربعين يوماً يَوماً، فلما رآهُ بَرصِيصا ورأى شدَّةَ اجتهادهِ أعجبَهُ شأنُهُ، وتقاصَرت عندهُ عبادةُ نفسهِ.

فلمَّا حالَ الحولُ قالَ الأبيضُ لبَرصِيصَا: إنِّي منطلقٌ إلى صاحبٍ لِي غيرك أشدُّ اجتهاداً منكَ، وإنه قد كان بلَغَني عنكَ من العبادةِ والاجتهاد غيرَ الذي أرَى منكَ،

فدخلَ على برصِيصا من كلامهِ ذلك أمرٌ عظيمٌ وكَرِهَ مفارقتَهُ لِمَا رأى من شدَّةِ اجتهادهِ في العبادةِ.

فلمَّا ودَّعَهُ قالَ له الأبيضُ: إنَّ عندي دَعَواتٍ أعلِّمُكَها تدعو بها، فهي خيرٌ لكَ مما أنتَ فيه، يَشفَى بها السقيمُ، ويُعافَى بها الْمُبتَلى والمجنون، فقال بَرصِيصا: إنِّي أكرهُ هذه المنْزلَةَ، وإنَّ لي في نفسي شُغلاً، وإنِّي أخافُ إنْ عَلِمَ الناسُ بذلك شغَلوني عن العبادةِ. فلَم يزَلْ به الأبيضُ حتى علَّمَهُ.

وانطلقَ الأبيضُ حتى أتى إبليسَ وقالَ له: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم انطلقَ الأبيضُ إلى رجلٍ فخنقَهُ، ثم جاءَ إلى أهلهِ في صُورَةِ طبيبٍ فقالَ لَهم: إنَّ بصاحبكم جُنوناً، فقالُوا له: عَالِجْهُ لنا وَدَاوِهِ، فقالَ: إنِّي لا أقوَى على جِنِّيَّتِهِ! ولكن أرشِدُكم إلى مَن يدعُو له فيُعافَى، قالوا: دُلَّنَا. قال: انطلِقُوا إلى بَرصِيصا، فإن عندَهُ الاسمُ الأعظم الذي إذا دعَا اللهَ به أجابَ، فمَضَوا بصاحبهم إليه، فدعَا له بتلك الكلماتِ التي علَّمَهُ إياها، الأبيض فذهبَ عنه الشيطانُ.

ثم انطلقَ الأبيضُ إلى صبيَّة من بناتِ الملوك ولها ثلاثةُ إخوةٍ، وكان لهم عمٌّ هو ملكُ بني إسرائيلَ، فخنَقَها ثم جاءَ إليهم في صُورَةِ طبيبٍ، فعالَجها ودَاوَاها، فلم يذهَبْ عنها، فقالَ لَهم: إنَّ الذي عَرَضَ لها ماردٌ لا يُطَاقُ، ولكنِّي أرشِدُكم إلى رجُلٍ يدعُو لها بدَعَواتٍ فتُعافَى، قالوا: مَن هو ؟ قالَ: بَرصِيصا. قالوا: وكيفَ يُجيبُنا ذلك إلى هذا الأمر ؟ وكيف يَقبَلُها منَّا ؟ قال: ابْنُوا لَها صومعةً إلى جنب صَومَعتهِ وتكون لَزيقاً بصومعتهِ، وقولوا لَهُ: هذه أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ فيها.

قالَ: فانطلَقُوا بها إليه فلم يقبَلْها، فبَنَوا لها صومعةً كما ذكرَ لَهم الأبيضُ وترَكُوها فيها، وقالوا لبَرصِيصا: هذه أختنا وقد عرضَ لها عدوٌّ من أعداءِ اللهِ، فهي أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ فيها، ثم انصرَفُوا. فلما أنفتَلَ برصيصا عن صلاتهِ عَايَنها فرأى جَمالاً رَائِقاً وحُسْناً فائقاً فسَقَطَ في يديهِ، ودخلَ عليه أمرٌ عظيم، فجاءَها الأبيضُ فخنَقَها، فلما رأى بَرصِيصا ذلك انفتلَ من صلاتهِ ودعا بتلكَ الدَّعوات، فذهبَ عنها الشَّيطانُ، ثم جاءَ الأبيضُ إلى برصيصا، قال: وأينَ تَجِدُ مثلَ هذه ؟ واقِعْها وأنتَ تتوبُ بعدَ ذلك، ولم يزَلْ به حتى واقَعَها، فأقَامت معَهُ وهو يُواقِعُها حتى حَملَت وظهرَ حَملُها.

فقالَ له الأبيضُ: وَيْحَكَ! إنَّكَ قد افتُضِحتَ، فهل لكَ أنْ تَقتُلَها وتتوبَ؟ فإنْ سألُوكَ عنها فقل: جاءَ شَيطانُها فذهبَ بها ولم أطِقْ، ففعلَ ذلك فقتَلَها ثم ذهبَ بها الى ناحيةٍ من الجبلِ ودفَنَها، فجاءَ الشيطانُ لَيلاً وهو يدفِنُها فجذبَ طرفَ إزارِها حتى صارَ خارجاً من التُّراب، ثم رجعَ بَرصِيصا إلى صومعتِهِ وأقبلَ على صلاتِهِ.

فجاءَ إخوَتُها يتعَاهَدُونَهُ وكانوا في سائرِ الأيَّام يأتُون بَرصِيصا ويتعَاهَدُون أختَهم ويُوصُوه بها، فأتوهُ في هذه المرَّة كعادتِهم فلم يجِدُوها، فقالوا: أين ذهَبَتْ أختنا؟ فقال بَرصِيصا: جاءَ شيطانُها فذهبَ بها ولم أطِقْهُ، فصَدَّقوهُ وانصرفوا عنه وهم مَكرُوبُونَ.

فجاءَهم الأبيضُ في صورةِ إنسان وأخبرَهم بالخبرِ وقال لَهم: هي مدفونةٌ في موضعِ كذا، وأنَّ برصيصا قد فعلَ بها كذا وكذا ثم قتَلَها ودفَنَها، وإنَّ طرفَ إزارِها خارجاً من التُّراب. فانطَلَقوا فوجَدُوها كما قالَ فجمَعُوا لبرصيصا علماؤُهم وعساكِرُهم وجاءُوا بالفُؤوسِ والمسَاحِي فهدَمُوا صومعتَهُ وأنزلوهُ وكتَّفوهُ، وانطلَقُوا به إلى الْمَلِكِ مَغْلُولاً، فسألَهُ عن ذلك فأقرَّ على نفسهِ فصلبَهُ الملكُ على خشبةٍ.

فجاءَ إبليسُ إلى الأبيضِ فقالَ له: أيُّ شيءٍ صنعتَ في برصيصا، الآنَ يُقتَلُ ويكون قَتلهُ كفَّارةً لِمَا كان منهُ، وما يُغنِي عنكَ ما صنعتَ فيه؟! فقال الأبيضُ: أنا أكفيكَ فيه، فأتاهُ وهو مصلوبٌ، فقالَ له: يا برصيصا أتعرفُني ؟ قالَ: لا، قال: أنا صاحبُكَ الذي علَّمتُكَ الدعوات، أما اتَّقيتَ اللهَ في أمانةٍ وُضِعَتْ عندكَ، خُنتَ أهلَها وأنتَ أعبَدُ بني إسرائيلَ، ما استَحيَيتَ من اللهِ، أما رَاقبتَهُ في دِينك، فلم يَزَلْ يُعَيِّرُهُ ويُوَبِّخهُ.

ثم قالَ له: وما كفاكَ ما صنعتَ حتى أقرَرْتَ على نفسِكَ، فَضَحْتَ أشياخَكَ، فإن مِتَّ في هذه الحالةِ لم تُفلِحُ أبداً. قال: فكيفَ أصنعُ؟ قال: تُطِيعُني في خَصلَةٍ حتى أنجِّيكَ مما أنتَ فيه، وآخذ بأعيُنِهم وأخرجك من مكانِكَ، قالَ: وما هيَ؟ قال: تسجدُ لي سجدةً واحدة، قال: كيفَ أسجدُ لكَ وأنا مصلوبٌ علىهذه الحالةِ ؟ قال: أكتَفِي منكَ بالإيماءِ، فأوْمَأ بالسُّجودِ فكفرَ بذلك، فقال: يا برصيصا هذا الذي أردتُ منكَ أنْ صارَتْ عاقبتُكَ إلَيَّ أنْ كفرت بربِكَ، إنِّي بريءٌ منكَ، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ ؛ ثم ذهبَ عنه وتركَهُ فقُتِلَ.

فضربَ اللهُ هذا مَثلاً لبني قريظةَ والنضير والمنافقين من أهلِ المدينة، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أمرَ نَبيَّهُ ﷺ أن يُجْلِي بني النضير فدسَّ إليهم المنافقون أن لا يُجيبُوا مُحَمَّداً إلى ما دعَاكُم ولا تَخرُجوا من دياركم، فإن قاتلُوكم كنَّا معَكم، وإنْ أخرَجَكم خرَجنا معكم، فأطَاعُوهم فدَرَبوا على حُصونِهم وتحصَّنوا في دورهم، فجاءَ رسولُ الله ﷺ فحارَبَهم فناصَبوهُ الحربَ يرجُونَ نُصرةَ المنافقين، فخذلُوهم وتبرَّؤا منهم كما تبرَّأ الشيطانُ من برصيصا وخذلَهُ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ ﴾ ؛ معناهُ: فكان عاقبةُ الشَّيطان والذي كفرَ أنَّهما في النار مُقيمين دائمين، ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي وذلكَ عاقبةُ الكافرين، فلْيَحْذر امرؤٌ أن يقعَ في مثلِ ما وقعَ فيه هذا الكافرُ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى الآيَةِ: فَكَانَ عَاقِبَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ أنْ صَارُوا إلَى النَّار وَذلِكَ جَزَاؤُهُمْ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ معناهُ: واتَّقُوا اللهَ بأداءِ فرائضهِ واجتناب مَعاصيه، ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ ﴾ ؛ أي ليوم القيامةِ عَملاً صَالِحاً يُنجيها أم عَملاً سَيِّئاً يُوبقُها، قال الحسنُ: (مَا زَالَ اللهُ يُقَرِّبُ السَّاعَةَ حَتَّى جَعَلَهَا كَغَدٍ)[(٣)]. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ ؛ أي تركُوا حقَّ اللهِ وأمرَهُ حتى صارَ كالْمَنْسِيِّ عندهم، ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ ﴾ ؛ أي فخذلَهم حتى لم يَعْمَلُوا للهِ طاعةً، ويُقدِّموا خيراً لأنفسهم، قال ابنُ عبَّاس: (يُريدُ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ) وباقِي الآيتَين، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معناهُ:

---

(١) أخرجه الطبري متفرقاً في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٦٦-٢٦٢٦٩).
(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٤٣.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٢٧١) عن قتادة.

لو جُعِلَ في الجبلِ تَمييزٌ وعقلٌ مِثلَكم، وعَلِمَ من القرآنِ كما تعلَمُون أنتم لرأيتَهُ يخشَعُ ويتصدَّعُ خوفاً من عذاب الله، وكبرهُ وصلابتهُ فأنتم مع ضَعفِكم وصِغَرِكم أولَى بالخشُوعِ والعملِ على مقتضَى الدِّين في تمييزِ الحقِّ من الباطلِ.

وَقِيْلَ: معناهُ: لو شَعَرَ الجبلُ مع صَلابتهِ وشدَّتهِ بالقرآنِ لخشَعَ تعظيماً للقرآنِ ولصَدعَ من خشيةِ الله، فالإنسانُ أحقُّ بهذا منه، وهذا وصفٌ للكافرِ بالقسوَةِ حين لم يَلِنْ قلبهُ بمواعظِ القرآنِ الذي لو أُنزلَ على جبلٍ لخشعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾؛ قِيْلَ: إنَّ هذه الآياتِ مردودةٌ إلى أوَّلِ السُّورة، والمعنى: هو الذي أخرجَ الذين كفَرُوا وهو اللهُ الذي تَحِقُّ له العبادةُ، ولا يشركهُ في ذلك غيرهُ، وهو العالِمُ بكلِّ شيءٍ مما غابَ عن العبادِ ومما علموهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ القُدُّوسُ: هو الطاهرُ عن كلِّ عيبٍ، المنَزَّهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به. والسَّلامُ: هو الذي سَلِمَ من كلِّ نقصٍ وعيب، وَقِيْلَ: هو الذي سَلِمَ العبادُ من ظُلمهِ.

والْمُؤْمِنُ: هو الذي أمِنَ أولياؤهُ عذابَهُ. والْمُهَيْمِنُ: هو الشهيدُ على عبادهِ بأعمالهم، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1] أي شَاهِداً عليه، ويقالُ: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ فهو مُهَيْمِنٌ، إذا كان رَقيباً على الشيءِ.

والْعَزِيزُ: المتنعُ الذي لا يغلِبهُ شيءٌ ولا يُمنَعُ من مُرادهِ. والْجَبَّارُ: هو العظيمُ، وجَبَرُوتُ اللهِ عَظَمَتهُ، ويجوزُ أن يكون فَعَّالاً من جَبَرَ إذا أغنَى الفقيرَ وأصلحَ الكسيرَ. ويجوزُ أن يكون من جَبَرَهُ على كذا اذا أكرهَهُ على ما أرادَ. قال السديُّ ومقاتل:(هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ النَّاسَ وَيُجْبِرُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ)[2]. والْمُتَكَبِّرُ: هو المستحقُّ لصفاتِ التعظيمِ وهو من الكِبْرِيَاءِ، وإنما تُذمُّ صفةُ المتكبر في الناسِ لأنه يُنْزِلُ نفسَهُ منْزِلَةً لا يستحقُّها.

---

(١) المائدة / ٤٨ . (٢) نقله عن السدي أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ ؛ الْخَالِقُ: هو الْمُنْشِئُ للأعيان. والبَارِئُ: الْمُقدِّرُ والْمُسوِّي لها، والبَرِيَّةُ: الْخَلْقُ، وبَرَيْتُ القلمَ إذا سوَّيتهُ. والْمُصَوِّرُ: النَّاقِشُ كيف يشاءُ، يعني الْمُمَثِّلُ للمخلوقاتِ بالعلاماتِ المميَّزة والهيئاتِ المتفرِّقة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، والأسماءُ الْحُسنَى هي الصفاتُ العُلَى.

وعن أنسٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَشْرِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ][1].

وقال ﷺ: [وَمَنْ قَرَأَ حِينَ يُصْبحُ الثَّلاَثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِي، فَإنْ مَاتَ مِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ][2].

وعن أبي هُريرة ﷺ قال: (سَأَلْتُ حَبِيبي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن اسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، فَقَالَ: [عَلَيْكَ بآخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، فَأَكْثِرْ قِرَاءَتَهَا] فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيَّ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، فَأَعَادَ عَلَيَّ)[3].

آخر تفسير سورة (**الحشر**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ضعيف، أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس، ينظر: تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٢١٠. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٩.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٨٩. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٦. والدارمي في السنن: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٣٤٢٥). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٩٢٢)، وقال: (هذا حديث غريب). والطبراني في الجامع الكبير: ج ٢٠ ص١٨٨: الحديث (٥٣٧). وفي إسناده ضعف.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٥١٠، وقال: (أخرجه الثعلبي من رواية علي بن زريق عن هشام بن سعد عن يزيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة). وينظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان): ج ٩ ص٢٨٩.

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَة

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَعَشْرَةُ أحْرُفٍ، وَثَلاثُمِائَةٍ وَثَمَان وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ شُفَعَاءَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ نزلت هذه الآية في حاطِب بن أبي بَلْتَعَةَ، وَذلِكَ أنَّ سَارَةَ مَوْلاَةَ أبي عَمْرو صَيْفِي بْن هِشَام أتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ بَدْرٍ بسَنَتَيْن، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَجَهَّزُ لِفَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: [أمُسْلِمَةً جِئْتِ؟] قَالَتْ: لاَ، قَالَ: [أمُهَاجِرَةً جِئْتِ؟] قَالَتْ: لاَ، قَالَ: [فَمَا حَاجَتُكِ؟][(٢)] قَالَتْ: كُنْتُمُ الأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ وَالْمَوَالِي، وَقَدْ ذهَبَتْ أمْوَالِي وَاحْتَجْتُ حَاجَةً شَدِيدَةً، فَقَدِمْتُ عَلَيْكُمْ لِتُعْطُونِي وَتَكْسُونِي وَتَحْمِلُونِي، قَالَ: [وَأيْنَ أنْتِ مِنْ شَبَاب أهْلِ مَكَّةَ ؟] وَكَانَتْ مُغَنِّيَةً وَنَائِحَةً، قَالَتْ: مَا طُلِبَ مِنِّي شَيْءٌ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب فَكَسَوْهَا وَأعْطَوْهَا نَفَقَةً[(٣)].

فَأتَاهَا حَاطِبُ بْنُ أبي بَلْتَعَةَ الأَزْدِيُّ حَلِيفُ بَنِي أسَدٍ، فَكَتَبَ إلَى أهْلِ مَكَّةَ وَأعْطَاهَا عَشْرَةَ دَنَانِيرَ عَلَى أنْ تُوصِلَ الْكِتَابَ إلَى أهْلِ مَكَّةَ، وَكَتَبَ فِي الْكِتَاب: مِنْ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٠.

(٢) في تفسير الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩١، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥١: [فَمَا جَاءَ بكِ].

(٣) أخرجه مختصراً الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٩٣). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص١٢٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أنس ﷺ) وذكره. واللفظ لمقاتل ذكره في التفسير: ج ٣ ص٣٤٨.

حَاطِب بْنِ أبي بَلْتَعَةَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ. مَعَ أَشْيَاءَ كَتَبَ بِهَا يَتَنَصَّحُ لَهُمْ فِيهَا، فَمَضَتْ سَارَةُ بِالْكِتَاب.

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بمَا فَعَلَ حَاطِبُ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهَا عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَالْمِقْدَادَ، فَخَرَجُوا يُعَادِي بِهِمْ خَيْلُهُمْ، فَطَلَبُوا مِنْهَا الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدِي كِتَابٌ، وَحَلَفَتْ عَلَى ذلِكَ، فَفَتَّشُوا مَتَاعَهَا فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَقَالَتْ: إِنَّكُمْ لاَ تُصَدِّقُونِي حَتَّى تُفَتِّشُوا ثِيَابِي، وَاصْرِفُوا وُجُوهَكُمْ عَنِّي فَصَرَفُوهَا، فَطَرَحَتْ ثِيَابَهَا فَفَتَّشُوهَا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئاً، فَتَرَكُوهَا وَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ.

فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكْذِبْنَا، وَإِنَّهَا هِيَ الْكَاذِبَةُ فِيمَا تَقُولُ، فَسَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ: أخرِجِي الْكِتَابَ وَإِلاَّ وَاللهِ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَكِ وَأَقْسَمَ عَلَى ذلِكَ، فَلَمَّا رَأَتِ الْحَدَّ أَخْرَجَتْهُ مِنْ ظَفَائِرِ رَأْسِهَا، فَأَخَذُوهُ وَخَلَّوا سَبِيلَهَا وَرَجَعُوا بِالْكِتَاب إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَأَرْسَلَ إِلَى حَاطِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ:[يَا حَاطِبُ هَلْ تَعْرِفُ هَذَا الْكِتَابَ ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [مَا حَمَلَكَ عَلَى ذلِكَ ؟] قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ غَشَشْتُكَ مُنْذُ صَحِبْتُكَ، وَلاَ أَحْبَبْتُهُمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ، فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ امْرءاً مُلْصَقاً فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ وَلَهُ بِمَكَّةَ مَنْ يَمْنَعُ عَشِيرَتَهُ، وَأَنَا غَرِيبٌ فِيهِمْ، وَكَانَ أَهْلِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَخَشِيتُ عَلَى أَهْلِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذ عِنْدَهُمْ يَداً، فَوَاللهِ مَا فَعَلْتُ ذلِكَ شَكّاً فِي دِينِي وَلاَ رِضًى بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، وَلاَ ارْتَبْتُ فِي اللهِ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَزَّلَ عَلَيْهِمْ بَأْسَهُ، وَإِنَّ كِتَابِي لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً.

فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَذَرَهُ وَقَالَ: [إِنَّهُ قَدْ صَدَقَ]. فَقَامَ عُمَرُ رضي الله عنه وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرَ لَكُمْ][(١)].

(١) الحديث صحيح أصوله في صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير: باب الجاسوس: الحديث (٣٠٠٧). وأخرج ألفاظه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٢٩٢ و٢٦٢٩٣).

ورُوِي: أنَّ عَبْداً لِحَاطِبٍ جَاءَ يَشْتَكِي مِنْ حَاطِبٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ، فَقَالَ: [كَذَبْتَ! لاَ يَدْخُلُهَا أبَداً لأنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ][(١)].

ثُم أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ يعرِّفُ بها النبيَّ ﷺ أن حاطباً مؤمنٌ، فقال (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ) معناهُ: لا تتَّخِذُوا الكافرين أحبَّاءَ في العونِ والنُّصرةِ، ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم ﴾ ؛ أخبارَ النبيِّ ﷺ وسرَّهُ، ﴿ بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ ؛ التي بينَكم وبينهم وتُخبرونَهم بما يخبرُ به الرجلُ أهلَ مودَّتهِ، ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ جحَدُوا بما جاءَكم من الحقِّ يعني القرآنَ، ومع ذلك، ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ أي يُخرِجون الرسولَ من مكَّة ويخرجُونكم أيضاً من ديارِكم لأجلِ إيمانِكم بربكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ ؛ هذا شرطٌ، وجوابهُ متقدِّمٌ عليه وهو قولهُ (لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ). تقديرهُ: إنْ كُنتم خرجتُم جِهاداً مُجاهدِين في طاعتي وسُنَّتي ومتَّبعين مَرضَاتِي، فلا تتَّخذونهم أولياءَ، وقولهُ تعالى: (جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) منصُوبان لأنَّهما مفعولٌ لَهما.

وقوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ ؛ أي تُخفون مَودَّتهم، ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ ، وأنا أعلمُ بما تُضمِرُون في صُدوركم، وما تُظهرون بألسِنَتِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ ؛ يعني الإسرارَ وإلقاءَ المودَّة إليهم، ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾ ؛ أي فقد أخطأ طريقَ الهدى، والمعنى: ومَن يفعل منكم يا معشرَ المؤمنين ما فعلَ حاطبُ، فقد أخطأ طريقَ الحقِّ والهدى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ ؛ معناهُ: إنْ يُصادِفُوكم ويَظفَرُوكم في حالٍ لا يخافونَكم عليها يُظهِرُوا عداوتَكم، ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٢٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر) وذكره.

﴿ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ؛ بالقتلِ والضَّرب، ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ؛ بالشَّتمِ والطعنِ، ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ ويحبُّون أن تكفُروا باللهِ بعد إيمانِكم كما أنَّهم كافرون، والمعنى: لا ينفعُكم التقرُّب إليهم بنقلِ أخبار النبيِّ ﷺ إليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾ ؛ أي تُوادُّوهم بسبب الأرحامِ والأولاد، فإنَّ الأرحامَ والأولادَ لا ينفعُوكم، فلا تَعصُوا اللهَ ولا تخونُوا رسولَهُ لأجلِهم، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ فيُدخِلُ أهلَ طاعةِ اللهِ الجنةَ، ويدخل أهلَ الكفرِ النارَ، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾.

قرأ عاصمُ ويعقوب (يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) بفتحِ الياء وكسر الصاد مخفَّفاً[1]، وقرأ ابنُ عامر والأعرج (يُفَصَّلُ) بضمِّ الياء وفتحِ الصاد مشدَّداً، وقرأ طلحةُ والنخعي (نُفَصِّلُ) بالنون وبضمَّة وكسرِ الصاد مشدَّداً، وقرأ الباقون (يُفْصَلُ) بضم الياء وفتح الصاد مخفَّفاً[2].

ثُم ضربَ اللهُ لهم إبراهيمَ مَثلاً حين تبرَّأ من قومِه فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ ؛ أي قد كانت لكم قدوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ خليلِ الله والذين معَهُ من المؤمنين، ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ ؛ لأقاربهم من الكفَّار: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ ﴾ ؛ ومن دِينكم، ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الأصنام، ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ ، تبرَّأنا منكم، ﴿ وَبَدَا ﴾ ؛ وظهرَ، ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ ﴾ ؛ بالفعلِ، ﴿ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾ ؛ بالقول، ﴿ أَبَدًا ﴾ ؛ إلى الأبدِ، ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ؛ تُقِرُّوا وتُصدِّقوا بوحدانيَّة اللهِ تعالى، فهلاَّ تأسَّيتَ يا حاطبُ بإبراهيمَ في إظهارِهِ مُعاداةَ الكفَّار، وقطعِ الموالاةِ بينكم وبينهم كما فعلهُ إبراهيم ومَن معه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ ؛ أي قد كانت لكم أسوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ وأمُورِهِ، إلاَّ في قولِهِ لأبيهِ لأستغفرن لكَ، ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ

---

(١) في المخطوط: (مشددا) وهو خطأ من الناسخ.

(٢) ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٣. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٥٥.

ﵟٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖﵞ ؛ إنْ عَصَيتَهُ، نُهُوا أن يتأسَّوا بإبراهيمَ في هذا خاصَّة فيستغفِرُوا للمشركين.

والمعنى: قد كانت لكم أسوةٌ حَسنةٌ في صُنعِ إبراهيمَ إلاَّ في استغفارهِ لأبيهِ وهو مشركٌ. ثم بيَّن اللهُ عُذرَهُ إبراهيمَ في سورةِ التَّوبة في استغفارهِ لأبيه فقالَ تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لاَبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾[1] وكان هذا قبلَ إخبار الله تعالى أنْ لا يغفرَ أنْ يُشرَكَ به. وقولُ إبراهيم: (وَمَا أمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) معناهُ: لا أقدرُ على دفعِ شيءٍ من عذاب الله عنكَ إنْ لم تُؤمِنْ.

وكان من دعاءِ إبراهيمَ وأصحابهِ: ﵟرَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَاﵞ ؛ أي وَثِقْنا، ﵟوَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَاﵞ ؛ أي فوَّضنا أمورنا وإليك رجَعنا بالتَّوبةِ والطاعةِ، ﵟوَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ﵞ ؛ في الآخرة، ﵟرَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥ﵞ ؛ أي لا تُظهِرِ الكفَّارَ علينا فيظُنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ فيُفتَنوا بها، هكذا قال قتادةُ. وعن ابن عبَّاس أنَّهُ قالَ: (مَعْنَاهُ: لاَ تُسَلِّطْهُمْ فَيَفْتِنُونَا)[2]. وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: لاَ تُعَذِّبْنَا بأَيْدِيهِمْ وَلاَ بعَذابٍ مِنْ عِنْدِكَ فَيَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ عَلَى الْحَقِّ مَا أصَابَهُمْ هَذا)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟلَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚﵞ ؛ معناهُ: لقد كان لكم في إبراهيمَ والَّذين معهُ قدوةٌ صالحة فيما يرجعُ إلى رجاءِ ثواب الله وحُسنِ الْمُنْقَلَب في اليومِ الآخرِ.

وهذا يقتضي وجوبَ الاقتداء بهم في أفعالِهم، وأما الأُولى فنُهوا الاقتداءَ بهم في باب العداوة للهِ في أمر الدين. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ) بدلٌ من قولِهِ (لَكُمْ فِيهِمْ) وهذا كقولِهِ تعالى ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

(١) التوبة / ١١٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٠٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٠٠).

سَبيلاً﴾[١]. ومعنى (يَرْجُو اللهَ) أي يخافُ اللهَ ويخافُ الآخرة، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي مَن يُعرِضُ عن الإيمانِ ويُوالِي الكفارَ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ عن خلقِه، الحميدُ إلى أوليائِه وأهلِ طاعته.

قال مقاتلُ: (فَلَمَّا أمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ أظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَرَاءَةَ امْتِثَالاً لأمْرِ اللهِ تَعَالَى)[٢] فأنزلَ اللهُ: ﴿ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ ؛ أي كونوا على رجاءٍ وطمعٍ في أن يجعلَ اللهُ بينكم وبين الذين عادَيتم من المشركين، ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ ، يعني من كفار مكَّة.

ففعلَ اللهُ ذلكَ بأن أسلمَ كثيرٌ منهم بعدَ الفتحِ، منهم أبو سُفيان بن حربٍ؛ وأبو سُفيان بن الحارث؛ والحارثُ بنُ هشام؛ وسُهيل بن عمروٍ؛ وحَكَمُ بن حِزام، وكانوا مِن رُؤساء الكفَّار والمعادِين لأهلِ الإسلامِ، فصارُوا لهم أولياءً وإخواناً، فخالَطُوهم وناكَحُوهم، وتزوَّجَ رسولُ الله ﷺ أمَّ حبيبةَ بنتِ أبي سُفيانِ بن حرب، فَلانَ لهم أبو سفيان، فهذه المودَّةُ التي جعلَها اللهُ تعالى بينَهم، ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ ؛ على أن يجعلَ بينكم المودَّة، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ بهم بعد ما تابُوا وأسلَمُوا.

قولُه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ يعني أهلَ العهدِ الذين عاهَدُوا المؤمنين على تركِ القتالِ والْمُظَاهَرَةِ، وهم خُزاعة، ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ ، والمعنى: لاَ ينهاكُم اللهُ عن برِّ الذين لَم يُقاتِلُوكم، وهذا يدلُّ على جواز البرِّ بأهلِ الذمَّة وإنْ كانت الموالاةُ منقطعةً.

ولذلك جوَّزَ أبو حَنيفة ومحمَّد صرفَ صدقةِ الفطرِ والكفَّارات والنُّذور الْمُطْلَقَةِ إليهم، وأجْمَعُوا على جواز صرفِ صدقةِ التطوُّع إليهم، وأجْمَعُوا على أنه لا يجوزُ صرفُ الزَّكَوَاتِ إليهم لقوله عليه السلام: [أمِرْتُ أنْ آخُذ الصَّدَقَةَ مِنْ أغْنِيَائِكُمْ وَأرُدَّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ][٣].

---

(١) آل عمران / ٩٧ . (٢) قاله في التفسير: ج ٣ ص٣٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب وجوب الزكاة: الحديث (١٣٩٥). ومسلم في الصحيح: كتاب الايمان: باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الاسلام: الحديث (٢٩/ ١٢). وأبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب في زكاة السائمة: الحديث (١٥٨٤).

وقولهُ تعالى: (أنْ تَبرُّوهُمْ) في موضعِ خفضٍ بدلَ من (الَّذِينَ) كأنَّهُ قالَ عن أنْ تبرُّوا الذين لم يُقاتِلوكم، وقوله تعالى: ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾؛ القِسْطُ إليهم أن نُعطِيَهم قِسْطاً من أموالِنا على جهة البرِّ، ويقالُ: أقسطتُ إلى الرجُلِ اذا عامَلتهُ بالعدل، قال الزجَّاج: (مَعْنَاهُ: وَتَعْدِلُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ يعني الْمُحَاربينَ من الكفَّار، نهى اللهُ أن يُتَصدَّقَ عليهم، ونهى عن مُوالاتِهم ومُكاتَباتِهم. والْمُظَاهَرَةُ: الْمُعَاوَنَةُ للظُّهور بها على العدوِّ بالغَلَبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ﴾ وذلك أنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا صَالَحَ قُرَيْشاً يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَنْ جَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا هَاجَرَ إلَيْهِ النِّسَاءُ أبَى اللهُ أنْ يَرْجِعْنَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَأمَرَ بامْتِحَانِهِنَّ، وقوله تعالى (فَامْتَحِنُوهُنَّ) وذلك أنْ تُستَحلَفَ المهاجِرةُ ما هاجَرتْ لِحَدَثٍ أحدثَتْهُ، ولا خرجَتْ عِشْقاً لرجُلٍ من المسلمين ولا خرجَتْ إلاَّ رغبةً في الإسلامِ.

قال ابنُ عبَّاس: (صَالَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كُفَّار مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أنَّ مَنْ أتَاهُ مِنْ مَكَّةَ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أتَى مَكَّةَ مِنْ أصْحَابهِ فَهُوَ لَهُمْ، وَلَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، وَكَتَبَ النَّبيُّ ﷺ بذلِكَ كِتَاباً لَهُمْ وَخَتَمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا خَتَمَ عَلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ جَاءَتْهُ سَبيعَةُ بنْتُ الْحَارثِ الأَسْلَمِيَّةُ مُسْلِمَةً.

فَجَاءَ زَوْجُهَا إلَى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ كَافِرٌ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رُدَّهَا عَلَيَّ، فَإنَّكَ شَرَطْتَ لَنَا ذلِكَ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ طِينَةُ كِتَابنَا لَمْ تَجِفَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (يَاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾؛ فاستَحلَفَها رَسُولُ اللهِ

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٢٥.

ﷺ [باللهِ مَا أخْرَجَـكِ إلَيْنَـا إلاَّ الْحِـرْصُ عَلَـى الإيْمَـان وَالرَّغْبَـةُ فِيْـهِ وَالْمَحَبَّةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلإسْلاَمِ] فَحَلَفَتْ باللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ مَا خَرَجْتُ إلاَّ لِذلِـكَ، فَأمَرَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يُعْطَى زَوْجُهَا مَهْرَهَا الَّذِي أنْفَقَ عَلَيْهَا، فَأعْطَوْهُ مَهْرَهَا) وذلك معنى قولهِ: ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ (١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (اللهُ أعْلَمُ بإيْمَانِـهِنَّ) أي هـذا الامتحـانُ لكـم، واللهُ عـالِمٌ بـهنَّ، وليـس عليكـم إلاَّ علـمُ الظـاهرِ، واللهُ أعلـمُ بإيمانِـهنَّ قبـلَ الامتحـان وبعـدَهُ، فـإن علمتُموهنَّ في الظاهرِ بالامتحان أنَّهن مؤمناتٍ فلا تردُّوهن إلى أزواجهنَّ الكفَّار بمكة، لا المؤمناتُ حِلٌّ للكفار ولا الكفارُ يحلُّون للمؤمناتِ. وقوله تعالى (وَآتُوهُمْ مَا أنفَقُوا) أي أعطُوا أزواجَ المهاجراتِ من الكفَّار ما أنفقُوا عليهنَّ من المهرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ ﴾ ؛ أي لا جُناحَ عليكم أنْ تتزوَّجُوهن إذا أعطيتُموهنَّ مُهورَهن ولو كـان لـهنَّ أزواجٌ كفَّـار في دار الكفر؛ لأن الإسلامَ قد فرَّقَ بينها وبـين الكـافرِ، وهـذا كلُّـه دليـلٌ أنَّ الْحُـرَّةَ إذا هاجَرت إلينا مُسلمةً أو ذميَّة وقعتِ الفرقةُ بينهما بنفسِ الْمُهَاجَرَةِ، كمـا هـو مذهـبُ أصحابنا.

ولهـذا قـال أبـو حنيفـةَ: (إنَّ الْمُـهَاجِرَةَ لاَ عِـدَّةَ عَلَيْـهَا؛ لأَنَّ اللهَ تَعَـالَى أبَـاحَ لِلْمُسْلِمِينَ التَّزَوُّجَ بالْمُهَاجِرَاتِ مِنْ غَيْرِ أنْ يَشْرُطَ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ، وَلَوْ كَـانَتِ الزَّوْجِيَّـةُ بَاقِيَةً بَعْدَ الْمُهَاجَرَةِ لَمَا أمَرَ اللهُ بردِّ مُهُورهِنَّ عَلَـى أزْوَاجِـهِنَّ. وَعَلَـى هَـذا إذا خَـرَجَ الزَّوْجُ إلَيْنَا مُسْلِماً أوْ ذِمِّيّاً وَقَعتِ الْفِرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأتِهِ، وَأمَّا إذا دَخَلَ الْحَرْبيُّ إلَيْنَـا بأمَانٍ، أوْ دَخَلَ الْمُسْلِمُ دَارَ الْحَرْب بأمَانٍ، أوْ أسْلَمَ الزَّوْجَانِ فِي دَار الْحَرْب ثُمَّ خَرَجَ أحَدُهُمَا إلَيْنَا لَمْ يَبْطُلْ نِكَاحُهُمَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ المَـرأةَ الْمُسـلِمَةَ إذا كَفرت والعياذُ باللهِ زالت العصمةُ بينها وبين زوجِها وانقطعَ النكاحُ بينهما. والكَوَافِرُ: جمعُ كَافِرَةٍ، نَهى اللهُ المؤمنين عن المقامِ على نكاحِ المشركات.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص٢٨٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: واطلبُوا من أهلِ مكَّة مهورَ النِّساء اللاتِي يخرُجنَ منكم إليهم مرتدَّاتٍ، وليسأل الكفَّارُ منكم ما أنفقُوا على نسائِهم اللواتِي خرجنَ إليكم مُهاجرات، ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالِحكم، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ فيما حكمَ بينكم وبينهم.

قال الزهريُّ: (فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ أقَرَّ الْمُسْلِمُونَ بحُكْمِ اللهِ، فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَأَبَوا أنْ يُقِرُّوا)[1] فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ ذهبَتِ امرأةٌ من نسائِكم إلى الكفَّار فعاقَبتم أي فَضَحْتُمْ.

قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: فَكَانَتِ الْعُقْبَى لَكُمْ، أي كانت الغَلبةُ لكم حتى غَنِمتُم)[2]، فأعطُوا أزواجَ الذين ذهبت نساؤُهم مثلَ ما أنفقُوا من المهور، قبلَ أن تُقسَمَ الغنائمُ، ثم اقسموا الغنائمَ كما أمرَ اللهُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في مُخالفةِ ما أمَركم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾ ؛ وذلك أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا فَتحَ مَكَّةَ، جَلَسَ عِنْدَ الصَّفَا وَإلى جَنْبهِ عُمَرُ ﷺ وَالنِّسَاءُ يَأْتِينَ يُبَايِعْنَهُ ﷺ وَفِيهِنَّ هِنْدٌ بنْتُ عُتْبَةَ مُتَنَكِّرَةً مَعَ النِّسَاءِ خَوْفاً أنْ يَعْرِفَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أنْزل هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ ﷺ: [أبَايِعُكُنَّ عَلَى أنْ لاَ تُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً] فَقَالَتْ هِنْدٌ: أشْرَكْنَا وَعَبَدْنَا الآلِهَةَ فَمَا أغْنَتْ عَنَّا شَيْئاً.

فَقَالَ ﷺ: [وَلاَ تَسْرِقْنَ] فَقَالَتْ هِنْدٌ: إنَّ أبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ مُمْسِكٌ، وَإنِّي أُصِيبُ مِنْ مَالِهِ لِغِنَاهُ، وَلاَ أدْري أيَحِلُّ لِي أمْ لاَ؟ فَقَالَ أبُو سُفْيَان: مَا أصَبْتِ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا مَضَى أوْ قَدْ بَقِيَ فَهُوَ لَكِ حَلاَلٌ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَرَفَهَا وَقَالَ: [إنَّكِ لَهِنْدُ بنْتُ عُتْبَةَ؟] قَالَتْ: فَاعْفُ عَمَّا سَلَفَ يَا نَبِيَّ اللهِ عَفَا اللهُ عَنْكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٣٨).

(٢) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٢٧.

فقَالَ: [وَلاَ تَزْنِينَ] قَالَتْ: وَهَلْ تَزْنِي الْحُـرَّةُ ؟ فَضَحِـكَ عُمَـرُ ﷺ وَقَـالَ: لاَ لَعَمْرِي مَا تَزْنِي الْحُرَّةُ، فَقَالَ: [وَلاَ تَقْتُلْنَ أَوْلاَدكُـنَّ] فَقَـالَتْ هِنْـدُ: زَبَّنَـاهُمْ صِغَـاراً وَقَتَلْتُمُوهُمْ كِبَاراً، وَكَانَ ابْنُهَا حَنْظَلَةُ بْنُ أبي سُفْيَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَـدْرٍ، فَضَحِـكَ عُمَـرُ ﷺ حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ، وَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ[1].

ومعنى الآيَة: (وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ) أي لا يدفِنَّ بناتِهنَّ أحياءً كما كان العـربُ يفعلونَهُ، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ؛ أي لا تُلحِقُ بزوجِها وَلَداً ليس منه، وذلك أنَّ المرأةَ كانت تلتقطُ لَقيطـاً فتضعـهُ بـين يدَيـها ورجلَيها وتقولُ لزوجِها: ولدتُ هذا الولدَ، فذاكَ البهتانُ والافتراءُ. ويقالُ: أرادَ بـين الأيدِي أن يوضَعَ بين يدَيها ولدُ غيرِها وبين أيديهنَّ أن يأتِين بولدِ حرام، وهذا كنايـةٌ عن الفرجِ، فلما قالَ عليه السلام، قَالَتْ هِنْدٌ: وَاللهِ إنَّ الْبُهْتَانَ لَقَبِيـحٌ وَمَـا تَأْمُرُنَـا إلاَّ بالرُّشْدِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ ؛ أي وجميعُ ما تأمرُهنَّ وتنهاهُنَّ من النَّوحِ وشقِّ الجيوب وخَمْشِ الوُجـوهِ ورنَّـةِ الشـيطان وغـيرِ ذلـك مـن أصـواتِ المعصية ومن صوتِ اللَّعب واللهو والمزامير وغير ذلك. والمعروفُ: كلُّ ما كان طاعةً، والمنكَرُ: كلُّ ما كان معصيةً، فلما قالَ ﷺ: [وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ] قَالَتْ هِنْـدُ: وَمَا جَلَسْنَا مَجْلِسَنَا هَذَا وَفِي أنْفُسِنَا أنْ نَعْصِيَكَ فِي شَـيْءٍ، فَـأَقَرَّتِ النِّسْـوَةُ بمَـا أخَـذَ عَلَيْهِنَّ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إذا بايعنَكَ على هذهِ الشُّروط فبايعهُن، فقال ﷺ: [قَدْ بَايَعْتُكُنَّ] كلاماً كلَّمَهن به من غيرِ أن مسَّتْ يدهُ يدَ امرأةٍ، وكان على يدِ عُمر ﷺ ثوبٌ يصافحُ به النساءَ.

قال القَرَظِيُّ: (وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) قَالَ: الْمَعْرُوفُ الَّذِي لاَ مَعْصِيَةَ فِيْهِ)[2]. وقال الربيعُ: (كُلُّ مَا يُوَافِقُ طَاعَةَ اللهِ فَهُوَ مَعْـرُوفٌ)[3]. قـال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٣٥٨).
(٢) ونقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.
(٣) نقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.

مجاهدُ: (غَيْرُ الْمَعْرُوفِ هُوَ خَلْوُ الْمَرْأَةِ بالرَّجُلِ).

وعن سعيدِ بن المسيَّب: (أنَّ مَعْنَاهُ: وَلاَ يَحْلِقْنَ وَلاَ يَخرِقْنَ ثَوْباً وَلاَ يَنْتِفْنَ شَعْراً وَلاَ يَخْمِشْنَ وَجْهاً وَلاَ يُحَدِّثْنَ الرَّجُلَ إلاَّ ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ، وَلاَ تَخْلُو الْمَرْأةُ برَجُلٍ غَيْرِ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ وَلاَ تُسَافِرُ مَعَ غَيْرِ ذِي رَحِمٍ). وقال ابنُ عبَّاس: (وَلاَ يَخُنَّ)(١).

وعن مصعب بن نوحٍ قال: (أدْرَكْتُ عَجُوزاً مِمَّنْ بَايَعْنَ النَّبيَّ ﷺ فَحَدَّثَتْنِي عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) فَقَالَتْ: النَّوْحُ)(٢). وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [النَّوَائِحُ يُجْعَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَّيْنِ وَتَنْبَحُ كَمَا تَنْبَحُ الْكِلاَبُ](٣).

وعن أنسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [تَخْرُجُ النَّائِحَةُ مِنْ قَبْرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُعْثاً غُبْراً، عَلَيْهَا جِلْبَابٌ مِنْ لَعْنَةٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ، وَاضِعَةً يَدَهَا عَلَى رَأسِهَا تَقُولُ: وَاوَيْلاَهُ، وَمَلَكٌ يَقُولُ: آمِينَ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ حَظُّهَا النَّارُ](٤). وقال ﷺ: [أرْبَعٌ فِي أمَّتِي مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ](٥). وقال: [النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا بعَامٍ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ](٦).

---

(١) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٢٩٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن سعد وابن مردويه بسند جيد عن مصعب بن نوح) وذكره.

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه سليمان بن داود اليماني وهو ضعيف).

(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الموت وأحوال تقع بعده: باب ذم النياحة: الحديث (٤٢٤٥٤)، وقال: (أخرجه ابن النجار عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس، قال في الميزان: مسلمة يجهل هو وشيخه، وقال الأزدي: ضعيف).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص٢٨٥: الحديث (٣٤٢٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٤٣، وإسناده صحيح.

(٦) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زمر، وهو ضعيف).

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: [لَعَنَ اللهُ النَّائِحَةَ وَالْمُسْتَمِعَةَ وَالْحَالِقَةَ وَالسَّالِقَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُوْشُومَةَ](١). وعن عمرَ ﷺ: (أنَّهُ سَمِعَ نَائِحَةً فَضَرَبَهَا حَتَّى وَقَعَ خِمَارُهَا عَنْ رَأسِهَا، فَقِيلَ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّهَا قَدْ وَقَعَ خِمَارُهَا، قَالَ: إنَّهَا لاَ حُرْمَةَ لَهَا)(٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾؛ ختمَ اللهُ هذه السُّورةَ بمثلِ كما افتتحَها به، حيث نَهَى المؤمنين عن تولِّي أعداءِ الله، وأرادَ بالقومِ الذين غَضِبَ اللهُ عليهم اليهودَ، والمعنى: يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تتولَّوا اليهودَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾؛ لأنَّهم كانوا يعرِفُون النبيَّ ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، وكانوا لا يُؤمنون به، فآيَسُوا من أن يكون لَهم في الآخرةِ خيرٌ. وَقِيْلَ: إنَّهم كانوا يزعُمون أنه لا يكون في الآخرةِ أكلٌ ولا شربٌ ولا نعمةٌ، والمرادُ بذلك اليهودُ.

وقولُه تعالى: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣ ﴾؛ معناهُ: كما يَئِسَ المشركون الذين لا يُؤمنون بالبعثِ من رُجوعِ أصحاب القبور ومِن أن يُبعثوا. وَقِيْلَ: معناهُ: كما يَئِسَ الكفارُ إذا ماتوا وصارُوا في القبور من أنْ يكون لَهم في الآخرةِ حظٌّ، ويَئِسُوا من أنْ يكون لهم في الآخرةِ نصيبٌ.

آخر تفسير سورة (**الممتحنة**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه الحسن بن عطية، ضعيف). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الجنائز: باب ما ورد من التغليظ في النياحة: الحديث (٧٢١٥٨) وليس فيه الحسن بن عطية، واللفظ له.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٣ ص٥٥٧: الحديث (٦٦٨٢).

سُورَةُ الصَّفِّ

سُورَةُ الصَّفِّ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعُمِائَةِ حَرْفٍ، وَمِائَتَانِ وَإِحْدَى وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الصَّفِّ كَانَ عِيسَى مُصَلِّياً عَلَيْهِ مُسْتَغْفِراً لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ رَفِيقُهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا قَبْلَ أنْ يُؤْمَرُوا بالْقِتَالِ: لَوْ نَعْلَمُ أحَبَّ الأَعْمَالِ إلَى اللهِ تَعَالَى لَعَمِلْنَا وَبَذلْنَا فِيْهِ أمْوَالَنَا وَأنْفُسَنَا، فَدَلَّهُمُ اللهُ عَلَى أحَبِّ الأَعْمَالِ إلَيْهِ)[2] فَقَالَ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبيلِهِ صَفًّا كَأنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ) فَابْتُلُوا يَوْمَ أحُدٍ بمَا أصَابَهُمْ، فَتَوَلَّوا عَنِ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى شُجَّ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ، فَذمَّهُمُ اللهُ عَلَى ذلِكَ فَقَالَ (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي عَظُمَ ذلك في الْمَقْتِ والبُغضِ عندَ اللهِ؛ أي أنَّ اللهَ يبغضهُ بُغضاً شَديداً أن تَعِدُونِي من أنفُسِكم شيئاً ثم لم تُوَفُّوا به.

وموضع (أنْ تَقُولُوا) رُفِعَ، وانتصبَ قوله (مَقْتاً) على التمييز.

---

(١) من حديث أبي بن كعب في فضائل القرآن سورة سورة، تقدم مرارا أنه لا يصح. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠١.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٥٥.

وذكرَ الكلبيُّ: (أنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَقُولُونَ قَبْلَ فَرْضِ الْجِهَادِ: لَوْ عَلِمْنَا أيَّ الأَعْمَالِ أحَبُّ إلَى اللهِ لَفَعَلْنَاهُ، فَدَلَّهُمُ اللهُ عَلَى ذلِكَ بقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ ألِيمٍ﴾، وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا هِيَ، فَمَكَثُوا عَلَى ذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا نَعْلَمُ مَا هِيَ فَنُسَارِعُ إلَيْهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ﴾ إلَى آخِرِ الآيَاتِ)[1].

وقال قتادةُ: (كَانَ الرَّجُلُ إذا خَرَجَ إلَى الْجِهَادِ ثُمَّ رَجَعَ قَالَ: قُلْتُ وَفَعَلْتُ، وَلَمْ يَكُنْ فَعَلَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ).)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ؛ يُحِبُّ الذين يصُفُّون أنفسهم عند القتال صَفّاً ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي مُلتزقٌ بعضهُ إلى بعضٍ، أعلمَ اللهُ أنه يحبُّ مَن تثَبَّتَ في القتال ويلزمَ مكانَهُ كثُبوتِ البناءِ المرصوصِ الذي قد أحكِمَ وأتقِنَ، ليس فيه فرجةٌ ولا خَلل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ في هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ فيما لَقِيَ من أذى الكفار والمنافقين، وقد مرَّ تفسيرُ أذاهُم موسَى في سورةِ الأحزاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ؛ أي بإيذائِهم أمَالَها عن الحقِّ وخذلَها ومنعَها الهدى مجازاةً لهم بإيذائِهم، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ إلى ثوابهِ وجنَّتهِ.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكرْ يا مُحَمَّدُ لقومِكَ قصَّةَ عيسى وعاقبةَ مَن آمنَ معه، وعاقبةَ من كفرَ.

---

(١) نقله عنه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٣٨١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُصَدِّقاً) نُصب على الحالِ؛ أي في حـالِ تصديقي بـالتَّوراةِ الـتي أُوتِيها موسَى ﷺ مِن قبلي، وفي حالِ تبشيري برسولٍ من بعدي يأتي اسمهُ أحْمَدُ.

وذلك أنَّ الْحَوَارِيِّينَ قَالُوا لِعِيسَى ﷺ: يَا رُوحَ اللهِ هَلْ مِنْ بَعْدِنَـا مِـنْ أمَّـةٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ أمَّةُ أحْمَدَ. قَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ وَمَا أمَّةُ أحْمَدَ ؟ قَـالَ: حُكَمَـاءُ عُلَمَـاءُ أبْـرَارٌ أتْقِيَاءٌ؛ كَأنَّهُـمْ مِنَ الْفِقْهِ أنْبِيَاءُ، يَرْضَوْنَ مِنَ اللهِ بالْيَسِيرِ مِنَ الرِّزْقِ، وَيَرْضَـى اللهُ مِنْـهُمْ بالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بـ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

وفي تسميةِ نبيِّنا ﷺ أحمدَ قولان: أحدُهما: أنَّ الأنبياء كانوا حَمَّادِينَ للهِ تعالى، ونبيُّنا ﷺ أحمدُ؛ أي أكثرُ حَمْداً للهِ منهم، فيكون معنى أحمدَ المبالغةَ في الفاعلِ.

والثاني: الأنبياءُ كلهم مَحمُودُونَ، ونبيُّنا ﷺ أكـثرُ مناقبـاً للفضـائلِ، فيكـون معناهُ مبالغةٌ من المفعولِ، يعني إنه يُحْمَدُ بما فيه من الأخلاقِ والمحاسنِ أكثرَ مما يُحمَـدُ غيرهُ.

قال ﷺ: [إنَّ لِي أسْمَاءً: أنَا أحْمَدُ؛ وَأنَا مُحَمَّدٌ؛ وَأنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُـو اللهُ بيَ الْكُفْرَ، وَأنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبيٌّ][(١)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾؛ معناهُ: وأيُّ ظُلمٍ مِن الكفرة ممن افترَى علـى اللهِ الكذبَ بأنْ جعلَ للهِ شَريكاً أو وَلَداً وهو يُدعَى إلى دينِ الإسلام، واللهُ يرشده إلى دينهِ، ومَن كان في سابقِ علمه أنه يموتُ على الكفرِ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي هو الَّذي أرسلَ مُحَمَّـداً ﷺ بـالقرآنِ والدُّعـاء إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٥٢٠-١٥٣٠). وعبدالرزاق في المصنـف: ج ١٠ ص٤٤٦: الحديث (١٩٦٥٧). والإمـام أحمـد في المسـند: ج ٤ ص٨٠ و٨٤. والبخـاري في الصحيح:كتاب المناقب: باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ: الحديث (٣٥٣٢)، وفي كتاب التفسير: سورة الصف: الحديث (٤٨٩٦).

دينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ على جميعِ الأديان، وإنْ كَرِهَ المشركون ذلكَ، فلا تقومُ السَّاعة حتى لا يبقَى أهلُ دينٍ إلاّ دخَلُوا في الإسلامِ وأدَّوا الجزيةَ إلى المسلمين.

وقولهُ تعالى قبلَ هذه الآية (يُريدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بأفْوَاهِهِمْ) يريدون ليَغلِبُوا دينَ اللهِ مع ظهورِهِ وقوَّته بتكذيبهم بألسنتهم، كمَن أرادَ إطفاءَ نُورِ الشمسِ بأخفِّ الأشياءِ وهو الريحُ التي يُخرجُها من فيهِ (وَالله مُتِمُّ نُورِهِ) أي هداهُ ومظهرُ دينهِ، وغالبُ أعدائهِ وناصرُ أوليائهِ على عدوهم من الكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي هل أدلُّكم على طاعةٍ تخلِّصكم من عذابٍ مُؤلِم. وإنما سُمِّيت الطاعةُ تجارةً لأنه يربحُ عليها الجنةَ والثوابَ كما يربحُ على تجارةِ الدُّنيا زيادةَ المال.

وقوله تعالى: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ تفسيرٌ للتجارةِ المذكورة، وإنَّما قدَّم ذكرَ الإيمان في هذه الآيةِ لأنه رأسُ الطاعاتِ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي وتُجاهدون العدوَّ في طاعةِ الله بنفقَتِكُمْ وخروجِكم من أنفسكم، وقد تكون الطاعاتُ بالمالِ دونَ النفسِ بأن يجهِّزَ غازياً بمالهِ، وقد تكون بالنفسِ دون المالِ بأن يجاهدَ بنفسه بمالِ غيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي التجارةُ التي دلَلْتُكم عليها خيرٌ من التجارةِ في الأموال، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ ثوابَ الله، لأن تلك التجارةِ تؤدِّي الى ربحٍ لا يزولُ ولا يَبيدُ بخلافِ التجارة في الأموال في أمُور الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ إنما جزَمَ (يَغْفِرْ) على المعنى، تقديرهُ: إنْ فعلتُم ذلك يغفِرْ لكم، وقال الزجَّاجُ: (هُوَ جَوَابُ تُؤْمِنُونَ وَتُجَاهِدُونَ؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ الأَمْرُ، كَأَنَّهُ قَالَ: آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا يَغْفِرْ لَكُمْ)(١).

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٣١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ ؛ المساكن الطيِّبةُ هي المنازلُ التي طيَّبها اللهُ بالْمِسْكِ والرياحين، ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ؛ أي في بساتين إقامةٍ، يقالُ: عَدَنَ بالمكان إذا أقامَ به. وقولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ ؛ أي ذلك الذي ذكرتُ لكم هو التجارةُ العظيمة، والنعيمُ المقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ؛ أي ذلكم خِصلَةٌ أخرى في العاجلةِ تحبُّونها مع ثواب الآخرةِ، وهي الغنيمةُ والفتحُ، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ على أعدائِكم، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ؛ أي عاجلٌ يعني فتحَ مكَّة، وَقِيْلَ: فتحُ عامَّة البلادِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ ؛ أي بشِّرهم بهائين النِّعمَتين: نعمةَ العاجلِ ونعمةَ الآجلِ، ومعناهُ: بشِّرِ المؤمنين يا مُحَمَّدُ بالنصرِ في الدُّنيا والجنَّة في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي كُونوا أنصارَ دينِ الله على أعدائهِ بالسَّيف ودومُوا على ذلكَ، كما نصرَ الحواريُّون عيسى عليه السلام.

وقرئَ (أنْصَارَ اللهِ) من غيرِ تنوينٍ. والأنصارُ: جمعُ نَاصِرٍ، كصاحبٍ وأصحابٍ، والحواريُّون: خُلَصَاءُ الأنبياءِ الذين نُقُّوا من كلِّ عيبٍ، ومنه الدَّقيقُ الحواريُّ وهو الْمُنَقَّى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي معَ اللهِ كما في قوله تعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾(١).

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ؛ أي صدَّقت جماعةٌ منهم بعيسى، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ ؛ وذلك أنه لَمَّا رُفِعَ عيسى عليه السلام تفرَّق قومهُ ثلاثَ فرقٍ:

فرقةٌ قالوا كان اللهَ فارتفعَ، وفرقةٌ قالوا كان ابنَ اللهِ فرفعَهُ اللهُ، وفرقةٌ قالوا: كان عبدَ اللهِ ورسولَهُ فرفعَهُ الله إليه وهم المؤمنون. فاتَّبعَ كلٌّ فريق منهم طائفةٌ من الناس، فاقتَتلوا فظهرَ الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ فظهرت الفرقةُ المؤمنة على الكافرةِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ

---

(١) النساء / ٢.

﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي غالبين، والمعنى: فاصبحت حُجَّةُ مَن آمنَ بعيسى ظاهرةً بتصديقِ مُحَمَّدٍ ﷺ أنَّ عيسى عبدُ اللهِ وكلمتهُ وروحَهُ والتأييد.

وعن الحسنِ قال: (سَأَلْتُ عِمْرَانَ بْنَ الْحُصَيْنِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ)، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: [قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فِي ذلِكَ الْقَصْرِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُّدٍ أخْضَر، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً وَسَبْعُون فِرَاشاً، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ امْرَأَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً، عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنْ طَعَامٍ، يُعْطِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَأْتِي عَلَى ذلِكَ كُلِّهِ][(1)].

آخر تفسير سورة (**الصف**) والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٤. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٨٨؛ قال القرطبي: (خرَّج أبو الحسين الآجري عن الحسن، قال) وذكره. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات: ج ٣ ص٢٥٢. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤٢٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه جسر بن فرقد، وهو ضعيف).

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى عَشَرَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ ذَهَبَ إلَى الْجُمُعَةِ، وَبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَذْهَبْ إلَيْهَا مِنْ أمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ][(1)] وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ ؛ الْقُدُّوسُ: المستحقُّ للتعظيمِ لتنْزيهِ صفاتهِ عن كلِّ نقصٍ، ويقالُ: معناهُ: كثيرُ البركةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ الأُمِّيُّونَ هم العربُ كلُّهم، مَن كتبَ منهم ومن لَمْ يكتُبْ؛ لأنَّهم لم يكونوا من أهلِ الكتاب. وأوَّلُ ما ظهرتِ الكتابةُ في العرب ظهرت في أهلِ الطائف، تعلَّمُوا من الحيرةِ، وتعلَّمَ أهلُ الحيرةِ من أهل الأنبار.

وقولهُ تعالى (رَسُولاً مِنْهُمْ) يعني مُحَمَّداً ﷺ نَسَبهُ مثلُ نَسَبهم وجنسهُ مثل جنسهم، ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ؛ أي يُطهِّرُهم من الدَّنَسِ والكفر، فيجعلهم أزْكِيَاءَ بما يأمُرهم به من التوحيدِ ويدعوهم إليه من طاعةٍ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ؛ أي القرآنَ والعلمَ، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ ؛ أي وقد كانوا قبلَ مجيئهِ إليهم بالقرآنِ لَفِي ضلالٍ مبينٍ، يعبُدون الأصنامَ ويَسْتَقْسِمُونَ بالأَزْلاَمِ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير عن أبي بن كعب؛ ينظر: الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٠٥ بتفاوت في اللفظ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وبعثَهُ في آخَرين منهم يعني الأعاجمَ، والنبيُّ ﷺ مبعوثٌ إلى كلِّ مَن شاهدَهُ من العرب والعجم وإلى كلِّ مَن يأتي منهم بعدَ ذلكَ.

وقوله تعالى (مِنْهُمْ) لأنَّهم إذا أسلَمُوا صاروا منهم، والمسلمون كلُّهم يدٌ واحدة وأمَّةٌ واحـدةٌ وإن اختلـفَ أجناسُـهم. وقولـه تعـالى (لَمَّـا يَلْحَقُـوا بـِهِمْ) في الفَضْـلِ والسَّابقةِ؛ لأن التَّابعين لا يُدركون شأنَ الصحابةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ ؛ يعني الإسلامَ والهدايةَ إلى دينهِ، وَقِيْلَ: النبوَّةَ والكتابَ والإسلامَ يُعطيهِ اللهُ قُريشاً ممن يراهُ أهلاً لـه بـه، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ على مَن اختصَّهُ بالنبوَّةِ والإسلامِ، وَقِيْـلَ: ذو الْمَـنِّ العظيمِ على خلقهِ ببعثِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ؛ معنـاهُ: مَثَـلُ اليهودِ الذين أمِرُوا بما في التَّوراةِ، ويُظهروا صفةَ مُحَمَّدٍ ونَعْتَهُ فيها، ثم لَمْ يفعلُـوا مـا أمروا به ولم يُؤمِنُـوا بـالنبيِّ ﷺ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ ﴾ ؛ أي يَحمِـلُ كُتُباً من العلمِ عِظَاماً لا يدري ما عليه وما حَمَلَ.

والأَسْفَارُ: جمعُ سِفْرٍ، وهو الكتابُ الكبير، شَبَّهَ اليهودَ إذ لم ينتفِعُوا بما في التَّوراةِ وهي دالَّةٌ على الإيمان بالحمار يحملُ كُتُبَ العلـمِ، ولا يـدري مـا فيـه، وليـس حَمْـلُ التوراةِ من الحملِ على الظَّهرِ، وإنما هو من الْحَمَالَةِ وهو الضَّمانُ والكفالـةُ والقبـول كما في قوله تعالى ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾(١) أي يَقْبَلْنَهَا. فاليهودُ ضَمِنُوا العملَ بها ثـم لم يفعَلُوا بما ضَمِنُوا وجَحَدُوا بعضَ ما حَمَلوا، فلذلك قِيْلَ: (ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ يعـني اليـهودَ كذبُـوا بـالقرآن وبـالتَّوراة حـين لم يُؤمِنـوا بمُحَمَّـدٍ ﷺ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بتكذيبهم الأنبياءَ.

(١) الأحزاب / ٧٢ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ هذا جوابٌ لليهودِ في قولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لنبيِّهِ: قل لهم: إن ادَّعيتم أنَّكم أحبَّاءُ اللهِ وأهلُ ولايتهِ وأنَّ الجنةَ في الآخرةِ لكم من دونِ الناسِ، فاسألُوا اللهَ الموتَ إنْ كُنتم صَادِقِين في مقَالَتِكم، قولوا: اللَّهُمَّ أمِتْنَا كي تصلوا إلى نعيمِ الآخرة وتستَريحوا من تعب الدُّنيا، وسيُمِيتُكم اللهُ إنْ قُلتم ذلكَ.

كما رُوي في الحديثِ: أنَّـهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَـذِهِ الآيَـةُ قَـالَ لَـهُمُ النَّـبِيُّ ﷺ: [قُولُوا: اللَّهُمَّ أمِتْنَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَيْسَ أحَدٌ مِنْكُـمْ يَقُـولُ ذلِكَ إلاَّ غَـصَّ بريقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ] فكَرِهُوا ذلِكَ وَأبَوا أنْ يَقُولُوا[1]، وَعَرَفُوا أنَّهُ سَيَكُونُ ذلِكَ إنْ قَالُوا. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ أي لا يتمنَّون ذلك بما قدَّمُوا من التكذيب بمُحَمَّدٍ ﷺ، والتحريفِ لصِفَتِه في التَّوراةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ إخبارٌ عن معلومِ اللهِ فيهم، حذرَهم اللهُ بقولـهِ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ ؛ أي قل يا مُحَمَّدُ لليهودِ: إنَّ الموتَ الذي تفرُّون منه لأنْ تَلْقَوْهُ فإنه نازلٌ بكم لا محالةَ عند انقضاءِ آجالكم، ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ من خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ ؛ يعني النداءَ إذا جلسَ الإمامُ على المنبرِ يومَ الجمُعة؛ لأنه لم يكُن على عهدِ رسول الله ﷺ نداءٌ سواهُ، كان إذا جلسَ على المنبرِ أذنَ بلالٌ على باب المسجدِ، وكذا كان على عهدِ أبي بكرٍ وعمرَ.

---

(١) هو معنى حديث روي عن النبي ﷺ أنه قال: [لَوْ أنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوا مَقَامَهُمْ مِنَ النَّارِ]. أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما. والطبري في جامع البيان: الأثر (١٢٩٦) من تفسير سورة البقرة. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٣١٤؛ قال الهيثمي: (قلتُ: هو في الصحيح بغير سياقه، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

والنداءُ المشروع لهذهِ الصَّلاة الأذانُ الثاني الذي يقولهُ المؤذّنُ عند صعودِ الإمام المنبرَ، كما رُوي عن السَّائب بن يزيدٍ أنه قال (مَا كَانَ لِرَسُول اللهِ ﷺ إلاَّ مُؤَذِّنٌ وَاحِدٌ يُؤَذِّنُ إذا قَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ يُقِيمُ إذا نَزَلَ، ثُمَّ أبُو بَكْرٍ كَذلِكَ، ثُمَّ عُمَرَ كَذلِكَ، فَلَمَّا كَانَ فِي أيَّامِ عُثْمَانَ ﷺ وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ نِدَاءً غَيْرَهُ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ الله) يعني الذهابَ والمشيَ إلى الصَّلاةِ، والسَّعيُ: هو إجابةُ النِّداءِ في هذه الآيةِ، والمبادرةُ إلى الجمعةِ، وفي قراءةِ ابن مسعودٍ ﷺ (فَامْضُوا إلَى ذِكْرِ اللهِ) وكان يقولُ: (لَوْ أمِرْتُ بالسَّعْي لَسَعَيْتُ حَتَّى سَقَطَ ردَائِي)(٢). وَقِيلَ: السَّعيُ هنا هو العملُ إذا نُودِيَ للصَّلاة فاعمَلُوا على المعنَى إلى ذكرِ الله من التفرُّغِ له والاشتغالِ بالطَّهارة والغُسلِ والتوجُّه إليه بالقصدِ والنيَّة.

واختلفَ مشائخُنا: هل يجبُ على الإنسانِ الإسـراعُ والعَـدْوُ إذا خـافَ فـوتَ الجمُعة أم لاَ ؟ قال بعضُـهم: يلزمـهُ ذلـك بظـاهرِ النـصِّ، بخـلاف السَّـعيِ إلى سـائرِ الجماعات لا يؤمرُ به وإنْ خافَ الفوتَ. وقال بعضُهم: لا يلزمهُ ذلك، وليس السَّعيُ إلاّ العملُ كما قال تعالى ﴿وَأنْ لَيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾(٣). وقـال صَلَّـى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: [إذا أتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَمَا أدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا](٤)، وهذا عامٌّ في جميعِ الصَّلوات.

قال بعضُهم: فاسعَوا إلى ذكر الله، يعني الصَّلاةَ مـع الإمـامِ، وذلـك هـو المـرادُ بذكرِ الله. وقال بعضُهم: هي الخطبةُ لأنَّها تلِي النداءَ، عـن أبـي بكـرٍ ﷺ قـالَ: قَـالَ

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٥٨-١٥٩؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميـد وابـن المنـذر وابـن مردويه عن السائب بن يزيد) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٤٣٥).

(٣) النجم / ٣٩ .

(٤) أخرجـه عبدالـرزاق في المصنـف: الحديـث (٣٤٠٤). والإمام أحمـد في المسـند: ج ٢ ص٢٧٠ و٣١٨ و٤٢٧. ومسـلم في الصحيـح: كتـاب المساجد: بـاب استحباب اتيـان الصـلاة بوقـار: الحديث (١٥١-١٥٤/ ١٠٢).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ، فَإذا رَاحَ كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ قَدَمٍ عَمَلَ عِشْرِينَ سَنَةً، فَإذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ أُجِيزَ بعَمَلِ مِائَتَي سَنَةٍ](١).

وعن أبي ذرٍّ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ غُسْلَهُ، وَلَبسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابهِ، وَمَسَّ مِنْ طِيب بَيْتِهِ أوْ دُهْنِهِ، ثُمَّ لَمْ يُفَرِّقْ مَا بَيْنَ اثْنَيْنِ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى وَزِيَادَةَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ بَعْدَهَا](٢).

وعن أنسٍ ﷺ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي جُمُعَةٍ مِنَ الْجُمَعِ: [يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إنَّ هَذا يَوْماً جَعَلَهُ اللهُ عِيْداً لِلْمُسْلِمِينَ فَاغْتَسِلُوا فِيْهِ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلاَ يَضُرُّهُ أنْ يَمَسَّ مِنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بالسِّوَاكِ](٣).

وعن رسول الله ﷺ قال: [لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي رَأيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ سَبْعِينَ مَدِينَةً، كُلُّ مَدِينَةٍ مِثْلُ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ سَبْعِينَ مَرَّةً مَمْلُوءَةً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، يُسَبحُونَ اللهَ وَيُقَدِّسُونَهُ، وَيَقُولُونَ فِي تَسْبيحِهِمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ](٤).

وقال ﷺ: [إنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتَهَا أرْبَعٌ وَعُشْرُونَ سَاعَةً، للهِ تَعَالَى فِي كُلِّ سَاعَةٍ سِتُّمِائَةِ ألْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّار](٥).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٤، وأضاف قال: (عن أبي بكر الصديق وعمران بن حصين).

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح: كتاب الصلاة: باب صلاة الجمعة: الحديث (٢٧٨٠) بإسناد صحيح. وبمعناه أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجمعة: باب الدهن للجمعة: الحديث (٨٨٣) عن سلمان الفارسي.

(٣) في كنز العمال: الحديث (٢١٠٥٥) عزاه المتقي الهندي إلى مالك والشافعي مرسلاً.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٥ عن أنس. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١١٩.

(٥) عن أنس، ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٢١٠٣٤ و٢١٠٨٠ و٢١٠٨١).

وقال ﷺ: [لَعَلَّ أحَدَكُمْ يَتَّخِذُ الضَّيْعَةَ عَلَى رَأسِ مِيْلٍ أوْ مِيلَيْنِ وَثَلاَثَةٍ، تَأْتِي عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ فَلاَ يَشْهَدُهَا، ثُمَّ تَأْتِي الْجُمُعَةُ فَلاَ يَشْهَدُهَا، ثُمَّ تَأْتِي عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ فَلاَ يَشْهَدُهَا، فَيُطْبَعُ عَلَى قَلْبِهِ][1].

وقال ﷺ فِي الْجُمُعَةِ: [مَنْ تَرَكَهَا اسْتِخْفَافاً بِهَا أوْ جُحُوداً لَهَا، فَلاَ جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ وَلاَ بَارَكَ لَهُ فِي أمْرِهِ، ألاَ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ، ألاَ فَلاَ زَكَاةَ لَهُ، ألاَ فَلاَ صِيَامَ لَهُ، ألاَ فَلاَ حَجَّ لَهُ، إلاَّ أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، فَإنْ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذرُوا الْبَيْعَ) قال الحسنُ: (إذا أذنَ الْمُؤَذِّنُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَمْ يَحِلَّ الشِّرَاءُ وَلاَ الْبَيْعُ، فَمَنْ بَاعَ تِلْكَ السَّاعَةِ فَقَدْ خَالَفَ الأَمْرَ، وَبَيْعُهُ مُنْعَقِدٌ) لأنه نهي تنْزيهٍ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ وهذا على الترغيب في ترك البيع، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ ﴾ ؛ ما هو خيرٌ لكم وأصلحُ.

قرأ العامَّةُ (مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) بضمَّتين، وقرأ الأعمشُ بجزم الميم وهما لُغتان، قال الفرَّاء: (وَفِيهَا لُغَةٌ ثَالِثَةٌ: جُمَعَةٌ بفَتْحِ الْمِيْمِ كَمَا يُقَالُ: رَجُلٌ ضُحَكَةٌ وَهُمَزَةٌ وَلُمَزَةٌ، وَهِيَ لُغَةُ بَنِي عَقِيلٍ)[3].

وإنَّما سُمِّي هذا اليومُ جُمعةً لما رُوي عن سَلمان قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لأَنَّ آدَمَ جُمِعَ فِيهَا خَلْقُهُ][4]. وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تعالى فَرَغَ فيه من خلق المخلوقات. وَقِيْلَ: تجتمعُ الجماعاتُ فيها. وَقِيْلَ: لاجتماعِ الناسِ فيها للصَّلاة. وَقِيْلَ: أوَّلُ من سمَّاها جُمعةً كعبُ بن لُؤَيٍّ، وكان يقالُ ليومِ الْجُمعة: العُرُوبَةُ. وَقِيْلَ: أوَّل مَن سمَّاها جُمُعَةً الأنصارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي إذا فَرغتُم من الصَّلاة فانتَشِرُوا في الأرضِ، هذا أمرُ إباحةٍ، قال ابنُ عبَّاس: (إنْ شِئْتَ فَاخْرُجْ،

---

(١) في صحيح مسلم: كتاب الجمعة: باب التغليظ في ترك الجمعة: الحديث (٤٠/ ٨٦٥) بمعناه. وعند ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: الحديث (١١٢٦) بإسناد صحيح بمعناه أيضاً.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب إقامة الصلاة: باب في فرض الجمعة: الحديث (١٠٨١).

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص١٥٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٣٩، بإسناد صحيح.

وَإنْ شِئْتَ فَصَلِّ إلَى الْعَصْرِ، وَإنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ). وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ إباحةٌ لطلب الرِّزقِ والتجارة والبيعِ بعدَ المنعِ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (لَمْ تُؤْمَرُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ بطَلَب شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ عِيَادَةُ مَرِيضٍ وَحُضُورُ جَنَازَةٍ وَزِيَارَةُ أخٍ فِي اللهِ تَعَالَى)[١]. وقال الحسنُ: ((وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) يَعْنِي طَلَبَ الْعِلْمِ)[٢]. والقولُ الأوَّلُ أظهرُ.

واختلفَ العلماءُ في موضعِ وجُوب الْجُمعةِ، وعلى مَن تجبُ، وكم يشترَطُ له الجماعةُ؟ فقال أبو حنيفةَ: (لاَ تَجِبُ الْجُمُعَةُ إلاَّ فِي مِصْرٍ جَامِعٍ لِقَوْلِهِ عليه السلام: [لاَ جُمُعَةَ وَلاَ تَشْرِيقَ إلاَّ فِي مِصْرٍ جَامِعٍ][٣] وَلاَ تَصِحُّ فِي الْقُرَى، وَلاَ تَجِبُ عَلَى السَّوَادِ وَلَوْ قَرُبَتْ مِنَ الْمِصْرِ، إلاَّ إذا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِهِ)[٤].

وقال الشافعيُّ: (تَجِبُ الْجُمُعَةُ عَلَى أهْلِ السَّوَادِ إذا سَمِعُوا النِّدَاءَ مِنَ الْمِصْرِ، وَوَقْتُ اعْتِبَارِ سَمَاعِ الأَذَانِ أنْ يَكُونَ الْمُؤَذِّنُ صَيِّتاً، وَالأَصْوَاتُ هَادِئَةً وَالرِّيحُ سَاكِنَةً).

وقال ابنُ عمرٍو وأبو هريرة وأنس: (تَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ عَلَى عَشْرَةِ أمْيَالٍ مِنَ الْمِصْرِ)[٥]. وقال سعيدُ بن المسيَّب: (تَجِبُ عَلَى مَنْ كَانَ دُونَ الْمَبِيتِ). وقال الزهريُّ: (عَلَى سِتَّةِ أمْيَالٍ)، وقال ربيعةُ: (أرْبَعَةُ أمْيَالٍ)، وقال مالكٌ: (ثَلاَثَةُ أمْيَالٍ).

وعندَ الشافعيِّ: (تَجِبُ الْجُمُعَةُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ اجْتَمَعَ فِيهَا أرْبَعُونَ رَجُلاً أحْرَاراً بَالِغِينَ، لاَ يَظْعَنُونَ عَنْهَا شِتَاءً وَلاَ صَيْفاً إلاَّ ظَعْنَ حَاجَةٍ، فَإذا كَانَ كَذلِكَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٣١٤.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص١٣١٤.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ١ ص٤٦٩ عن علي رضي الله عنه. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الجمعة: الأثر (٥٧١٣) موقوفاً على علي رضي الله عنه. وفي المحلى: ج ٥ ص٥٢؛ قال ابن حزم: (وقد صح عن علي رضي الله عنه) وذكره.

(٤) نقله ابن حزم في المحلى: ج ٥ ص٥٣.

(٥) حديث عبدالله بن عمرو؛ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الجمعة: الأثر (٥٦٩٣)، وقال: (على ميلين من الطائف). وعن أبي هريرة في الأثر (٥٦٩٤): (على رأس ستة أميال) من المدينة.

إقَامَةُ الْجُمُعَةِ. وَإنْ كَانَ أقَلَّ مِنْ ذلِكَ، وَكَانَ بقُرْبهَا مَوْضِعٌ تُقَامُ فِيْهِ الْجُمُعَةُ، فَعَلَيْهِمُ الْحُضُورُ فِيْهِ لِلْجُمُعَةِ إذا كَانُوا بحَيْثُ يَسْمَعُونَ النِّدَاءَ). وقال مالكُ: (إذا كَانَتِ الْقَرْيَةُ فِيهَا سُوقٌ وَمَسْجِدٌ وَجَبَ عَلَيهِمْ إقَامَةُ الْجُمُعَةِ).

وأما أهلُ الوجوب، فتجبُ الجمُعة على كلِّ مسلمٍ إلاَّ على أربعة: عبدٌ؛ أو مريض؛ أو مسافرٌ؛ أو امرأةٌ، فمَنِ استغنَى عنها بلهوٍ أو تجارةٍ استغنَى اللهُ عنه، واللهُ غنيٌّ حميد.

وأما العددُ الذين تنعقد بهم الجمعةُ، فقال الحسنُ: (تَنْعَقِدُ باثْنَيْنِ)، وقال أبو يوسف والليثُ بن سعد: (بثَلاَثَةٍ)، وقال أبو حنيفةَ ومحمَّد وسفيان: (بأَرْبَعَةٍ)، وقال ربيعةُ: (باثْنَي عَشَرَ)، وقال الشافعيُّ: (لاَ تَنْعَقِدُ إلاَّ بأَرْبَعِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾؛ قال الحسنُ: (أصَابَ أهْلَ الْمَدِينَةِ جُوعٌ وَغَلاَءُ سِعْرٍ، فَقَدِمَ دَحِيَّةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبيُّ مِنَ الشَّامِ بتِجَارَةٍ، وَكَانَ يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ بكُلِّ مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ دَقِيقٍ وَبُرٍّ وَغَيْرِهِ، فَيَنْزِلُ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ وَيَضْرِبُ الطَّبْلَ لِيُعْلِمَ النَّاسَ بقُدُومِهِ، فَيَخْرُجُونَ إلَيْهِ لِيَبْتَاعُوا مِنْهُ.

فَقَدِمَ ذاتَ يَوْمِ جُمُعَةٍ - وَكَانَ قَبْلَ إسْلاَمِهِ - وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَضَرَبَ الطَّبْلَ فَخَرَجَ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ ثَبَتُوا مَعَ النَّبيِّ ﷺ - وَقِيلَ: بَقِيَ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً وَامْرَأةٌ - فَقَالَ ﷺ: [لَوْ لَحِقَ آخِرُهُمْ أوَّلَهُمْ لاَلْتَهَبَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً] فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[(١)].

وقولهُ تعالى (انفَضُّوا إلَيْهَا) أي تفرَّقوا بالخروجِ إليها (وَتَرَكُوكَ قَائِماً) على المنبرِ تخطبُ. وفي هذا دليلٌ على وجوب استماعِ الْخُطْبَةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عاتبَهم على تركِ الاستماعِ، ولو لم يكن فَرضاً لم يُعاتَبوا على ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٤٤٨-٢٦٤٥٤) بأسانيد عن السدي عن أبي مالك وجابر بن عبدالله، ومعمر عن الحسن وابن زيد وعن مجاهد وقتادة.

ويستدلُّ من هذه الآيةِ على أنَّ من السُّنة أن يَخطُبَ الإمامُ قائماً. والكنايةُ في قولهِ تعالى (إِلَيْهَا) راجعةٌ إلى التِّجارةِ دونَ اللَّهو، وإنما خُصَّت التجارةُ بردِّ الضمير إليها؛ لأنَّها كانت أهمَّ إليهم لأنَّ السَّنة كانت سَنَةَ مجاعةٍ وغلاء سعرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ ؛ معناهُ: ما عندَ اللهِ من ثواب الصَّلاة والثباتِ مع النبيِّ ﷺ خيرٌ من اللَّهو ومن التجارةِ، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ؛ أي ليس يَفوتُهم من أرزاقِهم لتخلُّفهم عن الْمِيرَةِ شيءٌ، ولا بتركِهم البيعَ في وقتِ الصَّلاة.

آخر تفسير سورة (**الجمعة**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

سُورَةُ (الْمُنَافِقُونَ) مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ ؛ معناهُ: إذا جاءَك يا مُحَمَّدُ منافِقُوا أهلِ المدينةِ عبدُالله بنُ أبَـي وأصحابـهُ، ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ ، قالُوا: نُقسِمُ إنَّكَ لرسولُ اللهِ، وعلى ذلكَ ضَميرُنا واعتقادُنا، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ ، من غيرِ شهادة المنافقين وحلفِهم، ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي واللهُ يخبر أنَّ المنافقين لكَاذِبون فيما يعتقدونهُ بقُلوبهم وما يقُولون بألسِنَتِهم، فهُم كاذِبون في إخبارهم عمَّا في ضَمائرِهم، فأمَّا شَهادتُهم بألسِنتهم أنه رسولُ الله فقد كانت صِدْقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ ؛ أي سُتْرَةً يدفعون بها عن أنفُسِهم السَّبي والقتل والجزية كمَن أعدَّ على نفسهِ جُنَّةً لدفعِ الجراح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَنَعُوا الناسَ عن طاعةِ الله وامتَنعوا عنها، ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ في نفاقِهم من الكذب والخيانة.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ أنَّ قولَ الرجُلِ: أشْهَدُ، يمينٌ؛ لأنَّ القومَ قالوا (نَشْهَدُ) فجعلَهُ اللهُ يَميناً في هذهِ الآية، وعلى هذا أُقسِمُ وأعزِمُ وأحلِفُ، كلُّها أيمانٌ عند أبي حنيفةَ وصَاحِبَيْهِ، والثوريِّ والأوزاعي.

---

(١) من أحاديث فضائل القرآن، إسناده عن أبي بن كعب، وهو موضوع. أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣١٩.

وقال مالكٌ: (إنْ أرَادَ بهِ الْيَمِينَ فَهُوَ يَمِينٌ)، وقال الشافعيُّ: (أقْسِمُ لَيْسَ بيَمِين، وَأقْسِمُ بـاللهِ يَمِـينٌ). وفي قـراءةِ الحسـن (اتَّخَـذُوا إيْمَانَـهُمْ) بكسـر الألـف، أي إنَّـا مُؤمِنون، اتَّخذوهُ تُقْيَةً عن القتلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الحكمُ بنفَاقِهم، ويقالُ: ذلك الصدُّ بأنَّهم كانوا مُؤمنـين في العَلانِيَةِ بحضرةِ النبيِّ ﷺ، فإذا عادُوا إلى قَومِهم ثبَتُوا على الكفرِ في السرِّ، فـأورثَ ذلك طَبْعاً على قُلوبهم فهُم لا يفقَهُون الإيمانَ والقرآنَ، ولا يَعُونَ ما يُوعَظُونَ به.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ؛ أي في صحَّة أجسامِهم وحُسنِ مَنظَرِهم؛ لأنَّهم يكونون علـى صُـورةٍ حَسَـنة، وكـان عبدُالله بن أبَي رجُلاً فَصِيحاً لَسِناً، وكـانوا إذا قـالُوا شَـيئاً أصغَـى النبيُّ ﷺ لِحُسـنِ كلامِهم، ولهذا أدخلت اللامُ في (تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)، ويجوزُ أن يكون معناه: إلى قولِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾ ؛ فيـه بيـانٌ في تـركِ التفـهُّم والاستبصار بمنْزلة الْخُشبِ الْمُسَنَّدَةِ إلى الجدار، لا ينتفعُ إلاَّ بالنظرِ إليها، والْخُشُبُ لا أرواحَ فيها ولا تعقلُ ولا تفهمُ، وكذلك المنافقون لا يَسـمعون الإيمـانَ ولا يعقلونَـهُ. و(الْمُسَنَّدَةُ) الْمُمَالَةُ إلى الجدار، ويُقرأ (خُشُبٌ، وَخُشْبٌ) بجزم الشِّين، ومنها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ ؛ أي يظُنُّون مِن الْجُبنِ والخـوفِ أنَّ كلَّ مَن خـاطبَ النـبيَّ ﷺ فإنمـا يُخاطِبـهُ في أمرِهـم وكشـفِ نفاقـهم. ويقـالُ: لا يسمعون صَوتاً إلاَّ ظنُّوا أنْ قد أتوا (فإذا نـادَى مُنـادٍ في العسـكرِ، وانفلَتَـتْ دابَّـة، أو أنْشِدَتْ ضالَّـةٌ، ظنُّـوا أنَّـهم يُـرادُون ممـا في قلوبـهم مـن الرُّعـبِ)[1] أنْ يكشـفَ اللهُ أسرارَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ، والمعنى: هُمْ على الحقيقةِ العـدوٌّ الأدنى إليكَ، ﴿ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ ولا تأمَنْـهُمْ وإنْ أظـهَرُوا أنَّـهم معـكَ، ولا تُطلِعْهُمْ على سرِّكَ كأنَّهم عيونٌ لأعدائِكَ من الكفَّار.

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ ؛ أي لعَنَـهم اللهُ وأخزاهـم وأحلَّهم محلَّ مَن يقاتلهُ عدوّاً قاهراً لـه، (أنَّـى يُؤْفَكُـونَ) أي يُصرَفُـون مـن الحـقِّ إلى الباطلِ.

قولــه تعــالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ ؛ أي إذا قيـلَ لهـؤلاء المنـافقين بعـدَ مـا افتُضِحُوا: هَلُمُّوا إلى رسول الله يستغفِرْ لكم ذُنوبَكم، عطَفُـوا رُؤوسَـهم استهزاءً بـه ورغبةً عن الاستغفار، ورأيتَهم يصدُّون عن الاستغفار وعن طلب المغفرةِ.

ومعنى (يَصُدُّونَ) أي يَمتَنِعُونَ، ويَمنَعُـونَ غـيرَهم عـن طلـب المغفـرةِ، وهـم مُستكبرون عن استغفار رسول الله لَهم وعن قبول الحقِّ. وذلك: أنَّ عَبْدَاللهِ بْـنَ أبَـيٍّ لَمَّا رَجَعَ مِنْ أحُدٍ بكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مَقَتَهُ الْمُسْلِمُونَ وَعَنَّفُوهُ، فَقَالَ لَهُ بَنُـوا أبيـهِ: إئْـتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لَكَ، قَالَ: لاَ أذهَبُ إلَيْهِ وَلاَ أُريدُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِـي. ومـن قرأ (لَوَوْا) بالتخفيفِ فهو من لَوَى يَلْوِي إذا صَرَفَ الشيءَ وقلبه.

وقولـهُ تعــالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ؛ أي سـواءٌ عليـهم الاســتغفارُ وتركــهُ، ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ ؛ لإبطانِهم الكفرَ. وهذا في قوم مَخصُوصِينَ عَلِمَ اللهُ أنَّـهم لا يُؤمنـون فلـم يسـتغفِرْ لهـم النـبيُّ ﷺ، ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ .

وذلك: أنَّ أصْحَابَ رَسُول اللهِ ﷺ كَـانُوا نُـزُولاً عَلَـى الْمَـاءِ فِـي غَـزْوَةِ بَنِـي الْمُصْطَلِق، إذْ وَقَعَ بَيْنَ غُلاَمٍ لِعُمَرَ ﷺ مِنْ بَنِي غِفَارٍ يُقَالُ لَهُ: جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ يَقُـودُ لِعُمَرَ فَرَسَهُ وَبَيْنَ غُلاَمٍ لِعَبْدِاللهِ بْن أبي سَلُول يُقَالُ لَهُ: سِنَانُ الْجُهَنِيُّ، فَـأقْبَلَ جَـهْجَاهُ يَقُودُ فَرَسَ عُمَرَ فَازْدَحَمَ هُوَ وَسِـنَان عَلَـى الْمَـاءِ فَـاقْتَتَلاَ، فَصَـرَخَ سِـنَانٌ: يَـا مَعْشَـرَ الأَنْصَار، وَصَرَخَ الْغِفَارِيُّ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِين. فَاشْتَبَكَ النَّاسُ وَعَلَتِ الأَصْوَاتُ.

فَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبَيٍّ: مَا أدْخَلْنَا هَؤُلاَءِ الْقَوْم فِي دِيَارِنَا إلاَّ لِيَرْكَبُوا أعْنَاقَنَا، وَاللهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُهُمْ إلاَّ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ! أمَا وَاللهِ لَئِـنْ رَجَعْنَـا إلَـى

فَأَنَا أَحمِلُ إِلَيْكَ دُابَتَه، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأمُرَ بِهِ غَـيْرِي فَيَقْتُلَـهُ، فَـلاَ تَدعُنِـي نَفسِـي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِهِ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ، فَأخَافُ أَنْ أَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ مُؤْمِناً بكَـافِرٍ فَـأَدْخُلَ النَّـارَ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ تَرْفُقُ بِهِ وَتُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا][١].

وَكَذلِكَ جَاءَ أُسَيدُ بْنُ حُضَيرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ كُنْـتَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يُمْشَى فِيهَا[٢]، فَقَالَ لَهُ: [أَوَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكَ؟ زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذلَّ] فَقَالَ أُسَيْدُ: بَلْ أَنْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ تُخرِجُهُ إِنْ شِئْتَ، هُوَ وَاللهِ الذليلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ، فَوَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِكَ، وَإِنَّ قَوْمَهُ لَيَنْظُمُونَ لَهُ الْخرزَ لِيَتَوَجُوهُ، فَهُوَ يَرَى أَنَّكَ سَلَبْتَهُ مُلْكَهُ[٣].

ثم سارَ رسولُ الله ﷺ حتى وافَى المدينـةَ، فـأنزلَ اللهُ هـذه الآيـةَ (هُـمْ الَّذِيـنَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) الآية إلى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ؛ فَأَخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ بأُذن زَيْدٍ فَقَالَ: [يَـا زَيْـدُ إِنَّ اللهَ صَدَّقَكَ].

وَكَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٌّ بِقُرْبِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُاللهِ حَتَّى أَنَاخَ عَلَى مَجَامِعِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمَنَعَ أَبَاهُ أَنْ يَدخُلَهَا، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ ؟ قَالَ: وَيْلَـكَ! وَاللهِ لاَ تَدْخُلُهَا أَبَداً إِلاَّ أَنْ يَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلِتَعْلَمَنَّ الْيَوْمَ مَنِ الأَعَزُّ وَمَنِ الأَذلُّ.

فَشَكَا عَبْدُاللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا مَنَعَ ابْنُهُ، فَأَرسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ: [أَنْ دَعْـهُ يَدْخُلُ] فَقَالَ: أَمَّا إِذا جَاءَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَعَمْ. فَلَبثَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ أَيَّامـاً قَلاَئِـلَ ثُمَّ مَرِضَ وَمَاتَ.

---

(١) أخرجه هذه الروايات الطـبري في جـامع البيـان: (٢٦٤٦٣-٢٦٤٨٢). وذكـره ابـن هشـام في السيرة النبوية: غزوة بني المصطلق: ج ٣ ص٣٠٢-٣٠٤.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٠٤؛ قال: (يا نبيَّ الله، واللهِ لقد رُحْتَ في ساعة مُنكَرَةٍ، ما كُنت تروحُ في مِثلها؛ فقال له رسول الله ﷺ...).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ٣ ص٣٠٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي هو الرزَّاقُ لهؤلاءِ المهاجرين لاَ هُوَ؛ لأنَّ خزائنَ السَّموات والأرضِ المطرَ والنباتَ، وهما للهِ فلا يقدرُ أحدٌ أن يُعطِي شيئاً إلاَّ بإذنهِ ولا يمنعهُ شيئاً وبمشيئتهِ (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ) إنما أمرهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكونُ.

وقال الجنيدُ: (خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ الْغَيْبُ، وَخَزَائِنُ الأَرْضِ الْقُلُوبُ، وَهُوَ عَلاَّمُ الْغُيُوب مُقَلِّبُ الْقُلُوب). وقال رجلٌ لحاتم الأصَمّ: (من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ) يعني مِن هذه الغَزوَةِ وهي غزوةُ بني الْمُصْطَلِقِ حيٌّ من هُذيلٍ، (لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذلَّ) قد ذكرنا قائلَ هذه المقالة وهو عبدُالله بن أبَي.

قِيلَ: إنَّ إبنَهُ عبدُالله قَالَ لَهُ: أنْتَ وَاللهِ الأَذلُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ الأَعَزُّ[2]. وكان عبدُالله بن أبَي يعني بالأعزِّ نفسَهُ، فردَّ اللهُ عليه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فعزَّةُ الله تعالى بقهرهِ لخلقهِ، ولرَسُولهِ بإظهار دينهِ على الأديان كلِّها، وعزَّةُ المؤمنين نصرهُ إيَّاهم على أعدائِهم فهم ظَاهِرُونَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ ؛ ولو عَلِمُوا ما قالوا هذه المقالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي لا تَشغَلكُم أموالُكم ولا أولادكم ذكرَ عنالله، يعني الصَّلاةَ المفروضةَ، والمعنى: لا تشغَلكُم كثرةُ أموالكم وحفظُها وتنميتها، ولا تربيةُ الأولادِ وإصلاحُ حالهم عن طاعةِ الله وعن الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ ﴾ ؛ أي ومَن ينشغِلْ بالمالِ والأولاد عن طاعةِ الله فأولئك هم الْمَغْبُونُونَ لذهاب الدُّنيا والآخرة عنهم، وهلاكِ أنفُسهم التي هي رأسُ مالهم.

---

(١) ذكرهما القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٢٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٧٧-١٧٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبري عن أسامة بن زيد ﷺ) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ ؛ معناهُ: وأنفِقُوا الأموالَ في الزَّكاة والجهادِ وغيرهما من الحقوق الواجبة من قبلِ أن يأتِيَ أحدَكم الموتُ فيعلم أنه ميِّت، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ ، في الدُّنيا؛ أي يتمَنَّى القليلَ من التأخيرِ ليتصَدَّق به ويكون من الصَّالِحين بالتلافِي والتوبةِ واستئناف العملِ الصالح، ولا ينفعهُ تَمَنِّيهِ عند ذلك، والمعنى: إنه يستزيدُ في أجَلهِ حتى يتصدَّقَ ويُزكِّي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ قِيلَ: إنَّ معناه وأحجُّ، عن ابن عبَّاس. وقوله: (وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) على قراءةِ مَن جزمَ عطفَهُ على موضعِ (فَأَصَّدَّقَ) لأنه على معنى إنْ أخرَجتَني أصَّدَّقُ وأكُنْ، ولولا الفاءُ لكان فأصَّدَّقْ مجزومٌ، ومن قرأ (وَأكُونَ) فهو عطفٌ على لفظ (فَأصَّدَّقَ). وانتصبَ قوله تعالى (فَأَصَّدَّقَ) لأنه جوابُ التَّمنِّي، فالفاءُ وأصله: فَأتَصَدَّقَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ ؛ أي لا يُؤخِّرها عن الموتِ إذا جاء وقتُ إهلاكها، ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ، وبمن أخَّرَ في أجله أنه يتوبُ أو لا يتوبُ.

آخر تفسير سورة (المنافقون) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

سُورَةُ التَّغَابُنِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَوَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّغَابُنِ رَفَعَ اللهُ عَنْهُ مَوْتَ الْفُجَاءَةِ][(1)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُه. وقولُه: ﴿ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ ﴾ ؛ أي له المُلْكُ الدائمُ الذي لا يزولُ، وله الحمدُ في السَّمواتِ والأرض، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ ؛ من أمُورِ الدُّنيا والآخرةِ، ﴿ قَدِيرٌ (1) ﴾. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (2) ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولُه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ ﴾ ؛ أي صوَّرَكم في أرحامِ الأُمَّهات، فجعلَ صُورَكم أحسنَ من صُورِ سائرِ الحيواناتِ، ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (3) ﴾ ؛ في الآخرةِ، وباقي الآيتين، ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (4) ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (5) ﴾ ؛ أي ألَم يأتِكم خبرُ الذين كفرُوا من قبلِكم من الأُممِ الخاليةِ كيف أذاقهم اللهُ عقوبةَ تكذيبِهم في الدُّنيا ولَهم في الآخرةِ عذابٌ. جميعُ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ العذاب، ﴿ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالمعجزات، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ ، فقالوا آدَميٌّ مِثلُنا يدعُونا إلى خلافِ دِينِ آبائنا، ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ ؛

---

(1) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٢٥.

بالكتُب والرُّسل وأعرَضُوا عن القبول منهم، ﴿ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ﴾ ؛ عن إيمانِـهم وطاعتهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ ؛ عن أفعالِ العباد، ﴿ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ في إنعامهِ عليهم.

ومعنى قولهِ (وَبَالَ أمْرِهِمْ) أصلُ الْوَبَالِ مِنَ الثُّقْلِ، يقالُ: أمرٌ وَبيلٌ؛ أي ثقيـلٌ، يسمى جزاءُ المعصية وَبَالاً لِثِقَلِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ ؛ أي قـال كفـارُ مكَّـة قـولاً بالظنّ غير يقينٍ أنَّهم لا يُبعثون بعـد المـوتِ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَـهم يـا مُحمَّـدُ: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ، ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ؛ في الدُّنيـا ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ ؛ الجـزاءُ والبعـثُ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي سـهلٌ هيِّـن، ﴿ فَـَٔامِنُواْ ﴾ ؛ يـا أهـلَ مكَّـة، ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ؛ مُحمَّـدٍ ﷺ، ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا ﴾ ؛ يعـني القـرآنَ، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ ؛ يعـني يـومَ القيامـةِ يُجمَـعُ فيـه الأوَّلون والآخِرون، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ ؛ يَغْبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، وأهـلُ الإيمان أهلَ الكفرِ، فلا غُبْنَ أبْيَنُ منه، هؤلاءِ يدخُلون الجنةَ وهـؤلاء يدخُلـون النـارَ. والغُبْنُ: فَوْتُ الحظِّ والمرادِ.

وعن رسول الله ﷺ قال: [مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ وَقَدْ رَأى مَقْعَدَهُ مِـنَ النَّار لَوْ أسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْراً. وَمَا مِنْ عَبْدٍ كَافِرٍ يَدْخُـلُ النَّـارَ إلاَّ وَقَـدْ رَأى مَقْعَـدَهُ مِـنَ الْجَنَّةِ لَوْ أحْسَنَ لِيَزْدَادَ حَسْرَةً][1].

فالْمَغْبُونُ من غُبنَ أهلَهُ ومنازلَهُ من الجنَّةِ، ويظهرُ يومئذ غُبْـنُ كـلِّ كـافرٍ بـتركِ الإيمان، وغُبْنُ كلِّ كافرٍ بتقصيرهِ في الأحسن وتضييعهِ الأيـامَ. ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ .

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعله من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ في العبـد إذا وضـع في قـبره. أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (١٣٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ما أصاب أحداً في البدنِ والأهلِ والمال إلاّ بعلمِ اللهِ وقضائه، ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي مَن يصدِّقْ بأنَّ المصيبةَ من اللهِ، ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ ، للرِّضا والصبرِ، ويقالُ: يُوَفِّقْهُ للاسترجاعِ.

وقرأ السُّلميُّ: (يُهْدَ قَلْبُهُ) عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وقرأ طلحةُ بن مصرِّف بالهمزِ والرفعِ في قوله (يَهْدَئْ قَلْبُهُ) على معنى يُسْكِنُ قلبَهُ. ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الرجلَ كان لا يستطيعُ أن يهاجرَ مع أزواجهِ وأولاده، وكان إذا أرادَ أن يُهاجر بنفسهِ تعلَّقت به امرأتهُ وأولاده وقالوا له: إلى مَن تدعُنا ؟ نُنشِدُكَ اللهَ أن تجلِسَ وتدعَ الهجرةَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ بالمدينةِ، ينهاهُم عن ذلك ويحذِّرُهم طاعةَ الأزواجِ والأولادِ في معصية الله، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ مِنْ أزْوَاجِكُمْ وَأوْلاَدِكُم عَدُوّاً لَكُمْ).

ودخول (مِنْ) هنا يدلُّ على أنه ليس جميعُ الأزواجِ والأولاد عدُوّاً، وإنما منهم من يحبُّ هلاككُم ليرثَ مالَكم، وأيُّ عدُوٍّ أعدَى ممن يحبُّ موتَكَ لمنفعةِ نفسه، ومنهم من يحمِلُوكم على أنْ تعصُوا اللهَ بأخذِ غيرِ الواجبِ، ويمنعُ الواجبَ لمنفعةٍ ترجعُ إليهم، ومعنى قولِهِ تعالى (فَاحْذَرُوهُمْ) أي فاحذرُوا أن تُطِيعُوهم وتدعُوا الهجرةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ وذلك أنَّ الرجُلَ كان إذا أرادَ الجهادَ والهجرة عرضَ على امرأتهِ وقَرابتِهِ إذا أبَوا عليه أقسَمَ أنْ لا يُنفِقَ عليهم، فإذا عادَ كفَّ عن النفقةِ ليَمِينِهِ، فقيلَ لَهم: (وَإنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا) أي وإنْ تَعفُوا عنهم وتُجاوزُوا عن صَدِّهم إياكم، وتَغفِرُوا ذُنوبَهم بعدَ ما رجَعتُم وبعدَ ما اجتَمَعتُم في دار الهجرة، ولم تُكافِؤُوهم عن سوءِ ما فَعلوهُ، (فَإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يغفرُ لكم كذلكَ كثيراً من ذُنوبكم.

وَقِيْلَ: معنى الآيَة: إنَّ الرجل من هؤلاءِ إذا رأى الناسَ قد سبَقوهُ إلى الهجرةِ وتفقَّهوا في الدِّين همَّ أن يُعاقِبَ زوجتَهُ وأولادَهُ الذين يُبطِئونَهُ عن الهجرةِ، وإنْ لَحِقُوا

به في الهجرةِ لم يُنفِقْ عليهم، فأنزلَ اللهُ تعالى (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي بلاءٌ وشُغْلٌ عن الآخرةِ، والإنسانُ بسبب المال والولدِ يقعُ في العظائمِ ويتناولُ الحرامَ إلاَّ مَن عصمَهُ اللهُ، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ إنْ لم يشغَلهُ مالهُ وولدهُ عن طاعةِ اللهِ.

وعن بُرَيدَةَ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثِرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: [صَدَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (إِنَّمَا أمْوَالُكُمْ وَأوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) نَظَرْتُ إلَى هَذيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثرَانِ، فَلَمْ أصْبرْ عَنْهُمَا حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا] ثُمَّ أخَذ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ جُهدَكم وقَدِّروا سَعيَكم باجتناب محارمهِ وأداء فرائضهِ وجميع طاعاته، ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ ؛ ما تُؤمَرون به، ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ ؛ أمرَ رسولِه، ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ ؛ مِن أموالِكم في طاعةِ اللهِ يكن ذلك، ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ لأنَّ نفعَ الآخرةِ أعظمُ، ويقالُ: الخيرُ ها هنا المالُ، كأنَّهُ قال: أنفِقُوا مَالاً من أموالِكم، وهذه الآيةَ نسَختْ قولَهُ تعالى ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي من يدفَعْ عنه بُخْلَ نفسهِ فأولئك هم الْمُزَكُّونَ لطلبتهم. والشُّحُّ الذي في اللغةِ: منعُ الواجب، ومن الشُّحِّ أن يعمدَ الرجلُ إلى مالِ غيره فيأكلهُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ج ٦ ص٣٨٢: الحديث (٣٥٧٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٥٤. وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب قطع الخطبة للأمر يحدث: الحديث (١١٠٩). وابن ماجة في السنن: كتاب اللباس: باب لبس الأحمر: الحديث (٣٦٠٠). وابن حبان في الإحسان: كتاب الفرائض: باب ذوي الأرحام: الحديث (٦٠٣٨). وقال الشيخ شعيب: (إسناده حسن: مؤمل بن إهاب: روى له أبو داود والنسائي وهو حسن الحديث وقد توبع عليه: ومن فوقه من رجال الصحيح).

(٢) آل عمران / ١٠٢ .

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ تُعطوا في الصَّدقة مالاً عن حُسبَةٍ صادقةٍ من قُلوبكم، يَقْبَلْهُ منكم ويُضاعِفْـهُ لكم ويغفِرْ لكـم ذُنوبَكـم، ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ ؛ يقبَـلُ اليسـيرَ ويُعطِـي الجزيـلَ مـن الثواب، ﴿ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لا يعجِّلُ بالعقوبةِ على من بَخِلَ بالصَّدقة، واسـتحقَّ العقوبةَ على ذنوبهِ، ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما تُكِنُّهُ صدورُكم مما لا تعلمهُ الْحَفَظَةُ، ويعلمُ كلَّ ما ظهرَ مما سقطَ من ورقةٍ، وما قَطَرَ من قطرِ المطـرِ، وهـو، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ في مُلكه وسلطانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ في أمرهِ وقضائه.

تم تفسير سورة (**التغابن**) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الطَّلاَقِ

سُورَةُ الطَّلاَق مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَتِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتا عَشَرَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الطَّلاَقِ مَاتَ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمؤمنون داخِلُون فيهِ؛ لأن خطابَ الرئيسِ خطابٌ للأتباعِ، خُصوصاً إذا كانوا مأمُورين بالاقتداءِ به، والمعنى: يا أيُّها النبيُّ إذا أردتَ أنتَ وأمَّتُكَ الطلاقَ، فطلِّقوا النساءَ لعِدَّتِهنَّ، وهذا كقوله تعالى ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلَى الصَّلاةِ﴾(١) أي أرَدتُم القيامَ.

والطلاقُ للعدَّةِ هو أن يطلِّقَها في طُهرٍ لم يَمسَّها فيه، لما رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الطَّلاَقِ: [طَلِّقْهَا طَاهِراً مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أوْ حَامِلاً قَدِ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا](٢). ويقالُ في معنَى الطَّلاقِ للعدَّة: أن يُفرِّقَ الطلاقَ الثلاثَ على أطْهارِ العدَّةِ، فيطلِّقُها في كلِّ طُهرٍ لم يمسَّها فيه تطليقةً.

والطلاق السُّني: أن يُطلِّقَها في طُهرٍ لم يُجامِعها فيه، فقد رُوي:(أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا طَلَّقَ امْرَأتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ وَتَحِيضَ عِنْدَهُ حَيْضَةً أخْرَى، ثُمَّ تَطْهُرَ مِنْ حَيْضَتِهَا، فَإذا أرَادَ أنْ

---

(١) المائدة / ٦ .

(٢) عن ابن مسعود قال: (من أراد أن يطلّق للسُّنة كما أمره الله فليطلقها طاهراً في غير جماع). عزاه السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص١٩٠ إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي وابن مردويه. وعن ابن عباس أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥١٢).

يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا حِينَ تَطْهُرُ قَبْلَ أنْ يُجَامِعْهَا)(١) فتلكَ العدَّةُ التي أمرَ اللهُ أن تطلَّقَ لها النساءُ.

والطلاقُ البْدِعْيُّ: أن يقعَ في حال الحيضِ، أو في طُهرٍ قد جامَعها فيه، وهو واقعٌ وصاحبهُ آثِمٌ، ورُوي: أنَّ ابْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذكَرَ عُمَرُ ذلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: [مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، فَإذا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْهَا إنْ شَاءَ] قُلْتُ: وَيَحْتَسِبُ لَهَا؟ قَالَ: [فَمَهْ؟](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ ؛ إنما أمرَ بإحصاءِ العدَّة لتوزيعِ الطَّلاق على الأطهار، والمعنى بذلكَ: أحصُوا عدَّةَ المطلَّقات لِمَا تُريدون من رجعةٍ أو تسريح، فإذا حاضَتِ المعتدَّةُ حيضةً وطَهُرت، فأرادَ الزوجُ أن يطلِّقَها ثانيةً قبلَ أن تحيضَ، فإذا حاضَتْ وطَهُرت طلَّقَها أخرى إنْ شاءَ، فتَبِنْ الثلاثُ وقد بقي من عدَّتِها حيضةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي اتَّقوهُ في النِّساء إذا طلَّقتموهن واحدةً أو اثنتين أو ثلاثاً، ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ ؛ التي طلَّقتموهن فيها، وهي بيوتُ أزواجِهن، والمعنى: اتَّقُوا اللهَ فلا تَعْصُوهُ فيما أمَرَكم به، فلا يجوزُ للزوجِ أن يُخرجَ المطلَّقة المعتدَّة من مَسْكَنِهِ الذي كان يُساكنها فيه قبلَ الطَّلاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ؛ أي ولا يَخرُجْنَ من قِبَلِ أنفُسِهن حتى تنقضي عدَّتُهن، ولهذا لا يباحُ لها السفرُ في العدَّة، ولا يباحُ لها التزوُّج وإنْ أذِنَ لها الزوجُ. وأما المنكوحة فيجوزُ لها الخروج من المنْزل بإذنِ الزوج.

قوله تعالى (إلاَّ أنْ يَأْتِينَ بفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) أي لا يَخرُجن إلاَّ أن يكون خروجُهن معصيةً، وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: إلاَّ أنْ يَزْنِينَ فَيَظْهَرُ ذلِكَ الزِّنَا عَلَيْهَا بشَهَادَةِ أرْبَعَةٍ مِنَ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص١٨٩؛ قال السيوطي: (أخرجه مالك والشافعي وعبدالرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٥٢٧).

(٢) ينظر ما قبله. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٥٢٧) الاسناد الثالث.

الشُّهُودِ، فَيَخْرُجْنَ لإقَامَةِ الْحُدُودِ). وقال ابنُ عباس: (إلاَّ أنْ يُطِلْـنَ بألْسِنَتِهِنَّ عَلَى أهْلِ الْمَنْزِل بإيْذائِهِنَّ)[1]. كما رُوي: أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أبُو عَمْرو ابْنِ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَكَانَتْ تَسْتَطِيلُ عَلَى حَمَاتِهَا بلِسَانِهَا، فَنَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ إلَى بَيْتِ ابْنِ أمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَ ضَرِيراً تَعْتَدُّ فِيهِ).

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [تَزَوَّجُوا وَلاَ تُطَلِّقُوا، فَإنَّ الطَّلاَقَ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ!!][2]، وَقَالَ عليه السلام: [أيُّمَا امْرَأةٍ سَألَتْ زَوْجَهَا الطَّلاَقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ!!][3]. وقالَ ﷺ: [لاَ تُطَلِّقُوا النِّسَاءَ إلاَّ مِنْ رِيبَةٍ، فَإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لاَ يُحِبُّ الذوَّاقِينَ وَالذوَّاقَاتِ!][4]، وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قال ﷺ: [مَا حَلَفَ بالطَّلاَقِ وَلاَ اسْتَحْلَفَ بهِ إلاَّ مُنَافِقٌ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي هذه أحكامُ اللهِ وفرائضهُ في الطَّلاق في السُّنة والعدَّة، فلا تُجاوِزوها إلى ما نُهى عنهُ، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بالمخالفةِ، ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ؛ أي فقد أضرَّ نفسَهُ، ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي طلِّقوهن كما أُمِرتم، لا تدري أيُّها المخاطَب لعلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلك أمراً، فيوقِعُ في قلب الزَّوج المحبَّةَ، فيندَمُ في طلاقِها ويريدُ رجعَتها فلا يقدرُ على ذلك، ولا ينفعهُ الندم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥٤٢).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ج ١٢ ص١٨٧. وابن عدي في الكامل: ج ٦ ص١٩٦ وفيه عمرو بن جميع ليس بثقة ولا مأمون.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٧٧. والترمذي في الجامع: أبواب الطلاق: باب ما جاء في المختلعات: الحديث (١١٨٧)، وقال: حسن. وله طريق أخرى بإسناد ضعيف أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٤ ص٣١، فيه الربيع بن بدر وهو ضعيف.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٨: الحديث (٧٨٤٢) وإسناده صحيح ليس فيه (عمران القطان) مع وثاقته. وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٣٣٥؛ قال الهيثمي: (رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وأحد أسانيد البزار فيه عمران القطان وثقه أحمد وابن حبان، وضعفه يحيى بن سعيد وغيره. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٤٩.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٤٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ معناهُ: إذا قَارَبْنَ انقضاءَ عدَّتِهن فراجِعُوهن بحُسْنِ الصُّحبة قبلَ أن يَغتسِلْنَ من الحيضةِ الثالثة، أو يترُكوا مراجعتَهن بإيفاءِ المهرِ ونفقة العدَّة حتى تنقضِي عدَّتُـهن، ولا يجوزُ أن يكون المرادُ بهذه الآية حقيقةُ بلوغِ الأجلِ لأنه لا رجعةَ بعد بلُوغِ الأجلِ الذي هو انقضاءُ العدَّة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ ؛ أي أشـهدُوا علـى الطَّلقـة والرجعةِ ذوَى عدلٍ منكم من المسلمين، وهذا أمرُ استحبابٍ احتياطـاً مـن التجـاحُدِ، كـي لا يجحدَ الـزوجُ الطـلاقَ، ولا تجحـدُ المـرأةُ بعـد مُضِـيِّ العـدَّة الرجعـةَ. ثـم قال للشُّهود: ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكِرَ لكم من الأمـرِ والنـهي والطَّـلاق والرجعـةِ وإقامـةِ الشَّهادة، يوعَظُ به مَن كان يؤمنُ باللهِ، ويصدِّقُ بالبعثِ بعدَ الموتِ؛ لأنَّهم هـمُ الذيـن ينتفعون بالوعظِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي ومن يتَّـقِ اللهَ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعَلْ له مَخرجاً من المعصيةِ إلى الطاعـةِ، ويقـالُ: مـن الحرامِ والشُّبهات إلى الحلال. وقِيْلَ: يجعَلْ له مَخرجاً من شُبهات الدنيا ومن غمـرات الموت، ومن شدائدِ يوم القيامة، ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ ؛ في الآخرةِ من نعيـم الجنَّـة، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ؛ ويقالُ: يرزقه في الدنيا من حيث لا يأمَلُ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [مَنْ أكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَار جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُـلِّ هَـمٍّ فَرَجـاً، وَمِـنْ كُـلِّ ضِيـقٍ مَخْرَجاً][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ أي من يُفَـوِّضْ أمـورَهُ إلى اللهِ عالِماً واثقاً بحُسن تقديرِه وتدبيره فهو كَافِيه، لا يحتاجُ إلى غـيرِه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ ؛ أي مُنَفِّذُ أمرِه ممضي إرادتهِ، لا يُمنَـعُ عمَّـا يريـدُ، ﴿ قَدْ

---

(١) أخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ١٠ ص٢٨٢: الحديـث (١٠٦٦٥) بلفـظ: [مَـنْ لَـزِمَ الاسْتِغْفَارَ]. وفي المعجـم الأوسـط: الحديـث (٦٢٨٧). والحـاكم في المسـتدرك: كتـاب التوبـة والإنابة: الحديث (٧٧٥١) وصححه. وقال الذهبي: الحكم فيه جهالة.

جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ من أحكامه مِقداراً وأجَلاً معلوماً فـلا عـذر للعبد في تقصيرٍ يقعُ منه.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ ؛ وذلك أنَّهُ لَمَّا أنْزَلَ اللهُ تَعالَى عِدَّةَ الْمُطَلَّقَـاتِ وَالْمُتَوَفَّـى عَنْهَا زَوْجُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، قَالَ أبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ ناسـاً يَقُولُـونَ: قَـدْ بَقِيَ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَمْ يُذْكَرْ فِيْهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ: [وَمَـنْ هُـمْ ؟] قَـالَ: الصِّغَـارُ وَالْكِبَارُ وَذوَاتُ الْحَمْلِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[1]: (وَاللاَّئِي يَئِسْـنَ مِـنَ الْمَحِيـضِ مِـنْ نِسَـائِكُمْ) لكبرهِنَّ (إن ارْتَبْتُمْ) أي إن شكَكتُم في عدَّتِهن، (فعدَّتُـهن) إذا طُلِّقـن بعـدَ الدُّخـول (ثلاثَةُ أشهُرٍ).

وقولهُ تعالى: (وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ) معناهُ: واللاَّئي في حال الصِّغـر هـنَّ بمَنْزلـة الكبيرةِ التي قد يَئِست، عدَّتُهن ثلاثةُ أشهر. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ معناهُ: وذواتُ الأحمال عدَّتُهن تنقضِي بوضعِ ما في بُطونِهن مـن الحملِ، مطلقةً كانت الحاملُ أو مُتوفَّى عنها زوجُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي مـن يَخْشَ اللهَ ويَمتَثِلْ أوامرَهُ ويجتنِبْ نواهيَهُ يُيسِّرْ عليه أمرَهُ ويُوفِّقه للعبادةِ، ويسهِّلُ عليه أمرَ الدنيا والآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي ذلـك الحكمُ الذي قد سبقَ حكمُ اللهِ في الطَّلاق والعدَّة والرجعةِ أنزلَهُ إليكم، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بطاعتـهِ وتـرك معصيتـه، ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ ، أي يَسْـتُرْ ذُنوبَهُ عنه ويدفعُ عنه عقابَها ويُعطِيه على ذلك ثَواباً حَسناً في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي أسكِنُوا المطلَّقات حيث سَكَنتُم من البيوتِ التي تَجِدُون أن تُسكِنُوهنَّ فيها على قدر سعَتِكُمْ وطـاقتِكم، فإنْ كان مُوسِراً أوسعَ عليها في المسكنِ والنفقة، وإنْ كان فقيراً فعلى قدر ذلك. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ ؛ أي لا تُضَـارُّوهنَّ في المسـكنِ ولا في أمـرِ النفقـة،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٥٨٢).

﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ ؛ يعني أعطوهُنَّ في المسكنِ ما يكفيهنَّ لجلوسهن وطهارتِهن، ومن النفقةِ ما يكون كَفَافاً لهن بالمعروفِ، وهذا عامٌّ في الْمَبْتُوتَةِ والرجعيَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ؛ يعني تجبُ نفقة الحاملِ إلى أن تضعَ، سواءٌ طالت مدَّة الحملِ أم قصُرت، لأن عدَّتَها تنقضِي بوضعهِ، فلها النفقةُ إلى أن تضعَ حَملها. ولا نفقةَ للمتوفَّى عنها زوجُها لأنَّ قولَهُ تعالى (أَسْكِنُوهُنَّ) وقولَهُ تعالى (فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) خطابٌ للأزواجِ وقد زالَ عنهم الخطابُ بالموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ؛ يعني بعدَ وضعِ الحملِ إذا أرضعنَ لكم أولادَكم فأعطوهنَّ أجرةَ الرَّضاعِ، وهذا دليلٌ بأن الأمَّ أولى بإرضاعِ الولدِ بأُجرة المثلِ، وأولى بالحضانةِ من كلِّ أحدٍ، وفيه دليلٌ أنَّ الأجرة لا تُستحقُّ بالعقدِ، وإنما تستحَقُّ بالفراغِ من العملِ؛ لأنَّ الله تعالى أوجبَها بعدَ الرضاعِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ ؛ أمرَ الرجلَ و المرأة أن يأتمروا في الولدِ بالمعروفِ، وهو أن يُنفق الرجلُ بنفقةِ الرَّضاع من غيرِ تقتيرٍ ولا إسرَافٍ، أو تقومَ المرأةُ على ولدها في إرضاعهِ وتتعهَّدهُ من غيرِ تقصيرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإن تضايَقتم وتَمانعتم فأبَتِ الأم أنْ تُرضِعَ الولدَ، أو طَلبت على ذلك أكثرَ من أجرة المثلِ، وأبَى الأبُ أن يعطِيَها ما طَلبت، فَلْيَطْلُب الأبُ للولدِ مرضعةً غيرَ الأم، إلاَّ أنه يجب أن يكون في بيتِ الأم لأنَّ الأمَّ أحقُّ بإمساكِ الولد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ؛ أي لِيُنفق غنيٌّ على نسائهِ وأولادهِ على قدر غناهُ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناهُ: ومن ضُيِّقَ عليه رزقهُ فلْيُنفِقْ مما أعطاهُ الله من المالِ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ ؛ من الرِّزقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ فيه تسليةٌ للصحابةِ، فإن أكثرَهم كانوا فُقراء، فوعَدَهم اللهُ اليُسْرَ بعدَ العُسْرِ، ففتحَ اللهُ عليهم بعدَ ذلك وجعلَ يُسراً بعد عُسرٍ. ويستدلُّ من هذه الآيةِ على أنَّ الواصِي يأمرُ المرأة أن تَستَدِينَ

على زوجِها المعسرِ مقدارَ ما تستحقُّ عليه من النفقةِ، لأن الْمُعسِرَ يُرجَى له اليُسْرُ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ ؛ أي وكـم مِن أهلِ بَلدَةٍ عَتَوا عن أمرِ ربهم ورُسلهِ؛ أي جـاوَزُوا الحـدَّ في المعصيـةِ، ﴿ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ فجازَيناهم في الآخرةِ جَـزاءً شـديداً علـى كـلِّ صغـيرةٍ وكبـيرة، ﴿ وَعَذَّبْنَـٰهَا ﴾ ، وعذبنَاهُم في الدنيا، ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي عَذاباً خَارجاً عـن العادةِ لم يَعهَدُوا مثلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ ؛ أي فذاقُوا جزاءَ كُفرِهم، ﴿ وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي هلاكَ النُّفوس وهـي رأسُ أموالهـم، ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ؛ يعني الذي نزلَ بـهم في الدُّنيـا، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ؛ أي يا أُولي العقُول لا تَسيرُوا بسَيرِهم فينْزِلُ بكم ما نزلَ بهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا ﴾ (الذيـن آمَنُوا) نعتُ أُولِي الألباب، وقولهُ تعالى (قَدْ أنزَلَ اللهُ إلَيْكُـمْ ذِكْـرا رَسُـولاً) أي أنـزلَ إليكم كِتاباً آتاهُ رسُولاً ليؤدِّيَهُ إليكم. وَقِيْلَ: معناهُ: قد أنزلَ اللهُ إليكـم قُرآنـاً وأرسـلَ رَسُولاً، ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ ﴾ ؛ يعـني الرسـولَ، ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ . وقولهُ تعالى: ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ يعني الجنَّةَ التي لا ينقطعُ نَعيمُها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ؛ أي سـبعَ أرضِين أيضاً، وليس في القرآن آية تدلُّ على أن الأَرضِين سبعٌ غيرُ هذهِ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ ؛ أي تنْزلُ الملائكةُ بالتدبيرِ مِـن اللهِ تعـالى، ومـن سمـاءٍ إلى سماءٍ، ومن السَّماء الى الأرضِ بحياةِ بعضٍ وموت بعضٍ، وغِنَى بعضٍ وفَقْـر بعـضٍ، وسـلامةِ هـذا وهـلاكِ هـذا، ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ فلا يخفَى عليه شيءٌ.

آخر تفسير سورة **(الطـلاق)** والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ تَوْبَةً نَصُوحاً][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَسَّمَ الأَيَّامَ بَيْنَ نِسَائِهِ وَكَانَ لَهُ تِسعُ نِسْوَةٍ، وَكَانَ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، ثُمَّ إنَّ حَفْصَةَ زَارَتْ أَبَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ ذلِكَ الْيَوْمُ لِعَائِشَةَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذلِكَ الْيَوْمَ بَيْتَ حَفْصَةَ فَوَجَدَ فِيْهِ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ فَأَخْلاَ بِهَا، فَلَمَّا رَجَعَتْ حَفْصَةُ إلَى مَنْزِلِهَا، وَقَفَتْ حَفْصَةُ عَلَى ذلِكَ الْبَابِ فَلَمْ تَدْخُلْ حَتَّى خَرَجَتْ مَارِيَّةُ، ثُمَّ دَخَلَتْ فَقَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ مَعَكَ فِي الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَأى النَّبِيُّ ﷺ الْغَيْرَةَ وَالْكَآبَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: [اكْتُمِي عَلَيَّ، وَلاَ تُخْبِرِي عَائِشَةَ بذلِكَ] ثُمَّ قَالَ: [هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ] يَعْنِي مَارِيَّةَ، فَأَخْبَرَتْ حَفْصَةُ عَائِشَةَ وَكَانَتَا مُتَصَافِيَتَيْنِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ بذلِكَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ حَفْصَةَ وَقَالَ لَهَا: [مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذلِكَ؟] قَالَتْ: وَمَنِ الَّذِي أخْبَرَكَ؟ قَالَ:[أخْبَرَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ].

فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَفْصَةَ فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً وَاعْتَزَلَ نِسَاءَهُ كُلَّهُنَّ، فَمَكَثَ سَبْعاً وَعِشْرِينَ لَيْلَةً يَنْتَظِرُ مَا يَنْزِلُ فِيْهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ هذهِ الآيَاتِ. ومعناها: يا أيُّها النبيُّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ، ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ ، طالباً رضَى أزواجِكَ،

---

(١) تقدم وسيأتي، وهو حديثٌ موضوع باطل. أخرجه الثعلبي أيضاً في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٤٣.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ ؛ لِمَا كان منكَ مِن التحريمِ، ﴿رَّحِيمٌ ۝١﴾ ؛ بكَ حيث رخَّصَ لك الخروجَ منه بالكفَّارة، فأعتقَ رسولُ الله ﷺ رقبةً وعادَ إلى ماريَّة[١].

ورُوي: أنَّ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا اسْتَأْذنَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي زِيَارَةِ أبيهَا فِي يَوْمِهَا، فَأَذِنَ لَهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَيْتِهَا، فَمَضَتْ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى جَارِيَتِهِ مَارِيَّةَ الْقِبْطِيَّةَ فَأَدْخَلَهَا فِي حِضْنِهِ، وَكَانَ ذلِكَ فِي يَوْمِ حَفْصَةَ، فَلَمَّا رَجَعَتْ حَفْصَةُ وَجَدَتْ بَابَ بَيْتِهَا مُغْلَقاً، فَجَلَسَتْ عَلَى الْبَابِ حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَوَجْهُهُ يَقْطُرُ عَرَقاً وَحَفْصَةُ تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا: [مَا يُبْكِيكِ ؟] قَالَتْ: إنَّمَا أذِنْتَ لِي بالزِّيَارَةِ مِنْ أجْلِ هَذا؛ أدْخَلْتَ أمَتَكَ بَيْتِي وَوَقَعْتَ عَلَيْهَا فِي يَوْمِي وَعَلَى فِرَاشِي؟ مَا رَأيْتَ لِي حُرْمَةً وَحَقّاً، مَا قَطُّ صَنَعْتَ هَذا بامْرَأةٍ مِنْ نِسَائِكَ ؟ فَقَالَ ﷺ: [هِيَ جَارِيَتِي فَلاَ أحَلَّهَا اللهُ، اسْكُتِي هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ، الْتَمِسُ بذلِكَ رِضَاكِ، وَلاَ تُخْبرِي بذلِكَ امْرَأةً مِنْهُنَّ، وَهَذِهِ أمَانَةٌ عِنْدَكِ][٢].

ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَتْ حَفْصَةُ عَلَى الْجِدَارِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لَهَا: ألاَ أبَشِّرُكِ يَا عَائِشَةُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ حَرَّمَ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ، وَقَدْ أرَاحَنَا اللهُ مِنْهَا. وَكَانَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ مُتَصَافِيَتَيْنِ مُتَظَاهِرَتَيْنِ عَلَى سَائِرِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَأَخْبَرَهُ بذلِكَ، فَغَضِبَ عَلَى حَفْصَةَ وَقَالَ: [مَا حَمَلَكِ عَلَى ذلِكَ]، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ شَرِبَ عِنْدَهَا شَرَابَ عَسَلٍ تُصْلِحُهُ لَهُ، وَكَانَ يَطُولُ مُكْثُهُ عِنْدَهَا، فَاجْتَمَعَتْ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ عَلَى أنْ يَقُولاَ لَهُ: إنَّا نَجِدُ مَعَكَ رَائِحَةَ الْمَغَافِيرِ - وَهُوَ صَمْغٌ مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ يَقَعُ عَلَى الطَّرَفِ يَأْكُلُهُ النَّحْلُ - فَلَمَّا صَارَ إلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا قَالَتْ لَهُ: إنِّي أشُمُّ مَعَكَ رَائِحَةَ الْمَغَافِيرِ، فَحَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ شُرْبَ الْعَسَلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ

---

(١) ذكره أهل التفسير بروايات عديدة وألفاظ كثيرة، عزاها السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص٢١٤-٢١٦ إلى ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٥٦) عن ابن زيد.

الآيَاتِ[(١)]. والقولُ الأول أظهرُ، ولا يمتنعُ أنَّ الأمرَين قد كانا، وأنَّ هذا نزلَ فيهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ ؛ أي وجبَت لكم كفَّارةُ أيمانِكم، ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي مُتولِّ أموركم وهو أولى أن يُؤثِروا مَرضَاتَه، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ؛ بما فيه صلاحُ خلقِه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ في تدبيرِ أمرِه. وإنَّما سُميت الكفَّارةُ تَحِلَّةً؛ لأنَّها تجبُ عند انحلال اليمين، قال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: قَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكُمْ كَفَّارَةَ أيْمَانِكُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَأمَرَ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَيُرَاجِعَ جَارِيَتَهُ مَارِيَّةَ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ؛ يعني إسرارَهُ إلى حفصةَ، فلمَّا أخبرت عائشةَ به أطلَعَ اللهُ نَبيَّهُ عليه السلام على ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَمَا رَأى الْكَآبَةَ فِي وَجْهِهَا وَالْغَيْرَةَ أسَرَّ إلَيْهَا شَيْئَيْنِ: تَحْرِيمُ الْجَارِيَةِ، وَقَالَ: [أخْبِرُكِ يَا حَفْصَةُ أنَّ أبَاكِ وَأبَا بَكْرٍ سَيَمْلِكَانِ أمَّتِي بَعْدِي] فلمَّا أظهرَهُ اللهُ عليه أخبرَ حفصةَ بما قالت لعائشةَ من تحريمِ الجاريةِ، وأعرضَ عن ذكرِ خلافة أبي بكرٍ وعمرَ[(٣)].

وقرأ الحسنُ البصري والكسائي وقتادة (عَرَفَ بَعْضَهُ) بالتخفيفِ أي غَضِبَ على حفصةَ مِن ذلك وجَازَاها فطلَّقَها، من قول القائل لِمَن أساءَ إليه: لأعْرفَنَّ لكَ ما فعلتَ؛ أي لأُجازينَّكَ عليه، فجَازَاها رسولُ الله ﷺ بأنْ طلَّقَها، فلما عَلِمَ عمرُ رضي الله عنه بذلك قالَ: لَوْ كَانَ فِي آلِ الْخَطَّاب خَيْرٌ لَمَا طَلَّقَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها) وذكره.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٢٧٦.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٩٢: الحديث (١٢٦٤٠). والدارقطني في السنن: ج ٤ ص١٥٣-١٥٤: الوصايا: الحديث: (١٥). وفي مجمع الزوائد: كتاب الخلافة: باب الخلفاء الأربعة: ج ٥ ص١٧٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف وقد وثقه ابن حبان، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله ثقات).

وَنَزَلَ جِبْرِيلُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: رَاجِعْهَا فَإنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَهِيَ إحْدَى نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ، فَرَاجَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. قال مقاتلُ: (لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَفْصَةَ، وَإنَّمَا هَمَّ بِهِ، فَأتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَالَ لَهُ: لاَ تُطَلِّقْهَا فَإنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وَهِيَ مِنْ نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُطَلِّقْهَا)[1]، وكان سفيانُ الثوريُّ يقول: (مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ، وَمَا زَالَ التَّغَافُلُ مِنْ فِعْلِ الْكِرَامِ، عَرَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَفْصَةَ بَعْضَ مَا فَعَلَتْ، وَأعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ ؛ أي لَمَّا أخبرَ حفصةَ بما أظهرَهُ اللهُ عليه، ﴿ قَالَتْ ﴾ ؛ لَهُ: ﴿ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ ؛ أي من أخبرَكَ أنِّي أفشيتُ سِرَّكَ؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ من إظهار الغَيرَةِ وإيذاءِ النبيِّ ﷺ والتعاوُن عليه، ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؛ أي مَالَتْ إلى الإثْمِ وعدَلَتْ عن الحقِّ، وهو أنَّهما أحبَّتا ما كَرِهَ رسولُ الله ﷺ، ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي تعاوَنا عليه بالإيذاءِ وإظهار الغَيرَةِ عليه من الجاريةِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ ؛ يتولَّى حِفْظَهُ ونصرَهُ ودفعَ الأذيَّةِ عنهُ، ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أبو بكرٍ وعُمرُ يتولَّيانهِ وينصُرانهِ على مَن عاداهُ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ ﴾ ؛ أعوانهُ وأنصارهُ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال:(حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَأنَا أرَى فِي وَجْهِهِ الْغَضَبَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا شَقَّ عَلَيْكَ مِنْ أمْرِ النِّسَاءِ ؟ فَإنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَأنَا وَأبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَّمَا تَكَلَّمْتُ وَأحْمَدُ اللهَ بكَلاَمٍ، إلاَّ رَجَوْتُ أنْ يَكُونَ اللهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أقُولُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَإنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذِلِكَ ظَهِيرٌ).)[2].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٧٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب في الإيلاء: الحديث (٣٠/ ١٤٧٩).

وعن ابن عبَّاس قالَ: (سَأَلْتُ عُمَرَ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنِ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ)(١).

ثُمَّ أَخَذ عُمَرُ ﷺ يَسُوقُ الْحَدِيثَ قَالَ: (كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْماً نَغْلِبُ نِسَاءَنَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْماً تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ، قَالَ: فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَإذا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَمَا يُنْكَرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ ؟ فَوَاللهِ إنَّ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ وَتَهْجُرُهُ إحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إلَى اللَّيْلِ. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَتَهْجُرُهُ إحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إلَى اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: أَفَتَأْمَنُ إحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللهُ لِغَضَبِ رَسُولِهِ فَإذا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ؟! لاَ تُرَاجِعِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، وَلاَ يَغُرَّكِ إنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمَ وَأَحَبَّ إلَى رَسُولِ اللهِ مِنْكِ) يَعْنِي عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا(٢).

قرأ أهلُ الكوفة (تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) بالتخفيفِ، وقرأ الباقون بالتشديدِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ؛ هذا إيعادٌ وتخويفٌ لِحفصةَ وعائشةَ وسائرِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، وعدَ النبيَّ ﷺ بخيرٍ منهُنَّ إنْ أحوجنَهُ إلى مفارقتِهن، و(عَسَى) من اللهِ واجبةٌ، ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ ؛ نعتٌ للأزواجِ اللاتِي كان يبدِّلهُ لو طلَّقَ نساءَهُ، ومعنى (مُسْلِمَاتٍ) أي خاضعاتٍ للهِ بالطاعة، مسلماتٍ لأمرِ الله وقضائه، أي مصدِّقاتٍ مؤمناتٍ بتوحيدِ الله بالألسُنِ والقلوب، ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ ؛ أي طائعاتٍ لله والنبيِّ ﷺ، ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ ؛ أي راجعاتٍ إلى ما يحبُّه اللهُ، ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ؛ للهِ متذلِّلاتٍ لله ولرسوله، ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ ؛ أي صائماتٍ، ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ؛ أي يا أيُّها الذين آمنُوا ادفعُوا عن أنفسِكم وأهلِيكم ناراً، ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩١٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٦٧٥).

حطَبُها الناسُ والحجارةُ، يعني حجارةَ الكبريتِ، والمعنى: اعمَلُوا بطاعةِ الله وانتَهُوا عن معصيتهِ، وعلِّموا أولادَكم وأهليكم الاجتنابَ عما تجبُ لهم به النارُ. وعن عمرَ ﷺ: أنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نَقِي أنْفُسَنَا، فَكَيْفَ لَنَا بأهْلِنَا ؟ قَالَ: [تَنْهَوْهُمْ عَمَّا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ، وَتَأْمُرُوهُمْ بمَا أمَرَكُمُ اللهُ بهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ ؛ أي على النارِ ملائكةٌ غِلاظُ الأخلاقِ شِدَادٌ أقوياءُ الأخذِ والعقوبةِ، يدفعُ الواحدُ منهم في الدفعةِ الواحدة سبعين ألفاً في جهنَّمَ، لم يخلُق الله فيهم شيئاً مِن الرحمةِ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ ؛ من تعذيبِ أهلِها، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ ؛ من ذلك، جعلَ اللهُ سُرورَهم في تعذيب المعذبين كما جعلَ سُرورَ المؤمنين في الجنَّة. وجاء في الخبرِ: [أنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ يَكْسِرُ عِظَامَ الْمُعَذب، فَيَقُولُ لَهُ: ألاَ تَرْحَمُنِي ؟ فَيَقُولُ لَهُ: كَيْفَ أرْحَمُكَ وَأرْحَمُ الرَّاحِمِينَ لَمْ يَرْحَمْكَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ أي لا تعتَذِرُوا اليومَ فيما قدَّمتُم لأنفُسِكم، إنه لا تُقبَلُ منكم الأعذارُ، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾ ؛ في الدُّنيا، ولا تُظلَمون بزيادةٍ على ما تستحقُّون من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: هِيَ النَّدَمُ بالْقَلْب، وَالاسْتِغْفَارُ باللِّسَان، وَالإقْلاَعُ بالْبَدَن، وَالإضْمَارُ عَلَى أنْ لاَ يَعُودَ)[2]. وعن معاذِ بن جبلٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا التَّوْبَةُ النَّصُوحُ ؟ قَالَ: [أنْ يَتُوبَ التَّائِبُ ثُمَّ لاَ يَرْجِعُ فِي ذلِكَ، كَمَا لاَ يَعُودُ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ][3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٦٩٣) عن علي موقوفاً، و(٢٦٦٩٤) عن ابن عباس، و(٢٦٦٩٥) عن مجاهد، و(٢٦٦٩٦) عن قتادة.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨ نقله القرطبي عن الكلبي.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٢٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال معاذ بن جبل) وذكره.

قال ابنُ مسعودٍ: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أنْ تُكَفِّرَ كُلَّ سَيِّئَةٍ)[(١)]، وقال أبو ذرٍّ: (النَّصُوحُ: الصَّادِقَةُ) أي يتُوبوا توبةً صادقةً، يقالُ: نَصحتُه أي صدَّقتُه. وَقِيْلَ: النَّصُوحُ المستقيمةُ الْمُتْقَنَةُ التي لا يلحقُها النقصُ والإبطالُ. وقال الفُضيل: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: أنْ يَكُونَ الذنْبُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، وَلاَ يَزَالُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إلَيْهِ)[(٢)]، وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (هُوَ أنْ تَضِيقَ الأَرْضُ عَلَيْكَ بِمَا رَحُبَتْ، وَتَضِيقَ عَلَيْكَ نَفْسُكَ كَتَوْبَةِ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)[(٣)]. وقال الدقَّاقُ: (هِيَ رَدُّ الْمَظَالِمِ، وَاسْتِحْلاَلُ الْخُصُومِ، وَإدْمَانُ الطَّاعَاتِ)[(٤)].

وقال ذو النُّون: (عَلاَمَتُهَا ثَلاَثَةُ أشْيَاءٍ: قِلَّةُ الْكَلاَمِ، وَقِلَّةُ الطَّعَامِ، وَقِلَّةُ الْمَنَامِ)، وقال بعضُهم: هي أن يكون لصاحبها دمعٌ مسفوح وقلبٌ من المعاصِي جمُوحٌ، فإذا كان كذلك فهي توبةٌ نصوحٌ.

وقال فتحُ الْمَوْصِلِيُّ[(٥)]: (عَلاَمَتُهَا ثَلاَثَةٌ: مُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَكَثْرَةُ الْبُكَاءِ، وَمُكَابَدَةُ الْجُوعِ وَالظَّمَا). وقال شقيقُ البَلْخِيُّ[(٦)]: (هِيَ أنْ يُكْثِرَ صَاحِبُهَا لِنَفْسِهِ الْمَلاَمَةَ، وَلاَ يُقْلِعُ مِنَ النَّدَامَةِ). وقال الجنيدُ: (هِيَ أنْ يَنْسَى مَا سِوَى اللهِ، وَلاَ يَذْكُرُ إلاَّ اللهَ)[(٧)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ؛ هذا وعدٌ من اللهِ لأنَّ (عَسَى) من الله واجبَةٌ، والصَّلواتُ الخمسُ كفَّاراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ ؛

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث (٣٨٨٤) وقال: حديث صحيح.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.

(٤) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨.

(٥) فتح بن سعيد الموصلي، (وكان فتح رجلاً من العرب شريفاً زاهداً). ترجم له أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٨ ص٢٩٤.

(٦) شقيق بن إبراهيم البلخي، أحد الزهاد من المشرق، ترجم له أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٨ ص٥٨.

(٧) نقل هذه الأقوال أيضاً القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٩٨-١٩٩.

أي يُكرمُ اللهُ تعالى المؤمنين بهذه الكرامةِ في يومٍ لا يسـوءُ اللهُ النبيَّ ولا يُخجِلُـهُ وَ لا يسوء ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ ؛ والمعنى: لا يُدخِلُهم اللهُ النارَ.

وقوله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ؛ ليدلهم في الجنَّـة، ﴿ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ ؛ يعني نورَ كتابهم الذي يُعطونهُ بها، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ؛ أي يقولـون ذلك بعدَ مـا ذهـبَ نـورُ المنـافقِين، والمعنـى: أتْمِـمْ لنـا نُورَنـا علـى الصِّـراطِ إلى أن ندخـلَ الجنـة، ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَآ ﴾ ؛ مـا سَـلَفَ مـن ذُنوبنـا، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ من إتْمَامِ النور والمغفرة، فيجيبُ الله دعاءَهم ويفعـلُ ذلـك لَـهم، فيكون الصِّراطُ على المؤمنين كما بين صنعاءَ والمدينة، يمشِي عليه بعضُهم مثلَ الـبرق، وبعضُهم مثلَ الريحِ، وبعضهم كعَـدْو الفـرسِ، وبعضـهم يمشِـي وبعضـهم يزحـفُ، ويكون على الكافرين كحدِّ السيف مذهبه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ ؛ أي جـاهِدِ الكفارَ بالسَّيف، والمنافقين باللِّسـان بالزَّجـر والوعظِ حتى يُسلِمُوا، وسَمَّاهما جِـهَاداً لاشتراكِها في بذل الجـهد، ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي علـى الفَريقَـين بـالفعلِ والقـول، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ ، وبيَّـنْ أنَّ مصـيرَهم في الآخـرةِ إلى النار.

وقال الحسنُ: (كَانُوا أكْثَرَ مَنْ كَانَ يُصِيبُ الْحُدُودَ فِي ذلِكَ الزَّمَان الْمُنَـافِقُونَ، فَأَمَرَ اللهُ أنْ يُغْلِظَ عَلَيْهِمْ فِي إقَامَةِ الْحَدِّ)(١). وعن ابنِ مسعود قال: (إذا لَمْ تَقْدِرُوا أنْ تُنْكِرُوا عَلَى الْفَاجِرِ – فَـ – بوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ ؛ أي فخالفتاهمـا في الدِّيـن، قال ابنُ عباس: (مَا بَغَتِ امْرَأةُ نَبِيٍّ قَطُّ، فَأمَّا خِيَانَةُ امْرَأةِ نُوحٍ، فَإنَّهَا قَالَتْ لِقَوْمِهِ: إنَّـهُ مَجْنُونٌ فَلاَ تُصَدِّقُوهُ، وَأمَّا خِيَانَةُ امْرَأةِ لُوطٍ فَإنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَى أضْيَافِـهِ، كَـانَ إذا نَزَلَ بلُوطٍ ضَيْفٌ باللَّيْلِ أوْقَدَتِ النَّارَ، وَإذا نَزَلَ بالنَّهَار أدْخَنَتْ لِيَعْلَمَ قَوْمُهُ أنَّهُ قَـدْ

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٠١.

نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ)[١]. وقال الكلبيُّ: (أسَرَّتَا النِّفَاقَ، وَأظْهَرَتَا الإيْمَانَ) ولأنَّ الخيانةَ في الفراشِ لا يجوزُ أن تكون مُرادَةً في هذه الآيةِ؛ لأنَّها عيبٌ يرجعُ إلى الزوجِ فيَنفِرُ الناسُ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لم يَدفعَا عنهما عذابَ اللهِ، أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ أحداً لا يُجزي عن أحدٍ شيئاً، وأنَّ الإنسان لا ينجُو إلاّ بعملهِ، وقطعَ اللهُ بهذه الآيةِ طمعَ مَن ركِبَ المعصيةَ، ورجَا أن ينفعَهُ صلاحُ غيرِه، وأخبرَ اللهُ تعالى أن معصيةَ غيرِه لا تضرُّه إذا كان مُطيعاً وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ وهي آسيَةُ بنتُ مزاحم،كانت قد آمَنت بموسَى عليه السلام، فلمَّا عَلِمَ فرعون بإسلامِها وتَّدَ لها أربعةَ أوتادٍ في يدَيها ورجلَيها، ومدَّها للعذاب وشدَّها على الأرضِ بالأوتادِ، وألقَى على صدرها صخرةً عظيمةً وألقاها في الشمسِ.

فكانت الملائكةُ تُظلُّها بأجنحتِها وأبصرَتِ الجنَّة وهي كذلكَ فقالَتْ: (رَب ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ)، فاستجابَ اللهُ دعاءَها وألحقَها بالشُّهداء، ولم تجِدْ ألَماً من عذاب فرعون لأنَّها قالت: ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي الكافرين أهلِ دين فرعون. وليس في هذه الآيةِ أنَّ فرعون قتلَها، وقد اختُلِفَ في ذلك، والأقربُ أنه أجابَ اللهُ دعاءَها فنجَّاها من فرعون وقومِهِ.

وفي قولهِ تعَالَى في الآيةِ الأُولى (وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) تخويفٌ لحفصة وعائشة، كأنه قالَ لعائشةَ وحفصة لا تَكُونا بمنْزِلة امرأةِ نوحٍ ولوط في المعصيةِ، وكُونا بمنْزِلة امرأةِ فرعون ومريمَ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٨٦)، وقال: صحيح الإسناد. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٧٠٩-٢٦٧١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ؛ عطفَ مريمَ على امرأةِ فرعون، وإحصانُ الفَرْجِ إعفافُهُ وحِفظُهُ عن الحرامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ ؛ أي في جيب دِرعِها، وذلك أنَّ جبريلَ عليه السلام مدَّ جيبَ درعِها بإصبعهِ، ثم نفخَ في جيبها فحمَلت، وبالكنايةِ عن غير مذكور.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ ؛ والشرائعِ التي شرَعَها اللهُ في كُتبه المنَزَّلة، وقرأ عيسى الجحدري والحسن (بكَلِمَةِ ربهَا) على التوحيدِ يعنُونَ عيسَى عليه السلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ ؛ أي وصدَّقت بكُتب الله تعالى وهو التوراةُ والإنجيل والفرقانُ وصُحف ابراهيم وموسى وداودَ، وقرأ أبو عمرٍو ويعقوب (وَكُتُبهِ) بالجمعِ، وتفسيرهُ ما ذكرناه، وقرأ الباقون (وَكِتَابهِ) على الواحدِ، والمرادُ به الإنجيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي من الْمُطِيعِينَ للهِ، وقال عطاءُ: (مِنَ الْمُصَلِّينَ، كَانَتْ تُصَلِّي بَيْنَ الْمَغْرب وَالْعِشَاءِ) تقديرهُ: وكانت من القَومِ القَانتِين، ولم يقُل منَ القانتاتِ؛ لأنَّ متعبَّدَها كان في المسجدِ مع العُبَّادِ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ، وَإنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ][1]. وقال ﷺ: [سَيِّدَاتُ نِسَاءِ أهْلِ الْجَنَّةِ أرْبَعٌ: مَرْيَمُ وَآسِيَةُ وَخَدِيجَةُ وَفَاطِمَةُ][2].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأطعمة: باب الثريد: الحديث (٥٤١٨). ومسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة: الحديث (٧٠/ ٢٤٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٢٨: الحديث (١٢١٧٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص٢٢٣؛ قال الهيثمي: (فيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك، وليس في إسناده ذاك) وأخرجه أيضاً في الرقم (١١٩٢٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٩ ص٢٢٣ قال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح، ولفظه: [أفْضَلُ نِسَاءِ أهْلِ الْجَنَّةِ]). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٨٨٩)، وقال: صحيح الإسناد.

وعن معاذِ بن جبلٍ قال: (دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى خَدِيجَةَ وَهِيَ تَجُودُ بِنَفْسِهَا فَقَالَ: [أَتَكْرَهِينَ مَا نَزَلَ بِكِ يَا خَدِيجَةُ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي الْكُرْهِ خَيْراً كَثِيراً، فَإِذا قَدِمْتِ عَلَى ضَرَّاتِكِ فَأَقْرِئِيهِنَّ مِنِّي السَّلاَمَ] قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ هُنَّ ؟ قَالَ: [مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ، وَكَلِيمَةُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتِ مُوسَى]، فَقَالَتْ: بِالرِّفَاهِ وَالْبَنِين)[1].

آخر تفسير سورة (**التحريم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٩ ص٣٥٢، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٠٤. وفي مجمع الزوائد: باب ما جاء من الفضل لمريم: ج ٩ ص٢١٨؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني منقطع الإسناد، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو ضعيف).

سُورَةُ الْمُـلْك

سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَثَلاثُمِائَـةِ حَـرْفٍ، وَثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثُـونَ كَلِمَـةً، وَثَلاثُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُلْكِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ] وَقَـالَ: [إِنَّـهَا تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ]. وقال ﷺ: [وَدِدْتُ أَنَّ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْـكُ) فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ](١).

وعن ابن مسعود أنّه قالَ: (إذا وُضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَـبْرِهِ يُؤْتَـى مِـنْ قِبَـلِ رِجْلَيْـهِ، فَيُقَالُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ. ثُمَّ مِـنْ قِبَـلِ رَأْسِـهِ فَيَقُـولُ لِسَانُهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ، ثُمَّ هِيَ الْمَانِعَةُ مِـنْ عَـذاب اللهِ](٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ ؛ أي تعالَى باستحقاق التعظيم الذي بيـده إعطاءُ المُلْكِ وأخذهُ، يؤتِي الْمُلْكَ مَن يشاءُ فيُعِزُّهُ ويَنْزَعُهُ ممن يشاءُ فيُذِلُّـهُ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ ؛ من الإعزاز والإذلال.

---

(١) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج٧ ص١٣٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن الحكم ابن أبان وهو ضعيف). وأخرجه الحاكم في المستدرك: ذكر فضـائل السـور: الحديـث (٢١٢٠)، وقال: (هذا إسناد عند اليمانيين صحيح) وليس في السند إبراهيم بن الحكم، وإنما هو الحكم بـن أبان. وضعفه الذهبي بـ (حفص بن عمر العدني).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٣٢؛ قـال السـيوطي: (أخرجـه ابـن الضريـس والطـبراني والحـاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ؛ معناهُ: الذي قدَّرَ الإماتةَ والإحياءَ، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ؛ فيما بين الإحياءِ والإماتةِ، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؛ اللاَّمُ في لِيَبْلُوَكم متعلِّقٌ بخلقِ الحياة دون خلقِ الموت، لأنَّ الابتلاءَ في الحياةِ، ومعنى (لِيَبْلُوَكُمْ) أي ليُعامِلَكم معاملةَ المختبر[١]، فيُجازيَكم على ما ظهرَ منكم لا على ما يعلمُ منكم، ومعنى (أَيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً) أي أحسنُ عَقْلاً وأورَعُ عن محارمِ الله، قال ﷺ: [أتَمُّكُمْ عَقْلاً أشَدُّكُمْ خَوْفاً للهِ، وَأحْسَنُكُمْ نَظَراً فِيمَا أمَرَ اللهُ بهِ وَنَهَى عَنْهُ][٢].

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأتْرَكُ لَهَا) وارتفعَ (أيُّكُمْ) على الابتداءِ لأنه بتأويلِ ألف الاستفهام ولا يعملُ فيها ما قبلَها، تقديرهُ: ليَبلُوَكم أنتم أحسنُ عملاً أم غيركم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي العزيزُ بالنقمةِ لِمَن لا يؤمِنُ، الغفورُ لِمَن تابَ وآمَنَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ؛ أي مُطْبَقَةً بعضُها على بعضٍ مثل القُبَّةِ، ﴿ مَّا تَرَىٰ ﴾ ؛ أيُّها الرَّائي، ﴿ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ ، في مخلوقاتِ الرَّحمنِ من تَفاوُتٍ؛ أي لا ترَى بعضَها حِكمةً وبعضَها عبَثاً، ولا ترَى في السَّماء اضطِراباً وتبايُناً في الخِلقَةِ، وقال مقاتلُ: (مَا تَرَى يَا ابْنَ آدَمَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ مِنْ عَيْبٍ)[٣].

وقال قتادةُ: (مَا تَرَى فِيهَا خَلَلاً وَلاَ اخْتِلاَفاً)[٤]، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي كرِّر النظرَ، هل ترَى في السَّماء من شُقوقٍ أو صُدوعٍ أو خُروق، ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ؛ أي إنْ لم تستدركْ بالمرَّة الأُولى، فرُدَّ البصرَ مرَّة أُخرى مُستقصِياً، ورددِ البصر مرَّة أخرى بعدَ مرَّة، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ

(١) في المخطوط: (المتحيز).

(٢) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ١ ص٢٤١؛ قال العراقي: (من رواية محمد بن وهب بإسناده عن أبي هريرة رفعه قال: (قال في الميزان: هو حديث باطل منكر آفته محمد بن وهب، وقال الدارقطني: هو حديث غير محفوظ)).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٨١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٢٣).

خَاسِئًا ﴾ ؛ صَاغِراً بمنْزلـة الخاسِـئِ وهـو الذليـلُ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي كَلِيلٌ منقطعٌ قد أعيَى بمنْزلة الحسيرِ الذي طلبَ شيئاً فلم يجِدْهُ كما يحسِرُ البعيرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ ؛ السَّماءُ الدُّنيا هي الأدنى إلينا، وهي التي يرَاها الناسُ، والمصابيحُ: النجومُ، واحدهـا مِصْبَـاحٌ، سُـمِّيت بذلـك؛ لأنَّها تضيءُ كما يضيءُ الْمِصْبَاحُ، ومِن ذلك الصُّبْحُ والصَّبَّاحُ وهو السِّراجُ، والنجومُ لثلاث خصَـال: زينـة، وعلامـات يُـهتدَى بـها[1] ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي ورُجُومٌ لِمَن يسترقُ السمعَ من الشياطين، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ مع ما جعَلنا لهم في الدُّنيا من الرَّمي بالشُّهب.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا ﴾ ؛ أي صَوْتـاً قطيعـاً كصـوتِ الحِمَار، وهو آخرُ ما يَنهَقُ بنَفسٍ شديدٍ، وهو أقبحُ الأصواتِ، وإذا اشـتدَّ لَـهَبُ النـار سُمِعَ لها صوتٌ شديدٌ كأنَّها تطلبُ الوقودَ. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي تَغلِي بهم كغَلْيِ الْمِرْجَلِ. وقال مجاهدُ: (تَفُورُ بهِمْ، كَمَا يَفُورُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ بـالْحَب الْقَلِيلِ)، والفَوْرُ ارتفاعُ الشيءِ بالغَلَيان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ؛ أي تكادُ تَنْشَقُّ وتَتَقَطَّعُ من تغيُّظِها على أهلها لتأخُذهم، والمعنى: تكادُ النار يَنْفَرِقُ بعضُها من بعضٍ غَضَباً على الكفـار، وانتقاماً لله عَـزَّ وَجَـلَّ منـهم، ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ ؛ مـن الكفـار؛ أي جماعـةٌ، ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ ؛ أي النارُ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي رسـولٌ مُنـذِرٌ، وهذا التوبيخُ زيادةٌ لَهم في العذاب، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا ﴾ ، له، ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ ؛ مِمَّا تقـولُ، وقلنـا للرَّسُـولِ: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

---

(١) في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٣١) عن قتادة قال: (إن الله جلَّ ثناؤهُ إنما خلقَ هذه النجوم لثلاث خصال) وذكره ثم قال: (فمن يتأول منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به).

كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ؛ أي خطأ عظيم. وَقِيْلَ: إن قولَهُ (إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ) من قولِ الزَّبانِيَةِ للكُفَّار؛ أي ما كُنتم في الدُّنيا إلاَّ في ضلال كبير.

وقالَ أهلُ النار مُعتَرِفين بجهلِهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ ؛ أي لو كُنَّا نسمعُ الهدى من الرُّسُلِ سَماعَ مَن يتفكَّرُ ويعقلُ منهم عقلَ مَن يُمَيِّزُ، ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ﴾ ؛ أي أقَرُّوا بذلك، ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أسْحَقَهُمُ اللهُ سُحْقاً؛ أي باعدَهم من رحمتِه، والسُّحْقُ: البُعْدُ، والمعنى: فبُعداً لأصحاب النار من رحمة الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين يعمَلون لربهم ويتَّقون معصيتَهُ في سرِّهم، ويخافونَهُ ولم يَرَوهُ، لهم مغفرةٌ لذنوبهم وثوابٌ عظيم في الجنَّة، والْخِشْيَةُ في الغيب أدلُّ على الإخلاصِ وأبعَدُ من النِّفاق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ وهذا تحذيرٌ للكفَّار عن الإقدامِ على المعاصي، يقول: إنْ أخفَيتُم كلامَكم في أمرِ مُحمَّدٍ ﷺ أو جهرتُم به، فإنه عليمٌ بما في القلوب من الخير والشرِّ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَنَالُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُخْبِرُهُ جِبْرِيلُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أسِرُّوا قَوْلَكُمْ كَيْلاَ يَسْمَعَ بِهِ إلَهُ مُحَمَّدٍ) قال اللهُ هذه الآية: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؛ هذه الأشياءَ ما في الضَّمير. وَقِيْلَ: معناهُ: ألا يعلمُ الله مخلوقاتِهِ، وَقِيْلَ: ألا يعلمُ سرَّ العبدِ من خلقه، ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لَطُفَ عِلْمُهُ بالأشياءِ حتى لا تخفَى عليه غوامضُ الأمور، الخبيرُ بمصالح عبادِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ ؛ أي سَهْلَةً تنصرفون فيها فلا تضطربُ بكم ولا تمتنعُ عليكم، يقال: دابة ذلولٌ إذا كانت سهلةَ الرُّكوب، والذلُولُ لا تمتنعُ على صاحبها فيما يريدُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ ؛ أي في أطرافِها، وَقِيْلَ: في جِبالها وآكامِها وجوانبها ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ؛ أي وكُلوا من نباتِها الذي جعلَهُ اللهُ رزقاً لكم في الأرض ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي وإلى اللهِ المرجعُ في الآخرةِ للحساب والجزاءِ، والنُّشُورُ هو البعثُ من القبور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ؛ معناهُ: أأمِنتُم يا أهلَ مكَّة مَن في السَّماء سُلطانه وقدرتهُ ومُلكه أن يُغيِّبَكم في الأرضِ جَزاءً على قُبحِ أفعالِكم. وَقِيْلَ: معناهُ: أأمنتم عقوبةَ مَن في السَّماء وعذابَ مَن في السَّماء. وَقِيْلَ: معناهُ: مَن جرَتْ عادتهُ أن يُنْزِلَ نِقمَتَهُ مِن السَّماء على مَن يكفرُ به ويعصيَهُ.

وَقِيْلَ: أأمنتم مَن في السَّماء، وهو الْمَلَكُ الموكَّل بالعذاب، يعني جبريلَ أنْ يخسِفَ بكمُ الأرضَ بأمرِ الله تعالى، ﴿ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي تضطربُ وتتحرَّكُ، والمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يحرِّكُ الأرضَ عند الخسفِ بهم حتى تضطربَ، وتتحركَ فتَعلُو بهم وهم يُخسَفُون فيها، والأرضُ تَمُورُ فوقَهم فتقلِبُهم الى أسفل. والْمَوْرُ: التردُّدُ في الذهاب والمجيءِ؛ لأنه إذا خُسِفَ بقومٍ دارت الأرضُ فتدورُ بهم كما يدورُ الماء بمَن يُغرقهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ ﴾ ؛ كما أرسلَ على قومِ لُوطٍ، والحاصِبُ: الرِّيحُ التي ترمِي بالحصباءِ لا دافعَ لها ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي إنذاري إذا عاينتم العذابَ، ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ولقد كذب الذين مِن قَبلِ أهل مكة من كفَّار الأُمم الماضيةِ، فكيف كان الإنكارُ عليهم بالعذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾ ؛ معناهُ: أولَمْ يَروا إلى الطيرِ صافَّاتٍ فوقَ رُؤوسِهم بانبساطِ أجنحتها تارةً وقابضاتِها أخرى، معناهُ: صافَّات أجنحتَها، ﴿ وَيَقۡبِضۡنَۚ ﴾ ؛ أجنحتَها بعد البسطِ، وهذا معنى الطَّيرِ؛ وهو بَسْطُ الجناحِ وقبضهُ بعدَ البسطِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ ﴾ ؛ أي ما يُمسِكهنَّ ويحفظُهُنَّ في الهواء في الحالَين؛ في حال البسطِ والقبضِ إلاّ الرحمنُ. وهذا أكبرُ آيةٍ دالَّة على قدرةِ الله تعالى إذ أمسكَها في الهواءِ على ثُقلِها وضخم أبدانِها، فمَن قدرَ على إمساكِ الطيرِ في الهواء قَدِرَ على إرسال الحاصب من السَّماء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي عالِمٌ، كما يقالُ: فلان بصيرٌ بالنَّحوِ وبالقرآنِ؛ أي عالِمٌ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ فيه تنبيهٌ على أنه إنْ أرادَ اللهُ تعذيبَهم ليس لَهم مَنعهُ، ولا أحدٌ يصرفُ عنهم العذابَ، ولفظُ الْجُنْدِ مُوحَّدٌ، وهذا استفهامُ إنكارٍ؛ أي لا جُندَ لكم ينصرُكم ويمنعكم من عذاب الله. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى يَنصُرُكُمْ: يَمْنَعُكُمْ مِنِّي إنْ أرَدْتُ عَذابَكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي في غرورٍ من الشَّيطان، يغُرُّهم بأنَّ العذابَ لا ينْزِلُ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ ؛ معناه: هل يَقدِرُ أحدٌ مِن مَعبُودِكم أنْ يُوصِلَ إليكم أرزاقَكم إنْ حَبَسَ اللهُ عنكم المطرَ والنباتَ، ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ ؛ بل لَجَّ الكافرون ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي في مُجاوزَةِ الحدِّ في الطُّغيان والتباعُدِ عن سماعِ الحقِّ وقَبولِهِ، وليسوا يعتبرون ولا يتفكَّرون، لَجُّوا في طُغيانِهم وتَمادِيهم وتباعُدهم عن الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أفمَنْ يَمشِي ناكِساً رأسَهُ على وجهِهِ لا يرَى ما يَصدِمهُ أو يَهجِمُ عليه من حُفرةٍ، أو بئرٍ في طريقِهِ، فلا ينظرُ يَميناً ولا شِمالاً، يمشي مشيَ العُميان؛ وهو مَثَلُ الكافرِ يقولُ: أهْدِيَ صَوْبَ طريقاً أمِ المؤمنُ الذي يَمشي مُستَوياً على طريقٍ مستقيم، يعني الإسلامَ.

وإنما شبَّهَ الكافرَ بالْمُكِب على وجهِهِ؛ لأنه ضالٌّ أعمَى القلب عن الهدى، وقال قتادةُ: (هَذا فِي الآخِرَةِ) معناه: أفمَن يَمشي مُكِبّاً على النار يومَ القيامة أهْدَى أم مَن يمشي على طريق الجنة ؟ كما قالَ تعالى في الكفَّار ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: هو الذي خلقَكم وخلقَ لكم السمعَ فاستمعوا إلى الحقِّ، والأبصارَ فأبصِرُوا بها الحقَّ، والأفئدة فاعلَمُوا بها الحقَّ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، نِعَمَ اللهِ عليكم.

(١) الاسراء / ٩٧ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي هـو الـذي خلقَكـم صِغَاراً وربَّاكم إلى أن صيَّركم كِبَـاراً، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي تُجمَعـون في الآخرةِ فيجزيَكم بأعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ؛ أي هذا الحشرُ الذي تَعِدُنـا بـه، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أنْ يكون ذلك، ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ ﴾ بوقت الحشرِ، ﴿ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي مُخَوِّفٌ لكم بلُغةٍ تعرفونَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: فلمَّا رأوا العذابَ قريباً تبيَّن السُّوءُ في وُجوهِهم وسَاءَهـم ذلـك. وَقِيْـلَ: أحرقَـتْ وجـوهُ الذين كفَرُوا، فاسودَّتْ وعلَتها الكآبةُ والقَتْرَةُ. وَقِيْلَ: معنى (سِيئَتْ) قُبحَتْ وجوهُهم بالسَّـوادِ، ﴿ وَقِيلَ ﴾ ؛ لَـهم: ﴿ هَٰذَا ﴾ ؛ العـذابُ، ﴿ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ ﴾ ؛ مـن أجلهِ، ﴿ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ الأبـاطيلَ والأكـاذيبَ أنَّكـم إذا مِتُّـمْ، وكنتـم تُراباً وعظاماً أنَّكم لا تُبعثون. وقرأ الضحَّاك وقتادةُ ويعقوب (تدْعُونَ) مخفَّفـاً؛ أي تَدْعُـونَ اللهَ أنْ يأتِيَكم به، من الدُّعاء وهو قولهم ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُـوَ الْحَـقَّ مِـنْ عِنْـدِكَ﴾ الآية[1].

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الكفارَ متمنَّون موتَ رسول الله ﷺ وموتَ أصحابهِ، فقيلَ لَهم: أرأيتُم إنْ أصبتُم مُناكُمْ فينا بـالهلاكِ، فمَـن يُجِيرُكم مـن العذاب الذي لا بدَّ نازلٌ بكم، أتَظنُّون أنَّ الأصنامَ أو غيرها تُجيرُكم ؟ فإذا عَلمتُم أنْ لا مجيرَ لكم فهلاَّ تمسَّكتُم بما يُخلِّصكم من العذاب وهو الإيمانُ باللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ؛ أي هـو الرَّحمـن الذي نعبدهُ، ونفوِّضُ أمُورَنا إليه، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ نحن أم أنتم.

---

(١) الأنفال/ ٣٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ؛ أي غـائراً في الأرضِ لا تَنالهُ الأيدِي والدِّلاءُ، ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ ظاهرٍ يظهرُ مـن العيـون إلاّ اللهُ الذي به تُشركون، فإذا لم تَقدِرُوا أنتم ولا آلِهتُكم على أن تَجعَلُوا المـاءَ الغـائرَ في الأرضِ ظَاهراً، فكيف تَقدِرُون على أن تَدفَعُوا عـذابَ الله عـن أنفسكم إذا نـزلَ بكم ؟ وكيفَ يقدِرُ على ذلك مَن اتَّخذتُموهُ إلهاً من دونِ الله.

ويُحكى أنَّ متَّهماً في دينهِ سَمِعَ رجُلاً يقرأ (قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أصْبَحَ مَـاؤُكُمْ غَـوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بمَاءٍ مَعِينٍ) فقالَ: الماءُ مع الفأسِ والْمِعْوَلِ، فنامَ مـن ليلتـهِ تلـك فـأصبحَ وقد ذهبَ ماءُ عَينَيهِ وبقي أعمَى إلى أن ماتَ، والعياذُ باللهِ من الْخُذلاَنِ.

آخر تفسير سورة (الملك) والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ ن (الْقَلَمِ)

سُورَةُ نُـون مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ أَلْـفٌ وَمِائَتَـان وَسِـتَّةٌ وَخَمْسُـونَ حَرْفـاً، وَثَلاثُمِائَـةِ كَلِمَةٍ، وَاثْنَتان وَخَمْسُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أَعْطَـاهُ اللهُ ثَـوابَ الَّذِيـنَ حَسُـنَتْ أَخْلاَقُهُمْ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْـهُمَا: (يعني بقوله (ن) الحوتُ الذي على الأرضِ واسمه لوثيـا، وذلـك أنَّـهُ لَمَّـا خلـقَ اللهُ الأرضَ وفتَقها، بعثَ اللهُ مَلكاً من تحتِ العرش فهبط إلى الأرضِ حتـى دخـلَ تحت الأرضِين السَّبع، فوضعَها على عاتقهِ وإحدَى يديهِ بالمشرقِ والأُخرى بـالمغرب، فلـم يكن لقَدَميهِ قرارٌ، فأهبطَ اللهُ من الفردوسِ ثوْراً له أربعونَ ألفَ قَرنٍ وأربعون قائمـةً، وجعلَ قرارَ قدمِ الْمَلَكِ على سنامهِ، فلم تستقرَّ قَدماهُ، فخلقَ الله قوَّةً خضراءَ غِلظُـها مسيرةُ خمسمائة سنةٍ، فوضعَها بين سنامِ الثور وآذانه فاستقرَّتْ عليها قدمـاهُ، وقُـرون ذلك الثور خارجةٌ من أقطار الأرض ومنخاراهُ في البحرِ، فهو يتنفَّسُ كلَّ يـومٍ نَفَسـاً، فاذا تنفَّسَ مدَّ البحرَ، وإذا ردَّ نفسَهُ جزَرَ، فلم يكن لقوائمِ الثور موضعُ قـرار، فخلـقَ الله صخرةً خضراءَ كغِلَظِ سبعِ سموات وسبعِ أرضين، فاستقرَّت قوائمُ الثور عليـها، وهي الصخرةُ التي قالَ لقمانُ لابنهِ ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، فلم يكن للصَّخـرةِ مسـتقرٌّ، فخلقَ الله نُوناً، وهو الحوتُ العظيم فجعلَ الصخرةَ على ظهرهِ وسائرَ جسـدهِ خـالٍ، والحوتُ على البحرِ، والبحرُ على متنِ الرِّيح، والريحُ على القدرة).

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب بسند واهٍ.

وقال بعضُهم: هو اسمُ السُّورة. وَقِيْلَ: هو آخرُ حروفِ الرَّحمن وهي روايةُ عكرمةَ عن ابنِ عبَّاس قالَ: (الر و حم و ن حُرُوفُ الرَّحْمَنِ)[(١)]. وقال قتادةُ والضحَّاكُ: (النُّونُ هِيَ الدَّوَاةُ)[(٢)]، وقال بعضُهم: هو لوحٌ من نور. وقال عطاءُ: (هُوَ افْتِتَاحُ اسْمِ اللهِ تَعَالَى: نُورٌ، وَنَاصِرٌ). واختلفوا القراءةَ فيه، فقرأ بعضُهم بإظهار النون، وقرأ بعضُهم بإخفائها، وقرأ ابنُ عبَّاس بالكسرِ على إضمار حروف القَسَمِ، وقرأ عيسَى بن عمر بالفتحِ على إضمار فعل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) قال المفسِّرون: هو القلمُ الذي كتبَ به اللوحَ المحفوظ، قال ابنُ عبَّاس: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقِيلَ لَهُ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ قَلَمٌ مِنْ نُورٍ طُولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ). وَقِيلَ: لَمَّا خلقَ اللهُ القلمَ، نظرَ إليه فانشقَّ نِصفَين ثم قالَ لَهُ: إجْرِ، قالَ يا رب بِمَا أجري ؟ قال: بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، فجرَى على اللوحِ المحفوظ بذلك.

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ وَهِيَ الدَّوَاةُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلٍ وَرِزْقٍ وَأجَلٍ، فَكَتَبَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْ ذلِكَ][(٣)].

قوله (وَمَا يَسْطُرُونَ) يعني وما تكتبُ الملائكةُ الْحَفَظَةُ من أعمال بني آدمَ، وجوابُ القسَمِ (مَا أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبكَ بِمَجْنُونٍ) وهو جوابٌ لقولِهم ﴿يَا أيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[(٤)]، فأقسمَ اللهُ تعالى بالنُّون والقلم وبأعمال بني آدمَ فقال: ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ؛ ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي ما أنتَ بإنعامهِ عليكَ بالنبوَّةِ والإيمانِ بمجنون.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٦٧).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وعبد الرزاق). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٦٩).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤١؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة) وذكره.

(٤) الحجر / ٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ ؛ معنـاهُ: وإنَّ لـكَ أجـراً بصَـبرِكَ علـى افترائِهم عليـكَ ونسبَتِهم إيـاكَ إلى الجنُـونِ، ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي غـيرَ مَنقُوصٍ ولا مقطوعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي على دِينٍ عظيمٍ لم أخلِقْ ديناً أحبَّ إليَّ، ولا أرضَى عندي منهُ، يعني الإسلامَ، ورُوي عن عكرمـةَ عـن ابنِ عبَّاس: (يَعْنِي الْقُرْآنَ) والمرادُ آدابُ القرآنِ كما أمرَ اللهُ به نبيَّهُ عليه السلام.

وسُئِلَتْ عَائِشَـةُ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهَا عَـنْ خُلُقِـهِ، فَقَـالَتْ لِلسَّـائِلِ: (إقْـرَأ الْعَشْـرَ الَّتِي فِي أوَّلِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَرَأهَا، فَقَالَتْ: تِلْكَ خُلُقُهُ). وَقِيْلَ: لَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَـةُ عَنْ خُلُقِهِ، قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ، يَسْخَطُ لِسُخْطِهِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ)[1].

ويقال: إنَّ جبريلَ عليه السلام لَمَّا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ بقوله ﴿خُذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالْعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2] قالَ: [أتَيْتُكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَكَـارِمِ الأَخْـلاَقِ: أنْ تَصِـلَ مَـنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ]. وعن أبي هريـرةَ رضي الله عنه قـالَ: قَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ، أدَّبَنِي رَبِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي][3].

ويقال: إنَّهُ ﷺ احتملَ للهِ في البلاءِ إلى أنْ قالَ حين شُجَّ في وجههِ: [اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِـي فَإنَّـهُمْ لاَ يَعْلَمُـونَ] فـأنزلَ اللهُ تعـالى (وَإنَّـكَ لَعَلَـى خُلُـقٍ عَظِيـمٍ). قـال الجنيد:(سَمَّى خُلُقَهُ عَظِيماً لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَـهُ هَـمٌّ سِـوَى اللهِ تَعَـالَى). وَقِيْـلَ: إنـه ﷺ عاشَرَهم بخُلقهِ وزايَلهم بقلبهِ، كان ظاهرهُ مع الْخَلقِ وباطنهُ مع الحـقِّ! وَقِيْـلَ: سَـمَّى خلقَهُ عظيماً لاحتمالِ مكارمِ الأخلاقِ فيه.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابـن المنـذر وابـن مردويـه والبيـهقي في الدلائل عن أبي الدرداء قال: سألت عائشة) وذكره.

(٢) الأعراف / ١٩٩.

(٣) رواه الإمام مالك بلاغاً في الموطأ: كتاب حسن الخلق: ج ٢ ص٩٠٤. والإمام أحمـد في المسـند: ج ٢ ص٣٩٨. والحاكم في المستدرك: دلائل النبوة: الحديث (٤٢٧٨) وقال: صحيح على شرط مسلم.

وقالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (إنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِخُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ وَصَائِمِ النَّهَارِ)[١]، وقالَ ﷺ:[مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ][٢]. وقال ﷺ: [إنَّ أَحَبَّكُمْ إلَى اللهِ تَعَالَى أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقاً، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً، الَّذِينَ يُؤْلَفُونَ وَيَأْلَفُونَ. وَأَبْغَضُكُمْ إلَى اللهِ تَعَالَى الْمَشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإخْوَانِ، الْمُلْتَمِسُونَ لِلْعَثَرَاتِ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي ستَعلَمُ ويعلَمُونَ، يعني أهلُ مكَّة، وهذا وعيدٌ لأهلِ مكَّة بالعذاب ببَدْرٍ، يعني: سترَى ويرَى أهلُ مكَّة إذا نزلَ بهم العذابُ ببَدْرٍ، ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ الباءُ زائدةٌ، والمعنى: أيُّكم المجنونُ الذي فُتِنَ بالجنون أأنتَ أم هم ؟ يعني أنَّهم يعلَمُون عندَ العذاب أنَّ الجنونَ كان لَهم حين عبَدُوا الأصنامَ، وتركُوا دِينَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ ربَّكَ يا مُحَمَّدُ أعلَمُ بمَن سبقَ له الشَّقاءُ في علمهِ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي أعلمُ بمَن سبَقت له السَّعادةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ بالكتب والرُّسُلِ، وهم رُؤوسُ الكفَّار الذين كانوا يَدعونَهُ إلى دِين آبائهِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: تَمنَّى الكفارُ يا مُحَمَّدُ أن تُضايعَهم فيُضَايعُونَكَ، وتُلاَيِنَهُم فيُلاَينُونَكَ، مأخوذٌ من الدُّهنِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٩٤ و١٣٣. وأبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق: الحديث (٤٧٩٨) وإسناده حسن.

(٢) الحديث عن أبي الدرداء؛ أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الأدب: باب في حسن الخلق: الحديث (٤٧٩٩). والترمذي في الجامع: أبواب البر والصلة: باب ما جاء في حسن الخلق: الحديث (٢٠٠٢)، وقال: حسن صحيح، و(٢٠٠٣) وقال: غريب.

(٣) الحديث عن أبي ثعلبة الخشني؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب البر والإحسان: باب حسن الخلق: الحديث (٤٨٢) بإسناد حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص١٩٠: الحديث (١٠٤٢٤) عن ابن مسعود ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢١؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح).

وقال مجاهد: (مَعْنَاهُ: إظْهَارُ الْقَوْلِ باللِّسَان بخِلاَفِ مَـا فِي الْقَلْـب، كَأنَّـهُ شَبَّهَ التَّلْيينَ فِي الْقَوْلِ بتَلْيين الدُّهْن). وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: وَدُّوا لَوْ تَركَنُ إلَيْهِمْ وَتَتْرُكُ مَـا أنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فَيُمَالِؤُكَ)[1]. وقال الضحَّاكُ: (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُ فَيَكْفُرُونَ)[2]. وقـال زيدُ بن أسلمَ: (وَدُّوا لَوْ تُنَافِقُ وَتُرَائِي فَيُنَافِقُونَ). قال ابنُ قتيبةَ: (كَانُوا أرَادُوهُ أنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ مُدَّةً وَيَعْبُدُونَ اللهَ مُدَّةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ هذا تحذيرٌ للنـبيِّ ﷺ عن الرُّكون. والْحَلاَّفُ: كثيرُ الحلف بالبـاطلِ، والْمَـهينُ: قيـل: مـن الْمَهَانَةِ؛ وهـي الحقارةُ والضَعفُ في الرَّأي والتمييز، قِيْلَ: إنَّ المرادَ به الوليـدُ بـن المغـيرةِ المخزومـي، وكان قد عرضَ على النبيِّ ﷺ ليرجعَ عـن دينـهِ، وسُـمِّي مَـهيناً لاسـتخارتهِ الحلـفَ والكذبَ على الصِّدق، ثم كانت الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَن كان في طريقتهِ. وَقِيْلَ: المرادُ به الأسودُ بن عبدِ يَغُوث، وَقِيْلَ: الأخنسُ بن شريق.

وقوله تعـالى: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ الهمَّـازُ: الْمُغتَـابُ الطعَّـانُ للناس، مَشَّاءٍ بنَمِيمٍ: أي يَمشِي بالنَّميمةِ بـين النـاس؛ ليُفسِـدَ بينـهم. وَقِيْـلَ: الهمَّـازُ: الوقَّاعُ في الناس، العائِبُ لهم بما ليس فيهم، ويُسمَّى النَّمَّـامُ: القَتَّـاتُ، قـال ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ ؛ أي كثير المنع للخير، وكان الوليدُ بن المغيرة بهذه الصِّفة يمنعُ الناسَ من اتِّبـاع النـبيِّ ﷺ، وكـان يمنـعُ أهلَـهُ وولـدَهُ والحميَّـة عـن الإسلام، يقالُ: المنَّاعُ للخيرِ البخيلُ الذي هو كثيرُ المنعِ للحقوق الواجبةِ في المال.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٧٩٤) عن الضحاك، و(٢٦٧٩٣) عـن ابـن عبـاس، و(٢٦٧٩٥) عن سفيان.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٣ ص١٦٨: الحديث (٣٠٢١). والإمام أحمـد في المسـند: ج ٥ ص٣٨٢ و٣٨٩ و٤٠٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب ما يكره من النميمـة: الحديث (٦٠٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بيان غلظ تحريـم النميمـة: الحديـث (١٠٥/١٦٩).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ المعتدِي: هو الغَشُومُ الظلومُ على عبادِ الله، والأثيمُ: الكذابُ الذي هو كثيرُ الإثم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ العُتُلُّ: شديدُ الخصومةِ بالباطلِ. وَقِيْلَ: الشديدُ الحلفِ، أكولٌ شَرُوبٌ رحيبُ البطنِ سَرِيحٌ صحيحُ الْجَسمِ على بطنهِ، ويُجِيعُ عبدَهُ ويمنعُ رَفْدَهُ، ومأخوذٌ من العَتْلِ وهو الشدَّةُ في السَّحب. وقِيلَ: شديدُ الْخَلْقِ وأحسنُ الْخلقِ. وَقِيْلَ: هو الجافِي القاسِي اللئيمُ العَسِرُ الضَّجِرُ. وقال الكلبيُّ: (هُوَ الشَّدِيدُ فِي كُفْرِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ) أي مع ما وصفناهُ به زَنِيمٌ، وَقِيْلَ: معناه عُتُلٌّ مع ذلك زَنِيمٍ، والزَّنِيمُ: الْمُلصَقُ في القومِ وليس منهم، والزَّنِيمُ هو الدَّعِيُّ، قال الشاعرُ[(١)]:

زَنِيمٌ لَيْسَ يَعْرِفُ مَنْ أبُوهُ بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ

وعن ابنِ عبَّاس في قوله تعالى (زَنِيمٍ) قالَ: (يُعْرَفُ بالشَّرِّ كَمَا تُعْرَفُ الشَّاةُ بزَنْمَتِهَا)[(٢)]. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ (زَنِيمٍ) أيْ هُوَ مَعَ كُفْرِهِ دَعِيٌّ فِي قُرَيْشٍ لَيْسَ مِنْهُمْ)[(٣)]. قِيْلَ: إنما ادعاهُ أبوه إلاَّ بعدَ ثماني عشرةَ سنةً.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: (الزَّنِيمُ الَّذِي لاَ أصْلَ لَهُ). قال ابنُ قتيبةَ: (لاَ نَعْلَمُ أنَّ اللهَ وَصَفَ أحَداً كَمَا ذكَرَهُ، وَلاَ بَلَغَ مِنْ ذِكْرِ عُيُوبهِ كَمَا بَلَغَ عُيُوبَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؛ لأَنَّهُ وَصَفَهُ بالْحَلْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْعَيْبِ لِلنَّاسِ وَالْمَشْيِ بالنَّمَائِمِ وَالْبُخْلِ وَالظُّلْمِ وَالإثْمِ وَالْجَفَا وَالدَّعْوَةِ، فَألْحَقَ بهِ عَاراً لاَ يُفَارِقُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وفي الحديث عن النبي ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَوَّاظٌ وَلاَ جَعْظَرِيٌّ وَلاَ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ] وَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْجَوَّاظُ ؟ قَالَ: [الَّذِي جَمَعَ وَمَنَعَ تَدْعُوهُ لَظَى نَزَّاعَةً

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٤. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٧؛ نسبه السيوطي إلى ابن الأنباري وقال: (أخرجه في الوقف والابتداء).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره. وفي جامع البيان أسنده الطبري في الرقم (٢٦٨٢٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٨٢٣).

لِلشَّوَى] قِيلَ: وَمَا الْجَعْظَرِيُّ ؟ قَالَ: [الْفَظُّ الْغَلِيظُ] قِيلَ: وَمَا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ ؟ قَالَ: [الشَّدِيدُ الْخَلْقِ الرَّحِيبُ الْبَطْنِ، ظَلُومٌ لِلنَّاسِ](١).

قال ﷺ: [تَبْكِي السَّمَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصَحَّ اللهُ جِسْمَهُ وَأَرْحَبَ جَوْفَهُ وَأَعْطَاهُ الدُّنْيَا، فَكَانَ لِلنَّاسِ ظَلُوماً، فَذلِكَ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ] قَالَ: [وَتَبْكِي السَّمَاءُ مِنَ الشَّيْخِ الزَّانِي مَا تَكَادُ الأَرْضُ تُقِلُّهُ](٢). وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ الزِّنَا وَلاَ وَلَدُهُ وَلاَ وَلَدُ وَلَدِهِ، وَأَنَّ أَوْلاَدَ الزُّنَاةِ يُحْشَرُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ](٣).

وقال ﷺ: [لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَى، فَإِنْ فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَيُوشَكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ](٤)، وقال عكرمة: (إذا كَثُرَ أَوْلاَدُ الزِّنَا قَلَّ الْمَطَرُ)(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لا تُطِعْهُ لأنه كان ذا مالٍ وبنين؛ أي لا تُطِعْهُ لِمَالهِ وبَنِيهِ، وكان مالُهُ نحواً من سبعةِ آلاف مثقالٍ من

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٧؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبدالرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال...) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسند:ج٤ ص٢٢٧ بنحوه. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٢٨؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وثقه جماعة وفيه ضعف. وعبدالرحمن ابن غنم ليس له صحبة على الصحيح).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٤٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن زياد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ...) وذكره. وأوقفه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٨١٨) على زيد بن أسلم.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج١ ص٤٧٤: الحديث (٨٦٣) بلفظ: [ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء]. وفي مجمع الزوائد:ج٦ ص٢٥٧؛ قال الهيثمي: (وفيه الحسين بن إدريس وهو ضعيف). وفي كنز العمال: الحديث(١٣٠٩٥) ساقه المتقي بلفظه وعزاه لابن النجار.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٤ ص١٩: الحديث (٥٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٣٣. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٥٧؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن عبدالرحمن بن لبيبة، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، ومحمد بن إسحق) وقد صرح بالسماع، فالحديث صحيح أو حسن.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٥.

فضَّة، وكان له بنون عَشرَةٌ، وكان يقولُ لَهم: مَن أسلَمَ منكم فلا يدخلَنَّ داري، ولا أنفعهُ بشيءٍ أبداً. قرأ ابنُ عامر ويعقوب (أنْ كَانَ ذا مَال) بالمدِّ، وقرأ حمزةُ وعاصم (أأنْ) كان بهمزَتين. وقرأ غيرُهم على الخبرِ حين قرأ بالاستفهام، فمعناهُ: ألأَن كان ذا مال وبنينٍ تطيعهُ، ويجوز أن يكون رَاجعاً الى ما بعدَهُ، والمعنى: لأجلِ أنْ كان ذا مالٍ وبنين.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ ؛ وهي القرآنُ أبى أن يقبلَها و؛ ﴿ قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي ما كَتَبَهُ الأوَّلون من أحاديثهم قد درسه مُحَمَّدٌ وأصحابهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي سَنَسِمُهُ بالسَّوادِ على الأنفِ، وذلك أنه يَسْوَدُّ وجههُ قبلَ دخولِ النار، والمعنى: سنُعْلِمهُ بعلامةٍ يَعرفُهُ بها جميعُ أهلِ القيامة، ويقال: سَنَسِمُهُ بسِيماءَ لا تفارقهُ آخرَ الدهر؛ أي نُلحِقُ به عَاراً يبقى ذلك عليه أبداً، كما تُعرَفُ الشاةُ بسِيمَتِها، والخرطومُ: الأنفُ، وقال الضحَّاك: (سَنَكْوِيهِ عَلَى وَجْهِهِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا امتحنَّا أهلَ مكة بالجوعِ والقحط والقتلِ والسَّبي والهزيمةِ يومَ بدر،كما امتحنَّا أهلَ البُستان، وأراد به بُستاناً كان باليمنِ يعرَفُ بالقيروان دون صَنعاء بفرسخَين، كان يطئُوه أهلُ الطريق، قد غرسَهُ قومٌ بعدَ عيسى عليه السلام وهم قوم بخلاء، وَقِيْلَ: من بني إسرائيلَ، وكانوا مُسلمين باليمنِ، ورثُوا هذا البستانَ من أبيهم وفيه زرعٌ ونخيل، وكان أبوهم يجعلُ مما فيه حظّاً للمسلمين عند الحصادِ والصِّرامِ.

فلمَّا ماتَ أبوهم ورثوهُ وكانوا ثلاثةً، قالوا: إنَّ المالَ قليلٌ والعيالَ كثيرٌ، فلا يسَعُنا أن نفعلَ ما كان يفعلُ أبونا، وإنما كان أبونا يفعلُ ذلك لأن المالَ كان كثيراً والعيالَ قليلاً، فعزَمُوا على حِرمان المساكين، فتحالَفُوا بينهم يوماً ليَغدُوا غدوةً قبل خروجِ الناس ليَقطَعُوا نَخلَهم إذا أصبَحُوا بسَرقَةٍ من الليلِ من غير أن يشعُرَ بهم المساكينُ، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ولا يقولون إنْ شاءَ اللهُ، وذلك قَوْلُهُ تَعالَى: (إذْ أقْسَمُوا لَيَصرِمُنَّها) أي ليقطعُنَّ ثمرَها (مُصبحِينَ) أي عندَ طُلوعِ الفجرِ

قبلَ أن يخرُجَ المساكينُ إليه (وَلاَ يَسْتَثْنُونَ) أي ولم يقولوا إنْ شاءَ اللهُ[1].

ورُوي أنَّ أباهم كان يأخذُ من هذا البستان قُوتَ سَنَةٍ لنفسهِ، وكان يتصدَّقُ بما بَقِيَ على المساكين. وَقِيْلَ: إنه كان يتركُ لَهم ما خرجَ من السِّباط الذي كان يسقطُ تحتَ النَّخلة إذا صُرمت، فقالَ بنوهُ بعدَ موتهِ: نحن جماعةٌ وإنْ فعلنا ما كان يفعلهُ أبونا ضاقَ عَيشُنا، فحلَفوا ليَصرِمُنَّها مُصبحين لئلاَّ يصِلَ إلى المساكين منها شيءٌ، وَلاَ يَسْتَثْنُونَ.

وإنما شبَّهَ اختبارَ أهلَ مكَّة باختبار أهلِ البستان؛ لأن أبَا جهلٍ كان قالَ يومَ بدرٍ قبل التقاءِ الفئتين: وَاللهِ لَنَأْخُذُهُمْ أخْذاً، وَلَمْ يَسْتَثْنِ، فقالَ ﷺ حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِينِ يُوسُفَ]، وكان هذا الدعاءُ قبلَ وقوعِ الهزيمة على الكفَّار، فابتلاهُم اللهُ بالجوعِ والقحط سبعَ سنين حتى أكَلُوا العظامَ المحرَّقة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ وذلك أنَّهم لَمَّا تخافَتوا تلك الليلةَ على أن يَصرمُوها، سلَّطَ اللهُ على جنَّتِهم[2] بالليل ناراً فأحرقتْهُ وهم نائمون. ولا يكون الطَّائفُ إلاّ بالليل، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي كاللَّيل المظلمِ سوداءَ محترقةً. والصَّرِيْمَان: الليلُ والنهارُ، ولا يَصرمُ أحدُهما من الآخرِ، وَقِيْلَ: سُمي الليلُ صَرِيماً؛ لأنه يَقطعُ بظُلمتهِ عن التصرُّف في الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي أصبَحُوا عند طُلوعِ الفجرِ يُنادِي بعضُهم بعضاً: أن اغدُوا إلى بستانِكم وزُروعِكم إنْ كُنتم قَاطِعين للثِّمار والأعناب والزُّروعِ قبلَ أن يعلم المساكينُ بنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي فتنَادَوا مُصبحين، وخَرَجُوا مُسرعين يتخافَتُون؛ أي يُسِرُّون الكلامَ فيما بينهم ويتشَاوَرُون فيما بينهم ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾، يزاحمهم على الثمرةِ أن لا

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٣٩، حكاه عن الكلبي في تفسيره.
(٢) في المخطوط: (جناتهم) والمناسب (جنتهم).

يقطَعنَّها أحدٌ من المحتاجين، والمعنى: أنَّهم كانوا يتشاوَرون يقولُ بعضـهم لبعـضٍ: (لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ)، والتَّخَافُتُ: هو إخفاءُ الحركةِ، والْخُفُوتُ: السُّكوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي غدَوا على قصدِ منع الفقراء قادِرين في زَعمِهم على إحرازِ ما في جنَّتهم من الثمـار دون الفقـراءِ، وهـم لا يعلَمُون أنَّها قدِ احترَقَتْ ليلاً وهـم نـائمون. وَقِيْـلَ: إن الْحَـرْدَ هـو المنعُ والغضـبُ والحنَقُ على المساكين، وَقِيْلَ: الحردُ هو الْجِدُّ، وَقِيْلَ: الغِلْظُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ فلمَّا رأوا جنَّتَهم عند الصباحِ سوداءَ محترقةً قالوا: إنا قد ضلَلنا الطريقَ وليسـت هـذه جنَّتُنا، فلما أمعَنُوا النظرَ عرَفُوها، فعلموا أنَّها عقوبةٌ، فقالوا: (بَـلْ نَحْـنُ مَحْرُومُـونَ) أي حُرِمنا ثمرَ جنَّتنا لِمَنعِنَا المساكين، وما أخطأْنا الطريقَ إليها.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي قــال أعدَلُهم وأفضَلُهم، وَقِيْلَ: أوسطُ الثلاثةِ سِنّاً، قال لَهم: ألَمْ أقُلْ لكم هلاَّ تَستَثْنُونَ في حَلَفِكم وقد كان قالَ لَهم ذلك عندَ قسَمِهم.

وإنما أُقيم لفظُ التَّسبيحِ مقامَ الاستثناءِ؛ لأنَّ في الاستثناءِ تعظيمَ اللهِ، والإقـرارَ بأنَّ أحداً لا يقدِرُ أن يفعلَ فِعلَهُ إلاَّ بمشيئةِ الله تعالى. ويقــالُ: كـان اسـتثناءُ القـومِ في ذلك الزمان التسـبيحُ. ويجـوزُ أن يكـون معنـى التسبيحِ هـا هُنـا: هـلاَّ تُـنَزِّهُونَ اللهَ وتستغفرونَهُ من سُوءِ نيَّاتِكم ؟ ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ عندما رأوا مِن قدرةِ الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً لرَبنا وتعظيمـاً واسـتغفاراً لـه، ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ لأنفُسنا بما عَزَمنا عليه من الذهاب بحقوق الفُقراءِ ومَنعِنا لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي أقبَلُوا يلـومُ بعضهم بعضاً بما كان منهم من منعِ المساكين، يقولُ كلُّ واحـدٍ منـهم لصاحبـِهِ: هـذا مِن عملِكَ، وأنتَ الذي بدَأتَ بذلكَ، ثم ﴿ قَالُواْ ﴾ ؛ بأجْمَعِـهم: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ حين لم نَصنَعْ ما صنعَ أبونا من قبلُ. والطَّاغِي: المتجاوزُ عن الحدِّ.

ثم رجَعُوا إلى اللهِ تعالى ورَجَـوا منـه العُقبَـى، وسـألوهُ أن يُبدِلَـهم خَـيراً منـها فقالوا: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي نرغبُ إليه ونرجُو منه الْخَلَـفَ في الدُّنيـا، والثـوابَ في الآخـرة. قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي هـذا العـذابُ في الدنيـا لِمَـن منـعَ حـقَّ اللهِ ولِمَـن كفـرَ بنعمـةِ الله، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ ؛ وأشدُّ على كفَّار مكة، ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أن الذي يخوِّفُهم اللهُ به حقٌّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وذلـك أنَّ عتبـةَ بـن ربيعـة كـان يقولُ: إنْ كان ما يقولهُ مُحَمَّـدٌ حقّاً في النعيـمِ في الآخـرة لنكونـنَّ أفضـلَ منـهم في الآخرةِ، فضَّلنا عليهم في الدُّنيا. فأنزلَ اللهُ هـذه الآيـات لبيـانِ أنَّ جنـاتِ النعيـمِ في الآخرة خاصَّةٌ للَّذين يتَّقون الشِّركَ والفواحشَ.

وقوله تعالى: (أفَنَجْعَلُ الْمُسْـلِمِينَ كَـالْمُجْرِمِينَ) هـذا اسـتفهامٌ معنـاهُ الإنكـار والتوبيخُ. وقوله تعالى: (مَا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ) إنكـارٌ عليـهم أيضـاً لَمَّـا حكَمُـوا بالسويةِ بين أهلِ الثواب وأهل العقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي ألَكُم يا أهلَ مكَّة كتابٌ من اللهِ، فيه تقرَأون بأنَّ لكم في الدُّنيا والآخرة ما تختارُون لأنفسكم. والمعنى: ألَكُم فيه كتابٌ تقرأون أنَّ لكم في ذلك الكتاب ما تختارون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَكُم علينـا عـهودٌ وثيقـة إلى يـومِ القيامـة، بـأن لكـم مـا تقضون لأنفسكم أن لكم من الخير والكرامة[1]، وإنما كُسرت (إنَّ) في هـاتين الآيتَـين لدخولِ اللام في خَبرِها.

ثُم قال تعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي سَلهُم يا مُحَمَّدُ أيُّهم كفيلٌ لهم بأنَّ لهم في الآخرةِ ما للمسلمين، والزَّعِيمُ هو الكفيلُ الضَّـامِنُ.

---

(١) أدرج الناسخ كلمات في الأصل المخطوط، ثم علَّم عليها بالحذف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ معناه: أَلَهُم فيما يقولون شُهداء وأعوان عليهِ؟ فليأتُوا بشُركائهم يشهدون لَهم بذلك إنْ كانوا صَادِقين في مَقالتِهم، وأرادَ بالشُّركاء الأصنامَ التي أشركوها باللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ معناهُ: يومَ يُكشَفُ عن الأمُور الشدائدِ وهو يومُ القيامةِ، وهذا مما كَثُرَ استعمالهُ في كلامِ العرب على معنى يومٍ يشتدُّ الأمرُ كما يشتدُّ ما يحتاجُ إلى أن يكشفَ فيه عن ساقٍ، ومِن ذلك قولُهم: قَامَتِ الحربُ على ساقٍ، وكَشَفَتْ عن ساقٍ، وإن لم يكن للحرب ساقٌ.

وانتصبَ قوله (يَوْمَ يُكْشَفُ) على الظَّرفِ لقوله (فَلْيَأْتُوا بشُرَكَائِهِمْ) في ذلك اليوم لتَنفعَهم أو تشفعَ لهم، وعن عكرمةَ قالَ: (سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) فَقَالَ: إذا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَابْتَغُوهُ فِي الشِّعْرِ، فَإنَّهُ دِيوَانُ الْعَرَبِ، أمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَالْخَيْلُ تَعْدُو عِنْدَ وَقْتِ الإشْرَاقِ ... وَقَامَتِ الْحَرْبُ بنَا عَلَى سَاقٍ)[1]

أي يومُ القيامة يومُ كَرْبٍ وشدَّة، وقال ابنُ قتيبة: (أصْلُ هَذا أنَّ الرَّجُلَ إذا وَقَعَ فِي أمْرٍ عَظِيمٍ يَحْتَاجُ إلَىالْجِدِّ فِيهِ يُشَمِّرُ عَنْ سَاقَيْهِ) فاستُعيرَ الكشفُ عن الساقِ في موضع الشدَّة، وقال دريدُ بن الصمَّة يرثِي أخاهُ:

كَشَمْسِ الإزار خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... صَبُورٌ عَلَى الْجَلا طَلاَّعُ أنْجُدِ

يقالُ للأمرِ إذا اشتدَّ وتفاقمَ وتراكبَ غمُّهُ وكشفَ عن ساقهِ يومَ يشتدُّ الأمرُ، كما يشتدُّ ما يحتاجُ إليه إلى أنْ يكشفَ عن ساقٍ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٥٤؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن طريق عكرمة عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٨٩٥٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الرقم (٣٨٩٨)، وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَـلاَ يَسْـتَطِيعُونَ) قـال المفسِّـرون: يسـجدُ الخلـق كلُّـهم سـجدةً واحـدةً، ويبقـى الكفَّـارُ والمنـافقون يريـدُون أن يسـجُدوا فـلا يستطيعون، كما رُوي: أن أصلاَبَهم يومئذٍ تصيرُ عَظْماً واحـداً مثـلَ صَيَـاصِيِّ البقـر، يعني قُرونَها. ويقالُ: يأمرُ الله أهلَ القيامةِ بالسُّجود، فمَن كان يسجدُ له في الدُّنيا قَـدَرَ على السُّجود في الآخرةِ، ومَن لا فلاَ، فيكون ذلك أمارَةَ تَميـيز المؤمـن مـن الكـافر. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ ؛ أي ذليلـةً، وذلـك إذا عـايَنوا النـارَ، وأيقَنُـوا بـالعذاب. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ ﴾ ؛ أي تَغشَـاهُم ذِلَّـةُ الندامـةِ والحسـرةِ، وتعلُوهم كآبةٌ وحزنٌ وسوادُ الوجهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ ؛ يعـني وقـد كـانُوا يُدعَـون بالأذانِ في الدُّنيا، ويُؤمَرون بالصلاةِ المكتوبَة، ﴿ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي مُعَـافُون ليس في أصلابهم مثل سَفَافِيدِ الحديدِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ ﴾ ؛ أي خَلِّ بيـني وبـينَ مَـن يكـذِّبُ بـهذا القـرآن، لا تشـغَلْ قلبَـكَ بـهِ، كِلْـهُ فأنـا أكفيـكَ أمـرَهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي كلما جدَّدُوا معصيتَهُ جدَّدنـا لهم نعمةً وأنسيناهُم شُكرَها ثم أخذناهم بغتةً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.

وقولــه تعــالى: ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي أتسألُهم أجراً يا مُحَمَّدُ على ما تَدعُوهم إليه من الإيمان جُعْلاً فهُم مِـن الغُـرم الـذي يَلزَمُهم بإجابتِكَ مُثقَلونَ فيمتنعون عـن الإجابـةِ بسَـبَبِهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي أعِندَهم الوحيُ بأنَّكَ على البـاطلِ وهـم علـى الحقِّ، فيكتُبون ذلك الوحيَ ويخاصمونَكَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾ ؛ أي اصبرْ يا مُحَمَّـدُ على تبليغِ الوحيِ والرسالة، ولا تكُنْ في الضَّجَرِ والعجَلَةِ كصـاحب الحـوتِ يونُـسَ

عليه السلام، والمعنى: لا تَضْجَرْ فيما يلحقُكَ من الأذيَّة من جهلهم[(١)] كما ضَجِرَ صاحبُ الحوتِ، فخرجَ من بين ظَهرَانِيهم قبلَ أن يأذنَ اللهُ له حتى الْتَقَمَهُ الحوتُ، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فنادَى وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي مَمْلوءٌ غماً، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ بقَبُولِ توبتهِ، ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾؛ أي لأُلقِيَ من بطنِ الحوت على وجهِ الأرض، وَقِيْلَ: معناه: لنُبذ بالضَّجَر وهو مَلُومٌ مذمومٌ، ولكنْ قَبلَ اللهُ توبتَهُ، فنُبذ وهو غيرُ مَذْمُوم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي اختارَ يونُسَ لنبوَّتِهِ وللإسلامِ، فجعلَهُ من الصَّالحين بقَبُولِ تَوبَتِهِ، فردَّ إليه الوعيَ وشَفَّعَهُ في قومهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ اختلَفُوا في ذلكَ، قال بعضُهم: كان عادةِ العرب أنَّهم إذا حَسَدُوا إنساناً تجوَّعُوا ثلاثةَ أيَّام، ثم خرَجُوا عليه فقالوا لَهُ: ما أحْسَنَكَ؛ ما أجْمَلَكَ؛ مَا كذا وكذا ليُصيبوهُ بأعينِهم، فتوَاطَؤا على أنْ يفعلوا ذلك بالنبيِّ ﷺ، فدفعَ اللهُ عنه كيدَهم وشرَّهم. وَقِيْلَ: إن العينَ كان في بني إسرائيل أشدَّ، حتى أنَّ الناقةَ السمينة والبقرةَ السَّمينة كانت تَمُرُّ بأحدِهم، فيُعَاينُوها ثم يقولُ: يا جاريةُ خُذِي الزَّنبيلَ والدرهمَ واذهَبِي ائْتِنَا بلحمٍ مِن هذه، فما يبرحُ أن تُنحَرَ من سَاعَتِها.

قال الكلبيُّ: (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ يَمْكُثُ لاَ يَأْكُلُ يَوْمَيْنِ أوْ ثَلاَثَةً، ثُمَّ يَرْفَعُ جَانِبَ خِبَائِهِ فَتَمُرُّ بهِ الإبلُ، فَيَقُولُ فِيْهَا مَا يُعْجِبُهُ، فَمَا تَذْهَبُ إلاَّ قَرِيباً حَتَّى تَسْقُطَ لِوَقْتِهَا، فَسَأَلَ الْكُفَّارُ هَذا الرَّجُلَ أنْ يُصِيبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بعَيْنِهِ وَيَفْعَلَ بِهِ مِثْلَ ذلِكَ، فَأَجَابَهُمْ إلَى ذلِكَ[(٢)]، فَعَصَمَ اللهُ تَعَالَى نَبيَّهُ وَحَفِظَهُ عَنْهُمْ، وَأنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ).

---

(١) في الأصل المخطوط: (جهنم) وهو غير مناسب.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٥٥؛ قال القرطبي: (فلما مر النبي ﷺ أنشدَ:

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّداً ... وَإِخَالُ أنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ)

ورُوي أنَّ الكفارَ كانوا يَقصِدُون رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُصيبوهُ بالعين، وكانوا ينظُرون إليه نظرَ أشدّ يَداً بالعين، وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: أنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا مِنْ شِدَّةِ بُغْضِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ نَظَرَ الْبُغْضَاءِ)[1]، والمعنى: تكادُ الكفَّارُ بنظرِهم إليكَ أنْ يصرَعُوكَ.

وقرأ نافعُ (لِيَزْلِقُونَكَ) بفتحِ الياء، يقالُ: زَلَقَ هو وَزَلَقْتُهُ، مثلُ حَزَنْتُهُ وحَزَنَ هُوَ، وقرأ الباقون (لِيُزْلِقُونَكَ) من أزْلَقَهُ من موضعهِ إذا نحَّاهُ، وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ][2] وقال: [إنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ][3]. وَقِيلَ: معنى الآيةِ: وإن يكادُ الذين كفرُوا من شدَّة إبغاضِهم وعداوتِهم لكَ يُسقِطُونَكَ ويَصرِفُونكَ عمَّا أنتَ عليه من تبليغِ الرِّسالةِ ويُزيلونَكَ عن المقامِ الذي أقامكَ اللهُ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي لما أعيَتهُم الحيلةُ عن صرفِ الناس عنكَ نسبُوكَ إلى الجنونِ مع علمِهم بخلاف ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) يعني القرآنَ، وذلك أنَّهم كانوا يكرَهُون القرآنَ أشدَّ الكراهةِ، فيُحِدُّونَ النظرَ إلى النبيِّ ﷺ حين يتلوهُ بالبغضاءِ، وكانوا يَنسِبُونَهُ إلى الجنون إذا سَمعوهُ يقرأ القرآنَ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي ما القرآنُ الذي يقرؤهُ عليهم إلاَّ عِظَةٌ للخلائقِ كلِّهم.

آخر تفسير سورة (**نون – القلم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في إعراب القرآن: ج ٥ ص١٢؛ قال الزجاج: (إنما كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر الإبغاض والنفور. فالمعنى على هذا أنهم لحدَّة نظرهم إليه يكادون يزيلونه من مكانه).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص١٧: الحديث (١٠٩٠٥) ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرضى والرقى: الحديث (٢١٨٨). والترمذي في الجامع: الطب: باب ما جاء في العين: الحديث (٢٠٦٢). وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٩٧٧٠).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: ...) وذكره.

سُورَةُ الْحَاقَّـةِ

سُورَةُ الْحَاقَّةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَسِتٌّ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَاثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً](1). وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) ﴾ ؛ اسمٌ من أسماءِ القيامة، سُمِّيت به حَاقَّةً لأنَّها حَقَّتْ فلا كاذبةَ لها، ولأنَّ فيها حَوَاقَّ الأمُور وحقَائِقَها، وفيها يَحِقُّ الجزاءُ على الأعمال؛ أي يجبُ، يقالُ: حقَّ عليهِ الشيءُ إذا وجبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(2)، ولا يكون في القيامةِ إلاَّ حقائقُ الأمور.

وقولُه تعالى: (مَا الْحَاقَّةُ) استفهامٌ بمعنى التفخيمِ لشأنِها، كما يقالُ: زيدٌ ما هو؟ على التعظيمِ لشأنهِ، ثم زادَ في التَّهويلِ فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣) ﴾ ؛ أي كأنَّكَ لستَ تعلمُها إذا لم تُعاينْها، ولم ترَ ما فيها من الأهوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) ﴾ ؛ أي بطُغيانِهم وكُفرِهم، هذا قولُ ابنِ عبَّاس ومجاهد، كذبُوا بالقيامةِ فأهلَكَهم اللهُ، والقارعةُ من أسماءِ القيامة، سُمِّيت بذلك لأنَّها تقرعُ القلوبَ بالأهوال والمخافة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ ؛ أي بطُغيانِهم وكُفرِهم، هذا قول ابنِ عبَّاس ومجاهد، وقال آخَرُون: يعني أهلِكُوا بالصَّيحة الطاغيةِ، وهي التي جاوزتِ الحدَّ والمقدارَ.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٥ عن أبي بن كعب بإسناد واه.
(٢) الزمر / ٧١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي بريحٍ بـاردة شَـديدةِ الـبردِ جِـدّاً بالغـة مُنتَـهاها في الشـدَّة. والصَّرْصَـرُ: شـدَّةُ الـبردِ، والصَّرْصَرُ: ما يتكرر فيه البردُ الشديد، كما يقال: صَلَّ اللجامُ إذا صوَّتَ، فإذا تكـرَّرَ صوتهُ قِيْلَ: صَلْصَلَ، والعَاتِيَةُ من قولِهم: عتَا النبتُ إذا بلغَ مُنتهاه في الجفـافِ، ومـن ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾(1)، وَقِيْـلَ: معنـى عَاتِيَـةٍ عَتَـتْ عـن خزائنِها فلم يكن لهم عليها سبيلٌ، ولم يعرِفُوا كم خرجَ منها.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ؛ أي أرسَلها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حُسوماً؛ أي مُتَتابعةً لا ينقطعُ أوَّلُـهُ عـن آخـرِهِ، كمـا يتـابعُ الإنسـانُ الكـيَّ علـى المقطـوعِ الجسـم دمـهُ؛ أي يقطعـهُ. وفي الحديـثِ: [إنَّ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي أصَابَتْهُمْ كَانَتْ قِطْعَةً مِنْ زَمْهَرِيرَ عَلَى قَدْرِ مَا يَخْرُجُ مِـنْ حَلَقَـةِ الْخَاتَمِ](2). قال وهبُ: (هَذِهِ الأَيَّامُ الَّتِي أرْسِلَتِ الرِّيحُ عَلَى عَادٍ هِـيَ أيَّـامُ الْعَجُـوز ذاتُ بَرْدٍ وَرِيَاحٍ شَدِيدَةٍ، وَانْقَطَعَ الْعَذابُ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ). وَقِيْلَ: سُميت أيامُ العَجزِ؛ لأنَّها في عَجزِ الشّتاء، ولها أسَامِي مشهورة تُعرف في كتب اللغة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: فترى أيُّها الرَّائِي القـومَ في تلك الأيامِ والليالي صَرْعَى؛ أي سـاقِطِين بعضُـهم علـى بعـضٍ مَوتـى، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي كأنَّهم أصُول نخلٍ ساقطةٍ باليـةٍ قـد نُخِـرَتْ وتـآكَلَتْ وفسَدت. والصَّرْعَى جمعُ صَرِيعٍ، نحْوُ قتيلٍ وقَتْلَى. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي هل ترى لهم من نَفْسٍ باقيةٍ قائمة، والمعنى: لم يبق منهم أحدٌ إلاَّ أهلَكَتْهُ الريحُ.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ ﴾ ؛ قـرأ أبــو عمــرٍو والحسـنُ والكسائيُّ ويعقوب بكسرِ (قِبَلَهُ) بكسرِ القاف وفتحِ الباء، ومعناهُ: وجَاءوا فرعونَ

---

(1) مريم / ٨ .

(2) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٤؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو الشيخ في العظمة عن ابـن عبـاس) وذكره بمعناه. ولم أقف عليه بلفظه.

ومَن يليهِ من جنوده وأتباعهِ وجموعه، وقرأ الباقون بفتحِ القاف وإسكانِ الباء، ومعناهُ: ومَن تقدَّمَهُ من القرونِ الخالية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾؛ يعني قومَ لوطٍ انقلَبت قرياتُهم بأهلِها حين خُسِفَ بهم جاءُوا بالخطءِ العظيمِ وهو الشركُ باللهِ تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾؛ يعني لُوطاً عليه السلام وموسى عليه السلام، والمعنى: فعصَوا رسُلَ ربهم، إلاَّ أنه وحَّدَ الرسولَ؛ لأنه قد يكون مصدرٌ وأقيم مقامَ لفظِ الجماعة، وقولهُ تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي زائدةً ناميةً تزيدُ على الأخذاتِ التي كانت فيمَن قبلَهم، ومنه الرَّبْوَةُ للمكانِ المرتفع، ومنه الرِّبا لِمَا فيه من الزيادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾؛ معناهُ: لَمَّا جاوزَ الماءُ القدرَ وارتفع حدَّ أيامِ الطُّوفان في زمنِ نوح عليه السلام حتى علاَ الماءُ على كلِّ شيء وارتفعَ، حَمَلنا آباءَكم وأنتم في أصلابهم في السَّفينة الجاريةِ التي تجري على الماءِ. وسَمَّى ارتفاعَ الماءِ في ذلك اليوم طُغياناً لخروجهِ في ذلك اليوم عن طاعةِ خُزَّانه. ويقالُ: لا ينْزلُ قطرٌ من السَّماء إلاَّ وعِلْمُ الملائكةِ محيطٌ بها إلاَّ في ذلك اليوم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾؛ أي لنجعلَ تلك الأخذةَ وتلك السفينةَ بما كان من إغراق قوم نوحٍ وإنجائهِ والمؤمنين معه عِظَةً يتَّعِظُ بها الخلقُ، فلا تفعَلُوا ما كان القومُ يفعلونَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي تسمَعُها وتحفَظُها أذنٌ حافظةٌ لِمَا جاءَ من عندِ الله.

قال قتادة: (أذنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ)[1]، وقال الفرَّاءُ: (لِتَحْفَظَهَا كُلُّ أذُن) فيكون عِظَةً لِمَن يأتي بعدُ، قال رسولُ الله ﷺ: [سَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أنْ يَجْعَلَهَا أذُنَكَ يَا عَلِيُّ] قال عليٌّ: فَمَا سَمِعتُ شَيْئاً فَنَسِيتُهُ بَعْدَ ذلِكَ[2]. وفي تفسير النقَّاش[3]:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٩٥٤ و٢٦٩٥٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٨٩٦١).

(٣) وهو محمد بن الحسن بن محمد، أبو بكر النقَّاش (٢٦٦-٣٥١هـ) عالم بالقراءات والتفسير،=

[أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ (وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ) أخَذ بـأُذُنِ عَلِـيٌّ ﷺ وَقَـالَ: هِـيَ هَذِهِ][1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ قـال عطـاءُ: (يُرِيدُ النَّفْخَةَ الأُولَى)، وقال الكلبيُّ ومقاتل: (النَّفْخَةُ الثَّانِيَـةُ)[2]. والنـافِخُ إسـرافيلُ، وأكثر المفسِّرين على أنَّها النفخةُ الأُولى التي تكون للموتِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي تَحملُـها الملائكةُ الموكَّلون بها فيَضربُونَ الأرضَ بالجبال والجبالَ بالأرضِ دفعةً واحدة، فتصـيرُ الجبال هَباءً مُنْبَثّاً، قال الحسنُ: (تَصِيرُ غَبَرَةً نَفَسَ وُجُوهِ الْكُفَّار). والـدَّكُّ: هُـوَ الْكَسْـرُ وَالدَّقُّ، والمعنى: فَدُقَّتا وكُسِرَتا كسرةً واحدة لا يثني[3]، وَقِيْلَ: الدَّكُّ البَسْطُ بأن يوصَلَ بعضُها إلى بعضٍ حتى تَنْدَكَّ، ومنه الدُّكَّانُ، وانْدَكَّ سَنَامُ البعيرِ إذا انغرسَ في ظهرِهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي قـامَتِ القيامـةُ، ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ ؛ مـن هَيبَـةِ الرَّحمـنِ، ﴿ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ضعيفـةً جـداً لا تسـتقلُّ يومئـذ لانتقـاضِ بُنيتـها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ﴾ ؛ أي على أطرَافِها ونواحيها، واحِدُها أرْجَا مقصورةٌ وتثنيتهُ رَجَوَان.

قال الضحَّاك: (إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أمَرَ اللهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَـا فَتَشَـقَّقَتْ، وَتَكُـونُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى جَوَانِبِـهَا حَتَّـى يَـأْمُرَهُمُ اللهُ تَعَـالَى، فَيَـنْزِلُونَ إلَـى الأَرْضِ فَيُحِيطُـونَ بالأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[4])[5]. والْمَلَـكُ لفظهُ لفظ الواحدِ وأن المرادَ به اسمُ الجنسِ.

=أصله من الموصل. ولد ببغداد ونشأ بها، وسمـع بالشـام ومصـر والجزيـرة والموصـل والجبـال وخراسان. له (شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن) و(الإشارة في غريب القـرآن)و(الموضـح في معاني القرآن). ينظر: معجم المفسرين:ج ٢ ص٥١٣.

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٦٤؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٣٩٣.

(٣) في الأصل المخطوط: رسم الناسخ الكلمة من غير نقط.

(٤) الفجر / ٢٢ .

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٥٨) مطولاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (ثَمانِيَةُ صُفُوفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلاَّ اللهُ تَعَالَى)(١). قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [الْيَوْمَ تَحْمِلُهُ أرْبَعَةٌ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أيَّدَهُمُ اللهُ بأرْبَعَةٍ أخْرَى فَكَانُوا ثَمَانِيَةً](٢). ومعنى الآيةِ: ويحملُ عرشَ ربكَ يومَ القيامةِ فوق الأربعةِ الذين هُم على الأرجاءِ ثمانية. وقال بعضُهم: ثمانيةٌ من الملائكةِ على صُورةِ الأوعَالِ مِنْ أظلافهم إلى رُكَبِهم كما بين السَّماء والأرض(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ ؛ أي تُعرَضون للحساب، ﴿ لَا تَخْفَىٰ ﴾ ؛ على اللهِ، ﴿ مِنكُمْ ﴾ ؛ نفسٌ؛ ﴿ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ ولا يخفى عليه من أعمالِكم شيءٌ. قرأ الكوفيُّون غيرَ عاصم (لاَ يَخْفَى) بالياءِ، وقرأ الباقون بالتاءِ. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ) أي لا تخفى سريرةٌ خافية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ وهم أهلُ الثَّواب، يُعطَون كتابَهم بأيمانِهم فيقولُ كلُّ واحدٍ منهم للناسِ سُروراً بكتابهِ: تعالَوا اقرَأوا ما في كتابيَهْ مِن الثواب والكرامةِ، وهذا كلامُ مَن بلغَ غايةَ السرور.

ومعنى(هَاؤُمُ اقْرَءُوا) أي هاتُوا أصحابي اقرَأوا كتابيه، قال ابن السِّكيت: (يُقَالُ: هَاءَ يَا رَجُلُ، وَهَاؤُمَا يَا رَجُلاَن، وَهَاؤُم يَا رجَالٌ) والأصلُ هاكُم فحُذِفَتِ الكافُ، وأبدلت منها همزةُ، وألقيت حركةُ الكافِ عليها.

وعن زيدِ بن ثابت قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَهُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَلَهُ شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ] فَقِيلَ لَهُ: فَأيْنَ أبُو بَكْرٍ ؟ فَقَالَ: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! زَفَّتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إلَى الْجَنَّةِ](٤). وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٦٩٦٩) عن ابن عباس بأسانيد، والأثر (٢٦٩٧٠) عن الضحاك.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٦٩٧٢) عن ابن إسحق بلاغاً.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٦٧؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي في تفسيره).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٨ ص٢٦٩؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي. وقد ذكرناه مرفوعاً= من =حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب التذكرة). وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يَا عَائِشَةُ كُلُّ النَّاسِ يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ أَبَا بَكْرٍ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ مَرْضِيَّةٍ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ معناهُ: إنِّي علمتُ وأيقنتُ في الدنيا أنِّي أُحاسَبُ في الآخرةِ، وكنتُ أستعدُّ لذلك، وسُمي اليقينُ ظَنّاً؛ لأنه علمُ الغيب لا علمُ شهادة[2]، ففيه طرفٌ من الظنِّ ولذلك قال ﷺ: [لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي في حالةٍ من العيشِ مَرْضِيَّةٍ برِضَاها بأن لَقِيَ الثوابَ[4] وأمِنَ من العقاب، ومعنى (رَاضِيَةٍ) أي مرضيَّة، كقولهِ: ماء دافقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ ﴾، المنازل الرفيعةُ البناءِ. وقولهُ تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي ثِمارُها دانيةٌ مِمَّن يتناولُها، وهو جمع قِطْفٍ وهو ما يُقطَفُ من الثمار، والمعنى: ثِمارُها قريبةٌ ينالُها القائمُ والقاعد والمضطجعُ، لا يَمنَعهم من تناوُلها شوكٌ ولا بُعْدٌ.

=حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب التذكرة). وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد عند ترجمة عمر بن إبراهيم: الرقم (٥٩٠٥): ج ١١ ص٢٠٢، وعمر هذا ضعيف، قال الخطيب: (غير ثقة، يروي المناكير عن الأثبات). وفي الفوائد المجموعة: ص٣٣٦؛ قال الشوكاني: (موضوع).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٠. وفي كنز العمال: (٣٢٦٣٥) عزاه المتقي إلى الخطيب في المتفق والمفترق عن عائشة. وأبي نعيم في الرقم (٣٢٦٣٦).

(٢) هكذا في المخطوط: عرَّف (الغيب) ونكَّر (شهادة).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: الحديث (٢٥ و٦٩٨٢) عن ابن عباس و(٦٩٣٩) عن أنس. والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٧١. وفي مجمع الزوائد: ج١ ص١٥٣؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح وصححه ابن حبان. وعن أنس رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات).

(٤) في المخطوط: (بأن تلقى بالثواب). والمعنى لا يستقيم.

ويقالُ لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا ﴾ ؛ أي كُلـوا واشـربوا في الجنَّـة، ﴿ بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ بما قدَّمتم في الأيامِ الماضية مـن الأعمال الصالحة، ويعني بالأيام الماضيةِ أيامَ الدُّنيا. والهناءُ: ما لا يكونُ فيه أذًى مـن بـولٍ ولا غائط، ولا يعقبهُ دارٌ ولا موتٌ.

وكان ابنُ عبَّاس يقولُ: (بِمَا أَسْـلَفْتُمْ فِـي الأَيَّـامِ الْخَالِيَـةِ: الصَّـوْمُ فِـي الأَيَّـامِ الْحَارَّةِ). كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [إنَّ مِنْ أبْوَاب الْجَنَّةِ بَاباً يُدْعَى الرَّيَّانُ، مَنْ دَخَلَهُ لاَ يَظْمَأُ أبَداً، يَدْخُلُهُ الصَّائِمُونَ، ثُمَّ يُغْلَقُ عَلَيْهِمْ فَلاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ][(١)].

ويقالُ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا أوليائي ما نظرتُ إليكم في الدُّنيا، قد قَلُصَتْ شفاهُكم من العطش، وغارَتْ أعيُنكم وخَمَصت بطونُكم، فكونـوا اليـومَ في نعيمِكم، فكُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ السائب: (تُلْوَى يَدُهُ الْيُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَـهُ). وَقِيـلَ: يُـنْزع مـن صـدرهِ إلى خلـف ظـهرهِ، ﴿ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (نَزَلَتِ الآيَةُ الأُوْلَى قَوْلُهُ تَعَالَى (فَأمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بيَمِينِهِ) فِي أبي سَلَمَةَ ابْن عَبْدِ الأَسَدِ زَوْجِ أمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَ مُسْلِماً يُعْطِيهِ الْمَلَكُ كِتَابَهُ بيَمِينِهِ صَحِيفَةً مَنْشُورَةً يَقْرَأ سَيِّئَاتِهِ فِي بَاطِنِهِ. وَيَقْرَأ النَّاسُ حَسَنَاتِهِ فِي ظَاهِرِهِ، فَإذا بَلَغَ آخِرَ الْكِتَاب وَجَـدَ أنْ قَدْ غُفِرَ لَهُ، فَيَقُولُ: (هَاؤُمُ اقْرَأوا كِتَابيَهْ) ثُمَّ صَارَتْ عَامَّةً لِلْمُسْلِمِينَ).

قال الكلبيُّ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي أخِي أبي سَلَمَةَ، وَهُوَ الأَسْوَدُ بْنُ عَبْـدِ الأَسَدِ، وَكَانَ كَافِراً يُعْطِيهِ الْمَلَكُ الَّذِي يَكْتُبُ أعْمَالَـهُ كِتَاباً مِـنْ وَرَاءِ ظَـهْرِهِ، فَيَجِـدُ حَسَنَاتِهِ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، وَسَيِّئَاتِهِ غَيْرَ مَغْفُورَةٍ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَيَقُولُ: (يَـا لَيْتَنِـي لَـمْ أوْتَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص١٣٤: الحديث (٥٧٥٤). والبخاري في الصحيـح: كتاب الصوم: باب الريان للصائمين: الحديث (١٨٩٦). والترمذي في الجـامع: كتـاب الصوم: باب ما جاء في فضل الصوم: الحديث (٧٦٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجـه ابـن المنذر عـن يوسـف بـن يعقـوب الحنفي قال: ...) وذكره.

كِتَابِيَهْ) وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ كَافِرٍ، يَتَمَنَّى الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أنَّهُ لَمْ يُعْطَ كِتَابَهُ وَلَمْ يَعْلَمْ مَا حِسَابُهُ تَحَسُّراً عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْقَبَائِحِ.

والهاءُ في (كِتَابِيَهْ) و (حِسَابِيَهْ) هاءُ الوقفِ والاستراحة، ولهذا يوقَفُ عليها كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: يا ليتَ الْمَوْتَةَ الأولى كانت ماضيةً على الدوام، قال الحسنُ: (يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ حِينَئِذٍ وَيُحِبُّونَهُ، وَكَانَ مِنْ أكْرَهِ الأَشْيَاءِ إلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا). ويقال: إن الهاءَ في قولِهِ (يَا لَيْتَهَا) كنايةٌ عن الصَّيحةِ التي أخرجَتْهُ من القبرِ، يقولُ: يا لَيْتَهَا قَضَتْ عليَّ فاستريحَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني لَمْ ينفعْنِي كثرةُ مالِي الذي جمعتهُ في الدنيا لأوقاتِ الشدائدِ والكُرَبِ لا يُمكنني أن أفتدِي بشيءٍ منه، ولم أعمَلْ منه شيئاً لِهذا اليومِ، بل فرَّقتهُ فيما لا يحلُّ وخلَّفتهُ للوارثِ ولم يدفَعْ عنِّي من عذاب الله شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ضَلَّتْ عني حجَّتي حين شَهدَتْ عليَّ جوارحي بالشِّرك وبجميعِ ما عملتُ في الدنيا. وَقِيْلَ: معنى السُّلطان العزُّ والأمر والنهيُ بَطَلَ منه كلُّ ذلك، وضالاً أسيراً لا يقدرُ على دفعِ العذاب عن نفسهِ.

يقولُ الله: ﴿ خُذُوهُ ﴾ ؛ أي يقولُ الله تعالى للزَّبانيةِ الموكَّلين بتعذيبِهِ: خُذُوهُ؛ ﴿ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ فيَثِبُونَ عليه فيأخُذونه ويجعلون الغُلَّ في عُنقه.

يُروى: [أنَّهُ يَثِبُ عَلَيْهِ مِنْ جَهَنَّمَ ألْفُ مَلَكٍ مِنَ الزَّبَانِيَةِ، فَيَأْخُذُونَهُ فَيَنْقَطِعُ فِي أيْدِيهِمْ، فَلاَ يُرَى مِنْهُ فِي أيْدِيهِمْ إلاَّ الوَدَكُ[2] ثُمَّ يُعَادُ خَلْقاً جَدِيداً، فَيَجْعَلُونَ الْغُلَّ فِي عُنُقِهِ، وَيَجْمَعُونَ أطْرَافَهُ إلَى الْغُلِّ الَّذِي يَجْعَلُونَهُ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ يَقْذِفُونَهُ فِي الْجَحِيمِ حَتَّى يَتَوَقَّدَ فِي النَّارِ][3] فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي أدخِلوهُ وألزموهُ الجحيمَ.

---

(١) القارعة / ١٠. (٢) الوَدَك: دَسَمُ اللحمِ. مختار الصحاح: (ودك): ص٧١٥.

(٣) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣١ من غير إسناد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ السِّلسلةُ: حلَقةٌ منتَظَمةٌ ذرعُها سبعون ذراعاً، الذِّراعُ سَبعون بَاعاً، كلُّ باعٍ أبعدُ ما بين الكوفةِ ومكَّة، قال الحسنُ: (اللهُ أعْلَمُ بأيِّ ذِرَاعٍ هُوَ). قال ابنُ أبي نُجيح: (بَلَغَنِـي أنَّ جَمِيعَ أهْلِ النَّار فِي تِلْكَ السِّلْسِلَةِ).

وقولهُ تعالى (فَاسْلُكُوهُ) أي أدخِلُوها في دبُرِه، وأخرجُوها من فيـهِ، وألقُـوا مـا فضَلَ منها في عُنقهِ. يقالُ: سلكتُ الخيطَ في الإبرةِ إذا أدخلتهُ فيـها، وتقـولُ العـربُ: أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي، والقُلنسوةَ في رأسِي، ومعلومٌ أنَّ الإصبعَ هي التي تدخلُ في الخاتمِ، ولكنَّهم أجَازُوا ذلك؛ لأنَّ معناهُ لا يُشكِلُ.

وفائدةُ السِّلسلة: أنَّ النارَ إذا رمَت بأهلِها الى أعلاَها جذبَتهُم الزبانيةُ بالسَّلاسلِ إلى أسفلها، قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ وُضِعَتْ حَلَقَةٌ مِـنْ تِلْـكَ السِّلْسِلَةِ عَلَـى ذِرْوَةِ جَبَلٍ لَذابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، وَلَوْ جُمِعَ صَدِيدُ الدُّنْيَا كُلُّهُ لَمَا وَزَنَ حَلَقَـةً وَاحِـدَةً مِـنْ حَلَقِ تِلْكَ السِّلْسِلَةِ). قال الكلبيُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (فَاسْلُكُوهُ) أي اسْـلُكُوا السِّلْسِـلَةَ فِيْـهِ كَمَا يُسْلَكُ الْخَيْطُ فِي اللُّؤْلُؤِ).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يصـدِّقُ بتوحيدِ اللهِ وعظَمتهِ، وفيه بيانُ أنَّ هذا النوعَ من العذاب لا يكون إلاَّ للكفَّار، وقولـهُ تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ وهذا راجـعٌ إلى منـع الحقـوق الواجبة في الشَّرع، مثلُ الزكاةِ ونحوِها، وفيه دليـلُ أنَّ الكـافرَ يؤاخَـذُ بالشَّـرعيات في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ليس لَهُ في الآخرةِ قريبٌ ينفعهُ ويحميه، ﴿ وَلَا طَعَامٌ ﴾ ؛ يشبعهُ، ﴿ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ وهـو ماءٌ يَسِيلُ من أجسامِ أهلِ النَّار من الصديدِ والقيحِ والدَّم، وكلُّ جُرْحٍ غَسـلتَهُ فخـرجَ منه شيءٌ فهو غِسْلينٌ، قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ أنَّ قَطْرَةً مِنَ الْغِسْلِينِ وَقَعَتْ فِـي الأَرْضِ أفْسَدَتْ عَلَى النَّاسِ مَعَايِشَهُمْ).

قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يأكلهُ إلاَّ من يُخطِئُ وخطَؤهم الشركُ، وعن عكرمةَ قال: (قَرَأنَا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ (لاَ يَأْكُلُـهُ إلاَّ الْخَـاطِئُونَ)

فَقَالَ: مَهْ كُلُّنَا نُخْطِئُ). والخطأ في الآيةِ ضدُّ الصَّواب لا ضدُّ العمدِ. والذي ذكـرَهُ اللهُ في قوله ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾[1] لا يخالفُ ما في هـذه الآيـاتِ، ولأن النـارَ دركَاتٌ، فمنهم مَن طعامهُ الغِسْلِين، ومنهم من طعامهُ الضَّريـعُ، ومنـهم مـن طعامـهُ الزَّقُّومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ؛ معناهُ: أقسِمُ بما تُشاهِدون مِمَّا في السَّماء والأرض، وبما لا تُشاهِدُون مما وراءَ السَّماء والأرض، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ ، إنَّ هذا القرآنَ لقولُ جبريلَ عليه السلام يرويهِ إلى مُحمَّدٍ ﷺ.

والقرآنُ قولٌ أقسَمَ اللهُ بجميعِ ما خلَقَ إعظاماً للقَسَم، وذكرَ في أوَّل الآيـةِ (لاَ) وذلك لأنه قد يُزَادُ في القسَم كما يقالُ: لاَ واللهِ لا أفعَلُ كـذا، ويجـوزُ أن تكـون (لاَ) هاهنا صلةٌ في الكلام مولَّدَةٌ، وهو قولُ البصريِّين. ويجوزُ أن تكون لِرَدِّ مقالـةِ الكفَّـار عليهم، وهو قولُ الفرَّاء، والمعنى: ليس كما يقولُ المشركون أقسِمُ بما تُبصِرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ ؛ أي القرآنُ مـن عندِ الله، وأرادَ بالقليلِ نفيَ إيمانِهم أصلاً، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ والكاهنُ: هو الْمُنَجِّمُ، وَقِيْلَ: هو الذي يُوهِمُ معرفةَ الأمور بما يزعمُ أنَّ له خَدَماً مـن الجنِّ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ؛ معناهُ: ولكنَّهُ تـنْزِيلٌ من خالقِ الخلْقِ أجمعين على مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ ؛ معناهُ: لو اخترعَ علينا مُحَمَّدٌ ﷺ بعضَ هذا القـرآن، وتكلَّـفَ القولَ من تَلقاءِ نفسهِ ما لم نَقُلْهُ، لأَخذنا منه بقُوَّتنا وقُدرتنا عليه ثم أهلَكناهُ. واليمـينُ تُذكَرُ ويرادُ بها القوةُ، قال الشاعرُ[2]:

---

(١) الغاشية / ٦ .

(٢) البيت من قول الشماخ. وعرابة: اسم رجل من الأنصار من الأوس، وهو عرابة بـن أوس بـن قيضي الأوسي الحارثي الأنصاري، من سادات المدينة الأجواد المشهورين، أدرك حياة النـبي ﷺ وأسلم صغيراً، وتوفي بالمدينة وعمره نحو ستين سنة.

إذا مَـــا رَأيَـــةٌ رُفِعَـــتْ لِمَجْـــدٍ تَلَقَّاهَـــا عَرَابَـــةُ بـــالْيَمِين

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾؛ وهو عِرْقٌ يجري في الظَّهر حتى يتَّصِلَ بالقلب، إذا انقطعَ ماتَ صاحبهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ أي ليس منكم أحدٌ يَحْجِزُنَا عنه بأنْ يكون حَائِلاً بينه وبين عذابنا. والمعنى: لو تكلَّفَ ذلك لعَاقَبناهُ، ثم لم تَقدِرُوا أنتم على دفعِ عُقوبتنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾؛ يعني القرآنَ عِظَةٌ لِمَن اتَّقى عقابَ اللهِ، ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾؛ بالقرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾، في الآخرةِ يندَمُون على تركِ الإيمَان به، ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾؛ أي أصدَقُ يقينٍ أنه من اللهِ تعالى لِمَن تدبَّرَ وانصفَ، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي سبحِ اللهَ العظيمَ ونزِّههُ عمَّا لا يليقُ بهِ.

آخر تفسير سورة (**الحاقــة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمَعَارِج

سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَمِائَةٌ وواحدٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَسِتَّ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ ﴾ ؛ نزلت في النَّضرِ بن الحارثِ حين قالَ ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] والمعنى دعَا دعاءً على نفسهِ بعذابٍ، وذلك العذابُ واقعٌ لا محالةَ لا بدَّ منهُ، ذلكَ العذابُ عندَ وُقوعهِ، ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾[3]؛ يدفعهُ عنهم، فقُتِلَ النَّضرُ يومَ بدرٍ صبراً وهو من الكافرين، ولم يُقتَلْ يومئذٍ من الأَسارى غيرهُ وغيرُ عُقبَةَ بن أبي مُعيطٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي وُقوعُ ذلكَ العذاب من اللهِ ذي الفواضِلِ والنِّعَمِ، وسُمِّيت معارجُ؛ لأنَّها على مراتبَ. وَقِيْلَ: معناهُ: ذِي معالِي الدَّرجاتِ التي يُعطيها أولياءَهُ في الجنَّةِ. وقال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: ذِي السَّمَوَاتِ) سَمَّاها معارجَ؛ لأنَّ الملائكةَ تعرجُ فيها. وقال ابن زيدٍ: (مَعْنَى الآيَةِ عَلَى

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان:ج١٠ ص٤٣ بإسناده عن أبي ﷺ،وإسناده واه جداً.

(٢) الأنفال / ٣٢ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٧٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره. أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ١٠ ص٣٣٧٣: الحديث (١٨٩٨٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٠٨)، وقال: هذا حديث صحيح.

قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (سَالَ) بغَيْرِ هَمْزَةٍ؛ أيْ سَالَ وَادٍ مِنْ أوْدِيَةِ جهَنَّمَ بعَذابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ ؛ أي تصعدُ الملائكة والرُّوحُ يعني جبريلَ عليه السلام ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي إلى الموضع الذي لا يجري لأحدٍ سواهُ فيه حكمٌ. وقولهُ تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ قال عكرمةُ وقتادة: (يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ). وعن أبي سعيدٍ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أطْوَلَ هَذا الْيَوْمَ- يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ- ! فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا](٢).

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: تعرجُ الملائكةُ والروح إليه في يوم يكون مقدارهُ خمسين ألفَ سَنة لعُروجِ غيرهم، وذلك أنَّ مِن أسفلِ الأرضين السَّبع إلى فوق السموات السَّبع خمسين ألفَ سنةٍ، هكذا رُوي عن مجاهدٍ. وأما قولهُ ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٣) هو ما بين سَماء الدُّنيا إلى الأرضِ في الصُّعود خمسمائةِ سَنة، وفي النُّزول خمسمائةِ سَنة كذلكَ، فذلكَ قولهُ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ لغيرِ الملائكة.

وقال يَمانُ: (يَعْنِي: الْقِيَامَةَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ خَمْسُونَ مَوْطِناً، كُلُّ مَوْطِنٍ أَلْفُ سَنَةٍ). وفيه تقديمٌ وتأخير؛ كأنَّه قالَ: ليس له دافعٌ في يومٍ كان مقدارهُ خمسين ألفَ سنةٍ، تعرجُ الملائكة والروحُ إليه. وَقِيْلَ: معنى الآية: لو جعلَ اللهُ محاسبةَ الخلائقِ إلى أحدٍ غيرهِ لم يفرَغْ منهُ في خمسين ألف سَنة، وهو يفرغُ منه في ساعةٍ واحدة؛ لأنه سريعُ الحساب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٠٢).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٨٠؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه...) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧٥. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٠٣٥) وفيه تصحيف في اسم أبي سعيد. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٣٧ قال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه).

(٣) السجدة / ٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ ؛ أي اصبرْ يا مُحَمَّدُ على تبليغِ الوحي والرسالةِ وعلى ما يلحقُكَ من الأذيَّة من الكفار، والصَّبرُ الجميلُ هو الذي لا جَزَعَ فيهِ ولا شكوَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ ﴾ ؛ أي يرونَ العذابَ بعيداً غيرَ كائن، كما يخبرُ الرجلُ عن شيءٍ فيقولُ: هذا بعيدٌ؛ أي هذا مما لا يكونُ، وَ نحنُ، ﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ ﴾ ؛ أي صَحيحاً كائناً؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائنٌ قريبٌ.

ثم أخبرَ متى يقعُ العذابُ فقالَ تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ ﴾ أي كالصُّفر الْمُذاب، وَقِيْلَ: كَدُرْدِيِّ الزيتِ[1]، وقال الحسنُ: (مِثْلِ الْفِضَّةِ إذا أُذِيبَتْ)، ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ ﴾ ؛ أي كالصُّوفِ الأحمر، وهو أضعفُ الصُّوف، ﴿ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ ﴾ ؛ أي لا يسألُ قريباً عن قرابتِهِ لاشتغالِ كلٍّ بنفسهِ من شدَّة الأهوال.

وقرأ البزيُّ عن ابن كثير (وَلاَ يُسْأَلُ حَمِيمٌ) بضمِّ الياء أي لا يقالُ لحميمٍ: أينَ حَميمُكَ؟ قال الفرَّاءُ: (وَلَسْتُ أشْتَهِي ذلِكَ؛ ضَمَّ اليَّاءِ؛ لأنَّهُ مُخَالِفُ لِجَمَاعَةِ الْقُرَّاءِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ ﴾ ؛ أي يعرفُ الأقاربُ أقاربَهم ساعةً من النهار في ذلك اليومِ، ثم لا تعارُفَ بعد تلكَ الساعةِ، فيُبَصَّرُ الرجلُ حَميمَهُ بعدَ ذلك فلا يُكلِّمهُ. والمعنى: يعرفُ الحميمُ حميمَهُ حتى يعرفَهُ، ومع ذلك لا يسألُهُ عن شأنهِ لشُغلهِ بنفسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ ﴾ ؛ أي يتمنَّى الكافرُ أن يَفدِي نفسَهُ من عذاب الله بأولادِه وزوجتهِ وأخيه. وقولُه تعالى: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ ﴾ ؛ أي

(١) الدَّرْءُ: الدفعُ، وهو ما يستر الزيت من الزبد، أو يخالطه، وهو (الكَعَرُ) بفتحتين، فيقال: دُرْدِيُّ الزيتِ وغيرِهِ ما يَبْقَى في أسفلهِ، وهو آخرهُ وخاثِرهُ. مختار الصحاح (عكر): ص٤٤٨. و(درد) ص٢٠٢.

(٢) قاله في معاني القرآن: ج ٣ ص١٨٤.

وعشيرتهِ الأقربين التي تضُمه ويأوي إليها، وتنصرهُ في المكارهِ والشدائد، ويودُّ أيضاً أن يفتَدِي، ﴿ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ ﴾ ؛ ذلك الفداءُ من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآۖ ﴾ ؛ لا يُنجيه؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا ﴾ ؛ وهي من أسماءِ النَّار، سُميت بهذا الاسمِ من قولهِ: ﴿ لَظَىٰ ١٥ ﴾ ؛ أي توقَدُ، واللَّظَى هو اللَّهَبُ الخالصُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ ﴾ ؛ صفةُ النار؛ أي كثيرةُ النَّزعِ للأعضاءِ والأطرافِ.

والشَّوَى: جمعُ الشَّوَاةِ؛ وهو الطَّرْفُ، وسُمِّيت جِلدَةُ الرأسِ أيضاً بهذا الاسمِ. وفي الحديثِ: [إنَّ النَّارَ تَنْزِعُ قَحْفَ رَاسِهِ فَتَأْكُلُ الدِّمَاغَ كُلَّهُ، ثُمَّ يَعُودُ كَمَا كَانَ، فَتَعُودُ لأَكْلِهِ، فَذلِكَ دَأْبُهَا أبَداً][(١)]. وَقِيْلَ: ارتفعَ قوله (نَزَّاعَةٌ) على إضمار: هي نزاعةٌ للشَّوى؛ تنْزِعُ اليدَين والرِّجلَين وسائرِ الأطراف، فلا تتركُ لَحماً ولا جِلداً إلاّ أحرقتْهُ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ ﴾ ؛ أي تدعُو النارُ من أعرضَ عن الإيمان وتولَّى عن التوحيدِ وأدبرَ عن الحقِّ، فتقول: إلَيَّ يا مشركُ؛ إلَيَّ يا منافقُ؛ إلَيَّ... إلَيَّ، فإنَّ مستقرَّكَ فِيَّ، وَ تدعُو أيضاً من ﴿ وَجَمَعَ ﴾ ، المالَ في الدنيا، ﴿ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨ ﴾ ، أي فجعله في الأوعيةِ، لم يصِلْ بهِ[(٣)] رَحِماً ولا أدَّى فريضةً ولا أنفقَهُ في طاعةِ الله تعالى.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) قرأ عاصم: (نزَّاعةً) بالنصب، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي (نزَّاعةٌ) بالرفع. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٢٨٧؛ وقال: (فمن رفعَ فله خمسة أوجه: أحدها: أن تجعل (لظى) خبر (إنَّ) وترفعُ (نزاعة) بإضمار هي؛ فمن هذا الوجه يحسُنُ الوقف على (لظى). والوجه الثاني: أن تكون (لظى) و(نزاعةٌ) خبران لـ (إنَّ). كما تقول: إنَّه خُلُق مخاصمٌ. والوجه الثالث: أن تكون (نزاعةٌ) بدلاً من (لظى) و(لظى) خبر (إنَّ). والوجه الرابع: أن تكون (لظى) بدلاً من اسم (إنَّ) و(نزاعةٌ) خبر (إنَّ). والوجه الخامس: أن يكون الضمير في (إنَّها) للقصة، و(لظى) مبتدأ و(نزاعةٌ) خبر الابتداء، والجملة خبر (إنَّ). والمعنى أن القصة والخبر (لظى نزاعةٌ للشوى).).

(٣) في أصل المخطوط: (منه) وعلى ما يبدو أن المناسب (به) فأثبتناه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ضَجُوراً شَحِيحاً شديدَ الحرصِ مع قلَّة الصبر، وتفسيرُ الْهُلُوعِ مع ما ذكرَهُ اللهُ تعالى، ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ ، يعني إذا أصابَهُ الفقرُ والشدَّةُ جَزِعَ فلم يصبرْ ولم يحتسِبْ، وإذا أصابَهُ ما يُسَرُّ به من المالِ والسَّعة منعَ خلقَ اللهِ منه ولم يشكُرْ.

وعن ابن عبَّاس أنَّه قال: (الْهَلُوعُ الَّذِي يَرْضَى عِنْدَ الْمَوْجُودِ، وَيَسْخَطُ عِنْدَ الْمَفْقُودِ). وَقِيْلَ: هو الذي يكون نَسَّاءً عندَ النِّعَمِ، دعَّاءً عندَ الْمِحَنِ، وهذا كلُّه إخبارٌ عما خُلِقَ الإنسانُ عليه من جهةِ الطَّبعِ، ثم نَهاهُ عن الجزعِ والمنعِ، يستحقُّ بذلك جزيلَ الثواب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ يعني: فإنَّهم يَغلِبُونَ فرطَ الهلعِ لثِقَتِهِمْ بربهم، وثقتِهم بمقدوراتهِ، والمعنى: إلاَّ المصلِّين الصلواتِ الخمس، ويدُومُونَ عليها ولا يدَعُونَها ليلاً ولا نهاراً. وعن عِمران بن الْحُصَين: أنَّ معناهُ: (هُمُ الَّذِينَ لاَ يَلْتَفِتُونَ فِي صَلاَتِهِمْ يَمِيناً وَلاَ شِمَالاً)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ يعني الزكاةَ المفروضةَ؛ لأن ما لا يكون مَفرُوضاً لا يكون مَعْلُوماً، وقولُهُ تعالى: ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ السائلُ: الطَّوَّافُ الذي يسألُ الناسَ، والْمَحْرُومُ: الذي يُحرَمُ وجوهَ الاكتساب، لا يَسألُ ولا يُعطَى. وعن ابنِ عبَّاس قال: (هُوَ الَّذِي لاَ تَسْتَقِيمُ لَهُ تِجَارَةٌ)(٢). وَقِيْلَ: هو الذي يُسهَمُ له في الغنيمةِ.

وسُئل رسولُ اللهِ ﷺ عن المحروم فقالَ: [هُوَ الَّذِي تُحْمَلُ نَخْلُ النَّاسِ، وَلاَ يُحْمَلُ نَخْلُهُ، وَيَزْكُو زَرْعُ النَّاسِ، وَلاَ يَزْكُو زَرْعُهُ، وَتَلْبَنُ شَاءُ النَّاسِ وَلاَ تَلْبَنُ شَاهُهُ]. ووجهُ استثناءِ المصلِّين والمنفقِين: أنَّ المصلِّين لا يفعلُون ما يفعلهُ الْهَلُوعُ؛ لأنَّهم يؤدُّون حقَّ اللهِ، فإنَّ مُداومتَهم على طاعةِ الله تمنعُهم عن أفعالِ الكفَّار.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٠٧٤) من حديث عقبة بن عامر الجهني.
(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٠٩٤) عن عكرمة قال: (السَّائِلُ الَّذِي يَسْأَلُكَ، وَالْمَحْرُومُ الَّذِي لاَ يُنْمَى لَهُ مَالٌ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) ﴾ ؛ أي خائفون حذرون، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) ﴾ أي لا يُؤمَنُ وقوعهُ بمَن يستحقُّه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ ؛ أي لا يُرسِلُونَها إلاَّ على أزواجِهم الأربعِ أو جَوَاريهِمْ، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ ، أي فإنَّهم لا يُلاَمُونَ على تركِ حفظِ فُروجِهم عن هؤلاء، ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ ، أي فمَن اعتدَى وضَلَّ في استباحةِ الوطءِ طريقاً غيرَ هذين الطَّريقين، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) ﴾ ؛ يتعدَّون الحلالَ إلى الحرام.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) ﴾ ؛ معناهُ: والذين هُم لأَماناتِهم التي ائتُمِنوا عليها في أمرِ الدين، والذين للعَهْدِ الذي بُعِثَ به الأنبياءُ إلى الخلقِ رَاعُونَ، وكلُّ محافظٍ على شيءٍ فهو راعٍ له، والإمامُ رَاعٍ لرعيَّتِه. ويَدْخُلُ في هذه الآيةِ أماناتُ الناسِ فيما بينهم وعهودُهم وعقودهم بينهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) ﴾ ؛ أي الذين يقُومون بأدَائِها على وَجهِها، ولا يكتُمونَها وإنْ كانت على أنفسِهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ ؛ أي يُراعون مواقيتَها وشروطَها وحدودَها.

والفائدةُ في إعادةِ ذكرِ الصَّلاة؛ لتعظيمِ أمرِها وتفخيمِ شأنِها. وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ ؛ معناهُ: الذين استجمَعُوا هذه الخصَالَ في جنَّاتٍ في الآخرةِ مُكرَمين بالتُّحَفِ والهدايَا.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) ﴾ ؛ هذه الآيةُ في المستَهزئين؛ وهم خمسةٌ سَمَّيناهم من قبلُ، كانوا قد جلَسُوا حولَ النبيِّ ﷺ يستَهزئُونَ بالقرآنِ ويكذِّبون به، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ما لَهم ينظُرون إليك، ويجلِسُون عندكَ وهم لا ينتفعونَ بما يسمَعون، والمُهْطِعُ: المُقبلُ على الشَّيءِ ببصرهِ لا يُزيله، وكانوا ينظرون إلى النبيِّ ﷺ نظرةَ العداوةِ غيظاً وحنَقاً. وَقِيْلَ: معنى مُهْطِعِينَ: مُدِيْمِينَ النظرَ متطلِّعين نحوكَ، وهو نُصِبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي عن يَمين النبيِّ ﷺ وشِمالِهِ حِلَقاً حِلَقاً، وجماعةً جماعةً، وعصبةً عصبةً، والعِزِينُ: جماعةٌ في تَفرِقَةٍ، واحدتُها عِزَةٌ، ونظيرُها ثُبَةٌ وثُبين.

وكان هؤلاءِ الكفَّار يقولون: إنْ كان أصحابُ مُحَمَّدٍ يدخُلون الجنةَ، فإنَّا ندخُلها قبلَهم، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ﴾ ، لا يكون ذلك، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مِن المقاذير والأنجاسِ والنُّطَفِ والعَلَق، فأيُّ شيءٍ لَهم يدخُلون به الجنَّة، ومِن حُكمِنا في بني آدمَ أن لاَ يدخُلَ أحدٌ منهم الجنَّة إلاّ بالإيمان والعمل الصالحِ، فماذا يُطمِعُهم في ذلك وهم كفَّار؟ وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الناسَ كلَّهم من أصلٍ واحد، وإنما يتفاضَلُون بالإيمانِ والطاعة.

قرأ الحسنُ وطلحة (يَدْخُلَ) بفتح الياء وضمِّ الخاء، ومعنى: إنَّا خلَقناهم مما يعلَمُون، يعني لا يستوجبُ أحدٌ الجنَّةَ بكونه شَريفاً، فإنَّ مادةَ الخلق واحدةٌ، بل يَستوجِبُونها بالطاعةِ. قال قتادةُ في هذه الآيةِ: (إنَّمَا خُلِقْتَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ قَذرٍ فَاتَّقِ اللهَ)[1]. قال بعضُهم: أنَّى لابنِ آدمَ الكِبَرُ؛ وقد خرجَ من مَخرجِ البول مرَّتين، ثم مِن بطنِ أمِّه متلَوِّثاً بالدَّمِ متلطِّخاً ببولهِ وخرائهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ ؛ معناهُ: فَأُقْسِمُ برب مشارق الشَّمسِ ومغاربها في الشِّتاء والصيفِ، يعني مَشْرِقَ كلِّ يومٍ في السَّنة ومَغرِبَهُ، ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي على أن نُهلِكَهم، ونأتي بخلق أطْوَعَ للهِ منهم، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بمغلُوبين بالفَوْتِ، ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ ؛ أي اترُكْهُمْ يا مُحَمَّدُ يَخوضُوا في بَاطِلهم ويلعَبُوا في كُفرهم، ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ ﴾ ؛ يُعاينُوا، ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ فيه وهو يومُ القيامةِ، فأنتقِمُ منهم بأعمالِهم، وهذا لفظهُ لفظُ الأمرِ، ومعناهُ: الوعدُ. وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ القتال.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١١٠).

قَوْلُـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ ؛ بيـانُ اليـومِ الـذي يُوعَدون، وهو يومُ خروجِهم من القبور سِراعاً نحوَ الدَّاعي، وذلـك حين يسمَعُون الصيحةَ الآخِرة، ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) ﴾ ؛ أي إلى عَلَمٍ منصوبٍ لَهم يُسرِعون ويستبقون إلى موضعِ الحساب.

والأَجْدَاثُ: جمعُ الْجدَثِ وهو القبرُ، وكذلك الْجَدَفُ، والسِّرَاعُ: جمعُ سَريعٍ، والسَّرَائِعُ بمعنى الْمُسْرِعِ، كالأليم بمعنى الْمُؤلِم. والإيفاضُ: الإسراعُ، يقال: وَفَضَ يُوفِضُ؛ وَأَوْفَضَ يُوفِضُ؛ إذا أسرعَ في عَدْوِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ؛ أي يخرُجون من القُبور ذليلةً أبصارُهم تَعْلُوهم مذلَّةٌ وسوادُ الوجوهِ، ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ ؛ فيه العذابَ على الْسِنَةِ الرُّسلِ، فلم يُصدِّقُوهم.

وقرأ زيدُ بن ثابت وأبو الرجاءِ وأبو العاليةِ والحسن وابن عامر (إِلَى نُصُبٍ) بضمَّتين ومعناهُ: الأصنامُ التي كانوا ينصِبونَها ويعبُدونَها ويَذبَحُون تَقرُّباً إليها[1].

آخر تفسير سورة (**المعـارج**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٢١) عن ابن زيد، والأثر (٢٧١٢٢) عن الحسن، والأثر (٢٧١١٤) عن أبي العالية.

سُورَةُ نُـوحٍ

سُورَةُ نُوحٍ عليه السلام مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَـان وَأرْبَعٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمان وَعِشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا كَانَ مِـنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِيـنَ تُدْرِكُهُمْ دَعْوَةُ نُوحٍ عليه السلام][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾ ؛ أي خوِّفهم مـن السُّـخطِ والعذاب إنْ لم يُؤمِنوا بـالله، ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ ﴾ ؛ وهـو الغرقُ بالطُّوفـان، فأتـاهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ ؛ أي رسـولٌ مُخَوِّفٌ بلُغةٍ تعرفونها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ أي أرسـلتُ إليكـم لتعبـدُوا اللهَ وتوَحِّـدوهُ وتـأْتَمِروا بجميـعِ مـا آمرُكـم بـهِ، وتتَّقُـوا سُـخطَهُ وعذابَـهُ، ﴿ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ فيما أُبيِّنهُ لكـم عـن اللهِ تعالى، ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم ﴾ ؛ جـوابُ الأمرِ؛ أي افعلُوا ما أمَرتُكم به يغفِرْ لكُم، ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ ؛ ويزيلُ عقابَهُ عنكم.

ودخول (مِـنْ) في الآيـةِ لتخصيصِ الذُّنـوب مـن سـائرِ الأشـياءِ، لا لتبعيـضِ الذُّنوب كما في قولهِ تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثَـانِ﴾[2]. ويقـالُ: معنـاهُ: نَغفِـرْ لكم من الذُّنوب ما لا تَبِعَةَ لأحدٍ فيه ولا مظلمةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾ ؛ أي يؤخِّرْكم بلا عـذابٍ إلى منتهَى آجالِكم، فلا يصيبُكم غرقٌ ولا شيءٌ من عـذاب الاستئصالِ إنْ آمَنتُم. قَوْلُـهُ

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان:ج ١٠ ص٤٣ عن أبي بن كعب بإسناد واه ضعيف.

(٢) الحج / ٣٠.

تَعالَى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ معناهُ: آمِنُوا قبلَ الموتِ تسلَمُوا من العقوباتِ والشَّدائدِ، فإنَّ أجلَ الموتِ إذا جاءَ لا يمكِنُكم الإيمانُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾؛ أي لو كُنتم تصدِّقُون ما أقولُ لكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾؛ يعني لَمَّا آيَسَ نوحُ من إيمان قومه قال: رب إنِّي دعوتُ قَومِي إلى التوحيدِ والطاعةِ لَيلاً سِرّاً ونهاراً علانيةً، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾، فلم يزدادُوا عندَ دُعائي إيَّاهم إلاَّ تَباعُداً عن الإيمان بالجهلِ الغالب عليهم، ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾؛ إلى طاعتِكَ والإيمانِ بكَ، ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾؛ لئَلاَّ يسمَعُوا صَوتِي، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي غطَّوا بها وُجوهَهم؛ لئَلاَّ يرَونِي، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾؛ على كُفرهم، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ عن قبولِ الحقِّ والإيمان بكَ، ﴿ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾؛ أي مُعلِناً لهم بالدُّعاء وعلا صَوتِي، ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾؛ أي كرَّرتُ الدُّعاءَ مُعلِناً و، ﴿إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾، وسلَكتُ معهم في الدَّعوةِ كُلَّ مَسلَكٍ ومذهبٍ، وتلطَّفتُ لهم كُلَّ تلطُّفٍ، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾؛ للذُّنوب يَجمَعُ لكم من الحظِّ الوافرِ في الآخرة، الخصيب في الدُّنيا والغنَى، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾؛ بالمطر، ﴿مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾؛ كثيرَ الدُّرُور، كلَّما احتجتُم إليه، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾؛ في الدُّنيا بساتين، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾؛ تجرِي على وجهِ الأرض لمنَافِعكم.

وذلك أنَّ الله تعالى كان قد حبسَ المطرَ حتى لم يُبقِ لهم دابَّةً ولا نَباتاً أخضرَ، وأعقمَ أرحامَ النِّساء وأصلابَ الرِّجال حتى لم يكن لهم ولدٌ في مدة سَبع سنين، فوعدَهم نوحُ عليه السلام بردِّ ذلك كلِّه عليهم إنْ آمَنُوا.

والسُّنة في الاستسقاءِ تقديمُ القُرَب والطاعاتِ، والاستكثارُ من الاستغفار كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه: (أنَّهُ خَرَجَ لِلاسْتِسْقَاءِ، فَجَعَلَ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا سَمِعْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ وَمَا رَدَدْتَ عَنِ الاسْتِغْفَارِ ؟ فَقَالَ: لَقَدِ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ

الَّتِي يَسْتَنْزِلُ بهَا الْقَطْرُ، ثُمَّ قَرَأ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً))[١].

وكان بكرُ بن عبدِالله يقولُ: (إنَّ أكْثَرَ النَّاسِ ذُنُوباً أقَلُّهُمُ اسْتِغْفَاراً، وَأكْثَرُهُمْ اسْتِغْفَاراً أقَلُّهُمْ ذُنُوباً). وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهَا قَالَتْ: (طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي مَا لكم لا تخافُونَ اللهِ عظَمةً، وتفعَلُون ما أمَرَكم به تعظيماً له، وترجُون منه بذلك الثوابَ، والمعنى: ما لَكم لا تعلَمُون حقَّ عظَمتهِ فتوحِّدوهُ وتطيعوهُ، وقد جعلَ لكم في أنفُسِكم آيةً تدلُّ على توحيدِه من خَلقهِ إيَّاكم، فقال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ يعني نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم صَبيّاً ثم شَاباً ثم شَيخاً، وقلَّبَكم في ذلك حالاً بعدَ حالٍ، قال ابنُ الأنباريِّ: (الطَّوْرُ: الْحَالُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي مُطبَقَةً بعضُها فوقَ بعضٍ، ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَجْهُهُ فِي السَّمَاءِ وَقَفَاهُ فِي الأَرْضِ)[٣]، فالقمرُ وإنْ كان في السَّماء الدُّنيا، فإنَّما يلِي السَّمواتِ منه يُضِيءُ لهم، وما يلِي الأرضَ منه يضيءُ لأهلِ الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي سِرَاجاً للعالَم يُبصِرُون بها منافعَ دُنياهم، كما أنَّ المصباحَ سراجُ الإنسانِ في البيتِ الْمُظلِمِ، قال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٣٢).

(٢) في كنز العمال: الحديث (٢٠٨٨)؛ قال المتقي الهندي: (أخرجه ابن ماجة عن عبدالله بن بُسر، وعن عائشة أخرجه أحمد في الزهد موقوفاً). وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ١٠ ص٣٩٥ عن عائشة مرفوعاً. والخطيب في تاريخ بغداد: ج ٩ ص١١٢: الترجمة (٤٧١٧). وأخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب الاستغفار: الحديث (٣٨١٨) عن عبدالله بن بسر بإسناد صحيح.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه عن ابن عباس). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩١٠)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عبدُالله بن عمرَ: (وَجْهُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِلَى السَّمَوَاتِ، وَقَفَاهُمَا إِلَى الأَرْضِ، يُضِيئَانِ فِي السَّمَاءِ، كَمَا يُضِيئَانِ فِي الأَرْضِ)[١].

وقيل لعبدِالله بن عمرَ: مَا بَالُ الشَّمْسِ تَعْلُونَا أَيَّاماً وَتَبْرُدُ أَيَّاماً ؟ قَالَ: (إِنَّهَا فِي الصَّيْفِ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَفِي الشِّتَاءِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَلَوْ كَانَتْ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا لَمَا قَامَ لَهَا شَيْءٌ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾؛ يعني مبتدأ خلقِ آدمَ، فهو خُلِقَ من الأرضِ والناسُ أولادهُ، ونباتهُ في هذا الموضعِ أبلغُ من إنباتهِ، كأنه قال: أنبَتُّكم فنبتُّم نباتاً، والنباتُ ما يخرجُ حالاً بعد حال. وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾؛ أي في الأرضِ بعدَ الموتِ، يعني يُقبَرون فيها، ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ ﴾؛ منها، ﴿ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾؛ عند النفخةِ الأخيرةِ للبعث.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي فرَشَها وبسَطَها لكم كهيئَةِ البساطِ، تستقرُّون عليها وتتصرَّفون فيها، جعلَها الله لكم كذلك؛ ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ طُرقاً بيِّنةً واسعةً، قال ابنُ عبَّاس: (أَرَادَ بِالْفِجَاجِ الطُّرُقَ الْمُخْتَلِفَةَ)[٣] والفجُّ: الطريقُ بين الجبلَين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾؛ أي لم يُجيبوا دعوتِي، ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي واتَّبعُوا السفهاءَ والفقراء والرؤساءَ والكُبراءَ الذين لم تزدهُم كثرةُ الأموالِ والأولاد إلاّ ضَلالاً في الدينِ وعقوبةً في الآخرةِ. والمعنى: أنَّ نوحاً عليه السلام قالَ: يا رب إنَّهم عصَونِي فيما أمرتُهم به ودعوتُهم إليه، واتَّبعوا رُؤسَاءَهم وكُبراءَهم، بسببِ الكثرة والثروةِ، وكانوا يصرفون سفلَتَهم عن دينِ الإسلامِ. وَالْوُلْدُ وَالْوَلَدُ مِثْلُ الْقُرْبُ وَالْقَرَبُ وَالْعُجْمُ وَالْعَجَمُ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٤٨).

(٢) ذكره ابن عطية في التفسير: ج ٣ ص١٩٠٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٥١).

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠٦؛ قال القرطبي: (وقرأ أهل المدينة والشام وعاصم:=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مَكْراً عَظيماً، والكَبيرُ والكُبَّارُ بمعنىً واحدٍ، ومَكرُهم الكبيرُ إعظامُ القُربَةِ على الله تعالى، وتوصيةُ بعضِهم بقولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؛ أي لا تدَعُوا عبادةَ أصنامِكم. وَقِيْلَ: مكرُهم الكبيرُ: أنَّهم جرُّوا سفلتَهم على قتلِ نوح الطَّيْلاً، قرأ ابنُ مُحَيْصِن وعيسى (كُبَارا) بالتخفيف(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ، أي لا تدَعُنَّ عبادةَ أصنامكم، ولا تدَعُنَّ عبادةَ وُدّاً ولا سُوَاعاً ويغوثَ ويعوقَ ونَسْراً، هذه خمسةُ أصنامٍ لَهم كانوا يَعبُدونَها ويقدِّمونَها على غيرِها.

فلما جاءَ الغرقُ اندفنَتْ تلك الأصنامُ، وكانت مدفونةً إلى أن أخرجَها الشيطانُ لِمُشركي العرب، فوقعَ كلُّ صنمٍ منها في أيدِي قومٍ، فاتَّخذت قُضَاعَةُ وُدّاً يعبدونَها بدَومَةِ الْجَنْدَلِ، ثم توارَثُوها إلى أن جاءَ الإسلامُ، وهي عندَهم. وكان سُوَاعُ لِـهُذيلٍ، وكان يغوثُ لِبَنِي غُطَيفٍ من مراد، وكان يعوقُ لكَهْلاَنَ، ونَسْرٌ لخثعم(٢)، وأما اللاَّتُ لثَقِيفَ، والعُزَّى لسُلَيم وغطَفَانَ وجَشم وسَعدٍ ونَضرِ بن بكرٍ. ومناةُ لقديد، وأسافُ ونائلةُ وهُبَلُ لأهلِ مكَّة، فكان أسَافُ حيالَ الحجرِ الأسود، ونائلةُ حيالَ الرُّكنِ اليمانِيِّ، وهُبَلُ في جوفِ الكعبة، ثمانيةَ عشرَ ذِراعاً. قال الواقديُّ: (كَانَ وُدٌّ عَلَى صُورَةِ فَرَسٍ، وَنَسْرُ عَلَى صُورَةِ نَسْرٍ مِنَ الطَّيْرِ). قرأ نافعُ (وُدّاً) بضمِّ الواو، وقرأ الباقون بفتحِها وهما لُغتان.

=(وَوَلَدُهُ) بفتح الواو، والباقون (وُلْدُهُ) بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة فيا لولد) والمراد: أن إفراده وجمعه بلفظ واحد. فهذا قصده والله أعلم.

(١) في المخطوط: (ابن حصين). وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص٣٠٧؛ قال القرطبي: (وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد (كُبارا) بالتخفيف).

(٢) في المخطوط: (لجيعم).

(٣) ابراهيم / ٣٦ .

(٤) هود / ٣٦ .

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ ؛ أي أضَلَّ الأصنامُ كثيراً يعني ضَلُّوا بسببها لقوله تعالى ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾[1]، والمعنى: قد ضَلَّ كثيرٌ من الناسِ بهذه الأصنام، وإنما أضافَ الضَّلال إلى الأصنام؛ لأنَّها كانت سببَ ضَلالَتِهم. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ هذا دعاءٌ عليهم بعذابٍ، أعلمهُ اللهُ أنَّهم لا يُؤمنون وهو قوله تعالى ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[2]، والمعنى: لا تُزدهُم إلاَّ خُسراناً وهلاكاً، وإنما لم يُصْرَفْ (وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ) لأنَّهما ضارَعَا الأفعالَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ ؛ أي من أجلِ خطَاياهم أغرِقُوا في الدُّنيا فأُدخلوا بذلك الغرق ناراً، وفي هذا دليلٌ على عذاب القبرِ، لأنَّ حرفَ الفاءِ للتعقيب، فاقتضَى أنَّهم نُقِلُوا عقيبَ الغرقِ إلى النار، والكافرُ إنَّما يدخلُ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ، وخطاياهم في هذهِ الآيةِ الكفرُ. و(ما) ها هنا صِلَةٌ، والمعنى: مِن خطايَاهم؛ أي من أجلِها وسببها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فلم يجِدُوا لأنفسهم من دونِ الله أحداً فيَنْصُرَهُمْ ولا يمنعَهم من عذاب اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ روَى قتادةُ أنه قال: (مَا دَعَا نُوحُ بهذِهِ الآيَةِ إلاَّ بَعْدَ أنْ نَزَلَ عَلَيْهِ أنَّهُ ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾). والدَّيَّارُ: متَّخِذُ الدار وسَاكنُها، فعَمَّ اللهُ جميعَ أهلِ الأرضِ بالهلاك بدُعائهِ، غيرَ عِلْجٍ[3] فإنه غير عِلْجٍ[4] إلى زمانِ موسَى عليه السلام؛ لأنه لم يتَّخِذْ دَيراً ولا سكنَ الدارَ، ويقالُ: ما بالدار دَيَّارٌ؛ أي أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ ؛ أي إنَّكَ إن تترُكهم على وجهِ الأرض ولا تُهلِكهم يُضِلُّوا عبادَكَ عن دينِك، ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا ﴾ ؛ أي خَارجاً عن طاعتِك، ﴿ كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ لنعمَتِك، أخبرَ اللهُ تعالى نُوحاً عليه السلام أنَّهم لا يلِدُونَ مُؤمناً أبداً.

---

(١) عِلج: العِلْجُ بوزن العِجْل: الواحد من الكفار العَجَم. مختار الصحاح: ص٤٤٩.
(٢) (غير علج) هكذا في المخطوط بوضوح، وعلى ما يبدو أن هناك سقط أو تحريف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ ؛ يعني أبـاهُ لاَمِكُ بْـنُ متوشـلخ، وأمَّهُ شَخْمَاءُ بنت أنوشَ، وكانا مُؤمِنين، ولذلك استغفرَ لهما، وقولهُ تعـالى: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ ؛ أرادَ ببيتهِ هنا السَّفينةَ، وَقِيْلَ: مسجدَهُ، وَقِيْلَ: دارَهُ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ عـامٌّ في كـلِّ مَـن آمَـنَ وصـدَّقَ الرُّسـلِ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ والتَّبـارُ: الهـلاكُ والدَّمَارُ، ولذلك سُمي المكسورُ مُتَبَّراً، وقد جَمَعَ نوحٌ بين دعوَتين، دعوةٌ على الكفار، ودعوةٌ للمؤمنين، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ على الكفَّـار فأهلكَـهم، ونرجُـو أن يسـتجيبَ دعاءَهُ في المؤمنين.

آخر تفسير سورة (نــوح) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْجِـــنِّ

سُورَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانُمِائَةٍ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَخَمْـسٌ وَثَمَـانُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِيَ بعَـدَدِ كُـلِّ جِنِّـي وَشَـيْطَانٍ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وكَذبَ بهِ عِتقَ رَقَبَةٍ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ السماءَ لم تكن تُحرَسُ فيما بين عيسَى ومُحَمَّـدٍ صَلَـوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً نبيَّنا حُرست السماءُ ورُميتِ الشياطين بالشُّـهب، فلم يبقَ صنمٌ إلاّ خرَّ لوجههِ.

فقال إبليسُ للجنِّ: لقد حدثَ في الأرضِ حَدَثٌ لم يحـدُثْ مثلَـهُ، ولا يكـون هذا إلاَّ عند خروجِ نبيٍّ، ففرَّقَ جُندَهُ في الطلب وأمرَهم أن يضربوا مشـارقَ الأرضِ ومغاربَها، وبعثَ تسعةَ نفرٍ من أشرافِ جنِّ نصيبين إلى أرضِ تُهامة، وكـان رئيسُـهم يسمَّى عمرواً، فلما انتهوا إلى بطنِ نخلةَ وجَدُوا النبيَّ ﷺ قائماً يُصلِّي بأصحابهِ صلاةَ الفجرِ.

فلمَّا سمِعُوا القرآنَ رقَّت له قلوبُهم، ودنَا بعضُهم من بعضٍ حُبّاً للقرآن حتى كَادُوا يتساقَطون على النبيِّ ﷺ وهو لا يعلم، وقالُوا: هذا الذي حَالَ بينَنا وبينَ خبرِ السَّماء، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْـتَمِعُونَ الْقُـرْآنَ﴾[2]

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٤٩، وإسناده ضعيف، بل واهٍ.

(٢) الأحقاف / ٢٩.

فآمَنُوا بالنبيِّ ﷺ ورجعُوا إلى قومِهم مُنذرين، ولم يأْتُوا إبليسَ[(١)].

وقالوا لقَومِهم: (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) أي بَليغاً ذا عَجَبٍ يُعجَبُ من بلاغتهِ وحُسنِ نظْمِهِ، ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ ؛ أي يَدعُو إلى الصَّواب من التوحيدِ والإيمان، ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ ؛ وصدَّقنَا به أنَّهُ مِن عندِ الله، ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ ؛ مِن بعدِ هذا اليومَ، كما أشركَ إبليسُ.

فاستجابَ لهم جماعةٌ من الجنِّ فجَاءوا بهم إلى النبيِّ ﷺ، فأقرَأهُم القرآنَ فآمَنُوا به، وقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ الأَرْضَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجْلٌ لَيْسَ لَنَا فِيْهِ شَيْءٌ، فَقَالَ ﷺ: [لَكُمُ الرَّوْثُ وَكُلُّ أرْضٍ سَبْخَةٍ تَنْزِلُونَ بِهَا تَكُونُ مُكَلَّبَةً لَكُمْ، وَلَكُمُ الْعَظْمُ، وَكُلُّ عَظْمٍ مَرَرْتُمْ عَلَيْهِ تَجِدُونَ عَلَيْهِ اللَّحْمَ حَيْثُ يَكُونُ][(٢)].

ثُم يُكرَهُ أن يُستَنجَى بالعظمِ والرَّوثِ. ثم انصرَفتِ الجنُّ عنه، فأوحَى اللهُ إليه بهذه الآياتِ لبيان أنَّ الجنَّ لَمَّا ظهرَ لهم الحقُّ اتبعوهُ، فالإنسُ أولى بذلك لأنَّهم ولدُ آدمَ، فكان المخالفُ منهم ألْوَمَ.

ومعنى الآيةِ: قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: أوحِيَ إلَيَّ أنه استمعَ إلى القرآن طائفةٌ من الجنِّ، فلمَّا رجعُوا إلى قومِهم قالُوا: يا قومَنا (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ برَبنَا أحَداً) بعدَ هذا اليومِ؛ أي لا نتَّبعُ إبليسَ في الشِّركِ، ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾ ؛ هذا من قولِ الجنِّ لقَومِهم، معطوفٌ على قولهِ (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) وإنَّهُ تعالَى جَدُّ ربنا وعظَمتهُ عن أنْ يتَّخِذ صاحبةً أو ولداً، وهذا كما يقالُ: فلانٌ أعظمُ وأجَلُّ مِن أن يفعلَ كذا وكذا،

---

(١) أصله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج١٢ ص٤١-٤٢: الحديث(١٢٤٤٩). والطبري في جامع البيان: الحديث(٢٧١٦٧). ومخرج في الصحيحين أيضاً عند البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب الجهر بقراءة صلاة الفجر: الحديث (٧٧٣)، وفي تفسير سورة الجن: الحديث (٤٩٢١).

(٢) جزء من حديث طويل، عن ابن مسعود في القراءة على الجن، أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الجهر بالقراءة في الصبح: الحديث (١٥٠/ ٤٥٠). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: باب تفسير سورة الأحقاف: الحديث (٣٢٥٨) وقال: حديث حسن صحيح.

فالْجَدُّ: الْعَظَمَةُ، وقال الحسنُ: (مَعْنَى الْجَدِّ فِي هَذِهِ الآيَةِ الْغِنَـى)(١) ومنـهُ قولهـم في الدُّعاء:[وَلاَ يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ] أي لا يَنْفَعُ ذا الغِنَى منكَ غناهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ والمـرادُ بالسَّفيه في هذه الآيةِ إبليسَ، وَقِيْلَ: مَن كان لا يؤمنُ من الجنِّ، وسَفَهُهُ أنْ جعـلَ للهِ صاحبةً وولداً. والشَّطَطُ: السَّرَفُ في الخروجِ عن الحقِّ، وسُـمي القـولُ البعيـدُ مِـن قولهم: شَطَطَتِ الدَّارُ إذا بَعُـدَتْ. وَقِيْـلَ: الشَّـطَطُ: الكـذبُ والجـورُ، وهـو وصفـهُ بالشريكِ والولدِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي قالتِ الجنُّ: إنا ظنَنَّا أنَّ الإنسَ والجـنَّ كـانوا لا يكذِبُـون علـى اللهِ بـأنَّ لـه شَـريكاً وصاحبةً وولداً حتى سَمعنا القرآنَ وتبَيَّنا الحقَّ منه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ أهلَ الجاهليةِ كـانوا إذا نزَلُـوا بـوادٍ،أو بـأرضٍ فأمْسَـوا هنالكَ، قالوا: نعوذُ بسيِّد هذا الوادِي من سُـفهاء قومـهِ، أرادُوا بذلـك سـيِّدَ الجـنِّ، فَيَبيتُون في جوارٍ منهم يحفظونَهم حتى يُصبحوا، وقالتِ الجنُّ: قد سُدْنا الجنَّ والإنسَ حتى بلغ سؤدَدُنا الإنسَ فزادَهم تعوُّذِ الإنسِ لَهم رهَقاً؛ أي كِبْراً وعظَمةً في نُفوسِهم وسَفَهاً وطُغياناً وظُلماً.

وعن كَرْدَم بن أبي السَّائب الأنصاريِّ(٢) قال: (خَرَجْتُ مَعَ أبـي إلَـى الْمَدِينَـةِ وَآوَانَا الْمَبيت إلَى رَاعِي غَنَمٍ، فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ جَـاءَنَـا ذِئْـبٌ فَـأخَذَ حَمَـلاً مِـنَ الْغَنَمِ، فَوَثَبَ الرَّاعِي فَنَادَى: يَا عَامِرَ الْوَادِي جَارُكَ! فَنَادَى مُنَادِياً لاَ نَرَاهُ: يَا سَرْحَانَ أرْسِلْهُ. فَأتَى الْحَمَلُ يَشْتَدُّ حَتَّى دَخَلَ بَيْنَ الْغَنَمِ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧١٧٧).

(٢) في المخطوط: (كرم بن السائب)، والصحيح كما أثبتناه. ترجـم لـه ابـن حجـر في الإصابـة في تمييز الصحابة: الرقم(٧٣٩٤). وابن عبدالبر في الاستيعاب: الرقم(٢٢٠٨) وذكره (كـردم بـن أبي السنابل الأنصاري). واختلفوا باسمه وصحبته، والغالب أنه ممـن لحق بالصحبـة صغـيراً، وتابع الصحابة وأخذ عنهم، والله أعلم.

رَسُولِهِ بِمَكَّةَ (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً))[1]. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي زَادُوهُمْ بِهَذا التَّعَوُّذِ طُغْيَاناً حَتَّى قَالُوا: سُدْنَا الإِنْسَ وَالْجِنَّ). والرَّهَقُ في كلامِ العرب: الإثْمُ وغَشَيَانُ الْمَحارِمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ كفارَ الجنِّ ظَنُّوا كما ظَنَنتم يا أهلَ مكَّة، أنْ لَن يبعثِ اللهُ رسولاً، ويقال: أنْ لَنْ يبعثَ اللهُ أحداً من قبرِهِ بعدَ الموتِ. والمعنى: أنَّهم كانوا لا يُؤمنون بالبعثِ، كما أنَّكم أيُّها المشركون لا تُؤمنون.

قالتِ الجنُّ: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾؛ هذا إخبارٌ ((عن))[2] قول الجنِّ الذين سَمعوا القرآنَ وآمَنُوا بهِ ورجَعُوا إلى قومِهم مُنذرين. والمعنى: إنَّا صعَدْنا السَّماءَ وأتيناها للطَّلب كما كُنَّا نسمعُ إلى الملائكةِ من قبلُ، فوجَدْناها مُلِئَتْ حَفَظَةً أقوياءَ من الملائكةِ، ونِيراناً مُضيئةً يَرمُون بها إلينا ويَزجُرونا عن الاستماعِ. والْحَرَسُ: جمعُ الْحَارسِ وهو الحافظُ. والشُّهُبُ: جمعُ الشِّهاب، وهو الشعاعُ الذي يحدُث من النجمِ ويستنيرُ في الهواءِ، تُسميه العامَّة: الكوكبُ المنقضُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾؛ رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (لَمْ تَكُنْ قَبيلَةٌ مِنَ الْجِنِّ إلاَّ وَلَهَا مِنَ السَّمَاءِ مَقَاعِدُ لِلسَّمْعِ، فَكَانَ إذا نَزَلَ الْوَحْيُ سَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ صَوْتاً كَصَوْتِ الْحَدِيدَةِ أُلْقِيَتْ عَلَى الصَّفَا، فَإذا سَمِعَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ خَرُّوا لَهَا سُجَّداً، ثُمَّ تَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَإنْ كَانَ مِمَّا يَكُونُ فِي السَّمَاءِ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَإذا كَانَ مِمَّا يَكُونُ فِي الأَرْضِ مِنْ عَيْبٍ أوْ مَوْتٍ تَكَلَّمُوا بِهِ، فَتَسْمَعُهُ الشَّيَاطِينُ فَيَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى أوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ. فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ زُجِرُوا بِالنُّجُومِ) فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٩٨؛ قال السيوطي: (وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في الضعفاء والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن عساكر عن كردم بن أبي السائب ﷺ...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٩٠٠٢).

(٢) (عن) سقطت من المخطوط.

﴿ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾ ؛ أي مَن يحاولُ الاستماعَ الآنَ يجِدْ لـه كوكباً قـد أرصِدَ له يَرميهِ بنارهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّهم قالوا: لا ندري أنَّا رُمينا بالشُّهب أنَّ اللهَ تعالى أرادَ إنزالَ العذاب بالناس لمعاصِيهم، أو أرادَ بعثَ الرسول ﷺ، وذلك أنَّ السماءَ لم تُحرَسْ قطُّ إلاَّ لنبوَّةٍ، أو لعُقوبَةٍ عاجلةٍ عامَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي منَّا الْمُطِيعونَ له في أمرهِ ونهيهِ، ومنَّا أهلُ المعاصي، ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ ﴾ ؛ أي كنا أهلَ مُلـكٍ شتَّى مؤمنين وكافرين. وَقِيْلَ: كنَّا جماعاتٍ متفرِّقين وأصنافاً مختلفةً. والقِدَّةُ: القطعـةُ من الشَّيءِ، يقـالُ: صـارَ القـومُ قِـدَداً إذا تفرَّقـت حالاتُـهم، قـال الحسـنُ: (الْجِـنُّ أمْثالُكُمْ، مِنْهُمْ مُرْجِئَةٌ وَقَدرِيَّةٌ وَرَافِضيَّةٌ وَشيعَةٌ)[1].

وقال الأخفشُ: (مَعْنَى قَوْلِهِمْ (كُنَّـا طَرَائِـقَ) أيْ ضُرُوبـاً). وقـال أبـو عُبيـد: (أصْنَافاً)، وقال المؤرج[2]: (أجْناساً). وقال ابـنُ كَيسـان: (شِـيَعاً وَفِرَقـاً لِكُـلِّ فِرْقَـةٍ هَوًى). وقال ابنُ المسيَّب: (كُنَّا مُسْلِمِينَ وَيَـهُوداً وَنَصَـارَى). ويقـال: فـلانٌ طريقـةُ قومهِ؛ أي سيِّدٌ مُطَاعٌ فيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي إنَّـا عَلِمنَـا أنْ لن نُعجِزَ اللهَ في الأرضِ إذا أرادَ بنا أمْـراً، ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ ﴾ ؛ أي إنَّـهُ يُدركُنا حيث كُنَّا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ ؛ أي لما سَـمِعنا القرآنَ آمَنَّا به؛ وصدَّقنا أنه مـن عنـدِ الله، ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا ﴾ ؛ أي لا يخافُ نُقصَاناً من ثواب عملـهِ، ﴿ وَلَا رَهَقًا ۝١٣ ﴾ ؛ أي ولا ظُلمـاً ولا مكرُوهاً يخشاهُ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٥ ذكره القرطبي وعزاه عن السدي.

(٢) في المخطوط: (المؤرخ) والصحيح (المؤرج) وسيأتي ذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ ؛ أي ومنَّا الجائِرُون الظَّالمون، قال ابنُ عبَّاس: (الْقَاسِطُونَ هُمُ الَّذِينَ جَعَلُوا للهِ نِدّاً)، فالقاسِطُ: هو العادِلُ عنِ الحقِّ، والْمُقْسِطُ: هو الْمُعْدِلُ إلَى الحقِّ، ونظيرهُ: تَرِبَ الرجلُ إذا افتقرَ، وأتْرَبَ إذا استغنَى، فالأولُ هو الذي ذهبَ مالهُ حتى قعدَ على التُّراب، والثاني كثُرَ مالهُ حتى صارَ كالتُّراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ ؛ معناهُ: فمَن أخلصَ بالتوحيدِ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي العادِلُون عن طريقةِ الإسلام، فأولئك بمنْزِلةِ الْحَطَب في النار تشتعلُ النارُ في أبدانِهم، إلى هُنا كلامُ الجنِّ وانقطعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أوحَى إلَي أنه لو استقامَ أهلُ مكَّة على طريقةِ الهدى، لوسَّعنا عليهم أرزاقَهم بالمطرِ والنباتِ والماء. والغَدَقُ: الكثيرُ، قال مقاتلُ: (معناهُ: لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً كَثِيراً مِنَ السَّمَاءِ بَعْدَ مَا رُفِعَ عَنْهُمُ الْمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ) ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[(١)]، وقولهُ تعالى: ﴿لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[(٢)]، ويقالُ: مكانٌ غَدِقٌ بكسر الدالِ إذا كان كثيرَ النَّدَا، وعيشٌ غَدِقٌ أي واسعٌ، والغَدَقُ بفتحِ الدال مصدرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ؛ أي لنتعبَّدَهم بالشُّكر، وذهبَ الكلبيُّ إلى أنَّ معنى الآية لَو اسْتَقامُوا على طريقةِ الكُفر والضَّلال فكانُوا كُفَّاراً كُلُّهم لأعطَيناهم ماءً كَثيراً ووسَّعنا عليهم وأرغدنا عَيشهم لنَفْتِنَهُمْ فيهِ عقوبةً لهم واستدراجاً حتى يُفتَنوا بهذا فنعذِّبَهم، قال عمرُ ﷺ:(أيْنَ مَا كَانَ الْمَالُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ)[(٣)] ودليلُ هذا

---

(١) الأعراف / ٦٠.

(٢) المائدة / ٦٦.

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٥٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٨. وتمامه: (أينما كان المالُ كان المالُ، وأينما كان المال كانت الفتنةُ).

التأويلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)]. والقولُ الأوَّلُ أولى؛ لأنَّ الطريقةَ معرَّفَةٌ بالألفِ واللاَّمِ، ولا تُذكَرُ الاستقامةُ إلاَّ على الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾؛ يعني مَن يُعرِضْ عن القرآنِ نُدخِلْهُ عذاباً شاقّاً ذا صَعَدٍ؛ أي ذا مشقَّةٍ، والصَّعَدُ: الشَّاقُّ الشديدُ، ومنه قولُهم: تنفَّسَ الصُّعَداءَ، وفي الحديثِ:[صَخْرَةٌ مَلْسَاءُ فِي جَهَنَّمَ يُكَلَّفُ الْكَافِرُ صُعُودَهَا، يُجْذَبُ مِنْ لِقَامِهِ بالسَّلاَسِلِ، وَيُضْرَبُ مِنْ خَلْفِهِ بالْمَقَامِعِ، فَإذا انْتَهَى إلَى أعْلاَهَا وَلاَ يَبْلُغُهُ فِي أرْبَعِينَ سَنَةٍ، فَإذا بَلَغَ أعْلاَهَا أُحْدِرَ إلَى أسْفَلِهَا، فَكَانَ دَأبُهُ هَذا أبَداً][(٢)]. ويقالُ: سلكتُ الشَّيءَ أو أسلَكْتُهُ بمعنى واحدٍ وهو الإدخالُ. قرأ كوفي ويعقوب (يَسْلُكْهُ) بالياءِ، وقرأ مسلمُ بن جُندب (نُسْلِكْهُ) بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ اللامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾؛ يعني هذهِ المساجدَ الْمَعْلُومَةَ لم تُبْنَ إلاَّ لذكرِ اللهِ، فلا تدْعُو مع اللهِ فيها أحَداً غيرَ اللهِ كما تدعُو النَّصارى في بيَعِهم، وكما دعَا المشركون في كَعبَةِ ربهم، وعن الحسنِ قالَ: (مِنَ السُّنَّةِ أنَّهُ إذا دَخَلَ الْمَسْجِدَ أنْ يَقُولَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ لاَ أدْعُو مَعَ اللهِ أحَداً). وَقِيلَ: إنَّ المساجدَ ما يسجدُ الإنسانُ عليهِ من جَبهَتِهِ ويدَيه وصُدور قدمَيهِ، فلا تضَعُوا هذه الآرابَ[(٣)] في الترابِ لغيرِ خالِقها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾؛ معناهُ: وأنَّهُ لَمَّا قامَ النبيُّ ﷺ يدعُو اللهَ ويقرأ القرآنَ في الصَّلاة ببَطنِ نخلةٍ بين مكَّة والطائف إذ أتَى تسعةٌ من الجنِّ، ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾، أي كادُوا يَسقُطون عليه رغبةً في القرآنِ وتعجُّباً منه وحُبّاً لاستماعه.

---

(١) الأنعام / ٤٤.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠؛ قال القرطبي: (وقال عكرمة) ثم ساقه عن الكلبي وقال: (يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد...).

(٣) في المخطوط: (الآداب) والمناسب الآراب، وهي (الأعضاء) كما في قول طلق بن حبيب. ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠.

ومعنى (لِبَداً) كاد يركبُ بعضُهم بَعضاً في الازدحامِ، وقرأ (لُبَداً) وهي قـراءةُ مجاهد، فهي بمعنى الكثيرِ من قوله ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾[1]، وقال الحسنُ وقتادة: (لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلَبَّدَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أنْ يُطْفِئُـوا نُـورَ اللهِ، فَـأَبَى اللهُ إلاَّ أنْ يَنْصُرَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ)[2].

ويقالُ: لَمَّا قامَ ﷺ في عبادتهِ بمكَّة، كـادَ مُشركو مكَّـة بشـدَّة كَيدِهـم لـه أن يكُونوا عليه مُتكاتِفِينَ بعضهم فوقَ بعضٍ ليُزيلوهُ بذلك عن دعوتهِ إلى اللهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي قـال النبيُّ ﷺ لأهلِ مكَّة حيث قالوا له: إنَّكَ جئتَ بأمرٍ عظيم فارجِعْ عنهُ، فقـال: (إنَّمَـا أدْعُوا رَبي) أي أعبدُهُ وأدعُوا الخلقَ إليهِ (وَلاَ أشْرِكُ بهِ أحَداً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي قُل لأهلِ مكَّة: لا أملكُ تغييرَ نِعَمِ اللهِ عليكم، ولا أجبرُكم على العبـادةِ، ولا يَملِـكُ ضُرَّكـم ورُشدَكم إلاَّ اللهُ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ ؛ وإنما أنـا عبـدٌ خـاضع، إنْ غَضِـبَ فـلا مُجِـيرَ لي ولا نـاصرَ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مُدْخَلاً في الأرضِ، ولا مَلجأ ألجأُ إليه، ولا حَوْزاً أقبلُ إليهِ. واشتقاقُ الْمُلْتَحَدِ مـن اللَّحْدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ ؛ أي لا يُنجِيني مـن عـذاب اللهِ إلاَّ أن أبلِّغَ عن اللهِ ما أرسلتُ به، وبذلك أرجُو النجاةَ، ونيلَ الكرامـةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ معنـــاهُ: ومَن يعصِ اللهَ ورسولَهُ من الأممِ بعدَ البلاغِ فلم يُؤمِنْ، فإنَّ له نارَ جـهنَّم. جـوابُ الشرط بالفاءِ ولذلك لا يجوزُ بالكسرِ (خَالِدِينَ فِيهَا) نُصِبَ على الحالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ، والعربُ تَبتَدِئُ بـ (حتى) والمعنى: إذا رأى الكفارُ الذين يستطِيلُونَ على النبيِّ ﷺ العذابَ إمَّا في الدُّنيا

---

(١) البلد / ٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٣٥) عن قتادة.

أو في الآخرةِ، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ ؛ عندَ ذلـك، ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي مَن أضعفُ مَانِعاً وأقلُّ جُنداً، اهُمْ أم المؤمنون ؟

فلمَّا سَمِعوا هذا قال النَّضِرُ بنُ الحارثِ: متَى هـذا الوعـدُ الـذي تَعِدُنـا بـهِ؟ فأنزلَ اللهُ: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ؛ من العذاب؛ أي ما أدري أقريبٌ هذا العذابُ، ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي غايةً وبُعـداً، قـال عطـاءُ: (يَعْنِي أنَّهُ لاَ يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ إلاَّ اللهُ تَعَـالَى وَحْدَهُ) وهـو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يُطلِـعُ علـى غَيبـهِ أحَـداً مـن خلقهِ، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ؛ فإنه إذا أرادَ إطْلاعَهُ بالوحيِ على ما يشاءُ على الغيب، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ، أي جعـلَ مِـن بين يدَي الرسول ومِن خلفه حَفَظَةً من الملائكةِ ليُحِيطُوا بـه، ويَحفَظُونـهُ، ويحفظُـوا الوحيَ مِن أن تَسْتَرِقَهُ الشياطينُ، فتُلقِيَهُ إلى الكهنَةِ.

وذلك أنَّ اللهَ تعالى كان إذا أنْزلَ جبريلَ بالوحيِ على النبيِّ ﷺ، أرسلَ ملائكةً يُحيطون به وبالنبيِّ ﷺ حتى يفرغَ من وجهـهِ، كَيْـلاَ يَقـرُبَ منه شـيطانٌ ولا جـانٌّ يَذهبون به إلى كهَنتِهم حتى يكون النبيُّ ﷺ أوَّلَ مَن تكلَّمَ به؛ ليكون ذلك دَليلاً على نُبوَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أي ليَعلَم مُحمَّدٌ ﷺ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغُوا رسالاتِ ربهم، وأنَّ الرسالةَ لَمْ تصِلْ إلى غيرهِ. وَقِيْلَ: ليعلمَ الجنُّ والإنس أنَّهم قد أبلِغُوا. وفي قراءةِ ابنِ عبَّاس (لِيُعْلَمَ) بضم الياء. وهـذه الآيـةُ تـدلُّ على أنهُ يَعلَمُ بالنجومِ ما يكون من حياةٍ أو مَوتٍ أو غيرِ ذلك، فـهو كـافرٌ بـالقرآنِ وبما فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ ؛ أي أحاطَ عِلمـهُ بمـا عندَهـم، يعـني أحاطَ علمُ اللهِ بما عندَ الرُّسل فلم يَخفَ عليه شيءٌ، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي عَلِمَ عددَ الأشياءِ وأوقاتَها كلَّها مع كثرتِها علـى تفَاصِيلـها، لم يَفُتْـهُ علـمُ شـيءٍ حتى مثاقيلَ الذرِّ والخردلِ.

آخر تفسير سورة (**الجـن**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى...﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَعَدَدُ حُرُوفِ هَذِهِ السُّورَةِ ثَمَانُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَثَلاَثُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ:[مَنْ قَرَأَهَا رُفِعَ الْعُسْرُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ نُودِيَ في حال كَونه مُلتَفِفاً بثيابهِ في بعضِ اللَّيل، وأمِرَ بالقيامِ بالصَّلاة وهُجرَان النوم، والمعنَى: يا أيُّها الْمُتَلَفِّفُ بثيابهِ، يقالُ: تَزَمَّلَ وتَدَثَّرَ بثوبهِ إذا تغطَّى بهِ، وزَمَّلَ غيرَهُ إذا غطَّاهُ.

قال أبو عبيدِالله الجدَلِي[2]: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) مَا كَانَ تَزَمُّلُهُ ؟ قَالَتْ: فِي مُرْطٍ كَانَ طُولُهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ذِرَاعاً، نِصْفُهُ عَلَيَّ وَأَنَا نَائِمَةٌ، وَنِصْفُهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي. فَسَأَلْتُهَا مِمَّ كَانَ؟ قَالَتْ: وَاللهِ مَا كَانَ خَزّاً وَلاَ قَزّاً ولاَ[3] صُوفاً، كَانَ سَدَاهُ[4] شَعْراً وَلُحْمَتُهُ وَبَراً)[5]. قال السديُّ: (مَعْنَاهُ: يَا أَيُّهَا النَّائِمُ قُمْ فَصَلِّ). قالتِ الحكماءُ: إنَّما خُوطِبَ بالمزَّملِ والمدَّثرِ

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب، بإسناد واه.

(٢) هكذا رسمها الناسخ، فهي في المخطوط (الجدلي)، ولعله تصحيف لـ (النخعي).

(٣) في المخطوط: (إلا صوفاً)

(٤) سُداهُ وسَداهُ، قال أبو بكر الرازي: (السُّدى بالضم: الْمُهْمَلُ، يقال: إبل سدى أي مهملة، وبعضهم سَدًى بالفتح. وأسْدَاها أهْمَلَها). مختار الصحاح: ص٢٩٣.

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٣٢؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي).

في أوَّلِ الأمرِ لأنه لم يكُن بلغَ شيئاً من الرسالةِ، ثم خُوطِبَ بعدَ ذلك: يا أيها النبيُّ، يا أيُّها الرسولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ ﴾؛ أي قُمْ للصَّلاةِ؛ أي صَلِّ أكثرَ الليلِ أو قُمْ نصفَ الليلِ أو انقُصْ من النِّصفِ قليلاً، أو انقُصْ من النصفِ، ﴿ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ ﴾، خيَّرَهُ اللهُ تعالى في قيامِ الليلِ في هذه السَّاعات.

قال المفسِّرون: معنى قولِه (نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً) أي انقُصْ مِن النصفِ إلى الثُّلث أو زِدْ على النِّصف إلى الثُّلُثين، جعل له سِعَةً في قيامِ الليل وخيَّرَهُ في هذه السَّاعات، قال الحسنُ: ((فَرَضَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أصْحَابِهِ وَهُمْ بمَكَّةَ أنْ يَقُومُوا بثُلُثِ اللَّيْلِ وَمَا زَادَ)).

سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: ((أمَا تَقْرَأونَ هَذِهِ السُّورَةَ (يَا أيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَتْ: فَإنَّ اللهَ فَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، وَأمْسَكَ اللهُ خَاتِمَةَ السُّورَةِ اثْنَى عَشَرَ شَهْراً، ثُمَّ تَرَكَ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ السُّورَةِ بَعْدَ أنْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأصْحَابُهُ حَوْلاً، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعاً بَعْدَ ذلِكَ))(١).

وَكَانَ قِيَامُهُ فَرْضاً قَبْلَ أن فَرَضَ ((اللهُ)) الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، ولا خلافَ بين المسلمين في أنَّ قيامَ الليلِ مندوبٌ إليه مرغَّبٌ فيه، قال ﷺ: [أحَبُّ الصَّلاَةِ إلَى اللهِ تَعَالَى صَلاَةُ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ. وَأحَبُّ الصِّيَامِ إلَى اللهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً](٢).

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٣١٢؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد ابن نصر في كتاب الصلاة والبيهقي في سننه عن سعد بن هشام) وذكره.

(٢) الحديث مطولاً ومختصراً أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التهجد: باب من نام عند السحر: الحديث (١١٣١)، وأحاديث الأنبياء: الحديث (٣٤٢٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الصيام: الحديث (١٨١/ ١١٥٩) و(١٨٩/ ١١٥٩). وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة، وهو عند الإمام أحمد وعبدالرزاق.

ورُوِي: (أنَّ هَذِهِ الآيَاتِ لَمَّا نَزلَتْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأصْحَابُهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الصَّحَابَةِ لاَ يَدْرِي مَتَى ثُلُثُ اللَّيْلِ وَمَتَى النِّصْفُ وَمَتَى الثُّلُثَان، فَكَانَ يَقُومُ حَتَّى يُصْبحَ مَخَافَةَ أنْ لاَ يَحفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ، حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ وَانْتَفَخَتْ أقْدَامُهُمْ وَتَغَيَّرَتْ ألْوَانُهُمْ، فَرَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَخَفَّفَ عَنْهُمْ، وَنُسِخَ بقَوْلِهِ (عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَرْضَى)، وكَانَ بَيْنَ أوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا سَنَةٌ)[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي بَيِّنْهُ بياناً واقرَأْهُ قراءةً بَيِّنَةً. والتَّرتِيلُ: ترتيبُ الحروفِ على حقِّها في تلاوَتِها بتَبيُّنٍ وتثَبُّتٍ من غيرِ عجلَةٍ، وكذلك التَّرسُّلُ. والمعنى: تفهَّم معانيَهُ، وطالِبْ نفسكَ بالقيامِ بأحكامِهِ. وأما الْحَدْرُ فهو الإسراعُ في القراءةِ، وعن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قال: [كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُول اللهِ ﷺ تَرْتِيلاً] أي تَرَسُّلاً[2]. وقال أبو حمزةَ: ((قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: إنِّي رَجُلٌ فِي قِرَاءَتِي وَكَلاَمِي عَجَلَةٌ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَئِنْ أقْرَأ الْبَقَرَةَ وَأرَتِّلُهَا أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أقْرَأ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾؛ ليس على ثِقَلِ الحفظِ، ولكن قال الحسنُ: ((إنَّهُمْ لَيَهُذُّونَ هَذَاوُهُ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ بـهِ ثَقِيلٌ))[3]. وقال قتادةُ: ((ثَقِيلٌ وَاللهِ فَرَائِضُهُ وَحُدُودُهُ))[4]، وقال مقاتلُ: ((ثَقِيلٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الأَمْرِ وَالْحُدُودِ))[5]. وقال أبو العاليةَ: ((ثَقِيلٌ بالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، فَلاَ يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يُؤَدِّي جَمِيعَ أوَامِرِهِ إلاَّ بتَكَلُّفٍ يَثْقِلُ)).

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٢١٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس) وذكره.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: بأسانيد (٢٧٢٦٨-٢٧٢٧٠) عن الحسن ومجاهد.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٤) بمعناه. والهذُّ: سرعة القراءة. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٤؛ قال السيوطي: (وأخرج العسكري في المواعظ عن علي ﷺ: أن رسولَ اللهِ ﷺ سُئل عن قول الله تعالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال: [بَيِّنْهُ تَبْيِيناً، وَلاَ تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَلاَ تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بهِ الْقُلُوبَ، وَلاَ يَكُنْ هَمُّ أحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ].

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٥).

(٥) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٠٩.

ويقالُ: معناهُ: كَلاماً مُحْكَماً ليس بسَفْسَافٍ كما يقالُ: هذا كلامٌ له وَزْنٌ. وَقِيْلَ: إنما سُمي ثقيلاً لثِقَلِهِ في الميزان مع خفَّته على اللسان، وعن الحسنِ في قولهِ تعالى (إنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) قَال: ((الْعَمَلُ))، وَقِيْلَ: ثقيلٌ لا يحملهُ إلاّ القلبُ المؤيَّدُ بالتوفيقِ ونفسٌ مؤمِنة بتوحيدِه.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: [لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَنْفَصِمُ عَنْهُ، وَإنَّ جَبينَهُ لَيَنْفصُ عَرَقاً][1]. وقالت عائشةُ أيضاً: [إنْ كَانَ لَيُوحَى إلَيْهِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا ﴾؛ معناه: إنَّ القيامَ في ساعاتِ الليل أثقلُ وأشدُّ على القائمِ من القيامِ بالنَّهار؛ لأن الليلَ إنما خُلِقَ للرَّاحة والسُّكون، ففِعْلُ الطاعةِ فيه أشدُّ من فعلِها بالنهار، وقال ابنُ مسعودٍ: ((إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ قِيَامُ اللَّيْلِ)). وقالت عائشةُ: ((النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ))، وعن ابنِ الأعرابيِّ: ((إذا نِمْتَ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قُمْتَ فَتِلْكَ النَّاشِئَةُ)) ومنه ناشئةُ اللَّيل.

وَقِيْلَ: ناشئةُ الليل ساعاتُها كلُّها، وكلُّ ساعةٍ منه فهي ناشئةٌ، سُميت بذلك؛ لأنَّها تُنشِئ، ومنه نشأتِ السَّحابةُ إذا بَدَتْ، وجمعُها ناشِئَاتٌ، وعن حاتم بن أبي صغيرة قال: ((سَأَلْتُ ابْنَ أبِي مُلَيْكَةَ عَنْ نَاشِئَةِ اللَّيْلِ فَقَالَ: عَلَى اللَّبِيبِ سَقَطْتَ، سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَزَعَمَ أنَّ اللَّيْلَ كُلَّهُ نَاشِئَةٌ، وَسَأَلْتُ الزُّبَيْرَ عَنْهَا فَأَخْبَرَنِي مِثْلَ ذَلِكَ))[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: الحديث (٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١١٨. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٦؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة) وذكره. وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩١٩)؛ وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٧٩).

وقال ابنُ جبير: ((أيُّ سَاعَةٍ قَامَ مِنَ اللَّيْلَ فَقَدْ نَشَأ))[(١)]، وقال قتادةُ: ((مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ فَهُوَ نَاشِئَةٌ))[(٢)]. وقال عبيدُ بن عمير لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((رَجُلٌ قَامَ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ أيُقَالُ لَهُ نَاشِئَةٌ؟ قَالَتْ: لاَ؛ إنَّمَا النَّاشِئَةُ الْقِيَامُ بَعْدَ النَّوْمِ)). وقال ابنُ كَيسان: ((هِيَ الْقِيَامُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ)). وعن ابن عبَّاس قال: ((إذا نَشَأْتَ قَائِماً فَهُوَ نَاشِئَةٌ))[(٣)]، وعن مجاهدٍ أنه قالَ: ((إذا قَامَ الإنْسَانُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَصَلَّى فَهُوَ نَاشِئَةٌ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ الأَخِيرَةِ فَهُوَ نَاشِئَةٌ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (هِيَ أشَدُّ وَطْئاً وَأقْوَمُ قِيلاً) أي أثقلُ على المصلِّي من ساعاتِ النَّهار، من قول العرب: اشتدَّت على القومِ وَطْأةُ السُّلطان؛ إذا ثَقُلَ عليهم ما يلزَمُهم، ومنه قولهُ ﷺ: [اللَّهُمْ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ][(٤)].

وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر (وطَئاً) بكسر الواو والمدّ على معنى الْمُوَاطَأةِ والموافقةِ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾[(٥)]، قال ابنُ عبَّاس: ((يُوَاطِئُ السَّمْعُ الْقَلْبَ))، والمعنى: أنَّ صلاةَ ناشئة الليلِ يُواطِئُ السمعُ والقلبُ فيها أكثرَ مما يُواطِئ في ساعاتِ النَّهار؛ لأن الليلَ أفرغُ للانقطاعِ عن كُثُرِ ما يشغلُ بالنهار. ويقال: وَاطَأتَ فُلاناً على كذا مُواطَأةً ووَطْأةً؛ إذا وافقتَهُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾؛ أي أبْيَنُ قَوْلاً بالقرآن، وَقِيلَ: أسترُ استقامةً وأطرَبُ قراءةً، وعبادةُ الليلِ أشدُّ نَشاطاً وألَذُّ إخلاصاً وأكثرُ برَكةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾؛ أي إنَّ لكَ في النهار تصرُّفاً وإقبَالاً وإدبَاراً في حوائجِكَ وأشغَالِكَ، وسِعَةً لتصرُّفكَ وقضاءِ حوائجِكَ، والمعنى: إنَّ لكَ في النَّهار فَرَاغاً للنَّومِ والتصرُّفِ في الحوائجِ، فصَلِّ من الليلِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٨٦).

(٤) تقدم.

(٥) التوبة / ٣٧ .

والسَّبْحُ: التقلُّبُ، ومنه السَّابحُ في الماءِ لتقلُّبهِ بيديهِ ورجليهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ لكَ في النهار تصرُّفاً واشتغالاً في حوائجِكَ حيث لا تتفرَّغُ لصَلاةِ النَّفلِ، فخُذْ حظَّكَ من قيامِ الليل، وكان شُغْلُ النبيِّ ﷺ بالنَّهار ما كان عليهِ من تبليغِ الوحي والرِّسالةِ وتعليمِ الناس الفرائضَ والسُّنَنَ، وقيامهِ بأدائِها وأمور معاشهِ ومعاش عيالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: واذكرِ اسمَ ربكَ بالتوحيدِ والتعظيمِ. ويجوزُ أنْ يكون المرادُ به الذِّكرَ المشروعَ لافتتاحِ الصَّلاة، ويجوز أنْ يكون المرادُ به كثرةَ ذكرِ الله في الصَّلاة وخارجَ الصلاةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) أي انقَطِعْ إلى اللهِ في العبادة، وتأميلِ الخيرِ منه دون غيرهِ. ومِن هذا سُمِّيت فاطمةُ الْبَتُولَ؛ لأنَّها انقطَعت إلى اللهِ تعالى في العبادةِ، والبَتْلُ في اللغة: القطعُ وتَميُّزُ الشيءِ من الشيءِ، ومنه صَدَقَةٌ بَتْلَةٌ؛ أي مُنقَطِعَةٌ من مالِ صاحبها، وطَلْقَةٌ بَتْلَةٌ: قاطعةٌ للزَّوجةِ.

وإنما قال (تَبْتِيلاً) ولم يقل تَبَتُّلاً على معنى تَبَتَّلْ لنفسِكَ إليه تَبْتِيلاً. وقال ابنُ عبَّاس: ((مَعْنَى (وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً) أيْ أخْلِصْ إلَيْهِ إخْلاَصاً))[1]. وقال الحسنُ: ((اجْتَهِدِ اجْتِهَاداً)). وقال شقيقٌ: ((تَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَوَكُّلاً)). وقال زيدُ بن أسلمَ: ((التَّبَتُّلُ: رَفْضُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالْتِمَاسُ مَا عِنْدَ اللهِ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرٍو ونافع وحفص (رَبُّ الْمَشْرِقِ) بالرفعِ على معنى: هُوَ ربُّ المشرق، وقرأ الباقون بالخفضِ على معنى نعتُ الرب في قوله (اسْمَ رَبِّكَ). وَقِيْلَ: على البدلِ منهُ، ويجوزُ أن تكون قراءةُ الرفعِ على الابتداءِ، وخبرهُ (لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ). وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي اتَّخِذهُ حَافِظاً لكَ، وكَفيلاً فيما وَعدَكَ من النصرِ والثواب لكَ ولأُمَّتِكَ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٢٣٨).

(٢) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٣.

قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ يعني: وَاصبرْ يا مُحَمَّدُ على ما يقولُهُ الكفَّار والمنافِقون من التكذيب،﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي لا جَزَعَ فيهِ؛ أي اصْطَبِرْ اقتَصِرْ على إظهار الوحي من غيرِ خُصومةٍ، وهذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ ؛ أي كِلْ أمرَهم إلَيَّ ولا تَهتَمَّ بهم، فإنِّي أكفِيكَهُمْ. يقالُ: ذرْني وزَيْداً؛ أي دَعْنِي وَزيداً؛ أي لا تَـهْتَمَّ بـهِ فـإنِّي أكَافِيهِ. وقولهُ تعالى (أولِي النَّعْمَةِ) أي ذوُوا النعمةِ ذوُو الغِنَى وكثرةِ المالِ.

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ إلَـى قَوْلِـهِ: ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ لَمْ يَكُنْ إلاَّ يَسِيراً حَتَّى وَقَعَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ))[1]. والنَّعمَةُ بفتحِ النـون التَّنعُّمُ، والنِّعمَةُ بالكسرِ المالُ والغِنَى، والنُّعْماءُ: قُرَّةُ العينِ بضمِّ النون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ عندَنـا في الآخـرةِ لَهم قُيوداً وأغلالاً، واحِدُها نَكْـلٌ؛ وهـو القَيْـدُ مـن الحديـدِ لا يُحَـلُّ. وقولـه تعـالى ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي لا يَسُوغُ في الحلقِ، يعـني الزَّقُّـومَ. وقـال عكرمـةُ:((شَـوْكٌ يَأْخُذُ بالْحَلْقِ، لاَ يَدْخُلُ وَلاَ يَخْرُجُ))[2]، وقال الزجاجُ:((يَعْنِي الضَّرِيـعَ))[3]. وَقِيْـلَ: طعامٌ يأخذُ بحُلُوقِـهم لِخُشُـونَتِهِ وحرارتـهِ، لا يـنْزِلُ فيـها بـل تضيـقُ أنفاسُـهم عنـها فيختَنِقُونَ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ ؛ أخـبرَ اللهُ تعالى أنَّ هذا العـذابَ المذكـورَ يكـون في يـومِ ترجـفُ الأرضُ والجبـالُ؛ أي تُزَلْـزَلُ وتُحرَّكُ، وهو يومُ القيامةِ. والرَّاجِفَةُ: من أسمـاءِ القيامـة. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي رَمْـلاً سَـائلاً، يقـالُ: تـرابٌ مَـهِيلٌ ومَـهْيُولٌ؛ أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣١٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عائشة) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٣١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٣٢٢) عن عكرمة عن ابن عباس وذكره.

(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص١٨٨ : (طعامهم الضريع).

مَصْبُوبٌ ومُرسَلٌ. والكَثِيبُ: القطعةُ العظيمةُ من الرَّملِ إذا حُرِّكَ أسفَلُها انْهَالَ أعلاهَا.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي بعَثْنا إليكم مُحَمَّداً يا أهلَ مكَّة رَسُولاً شَاهِداً علَيكُم بالتبليغِ، وشَهِيدٌ عليكم بأعمَالِكم يومَ القيامةِ، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ يعني مُوسَى عليه السلام، ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ؛ أي مُوسَى ولَمْ يُجِبْهُ إلى ما دعاهُ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ أي عاقَبنا فرعونَ عقوبةً عظيمةً، يعني الغرقَ الوَبيلَ الثَّقِيلَ جِدّاً، ومنه الوَبَالُ لِثِقَلِهِ، ويقالُ للمطرِ العظيمِ: الوَابلُ، وطعامٌ وَبيلٌ؛ أي ثقيلٌ وَاخِمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا ﴾ ؛ أي بأيِّ شيءٍ تتحصَّنون من عذاب يوم القيامة إنْ كفرتُم في الدُّنيا ولم تُؤمِنُوا برَسُولِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فكيف تتَّقُونَ إنْ كفرتُم عذابَ يومٍ يجعلُ الولدانَ شِيْباً؛ أي تشيبُ الصِّغَارُ في ذلكَ اليومِ، وذلك حين يسمَعُون النداءَ: [يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ إلَى النَّار، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ وَاحِدٌ إلَى الْجَنَّةِ وَالْبَاقِي إلَى النَّار، فَعِنْدَ ذلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ] فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذلِكَ الْوَاحِدُ ؟ فَقَالَ:[إنِّي أرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فكَبَّرُوا وَحَمَّدُوا، فقَالَ: [إنِّي أرْجُو أنْ تكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فكَبَّرُوا وَحَمَّدُوا، فقَالَ: [مَا أنْتُمْ فِي النَّاسِ إلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْر الأَسْوَدِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ ؛ أي السَّماءُ مُنْشَقَّةٌ بذلك اليوم، وذكرَ السَّماء؛ لأن معناها السَّقفُ كما في قولهِ ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[(٢)]. وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي كان وعدُ اللهِ مِن البعثِ وأهوالِ يوم القيامة كَائناً لا شكَّ فيه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٣٣٣) عن ابن عباس مختصراً. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣١ عزاه إلى ابن المنذر عن ابن مسعود.

(٢) الأنبياء / ٣٢.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ ﴾ ؛ أي إنَّ هـذه السُّـورة عِظَـةٌ للنـاسِ، وَقِيْلَ: معناهُ: إن آياتِ القُرآنِ موعِظَةٌ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ﴾ أي طَريقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ ربَّكَ يا مُحَمَّدُ يعلمُ إنَّكَ تقومُ أقلَّ من ثُلُثَي الليل في بعضِ اللَّيالي، وأقلَّ من نصفِ اللَّيلِ في بعضِ اللَّيالي، وأقلَّ من الثُلث في بعضِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ ﴾ ؛ يعني: الْمُؤمِنون كانوا يقُومون معَهُ.

قرأ الكوفيُّون وابنُ كثير (وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) بـالنصب فيـهما علـى معنـى: ويقـومُ نصفَهُ وثُلثَهُ. وقال الحسنُ: ((لَمْ يَقُمِ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ أقَلَّ مِنْ ثُلُثَـي اللَّيْـلِ، وَإنَّمَـا قَـالَ: (أدْنَى) فِي الطَّائِفَةِ الَّذِينَ مَعَهُ)) ولفظةُ (أدْنَى) تُعقَلُ منها القلَّة، لا يقالُ: عنـدِي دونَ العشرةِ إلاَّ والنُّقصان منها قليلٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ ؛ أي يعلَمُ مقاديرَهما وساعاتِهما على الحقيقةِ، ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ ﴾ ؛ أي عَلِمَ أنَّكـم لم تعلَمُـوا حقيقـةَ قدرهمـا، يعني أنَّكم ما تعرفُون مقاديرَ اللَّيل والنهار، ولذلِ لم تعلَمُوا حقيقةَ المقدار الذي أمَرَكـم بالقيامِ فيه لم تُطِيقوهُ إلاَّ بمشقَّة، ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ ؛ أي فتجاوزَ عنكـم قيـامَ الليـلِ بالتخفيفِ عنكم، ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ ؛ في صلاةِ اللَّيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾ ؛ لا يقدِرون على قيـامِ اللَّيـلِ بقراءةِ السُّوَرِ الطِّوال، ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي وآخَرُون يُسافِرُونَ لطَلب رزق الله فلا يُطيقـون ذلـكَ، ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ ؛ أي وعَلِمَ أنَّ فيكم مَـن يجاهدُ في سبيلِ الله، يعني يقاتلُ أعداءَ اللهِ لا يُطيقون قيامَ الليلِ، ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ ؛ أي مِن القُرآن في الصَّلاة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ أي وأقِيمُوا الصَّلَوات الخمسِ بشَرائطِها وما يجبُ من حقِّ الله فيها، فنُسِخَ قيامُ الليل بالصَّلَوات الخمسِ على المؤمنين، وثَبَـتَ على النبيِّ ﷺ خاصَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ يعني المفروضةَ، ﴿ وَأَقۡرِضُواْ

﴿ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ من الصَّدقة سِوَى الزكاةِ من صِلَةِ الرَّحم، وقِرَى الضيفِ، وصدقةِ التطوُّع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي ما تفعلُوا من صدقةٍ فريضة أو تطوُّع أو عملٍ صالح تجِدُوا ثوابَهُ عند اللهِ، ﴿هُوَ خَيْرًا﴾؛ لكم، ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾؛ مِن الذي تُؤخِّرونَهُ إلى الوصيَّة عند الموتِ.

وإنما انتصبَ (خَيْراً) لأنه المفعولُ الثاني، وأدخل (هو) فصل[1]، ويسمِّيه الكوفيُّون العمادَ، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لِمَا مضَى من الذُّنوب والتقصيرِ في الطاعة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ لِمَن استغفرَ، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾؛ لِمَن ماتَ على التوبةِ.

وقد تضمَّنت هذه الآيةُ معان: أحدُها: أنه نَسَخَ بها فريضةَ قيامِ الليلِ. الثاني: أنَّها تدلُّ على لُزوم فرضِ القراءةِ في الصَّلاة؛ لأن القراءةَ لا تلزَمُ في عينِ الصَّلاة. والثالث: دلالةُ جواز الصَّلاة بقليلِ القراءةِ. والرابعُ: أنَّ تركَ قراءةِ الفاتحةِ في الصَّلاة لا تمنعُ جوازَها إذا قرأ فيها غيرَها.

فإنْ قِيْلَ: هذه الآيةُ نزَلت في قيامِ الليل وذلك منسوخٌ، فكيف تستدِلُّون بها على هذه الأحكامِ؟ قُلنا: المرادُ بقولهِ تعالى (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ) أمرٌ بالقراءةِ بعدَ ذكرِ النَّسخِ، ثم نسخُ فرضِ الصلاةِ لا يوجبُ نسخَ شَرائطِها وسائرِ أحكامِها.

فإن قِيْلَ: المرادُ بقولهِ (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ) في صلاةِ التطوُّع. قُلنا: إذا ثبتَ وجوبُ ذلك وحكمُه في التطوُّع فالفرضُ مثلهُ؛ لأن أحداً لا يفرِّقُ بينهما في هذهِ الأحكامِ، وصلاةُ التطوُّع وإنْ لم تكن فَرضاً لكن إذا شَرَعَ فيها يلزمهُ إقامتُها بجميعِ أركانِها كما لَزِمَهُ إقامتُها بجميعِ شَرائطِها من الطَّهارةِ وسَترِ العورةِ ونحوِ ذلك.

آخر تفسير سورة (**المزمل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في المخطوط: (فضلاً) والصحيح كما أثبتناه، ومعناه: نصب (خيراً) و(أعظمَ) على المفعول الثاني لـ (تجدوهُ) و(هو) فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب و(أجراً) تمييز. نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٦. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٥٩.

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَلْفٌ وَعَشْرَةُ أَحْـرُفٍ، وَمِائَتَـان وَخَمْـسٌ وَخَمْسُـونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَخَمْسُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِـنَ الأَجْـرِ عَشْـرَ حَسَـنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ وَكَذبَ بِهِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) ﴾؛ قال مقاتلُ: ((ذلِـكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَسِيرُ إلَى جَبَلِ حِرَاءَ، إذْ سَمِعَ مُنَادِياً يُنَادِي مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ يَقُولُ: يَـا مُحَمَّـدُ، فَنَظَرَ مِنْ خَلْفِهِ يَمِيناً وَشِمَالاً فَلَمْ يَرَ شَيْئاً، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ نُودِيَ الثَّانِيَةَ، فَنَظَـرَ كَذلِكَ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً فَفَزِعَ، فَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ، فَنُودِيَ الثَّالِثَـةَ فَنَظَـرَ إلَـى خَلْفِـهِ يَمِينـاً وَشِمَالاً، ثُمَّ نَظَرَ إلَى السَّمَاءِ فَنَظَرَ مِثْلَ السَّرِيرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ مِثْـلَ النُّورِ المتوقِّد يتلألأُ، فَفَزِعَ فَوَقَعَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَامَ يَمْشِي وَرِجْلاَهُ تَصْطَكَّان.

فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَصَبَّ عَلَيْهِ مَاءً بَارِداً، فَقَالَ: [دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي] فَدَثَّرُوهُ بقَطِيفَةٍ حَتَّى استَدْفَأَ[2]؛ فَلَمَّا أفَاقَ، قَالَ: [لَقَدْ أشْـفَقْتُ عَلَـى نَفْسِـي] فَقَـالَتْ خَدِيجَةُ: أبْشِرْ فَلاَ يُخْزِيكَ اللهُ أبَداً؛ إنَّكَ لَتَصْدُقُ الْحَدِيـثَ، وَتَصِـلُ الرَّحِـمَ، وَتَحْمِـلُ الْكَلَّ، وَتُقَوِّي الضَّعِيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ مُدَّثِّرٌ بثِيَابهِ عَلَى فِرَاشِهِ لَيْلاً، فَقَالَ: يَا أيُّهَا الْمُدَّثِّـرُ بثِيَابـهِ مُضْطَجِعاً عَلَى فِرَاشِـهِ قُـمْ فَـأَنْذِرْ كُفَّـارَ مَكَّـةَ الْعَـذَابَ أنْ يُوَحِّـدُوا رَبَّـكَ، وَادْعُـهُمْ

---

(1) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٦٧ وإسناده واهٍ.

(2) في المخطوط: (اشتد فألم) وهو تصحيف، والصحيح كما أثبتناه، وهو كما في تفسير مقاتل: ج ٣ ص٤١٣.

إلَى الصَّلاَةِ وَالتَّوْحِيدِ))[(١)]. والدِّثارُ: ما تَدَثَّرْتَ به من الثَّوب الخارجِ. والشِّعَارُ: الثَّوبُ الذي يَلِي الجسدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي صِفْهُ بالتَّعظيم، وعَظِّمْهُ مما يقولهُ عَبَدَةُ الأوثان، ويقالُ: أرادَ به التكبيرَ لافتتاحِ الصَّلاة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ أي طهِّرْ ثيابَكَ من النَّجاسة لإقامةِ الصَّلاة. وَقِيلَ: معناهُ: طهِّرْ نفسَكَ وخُلُقَكَ عمَّا لا يجمل بكَ. وَقِيلَ: معناهُ: وقلبَكَ فطَهِّرْ، وقد يعبَّرُ بالثوب عن القلب. وَقِيلَ: معناهُ: وعمَلَكَ فأصلِحْهُ، قال السديُّ: (يُقَالُ لِلرَّجُلِ إذا كَانَ صَالِحاً أنَّهُ طَاهِرُ الثِّيَاب، وإذا كَانَ فاجراً أنه خبيثُ الثياب).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي والإثمَ فاتركْهُ ولا تقربْهُ. وَقِيلَ: معناهُ: والأصنامَ فتباعَدْ عنها، والرُّجْزُ في اللغة: العذابُ، والمعنى في هذا: فاهجُرْ ما يُؤذيكَ إلى عذاب الله. قرأ الحسنُ وعكرمة ومجاهد وشيبة ويعقوب (وَالرُّجْزَ) بضمِّ الراء ومثلهُ رُوي عن عاصمٍ، وقرأ الباقون بكسرها، وهما لُغتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾؛ معناه: لا تُعْطِ شيئاً من مالِكَ لتأخُذ أكثرَ منه، والمعنى: لا تُعْطِ مالَكَ مُصانعةً لتُعطى أكثرَ منه في الدُّنيا، أعطِ لربكَ. أدَّبَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ بأشرفِ الآداب. وَقِيلَ: معناه: لا تَمْنُنْ بالنبوَّةِ على النَّاسِ تستكثِرُ عملَكَ. وَقِيلَ: معناهُ: لا تُعْطِ شيئاً وتعطِي أكثر من ذلك، وهذا للنبيِّ ﷺ خاصَّة لأنه كان في أعلَى مكارمِ الأخلاق، كما حَرُمَتْ عليه الصدقةُ، وأمَّا غيرهُ فليس عليه إثْمٌ في أنْ يُهدِي هديَّةً يتوقَّعُ بها الكثيرَ منها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾؛ على طاعتهِ وفرائضه، والمعنى: لأجل ثواب ربكَ. وَقِيلَ: معناهُ: فاصبرْ على الأذى والتكذيب. وَقِيلَ: فاصبرْ على البلوَى والامتحان، فإنَّ اللهَ يمتحنُ أحبَّاءَهُ وأصفياءَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي فإذا نُفِخَ في الصُّور النفخة الثانية، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾؛ يعني يومَ النفخِ في الصُّور يومٌ عسير،

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٣. وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: الحديث (٣). وفي التفسير: الحديث (٤٩٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب بدء الوحي: الحديث (١٦٠/ ٢٥٣).

﴿ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، منه الأمرُ على الكفَّار، وقوله: ﴿ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠ ﴾ ؛ بدلٌ من يومٍ عسيرٍ؛ أي لا يكون هَيِّناً عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ ﴾ ؛ يعني الوليدَ بن المغيرةِ المخزومي خلَقتهُ في بطنِ أمِّه وَحيداً فريداً لا مالَ له ولا ولدَ[1]؛ أي كِلْ إلَيَّ أمرَ مَن خلقتهُ فَريداً بلا مال ولا ولدٍ، ﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ ﴾ ، ثم أعطيتهُ بعد ذلك، ﴿ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ ﴾ ؛ أي كثيراً يُمَدُّ بالنَّماء كالزرعِ والضَّرع والتجارةِ، قال عطاءُ: (مَا بَيْنَ مَكَّةَ إلَى الطَّائِفِ مِنَ الإبلِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَعَبيدٍ وَجَوَارٍ). وَقِيْلَ: معنى قولهِ (مَالاً مَمْدُوداً) يأتِي شَيئاً بعدَ شيءٍ غيرُ منقطعٍ.

وقد اختلَفُوا في مبلغِ ماله، قال مجاهدُ و سعيد بن جبير: ((مِائَةُ أَلْفِ مِثْقَال))، وقال سفيانُ الثوري: ((أَلْفُ أَلْفُ مِثْقَال))، وقال مقاتلُ: ((كَانَ لَهُ بُسْتَانٌ فِي الطَّائِفِ لاَ تَنْقَطِعُ ثِمَارُهَا شِتَاءً وَلاَ صَيْفاً))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ ﴾ ؛ أي حُضوراً معه بمكَّة لا يغِيبون عنه، قال سعيدُ بن جبير: ((كَانُوا ثَلاَثَةَ عَشَرَ وَلَداً))، وقال مجاهدُ: ((كَانُوا عَشَرَةً كُلُّهُمْ ذُكُورٌ، مِنْهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَعُمَارَةُ وَهَاشِمُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَالْعَاصِي وَقَيسُ بْنُ الْوَلِيدِ؛ وَعَبْدُ شَمْسِ بْنِ الْوَلِيدِ. فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ خَالِدُ وَهَاشِمُ وَعُمَارَةُ)). وقالوا: فما زالَ الوليدُ بعد نزولِ هذه الآية في نُقصان من مالهِ وولده حتى هلكَ[3].

وانتصبَ قوله (وَحِيداً) على الحالِ. ويجوزُ أن يكون صفةَ المخلوق على معنى خلقتهُ وحده، ويجوز أنْ يكون من صفةِ الخالقِ على معنى خلقتهُ وَحدِي لم يُشركني في خلقهِ أحدٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤١٨) عن قتادة.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٦.

(٣) نقله الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٧٢. وفي تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٤١٦ ذكر ثمانية منهم.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي بَسَطتُ لـه في العيشِ وطولِ العمر بَسطاً، ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ثم يطمعُ أن أزيدَ لـه في المالِ والولد، وقد كفرَ بي وبرسولِي، ﴿ كَلَّآۖ ﴾ ، لا أزيدهُ، فلم يزَلِ الوليدُ بعد هذا في نُقصانٍ من المالِ والحالِ حتى صارَ يسألُ الناسَ وماتَ فقيراً. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنه كان لكِتابنا ورَسُولنا مُعانِداً، والعنيدُ: الذاهبُ عن الشيءِ على طريقِ العداوة، والْجَمَلُ العنودُ: هو الذي يَمُرُّ على جانبٍ من القطار.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي سأُكلِّفهُ في النار ارتقاءَ الصَّعود، وهو جبلٌ من صخرةٍ ملساءَ في النَّار، يُكلَّفُ الكافرُ أن يرتَقِيَهُ حتى إذا بلغَ أعلاهُ في أربعين عاماً، كُلَّما وضعَ يده عليه ذابَتْ، وإذا رفعَها عادَتْ. وعن أبي سعيدِ الخدري قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نار، يُصْعَدُ فِيْهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً ثُمَّ يَهْوِي كَذلِكَ مِنْهُ أبَداً، كُلَّمَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْـهَا ذابَتْ وَإذا رَفَعَـهَا عَـادَتْ، وَإذا وَضَعَ رِجْلَهُ ذابَتْ وَإذا رَفَعَهَا عَادَتْ، وَكُلَّمَا بَلَغَ أعْلَى ذلِكَ الْجَبَلِ انْحَدَرَ إلَى أسْفَلِهِ، ثُمَّ يُكَلَّفُ أيْضاً أنْ يَصْعَدَ، فَذلِكَ دَأبُهُ أبَداً يُجْذبُ مِنْ أمَامِهِ بسَلاَسِلِ الْحَدِيدِ، وَيُضْرَبُ مِنْ خَلْفِهِ بمَقَامِعِ الْحَدِيدِ مَسَافَةَ كُلِّ صُعُودٍ أرْبَعُونَ سَنَةً][١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنه فكَّرَ في أمرِ النبيِّ ﷺ في احتيالهِ للباطلِ، وقدَّرَ القولَ فيه، وقِيْلَ: معناهُ: تفكر ماذا تقولُ في القرآن ؟ وقدَّرَ القولَ في نفسهِ، وذلك أنه لَمَّا نزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿حم، تَنْزِيلُ الْكِتَـاب مِـنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذنْب وَقَـابلِ التَّـوْب شَـدِيدِ الْعِقَـاب ذِي الطَّـوْلِ لاَ إلَـهَ إلاَّ هُـوَ إلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٢] قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ قَرِيباً مِنْهُ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ، فَلَمَّا نَظَرَ النَّبيُّ ﷺ اسْتِمَاعَهُ إلَى قِرَاءَتِهِ عَادَ إلَى قِرَاءَةِ الآيَةِ، فَانْطَلَقَ الْوَلِيدُ حَتَّى أتَى مَجْلِسَ قَوْمِهِ بَنِي مَخْزُومَ وَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ الآنَ كَلاَماً مَا هُوَ مِنْ كَلاَمِ الإنْسِ وَلاَ مِنْ كَلاَمِ الْجِنِّ، إنَّ لَهُ لَحَلاَوَةً وَلَطَلاَوَةً، وَإنَّ أعْلاَهُ لَمُثْمِرٌ وَإنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإنَّهُ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٤٣٤) مختصراً. (٢) غافر ، ١-٣ .

ثُمَّ انْصَرَفَ إلَى مَنْزِلِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ: صَبَأَ وَاللهِ الْوَلِيدُ، وَاللهِ لَتَصْبَأَنَّ قُرَيْشٌ كُلُّهَا، وكَانَ يُقَالُ لِلْوَلِيدِ رَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ، فَقَالَ أبو جَهْلٍ: أنَا أكْفِيكُمُوهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَقَعَدَ إلَى جَنْبِهِ حَزِيناً، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أرَاكَ حَزِيناً يَا ابْنَ أخِي؟ قَالَ: وَمَا لِي لاَ أحْزَنُ وَهَذِهِ قُرَيْشُ يَجْمَعُونَ لَكَ نَفَقَةً يُعِينُونَكَ عَلَى كِبَرِ سِنِّكَ، يَزْعُمُونَ أنَّكَ زَيَّنْتَ كَلاَمَ مُحَمَّدٍ وَتَدْخُلُ إلَيْهِ وَإلَى ابْنِ أبِي قُحَافَةَ لِتَنَالَ مِنْ فَضْلِ طَعَامِهِمْ. فَغَضِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ: ألَمْ تَعْلَمْ قُرَيْشٌ أنِّي مِنْ أكْثَرِهِمْ مَالاً وَوَلَداً؟ وَهَلْ يَشْبَعُ مُحَمَّدٌ وَأصْحَابُهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ فَضْلٌ ؟

ثُمَّ قَامَ مَعَ أبِي جَهْلٍ حَتَّى أتَى مَجْلِسَ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ الْمَوْسِمَ قَدْ دَنَا، وَقَدْ فَشَا أمْرُ هَذا الرَّجُلِ فِي النَّاسِ، فَمَا أنْتُمْ قَائِلُونَ لِمَنْ سَألَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ إنَّهُ مَجْنُونٌ؛ قَالَ: إذاً يُخَاطِبُونَهُ فَيَعْلَمُونَ أنَّهُ غَيْرُ مَجْنُون. فَقَالُوا: نَقُولُ إنَّهُ شَاعِرٌ؛ قَالَ: الْعَرَبُ يَعْلَمُونَ الشِّعْرَ وَيَعْلَمُونَ أنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ غَيْرُ الشِّعْرِ. فَقَالُوا: نَقُولُ إنَّهُ كَاهِنٌ؛ فَقَالَ: إنَّ الْكَاهِنَ يُصِيبُ وَيُخْطِئُ وَلاَ يَقُولُ فِي كِهَانَتِهِ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَهَذا يَقُولُ فِي كَلاَمِهِ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَقَوْلُهُ لاَ يُشْبِهُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ صَبَأَ الْوَلِيدُ، فَإنْ صَبَأَ فَلَمْ يَبْقَ وَاحِدٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلاَّ صَبَأَ.

فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ أنْتَ يَا أبَا الْمُغِيرَةِ فِي مُحَمَّدٍ، فَتَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَقَالَ: مَا هُوَ إلاَّ سَاحِرٌ مَا رَأيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ بِسِحْرِهِ، ألاَ تَرَوْنَ أنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، فَإنَّ الْمَرْأةَ تَكُونُ مَعَنَا وَيَكُونُ زَوْجُهَا مَعَهُ! فَتَفَرَّقُوا عَلَى هَذا الْقَوْلِ.

ومعنى الآيَة: أنه فكَّرَ لِمُحَمَّدٍ بِتُهْمَةٍ يتعلَّقُ بها في تكذيبهِ، وقدَّرَ لينظُرَ فيما قدَّرهُ أستقِيمَ له أنْ يقولَهُ أم لا؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي لُعِنَ وعُذِّبَ على أيِّ حالٍ قدَّرَ من الكلامِ، كما يقالُ: لأعرِفَنَّهُ كيفَ صَنَعَ إلَيَّ على أيِّ حالةٍ كانت منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ثُمَّ لُعِنَ وعُوقِبَ بعقابٍ آخر، كيف ذهبَ إلى هذا التقديرِ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: نظرَ إلى أصحاب

النبيِّ ﷺ نظرَ العداوةِ بكراهةٍ شديدة ليتَّخذ طَعناً فيهم. وَقِيْلَ: ثم نظرَ في طلب ما يدفعُ به القرآنَ ويرده.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي ثُمَّ كَلَحَ في وجوهِ أصحابهِ[1] وقبضَ جبهتَهُ، والبُسُورُ أشدُّ من العُبُوسِ، والمعنى: ثم كَلَحَ بوجههِ ونظرَ بكراهةٍ شديدة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي ثُمَّ أعرضَ عن قبول القرآن واتِّباع الرسول وتَعظَّمَ من الإيمان، ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي قالَ ما هذا القرآنُ إلاَّ سحر يُروَى عن السَّحَرةِ؛ أي يَأثُرُهُ مُحَمَّدٌ عن غيرهِ، وذلك أنه كَرِهَ أن يقولَ إنَّ مُحَمَّداً ساحرٌ، فيَغْضَبُ بنو هاشمٍ، فقالَ: إنما السِّحرُ في الأعاجمِ، وهذا إنما يَأثُرُ السحرَ عن غيرهِ، وكان يقولُ في القرآنَ: ما هو سحرٌ ولا كهانة ولكنَّهُ سِحرٌ يُؤثَرُ عن قول البشر؛ أي يُحكَى بينهم. ومعنى قولهِ تعالى: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ يعني أنه كلامُ الإنسِ وليس من عند اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي سأُدخِلهُ وألزمهُ في الآخرةِ سَقَرَ بما فعلَ، واستكبرَ عن قبول الحقِّ، وسَقَرَ اسمٌ من أسماءِ النار، وهي مَعرفَةٌ مُؤنَّثة، فلذلك لَمْ تَنصرفْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ تعظيمٌ لأمرها، وإنما سُميت بهذا الاسمِ لشدَّة إيلامِها من قولِهم: سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا آلَمَتْ دِمَاغَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي لا تُبقِي لَحماً ولا تذرُ عَظماً، وعن مجاهدٍ: ((لاَ تُبْقِي مَنْ فِيهَا حَيّاً وَلاَ تَذرُهُ مَيْتاً))[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي مُغيِّرَةٌ للجلدِ حتى تجعله أسْوَدَ، يقالُ: لوَّحَتْهُ الشمسُ، ولاَحَهُ السَّقَمُ والْحُزْنُ إذا غيَّرهُ. قِيْلَ: إنَّها تغيِّرُ الجلدَ حتى تدعَهُ أسودَ سَواداً من الليلِ.

---

(١) هنا أدرج الناسخ سهوا عبارة: (رضي الله عنهم) وهو لا يليق؛ لأنهم أصحابه من الكفار وهو كافر أيضاً، والكلام بحق الوليد بن المغيرة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٤٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي تسعةَ عشرَ من الزَّبانيةِ الموكَّلين بتعذيب أهلها، جاءَ في الحديثِ: [إنَّ أعْيُنَـهُمْ كَـالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَأنْيَابَـهُمْ كَصَيَاصِيِّ الْبَقَرِ، يَخْرُجُ لَهَبُ النَّارِ مِنْ أفْوَاهِهِمْ، مَا بَيْنَ مَنْكِبَي أحَدِهِـمْ مَسِيرَةُ سَنَةٍ، يَسَعُ كَفُّ أحَدِهِمْ مِثْلَ رَبيعَةَ وَمُضَرَ، نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قُلُوبهِمْ، يُسَرُّونَ بتَعْذِيب أهْلِ النَّارِ، يَدْفَعُ أحَدُهُـمْ سَبْعِينَ ألْفاً فَيَرْمِيَهُمْ حَيْثُ أرَادَ مِنْ جَهَنَّمَ][1]. وقال ﷺ: [لأَحَدِهِمْ مِثْلُ قُوَّةِ الثَّقَلَيْنِ]. وقال عمرُو بن دينار: ((يَدْفَعُ أحَدُهُمْ بالدَّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَهَنَّمَ مِثْلَ رَبيعَةَ وَمُضَرَ)).

قال ابنُ عبَّاس والضحاك: ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ أبُو جَهْلٍ: أمَا لِمُحَمَّدٍ مِنَ الأَعْوَانِ إلاَّ تِسْعَةَ عَشَرَ يُخَوِّفُكُمْ بهِمْ وَأنْتُمُ الدَّهْمُ - يَعْنِي الْعَدَدَ الْكَثِيرَ - فَتَعْجَزُ كُلُّ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْكُمْ أنْ تَبْطِشَ بوَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ؟!))[2].

ورُوي: أنَّ أبَا جَهْلٍ قَالَ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أمَّهَاتُكُمْ! أنْتُمُ الدَّهْمُ الشُّجْعَانُ فَتَعْجَزُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أنْ يَبْطُشُوا بخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي جُمَحٍ يُقَالُ لَهُ كَلَدَةُ بْنُ أسَدٍ: أنَا أكْفِيكُمْ يَا أهْلَ مَكَّةَ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ أحْمِلُ عَشْرَةً مِنْهُمْ عَلَى ظَهْرِي، وَسَبْعَةً عَلَى صَدْرِي، فَاكْفُونِي أنْتُمُ اثْنَيْنِ!

ورُوي: أنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَأنَا أمْشِي بَيْنَ أيْدِيكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ فَأَدْفَعُ عَشْرَةً بمَنْكِبِي الأَيْمَنِ، وَتِسْعَةً بمَنْكِبِي الأَيْسَرِ فِي النَّارِ، فَنَمْضِي نَدْخُلُ الْجَنَّةَ! فَأنْزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ ؛ أي ما جعَلنا خُزَّانها إلاَّ ملائكةً، ومن المعلومِ أنَّ الْمَلَكَ الواحدَ إذا كان كافياً لقبضِ أرواحِهم، كان تسعةَ عشرَ مَلكاً أكفَى، ألاَ ترى أنَّ مَلكاً واحداً وهو ملَكُ الموتِ يقبضُ أرواحَ الخلقِ كلِّهم ؟ فكيف يعجزُ تسعةَ عشرَ مَلكاً عن تعذيب الناس؟!

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ؛ أي ما جعَلنا عددَهم في القلَّة إلاّ محنةً لكفَّار مكة لِجَهلِهم بالملائكةِ وتوهُّمهم أنَّهم كالبشرِ، والمعنى:

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٤٥٦) بإسناد ضعيف.

وما جعَلنا عدَّة هؤلاءِ الملائكة مع قِلَّتهم في العددِ إلاَّ ضلالةً للَّذين كفَرُوا حتى قالوا ما قالوهُ من التكذيب، وقالَ كَلَدَةُ بن أسدٍ: أنا أكفيكُم سبعةَ عشر فاكفُوني أنتمُ اثنين.

وقولهُ تعالى: ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ؛ أي ليعلمَ اليهودُ والنصارَى بذلك صحَّة نبوَّةِ النبيِّ ﷺ حين يَجِدُونَ ما أتَى به مُوافقاً لِمَا في التَّوراةِ والإنجيل، فإنَّ عددَ هؤلاءِ الْخَزَنَةِ في كُتبهم تسعةَ عشرَ، فيعلمون أنَّ ما أتَى به مُحَمَّدٌ ﷺ موافقٌ لِمَا عندَهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ ؛ أي ولكي يزدادَ المؤمنون تَصدِيقاً على تَصدِيقهم لتصديقِ أهلِ الكتاب لذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي؛ ولئَلاَّ يَشُكَّ الذين أُوتوا الكتابَ في أمرِ القرآن، ولا يشكَّ المؤمنون بالتدبُّر والتفكُّر فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ؛ أي شَكٌّ ونفاقٌ، والمرادُ بهم المنافقون، ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة؛ أيْ أيُّ شيءٍ أرادَ اللهُ بذكرِ عدَدِ خزَنَةِ جهنَّم صفةً من قلَّة الملائكة، يعني: أنَّهم لا يصدِّقون بهذا العددِ، والْمَثَلُ يكون الحديثُ نفسه؛ أي أن يقولون ما هذا الحديثُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ؛ أي كما أضلَّ مَن أنكرَ عدد الْخَزَنَةِ، وهدَى من صدَّقَ بذلك، يُضِلُّ مَن يشاءُ، والمعنى يَخْذُلُ اللهُ مَن كان أهْلاً للخُذلان، ويوفِّقُ مَن كان أهلاً للهُدى، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعني الملائكةَ الذين خلَقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلمُ عددَهم إلاَّ اللهُ.

والمعنى أنَّ التسعةَ عشر هم خَزَنَةُ النار من الأعوان، والجنودُ من الملائكةِ ما لا يعلمُ عددَهم إلاَّ اللهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: وما يعلمُ جُمُوعَ ربكَ يا مُحَمَّدُ من الملائكةِ من عددِهم، ومقاديرِ قولهم إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعني سَقَرَ؛ للصِّفات التي ذكرَها ما هي إلاَّ غِلْظَةٌ للخلقِ وإنذارٌ لهم بأنَّ نارَ الدُّنيا تُذكِّرُهم نارَ الآخرةِ فيجتنبوا ما يؤدِّيهم إليها.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ هذا قسَمٌ على عِظَمِ نار سقرَ، معناه: حَقّاً والقمرِ؛ والليلِ إذا جاءَ بعدَ النهار؛ والصُّبحِ إذا أضاءَ، إنَّ سَقَرَ لإحدَى العظائمِ التي هي دركَاتُ النار. والعربُ تؤكِّدُ القسَمَ بلفظِ كَلاَّ كما تؤكّدهُ بـ (حقّاً). ويقالُ: معناهُ: وربِ القمرِ. قرأ نافعُ وحمزة وخلف ويعقوب وحفص:(إذ أدْبَرَ)[1] على لفظ الإدبار؛ أي اذا انقضَى وذهبَ، ويقالُ: كلاهما لُغتـان: دَبَرَ النهارُ وأدبَرَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي سَقَرَ لإحدَى الكُبَرِ، قـال مقاتلُ والكلبي: ((أرَادَ بالْكُبَرِ دَرَكَاتُ جَهَنَّمَ؛ وَهِيَ سَبْعَةٌ: جَهَنَّمُ؛ وَلَظَّـى؛ وَالْحُطَمَـةُ؛ وَالسَّعِيرُ؛ وَسَقَرَ؛ وَالْجَحِيمُ؛ وَالْهَاوِيَةُ))[3].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ قال الزجَّاجُ: ((هُوَ حَالٌ مِـنْ قَوْلِـهِ (قُمْ) فِي أوَّلِ السُّورَةِ؛ أي قُمْ نَذيراً للبشر))[4] وهكذا رُوي عن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاس، وَقِيْلَ: (نَذيراً) نُصِبَ على الحالِ؛ يعني أنَّها لكبيرةٌ في حالِ الإنذار، وذكرَ النذيرَ بلفـظِ التذكيرِ فإن معنى النار العذابُ، يعني أن النارَ نذيراً للبشـرِ، قـال الحسـنُ: ((وَاللهِ مَـا أنْذرَ اللهُ بشَيْءٍ أدْهَى مِنْهَا))[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ بـدلٌ مـن قولـهِ (لِلْبَشَرِ)، والمعنى أنَّها نذيرٌ لِمَن شاءَ أن يتقدَّمَ في العبادةِ والإيمان والخيرِ فينجُوا منهما، أو يتأخَّرَ عن الإيمانِ والطاعة فيقعُ فيهما، والمعنى: أنَّ الإنذارَ قد حصلَ لكلِّ أحدٍ ممن آمَن أو كفرَ، قال الحسنُ: ((هَذا وَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

---

(١) في المخطوط: (إذا أدبر) وهو تصحيف.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٨٤؛ قال القرطبي: (وقرأ نـافع وحمـزة وحفـص (إذ أدْبَـرَ) الباقون (إذا) بألف و(دبر) بغير ألف وهما لغتان بمعنى، يقال: دَبَرَ وأدْبَـرَ، وكذلـك قَبـلَ اللَّيـلُ وأقْبَلَ).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤١٩.

(٤) نقله الزجاج من قول الكسائي في إعراب القرآن: ج ٥ ص٤٩.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٨١).

فَلْيَكْفُرْ﴾[1])).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بعملِها مرهونةٌ به، وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((مُرْتَهَنَةٌ فِي جَهَنَّمَ))[2] ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ ؛ وهم المؤمنون الَّذين يُعطَون كُتبَهم بأيمانِهم، فإنَّ اللهَ تعالى أعتقَ[3] رقابَهم من الرَّهنِ وأدخلَهم الجنَّةَ.

ويقالُ: هم الأطفالُ الذين لا ذُنوبَ لهم فإنَّهم غيرُ مُرتَهنين. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ أيْنَ هُمْ؟ قَالَ: [فِي الْجَنَّةِ] وَسَأَلْتُهُ عَنْ أطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: [إنْ شِئْتِ أسْمَعْتُكَ تَضَاغِيهِمْ[4] فِي النَّارِ][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: في بساتين يتساءَلون عن أهلِ النار، يقولون لَهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أيُّ شيءٍ أدخلَكم النارَ وحبسَكم فيها ؟

فيقولون لَهم: ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ في دارِ الدُّنيا؛ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ في اللهِ؛ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ وكنا نخوضُ مع أهلِ الباطلِ في الباطلِ والتكذيب، ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي بيومِ الحساب؛ ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ فشاهدناهُ. ويجوز أن يكون اليقينُ ها هنا الموتَ الذي يعرفُ المرءُ عنده أمرَ الآخرةِ.

---

(١) الكهف / ٢٩ .

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٤٨٦) بلفظ: (مأخوذة بعملها).

(٣) في المخطوط:(أفتكَ) والصحيح (أعتق) وهو المناسب. والفتك: القتل على غرَّة، بفتح الفاء وضمها وكسرها. والفاتك: الجريء. ينظر: مختار الصحاح: (فتك) ص٤٩٠.

(٤) (ضغو) أي البكاء، وفي الحديث [وَصِبْيَتِي يَتَضَاغُونَ حَوْلِي]. أخرجه البخاري، ومعناه: يتباكون باكين. قاله الهروي في كتاب الغريبين: ج ٤ ص١١٣٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٠٨.

يقولُ اللهُ تعـالَى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي ما تنفعُـهم شفاعةُ الملائكةِ والنبيِّين كما ينفعُ الموحِّدين، قال الحسنُ: ((فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَـفَاعَةُ مَلَـكٍ وَلاَ شَهِيدٍ وَلاَ مُؤْمِنٍ، يَشْفَعُ يَوْمَئِذٍ النَّبِيُّونَ؛ ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ؛ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ، وَيَبْقَى قَوْمٌ فِي جَهَنَّمَ فَيَقُولُ لَهُمْ:(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ..) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى(فَمَـا تَنْفَعُـهُمْ شَـفَاعَةُ الشَّـافِعِينَ)))، قـال ابـنُ مسـعودٍ: ((فَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَبْقُونَ فِي جَهَنَّمَ))(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ما لأهلِ مكَّـة عن القرآنِ الذي يقرأ عليهم مُعرضِينَ؛ أيْ أيُّ شيءٍ لكفَّار مكَّة في الآخرةِ إذا أعرضُوا عن القرآنِ، ولم يُؤمنوا به مع هذه الدَّلالة.

ثـم شـبَّههم بـالْحُمُرِ الوحشيَّة في إعراضِـهم عمَّـا يُقـرَأ عليـهم فقـال تعـالَى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ قـرأ نـافعُ وابـن عـامر بفتـح الفـاءِ؛ أي مُنَفَّـرَةٌ مذعورةٌ، وقرأ الآخرون بكسرِ الفاء؛ أي نافرةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ يعني فرَّت من الأسدِ، قال ابـنُ عباس: ((الْحُمُرُ الْوَحْشِيَّةُ إذا عَايَنَتِ الأَسَدَ هَرَبَتْ مِنْهُ)) كذلك هؤلاءِ المشـركون إذا سَمعوا النبيَّ ﷺ يقرأ القرآنَ هربُوا منه، وقال الضحَّاك ومقـاتلُ: ((الْقَسْـوَرَةُ: الرُّمَـاةُ الَّذِينَ يَرْصُدُونَهَا، لاَ وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ))(٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: إن كفَّار مكة قالوا للنبيِّ ﷺ: لتصبحَ قريشٌ عند رأسِ كلِّ رجُـلٍ هـذا كتابٌ منشور من اللهِ يأتيكَ رسولهُ يؤمر فيه باتِّباعِكَ.

والصُّحف جمعُ صحيفةٍ، و(مُنَشَّرَةً) معناهُ: مَنشُورةً، وَقِيْلَ: معناهُ: بـل يريـدون بإفراطِ جهلهم أنْ يُعطَى كلُّ واحد منهم كِتَاباً من السَّماء مفتوحـاً: هـذا كتـابٌ مـن فلانٍ إلى فلان بأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٣٧؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود) وذكره بمعناه.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كلاَّ لا يُؤتَون الصُّحف ولا يكون لَهم ذلك، بل هم لا يَخافون الآخرة حين لم يُؤمنوا بها، ولو خَافوا ذلك لما اقترَحُوا الآياتِ بعد قيام الدَّلالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي حَقّاً إنَّ القرآن عِظَةٌ من اللهِ تعالى، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي اتَّعظ به، ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وما يتَّعظون إلاّ أن يشاءَ اللهُ ذلك لهم، وَقِيْلَ: لهم المشيئة. وَقِيْلَ: إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ لهم الْهُدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ أي هو أهلٌ أن يُتَّقى فلا يُعصَى، ولا يُجعَلَ معه إلهٌ آخر، ﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ يَغفِرُ لِمَن اتَّقى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنا أهلٌ أنْ أُتَّقى فلا يُجعلَ معي إلهٌ، فمَن اتَّقى أن يجعلَ معي إلهاً فإنِّي أهلٌ أن أغفرَ له، وقال قتادة: ((هُوَ أهْلٌ أنْ تُتَّقِي مَحَارمَهُ، وَأهْلٌ أنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ))[1].

آخر تفسير سورة (المدثر) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٥٢١) بإسنادين.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّمِائَةٍ وَاثْنَان وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتُسعُونَ كَلِمَةً، وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقِيَامَةِ شَهِدْتُ أنَا وَجِبريل لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ أنَّـهُ كَانَ مُؤْمِناً بيوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَاءَ وَجْهُهُ مُسْفِرٌ عَلَى وُجُوهِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ ﴾ ؛ معناهُ: أقسِمُ بيومِ القيامةِ، و(لاَ) صلـةٌ. وقال الفرَّاء: ((لاَ) رَدٌّ عَلَى الَّذِينَ أنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ))[2] ويدلُّ على معنـى إثباتِ القَسمِ، قراءةُ الحسنِ والأعرج بغيرِ ألفٍ، وتقديرهُ على هذه القـراءة: لأقْسِـمَنَّ فحُذفت النون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ ؛ يعـني بجميـعِ أنفُـسِ الخلائقِ؛ لأنه ليس من نَفْسٍ بارَّةٍ ولا فاجرةٍ إلاَّ وهي تلومُ نفسَـها، قـال ﷺ: [لَيْسَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أحَدٌ إلاَّ وَيَلُومُ نَفْسَهُ، إنْ كَانَ مُحْسِناً قَالَ: يَا لَيْتَنِي ازْدَدْتُ، وَإنْ كَانَ مُسِيئاً

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بن كعب بإسناد واه.

(٢) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٠٧؛ قال الفراء: (جاء القـرآن بـالرد علـى الذيـن أنكـروا البعـث، والجنة، والنار، فجاء الإقسام بالرد عليهم في كثير من الكلام المبتدأ منه، وغير المبتدأ منه؛ كقولك في الكلام: لا والله لا أفعل ذاك، جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة رداً لكلام قد مضى، فلو ألقيـت (لا) مما ينوى به الجواب لم يكن بين اليمين التي تكون جواباً، واليمـين الـتي تسـتأنف فـرق. ألا ترى أنك تقول مبتدئاً: والله إن الرسول لَحَقٌّ، فـإذا قلـت: لا والله إن الرسـول لَحَـقٌّ، فكـأنك أكذبت قوماً أنكروه، فهذه جهة (لا) مع الإقسام وجميـع الأيمـان في كـل موضـع تـرى فيـه (لا) مبتدأ بها).

قَالَ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أفْعَلْ][(١)]. ومعنى: ﴿بالنفس اللَّوَّامَةِ﴾: الملومة، وَقِيْلَ: إنَّما سُميت النفسُ لَوَّامَةً؛ لأنَّها كثيرةُ اللَّومِ لا صبرَ لها على مِحَنِ الدُّنيا وشدائدِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ ﴾ ؛ يعني الكافرَ بالبعثِ؛ يقولُ: أيَظُنُّ الكافرُ أنْ لن نجمعَ عظامَهُ بعد التفرُّق، ولن نبعثَهُ في الآخرةِ، ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ ؛ بلى بجمعِها قادرين على تسويةِ بَنَانِهِ، قال ابنُ عبَّاس: ((الْمُرَادُ بِهِ أبُو جَهْلٍ، يَقُولُ اللهُ لَهُ: أتَحْسَبُ أنْ لَنْ نَبْعَثَكَ)) (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)؛ على ما كانَتْ وإنْ قلَّ عِظَامُها وصَغُرَت فنردُّها، ونؤلِّفُ بينها حتى نُسَوِّيَ البَنانَ، ومَن قدرَ على جمعِ صغارِ العظام كان على جمعِ كِبارها أقدرَ.

وَقِيْلَ: معناهُ: قادرين على أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ وأناملَهُ، ونجعلَ أصابعَ يديه ورجليهِ شيئاً واحداً كخُفِّ البعيرِ أو ككَفِّ الخنْزير وكحافرِ الحمير، فلا يمكنهُ أن يفعلَ بها شيئاً، ولكن مَنَنَّا عليه ففرَّقنا أصابعَهُ حتى يأخُذ بها ما شاءَ، ويقبضَ إذا شاءَ ويبسطَ إذا شاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ ﴾ ؛ أي بل يريدُ الكافر أن يكذِّبَ بما قُدَّامَهُ من البعثِ، ويقدِّمَ الذنبَ ويؤخِّرَ التوبةَ ويكفُرَ أبداً ما عاشَ، قال ابنُ الأنباريِّ: ((مَعْنَاهُ: مُدَّةَ عُمُرِهِ وَلَيْسَ فِي نِيَّتِهِ أنْ يَتُوبَ)). والمعنى: ما يجهلُ ابنُ آدم أنَّ ربَّهُ قادرٌ على جمعِ عِظَامهِ بعدَ الموتِ، ولكنَّهُ يريدُ أن يَفجُرَ أمَامَهُ؛ أي بمعنى قُدَّاماً قُدَّاماً[(٢)] في معاصِي اللهِ، رَاكباً رأسَهُ لا يُقلِعُ ولا يتوبُ حتى يأتيَهُ الموتُ على أشرِّ أحوالِهِ وأسْوَءِ أعمالِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾ ؛ أي يسألُ متى يومُ القيامةِ تَكذيباً به، ويقالُ في معنى (لِيَفْجُرَ أمَامَهُ) أن يعزمَ على الفُجور في مستقبلِ عُمره في

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٥٣٠) عن عكرمة، و(٢٧٥٣١) عن سعيد بن جبير. وعلى ما يبدو أنه من تفسير الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٠٨، قاله بمعناه.

(٢) هكذا في المخطوط كرر (قُدَّاماً).

أوقاتٍ لعلَّهُ لا يعيشُ فيها، ولا يبلغُ إليها، وأصلُ الفُجُور: الميلُ عن القصدِ، يقال للكافرِ: فاجرٌ، وللمكذِّب بالحقِّ: فاجرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾؛ معناهُ: إذا حارَ البصرُ وفَزِعَ، وذلك عند رُؤية جهنَّم، وهذا جوابٌ لقولهِ تعالى (أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) فيقول الله تعالى: (إذا بَرقَ البَصَرُ) قرأ نافع بفتح الراء من البَريق[1]، أي يشخَصُ البصرُ إلى ما يتوقَّع من أهوال يوم القيامة، كنظرِ الْمُحتَضِرِ عند نظرهِ إلى الملائكةِ. قولُه: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾، أي وذهبَ ضوءُ القمرِ، والْخُسُوفُ ذهابُ الضَّوءِ، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾؛ أي جُمعا في ذهابِ نُورهما كالثَّورَين القريبَين، يعني كُوِّرَا يومَ القيامةِ. وَقِيْلَ: إنَّهما يُرمى بهما في النار، خُلقا من النار ثم يَعودان فيها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾؛ معناهُ: يقولُ الكافر المكذِّبُ بيومِ القيامة: أين المفرُّ وأين المهربُ من الأهوالِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾؛ أي حقّاً لا موضعَ يَلِجُ إليه ولا حِصْنَ ولا حِرْزَ. والوَزَرُ في اللغة: كلُّ ما تحصَّنْتَ بهِ، والتجأتَ إليهِ، ومنه الوَزيرُ؛ لأنَّ الناسَ يلتجئون إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾؛ أي الْمُنتَهى والمرجِعُ والمصيرُ. وَقِيْلَ: المستقرُّ موضعُ الحساب. وَقِيْلَ: يعني أنَّ مُستقرَّ المؤمنين الجنَّة، ومستقرَّ الكافرين النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾؛ أي بما قدَّمَ من طاعةِ الله، وما أخَّر من طاعةِ الله فلم يعمَلْ به، وَقِيْلَ: معناهُ: يُنَبَّؤُ الإنسانُ بأوَّل عملهِ وآخرهِ. وَقِيْلَ: بما قدَّم من أموالهِ، وما خلَّفَ للورثةِ. وَقِيْلَ: بما عَمِلَ في أوَّل عُمره، وما عَمِلَ في آخرِ عُمره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾؛ يعني أنَّ جوارحَهُ تشهدُ عليه بما عَمِلَ، فهو شاهدٌ على نفسهِ بشهادة جوارحِهِ، والمعنى: على الإنسانِ

---

(١) ينظر: جامع البيان: مج ١٤ ج٢٩ ص٢٢٢.

رُقَبَاءُ يَشهَدُونَ عليه بعملهِ وإنْ أرخَى سُتُورَهُ وأغلَقَ أبوابَهُ، يعني بالرُّقباء سَمْعَهُ وبصرَهُ وذكرَهُ ويديهِ ورجليهِ وجميع جوارحه. ودخولُ الهاء في بصيرةٍ لأن المرادَ بالإنسانِ ها هنا الجوارحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي ولو اعتذرَ وجادلَ عن نفسهِ لم ينفعْهُ ذلك، وإن اعتذرَ فعليه مَن يُكذِّبُ عُذرَهُ. وَقِيْلَ: المعاذيرُ جمع المِعْذار وهو السِّترُ، معناه: وإن أسْبَلَ السِّترَ؛ ليَختفي بما عمِلَ، فإنَّ نفسَهُ شاهدةٌ عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾؛ خطابٌ للنبيِّ ﷺ يقول: لا تحرِّكْ بالقرآنِ لسانَكَ، ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾؛ بقراءتهِ قبلَ أن يفرُغَ جبريلُ من قراءتهِ عليك، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ لَمْ يَفْرُغْ جِبْرِيلُ مِنْ آخِرِهِ حَتَّى تَلاَهُ النَّبيُّ ﷺ مَخَافَةَ أنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ، فَأَعْلَمَهُ اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي إنَّ علينا حفظَهُ في قلبك، وتأليفَهُ على ما يأمرُهُ اللهُ به، وأعلَمهُ بأنه لا يُنسِيه إيَّاه، كما قال تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[١] فلم ينسَ النبيُّ ﷺ شيئاً حتى ماتَ.

وعن ابنِ عبَّاس في معنى هذه الآيةِ قال: ((كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شَدَّةً، كَانَ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يُحرِّكُ لِسانَهُ وَشَفَتَيْهِ قَبْلَ فَرَاغِ جِبْرِيلَ مِنْ قِرَاءَةِ الْوَحْيِ مَخَافَةَ أنْ لاَ يَحْفَظَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ الآيَةَ: (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ))[٢]. ومثلُهُ قوله ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) في صَدرِكَ (وَقُرْآنَهُ) أي إنَّ جبريل يَقرؤُه عليكَ حتى تَحفظَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي فإذا قراهُ جبريلُ بأمرِنا وفرغَ منه، فاقرَأهُ أنتَ إذا فرغ جبريلُ من قراءتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: فإذا جمعناهُ،

(١) الأعلى / ٦ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: باب ما جاء في القرآن: ج ١ ص٢٠٢-٢٠٣. والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٥٧. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٢٧) و٤٩٢٩ و٥٠٤٤). والطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٦٢: الحديث (١٢٢٩٧).

(٣) طه / ١١٤ .

والقيناهُ فاتَّبع ما فيه من الحلالِ والحرامِ والأمرِ والنهي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي بيانُ ما أشكَلَ عليك من معانيهِ، وبيانُ مُجملاتهِ مثلَ أركانِ الصَّلاة وشُروطِها ونصَاب الزكاة ومقاديرها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ معناهُ: كلاَّ لا يُؤمِنُ أبو جهلٍ وأصحابهُ بالقرآن وببيانه بل يحبُّون العاجلةَ، يعني كفَّارَ مكَّة يحبُّون الدنيا ويعمَلون لها، ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ ويذرُون العملَ للآخرةِ، فيُؤثِرُون الدُّنيا عليها، وقرأ نافعُ والكوفيون (تُحِبُّونَ) و(تَذرُونَ) بالتاء؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: (بَلْ تُحبُّون العاجلةَ وَتَذرُونَ الآخِرَةَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ معناهُ: وجوهٌ يومَ القيامةِ نَاعِمَةٌ غضَّة حسَنة مضيئةٌ مُسفِرَةٌ مشرقةٌ بنعيمِ الجنَّة، وهي وجوهُ المؤمنين كما قال تعالى ﴿تَعْرفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾(٢) وقولُهُ تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ قال الكلبيُّ: ((تَنْظُرُ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَئِذٍ لاَ تُحْجَبُ عَنْهُ))، قال مقاتلُ: ((تَنْظُرُ إِلَى ربها مُعَايَنَةً))(٣).

قال ﷺ: [إذا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَقُولُ تَعَالَى: أَتُرِيدُونَ شَيْئاً أزيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُنَضِّرْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ أَلَمْ تُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِم، يَنْظُرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ بِلاَ كَيْفٍ وَلاَ تَحْدِيدٍ، كَمَا عَرَفَتْهُ الْقُلُوبُ بلاَ كَيْفٍ وَلاَ تَشْبِيهٍ](٤).

---

(١) وفرَّق بعض أهل التفسير بين القراءة بالتاء والقراءة بالياء، فمن خالف القراءة المشهورة، وقرأ بالياء فردّاً على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ﴾ وهو بمعنى الناس، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود. ينظر: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٨٧. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٠٧.

(٢) المطففين / ٢٤ .

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٣.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٥٣؛ بمعناه، قال السيوطي: (أخرجه ابن عساكر عن أبي موسى).

وعن عبدِالله بن عمرَ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً أنْ يَنْظُرَ فِي مُلْكِهِ ألْفَ سَنَةٍ يَرَى أقْصَاهُ كَمَا يَرَى أدْنَاهُ، وَيَنْظُرَ فِي سُرُرِهِ وَأزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ، وَإنَّ أفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّ يَوْمٍ نَظْرَتَيْنِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي كَالِحَةٌ عابسَةٌ كاشرة مُسودَّةٌ، وهي وجوهُ الكفَّار، ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي تَستيقِنُ أن يُفعلَ بها داهيةٌ من العذاب، والفَاقِرَةُ: الداهيةُ العظيمة والأمرُ الشديد الذي يَكسِرُ فِقَارَ الظَّهرِ، قال ابنُ زيدٍ: ((هِيَ دُخُولُ النَّارِ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ هذا ذكرُ حال من يَحضرهُ الموتُ ليَرتَدِعَ الناسُ عمَّا يؤدِّيهم إلى العذاب، والمعنى: إذا بلَغتِ الرُّوحُ التُّرْقُوَةَ، ويقولُ مَن يحضرُ الميِّتَ من أهلِه: هل مِن رَاقٍ يُرقِّيهِ وطبيبٍ يُداويهِ، يطلُبون الأطباءَ؛ ليَكشِفُوا عنه إما بالرُّقَى، أو بالعلاجِ. وقال بعضُهم: هذا من قولِ الملائكة؛ لأنَّ النَّفسَ عندما تُقبض يحضرُها سبعةُ أملاكٍ من ملائكةِ الرَّحمة، وسبعةُ أملاكٍ من ملائكةِ العذاب أعوانٌ لِمَلَكِ الموتِ، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ أيُّهم يَرْقَى بروحِه.

والتَّرَاقِي: جمعُ تُرْقُوَةٍ؛ وهي عظمٌ وصلٍ بين ثُغرَةِ النَّحرِ والعَاتِقِ، وهما تُرقوتَان عن يمينِ ثُغرَةِ النَّحرِ وعن شِمالها كالْحَوْضَين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي تَيقَّنَ عند ذلك المريضُ الذي بلَغت روحهُ تَرَاقِيَهُ أنه الفراقُ من الدُّنيا، ومفارقةُ المالِ والأهلِ والولدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي اجتمعَتْ عليه الشدائدُ والتقَى عليه أمرُ

---

(١) أدرج الناسخ هنا عبارة (رواه الحاكم في صحيحهِ) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٣٥)، وقال: (هذا حديث مفسر في الرد على المبتدعة، وإن لم يخرجاه وثوير بن أبي فاختة فلم ينقم عليه غير التشيع). وضعفه الذهبي. وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٩٠٣)

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٤٢).

الدنيا والآخرةِ، وهو في شدَّة كرب الموت وهَوْلِ المطلعِ وآخر شـدائدِ الدُّنيـا مـع أوَّل شدةِ الآخرة.

وقال الضحَّاك: ((النَّاسُ يُجهِّزُونَ بَدَنَهُ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُجهِّزُونَ رُوحَهُ))[1]. وقـال الحسنُ: ((مَعْنَاهُ: وَالْتَفَّتْ سَاقَاهُ فِي الْكَفَنِ يَلفُّ أحَدُهُمَا إلَى الآخَرِ))[2]. وقال قتـادةُ: ((مَاتَتْ سَاقَاهُ فَلَمْ تَحْمِلاَهُ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَـوَّالاً))[3]. قوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي إليه المرجعُ والمنتهَى في الآخرةِ إلى حيث يأمرُ اللهُ، إمـا إلى عِلِّيِّينَ وإمَّا إلى سِجِّين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾؛ يعني أبَا جهلٍ يقولُ اللهُ فيـه: لَـمْ يصـدِّقْ بـالقرآن، ولم يُصَـلِّ للهِ، ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي كـذبَ بالقرآن وتولَّى عن الإيمان بـه، ويدخـلُ في هـذا كـلُّ كـافرٍ مثلـه، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي رجعَ إلى أهلهِ يتبَختَرُ في المشـي ويختـالُ فيـه، وأصلـهُ: يَتمَطَّطُ أي يتمدَّدُ، والْمَطُّ هو الْمَدُّ، وتمَطَّى الإنسانُ إذا قامَ من منامهِ يَمْتَدُّ، والْمَطِـيُّ هو الظهرُ، وتمَطَّى إذا مَدَّ مَطَاهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ هــذا وعيدٌ عَلى وعيدٍ من الله لأبي جهلٍ، وهذه كلمةٌ موضوعـة للتـهديدِ والوعيـد، والمعنى كأنَّهُ يقولُ لأبي جهلٍ: الويلُ لكَ يومَ تَموتُ، والويلُ لكَ يومَ تُبعَثُ، والويلُ لكَ يومَ تدخلُ النارَ. وَقِيْلَ: المعنى أوْلاَكَ المكروهُ يا أبَا جهلٍ وقَرُبَ منك ما تكرهُ.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾؛ معنـاهُ: أيَظُـنُّ الكافرُ أن يُترَكَ مُهمَلاً لا يؤمَرُ ولا يُنهَى ولا يُوعَظُ ولا يُتلَـى ولا يحاسَـبُ بعملـهِ في الآخرة. والسُّدَى: الْمُهْمَلُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٥٦).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٢٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عن الحسن) وذكره.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٦٦٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ يَكُ هذا الإنسانُ في ابتداءِ خَلقهِ نُطفَةً من مَنِيٍّ تُصَبُّ في الرَّحم، قُرئ (تُمْنَى) يعني النطفةَ، ورُوي (يُمْنَى) بمعنى المنِيِّ. قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ؛ ثم صارَ دَماً مُنعقداً بعدَ النُّطفة، ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ، فخلقَهُ وسوَّاهُ باليدينِ والرِّجلين والعينين والأذنين إلى أن بلَّغَهُ هذا الحدَّ الذي شاهد، وخَلَقَ منه الروح.

قولُهُ: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي خَلَقَ من هذه النطفة أولاداً ذُكوراً وإناثاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أليس الَّذي خلقَ الإنسانَ مِن المنِيِّ، ونقَلَهُ من تلك الأحوال إلى هذه الحالةِ قادرٌ على أن يُحييَ الموتَى. والمعنى: مَن قَدَرَ على الابتداءِ، كان على البعثِ أقدرَ بعدَ الموتِ، دلَّهم اللهُ تعالى على البعثِ بابتداء الخلق.

وعن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ كَانَ إذا خَتَمَ هَذِهِ السُّورَة قَالَ: [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبَلَى][(1)] . وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: ((إذا قَرَأ أحَدُكُمْ (ألَيْسَ ذلِكَ بقَادِرٍ عَلَى أنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَلَى))[(2)].

آخر تفسير سورة (**القيامة**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٧٦٨٨) عن قتادة موقوفاً. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٤ نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

سُورَةُ الدَّهْــرِ

سُورَةُ الدَّهْرِ مَكِّيَّةٌ، إلاَّ قولَهُ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ...) إلى آخرِ السُّورَةِ، فإنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ، وَهِيَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَتَان وَأَرْبَعُونَ كَلِمَـةً، وَإِحْـدَى وَثَلاَثُونَ آيَةً، قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى اللهِ جَنَّةً وَحَرِيراً][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾ ؛ أي قد أتى على آدمَ أربعون سَنة التي مرَّت به وهو بصورةِ الإنسان قبلَ أن يُنفخ فيـه الـروح، ﴿ لَمۡ يَكُن ﴾ ؛ يُذكَـرُ اسمهُ، ولا يَدري ما يُراد به، كـانَ ﴿ شَيۡـٔٗا ﴾ ؛ ولم يكـن، ﴿ مَّذۡكُورًا ۝١ ﴾ ؛ لأنه كان تُراباً وطِيناً إلى أنْ نُفخ فيه الروحُ. ومعنى الآيةِ: قد أتى على آدمَ أربعُون سَنة مُلقًى بين مكَّة والطائفِ قبلَ أن يُنفخ فيه الروحُ لم يكـن شَـيئاً مذكـوراً، لا يَذكَـرُ ولا يعرفُ[(٢)] ولا يدري ما اسمهُ ولا ما يُراد به.

يُروي: ((أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأ (هَلْ أتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) فَقَالَ عُمَرُ: لَيْتَهَا تَمَّتْ))[(٣)] أي لَيْتَهُ بَقِيَ على مَـا كـانَ لا يلـدُ. وقرأ رجلٌ عند ابنِ مسعود (لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) فقال: ((لَيْتَ ذلِكَ لَمْ يَكُـنْ))[(٤)]. ولفظُ (هَلْ) بمعنى (قد)؛ لأنه لا يجوزُ على اللهِ أن يستفهِمَ؛ لأنه لَمْ يزَلْ عالِماً بالأشياءِ كلِّها، ولا يزالُ عالِماً.

---

(١) هو الحديث عن أبي، رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٩٣ بإسناد واه.

(٢) في المخطوط: (إلا يعرف ويذكر) وهو غير مناسب.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٦؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المبارك وأبو عبيد في فضائلـه وعبـد ابن حميد وابن المنذر).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنـذر عن ابن مسعود) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ؛ يعني نسل آدم خلقه الله من نطفة أمشاج؛ أي أخلاطٍ واحدُها مَشِيجٌ، وهو شيئان مَخلوطَان، يعني اختلاطَ نُطفة الرَّجلِ بنطفةِ المرأة، أحدُهما أبيضُ والآخر أصفرُ، فما كان من عصبٍ وعظمٍ وقوَّة فمِن نُطفة الرجل، وما كان من لحمٍ ودم وشَعرٍ فمن نُطفة المرأة. وتَمَّ الكلامُ، ثُم قالَ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: جعلناهُ سميعاً بصيراً لنبتَليهِ.

والأمشاجُ الاختلاطُ، يقالُ: مَشَجْتُ هذا بهذا؛ أي خلَطتُه به فهو مَمْشُوجٌ؛ أي مخلوطٌ، وقال ابنُ عبَّاس والحسن وعكرمةُ ومجاهد: ((يَعْنِي مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ يَخْتَلِطَانِ فِي الرَّحِمِ، فَيَكُونُ مِنْهُمَا جَمِيعاً الْوَلَدُ، فَمَاءُ الرَّجُلِ أبْيَضٌ غَلِيظٌ يَجْرِي مِنَ الصُّلْبِ، وَمَاءُ الْمَرْأةِ أصْفَرُ رَقِيقٌ يَجْرِي مِنَ التَّرَائِبِ، ثُمَّ يَخْتَلِطَانِ فَأيُّهُمَا عَلاَ مَاؤُهُ مَاءَ صَاحِبِهِ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ)). ويقالُ: جعلَ اللهُ في النُّطفة أخلاَطاً من الطبائعِ التي تكونُ في الإنسانِ من الحرارةِ والبُرودة واليُبوسةِ والرطوبة، وقال الحسنُ: ((نَعَمْ وَاللهِ خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ نُطْفَةٍ مُشِجَتْ بدَمِ الْحَيْضِ، فَإذا حَلَّتِ النُّطْفَةُ ارْتَفَعَ الْحَيْضُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ؛ أي بيَّنَّا له طريقَ الهدى وطريقَ الضَّلالة، فمَكنَّاهُ من الكُفرِ والشُّكر، ثُمَّ إنه يكون بعدَ الابتلاء: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي إما موحِّداً طائعاً، وإما مُشركاً كافراً، والمعنى: إمَّا أنْ يختارَ طريقَ الإسلامِ، وإمَّا أنْ يختارَ طريقَ الكُفر. ومعنى (نَبْتَلِيهِ) أي نتَعبَّدهُ فيظهَرُ ما عَلِمْنَا منه، ولا يقعُ الابتلاءُ إلاَّ بعد تَمام الخِلْقَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ ، بيَّن اللهُ بهذا ما أعدَّ في الآخرةِ للكافرين وما أعدَّ للمؤمنين، والمعنى: إنَّا هيَّأنا في جهنَّم لكلِّ كافرٍ سِلْسِلَةً في النار طولُها سَبعون ذراعاً، يُسْلَكُ فيها وقُرنَاؤُهُ من الشَّياطين، وقولهُ تعالى (وَأغْلاَلاً) أي أغلالاً من حديدٍ تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقِهم من ورائِهم. وقوله (وَسَعِيراً) أي وناراً مُوقَدَةً يُعذبون بها.

قرأ نافعُ وعاصم والأعمش والكسائي وأيوب (سَلاَسِلاً) بالتنوين[1]، وكذلك ﴿قَوَارِيراً﴾، وفيه وجهان: أحدُهما: أنَّ من العرب من يَصرفُ جمعَ ما لا ينصرفُ. والثاني: أنَّ هذا الجمعَ أشبَهَ الآحادَ؛ لأنَّهم قالوا صَوَاحِبَاتُ يوسُفَ في جمعِ صَوَاحِبَ، وكذلك مَوَالِيَاتُ في جمعِ مَوَالِي، فإذا كان صواحبُ في معنى الواحدِ، فكذلك سَلاَسِلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ يعني بالأبرار الْمُطِيعِينَ للهِ الصَّادقين في إيمانِهم في الدُّنيا. وَقِيْلَ: هم الذين يَبرُّونَ الآباءَ والأُمَّهات من المؤمنين. وَقِيْلَ: هم الذين لا يُؤْذُونَ الذرَّ[2] ولا يرضَون بالشرِّ. وقولُهُ تعالى (مِنْ كَأْسٍ) أي من خَمْرٍ، وقولهُ تعالى (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) أي كان مِزَاجُ الخمرِ التي كانت في الكَأْسِ كَافُوراً.

قال بعضُهم: أرادَ بذلك ما يُشَمُّ من ريحِها من جهةِ طَعمِها، كما رُوي عن مجاهدٍ أنه قالَ ((يُمْزَجُ شَرَابُهُمْ بالْكَافُور وَريحِ الْمِسْكِ وَطَعْمِ الزَّنْجَبيلِ، لَيْسَ كَكَافُور الدُّنْيَا وَلاَ كَمِسْكِهَا وَزَنْجَبيلِهَا، وَلَكِنْ وَصَفَ اللهُ مَا عِنْدَهُ بِمَا عِنْدَنَا لِتَهْتَدِيَ لَهُ الْقُلُوبُ)). ويقالُ: يغيِّرُ اللهُ طعمَ الكافور إلى نِهاية ما يُشتهى، فيجتمعُ طِيبُ الرائحةِ مع لذةِ الطَّعمِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَيْنًا ﴾ ؛ منصوبٌ على البدلِ من (كَافُوراً)، ويقالُ في معنى (يَشْرَبُونَ... عَيْناً) أي مِن عينٍ فوَّارةٍ في أرضِ الجنة، وقولهُ تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون معناهُ: يشربُها، يقالُ: شَربْتُ بماءِ كذا؛ أي شَربْتُهُ، ويجوز أنْ يكون معناهُ: يشربُ بالجنَّة أو بالأرضِ التي بها العينُ، كما يقالُ: شَربنا كَذا شَراباً صَافياً.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٩ ص١٢٣، وقال:(وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر) وذكره. وينظر أيضاً: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٩٥.

(٢) الذرُّ: جمع ذرَّةٍ، وهي أصغرُ النملِ. وحكاه القرطبي من كلام الحسن رحمه الله. في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٢٥.

قوله (عِبَادُ اللهِ) أي أولياؤه، يفجِّرون تلكَ العينَ، ويسُوقونَها إلى حيث شَاءُوا لِمَن دونَهم من أهلِ الجنَّة، بخلافِ عُيون الدُّنيا وأنْهارها. والتفجيرُ: تَشْقِيقُ الأرضِ بجَرْيِ الماءِ. وَقِيْلَ: معنى (يُفجِّرُونَهَا) أي يقُودون تلك العينَ حيث شاءوا من منازلهم ودُورهم وحيث شاءوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ ؛ يعني الأبرارَ هذه صفاتُهم في الدُّنيا، كانوا يُوفُونَ بطاعةِ الله من الصلاةِ والحجِّ، ومعنى (النَّذْر) في اللغة: الإيجابُ، ومعنى الوفاءُ بالنذر إتمامُ العهدِ والوفاءُ به وإقامة فُروضِ الله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ويخافون من نقضِ العهدِ عذابَ يومٍ كان شرُّه مُمْتَدّاً فاشِياً. يقالُ: استطارَ الخيرُ إذا فشَا وظهرَ. وعن قتادةَ قال: ((اسْتَطَارُوا للهِ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى مُلِئَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ مِنْـهُ))[1] نَحْوَ انْشِقَاق السَّمَاءِ، وَانْتِثَار الْكَوَاكِب، وَنَسْفِ الْجِبَال، وَخُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَفَزَعِ الْمَلاَئِكَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ ؛ أي على حُب الطعامِ وقلَّتهِ على أشدِّ ما يكونون محتاجين إليه، ويُؤْثِرُونَ على أنفسِهم ولو كان بهم خصَاصَةٌ. ويقالُ: على حب الله لطلب مَرضَاتِه، وقوله تعالى: ﴿ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ فالمسكينُ هو الذي يسألُ، وَقِيْلَ: هو المتعفِّفُ الذي لا يسألُ. واليتيمُ: الذي لا أبَ له من يَتامَى المسلمين. والأسيرُ: الكافرُ المأسورُ في أيدِي المؤمنين.

قال قتادةُ: ((كَانَ أسِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَوَاللهِ لأَخُوكَ الْمُسْلِمُ أعْظَمُ حُرْمَةً وَحَقّاً عَلَيْكَ))[2]. ويقالُ: الأسيرُ العَبْدُ، ويستدلُّ من هذه الآيةِ على أنَّ في إطعامِ أهلِ الجوع ثواباً جَزيلاً من اللهِ تعالى، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ أطْعَمَ مُسْلِماً عَلَى جُوعٍ إلاَّ أطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ سَقَى مُسْلِماً عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٢٣). وعزاه السيوطي إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة. في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٢٦ و٢٧٧٢٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ قال مجاهدُ: ((أمَا وَاللهِ نَعَمْ؛ لَمْ يَتَكَلَّمُواْ بذلِكَ وَلَكِنْ عَلِمَ اللهُ مَـا فِـي قُلُوبِـهِمْ فَـأَثْنَى عَلَيْهِمْ خَيْراً))(١). والمعنى: أنَّهم يقولـون في أنفسِـهم وفيمـا بينـهم وبـين ربـهم: إنمـا نُطعِمُكم لطلب ثوابه. وقولهُ (لاَ نُرِيدُ مِنْكُـمْ جَـزَاءً وَلاَ شُكُوراً) أي لا نريـدُ منكـم مكافأةً ولا مَحْمَدَةً.

وقوله (شُكُوراً) مصدرٌ مثل القُعُودِ والخروجِ. وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ مَـن أطعمَ غيرَهُ للمكافأةِ أو لكي يمدحَهُ ويَشكُرَهُ لا يستحقُّ بذلك الثواب، وإنمـا يسـتحقُّهُ إذا فعلَهُ خَالِصاً للهِ لا يُريدُ شَيئاً مِنَ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: إنـا نَصنَعُ ما نصنَعُ خَوفاً من عذاب ربنا وطَمَعاً في رحمتهِ، اليَوْمُ العَبُوسُ: هو الذي تعبَس فيه الوجوهُ مِن هَولِهِ فلا تنبسطُ، والقَمْطَرِيرُ: الشـديدُ الغليـظُ العَصِـبُ، يقـالُ: يـوم قَمْطَرِيرٌ وَطِرٌ إذا كان عظيمَ الشَّرِّ طويلَ البلاءِ.

وعن ابن عبَّاس قـال:((الْعَبُـوسُ: الضَّيِّـقُ، وَالْقَمطَرِيـرُ: الطَّويـلُ))(٢). وقـال مجاهدُ: ((الْقَمْطَرِيرُ: الَّـذِي يُقَلِّـصُ الْوَجْـهَ وَيَقْبِـضُ الْجَبْهَـةَ، وَمَـا بَيْـنَ الأَعْيُـنِ مِـنْ شِدَّتِهِ))(٣). قال ابنُ عبَّاس: ((يَعْبسُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ الْقِطْرَانِ سَحّاً))(٤)، قال الحسنُ: ((سُبْحَانَ اللهِ! مَا أَشَدَّ اسْمَهُ وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ اسْمِهِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ ؛ أي دفعَ اللهُ عنـهم شـرَّ ذلـك اليومِ، ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي حُسناً في الوجوهِ وسُروراً في القلوب لا انقطـاعَ لــه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي

---

(١) في الـدر المنثـور: ج ٨ ص٣٧٠؛ قـال السـيوطي: (أخرجـه عبدالـرزاق وعبـد بـن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن مجاهد) وذكره. وأخرجه الطبري في جـامع البيان: الأثر (٢٧٧٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٤٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٧٣٦).

جَزاهم بما صبَروا في الدُّنيا على طاعةِ الله، وعلى ما أصابَهم من الشَّدائدِ في ذاتِ الله جنَّةً يَسكنُونها وحَريراً يلبسونَهُ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ ؛ نُصِبَ على الحالِ فيها؛ أي في الجنَّة ((متكئين)) على الأرائك؛ أي على السُّرُر في الحِجَال، ولا تكون أريكةً إذا اجتمعا، قال مقاتلُ: ((الأَرَائِكُ: السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ مِنَ الدُّرَرِ وَالْيَاقُوتِ، مَوْضُونَةٌ بقُضْبَانِ الدُّرِّ وَالذهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَلْوَانِ الْجَوَاهِرِ. وَالْحِجَالُ: شِبْهُ الْقِبَابِ فَوْقَ السُّرُرِ))(١)، ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ لا يصيبُهم في الجنَّة شمسٌ ولا زمهريرٌ؛ أي لا يُصيبهم حرُّ الشمسِ ولا بردُ الزَّمهرير، البردُ الشديدُ الذي يحرِقُ ببُرودَتهِ إحراقَ النار.

ورُوي أنَّ هذه الآيات نزَلت في عليٍّ وفاطمةَ وجاريةٍ لهما يقالُ لها فضَّة(٢)، قال ابنُ عبَّاس: ((مَرِضَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَعَادَهُمَا جَدُّهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ عُمَرُ، فَقَالُوا لِعَلِيٍّ: [لَوْ نَذرْتَ عَلَى وَلَدَيْكَ نَذْراً ؟] فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: إنْ بَرِئَ وَلَدَايَ مِمَّا بهِمَا صُمْتُ ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ كَذلِكَ، وَقَالَتْ جَارِيَتُهُمَا كَذلِكَ، فَوَهَبَ اللهُ لَهُمَا الْعَافِيَةَ.

فَانْطَلَقَ عَلِيٌّ ﷺ إلَى سَمْعُونَ الْيَهُودِيِّ فَاسْتَقْرَضَ مِنْهُ ثَلاَثَةَ أصْعٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَطَحَنَتِ الْجَارِيَةُ صَاعاً، وَخَبَزَتْ مِنْهُ خَمْسَةَ أقْرَاصٍ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قُرْصٌ، وَصَلَّى عَلِيٌّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَغْرِبَ ثُمَّ أتَى الْمَنْزِلَ، فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، إذْ أتَاهُمْ مِسْكِينٌ فَوَقَفَ بالْبَاب وَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٩.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٠؛ قال القرطبي: (ذكرَ النقاشُ والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين في قصةٍ علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصحُ ولا يثبتُ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس) وذكره. قلتُ: لا يخفى ما فيها، فهي ظاهرةُ الاختلاق، وفيها أشعارٌ للمسكين واليتيم يخاطبون بيتَ النبوة، وأشعارٌ لفاطمة عليها السلام تخاطبُ كل واحد منهم، وهي أقربُ إلى الأدب المسرحيِّ المعاصر، ومما لا شكَّ فيه أن فاطمة وعلي رضي الله عنهما أرفعُ مما ذكر في هذا الشعر والبلاغة، بل لا يقاس؛ لسفساف ألفاظ ما ذُكر وسُخف معناه.

الْمُسْلِمِينَ، أطْعِمُونِي أطْعَمَكُمُ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَسَمِعَهُ عَلِيٌّ ﷺ فأنْشَأ يَقُولُ:

فَـاطِمَ ذاتَ الْمَجْـدِ وَالْيَقِـينْ　　　يَـا بِنْـتَ خَـيْرِ النَّاسِ أجْمَعِـينْ
أمَـا تَرَيْـنَ الْبَـائِسَ الْمِسْـكِينْ　　　قَـدْ قَـامَ بِالْبَـابِ لَـهُ حَنِـينْ
يَشْـكُو إلَـى اللهِ وَيَسْـتَكِينْ　　　يَشْـكُو إلَيْنَـا جَـائِعٌ حَزِيـنْ
كُـلُّ امْـرِئٍ بِكَسْـبِهِ رَهِـينْ　　　وَفَـاعِلُ الْخَـيْرَاتِ يَسْـتَبِينْ
مَوْعِـدُهُ فِـي جَنَّـةٍ عِلِّـينْ　　　حَرَّمَـهَا اللهُ عَلَـى الضَّنِـينْ
وَلِلْبَخِيـلِ مَوْقِـفٌ مُـهِينْ　　　تَـهْوِي بِـهِ النَّـارُ إلَـى سِجِّينْ
شَرَابُـهُ الْحَمِيـمُ وَالْغِسْلِيـنْ

فَأنْشَأتْ تَقُولُ:

أمْـرُكَ يَـا ابْـنَ عَـمٍّ سَـمْعٌ وطَاعَـهْ　　　مَـا بِـي مِـنْ لُـوْمٍ وَلاَ وَضَاعَـهْ
غَذَيْـتُ فِـي الْخُـبْزِ لَـهُ صِنَاعَـهْ　　　أُطْعِمُـهُ وَلاَ أُبَـالِي السَّـاعَهْ
أرْجُـو إذا أطْعَمْـتُ ذا الْمَجَاعَـهْ　　　أنْ ألْحَـقَ الأَخْيَـارَ وَالْجَمَاعَـهْ
وَأدْخُـلَ الْجَنَّـةَ وَلِـي شَفَاعَـهْ

فَأعْطَوْهُ طَعَامَهُمْ وَلَمْ يَذُوقُوا لَيْلَتَهُمْ إلاَّ الْمَاءَ. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّـانِي أصْبَحُـوا صِيَاماً، فَطَحَنَتِ الْجَارِيَةُ الصَّاعَ الثَّانِي، وَخَبَزَتْ مِنْهُ خَمْسَةَ أقْرَاصٍ، فَصَلَّى عَلِيٌّ مَـعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أتَى الْمَنْزِلَ فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإذا بِيَتِيمٍ قَـدْ وَقَـفَ عَلَـى الْبَـابِ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، أنَـا يَتِيـمٌ مِـنْ أوْلاَدِ الْمُـهَاجِرِينَ، اسْتُشْـهِدَ وَالِدِي يَوْمَ الْعَقَبَةِ، أطْعِمُونِي أطْعَمَكُمُ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ، فَسَـمِعَهُ عَلِـيٌّ ﷺ فَأنْشَـأَ يَقُولُ:

فَـاطِمَ بِنْـتَ السَّـيِّدِ الْكَرِيـمِ　　　بِنْـتَ نَـبِيٍّ لَيْـسَ بِـاللَّئِيمِ[1]
قَـدْ جَاءَنَـا اللهُ بِـذِي الْيَتِيـمِ　　　مَـنْ يَرْحَـمِ الْيَـوْمَ يَكُـنْ رَحِيـمِ

---

(١) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٠٠، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٢: (بنت نبيٌّ ليس بالزَّنيم).

مَوْعِدُهُ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ قَدْ حُرِّمَ الْخُلْدُ عَلَى اللَّئِيمِ
يُسَاقُ فِي الْعُقْبَى إِلَى الْجَحِيمِ

فأنشأتْ فاطمةُ تقولُ:

إِنِّي سَأُعْطِيهِ وَلاَ أُبَالِي وَأُوثِرُ اللهَ عَلَى عِيَالِي
أَمْسَوا جِيَاعاً وَهُمْ أَشْبَالِي أَصْغَرُهُمْ يُقْتَلُ فِي الْقِتَالِ
بِكَرْبَلاَ يُقْتَلُ بِاغْتِيَالِ لِلْقَاتِلِ الْوَيْلُ مَعَ الْوَبَالِ
تَهْوِي بِهِ النَّارُ إِلَى سِفَالِ مُقَيَّدَ الْيَدَيْنِ بِالأَغْلاَلِ
كُبُولَةٌ زَادَتْ عَلَى الأَكْبَالِ

فَأَعْطَوْهُ الطَّعَامَ وَبَاتُوا عَلَى الْمَاءِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، طَحَنَتِ الْجَارِيَةُ الصَّاعَ الثَّالِثَ وَصَنَعَتْهُ خَمْسَةَ أَقْرَاصٍ، فَصَلَّى عَلِيٌّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَتَى الْمَنْزِلَ فَوُضِعَ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِذَا بِأَسِيرٍ قَدْ وَقَفَ بِالْبَابِ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، تَأْسُرُونَنَا وَتَشُدُّونَنَا وَلاَ تُطْعِمُونَنَا! أَطْعِمُونِي فَإِنِّي أَسِيرٌ أَطْعَمَكُمُ اللهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ!! فَسَمِعَهُ عَلِيٌّ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَاطِمَ يَا بِنْتَ النَّبِيِّ أَحْمَدْ بِنْتَ نَبِيٍّ سَيِّدٍ مُؤَيَّدْ
هَذَا أَسِيرٌ لِلنَّبِيِّ الْمُهْتَدْ مُكَبَّلٌ فِي غُلِّهِ مُقَيَّدْ
مَنْ يُطْعِمِ الْيَوْمَ يَجِدْهُ فِي غَدْ عِنْدَ الْعَلِيِّ الْوَاحِدِ الْمُوَحَّدْ
فَأَطْعِمْ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ أَنْكَدْ حَتَّى تُجَازَى بِالنَّعِيمِ السَّرْمَدْ

فَأَنْشَأَتْ فَاطِمَةُ تَقُولُ:

لَمْ يَبْقَ مِمَّا جِئْتَ غَيْرُ صَاعِ قَدَّمْتُهُ بِالْكَفِّ وَالذِّرَاعِ
أَطْعَمْتُهُ للهِ فِي الْجِيَاعِ وَمَا عَلَى رَأْسِي مِنْ قِنَاعِ

فَأَعْطَوْهُ طَعَامَهُمْ وَبَاتُوا لَمْ يَذُوقُوا إِلاَّ الْمَاءَ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا الْيَوْمَ الرَّابِعَ، أَخَذَ عَلِيٌّ ﷺ الْحَسَنَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَالْحُسَيْنَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، وَمَضَى بِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُمَا يَرْتَعِشَانِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَلَمَّا رَآهُمَا قَالَ: [مَاذَا أَرَى بِكُمْ ؟ انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى فَاطِمَةَ] فَانْطَلَقُوا إِلَيْهَا فَوَجَدُوهَا فِي مِحْرَابِهَا وَهِيَ قَدْ لَصِقَ بَطْنُهَا بِظَهْرِهَا

وَغَارَتْ عَيْنَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَقَالَ ﷺ: [وَاغَوْثَاهُ يَا اللهُ، أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ يَمُوتُونَ جُوعاً ؟].

فَهَبَطَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ خُذْ مَا أُعْطِيتَ، هَنَّاكَ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ، فَقَالَ: [وَمَا آخُذُ ؟] فَقَالَ: (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا...) إِلَى قَوْلِهِ: (وَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا).))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ ؛ نعتٌ للجنَّة[2]؛ أي وجزاهم بما صبَروا جنَّةً دانيةً ظِلالُها؛ أي قريبٌ ظلالُ أشجارها عليهم، دَانَتْ دَانِيَةً؛ لأن الظِّلال جمعٌ. وفي قراءةِ عبدِالله (وَدَانِياً عَلَيْهِمْ).

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٣٤؛ قال القرطبي: (قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: فهذا حديثٌ مزوّقٌ مزيَّفٌ، قد تطرف فيه صاحبه حتى تشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً أن لا يكون بهذه الصفة، ولا يُعلَم أن صاحب هذا الفعل مذمومٌ؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وهو الفضلُ الذي يفضَلُ عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترةً بأن [خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى]. [وَابْدَأ بنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ]. وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ:[كَفَى بِالْمَرْءِ إثْماً أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ]. فيحسب عاقلٌ أن علياً جَهِلَ هذا الأمرَ حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ستٍّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهنَّ؟ حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسولَ الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أن أهله سمحت بذلك لعلي، فهل جاز له أن يحمِلَ أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يُرَوَّجُ مثلَ هذا إلا على حمقى جهّال؛ أبى الله لقلوب مُتَنَبِّهَةٍ أن تظُنَّ بعلي مثل هذا. وليت شعري مَنْ حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة، وإجابةَ كل واحد منهما صاحبه، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوماً يخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مُفْتَعَلَةٌ، فإذا صارت إلى الجهَابذَةُ رموا بها وزيَّفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيدهُ أكثر).

(٢) في المخطوط: (نعتُ الجنة) وتقديره: (انتصبت نعتاً للجنة).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ ؛ أي وسُخِّرت وقُرِّبت ثمارُها تسخيراً، لا يمنعُهم عنها شوكٌ ولا بُعْدٌ، ينالُها القائم والقاعدُ والمضطجع يتناوَلونَها كما شاءُوا، فإذا كان الرجلُ قائماً تطاوَلَت له الشجرةُ على قدر قيامه، وإنْ كان قاعداً ومتَّكئاً أو مُضطجعاً انخضَعت له على قدر ذلك. ومثلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[(١)].

قال مجاهدُ: ((أرْضُ الْجَنَّةِ مِنْ فِضَّةٍ، وَتُرَابُهَا مِنْ مِسْكٍ، وَأصُولُ شَجَرِهَا مِنْ ذهَبٍ، وَوَرَقُهَا لُؤْلُؤٌ وَزَبَرْجَدُ، وَالثَّمْرُ تَحْتَ ذلِكَ، فَمَنْ أكَلَ قَائِماً لَمْ يُؤْذِهِ، وَمَنْ أكَلَ قَاعِداً لَمْ يُؤْذِهِ، وَمَنْ أكَلَ مُضْطَجِعاً لَمْ يُؤْذِهِ))[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ ، أي بأقداح من فضَّة، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ ، أي كِيزَانٌ لا عُرَى لها ولا خراطيم،﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥)﴾ ؛ أي كانت تلك الأكوابُ من فضَّة، وهي في صَفاءِ القوارير، يُرَى من خارجها ما في داخلها من الأشربة، قال ابنُ عبَّاس: ((لَوْ أخَذْتَ مِنْ فِضَّةِ أهْلِ الدُّنْيَا فَضَرَبْتَهَا حَتَّى صَارَتْ مِثْلَ جَنَاحِ الذُّبَاب لَمْ يُبْصِرْ مَا فِيهَا مَنْ رَآهَا، وَلَكِنَّ قَوَارِيرَ الْجَنَّةِ فِي بَيَاضِ الْفِضَّةِ وَفِي صَفَاءِ الْقَوَارِيرِ)).

قال الكلبيُّ:((إنَّ اللهَ جَعَلَ قَوَارِيرَ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ تُرَاب أرْضِهِمْ، وَإنَّ أرْضَ الْجَنَّةِ مِنْ فِضَّةٍ، فَجَعَلَ مِنْ تِلْكَ الْفِضَّةِ قَوَارِيرَ يَشْرَبُونَ فِيهَا)). وفي قولهِ تعالى (قَوَارِيرَ) قراءَتان، من لم ينوِّنْهما فهو لا يصرفُ، ومن صرفَهما فعلى اتِّباع رُؤوس الآي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾ ؛ أي قدَّرها الملائكة قبلَ مجيئِهم لها تَقديراً، فجاءَت على ما قدَّروا، كما رُوي:((أنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بشَيْءٍ مِنْ شَرَاب الْجَنَّةِ إلاَّ أتَاهُ الْمَلَكُ بالشَّرَاب الَّذِي اشْتَهَى فِي قَدَحٍ مِنْ فِضَّةٍ - عَلَى صِفَةِ الْفِضَّةِ الَّتِي ذكَرْنَا - عَلَى مِقْدَار رَيِّ الشَّارب وَشَهْوَتِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ حَتَّى يَسْتَوْفِي الْكَمَالَ مِنْ غَيْرِ أنْ يَتَكَلَّمَ بهِ)).

---

(١) الحاقة / ٢٣.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٧٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد) وذكره.

وألذُّ الشَّراب ما لا يكون فيه فضْلٌ ولا عجزٌ عن الرَّي، ويقالُ في معنــاه: إنَّـها تكون على قدر كفِّ الخدمِ، وريِّ المخدومِ ولم يثقُل حملها على أحدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي يُسقون في الجنَّة بآنيةٍ مملوءة من الخمرِ كان مزاجُها زَنجبيلاً لا يشبهُ زنجبيلَ الدُّنيا، لكــن سَـمَّاهُ اللهُ باسمهِ ليُعرَفَ؛ لأن العربَ تستطيبُ رائحةَ الزنجبيلِ في الدُّنيا، وأمَّا هــذا الزنجبيـلُ المذكور في الآيةِ فهو زنجبيلُ الجنَّة يشوِّقُ ويُطربُ من غيرِ حرقٍ ولدغٍ، وإنما قالَ ذلك؛ لأنَّ العربَ كانت تضربُ المثلَ بالخمرِ الممزوجة بالزنجبيلِ، قال الشاعرُ[١]:

كَـــأَنَّ الْقَرَنْفُـــلَ وَالزَّنْجَبِيــــــــلَ بَاتَــا بِفِيــهَا وَأَرْيــاً مَشُــورَا

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ تُمـزَجُ الخمـرُ بالزَّنجبيلِ، والزنجبيلُ من عينٍ في الجنَّة تُسمَّى تلك العينُ سَلسَبيلاً، والمعنى: مِـن عـينٍ فيها تسمَّى سَلْسَبيلاً، قال مقاتلُ: ((السَّلْسَبيلُ عَيْنٌ مِنَ الْخَمْرِ تَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ الْعَـرْشِ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ إلَى أهْلِ الْجِنَانِ))[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ؛ أي يطوفُ عليهم بالخدمةِ وُصفاءُ خُلقوا للخلودِ، ولا يتغيَّرون عن سنِّهم وشـبابهم. وَقِيْـلَ: معنـى (مُخَلَّـدُونَ) مُسَـوَّرُونَ مُقرَّطُـونَ، يقـال لجماعـةِ الْحُلِـيِّ الْخُلْـدُ، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ ؛ يـا مُحَمَّـدُ، ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ ؛ لصفائِهم وحُسن ألوانِهم، ﴿ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي كاللُّؤلؤِ المنثور، فإن على البساطِ كان أحسنَ منه مَنظُوماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ ؛ إذا نظـرتَ إلى الجنَّـة، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ ؛ لا يوصفُ، ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ومُلكاً عَظيمـاً لا يلحقـهُ الـزوالُ والعـزل، فقال مقاتلُ: ((الْمُلْكُ الْكَبيرُ اسْـتِئْذانُ الْمَلاَئِكَـةِ، لاَ يَدْخُـلُ رَسُـولُ رَب الْعِـزَّةِ مِـنَ الْمَلاَئِكَةِ عَلَيْهِمْ إلاَّ بإذْنِهِمْ، وَلاَ يُدْخَلُ إلاَّ بالْهَدَايَا مِنَ اللهِ تَعَـالَى، وَالسَّـلاَمِ مِـنَ اللهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٣].

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن من شعر الأعشى. والأرَى: العسلُ.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٢٩. (٣) يس / ٥٨ .

فَإذا انْتَهَى الْمَلَكُ إلَى الْبَاب قَالَ لِلْحَاجِب الَّذِي عَلَى الْبَاب: ائْذنْ لِي بالدُّخول، فَيَقُولُ الْحَاجِبُ: لاَ أسْتَطِيعُ أنْ آذنَ لَكَ عَلَى وَلِيِّ اللهِ، وَلَكِنْ أخْبرُ الَّذِي يَلِينِي، فَيَخْبرُ الَّذِي يَلِيهِ فَيَقُولُ الثَّانِي كَذلِكَ، فَلاَ يَزَالُ هَكَذا حَتَّى يَأْتِيَهُ الْخَبَرُ فِي سَبْعِينَ بَاباً، فَذلِكَ هُوَ الْمُلْكُ الْكَبِيرُ، فَإذا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ قَالَ لَهُ: إنَّ اللهَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ، فَيَضَعُ الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ ((فيها)) مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَر، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: إنَّ اللهَ عَنْكَ رَاضٍ، فَهَذا الْقَوْلُ عِنْدَهُ أكْبَرُ مِنَ السَّلاَمِ وَالْهَدِيَّةِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ)) فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أكْبَرُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ ؛ قرأ قتادةُ ومحمَّد وابنُ سيرين ونافع وحمزة والأعمشُ وأيوب (عَالِيْهُمْ) بإسكان الياء، وهي في موضع رفع بالابتداء، والمعنى: الذي يَعلوهم من الثياب، ويقالُ: الذي يعلوهم على حِجَالِهم، وقرأ الباقون (عَالِيَهُمْ) بنصب الياء على الظَّرف؛ أي فوقَهم، ويجوزُ أنْ يكون نَصباً على الحال؛ أي يطوفُ على الأبرار ولدَانٌ مخلَّدون في هذه الحالةِ؛ أي في حالِ علُوِّ ثياب السُّندسِ عليهم.

وقولهُ تعالى (خُضْرٌ) قرأ ابنُ كثير (خُضْرٍ) بالخفضِ على نعتِ السُّندس و(إسْتَبْرَقٌ) بالرَّفع على نعتِ الثياب، وقرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ (خُضْرٌ) بالرفعِ على نعت الثياب، و(إسْتَبْرَقٍ) بالخفض على معنى ثيابٍ من سندسٍ ومن استبرق. وقرأ نافعُ وأيوب (خُضْرٌ وَإسْتَبْرَقٌ) كلاهما بالرَّفع عَطفاً للإستبرقِ على قولِه(خُضْرٌ)، وقرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلَف كلاهما بالخفضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ؛ أي حُلِيُّ أهلِ الجنَّة أساورُ من فضَّة، وفي آيةٍ أخرى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أسَاورَ مِنْ ذهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾[2] فاقتضت ((دلالة)) الآيتَين أنَّ كُلاًّ منهم يُحلَّى ثلاثة أسورَةٍ: سِوارٌ من ذهبٍ وسوارٌ من فضَّة وسوار من لؤلؤٍ. قال بعضُهم: الضميرُ في قولهِ تعالى (وَحُلُّوا) راجعٌ إلى الـ (ولْدَانٌ).

---

(١) التوبة / ٧٢ .

(٢) فاطر / ٣٣ .

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي شراباً من خمرٍ ليس بنَجسٍ، كما كانت خمرُ الدنيا نجسةً. وَقِيْلَ: شرابٌ من خمرٍ لا يخالطهُ شيء من الفسادِ والقبائحِ ولا ينقلبُ إلى التغيُّر، بل هو من عينٍ على باب الجنَّة، مَن شَرِبَ منها نزَعَ اللهُ مِنْ قلبهِ الغِلَّ والحسدَ والغشَّ، قال أبو العاليةِ: ((مَعْنَاهُ: أنَّهُ لاَ يَصِيرُ بَوْلاً نَجِساً، وَلَكِنَّهُ يَصِيرُ رَشحاً فِي أبْدَانِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ ؛ أي يقالُ لهم هذا الثوابُ والكرامة كان لكم جزاءً لأعمالِكم في الدُّنيا، ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وكان عملُكم في الدنيا مَقبولاً، هذا معنى الشُّكر؛ لأنه لا يكون لأحدٍ على الله مِنَّةٌ يستحقُّ بها عليه الشُّكرَ، ولكِنَّ شكرَهُ لعبادهِ قَبولُ طاعاتِهم ومغفرةُ ذُنوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي إنا نحنُ نزَّلنا عليكَ القرآن يا مُحَمَّد متفرِّقاً آيةً وآيتين وثلاثَ آياتٍ وسورة، وفصَّلناهُ في الإنزال ولم يُنْزِلْهُ جملةً واحدة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي اصبرْ على قضائهِ، على تبليغِ الرسالة، ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي لا تُطِعْ من مُشركي مكَّة آثِماً؛ أي كذاباً فاجِراً ولا كفُوراً؛ أي كَافِراً بنِعَمِ اللهِ.

ويعني بقولهِ (آثِماً): عُتبةَ بن ربيعةَ، ويعني بالكفور: الوليدَ بن المغيرة. وَقِيْلَ: الآثِمُ الوليدُ، والكفورُ عتبةُ بن ربيعةَ، كانا قالاَ للنبيِّ ﷺ: ارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْرِ وَنَحْنُ نُرْضِيكَ بالْمَالِ وَالتَّزْوِيجِ، وكان عتبةُ قالَ للنبيِّ ﷺ: إنْ كُنْتَ صَنَعْتَ هَذا مِنْ أجْلِ النِّسَاءِ! فَلَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أنَّ بَنَاتِي مِنْ أجْمَلِهَا بَنَاتٍ، فَأنَا أزَوِّجُكَ بنْتِي وَأسُوقُهَا إلَيْكَ بغَيْرِ مَهْرٍ، فَارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْرِ. وكان الوليدُ قال للنبيِّ ﷺ: إنْ كُنْتَ صَنَعْتَ هَذا يَا مُحَمَّدُ مِنْ أجْلِ الْمَالِ! فَلَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشُ بأنِّي مِنْ أكْثَرِهِمْ مِنَ الْمَالِ، فَأنَا أعْطِيكَ مِنَ الْمَالِ حَتَّى تَرْضَى، فَارْجِعْ عَنْ هَذا الأَمْرِ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أوْ كَفُوراً)(١).

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٠٦، وذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٤٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي صَلِّ للهِ تعالى صَلاةَ الفجرِ وصلاةَ الظُّهر والعصر، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ ﴾؛ أي فصَلِّ له المغربَ والعشاءَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي صَلِّ له في الليلِ الطويل، يعني: التطوُّعَ بعدَ المكتوبةِ، وكان على النبيِّ ﷺ أنْ يَقُومَ كلَّ الليلِ، ثم نُسخ بقولهِ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾؛ يعني كفارَ مكَّة يُحبُّونَ الدارَ العاجلةَ وهي الدُّنيا، ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي يتركُون العملَ للآخرةِ، وسُمِّي يومُ القيامةِ يَوماً ثَقيلاً؛ لشدَّة أهوالهِ، وقد يُذكر الوَرَاءُ بمعنى قُدَّام، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾؛ أي نحن خلقنا أهلَ مكَّة وجميعَ الناسِ، وقوَّينا خلقَهم بعد أن خُلقوا من ضَعْفٍ. وَقِيْلَ: شدَدْنا مفاصِلَهم؛ لئلا يسترخِي منها شيءٌ؛ أي شدَدْنا بعضَها إلى بعضٍ بالعُروق والعصَب. وَقِيْلَ: يعني موضعَ البول والغائط، شدَدْناهما بحيث إذا خرجَ الأذى منهما يَنقبضَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي وإذا شِئنا أهلَكناهم، وأتينا بأشباهِهم فجعلناهم بَدلاً منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾؛ أي إنَّ هذه السورةَ موعظةٌ من اللهِ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي طَريقاً بالعمل الصالح. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي ما يَشاءُون اتخاذ السَّبيل إلاَّ بمشيئةِ الله ذلك لكم، وقوله تعالى (إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) أي عَليماً قبلَ خَلقِكم بمن يتَّخذ سَبيلاً ومَن لا يتَّخذ، حكيماً فيما أمَرَكم به.

واختلفُوا في تفسيرِ هذه الآية، والصحيحُ: أنَّ معناها: وما تشاءُون إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ لكم أن تشاءوا، ودليلُ ذلك أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أنْ

---

(١) المزمل / ٢.

(٢) الكهف / ٧٩ .

يَسْتَقِيمَ﴾[1] قَالُوا: قَدْ جُعِلَتِ الْمَشِيئَةُ لَنَا وَلاَ نَشَاءُ، فَشُقَّ ذلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَ (وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ).

ومن نفَى المشيئةَ قال: إنَّ هــؤلاء مخصُوصون لا يشاءُون إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ أن يُكرهَهم عليه، قال الحسنُ: ((مَا شَاءَتِ الْعَرَبُ أنْ يَبْعَثَ اللهُ مُحَمَّداً رَسُولاً، فَشَاءَ اللهُ ذلِكَ وَبَعَثَهُ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُمْ). وعن النَّضر بن شُميل أنه قال: ((لاَ تَمْضِي مَشِيئَةٌ إلاَّ بمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَلاَ تَمْضِي مَشِيئَةٌ مِنَ الْعَبْدِ إلاَّ بعِلْمِ اللهِ، فَمَنْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُ خَيْراً شَاءَ الإيْمَانَ، وَمَنْ شَاءَ الإيْمَانَ شَاءَ اللهُ لَهُ أنْ يُوَفِّقَهُ، وَمَنْ شَاءَ الْكُفْرَ شَاءَ اللهُ أنْ يَخْذُلَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ ؛ أي يُكرمُ مَن يشاءُ بدين الإسلام بتوفيقهِ مَن كان أهلاً لذلك، وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ نَصَبَ (الظالمين) على المجاورة؛ ولأَنَّ ما قبله منصوب، والمعنى: ويعذبُ الظالمين، أعدَّ لهم عَذاباً أليماً، ويعني بالظَّالمين مشركي مكَّة.

آخر تفسير سورة (**الدهــر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) التكوير / ٢٨ .

سُورَةُ وَالْمُرْسَلات

سُورَةُ وَالْمُرْسَلاَتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانُمِائَةٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَإِحْدَى وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ وَالْمُرْسَلاَتِ، كُتِبَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ ﴾؛ يعني الرياحَ أُرسِلَت متتابعةً كعُرفِ الفرَس؛ أي ورب المرسَلاتِ عُرفاً، وقال مقاتلُ: ((مَعْنَاهُ: وَالْمَلاَئِكَةُ الَّتِي أُرْسِلَتْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ))[2]. وقولهُ تعالى: ﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ ﴾؛ يعني الريحَ الشديدةَ الهبُوب، فإذا وقعت الريحُ الشديدة في البحرِ صارت قاصفةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾؛ يعني الرياحَ التي تنشرُ السَّحابَ للمطرِ نَشْراً، وهي اللّيِّنَةُ التي يُرسِلُها اللهُ نَشْراً بين يدَي رحمتِه، وَقِيْلَ: العاصفاتُ الملائكة تعصِفُ بأرواحِ الناس؛ أي تذهبُ بها، وَقِيْلَ: الناشراتُ الملائكة أيضاً؛ لأنَّها تنشرُ الصحائفَ بأمرِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ ﴾؛ يعني الملائكةَ تنزلُ بالوحي للفَرق بين الحلال والحرام، والحقِّ والباطلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ ﴾؛ يعني الملائكةَ تُلْقِي كُتُبَ اللهِ إلى أنبيائهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ ﴾؛

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف، ورواه الثعلبي عن أبي ﷺ بإسناد ضعيف، كما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٠٨ .

(٢) بنحوه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٣٥. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩٠٨٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٤١) عن أبي هريرة، وقال: حديث صحيح. وفي الدر المنثور عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والحاكم، وإسناده صحيح.

معناهُ عُذْراً من اللهِ، وإنذاراً لِخَلقهِ، والإعذارُ قَطْعُ المعذِرةِ، والإنذارُ الإعلامُ بموضعِ المخَافَةِ لتبقَى، ولهذا بعثَ الرُّسُلَ وأنزلَ الكُتبَ.

والمعنى بهذه الآياتِ: أنَّ كفارَ مكَّة لَمَّا أنكرُوا البعثَ أقسمَ اللهُ تعالى بما بيَّن من قدرتهِ وتدبيرهِ الملائكةِ والسَّحابِ والرياحِ أنَّ قيامَ الساعةِ كائنٌ فقال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي إنَّ أمرَ الساعةِ والبعثِ لكائنٌ لا محالةَ.

ثم ذكرَ متى يقعُ فقال: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي مُحِيَ نورُها وسُلِبَ ضَوْءُها وتساقطَت، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾؛ أي شُقَّت من هيبةِ الرَّحمنِ، وانفطَرت بعد أن كانت سَقفاً محفوظاً، فأوَّل حالِها الوهيُ ثم الانشقاق، قال الله تعالى ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[2] ثم الانفتاحُ، قال اللهُ ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ﴾[3] ثم الانفراجَ حتى يتلاشَى فتصير كأنَّها لم تكن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي قُلِعَتْ من أماكنِها بسرعةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي بيَّن مواقيتها للفصلِ والقضاء بينهم وبين الأمم. وَقِيْلَ: جُمعت لوقتِها، وإنما قُلبت الواوُ همزةً على قراءةِ غير الواو؛ لأن كلَّ واو انضمَّت وكانت ضمَّتها لازمةً جازَ إبدالها همزةً؛ ولأنَّ العربَ تعاقِبُ بين الواو والهمزة كقولهم: أكَّدتُ ووكَّدت، وأرَّختُ الكتابَ وورَّختُ، ووسادة وإسادةٌ.

قرأ أبو عمرٍو (وُقِّتَتْ) بالواو والتشديد على الأصلِ، وقرأ أبو جعفر (وُقِتَتْ) بالواو والتخفيف، وقرأ عيسى[4] وخالد بن الياس[5] (أُقِتَتْ) بالألفِ، وقرأ الباقون بالألفِ والتشديد.

---

(١) الانفطار / ٢. (٢) الحاقة / ١٦. (٣) النبأ / ١٩.

(٤) عيسى بن عمر الثقفي البصري: نحوي، مقرئ، من أهل البصرة. وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، أول من هذَّب النحو ورتبه، وعلى طريقته مشى سيبويه وأشباهه. متوفى سنة (١٤٩هـ-٧٦٦م). ينظر: معجم المفسرين: ج ١ ص٤٠٨.

(٥) في المخطوط: (خالد بن النبا) وهو تحريف. في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٥٨؛ قال القرطبي: (خالد بن إلياس) وذكر القراءة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ ﴾؛ معناهُ: لأيِّ يومٍ أخِّرت هذه الأشياءُ من الطَّمس والنَّسفِ وغيرهما. ثم بيَّن متى ذلك فقالَ: ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي أخِّرت ليومِ الفصل بين الخلائق، وهو يوم القيامةِ، سُمِّي بهذا الاسم لأنه يُفْصَلُ فيه بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ، وبين الظَّالِم والمظلوم.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ فيه تعظيمٌ لأمرِ ذلك اليوم؛ أي لم تكن تعلمُ يا مُحَمَّد ما يوم الفَصْلِ، وما أعدَّ اللهُ فيه لأوليائهِ من الثواب، ولأعدائهِ من العقاب حتى أتاكَ خبرُ ذلك، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ الويلُ: وادٍ في جهنَّم للمكذِّبين بالوعيد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ معناهُ: ألَمْ نُهلِكْ قومَ نوحٍ بالعذاب في الدُّنيا حين كذبوا نوحاً؛ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ثم ألحقنا بهم قومَ هودٍ ومَن بعدَهم، ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ من أمَّتكَ يا مُحَمَّدُ، يعني كفارَ مكَّة ممن سَلَكَ طريقَهم.

قرأ الأعرج ثم (نُتْبعْهُمُ الآخِرينَ) بالإسكان عطفاً على (نُهْلِكِ)، وقرأ الكافَّة (نُتبعُهُمْ) بالرفع على معنى ثُم نَحنُ نُتبعُهم، وفي قراءةِ ابن مسعود (سَنُتْبِعُهُمُ الآخَرِينَ)، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ تنبيهٌ على القدرةِ على الإعادةِ، والتحذيرُ من التكبُّرِ؛ لأنَّ الذي يقدِرُ على أن يَخلُقَ من الماءِ الحقيرِ بَشَراً على هذه الصِّفةِ، قادرٌ على إعادةِ الخلق بعد الموتِ، والمرادُ بالماء الْمَهين النطفةَ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي في الرَّحم، ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ يعني مدَّة الحملِ على اختلاف مُدَدِ حملِ الحيوانات، لا يعلمُ مقدارَ ذلك ولا الحملَ إلاَّ اللهُ تعالى.

وقولهُ تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ قرأ السلمي وقتادة ونافع وأيوب بالتشديدِ من التقديرِ يعني نُطَفاً وعَلَقاً ومُضَغاً وعظاماً وذكراً وأنثى وقصيراً

وطويلاً، وقرأ الباقون مخفَّفاً، ومعناهما ((في التخفيفِ والتشديد واحد))(١) ويجوز أنْ يكون من القدرةِ، وقولهُ تعالى (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)، معناه: على هذا فنعم القادرون على الخلق، وعلى الأوَّل فنِعْمَ القادرون لهذه المخلوقاتِ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ ﴾؛ معناهُ: يُكفِتُهم أحياءً على ظَهرِها في دورهم ومنازلهم، ويُكفِتُهم أمواتاً في بُطونِها؛ أي يجوزُ ((أن يكون عُني أنها تكفت أذاهم))(٢) في ظهرها للأحياءِ وبطنِها للأموات. وعن مجاهدٍ: ((مَعْنَاهُ: تُكَفِّتُ الْمَيْتَ فَلاَ يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ، وَتُكَفِّتُ الْحَيَّ فِي بَيْتِهِ فَلاَ يُرَى مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ، وَفِي كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هَذينِ مِنَ النِّعْمَةِ مَا لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ))(٣).

والْكَفْتُ في اللُّغة الضمُّ، وسُمِّي الوعاءُ كِفَاتاً بكسرِ الكاف لأنه يضمُّ الشيءَ، وفي هذه الآيةِ دليلٌ على وجوب مُوارَاةِ الميِّت ودفنهِ ودفنِ شعره وسائرِ ما يُزَايلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾؛ أي جبالاً ثوابتَ، والشامخاتُ الطِّوالُ العاليَاتُ المرتفعات جُعلت أوْتاداً للأرض فسَكَنَتْ بها، وكانت تمُورُ كالسَّفينة لا تستقرُّ على الماءِ إلاَّ بمرْسَاةٍ تثقلها،﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي عَذْباً حُلواً غيرَ ملحٍ ولا أجٍّ(٤)﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ بنِعَمِ اللهِ التاركين لشُكرِها.

---

(١) ما بين (( )) ليس في المخطوط، ويلزمه السياق لإتمام المعنى، وعلى ما يبدو أنه سقط من أصل المخطوط أو سقط معناه، وضبط كما في تفسير الثعلبي: الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١٩ ص١٦٠.

(٢) في المخطوط عبارة في رسمها إرباك، (أي يجوز في ظهرها...) وضبطت كما في جامع البيان: مج ١٤ ج٢٩ ص٢٩٣ من قول الإمام الطبري: (وجائز أن يكون عُني...) وذكر بمعنى قريب منه.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٨٤؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ومجاهد...) وذكره.

(٤) مَاءٌ أجَاجٌ: أي مِلْحٌ مُرٌّ، وقد أجَّ الماءُ يَؤُجُّ (أجُوجاً) بالضم. مختار الصحاح: ص٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ معناهُ: ويقال لهم يومَ القيامة، تقولُ لهم الْخَزَنَةُ: انطلقوا إلى العذاب الذي كُنتم به تكذِّبون في الدُّنيا أنه لا يكون، ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ أي انطلِقُوا إلى دُخان من جهنَّم قد سطعَ، ثم افترقَ ثلاثَ فِرَق، وهو قولهُ (ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ) شُعْبَةٌ فوقَهم، وشعبةٌ عن يمينِهم، وشعبةٌ عن شمالهم. وذلك أنه يخرجُ لسانٌ من نارٍ فيحيطُ بهم فيُحبَسون إلى أنْ يُساقوا إلى النار أفواجاً أفواجاً، قال إبراهيمُ النخعيُّ: ((هَذا الظِّلُّ مَقِيلُ الْكُفَّار قَبْلَ الْحِسَاب))، والمعنى: انطلِقُوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعب فكونوا فيه إلى أن يفرغَ من الحساب.

ثم وصفَ اللهُ ذلك الظلَّ فقال: ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾؛ أي لا يُظِلُّ من الحرِّ، ﴿ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي ولا يردُّ عنكم لَهب جهنَّم؛ أي إنَّهم إذا استظَلُّوا بذلك الظلِّ لم يدفَعْ عنهم من حرِّ النار شيئاً، فأما المؤمنون فيُقبلُونَ في الجنةِ كما قال تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ معناهُ: أنَّ النَّارَ تقذفُ بشرَرٍ متفرِّق متطايرٍ كالقَصْر وهو البناءُ العظيم كالحِصْن. وَقِيْلَ: مثلَ قُصور الأعراب على المياهِ، يعني الخيام، قال مقاتلُ: ((شَرَرُ النَّار فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ عَدَدَ النُّجُومِ وَوَرَقِ الأَشْجَارِ، لاَ يَقَعُ شَيْءٌ مِنْهَا إلاَّ عَلَى أكْتَافِ الرِّجَالِ)). والشَّرَرُ ما يتطايرُ من النارِ وينتشرُ في الجهاتِ متفرِّقاً.

قرأ عليٌّ وابنُ عباس (كَالْقَصَرِ) بفتحِ الصادِ[(٢)]، أرادَ كأعناقِ النَّخلِ، وَقِيْلَ: كأعناقِ الدواب، والقَصَرُ العنقُ وجمعه قُصُرٌ وقُصُرَات. وقرأ سعيدُ بن جبير (كَالْقِصَرِ) بكسر القاف وفتحِ الصاد وهي لغةٌ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾، يعني أنَّ لونَ الشَّرَر يشبهُ لونَ الْجِمَالاَتِ الصُّفر، وجِمَالاتٌ جمعُ جِمَال، قراءةُ حمزة والكسائي وحفص وخلف: (جِمَالَةٌ) بكسرِ الجيم من غيرِ ألف على جمعِ جَمَلٍ مثل حَجَرٍ وحجارةٍ. وقرأ يعقوبُ

---

(١) الفرقان / ٢٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٨٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(جُمَالَةٌ) بضم الجيم من غير ألف، أرادَ الأشياءَ العظيمةَ المجموعة. وقرأ ابنُ عباس (جُمَالاَتٌ) بضمِّ الجيم جمع جُمَالاَتٍ وهي الشيءُ الْمُجْمَلُ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وقولهُ (صُفْرٌ) معناه سُودٌ، قال الفرَّاء: ((الصُّفْرُ سَوْدَاءُ الإبلِ، لاَ يُرَى أسْوَدٌ مِنَ الإبلِ إلاَّ وَهُوَ مُشْرَّبٌ صُفْرَةً))[1] لذلك سَمَّت العربُ سودَ الإبلِ صُفراً، والأصفرُ الأسودُ، قال الأعشَى:

تِلْكَ خَيْلِي وَتِلْكَ مِنْهُ رِكَائِبُ ... هُنَّ صُفْرٌ أوْلاَدُهَا كَالزَّبِيبِ[2]

أي هُنَّ سُودٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: إنَّ في يومِ القيامةِ مواقفَ، ففِي بعضها يختصِمُون ويتكلَّمون، وفي بعضِها يُختَمُ على أفواهِهم فلا يتكلَّمون.

وعن قتادةَ قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إلَى عِكْرِمَةَ فَقَالَ: أرَأيْتَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى (هَذا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ)، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾؟ فَقَالَ: إنَّهَا مَوَاقِفُ، فَأمَّا مَوْقِفٌ مِنْهَا فَيَتَكَلَّمُوا وَيَخْتَصِمُوا، ثُمَّ خَتَمَ عَلَى أفْوَاهِهِمْ فَتَكَلَّمَتْ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ، فَحِينَئِذٍ لاَ يَنْطِقُونَ)) وهذا الوقتُ المذكور في الآيةِ من المواطنِ التي لا يتكلَّمون فيها.

وقولُهُ: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ:((لاَ[3] يَنْطِقُونَ أرْبَعِينَ سَنَةً وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)) وإنما رفعَ (فَيَعْتَذِرُونَ) لأنه عُطف على (يُؤْذَنُ)، ولو قالَ فيَعتذِرُوا على النصب لكان حَسناً كقولهِ تعالى ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[4] ولو كان لَهم عذرٌ لم يُمنَعوا من الاعتذار، قال الجنيدُ: ((أوَ أيَّ عُذْرٍ لِمَنْ

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٢٥.

(٢) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١١، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٦٤:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أوْلاَدُهَا كَالزَّبِيبِ

(٣) في المخطوط: (لأنْ). (٤) فاطر / ٣٦ .

كفَرَ بآيَاتِ رَبه، وأعْرَضَ عَنْ مُنْعِمِهِ))[١]، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي هذا يومُ الفصلِ بين أهلِ الجنَّة والنار، جَمَعنَاكم مكَذِّبي هذه الأمة والأوَّلين الذين كذبوا أنبياءَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي يقالُ لهم ذلك على وجهِ التقريعِ: إنْ كان لكم حيلةٌ في دفعِ العذاب، فاحتالُوا لأنفسكم. وَقِيْلَ: معناهُ: إنْ كان لكم كيدٌ تَكِيدُونَ به أوليائِي، كما كنتم تكيدونَهم في الدُّنيا فكيدُوهم، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي في ظِلال الأشجار وقصور الدُّرِّ وعيون جاريةٍ تجري بالماءِ والخمر واللَّبن والعسل، ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ يقال لَهم: ﴿ كُلُوا ﴾؛ من ثِمار الجنَّة، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾؛ من شرابها، ﴿ هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي سَليماً من الآفاتِ بما كنتم تعمَلون الطاعاتِ في الدُّنيا، ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ أي هكذا نَجزي الْمُحسِنين على إحسانِهم.

ثم يقالُ لكفار مكَّة: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾؛ في الدُّنيا إلى منتهَى آجالكم، ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ أي مُشركون باللهِ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي إذا أُمِروا بالصَّلوات الخمسِ لا يُصلُّون، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي لِمَن كذب بالركوعِ، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ أي إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآنِ مع ظُهوره ووضوحه، فبأيِّ كتابٍ يصدِّقون، ولا كتابَ بعدَهُ.

آخر تفسير سورة (**المرسلات**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٦٦ ذكره القرطبي بلفظ: (أيُّ عذر لمن أعرضَ من مُنعمهِ وجحده وكفر أياديه ونعمَهُ؟).

سُورَةُ النَّبَأ

سُورَةُ النَّبَأ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ بَرْدِ الشَّرَاب يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) ﴾؛ قال المفسِّرون: لما بُعِثَ النبيُّ ﷺ وأخبرَهم بتوحيدِ الله والبعثِ بعد الموت، وتلاَ عليهم القرآنَ، جعلوا يتساءَلون بينهم ويقولون: ما نرَى الذي جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ، وما الذي أتَى به، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومعناها: عن أيِّ شيء يتحدَّثون فيما بينهم، وهذا لفظةُ لفظُ الاستفهامِ، والمعنى تفخيمُ القصة. وأصله عَنْ مَا فأُدغمت النون في الميمِ وحُذفت الألف؛ لأن العربَ إذا وضَعت (عن ما) في موضعِ الاستفهام حذفت نونَها فرقاً بينهما وبين أنْ تكون اسماً مثلَ قوله ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾[2]، و(عَلاَ مَ تفعلُ)، بخلافِ قولِهم: سألتُ فلاناً عمَّا فعلَ، لا يجوزُ فيه حذفُ الألفِ؛ لأن معناها الَّذي، وكذلك إذا كانت (مَا) للصلةِ كقوله تعالى ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾[3].

قولهُ تعالى (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيم) أي الخبرِ الشَّريف، وهو القرآنُ، فإنه خبرٌ عظيمُ الشَّأن؛ لأنه يُنبئُ عن التوحيدِ وتصديق الرسول، والخبرُ عمَّا يجوز وما لا يجوزُ، وعن البعثِ والنشور. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) ﴾ يعني أنَّهم اختلَفُوا في القرآنِ، فجعلَهُ بعضُهم سِحراً وبعضهم كهانةً وبعضهم شِعراً، وبعضهم أساطيرَ الأوَّلين.

---

(1) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٣ عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف.

(2) النازعات / ٤٣ . (3) المؤمنون / ٤٠ .

ثم أوعدَ اللهُ مَن كذب بالقرآنِ فقال تعالى: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي ليس الأمر على ما قالوا، سيعلمون عاقبة تكذيبهم حتى تنكشف الأمور، (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) وعيدٌ على إثرِ وعيدٍ. وَقِيْلَ: معنى(كَلاَّ) ارتَدِعوا وانزَجِرُوا، فليس الأمرُ على ما تظنُّون، وسيعلَمُ[1] الكفارُ عاقبةَ أمرِهم، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أمرَ القيامةِ وأهوالَها، وما لَهم من أنواعِ العذابِ في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾؛ نبَّهَ سبحانهُ على عظيمِ قُدرتِه، ولطيفِ حِكمَتِهِ؛ ليعرفوا توحيدَهُ. والْمِهَادُ: الوطاءُ؛ للتصرُّف عليه من غيرِ كُلفَةٍ، فالأرضُ مِهَادٌ يسيرون في مناكبها ويسكُنون في مساكنها، والْمِهَادُ والْمَهْدُ بمعنىً واحدٍ، والْمِهَادُ: الفراشُ، والجبالُ أوتادٌ للأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ كانت تنكفئُ بأهلِها على وجهِ الماء، فأرسَاها اللهُ بالجبالِ الثوابتِ حتى لا تَميدَ بأهلها، وكان أبو قُبيس أوَّلَ جبلٍ وُضِعَ على الأرضِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ ﴾؛ أي ذُكراناً وإناثاً، ويقال: ألواناً وأصنافاً، وكلُّكم ترجعون إلى أبٍ واحدٍ، ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾؛ أي راحةً لأبدانِكم، فكلُّ مَن تَعِبَ من الخلقِ إذا نامَ استراحَ، والسُّباتُ مأخوذٌ من السَّبت وهو القطعُ، والسُّبات قطعُ العملِ، والسُّبات ها هنا أن ينقطعَ عن الحركةِ، والروحُ في بدنهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾؛ سابغاً بظُلمتهِ وسوادهِ لكلِّ شيءٍ، ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾؛ أي ذا ضياءٍ لطَلَبِ المعاشِ بالحراثةِ والتجارة ونحوِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي رَفعنا فوقَ رُؤوسِكم سبعَ سمواتٍ غِلاظاً شديدةَ الإتقان، قائمةً بإذنِ اللهِ لا تنهارُ ولا تتغيَّرُ من طولِ الزَّمان، غِلَظُ كلِّ سماءٍ خمسمائةِ عامٍ، ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾؛

---

(١) في المخطوط: (سيعلمون الكفار) وهو غير مناسب، فتكون (سيعلم الكفار) أو (سيعلمون — الكفار — عاقبة...).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وفيه طلحة بن عمرو، واه، كما نبه عليه الذهبي في تلخيصه.

أي وقَّاداً مُتلألئاً مُشتَعلاً بالنور العظيم، تنضجُ الأشياءَ بحرِّها، وتضيءُ للناسِ بنُورها، والوَهجُ مجمعُ النور والحرارة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾؛ قال مجاهدُ ومقاتل وقتادة والكلبي: ((الْمُعْصِرَاتُ الرِّيَاحُ؛ لأَنَّهَا تَعْصِرُ السَّحَابَ حَتَّى تُخرِجَ مِنْهُ الْمطَرَ))[1] . قال الأزهريُّ:((هِيَ الرِّيَاحُ ذوَاتُ الأَعَاصِيرِ))، و(مِنَ) معناها الباء كأنه قالَ: بالمعصراتِ[2]؛ ولأن الرياحَ[3] تستدِرُّ المطرَ، وقال أبو العاليةِ والربيعُ والضحاك: ((الْمُعْصِرَاتُ السَّحَابُ الَّتِي يَنْجَلِبُ مِنْهَا الْمَطَرُ، كَالْمَرْأَةِ الْمَعْصُورَةِ وَهِيَ الَّتِي دَنَا حَيْضُهَا))، قال الشاعرُ[4]:

جَارِيَـةٌ بِـإبرقين دَارُهَـا		قَـدْ أَعْصَـرَتْ أَوْ قَـدْ دَنَـا إعْصَارُهَـا
يَسْـقُطُ مِـنْ غُلْمَتِـهَا إزَارُهَـا		تَمْشِـي الْـهُوَيْنَا سَـاقِطاً خِمَارُهَـا

وقال يزيدُ بن أسلمَ: ((الْمُعْصِرَاتُ: السَّمَوَاتُ))، وقال ابنُ كَيسان: ((الْمُغَيِّبَاتُ)).

والماءُ الثَّجَّاجُ: هو السَّيَّالُ الصَّبَّابُ، والثَّجُّ: الصَّبُّ، كما رُوي في الحديثِ: [أفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ][5] أرادَ بالعَجِّ: رفعُ الصوتِ بالتَّلبيةِ، وَالثَّجُّ: إراقةُ الدَّم. وقال مجاهدُ: ((ثَجَّاجاً أيْ مِدْرَاراً)) وقال قتادةُ: ((مُتَتَابِعاً يَتْلُو بَعْضَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي لنُخرجَ بالمطر حبّاً يأكلونَهُ ونباتاً ترعاهُ أنعامُكم، ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي بسَاتين ملتفَّة الأشجار، واحدها لِفٌّ بالكسرِ، وجمعهُ لُفٌّ بالضمِّ، وجمعُ الجمعِ الْفَافٌ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير وابن الأنباري عن قتادة). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٠.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٠١) أخرجه الطبري بإسناده عن عكرمة: (أنه كان يقرأ ﴿وأنزلنا بالمعصرات﴾ يعني الرياح).

(٣) في المخطوط: (الريح) والمناسب: (الرياح).

(٤) منظور بن مرثد الأسدي. وعند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٧٣:

جَارِيَـةٌ بِسَـفْوَانَ دَارُهَـا		تَمْشِـي الْـهُوَيْنَى سَـاقِطاً خِمَارُهَـا

(٥) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص٢٢٤؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وفيه رجل ضعيف) وله شاهد أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب الحج: الحديث (٨٢٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ يومَ الفصلِ بين الخلائقِ وهو يومُ القيامةِ كان مِيقَاتاً للأوَّلين والآخِرين أن يجتمعوا فيه، ومِيقَاتاً لِمَا وعدَ اللهُ من الثواب والعقاب.

ثم بَيَّنَ متى يكونُ ذلك فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ يعني نفخةَ البعثِ فيأتي كلُّ أناسٍ بإمامِهم فَوجاً بعد فوجٍ، وزُمَراً بعد زُمَرٍ من كلِّ مكانٍ للحِسَاب. والصُّورُ: قَرْنٌ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ.

وعن معاذِ بن جبلٍ قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أرَأَيْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَتَأْتُونَ أفْوَاجاً)؟ قَالَ: [يَا مُعَاذُ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ مِنَ الأَمْرِ] ثُمَّ بَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: [يَا مُعَاذُ يُحْشَرُ النَّاسُ عَشْرَةَ أصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أشْتَاتاً قَدْ بَدَّلَ اللهُ صُوَرَهُمْ وَغَيَّرَهُمْ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَأرْجُلُهُمْ فَوْقَ وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ يَتَرَدَّدُونَ، وَبَعْضُهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضُغُونَ ألْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مُدَلاَّةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ، يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ لُعَاباً يَتَقَذَّرُهُمْ أهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ، وَبَعْضُهُمْ يَلْبَسُونَ جِبَاباً مِنْ قَطِرَانٍ لاَزِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ.

فَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ النَّمَّامُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ الأَكَّالُونَ السُّحْتَ، وَالَّذِينَ هُمْ مُنَكَّسُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ أكَلَةُ الرِّبَا، وَالْعُمْيَانُ الْجَائِرُونَ فِي الْحُكْمِ، وَالصُّمُّ الْبُكْمُ هُمُ الَّذِينَ يُعْجَبُونَ بأعْمَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَمْضُغُونَ ألْسِنَتَهُمْ الْعُلَمَاءُ الوُعَّاظُ الَّذِينَ خَالَفَ قَوْلُهُمْ أعْمَالَهُمْ، وَالْمُقَطَّعَةُ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ، وَالْمُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعِ النَّارِ السُّعَاةُ إلَى السُّلْطَانِ، وَالَّذِينَ هُمْ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ هُمُ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ باللَّذاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَمَنَعُوا حَقَّ اللهِ مِنْ أمْوَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجِبَابَ هُمْ أهْلُ الْكِبْرِ وَالْفُجُورِ وَالْخُيَلاءِ](١).

---

(١) في تخريج أحاديث الكشاف: ج ٤ ص٦٨٨؛ قال الحافظ: (أخرجه الثعلبي وابن مردويه). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب، أن معاذاً ابن جبل) وذكره. وإسناده ضعيف. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١ ص١١٥.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي فُتحت لـنُزولِ الملائكة، فكانت ذاتَ أبوابٍ، قرأ أهلُ الكوفة (وَفُتِحَتِ) بالتخفيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي سُيِّرت على وجـهِ الأرضِ فصارَت كالتُّراب المنبَثّ، إذا رآهُ الناظر يحسَبهُ سَراباً بعـد شـدَّتِها وصَلابَتِـها. والسرابُ: الغبارُ المنبَثُّ في الهواءِ يحسَبهُ العطشانُ عندَ وقوعِ الشمسِ أنه ماءٌ وليس بماءٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي طَريقـاً ومَمَـرّاً للعبـادِ، ولا سـبيلَ إلى الجنَّـة حتـى تقطـعَ النـارَ، وقـال مقـاتلُ: ((إنَّ جَـهَنَّمَ كَـانَتْ مَحْبساً))[1] معدَّةً ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ ؛ أي للكافرين، ﴿ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي مَرجِعاً يرجعون إليه، وفي الحديثِ: [أنَّهَا أعْرَفُ بأصْحَابهَا مِنَ الْوَالِدَةِ بوَلَدِهَا].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ قرأ حمزةُ (لَبِثِينَ فِيـهَا أحْقَابـاً)، وقرأ الباقون (لاَبثِينَ) وهما بمعنىً واحد؛ أي مَاكِثِينَ فيها مُقيمين بها[2].

واختلفَ العلماءُ في معنى الْحُقُبُ، فرُوي عن عبدِالله بن عِمـرَ: ((أنَّ الْحُقُـبَ الْوَاحِدَ أرْبَعُونَ سَنَةً، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا أَلْـفُ سَنَةٍ))، فـهذا هـو الْحُقُـبُ الواحـدُ، وهـي أحقابٌ لا يعلمُ عددَها إلاَّ اللهُ. وعن عليٍّ ﷺ: ((أنَّ الْحُقُبَ الْوَاحِدَ ثَمَانُونَ سَنَةً، كُلُّ سَنَةٍ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، كُلُّ شَهْرٍ ثَلاَثُونَ يَوْماً، كُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ سَنَةٍ))[3].

وعن رسول الله ﷺ أنـه قـالَ: [وَاللهِ مَـا يَخْـرُجُ مِـنَ النَّـار مَـنْ دَخَلَـهَا مِـنَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا أحْقَاباً، وَالْحُقُبُ بضْعٌ وَثَمَـانُونَ سَـنَةً، وَالسَّـنَةُ ثَلاَثُمِائَـةٍ وَسِتُّونَ يَوْماً، كُلُّ يَوْمٍ ألْفُ سَنَةٍ][4].

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشـف والبيـان: ج ١٠ ص١١٥. ونقلـه القرطـبي أيضـاً في الجـامع لأحكـام القرآن:ج ١٩ ص١٧٧.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٧٨؛ قال القرطبي: (وقرأ حمـزة والكسـائي (لَبثِـينَ) بغـير ألف، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيدة، وهما لغتان).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٣٥).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٣٩٥؛ قال السيوطي: (أخرجه البزار وابن مردويه والديلمي عـن ابـن عمر عن النبي ﷺ). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٩٥؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه سـليمان ابن مسلم الخشاب، وهو ضعيف جداً).

وعن الحسن: ((إنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئاً إلاَّ وَجَعَلَ لَهَا مُدَّةً يَنْتَهِي إلَيْهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لأَهْلِ النَّار مُدَّةً، بَلْ قَالَ: (لاَبِثِينَ فِيهَا أحْقَاباً)، فَوَاللهِ مَا هِيَ إلاَّ إذا مَضَى حُقُبٌ دَخَلَ آخَرُ، ثُمَّ آخَرُ إلَى أبَدِ الآبدِينَ))[1]. فليس للأحقاب عدَّةٌ إلاَّ الخلودُ في النار، ولكنْ قد ذُكرَ أنَّ الْحُقُبَ الواحدَ سبعون ألفَ سَنةٍ، كلُّ يومٍ منها ألفُ سَنة مما تعُدُّون.

وقال مقاتلُ: ((الْحُقُبُ الْوَاحِدُ سَبْعَةَ عَشَرَ ألْفَ سَنَةٍ))[2]، وَقَالَ: ((هَذِهِ الآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلاَّ عَذاباً) يَعْنِي أنَّ الْعَدَدَ قَدِ انْقَطَعَ، وَأنَّ الْخُلُودَ قَدْ حَصَلَ))، وعن عبدِالله بن مسعود قالَ: ((لَوْ عَلِمَ أهْلُ النَّار أنَّهُمْ يَلْبَثُونَ فِي النَّار عَدَدَ حَصَى الدُّنْيَا لَفَرِحُوا، وَلَوْ عَلِمَ أهْلُ الْجَنَّةِ أنَّهُمْ يَلْبَثُونَ فِي الْجَنَّةِ عَدَدَ حَصَى الدُّنْيَا لَحَزِنُوا))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي لا يذوقون في تلكَ الأحقاب نوماً ولا شَراباً من الماءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يذوقون في جهنَّم من شدَّةِ حرِّها بَرداً ينفعُهم من حرِّها، ولا شَراباً ينفعُهم من عطشِها.

وَقِيْلَ: معناهُ: لا يذُوقون في جهنَّم بردَ ريحٍ ولا ظلاًّ ولا شَراباً بارداً، ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾، أي إلاَّ ماءً حارّاً في غايةِ الحرارة، و(غَسَّاقاً) وهو ما يغسِقُ أي يسيلُ من صَديدِ أهلِ النَّار، وكلُّ ذلك يزيدُ في العطشِ.

وقال شهرُ بنُ حَوشَبَ: ((الْغَسَّاقُ وَادٍ فِي النَّار، فِيْهِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ شِعْباً، فِي كُلِّ شِعْبٍ ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثُونَ بَيْتاً، فِي كُلِّ بَيْتٍ أرْبَعُ زَوَايَا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ ثُعْبَانٌ كَأعْظَمِ مَا خَلَقَ اللهُ، فِي رَأسِ كُلِّ ثُعْبَانٍ سُمٌّ قَاتِلٌ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَهُ إلاَّ اللهُ تَعَالَى)).

وعن أبي معاذٍ النَّحَويِّ قال فِي قولهِ تعالى: (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً: ((أنَّ الْبَرْدَ النَّوْمُ))، ومثلهُ قال الكسائيُّ وأبو عبيدة، والعربُ تقول: مَنَعَ الْبَرْدُ الْبَرْدَ؛

---

(١) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٣٨).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٢.

(٣) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٣٩٦؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه الحكم بن ظهير، وهو مجمعٌ على ضعفه).

أي أذهبَ البردُ النومَ، ولأنَّ العطشَان لينامُ فيبَرَدُ غليلُه، فلذلك سُمي النومُ بَرداً، قال الشاعرُ[١]:

وإنْ شِـئْتُ حَرَّمْـتُ النِّسَـاءَ سِـوَاكُمُ   وإنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَـمْ نُقَاخـاً وَلاَ بَـرْدَا

أي نوماً[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ انتصبَ على المصدرِ؛ أي جُوزُوا على وفقِ أعمالهم جَزاءً. وَقِيْلَ: تقديره: جزَيناهم جزاءً، وقولُهُ تعالى (وفَاقاً) أي وُفِّقُوا أعمالَهم وفاقاً كما يقولُ: قاتِل قِتَالاً، والمعنى: جُوزُوا بحسب أعمالهم، قال مقاتلُ: ((وَافَقَ الْعَذَابُ الذنْبَ، فَلاَ ذنْبَ أعْظَمُ مِنَ الشِّرْكِ، وَلاَ عَذابَ أعْظَمُ مِنَ النَّار))[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي إنَّهم كانوا لا يَخافون أنْ يُحاسَبوا، والمعنى: أنَّهم كانوا لا يُؤمنون بالبعثِ ولا بأنَّهم يُحاسَبون، ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي وكذبوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن تَكذيباً، و(فِعَّالٌ) من مصادر التَّفعيلِ، قال الفرَّاءُ: (هِيَ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ)[٤]، يقال حَرَّقْتُ القميصَ حِرَّاقاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي وكلَّ شيء مِن الأعمال بيَّنَّاهُ في اللوحِ المحفوظ، كقولهِ تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إمَامٍ مُبِينٍ﴾[٥]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي يقالُ لهم: ذُوقُوا العذابَ في النار، فلن نزيدَكم إلاَّ ألوانَ العذاب لَوْناً بعدَ لونٍ، وكلُّ عذابٍ يأتِي بعدَ الوقتِ، فهو زائدٌ على الأوَّلِ.

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة (٢٣-٩٣هـ)، وللحارث المخزومي، (؟؟-٨٠هـ). شاعر غزل، ووالي يزيد بن معاوية على مكة، خلال قيام عبدالله بن الزبير ﷺ استتر خائفاً، فعزله يزيد. بقي بمكة حتى مات.

(٢) النقاخ: الماء البارد الصافي، وقيل: الماءُ العذبُ. ينظر: لسان العرب: (برد). والصحاح: ج ٢ ص١٥: (برد).

(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٢.

(٤) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٢٩؛ قال الفراء: (هي لغة يمانية فصيحة). (٥) يس / ١٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾؛ الْمُتَّقِي هو المؤمنُ المطيعُ لله، الكافُّ عن جميعِ معاصيه. والْمَفَازُ: موضعُ الفَوْزِ وهو الجنَّة، والمعنى: أنَّ للمتَّقين فَوْزاً ونجاةً من النار. وقوله تعالى ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ ﴾، تفسيرٌ لذلكَ الفوز. والحدائقُ: جمعُ الحديقةِ، وكلُّ ما أُحيطَ به الحائطُ من الأشجار فهو حديقةٌ وهو البستان الجامعُ. والأعنابُ: أنواعُ العنَبِ في البستان، والمعنى: (إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً) يعني أشجارَ الجنَّةِ وثِمارَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾؛ الكَوَاعِبُ: جمع الكَاعِب، وهي الجاريةُ النَّاهِدُ الْمُفَلَّكَةُ الثدي، وهي التي خرجَ ثديُها بأحسنِ الخروج، ولم يُفطَم بعدُ. والأترابُ: اللِّدَاتُ[(١)] المستوياتُ في السنِّ[(٢)]، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: مثلَ أزواجهنَّ في السنِّ والصورة والقدِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾؛ الكأسُ: الإناءُ الذي فيه الشَّراب، والدِّهَاقُ: الْمَلآنُ المتابع، والمعنى: وكأساً ممتلئةً.

وقولهُ تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي لا يسمَعون في مجالسِهم في الجنَّة كَلاماً لا فائدةَ فيه، ولا يكذِّبُ بعضهم بعضاً، والمعنى: لا يسمَعون في الجنَّة إذا شَربوا الخمرَ بَاطلاً من الكلام، ولا يكذِّبُ بعضهم بعضاً، قال ابنُ عبَّاس: ((ذلِكَ أنَّ أهْلَ الدُّنْيَا إذا شَرِبُوا تَكَلَّمُوا بالْبَاطِلِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ إذا شَرِبُوا لَمْ يَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا شَيْئاً يَكْرَهُهُ اللهُ)). وقرأ الكسائيُّ: (وَلاَ كِذاباً) بالتخفيف؛ أي لا يكذِبُ بعضُهم بعضاً، والكِذابُ مصدرُ الْمُكَاذبَةِ، وهو حسنُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾؛ أي جزَاهم اللهُ بهذه الأشياءِ من ربكَ وأعطاهُم عطاءً حِسَاباً، وقال ابنُ قتيبةَ: ((عَطَاءً كَافِياً))، يقال: أحسَبْتُ فُلاناً؛ أي أكثرتُ له وأعطيتهُ ما يَكفيهِ، قال الزجَّاج: ((فِي ذلِكَ الْجَزَاءِ كُلُّ مَا يَشْتَهُونَ، وَمِنْ ذلِكَ: حَسْبِي كَذا؛ أيْ كَفَانِي))[(٣)]. والمعنى: جَزاءً من ربكَ عطاءً كَثيراً كافياً وَافياً.

---

(١) في المخطوط: (اللذات) وهو غير مناسب.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٧٣)؛ قال الطبري: (قال ابن زيد: الأتراب: اللِّداتُ. وقال: مستويات، فُلانة تَربةُ فلانة). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ ص٢٠٠؛ قال القرطبي: (على ميلاد واحد في الاستواء).

(٣) بمعناه؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢١٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وأبو عمرٍو وابنُ كثير: (رَبُّ السَّمَوَاتِ) برفع الباءِ، و(الرَّحْمَنُ) بالرفعِ أيضاً على معنى: هو ربُّ السَّموات والأرض وما بينَهما وهو الرحمنُ، وإن شئتَ قُلتَ: (رَبُّ) مبتدأ و(الرَّحْمَنُ) خبرهُ.

وقرأ ابنُ عامر[1] ويعقوب كلاهُما بالخفضِ على البدلِ من (رَبِّكَ). وقرأ حمزة والكسائي وخلف (رَبِّ) بالخفض، و(الرَّحْمَنُ) رفعاً، قال أبو عُبيدة: ((وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ أَعْدَلُهَا[2] عِنْدِي؛ لأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى (رَبِّ) قَرِيبٌ مِنْ (رَبِّكَ) فَيَكُونُ نَعْتاً لَهُ. وَارْتَفَعَ (الرَّحْمَنُ) لِبُعْدِهِ عَنْهُ، فَيَكُونُ مُبْتَدَأ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُهُ))[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: ((لاَ تَقْدِرُ الْخَلْقُ أنْ يُكَلِّمُوا الرَّبَّ إلاَّ بإذْنِهِ)). وقال الكلبيُّ:((مَعْنَاهُ: لاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ بإذْنِهِ)). وَقِيْلَ: لا يتجرَّأ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ في عَرصَاتِ القِيامةِ إلاَّ بإذنهِ. ثُم وصفَ ذلكَ اليومَ فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ ؛ قِيْلَ: معناهُ: في يومِ يقومُ الرُّوح.

واختلَفُوا في الرُّوح، قال الشعبيُّ والضحاك: ((هُوَ جِبْرِيلُ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ الرُّوحَ الأَمِينَ)). وقال ابنُ عبَّاس: ((هُوَ مَلَكٌ مِنْ أعْظَمِ الْمَلاَئِكَةِ خَلْقاً)). وقال ابنُ مسعودٍ: ((هُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ أعْظَمُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْجِبَالِ، وَأعْظَمُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، وَهُوَ يُسَبحُ فِي السَّمَاءِ الرَّابعَةِ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَي عَشَرَ ألْفَ تَسْبيحَةٍ، يَخْلُقُ اللهُ مِنْ كُلِّ تَسْبيحَةٍ مَلَكاً))[4].

وقال مجاهدُ وقتادة: ((الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَلَى صُورَةِ بَنِي آدَمَ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ، يَقُومُونَ صَفّاً، وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً، هَؤُلاَءِ جُنْدٌ، وَهُمْ جُنْدٌ)). وعن ابن عبَّاس: ((أنَّهُ مَلَكٌ لَمْ يَخْلُقِ اللهُ فِي الْمَلاَئِكَةِ أعْظَمَ مِنْهُ))[5]، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَامَ وَحْدَهُ صَفّاً،

---

(١) في المخطوط كرر (عامر) والصواب: (عاصم).

(٢) في المخطوط: (أعدلهما) وهو غير مناسب، ونقله عنه ما أثبتناه، وكما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٩، والجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٨٦.

(٣) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١١٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٨٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٩٤).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٧٩٩٥).

وَقَامَتِ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ صَفّاً، فَيَكُونُ عِظَمُ خَلْقِهِ مِثْلَ صُفُوفِهِمْ. وَقِيلَ: هم خلقٌ غيرُ الإنسِ والجنِّ يرون الملائكة، والملائكةُ لا يرونَهم، كما أنَّ الملائكةَ يرونَنا ونحنُ لا نراهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ معناهُ: الخلقُ كلُّهم المؤمنون لا يتكلَّمون إلاَّ مَن أذِنَ اللهُ له الكلامَ، ولا يأذنُ إلاَّ لِمَن إذا قالَ، ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾. وَقِيلَ: معناهُ: إلاَّ من أذِنَ له الرحمنُ وَقَالَ فِي الدُّنيا قَولاً صَواباً عَدلاً، وهو كلمةُ التوحيدِ؛ يعني: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك اليومُ وُصِفَ هو الحقُّ، ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي رَجْعاً حَسناً؛ أي مَن شاءَ رجَعَ إلى اللهِ بطاعته.

ثم خوَّف الكفارَ فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ ؛ أي خوَّفناكم من عذابٍ قريب كائن، يعني عذابَ الآخرةِ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، والخطابُ لأهلِ مكَّة. ثم بيَّن متى يكون ذلكَ العذابُ، فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي يومَ يرَى الرجلُ فيه جزاءَ عملهِ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، وخَصَّ اليدَين؛ لأنَّ أكثرَ العملِ يكون بهما.

وأمَّا الكافرُ فيقول: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي لَيتَني لم أبعَثْ، ولَيتَني بقيتُ تُراباً بعدَ الموتِ، وقال مقاتلُ: ((إنَّ اللهَ يَجْمَعُ الدَّوَابَّ وَالطُّيُورَ وَالْوُحُوشَ يَوْماً، وَيَقْضِي بَيْنَ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإنْسِ، ثُمَّ يَقْضِي لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، فَإذا فَرَغَ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: مَنْ رَبُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أنَا خَلَقْتُكُمْ وَسَخَّرْتُكُمْ لِبَنِي آدَمَ، وَكُنْتُمْ لِي مُطِيعِينَ أيَّامَ حَيَاتِكُمْ، فَارْجِعُوا لِلَّذِي خَلَقْتُكُمْ مِنْهُ. فَيَصِيرُونَ تُرَاباً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً).))[(١)]. قال أبو هُريرة: ((فَيَقُولُ التُّرَابُ لِلْكَافِرِ: لاَ حُبّاً وَلاَ كَرَامَةَ لَكَ أنْ تَكُونَ مِثْلِي))[(٢)].

آخر تفسير سورة (النبـأ) والحمد لله رب العالمين

---

(١) بنحوه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٤.

(٢) بنحوه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠١٧).

سُورَةُ النَّازِعَـاتِ

سُورَةُ النَّازعَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَثَلاثَـةٌ وَخَمْسُـونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَأَرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا هَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ نَـزْعَ رُوحِـهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حِسَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ كَقَدْرِ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ ﴾ ؛ أقسَـمَ اللهُ بالملائكـةِ إعْظَامـاً لَـهم، وللهِ أنْ يُقسِمَ بغيرِه، وليس للعبادِ أنْ يُقسِمُوا إلاَّ به. ويجوزُ أن يكـونَ القسَـمُ هـا هُنـا بـرب الملائكةِ، كأنَّهُ قالَ: وربِّ النازعاتِ. والنَّازعَاتُ: الملائكةُ الذين ينْزعون أرواحَ الكفَّار بالشدَّة من أجسادِهم، من تحتِ كلِّ شعرةٍ، ومن تحت الأظفَار وأُصولِ القدَمـين، ثـم يردونَها في جسدِها حتى إذا كادت تخرجُ ردُّوها في بدنهِ.

قال مقاتلُ: ((يَعْنِي مَلَكَ الْمَوْتِ وَأعْوَانَهُ)). قـال سـعيدُ بـن جبـير: ((يَـنْزعُونَ أرْوَاحَهُمْ فَيُفَرِّقُونَهَا ثُمَّ يُقذِفُونَ بهَا فِي النَّار))[2]. وقال السـديُّ: ((هِـيَ النَّفْسُ الَّتِي تَغْرَقُ فِي الصُّدُور))[3]. وقِيْلَ: يرى الكافرُ نفسهوقتَ النَّزع كأنَّـها تغـرقُ. وَقِيـلَ: معناهُ: تنْزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكفار عن أجسادِهم كما يَغرَقُ النَّازعُ في القوسِ فيبلغُ بـها غايـةَ الْمَدِّ، والْمَغْرَقُ اسمُ مصدر أُقيم مقامَ الإغراقِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ ﴾ ؛ هـم الملائكـةُ يَنشِـطُونَ روحَ الكافرِ من قدَميه إلى حَلقهِ نَشْطاً كما ينشط الصوفُ مـن سُـفُودِ الحديـدِ. قِيْـلَ: إنَّـهم

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٦٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٢٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٠).

ينشِطُون أرواحَ الكفَّار نَشْطاً عَظيماً ويجذِبونَـها جَذباً شَديداً بكَرَبٍ ومشقَّةٍ وغَمٍّ، كنشط السُّفود الكثيرِ الشَّعر من الصوف المتلبد، فيشتدُّ عليهم خروجُ أرواحِهم، يقالُ: نَشَطْتُ يدَ البعيرِ إذا نَطقْتُهُ بالحبلِ، وأنشَطتهُ إذا حلَلتُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾؛ هم الملائكةُ الموكَّلون بقبضِ أرواحِ المؤمنين، يُسلونَها سَلاًّ رَفيقاً، ثم يدَعونَها تستريحُ رُويداً كالسَّائح بالشيءِ في الماءِ يرفِقُ به، وقال مجاهدُ: ((هُمُ الْمَلاَئِكَـةُ يَـنْزِلُونَ مِنَ السَّمَاءِ مُسْرِعِينَ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ السَّابحِ لِسُرعَتِهِ))[(١)]. وقال الكلبيُّ: ((يَقْبضُونَ أرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ كَالَّذِي يَسبَحُ فِي الْمَاءِ، فَأَحْيَاناً يَنْغَمِسُ وَأحْيَاناً يَرْتَفِعُ، يَسلُونَهَا سَلاًّ رَفِيقاً))[(٢)]. وقال قتادةُ: ((هِيَ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٣)])). وقال عطاءُ: ((هِيَ السُّفُنُ))[(٤)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾؛ هم الملائكةُ سَبقتْ بنِي آدمَ بالخيرِ والعملِ الصالحِ والإيمان والتَّصديق. وَقِيْلَ: يستَبقُون بأرواحِ المؤمنين إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾؛ يعني جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملَكَ الموتِ، يدبرون أمرَ اللهِ في أهلِ الأرض، فجبريلُ للوَحيِ والتَّنْزيلِ، وميكائيلُ للقَطْرِ والنبات، وإسرافيلُ للصُّور، وملَكُ الموتِ لقبضِ الأرواح، وجوابُ هذه الأقسامِ محذوفٌ، تقديرهُ: لَتُبْعَثُنَّ للجزاءِ والحساب ولَتُحَاسَبُنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾؛ يعني النفخةَ الأولى التي يَمُوتُ فيها جميعُ الخلقِ، والرَّجفَةُ صيحةٌ عظيمةٌ فيها تردُّد واضطرابٌ، ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾؛ يعني النفخةَ الثانية ردفَتِ النفخةَ الأولى، وبينَهما أربعون سَنة، وسُميت الثانيةُ رَادِفَةً تَشبهاً بالرَّادِفِ من الرَّاكب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٧).

(٢) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٣. والقرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٩٣.

(٣) الأنبياء / ٣٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٠٣٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُضطربة قَلِقَةٌ لِمَا عايَنت من أهوالِ يوم القيامة. قِيْلَ: أرادَ بها قلوبَ الكفَّار. والوَجِيفُ: اضطرابُ القلب، وقال مجاهدُ: ((مَعْنَى وَاجِفَةٌ: وَجِلَةٌ))، وقال السديُّ: ((زَائِلَةٌ عَنْ أمَاكِنِهَا)). وَقِيْلَ: غيرُ هادئةٍ ولا ساكنة، وقال أبو عمرو: ((مُرْتَكِضَةٌ))[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي أبصارُ أصحابها ذليلةٌ خاضِعة، وذلك أنَّ المضطربَ الخائفَ لا بدَّ أن يكون نظرهُ نظرَ الذليلِ الخاضعِ؛ لترقُّب ما ينْزِلُ من الأمرِ. ويقالُ: ذليلةٌ عند معاينة النار، كقوله ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾[٢].

قال عطاءُ: ((يُرِيدُ أبْصَارَ مَنْ مَاتَ كَافِراً)) يدلُّ عليه أنه ذكَرَ مُنكري البعثِ، فقالَ: ﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: تقولُ الكفَّار وهم في الدُّنيا: أنُرَدُّ إلى أوَّل حالِنا وابتداءِ أمرنا فنصيرُ أحياءً؟ كما كنَّا، يقالُ: رجعَ فلانٌ في حافرتهِ، أي رجع من حيث جاءَ. والحافرة عند العرب اسمٌ لأول الشيءِ، وابتداءُ الأمرِ. والمعنى أنهم كانوا يستبعِدُون البعثَ، ويقولون: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أنُرَدُّ إلى الحياةِ الأولى، وتُعَادُ فينا الروحُ بعد أن نصيرَ عِظَاماً نَخِرَةً؛ أي بَالِيَةً، ومنه قولُهم: رجعَ فلانٌ في حَافِرَتِهِ؛ إذا رجعَ في الطريقِ الذي جاءَ فيه.

وقال بعضُهم: الْحَافِرَةُ الأرضُ التي تُحفَرُ فيها قبورُهم، والحافرةُ بمعنى المحفورةِ كما في ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وما وافقَ معناهُ، ومعناه: أئِنَّا لَمَردُودُونَ إلى الأرضِ فنُبعَثُ خَلقاً جديداً، ونمشي على أقدامِنا، وقال ابنُ زيد:((الْحَافِرَةُ: النَّارُ))، وَقِيْلَ: معناهُ: أنُرَدُّ أحياءً في قُبورنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أئِذا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً) قرأ أهلُ الكوفة (نَاخِرَةً) بالألفِ، وهي قراءةُ عمرَ ﷺ[٣] وابنِ عبَّاس وابنِ مسعود وابنِ الزُّبير. وقرأ الباقون (نَخِرَةً) بغيرِ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٩٦، وأبو عمرو هو المؤرِّجُ، وليس المؤرِّخُ، والله أعلم. والمعنى مرتكضة، مضطربة، غير ساكنة. (٢) الشورى / ٤٥ .

(٣) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٥؛ قال الثعلبي: (وهي قراءة عمر بن الخطاب وابنه وابن عباس...). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص١٩٧؛ قال (وقرأ أبو عمرو وابنه عبدالله) وأظنه وهم أو تصحيف من النسَّاخ.

ألفِ، والنَّخِرَةُ: البَالِيَةُ، والنَّاخِرَةُ: الْمُجَوَّفَةُ، يقالُ: نَخَرَ العظمُ يَنْخِرُ فهو نَاخِرٌ وَنَخِـراً إذا بَلِيَ وتفتَّتَ، وقال الأخفشُ: ((هُمَا لُغَتَان؛ أَيُّهُمَا قَرَأْتَ فَحَسَنٌ)). والمعنـى: أنَّـهم أنكرُوا البعثَ، فقالوا: أَنُرَدُّ أحياءً إذا مِتنا وبَلِيَتْ عِظامُنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾؛ كانوا يقُولون على جهـةِ التَّكذيب: إنْ كان الأمرُ على ما يقولُ مُحَمَّد، فتلكَ الرجعةُ خاسرةٌ. والْخَاسِرَةُ: ذاتُ الْخُسْرَان؛ أي إنْ رُدِدْنَا بعدَ الموتِ لنَخْسَرَنَّ بما يُصيبنا بعدَ الموتِ.

ثُم أعلمَ اللهُ سـهولةَ البعـثِ عليـه فقـالَ تعـالى رَدّاً عليـهم: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾؛ يعني النفخةَ الأخيرةَ صيحـةٌ واحـدة يسـمعونَها وهـم في بُطـون الأرضِ أمواتٌ، ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي فإذا هـم أحيـاءٌ علـى وجـهِ الأرض. والسَّاهِرَةُ: وجهُ الأرضِ وظَهرُها، فإنَّما هي نفخةٌ واحـدة وصيحـةٌ واحـدة هائلة (فَإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ) أي فإذا هُم علـى ظَهرِ الأرضِ بعـد أنْ كـانوا في جَوفِـها. والعربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ ساهرةً؛ لأن فيها نومَ الْجُفُونِ وسَهَرَهم. يقال: إنَّ المرادَ بالسَّاهرة أرضُ بيتِ المقدس. ويقال: أرادَ به أرضَ الآخرةِ. وَقِيْلَ: الساهرةُ: جهنَّم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي هـلَ جـاءَك- يـا مُحَمَّدُ- حديثُ موسى، ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾؛ أي هل بلغَكَ قصَّـةُ موسـى وخـبرُه، وهذا استفهامٌ بمعنى التقرير، كما يقولُ الرَّجلُ لغيرِهِ: هل بلغَكَ حديثُ فُلان، وهـو يعلمُ أنَّه بلَغَهُ ذلك، ولكنْ يريدُ بهذا الكلامِ التحقيقَ.

ويجوزُ أن يُراد بهذا الابتداءِ الإخبارُ، كأنه قالَ: لَمْ يكن عنـدَكَ - يـا مُحَمَّـدُ - ولا عندَ قومِكَ ما أعلمَكَ اللهُ به من حديـثِ موسـى إذ أسمعَـهُ اللهُ نـداءَهُ، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي بالوادي الْمُطَهَّرِ الـذي كلَّمَـهُ اللهُ عليـه، واسـمُ ذلـك الوادي (طُوًى). وهذا يقرأ بالتنوينِ وغيرِهِ، فمَن نوَّنَهُ وصرَفَه؛ فلأنَّهُ مذكَّرٌ سُـمِّي بـه مذكرٌ، ومَن لم يُصرفْهُ جعلَ له اسمَ البُقعَةِ التي هي مشتملةٌ على ذلك الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ناداهُ ربُّه فقالَ لـه: يا مُوسَى اذهَبْ إلى فرعونَ إنه عَلاَ وتكبَّر وكفرَ وتجاوزَ عـن الحـدِّ في المعصيـةِ، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي تتطـهَّر عـن الشِّـركِ وتشـهدَ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ،

وتعملَ عَمَلَ الأزكياءِ، وَ؛ هل لكَ رغبةٌ في أنْ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي إلى معرفةِ ربكَ وعبادتهِ وتوحيده ومعرفةِ صفاته ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ عقابَهُ إنْ لم تُطِعْهُ.

ثُمَّ بيَّن اللهُ لموسى أن يمضي[1] ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ حتى أراه الآية الكبرى، يعني العصَا إذ كانت أكبرَ آيةٍ، وقال بعضُهم: اليدُ البيضاءُ التي أخرجَها، لَهَا شُعاعٌ كالشَّمسِ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي فكذبَ فرعونُ بأنَّها من اللهِ، وعصَى موسى فلم يُطِعْهُ، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي أدبرَ عن الإيمانِ، وأعرضَ عنه بعملِ الفساد في الأرضِ، ويقال: أدبرَ: أسرعَ هارباً من الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَحَشَرَ ﴾ ؛ أي فجمعَ قومَهُ وجُنودَهُ، ﴿ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ لَمَّا اجتمَعُوا، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي لا ربَّ فَوقِي، وَقِيْلَ: إنه جمعَ قومَهُ بالشُّوطِ يستنصرُ بهم على إبطال أمر مُوسَى ودفعِ ضرَر الحيَّة، فنادَى فيهم: أعِيدُوا أصنامَكم التي كُنتم تعبدونَها، وأنا ربُّ أصنامِكم الأعلَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لَمَّا بلغَ في استكثارهِ وكُفرهِ إلى حدٍّ لا ينفعُ فيه الوعظُ، حينئذٍ أخذهُ اللهُ بعقوبةٍ صارَ بها نكالاً في الدُّنيا والآخرة، و﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[2]، ولو تفكَّرَ هؤلاءِ الجهَّالُ لعَلموا أنه لو كان إلَهاً لم يحتَجْ إليهم لدفعِ ضرَرِ الحيَّة التي يخافُها.

وَقِيْلَ: معنى (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ) يعني كلمَتي فرعون حين قالَ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرِي﴾[3] وقَوله (أنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى) وكان بينهما أربَعون سَنةً[4]. قال مجاهدُ: ((هَذا مَعْنَى الآخِرَةِ وَالأُولَى، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الأَخِيرَةُ، وَقَوْلُهُ تعالى ﴿مَا

---

(١) في المخطوط: (ثم بين الله أن موسى يعتصر). وترجح ما أثبتناه قياساً علىعبارة الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٢٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٠٢.

(٢) غافر / ٤٦.

(٣) القصص / ٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٠٤). وعزاه السيوطي إلى الشعبي في الدر المنثور: ج ٨ ص٤١٠.

عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي﴾ هِيَ الْكَلِمَةُ الأُولَى))[(١)] وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين.

وقال الحسنُ: (مَعْنَى: نَكَالَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الأُولَى: غَرَقُهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَذابُهُ فِي الآخِرَةِ بالنَّار)). وعن ابن عبَّاس قالَ: ((قَالَ مُوسَى: يَا رَب أمْهَلْتَ فِرْعَوْنَ أرْبَعمِائَةَ سَنَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: أنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى، وَيُكَذِّبُ بآيَاتِكَ وَرُسُلِكَ، فَأوْحَى اللهُ إلَيْهِ أنَّهُ كَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ سَهْلَ الْحِجَاب، فَأحْبَبْتُ أنْ أكَافِئَهُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي إن في الذي فعلَ فرعونُ من العقوبةِ حين كذبَ عِظَةً لِمَن يخشَى عذابَ الله. والعبرةُ: هي الدَّلالةُ المؤدِّية إلى الحقِّ.

ثم خاطبَ مُنكري البعثِ فقالَ تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾؛ الخطابُ لأهلِ مكَّة، يقولُ ءَأنْتُمْ أشَدُّ خَلْقاً، معناهُ: أخَلقُكم بعدَ الموتِ أشدُّ عندَكم أم السَّماءُ في تقديركم؟ وهُما في قُدرةِ الله واحدٌ، وهذا كقولهِ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[(٢)]. وقولهُ تعالى: ﴿ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي بناها مع عظَمِها، فكيف لا يقدرُ على إعادتِكم مع صِغَرِ أجسامِكم؟!

وقولهُ تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي رفعَ سَقْفَ السَّماء فوقَ كلِّ شيء بلا عَمَدٍ تحتَها، ولا عُلاَّقةٍ فوقَها، فسوَّاها من الفُطور والعُيوب. وَقِيلَ: فسَوَّاها بلا سُقوفٍ ولا فُطور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي أظلَمَ ليلَها وأظهرَ نهارَها: والغَطْشُ: الظُّلْمَةُ وأصنافُ اللَّيل والنهار إلى السَّماءِ؛ لأن الليلَ إنما يكون بغُروب الشمسِ، والشمسُ منسوبةٌ إلى السَّماء، فإذا غرَبت الشمسُ كان مبدأ الظَّلام من جانب السَّماء، وذلك[(٣)] الضياءُ يظهر قبلَ طُلوعِ الشمسِ من جانب السَّماء .

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٠٠).

(٢) غافر / ٥٧ .

(٣) في المخطوط: (ولذلك).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي سطَّحَها بعد خَلق السَّماء، مأخوذٌ من الدَّحْوِ وهو البَسْطُ[1]، وذلك أنَّ الله خلقَ الأرضَ قبلَ السَّماء مجموعةً، ثم خلقَ السَّماء وشَمسَها وقمرَها وليلَها ونهارها، ثم دَحَا الأرضَ بعد ذلك ((فهو)) أدلُّ على القدرةِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالماءِ ماءَ الآبار والعيون التي تخرجُ من الأرض، وبالْمَرْعَى النباتَ مما يأكلُ الناس والأنعام وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي أثبتَها وثقَّلَ بها الأرضَ، فَعَلَ ذلك، ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ ، أي منفعةً لكم ولدوابكم لا لمنفعةِ نفسه، فإنه منزَّهٌ عن المضارِّ والمنافع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ يعني النفخةَ الثانية التي فيها البعثُ، والطامَّةُ: الحادثةُ التي تَطُمُّ على ما سِوَاها؛ أي تَعلُو فوقَهُ، والقيامةُ تَطُمُّ على كلِّ شيءٍ فسُميت الطامَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ما عَمِلَ في الدُّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويقرأ كتابَهُ، ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أظْهِرَتْ لجميعِ الخلائقِ حتى يراها أهلُ الموقفِ كلُّهم، والطامَّة عندَ العرب الدَّاهيَةُ التي لا تُستطَاعُ. وَقِيْلَ: إن الطامَّة الكُبرى حين يُساقُ أهلُ النار إلى النار، وأهلُ الجنةِ الى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناه: فأمَّا من جاوزَ الحدَّ في معصيةِ الله، واختارَ ما في الدُّنيا من زهرتِها وزينتِها على الإيمان بالله وطاعتهِ، فإن الجحيمَ هي المأوَى؛ أي مأواه، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ ؛ للحساب واجتنبَ المعاصي، ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

---

(١) في المخطوط: (النبط) وهو غير مناسب؛ لأن معنى دحا الأرضَ أي بسَطَها.

(٢) أي أدلُّ على القدرة من القول الآخر، حيث (أن الله تعالى خَلَق أولاً دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسوَّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك). واختلاف بين أهل التفسير؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن:ج ١ ص٢٥٤-٢٥٦ وج ١٩ ص٢٠٥.

﴿ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ؛ أي المحارم التي يشتهيها، قال مقاتلُ: ((هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بالْمَعْصِيَةِ، فَيَذْكُرُ مَقَامَهُ لِلْحِسَاب فَيَتْرُكُهَا))[1] ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ ؛ أي متى قيامُها ووقوعها، يعني يومَ القيامةِ يسألونَهُ عن تلك لتكذيبهم بها، وقولهُ تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ ؛ أي في أيِّ شيءٍ أنتَ من ذكرِ القيامة ووقتِها، ولم يُعرِّفْكَ اللهُ ذلك، والمعنى: لستَ في شيءٍ من علمِها؛ أي لا تعلمُها، وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ ؛ معناه: إنما أنتَ مُخوِّفُ مَن يخافُ قيامَها؛ أي إنما ينتفعُ بإنذاركَ مَن يخافُها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ ؛ أي كأنَّهم يومَ يرون القيامةَ، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ ؛ في الدُّنيا، ﴿إِلَّا﴾ ؛ قدرَ، ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ ؛ من العَشِيَّاتِ وقدرَ ضُحى العشيَّةِ، وذلك أنَّهم إذا استقبَلهم أمرُ الآخرةِ ذهبَ عنهم الكفرُ في مقدار مُكثِهم في الدُّنيا، ومقدار مُكثِهم في قبورهم لِعظَمِ ما استقبَلهم من الشدائدِ، والمعنى: إن الذي أنكروهُ سيَرَونَهُ حتى كأنَّهم لم يلبَثُوا في الدُّنيا إلاَّ ساعةً مضَتْ كأنَّها لم تكن. والضُّحى وقتُ ارتفاعِ النهار، والعَشِيُّ: ما بعدَ الزوالِ.

آخر تفسير سورة (**النازعات**) والحمد لله رب العالمين

(١) بمعناه قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٤٩.

سُورَةُ عَبَسَ

سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ، وَهِـيَ خَمْسُـمِائَةٍ وَثَلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَثَلاَثُـونَ كَلِمَـةً، وَاثْنَتَانِ وَأَرْبَعُـونَ آيَـةً. قَـالَ ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا جَـاءَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَوَجْهُـهُ ضَـاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ وذلكَ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عِنْدَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ، وَأبُو جَهْلٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ أقْبَلَ إلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إلَى الإيْمَانِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُـرْآنَ رَجَـاءَ أنْ يُؤْمِنُوا فَيُؤْمِنُ بإيْمَانِهِمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ.

فَجَاءَ عَبْدُاللهِ بْنُ أمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ الأَعْمَى الْمَذْكُورُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ النَّـبِيَّ ﷺ عَـنْ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ، وَيَقُولُ: أقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، وَعَلِّمْنِي مِمَّـا عَلَّمَـكَ اللهُ، وَهُـوَ لاَ يَعْلَـمُ شُغْلَ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَلاَ يَدْرِي أنَّهُ مَشْغُولٌ بالإقْبَالِ عَلَى غَـيْرِهِ، فَـأَعْرَضَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَقَطَّبَ وَجْهَهُ وَعَبَسَ، وَأقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِيـنَ يُكَلِّمُـهُمْ. فـأنزلَ اللهُ تعـالى هـذه الآياتِ[2].

والمعنى: عبسَ مُحَمَّدٌ، وأعرضَ بوجهِهِ لأَنْ جاءَهُ الأعمَى، و(أنْ) في موضـعِ نصبٍ؛ لأنه مفعولٌ له. والتَّولِّي عن الشيءِ: هو الإعراضُ عنه، فإنه صرفَ وجهَهُ عن أنْ يَليه.

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٣٠ بإسناده عن أبي ﷺ، موضوع.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٩١٢٥). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨١٤٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾؛ معناهُ: ما يُعلِمُكَ يا مُحَمَّدُ لعلَّ ابنَ أم مكتومٍ يزَّكَّى بالعملِ الصالحِ بجوابكَ عن سُؤالِه، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾؛ ويتَّعِظُ فتنفعهُ ذِكرَاكَ. وَقِيْلَ: معنى (يَزَّكَّى): يتطهَّرُ من الذنوب بالعملِ الصالحِ، أو يذكَّرُ فيتَّعِظَ بما يعلمهُ من مواعظِ القرآن. قرأ عاصم (فَتَنْفَعَهُ) بالنصب على جواب (لَعَلَّ) بالفاءِ، وقرأ الباقون بالرفعِ عَطفاً على (يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾؛ يعني أشرافَ قُريش، قال بعضُهم: معناهُ: أما مَن استغنَى بمالِه، وقيل: استغنَى عنْ وعظِكَ، أي جعل نفسه غنياً عنك، وقال ابن عباس: (مَعْنَاهُ: اسْتَغْنَى عنِ اللهِ وعنِ الإيمانِ)، ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ لِوَعْظِهِ؛ أي تُعرِضُ له وتُقبلُ عليه بوجهكَ وتَميلُ اليهِ وتُصغِي إلى كلامهِ. يقالُ: فلانٌ تصَدَّى لفُلانٍ؛ أي يتعرَّضُ له ليَراهُ. قرأ نافعُ وابن كثيرٍ وأبو جعفرٍ (تَصَّدَّى) بالتشديدِ على معنى تتصَدَّى، وقرأ الباقون بالتخفيفِ على الحذفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي وما عليكَ ألاَّ يُؤمِنَ ولا يهتدِيَ، فإنه ليس عليكَ إلاَّ البلاغُ، ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾؛ لعملِ الخيرِ وهو ابنُ أمِّ مكتومٍ جاءَكَ يُسرعُ في المشيِ إليكَ يلتمِسُ منكَ الدِّينَ، ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ﴾؛ عذابَ اللهِ، وَقِيْلَ: يخشَى العثورَ في مِشيَتِه، ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي تتشاغَلُ فتُعرِضُ بوجهكَ عنه، يقال: الْهَيْتَ على الشَّيء إلْهَاءً إذا تشاغلتَ عنه، وليس من لَهَا يَلهُو، ومِن هذا قولُهم: اذا استأثرَ اللهُ بشيءٍ فَالْهَ عنهُ؛ أي اتركْهُ وأعرِضْ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ ﴾؛ أي حاشَا أن تَعودَ إلى مثلِ ذلكَ، لا تعُدْ إليه ولا تفعَلْ مثلَهُ، والمعنى: أنَّ (كَلاَّ) ها هنا كلمةُ رَدْعٍ وزَجرٍ، أو كلاَّ لا تفعَلْ بعدَها مِثلَها. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي إنَّ هذه الآياتِ التي أنزلها اللهُ عليكَ موعظةً يتَّعِظُ بها عبادُ الله تعالى، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي مَن شاءَ الْهمَهُ وفهَّمَهُ القرآنَ حتى يذكُرَهُ ويتَّعِظَ به.

وهذا كلُّه تأديبٌ للنبيِّ ﷺ، وتبين أنَّ المحافظةَ على الإقبال على المؤمنين أولى من الحرصِ على مَن هو كافرٌ رجاءَ أن يترُكَ. فَلَمَّا أنْزلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ أكْرَمَ رَسُولُ

اللهِ ﷺ ابْنَ أمِّ مَكْتُومٍ وَالْطَفَهُ وَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ فِي غَزْوَتَيْنِ غزاهُمَا لِيُصَلِّيَ بالنَّاسِ، وَكَانَ ﷺ إذا رَآهُ يَقُولُ: [مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيْهِ رَبي، هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟][1].

ولا يمتنعُ أن يكون إعراضُ النبيِّ ﷺ عن ابنِ أم مكتوم لأنه كان يريدُ أن يعلِّمَ الناسَ طريقةَ حفظِ الأدب في تعلُّمِ العلمِ. وقولهُ تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذكَرَهُ) أي فمَن شاءَ ذكرَ ما أنزل من الآياتِ، ويقالُ: من شاءَ اللهُ له أنْ يتَّعِظَ اتَّعَظَ.

ثم أخبرَ اللهُ تعالى بجلالةِ القرآن في اللَّوحِ المحفوظِ عندَهُ فقالَ تعالى: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي في كُتُبٍ مُعظَّمَةٍ بما تضمَّنت من الحكمةِ، ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ ؛ القَدْرِ في السَّموات، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي منزَّهة من الدَّنَسِ ومن التناقُضِ والاختلافِ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]. والصُّحُفُ: جمعُ الصَّحيفةِ. وَقِيْلَ: يعني بقولهِ (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ) اللوحَ المحفوظَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَرْفُوعَةٍ) يعني في السَّماء السابعةِ وقولهُ تعالى: (مُطَهَّرَةٍ) أي لا يَمَسُّها إلاّ المطهرون، وهم الملائكة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ يعني الكَتَبَةَ من الملائكةِ، واحدُهم سَافِرٌ مثلُ كاتبٍ وكَتَبَةٍ، وقال الفرَّاءُ: ((السَّفَرَةُ هَا هُنَا الْمَلاَئِكَةُ الَّذِيْنَ هُمْ رُسُلُ اللهِ بالْوَحْيِ إلَى أنْبيَائِهِ، وَمِنْهُ السَّفَارَةُ وَهُوَ السَّعْيُ بَيْنَ الْقَوْمِ))[3]. ثم أثنى اللهُ عليهم فقالَ تعالى: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي كرامٍ على ربهم مُطيعين له، والكريمُ الذي مِن شأنه أنْ يأتِيَ بالخير، والبَرَرَةُ: جمعُ بَارٍّ، وهم الفاعلِين للبرِّ المطيعين للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي لُعِنَ الكافرُ ما أكفرَهُ باللهِ وبنعمتهِ مع كثرةِ إحسانهِ إليه، قال مقاتلُ: ((نَزَلَتْ فِي عُتْبَةَ بْنِ أبي لَهَبٍ، والمرادُ به

---

(١) عزاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢١٣؛ قال: (قال الثوري ...) وذكره.

(٢) فصلت / ٤٢ .

(٣) ينظر: معاني القرآن: ج ٣ ص٢٣٦.

كلَّ كافرٍ))[١]. قولهُ (مَا أَكْفَرَهُ) تعجيبٌ بمعنى التوبيخِ، يقالُ: أيُّ شيءٍ حَمَلَهُ على الكفرِ مع وضُوحِ الدلائلِ على وحدانيَّةِ اللهِ، فتعجَّبُوا من كُفرهِ. وأما اللهُ تعالى فلا يجوزُ أن يتعجَّبَ من شيءٍ لكونه عالِماً لم يزَلْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ ﴾؛ معنى الآيةِ: ما أشدَّ كُفرَهُ باللهِ، اعجَبُوا أنتم من كُفرهِ.

ثم بيَّن مِن أمرهِ ما كان ينبغي معه أن يُعلمَ أنَّ اللهَ خالقُهُ، فقال تعالى: ﴿ مِن أىِ شَىء خَلَقَهُ ﴾، لفظُ استفهامٍ، ومعناهُ: التقريرُ، ثم فسَّرَ ذلك فقالَ تعالى: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾؛ أي من ماءٍ مَهين حقيرٍ خلَقهُ فصوَّرَهُ في رحمِ أمِّه على الاستواءِ باليدَين والرِّجلَين وسائرِ الأعضاء، ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ﴾؛ على ما يشاءُ من خلقهِ طَويلاً أو قصيراً؛ ذميماً أو حسَناً؛ ذكراً أو أنثى؛ شقيّاً أو سعيداً، وغيرِ ذلك من الأوصافِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ قال السديُّ ومقاتل: ((أخْرَجَهُ مِنَ الرَّحِمِ وَهَدَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ))[٢]. قال مجاهدُ: ((ثُمَّ يَسَّرَ لَهُ سَبيلَ الدِّينِ، وَمَكَّنَهُ مِنْ سُلُوكِهِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي أماتَهُ عند انقضاءِ أجَلهِ، وجعلَ له قَبراً يُوارَى فيه، أمرَ عبادَهُ أن يُوارُوه، ولم يجعلْهُ مِمَّن يُلقَى على الأرض كما تُلقَى البهائمُ، ثم أكرَمَهُ اللهُ بذلك، يقالُ: أقبَرْتُ فُلاناً إذا جعلتَ له قَبراً يُدفَنُ فيه، وقَبَرتُهُ إذا دفنتَهُ، والقابرُ الدافنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي إذا شاءَ بعثَهُ، وأحياهُ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي حَقّاً لم يقضِ ما أمرَهُ اللهُ به، ولَمْ يُؤَدِّ حقَّهُ مع كمالِ نعمةِ الله عليه. ثم ذكرَ رزقَهُ ليعتَبر، فقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي ليتأمَّلِ الكافرُ في طعامهِ كيف خلقَهُ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٦٣) عن السدي. وقاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٣.

الله، وقدَّره سَبباً لحياتـهِ، ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ قرأ أهلُ الكوفـة ويعقوب (أنَّا) بالفتحِ على نيَّة تكريرِ الخافض، تقديـرهُ: ولينظرْ إلى أنَّا صَببنا المطرَ من السَّماء صَبّاً، وقرأ الباقون بالكسرِ على الابتداء، والمطَرُ ينْزلُ من السَّماء إلى السَّحاب صَبّاً، ثم ينْزلُ من السَّحاب إلى الأرضِ قطرةً قطرةً، ليكونَ أقربَ إلى النفعِ وأبعدَ من الضَّرر.

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي صدَّعنـا الأرضَ بالنَّبـاتِ، ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ يعني الحبوبَ كلَّها يُتغـذى بـها، ﴿ وَعِنَبًا ﴾ ؛ أي كَرْماً، ﴿ وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ للدواب، ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ ؛ هو الذي يُعصَرُ منه الزيتُ، وقـال الحسـنُ: ((الْقَضْـبُ: الْعَلَـفُ))[1]، ﴿ وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ جمـعُ نَخلَـةٍ، ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ الحدائـقُ: جمعُ الحديقـةِ، وهـو البستـانُ الـذي أحْـدِقَ بالحيطان، والغُلْبُ: الشَّجَرُ العظامُ الغِلاَظُ، وَقِيْلَ: الغُلْبُ الملتفَّةُ بالأشجار بعضُـها في بعضٍ، يقالُ: شجرةٌ غَلْبَاءُ إذا كـانت عظيمـةً غليظـة، ورجـلٌ غَلْـبٌ إذا كـان غليـظَ العُنقِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ يعني ألوانَ الفواكـهِ، والأَبُّ: هـو الْمَرْعَى والكلأُ الذي لم يزرعْهُ الناسُ مما يأكله الأنعـامُ. وسُئل ابـنُ عمـرَ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الأب فقال: ((أيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأيُّ أرْضٍ تُقِلُّنِي إذا قُلْتُ فِي كِتَاب اللهِ مَا لاَ أعْلَمُ))[3].

وعن أنسٍ ﷺ أنَّ عمرَ قرأ هذه الآيةَ فقال: ((عَرَفْنَا الْفَاكِهَةَ فَمَـا الأَبُّ؟)) ثُـمَّ قَالَ: ((هَذا لَعَمْرُو اللهِ التَّكَلُّفُ، وَمَا عَلَيْكَ يَا ابْنَ أمِّ عُمَـرَ أنْ تَـدْري مَـا الأَبُّ)) ثُـمَّ قَالُوا: اتَّبعوا ما بُيِّنَ لكم من هذا الكتاب وما لم يُبَيَّنْ فدَعوهُ[4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٧٤).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٢٢؛ قال القرطبي: (قال الكلبي: وكلُّ شيء أحيـط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٢١؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميـد عـن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق ﷺ ...) وذكره.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٨٧) بأسانيد. وفي الدر المنثـور: ج ٨ ص٤٢١؛=

وقال الحسنُ: ((الأَبُّ هُوَ الْحَشِيشُ وَمَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ))[١]. وقال قتادةُ: ((أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَلَكُمْ، وَأَمَّا الأَبُّ فَلأَنْعَامِكُمْ))[٢]. وعن ابنِ عبَّاس قال: ((هُوَ مَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ))[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي خلقنا هذه الأشياءَ مَتاعاً لكم ولدوابكم لسدِّ خِلَّتِكُمْ وتتميمِ حاجتكم، وعن مجاهدٍ ﷺ في قولهِ تعالى (فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ): ((يَعْنِي إِلَى مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ))[٤].

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ لرجُل:[مَا طَعَامُكُمْ ؟] قَالَ: الْحَبُّ وَاللَّبَنُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذا؟] قالَ: إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، قَالَ: [فَإِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ تَمْثِيلاً لِلدُّنْيَا][٥].

وقال أبو قُلابة: ((مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: يَا ابْنَ آدَمَ انْظُرْ إِلَى مَا بَخِلْتَ بِهِ إِلَى مَا صَارَ)). وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ((أَنَّ مَعْنَاهُ: فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى أَوَّلِ طَعَامِهِ ثُمَّ عَاقِبَتَهُ فَلْيَعْتَبِرْ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ يعني صَيْحَةَ القيامةِ تَصُخُّ الأسماعَ التي تصمُّها لشدَّة الصَّيحةِ، والصاخَّةُ من أسماءِ القيامة، ثم بيَّن في أيِّ وقت تجيءُ فقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾

=قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والخطيب والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وصححه عن أنس أن عمر قرأ على المنبر) وذكره.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٩٦ و٢٨٢٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٩٥). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٤٤٢ بهذا اللفظ؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر عن السدي).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨١٨٩).

(٤) في الدر المنثور: ج٨ ص٤٢٠؛ قال السيوطي:(أخرجه ابن المنذر عن عبدالله بن الزبير).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٢٩٩: الحديث (٨١٣٨). والإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٤٥٣. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٢٨٨؛ قال الهيثمي: (رجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق).

لا يلتفتُ أحدٌ إلى أحدٍ منهم لعِظَمِ ما هم فيه، ومخافَةَ إن سألَهُ أحدٌ منهم يحملُ عنه شيئاً من عقابهِ ويُواشيهِ[1] بشيءٍ من ثوابه. وَقِيْلَ: يفرُّ منهم حَذراً من مطالبتِهم إياهُ بما بينهم من التَّبعاتِ والمظالِم. وَقِيْلَ: لعلمهِ بأنَّهم لا ينفعونَهُ.

وعن الحسنِ قال: ((أوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أبيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إبْرَاهِيمُ، وَيَفِرُّ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ أمِّهِ، وَيَفِرُّ لُوطٌ عليه السلام مِنْ زَوْجَتِهِ، وَنُوحٌ مِنْ إبْنِهِ كَنْعَانَ، وَهَابيلُ مِنْ أخِيهِ قَابيل))[2] وَهَذا فِي أوْلِي الثَّوَابِ مِنْ أهْلِ الْعِقَابِ، وَفِي أهْلِ الْعِقَابِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَأمَّا أهْلُ الثَّوَابِ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا كَذلِكَ، وَلَكِنْ يَسْألُونَ رَبَّهُمْ إلْحَاقَ ذُرِّيَّتِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي شأنٌ يَشغَلهُ عن الأقرباءِ ويصرفُه عنهم، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بِالْعَوْرَاتِ ؟! فَقَالَ: [لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ][3].

عن سودة أمِّ المؤمنين قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً] قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَاسَوْأتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إلَى بَعْضٍ ؟! قَالَ:[شُغِلَ النَّاسُ عَنْ ذلِكَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أي مضيئةٌ مُشرقة حسَنة فَرحة مُعجَبة، مسرورةٌ بما أكرمَها اللهُ تعالى به، وهي وجوهُ أهلِ الثواب، ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾؛ بالسُّرور، ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾؛ أي فرحَةٌ بما تنالُ من اللهِ من الكرامةِ، ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾؛ أي غُبار من البلاءِ وسوادٌ وكآبةٌ، ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾؛ أي يعلُوها ويغشاها كسُوفٌ وسوادٌ عند معايَنة النار، والقَتَرَةُ: سوادٌ كالدُّخان الأسودِ. ثم بيَّن مَن أهلُ هذه الوُجوهِ، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ أي الكفرةُ باللهِ الكذبة على اللهِ، جمعُ كَاذِبٍ فَاجِرٍ.

آخر تفسير سورة (عبس) والحمد لله رب العالمين

---

(١) وشَى بهِ إلى السلطان وشايةً أي سَعى. مختار الصحاح: (وشى).
(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٢٥، وفيه اختلاف.
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٢٠٣) وإسناده صحيح.

سُورَةُ التَّكْوِير

سُورَةُ التَّكْوِير مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُـونَ حَرْفـاً، وَمِائَـةٌ وَأرْبَعُـونَ كَلِمَةً، وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أعَاذَهُ اللهُ أنْ يَفْضَحَهُ حِينَ تُنْشَرُ صَحِيفَتُهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي لُفَّتْ كما تُلَفُّ العمامةُ، يقال: كوَّرتُ العمامةَ على رأسِي أكُورُهَا وكَوَّرْتُها تَكْوِيراً إذا لفَفتُها، وقال الكلبيُّ ومقاتل: ((كُوِّرَتْ أيْ ذهَبَ ضَوءُهَا))[2]. وقال مجاهدُ: ((اضْمَحلَّتْ))[3]. وقال المفسِّرون: تُجمَعُ الشمسُ بعضُها إلى بعضٍ، ثم تُلَفُّ فيُرمَى بها في النار، ويقالُ: نعوذُ باللهِ من الْحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ؛ أي من التشتُّتِ بعدَ الألفَةِ، ومِن النُّقصان بعد الزِّيادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي تساقَطت وتناثرَت، يقالُ: انكدرَ الطائرُ من الهواءِ إذا انقَضَّ، قال الكلبيُّ وعطاء: ((تُمْطِرُ السَّمَاءُ يَوْمَئِذٍ نُجُوماً، فَلاَ يَبْقَى نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ إلاَّ وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ)). وذلك أنَّ النجومَ كالقناديلِ معلَّقةٌ بسَلاسل من نور بأيدي ملائكةٍ من نور، فإذا ماتَ الملائكةُ تساقَطت تلك السَّلاسل من أيدِيهم فتنكَدِرُ النجومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي تسيرُ على وجهِ الأرض كما يسيرُ السَّحاب، فتصيرُ هَباءً مُنبَثّاً.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٣٦، وإسناده ضعيف.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢١٢).

وقولـه تعـالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ العِشَـارُ: هـي النُّـوقُ الحواملُ إذا أتتْ عليها عشرةُ أشهُرٍ وبقيَ شَهران، فـهي أحسَنُ مـا يكـون في الإبـلِ وأعزُّها على أهلِها، وليس يعطِلُها أهلُها إلاَّ في حالةِ الشدَّة العظيمةِ، واحدُهـا عِشْـراً وليس في القيمةِ عِشَارٌ، ولكنْ هذا على وجهِ التَّمثيـل حتـى لـو كـان الرجـلُ يومئـذ عَشَّـاراً لعطَّلـها واشـتغلَ بنفسـهِ، ونظـيرهُ ﴿يَـوْمَ تَرَوْنَـهَا تَذْهَـلُ كُـلُّ مُرْضِعَـةٍ عَمَّـا أَرْضَعَتْ﴾[١]، ومعنى (عُطِّلَتْ) أي تُرِكَتْ هَملاً بلا راعٍ لِمَا جاءَهم مـن أهـوالِ يـوم القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ الوحوشُ: جمعُ الوَحْـشِ، وهو ما يأوي إلى الفَلَوَاتِ، وينفِرُ عن الناسِ، وقولهُ تعالى(حُشِرَتْ) أي جُمعت حتـى يَقْتَصَّ بعضُها من بعضٍ، وقال ابنُ عبَّاس: ((حَشْرُ الْبَهَائِمِ مَوْتُهَا))[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ قرأ أبو عمـرٍو وابـنُ كثـير مخفَّفاً، وقرأ الباقون بالتشديد، ومعناه واحدٌ؛ أي وإذا البحارُ مُلِئَتْ وفُجِّـرَ بعضُـها في بعضٍ، ثم صُيِّرت بَحراً واحداً. وقال بعضُهم: أحمِيَتْ من قولهم: سَـجَرْتُ التَّنورَ إذا أحميتَهُ.

والمراد بالبحار على هذا القول بحَارٌ في جهنَّم تُملأ مـن الحميـمِ لتعذيـب أهـلِ النار. وفي الحديثِ: [أنَّ اللهَ تَعَالَى يُفْنِي مَاءَ هَذِهِ الْبحَـار][٣]. كمـا رُوي أن البحـارَ كلها تسيلُ حتى تبلغَ إلى الثور الذي على قَرنه الأرضون، فإذا بلغَته فتحَ فاهُ فابتلعَـها كلَّها، فإذا وقعت المياهُ كلها في جوفهِ يَبست، فلا يُرى منها قطرةٌ بعدَ ذاك!

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي رُدَّت الأرواحُ إلى أجسادِها، فقُرنت كلُّ روحٍ إلى جسدِها، وسُئل عمر ﷺ عـن ذلـكَ فقـالَ: ((مَعْنَـاهُ:

---

(١) الحج / ٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٣٣).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٤٦) عن قتادة قال: (ذهـب ماؤهـا فلـم يبـق فيـها قطرة).

يُقْرَنُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُقْرَنُ الرَّجُلُ السُّوءُ مَعَ الرَّجُلِ السُّوءِ فِي النَّارِ، فَذلِكَ تَزْوِيجُ النَّفْسِ))[١] ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٢] وقُرَنَاءَهُمْ.

وقال عطاءُ: زُوِّجَتْ نُفوسُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحُورِ الْعِينِ، وَقُرِنَتْ نُفُوسُ الْكُفَّارِ بِالشَّيَاطِينِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾؛ قال الفرَّاءُ: ((سُئِلَتِ الْمَوْءُودَةُ فَقِيلَ لَهَا: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾)) ومعنى سُؤالها توبيخُ قاتِلها، لا يقولُ: قَتلتُ بغيرِ ذنبٍ. والموءودَةُ: المقتولَةُ بِثِقَلِ التُّراب الذي يطرحُ عليها، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[٤] أي لا يثقُل حفظُ عليه السَّموات والأرض، وكانت العربُ تَئِدُ البناتِ من أولادها حيَّةً؛ كَيلا يُخطَبْنَ إليهم، ومخافةَ الإملاق كما قالَ تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾[٥].

قال المفسِّرون: هي الْمَوْءُودَةُ المقتولَةُ المدفونَةُ حيَّةً، سُميت بذلك لما يطرحُ عليها من التُّراب فيَؤُودهَا؛ أي يُثقِلُها حتى تموتَ، قالوا: وكان الرجلُ من العرب إذا وُلِدت له بنتٌ، فإذا أرادَ أنْ يستبقيها ألبسَها جُبَّة من صُوفٍ ترعَى له الإبلَ والغنمَ، وإذا أرادَ أن يقتُلَها تركَها حتى إذا صارت سُداسيَّةً ثم يقولُ لأُمِّها: طيِّبيهَا وزَيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى بيتِ أقَاربها، وقد حفرَ لها بئراً في الصَّحراء، فإذا بلغَ البئرَ قال لها: انظُري إلى هذا البئرِ فيدفعُها من خلفِها في البئرِ، ثم يُهِيلُ عليها الترابَ حتى يُسوِّيها بالأرضِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٥٢) موقوفاً عن عمر ﷺ. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩١٦١). وفي أصل المخطوط: سقط منه (مع الرجل الصالح) و(مع الرجل السُّوء). وضبطناه كما في جامع البيان.

(٢) الصافات / ٢٢.

(٣) النساء / ٣٨.

(٤) البقرة / ٢٥٥.

(٥) الإسراء / ٣١.

قال قتادةُ: ((كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُ أحَدُهُمُ ابْنَتَهُ وَيَغْذُو كَلْبَهُ))[١]. ويجوز أنْ يكون معنى سُئِلَتْ: طَلَبَتْ من قاتِلها لِمَ قتلَها كما تقولُ: سألتُ حقِّي من فلانٍ إذا أخذتَهُ وطلبتَ حقَّكَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أرادَ به ديوَانَ الحسناتِ والسيِّئات، وذلك أنَّهُ إذا ماتَ ابنُ آدمَ طُويت صَحيفتهُ على مقدار عملِه، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرَتْ وأعطِيَ كلٌّ واحدٍ منهم صحيفتَهُ على مراتبهم، فينبغِي لكلِّ عاقلٍ أن يذكُرَ حالةَ الطَّيِّ في آخرِ عُمره، وحالةَ النشرِ يومَ القيامةِ، ويجتهدُ أن يَملِي صحيفتَهُ في حياتهِ من الطَّاعات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي نُزعت عن أماكنِها فطُوِيَتْ كما يُكشَطُ الغطاءُ عن الشَّيءِ، وقال الزجَّاجُ: ((قُلِعَتْ كَمَا يُقْلَعُ السَّقْفُ))، ومعنى الكَشْطِ رفعُ الشيءِ عن شيءٍ قد غطَّاهُ، كما يُكشَطُ الجلدُ عن الشَّاةِ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (قُشِطَتْ) بالقافِ، والمعنى واحدٌ[٢]. ويقالُ: معنى الكشطِ أن ينْزَعَ عنها ما فيها من الشَّمسِ والقمرِ والنجومِ، يقال كَشَطْتُ الحرفَ عن البياضِ إذا قَلَعْتُهُ ومَحوتُه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي أوقِدَتْ للكافرين والمنافقين، قرأ نافعُ بالتشديدِ؛ أي أوقِدَتْ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وزيدَ في وقُودِها وشدَّة لَهبها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي أدْنِيَتْ من المتَّقين وقُرِّبت لهم، ودنَا دخولُهم إياها، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿وَأزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] ومن ذلك الْمُزْدَلِفَةُ لِقُربها من عرفات.

وقولهُ تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ جوابهُ هذه الأشياء، يقولُ: إذا كانت هذه الأشياءُ التي تكون في القيامةِ عَلمت ذلك الوقت كلُّ نفسٍ ما أحضَرتْهُ من خيرٍ أو شرٍّ تُجزَى بهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٦٣).

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٢٦٨).

(٣) ق ~/ ٣١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ معنـاه أقسِمُ بـرب الْخُنَّـس، و(لاَ) في هذا الموضعِ مؤكِّدَةٌ زائدةٌ، وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي الجاريةُ في الأفلاكِ، وتَخْنُسُ في مَجراها؛ أي ترجعُ إلى مَطالعِها في سَيرها، ثـم تستَتِرُ عند غُروبها، فتغيبُ في المواضعِ التي تغيـبُ فيـها كمـا تُكنِـسُ الظِّبـاءُ بـأن تسـتترَ في كناسِها.

والْخَنَسُ: هو التأخُّر، ومنه الْخَنَسُ في الأنفِ تَـأخُّرُهُ في الوجـهِ، يقـال: رجـلٌ أخْنَسُ والمرأة خَنْسَاءُ، وسُمي الأَخْنَسُ بن شَريف بهذا الاسم لتأخُّره عن يوم بدرٍ عن أصحابهِ. ومنه الْخَنَّاسُ وهو الشيطانُ؛ لأنه يغيبُ عن أعيُنِ النـاسِ. والْخُنَّسُ: جمعُ خَانِسٍ، وهي النجومُ الخمسة: زُحَلُ والمشتري والمرِّيـخُ والزُّهـرة وعطـارد، تجري في الأفلاكِ وتَخْنُسُ في مجرَاها؛ أي ترجعُ إلى مجرَاها في سيرها.

ورُوي: أنَّ رَجُلاً مِنْ خَثْعَمَ جَاءَ إلَـى عَلِـيٍّ رضي الله عنه فَقَـالَ: يَـا أمِـيرَ الْمُؤْمِنِـينَ مَـا الْخُنَّسُ ؟ قَالَ: ((ألَسْتَ رَجُلاً عَرَبِيّاً ؟!)) قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ أكْرَهُ أنْ أفسِّرَ الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ مَا أنْزِلَ؟، فَقَالَ: ((الْخُنَّسُ هِيَ النُّجومُ الْخَمْسَـةُ: الزُّهْـرَةُ وَالْمُشْـتَرِي وَبَـهْرَامُ[1] وَعَطَاردُ وَزُحَلُ)).

فَقَالَ: مَا الْكُنَّـسُ ؟ قَـالَ: ((مُسْـتَقَرُّهُنَّ إذا انْقَبَضْـنَ، وَهُـنَّ الْجَـوَاري تَخْنُـسُ خُنُوسَ الْقَمَرِ، يَرْجِعْنَ وَرَاءَهُنَّ وَلاَ يَقْدُمْنَ كَمَا يَقْدُمُ النُّجُوم، وَلَيْسَ مِنْ نَجْمٍ غَـيْرُهُنَّ إلاَّ يَطْلُعُ، ثُمَّ يَجْرِي حَتَّى يَقْطَعَ الْمَجَرَّةَ))[2]. وَقِيْلَ: معنى خُنُوسِها أنَّها تستترُ بالنَّهار فتخفَى، وتنكسُ في وقت غُروبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي إذا أقبـلَ بظَلامـهِ، وَقِيْـلَ: إذا أدبرَ بظَلامهِ. والعَسُّ: طلبُ الشَّيء بالليلِ، ومنه العَسَسُ، ويقالُ: عَسْـعَسَ الليـلُ إذا أقبلَ، وعَسْعَسَ إذا أدبرَ، وهو مِن الأضدادِ، إلاّ أنَّ ما بعدَ هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المرادَ بـه أدبـرَ، وهـو قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي إذا امتـدَّ

(١) بهرام: هو المريخ.
(٢) لم أقف عليه بنصه، وبمعناه نقل القرطبي في الآثار (٢٨٢٧٢و٢٨٢٧٣) عن علي رضي الله عنه.

ضَوؤهُ حتى يصيرَ نهاراً بيِّناً، ومنه تنَفُّسَ الصُّعَدَاءَ، ومنه امتدادُ نَفَسِ الخوفِ بالخروج من الأنفِ والفمِ.

ثم ذكرَ جوابَ القسَمِ فقال:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ﴾؛ يعني القرآنَ أتى به جبريلُ عليه السلام من عندِ الله وهو رسولٌ كريمٌ، فقرأهُ على رسول الله ﷺ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ يعني جبريلَ عليه السلام ذي قوَّة فيما كُلِّفَ وأُمِرَ به، ومن قوَّته أنه قلَبَ قُرى قومِ لوطٍ وهي أربعُ مدائنَ، في كلِّ مدينةٍ أربعمائة ألف مُقاتل سِوَى الذراري، فحملَهم من الأرضِ السُّفلى بقوادمِ جناحِهِ، ورفعَها إلى السَّماء حتى سَمِعَ أهلُ السَّماء أصواتَ الدَّجاجِ ونباحَ الكلاب، ثم قلبَها بأمرِ الله فَهَوَتْ بهم، كلُّ هذا من غيرِ كُلفَةٍ لَحِقَتْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) عند خالقِ العرش ومالكِهِ، وَحَيُّهُ رفيعُ القدر، يقالُ: فلانٌ مَكِينٌ عند الأمين؛ أي ذُو قدرٍ ومَنْزِلَةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي مُطاعٍ في السَّموات، يطِيعهُ أهلُ السَّموات بأمرِ الله تعالى، يقالُ: فرضَ طاعتَهُ على أهلِ السَّماء كما فرضَ طاعةَ النبيِّ ﷺ في الأرضِ على أهلِ الأرض. وقوله (أمِينٍ) أي فيما يؤدِّي عن اللهِ إلى أنبيائهِ عليهم السَّلامُ، حَقِيقٌ بالأمانةِ فيه، لم يَخُنْ ولم يَخُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ يعني محمداً ﷺ والخطابُ لأهلِ مكَّة، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ مُحَمَّداً مَجنونٌ، فأقسمَ اللهُ تعالى أنَّ القرآنَ نزلَ به جبريلُ، وأنَّ مُحَمَّداً ليس بمجنونٍ كما قالوهُ، وفي هذا بيانُ غايةِ جهلِ قريش حيث نسَبُوا أعقلَ خلقِ الله إلى الجنونِ. والمجنونُ في اللغة: هو المغطَّى على عقلهِ لآفةٍ نزَلت به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي ولقد رأى مُحَمَّدٌ جبريلَ بالأفق الأعلى وهو مَطلعُ الشَّمسِ الذي يجيءُ منه النهار، وقد تقدَّم في سورةِ النَّجم: أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام كَانَ يَأْتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا إلاَّ مَرَّتَيْنِ.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: [إنِّي أُحِبُّ أنْ أرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاءِ] قَالَ: لَنْ تَقْوَى عَلَى ذلِكَ، قَالَ: [بَلَى] قَالَ: أيْنَ تَشَاءُ أتَخَيَّلُ لَكَ، قَالَ: [بالأَبْطَحِ] قَالَ: لَنْ يَسَعَنِي، قَالَ: [بِمِنَى] قَالَ: لاَ يَسَعُنِي، قَالَ: [بعَرَفَاتٍ] قَالَ: فَهَبَطَ جِبْرِيلُ بعَرَفَات بخَشْخَشَةٍ وكَلْكَلَةٍ[(١)] قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغرِب، وَرَأسُهُ فِي السَّمَاءِ وَرِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فَتَحَوَّلَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ وَضَمَّهُ إلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لاَ تَخَفْ، فَكَيْفَ لَوْ رَأيْتَ إسْرَافِيلَ وَرَأسُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَرِجْلاَهُ فِي التُّخُومِ السَّابعَةِ وَالْعَرْشُ عَلَى كَاهِلِهِ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ قال بعضهم: أرادَ به جبريلَ ليس بمُتَّهَمٍ على تبليغِ الوحي والرسالة ولا تخيُّل، بل هو صادقٌ موثوق به. وقال بعضُهم: أرادَ به النبيَّ ﷺ، والمرادُ بقوله (عَلَى الْغَيْب) أي على الوحيِ، وقرأ الحسنُ والأعمش وعاصم وحمزة ونافعُ وابن عامر (بضَنِينٍ) بالضادِ، وكذلك هو في مُصحفِ أبَيِّ بن كعبٍ، ومعناهُ: وما هو على الغيب ببَخِيلٍ، لا يبخَلُ عليكم، بل يُعلِّمُكم وتُخبرُكم به، تقول العربُ: ضَنِنْتُ بالشَّي بكسرِ النونِ فأنا به ضَنِينٌ؛ أي بخيلٌ، قال الشاعرُ[(٣)]:

أجُودُ بمَضْنُونِ التَّلاَدِ وَإنَّنِي ... بسِرِّكَ عَمَّنْ سَألَنِي لَضَنِينُ

وقرأ الباقون بالظَّاء، وهي قراءةُ ابن مسعود وعروة بن الزُّبير وعمرَ بن عبدالعزيز، ومعناهُ: (بمُتَّهمٍ)، والْمَظَنَّةُ التُّهمَةُ[(٤)].

---

(١) في المخطوط: (كبكبة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤١؛ قال: (وحكى الثعلبي عن ابن عباس). وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٢. ومقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٥٧.

(٣) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي(ت٢ق.هـ). وعند القرطبي في الجامع لأحكام القرآن:

أجُودُ بمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَإنَّنِي ... بسِرِّكَ عَمَّنْ سَألَنِي لَضَنِينُ

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٢٠) عن ابن عباس، و(٢٨٣٢١) عن ابن جبير، و(٢٨٣٢٢) عن إبراهيم، و(٢٨٣٢٣) عن الضحاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ هـذا ردٌّ على الكفَّار، فإنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ النبيَّ ﷺ يأتيه شيطانٌ اسمه الرَّئِيُ يتزَيَّا له فيُلقيه على لسانه. والرَّجِيمُ: اللعينُ الْمَرْجُومُ بالشُّهب. أو المعنى: وما القرآنُ بقول شيطان رجيم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ خطابٌ لكفَّار مكة يقولُ: أيَّ طريقٍ تسلُكون أبْيَن من هذا الطريقِ الذي بُيِّنَ لكم، ويقولُ: أين تذهَبُون بقُلوبكم عن معرفةِ ما بيَّن اللهُ لكم من صحَّة نبوَّة النبي ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي ما القرآنُ إلاّ عِظَةٌ بليغةٌ لجميعِ الخلق. وقوله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي يتمسَّكَ بطريقةِ الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أعلمَ اللهُ أنَّ المشيئةَ والتوفيقَ والخذلان إليه تعالى، ولأنَّهم لا يعلَمُون شيئاً من الخيرِ والشرِّ إلاَّ بمشيئةِ الله.

وقد اختلَفُوا في تفسيرِ هذه الآية على قولَين، قال بعضُهم: هذا القرآنُ ذِكرٌ لِمَن شاءَ اللهُ له أن يستقيمَ، وما تشاءون أن تستَقيموا إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ذلك لكم. وقال بعضُهم: هذا ذِكرٌ عامٌّ للعالَمين، فمَن شاءَ أن يستقيمَ استقامَ.

آخر تفسير سورة (**التكوير**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الانْفِطَارِ

سُورَةُ الانْفِطَار مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَثَمَانُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ قَطْرَةِ مَاءٍ حَسَنَةٍ، وَأَصْلَحَ لَهُ شَأْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ ؛ أي انشقَّت وانقَضَتْ. والانفطارُ والانصداعُ والانشقاق بمعنىً واحد. قوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ ﴾ ؛ أي تساقَطت على وجهِ الأرض، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ ؛ أي فُتِحَ بعضُها في بعضٍ، ورُفِعَ الحاجزُ بين العَذْبِ والملح.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ ؛ أي مُحِيَتْ فانتَثرت وكشَفت عن الأمواتِ واستُخرجَ ما فيها من الموتى، ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ ؛ من عملٍ، ﴿ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾ ؛ أي عندَ ذلك تعلمُ النَّفس ما قدَّمت وأخَّرت، هذا جوابُ الشَّرطِ، ويقالُ: ما قدَّمت من الطاعةِ والمعصية، وما أخَّرت من الحسَنة والسيِّئة. ويقالُ: ما قدَّمت وأسلَفت من الخطايَا، وسوَّفَت من التوبةِ. وَقِيْلَ: ما قدَّمت ((مِن)) الصدقات وأخَّرت مِن التَّركات.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ﴾ ؛ الخطابُ في هذه الآيةِ للكفَّار، والمرادُ بالإنسانِ كلدَةَ بنَ أسيدٍ[(٢)]، ويقالُ: الخطابُ للكفَّار

---

(١) تقدم وسيأتي من حديث أبي في فضائل السور، وإسناده ضعيف.

(٢) في تفسير مقاتل: ج ٣ ص٤٥٨؛ قال: (نزلت في أبي الأشد، اسمه أسيد بن كلَدَة،، وكان أعور شديد البطش، فقال: لئن أخذت بحلقة من باب الجنة ليدخلها بشرٌ كثير، ثم قتل يوم فتح مكة، يعني غرَّهُ الشيطان). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٥؛ قال القرطبي: (أبو الأشد بن=

والعاصين، يقال له يومئذٍ: بِمَ اغتَرَرْتَ وتشاغَلت عن طاعةِ الله وطلب مَرضاتهِ وهو الكريْمُ الصَّفُوحُ عن العبادِ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ ﴾ ؛ خلقَكَ في بطنِ أمِّك باليدينِ والرِّجلَين وسائر الأعضاء لم يخلُقها متفاوتةً، ولو كان خلقُ إحدى رجلَيك أطولَ من الأخرى لم تكمُلْ منفعتُكَ.

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ فَقَالَ: (يَا أيُّهَا الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبكَ الْكَرِيْمِ)؟ فَقَالَ: [جَهْلُهُ يَا رَبِّ][1]. وقال قتادةُ: ((غَرَّ الإنْسَانَ عَدُوُّهُ الْمُسَلَّطُ عَلَيْهِ))[2]. قيل للفُضَيلِ بن عِيَاضٍ: لَوْ أقَامَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: (مَا غَرَّكَ بِرَبكَ الْكَرِيمِ) مَا كُنْتَ تَقُولُ ؟ فَقَالَ: ((أقُولُ: غَرَّنِي سُتُورُكَ الْمُرْخَاةُ))[3]. وقال مقاتلُ: ((غَرَّهُ عَفْوُ اللهِ حِينَ لَمْ يُعَجِّلْ عَلَيْهِ بِالْعُقُوبَةِ))[4]. وقال السديُّ: ((غَرَّهُ رِفْقُ اللهِ بِهِ))[5]، وقال يحيى بنُ معاذٍ: ((لَوْ أقَامَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: مَا غَرَّكَ بِي؟ لَقُلْتُ: غَرَّنِي بكَ رِفْقُكَ بي[6] سَالِفاً وَآنفاً)).

قال أهلُ الإشارة: إنَّما قالَ (بربكَ الْكَرِيمِ) دون سائر صِفاته، كأنَّهُ لَقَّنَهُ الإجابةَ حتَّى يقولَ: غرَّني كَرَمُ الْكَرِيمِ. وعن ابنِ مسعودٍ قال: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ سَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: (مَا غَرَّكَ بِرَبكَ الْكَرِيمِ)؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ؟ فِيمَا عَلِمْتَ؟ مَاذا أجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟))[7]. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: ((لَوْ قَالَ لِي: (مَا غَرَّكَ بِرَبكَ

=كَلَدَة الْجُمْحِيّ).

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٣٩؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر عن عمر ﷺ) موقوفاً. وقال: (أخرجه عبد بن حميد عن صالح بن مسمار) مرسلاً.

(٢) قاله الطبري في جامع البيان، وأسنده بمعناه عن قتادة في الأثر (٢٨٣٣٧).

(٣) أخرجه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٥.

(٤) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦.

(٥) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص١٣٨٨؛ قال: (عن السدي).

(٦) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٦؛ نقله الثعلبي بلفظ: (برُّكَ بي).

(٧) ذكره أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٧. والبغوي في معالم التنزيل: ص١٣٨٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٤٦.

الْكَرِيمِ)؟ لَقُلْتُ: غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ))[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾؛ قرأ أهلُ الكوفة بتخفيفِ الـدال؛ أي صرفَك إلى أيِّ صُورةٍ شاءَ من الْحُسنِ والقُبحِ والطولِ والقِصَرِ، وقرأ الباقون بالتشديدِ؛ أي قوَّمَ خَلْقَكَ، معتدلُ الخلق معتدلُ القامةِ في أحسنِ صُورةٍ، كما في قولـهِ تعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢]. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ أي في شَبَهِ أبٍ أو أمٍّ أو خال أو عمٍّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ ﴾؛ (كَـلاَّ) كلمـةُ رَدْعٍ، ومعناها لاَ تَغْتَرَّ بغيرِ الله تعالى فتترُكَ عبادةَ اللهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: حَقّاً إنَّكم لا تَستَقِيمُونَ على ما توجبهُ نِعمَتِي عليكم، بل تكذِّبون بالإسلامِ مع هذه النِّعم. ويقالُ: أراد بالدِّين ههنا يومَ الحساب والجزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ ﴾؛ ابتداءُ إخبار من اللهِ، معناهُ: وإنَّ عليكم رُقباءَ يحفظون أعمالَكم وأفعالكم وهم الملائكـةُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ ﴾؛ أي كِراماً على اللهِ كاتِبين يكتُبون أقوالَكم وأفعالَكم، قال رسـولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ أحَدٍ يَأْوي إلَى مَضْجَعِهِ إلاَّ شَكَتْ أعْضَاؤُهُ إلَى اللهِ تَعَالَى مِمَّا يَجْنِي عَلَيْهَا الإنْسَانُ]، وإنما قالَ كِراماً على اللهِ ليكون أدعَى إلى احترامِهم وإلى الامتناعِ عن فعلِ ما يُؤذيهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾؛ في الظاهرِ دون البـاطنِ، يعني يعلَمون ما تفعلون دون ما تعتقِدون، قال ابـنُ مسعود: ((يَكْتُبُـونَ كُـلَّ شَـيْءٍ حَتَّـى الأَنِينَ)) ونظيرهُ قولهُ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[٣].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾؛ أرادَ بالأبرار الصَّادقين في إيمانِهم، وأراد بالفُجَّار الكفار. وَقِيـلَ: أرادَ بـالأبرار عُمَّـال الإحسانِ من المؤمنين، وبالفُجَّار عُمال الإساءةِ من الفُسَّاق.

---

(١) ينظر: المصدر السابق. (٢) التين / ٤.

(٣) القمر / ٥٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي يدخلونها يومَ الحساب والجزاء، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ إلى أن يقضيَ اللهُ بإخراجِ مَن كان فيها من أهلِ التوحيد، وأمَّا الكفارُ فلا يغيبُون عنها أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي ما أعلَمَك يا مُحَمَّدُ ما فِي ذلك اليومِ من الشَّدائد على الكفار، ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾، ثم ما أعلَمَك ما فيهِ من النَّعيم للأبرار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو برفعِ الميم نعتاً لقولهِ تعالى (يَوْمُ الدِّين) أو بدلاً منه، وقرأ الباقون بالنصب على الظرفِ؛ أي في يومٍ، ومعناهُ: لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ؛ أي لا يملكُ آخَرُ لآخرٍ نفعاً ولا ضرّاً؛ لأنَّ الأمرَ يومئذ للهِ، ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾؛ دون غيرهِ.

آخر تفسير سورة (**الانفطـــار**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمُطَفِّفِين

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعُمِائَةٍ وَثلاثُونَ حَرْفاً[١]. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فِي مُهاجَرِهِ إلَى الْمَدِينَةِ. وَقِيلَ: كُلُّهَا مَدَنِيَّةٌ إلاَّ ثَمَانِي آيَاتٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا...﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ[٢]. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أَسْقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ][٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾؛ يعني الذين يُنقِصُونَ الناسَ، ويَبخسُونَ حقوقَهم في الكَيْلِ والوزنِ. والويلُ: الشدَّةُ في العذاب، وهي كلمةٌ تُستَعْمَلُ لكلِّ مَن وقعَ في الْهَلَكَةِ. وهاهنا رُفع بالابتداءِ وخبرهُ (لِلْمُطَفِّفِينَ). والتَّطْفِيفُ: التَّنقيصُ في الكيلِ والوزن، والطَّفيفُ: الشيء القليلُ، وإناءٌ طَفْآنٌ إذا لم يكن مَلآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ ﴾، يعني إذا اكتَالوا من الناسِ و(على) و (من) يتعاقَبان. والمعنى: إذا أخذُوا من الناسِ حُقوقَهم أخذوهُ على الوفاءِ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾؛ وإذا كَالُوا للناسَ أو وزَنوا لهم يُنقِصُون في الكيلِ والوزنِ.

والإخْسَارُ والْخَسَارُ بمعنىً واحد. واطلاقُ لفظ المطلَق لا يتناولُ إلاَّ مَن يتفاحشُ منه التطفيفُ، بحيث لو وقعَ ذلك المقدارُ في التفاوُتِ بين الكيلَين العدلَين

---

(١) هكذا في المخطوط، وهو على غير عادته، وكما نقله الثعلبي في الكشف والبيان:ج١٠ ص١٤٩؛ قال: (ومائة وستون كلمة، وست وثلاثون آية).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٥٥٠ عزاه القرطبي إلى مقاتل؛ قال: (هي أول سورة نزلت بالمدينة).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٤٩، وإسناده واهٍ.

لزادَ عليه، وأما الإيفاءُ بين الناس فإنَّهم يجتهدون في استيفاء حقوقِهم أن يكون ذلك أميلَ إلى الرُّجْحان، كما رُوي: [أنَّ النبيَّ ﷺ قَضَى دَيْنَهُ فَأَرْجَحَ] فَقِيلَ لَهُ فِي ذلِكَ فَقَالَ: [إنَّا كَذلِكَ نَزِنُ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ معناهُ ألاَ يستيقنُ أولئكَ أنَّهم مبعُوثون، وفيه بيانُ أنَّ التطفيفَ ليس يفعلهُ مَن يعلمُ أنه مبعوثٌ للحساب ليومٍ عظيم وهو يومُ القيامةِ، كأنه قالَ: لو علِمُوا أنَّهم مبعُوثون ما نقصُوا في الكيلِ والوزن، وكان الحسنُ يقول: ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْمُوَحِّدِينَ، وَمَا آمَنَ بيَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ طَفَّفَ فِي الْمِيزَانِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾؛ فيه بيانُ صفةِ ذلك اليوم، قال الكلبيُّ: ((يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلاَثمِائَةِ سَنَةٍ لاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُوا))[2]. وعن رسول الله ﷺ قالَ: [يَقُومُ النَّاسُ لِرَب الْعَالَمِينَ حَتَّى أنَّ أحَدَهُمْ لَيَغِيبُ فِي رَشْحِهِ إلَى أنْصَافِ أذُنَيْهِ، وَحَتَّى يَقُولَ الْكَافِرُ: رَب أرِحْنِي وَلَوْ إلَى النَّار][3].

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [خَمْسٌ بخَمْسٍ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بخَمْسٍ؟ قَالَ: [مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بغَيْر مَا أنْزَلَ اللهُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتِ فِيهِم الْفَاحِشَةُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيلَ إلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأخِذُوا بالسِّنِين، وَلاَ مَنَعُوا الزَّكَاةَ إلاَّ حَبَسَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ][4].

---

(١) عن جابر بن عبدالله؛ قال: قال رسول الله ﷺ [إذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا]. أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب التجارات: باب الرجحان في الوزن: الحديث (٢٢٢٢).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٥٥) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لبشير الغفاري: [كَيْفَ أنْتَ صَانِعٌ فِي يَوْمٍ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ ثَلاَثَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ أيَّامِ الدُّنْيَا]. وفي الأثر (٢٨٣٥٨) عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٥٢) عن ابن عمر بأسانيد.والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٣٨).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٣٨: الحديث (١٠٩٩٢). وفي مجمع الزوائد: =

وعن مالكِ بن دينار قالَ: ((دَخَلْتُ عَلَى جَارٍ لِي، وَقَدْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: جَبَلَيْنِ مِنْ نَار جَبَلَيْنِ مِنْ نَار، قُلْتُ: مَا تَقُولُ ؟! قَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى كَانَ لِي مِكْيَالاَن أَكِيلُ بأَحَدِهِمَا وَأَكْتَالُ بالآخَر، قَالَ: فَقُمْتُ فَجَعَلْتُ أَضْرِبُ أَحَدَهُمَا بالآخَر، فَقَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى كُلَّمَا ضَرَبْتَ أَحَدَهُمَا بالآخَرِ ازْدَادَ عَلَيَّ عِظَماً، قَالَ: فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ))(١).

وقال عكرمةُ: ((اشْهَدُوا عَلَى كُلِّ كَيَّال وَوَزَّان أنَّهُ فِي النَّار))، قِيلَ: إنَّ ابْنَكَ كَيَّالٌ أوْ وَزَّانٌ، قَالَ: ((اشْهَدُوا أنَّهُ فِي النَّار)). وكان ابنُ عمرَ يَمُرُّ بالْبَائِعِ فَيَقُولُ لَهُ: ((اتَّقِ اللهَ وَأَوْفِ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بالْقِسْطِ؛ فَإنَّ الْمُطَفِّفِينَ يُوقَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى أنَّ الْعَرَقَ لَيُلْجِمُهُمْ إلَى أنْصَافِ آذانِهِمْ))(٢). ومرَّ عَلِيٌّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ يَزِنُ الزَّعْفَرَانَ فَقَالَ:((أقِمِ الْوَزْنَ بالْقِسْطِ، ثُمَّ أرْجِحْ بَعْدَ ذلِكَ مَا شِئْتَ))(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي ليس الأمرُ على ما يظُنون أنَّهم لا يُبعثون ليومٍ عظيم، وَقِيْلَ: إن (كَلاَّ) هاهنا كلمةُ ردعٍ وزجرٍ؛ أي ارتَدِعوا عن التطفيفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ كِتَابَ الفُجَّار لَفِي سِجِّين) يعني الكتابَ الذي يُكتَبُ فيه أعمالُهم، قال ابنُ عبَّاس: ((السِّجِّينُ صَخْرَةٌ سَوْدَاءُ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابعَةِ، وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا الأَرْضُونَ، مَكْتُوبٌ فِيهَا عَمَلُ الْفُجَّار)). عن رسولِ الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: [سِجِّينُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مَفْتُوحٌ، وَالْفَلَقُ جُبٌّ فِي النَّار مُغَطًّى](٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ تعجُّبٌ للنبيِّ ﷺ يقولُ: ليسَ ذلك مما تعلَمهُ أنتَ ولا قومُكَ؛ لأنَّكم لم تعاينوهُ، ثم فسَّرهُ فقال: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي مُثْبَتٌ عليهم في تلك الصَّخرة كالرَّقمِ في الثوب لا يُنسَى ولا

=ج ٣ ص٦٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحق بن عبدالله المروزي لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام).

(١) ذكر القرطبي القصة أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٥٣.

(٢) نقله الثعلبي عن نافع عن ابن عمر، كما في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٥١.

(٣) هذه الآثار ذكرها الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٥٠-١٥١. والقرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٧١) عن أبي هريرة.

يُمحَا حتى يُجَازُونَ به، ومعنى الرَّقمِ على هذا القول هو الطَّبعُ في الحجَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾؛ يعني الوليدَ بن المغيرة، ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا ﴾، كان إذا قُرِئَ عليه القرآنُ، ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أحاديثُهم وأباطيلهم التي سطَّرُوها في الكُتب، وهذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ يقول مثلَ مقالتهِ، والمعتدِي هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ، والأثيمُ كثيرُ الإثمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي حَاشَا أن يكون القرآنُ أساطيرَ الأوَّلين، بل غلبَ على قُلوبهم ما كانوا يكسِبُون من الكُفرِ والمعصيةِ، يقالُ: رَانَتِ الخمرُ على عقلهِ إذا سَكِرَ فغلبَتْ على عقلِهِ، ويقالُ في معنى الرَّيْنِ: إنَّه كثرةُ الذُّنوب كالصَّدَى يغشَى على القلب، وقال الحسنُ: ((هُوَ الذنْبُ عَلَى الذنْب حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ))[1]. وقال مجاهدُ:((هُوَ الطَّبْعُ))[2].

وفي الحديثِ عن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: [الْمُؤْمِنُ إذا أخْطَأَ خَطِيئَةً كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا، وَإنْ لَمْ يَتُبْ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فِي الرَّيْنِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي كِتَابهِ (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي حَقّاً إنَّهم عن رحمةِ ربهم وكرامتهِ لَممنُوعون؛ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي أنَّهم مع كونِهم مَمنوعون عن الجنَّةِ ونعيمها، يدخُلون الجحيمَ غيرَ خارجين منها أبداً، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾؛ لهم على وجهِ التَّقريع على طريقِ الذمِّ، ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ في الدُّنيا. وَقِيْلَ: معناه محجُوبون عن رؤيةِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٨١) بإسنادين.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٨٣) مطولاً وبأسانيد، وفي الأثر (٢٨٣٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٣٨٠) عن أبي هريرة ﷺ بأسانيد. والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٩٧. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي حَقّاً إنَّ عملَ الأبرار وهم الصَّادقون في إيمانِهم لمكتوبٌ في أعلىَ الأمكِنة فوقَ السَّماء السابعة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ ذلك غيرُ معلومٍ وسيعرفهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ تفسيرٌ للكتاب الذي في عليِّين إعظاماً لذلكَ الكتاب وتشريفاً، وفي إعظامِ كتاب المرءِ إعظاماً له.

وقال قتادةُ: ((عِلِّيُّونَ قَائِمَةٌ بالْعَرْشِ الْيُمْنَى))(١)، وقال مقاتلُ: ((سَاقُ الْعَرْشِ إلَيْهِ تُرْفَعُ أرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ))(٢). وَقِيْلَ: إنَّ العليِّين جمعُ العِلِّيَّةِ، وهي المرتبةُ العاليةُ مَحْفُوفَةٌ بالجلالةِ. وقال بعضُهم: معناهُ: عُلُوٌّ في عُلُوٍّ مضاعفٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يحضرهُ السَّبعة أملاكِ الذين ذكرناهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي في نعيم دائمٍ وهو نعيمُ الجنَّة، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي على السُّرُر من الدُّرِّ والياقوتِ في القِبَاب المضروبةِ ينظُرون إلى نعيم الجنَّة. وَقِيْلَ: إلى أعدائِهم كيف يُعذبون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي بريقُ النعيم ونورهُ ونظارتهُ وبَهجتهُ وحُسنه، ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ ؛ أي خمرٌ صافية خالصة من الغشِّ بيضاءُ مختومة بالمسكِ، قال قتادةُ: ((تُمْزَجُ لَهُمْ بالْكَافُور، وَتُخْتَمُ لَهُمْ بالْمِسْكِ))(٣). وَقِيْلَ: معناهُ: آخِرُ طعمهِ مِسكٌ.

وقرأ علقمةُ: (خَاتَمُهُ مِسْكٌ) أي آخرهُ، ويقال معناهُ: أنَّهم إذا شَربوا من ذلك الشَّراب الختمَ ذلك بطعمِ المسكِ ورائحته. ويقال: معنى المختومِ هـهنا أنَّ ذلك الشرابَ في الآخرةِ هو مختومٌ بالمسكِ بدلَ الطِّين الذي يُختم بمثلهِ الشَّراب في الدُّنيا، فهو مختومٌ بالمسكِ يومَ خَلقهِ الله تعالى لا ينفَكُّ حتى يَدْخُلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فينفكُّ ذلك لَهم تعظيماً لشرابهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٣٩٨).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٤١٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي في مثلِ هذا النعيم فليَرغب الرَّاغِبون وليجتهد المجتهدون، لا في النعيم الذي هو مكدَّرٌ لسُرعَةِ الفناءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ومِزَاجُ الرَّحيقِ من عَينٍ تنْزلُ عليهم من ساقِ العرشِ، سُميت بذلك؛ لأنَّها تُسنَمُ عليهم، فتَنصَبُّ انصباباً من فوقِهم في منازلهم، ومنهُ سَنامُ البعيرِ لعُلوِّه من بدنهِ، وذلك الشَّراب إذا كان أعلاً كان أطيبَ وأهنأ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَيْنًا ﴾ ؛ منصوبٌ على الحال؛ أي في الحالِ التي تكون عَيناً لا ماءً رَاكداً. وَقِيْلَ: انتصبَ على تقديرِ يُسقَون عَيناً أو مِن عينٍ. وَقِيْلَ: على إضمار أعنِي عَيناً.

وقوله تعالى: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يشربُ بها أفاضلُ أهلِ الجنَّة صَرفاً بغيرِ مزاجٍ، ويشربُها سائرُ أهلِ الجنَّة بالمزاجِ، وَقِيْلَ: إنَّ الباءَ في قولهِ (بها) زائدةٌ كما في قوله ﴿تَنبُتُ بالدُّهْنِ﴾[1]. وَقِيْلَ: إنَّ التسنيمَ عينٌ تجري في الهواءِ في أواني أهلِ الجنة على مقدار مائها، فإذا امتلأَتْ أمسكَ الماءُ حتى لا يقعَ منه قطرةٌ على الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين أشركوا وهم أبو جهلٍ، والوليدُ بن المغيرةِ، والعاصي بن وائلٍ وأصحابهُ من مُشركي مكَّة كانوا يضحكون من ضَعَفَةِ أصحاب النبيِّ ﷺ، وهم بلالٌ وصُهيب وعمَّار وسَلمان، كانوا يستهزئون بهم ويعيِّرونَهم على الإسلام، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ ﴾ ؛ أي مرَّ بهم أحدٌ من أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ وهم جلوسٌ، ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ بالطَّرْفِ طَعناً عليهم.

وكانوا يقُولون: انظُروا إلى هؤلاءِ الذين تركُوا شهوتِهم في الدُّنيا يطلُبون بذلك نعيمَ الآخرةِ بزَعمِهم، ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، وكانوا إذا رجعُوا إلى أهلِهم يرجِعُوا فاكِهين؛ أي ناعِمين فرِحين مُعجَبين بما هم فيه لا يُبالون

---

(١) المؤمنون / ٢٠.

بما فعَلــوا بــالمؤمنين، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، ويقولـون إنَّهم ضالُّون باتِّباعِهم مُحَمَّداً ﷺ.

يقـولُ الله تعـالى: ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي مـا أرسِــلَ الكفارُ ليحفَظُوا على المؤمنين أفعالَهم، فما لَهم وإيَّاهم؟ بل أرسَل المؤمنين ليحفَظُـوا على الكفار أفعالَهم، فيشهَدُوا عليهم يومَ القيامةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: يومَ القيامةِ الذين صدَّقوا بتوحيدِ الله، ونُبوَّة رسولهِ يضحَكون من الكفَّار قَصاصاً وشَماتةً بهم كما ضَحِكَ الكفارُ منهم في الدُّنيا، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي على السُّرر في الحِجَالِ جَالسون ينظُرون إلى أهلِ النار كيف يُعذبون.

وذلك أنَّهُ يُفْتَحُ بَيْنَهم وبين الكفَّار بابٌ إلى الجنَّـة، فـإذا نظَـرَ الكفَّـارُ إلى ذلـك الباب أقبَلوا نحوَهُ يُسحَبون في النار، فـإذا انتَـهوا إلى البـاب سُـدَّ عنـهم، فعنـد ذلـك يضحكُ المؤمنون وهُم على الأرائك في الدَّرجات، يقول يُطلعهم اللهُ على أهلِ النـار الذين كانوا يسخَرون منهم في الدُّنيا، فيرونَهم في النار يَدُورون فيــها وإنَّ جَماجِمَـهم لتَغلي من حرِّ النار، فيقول المؤمنون: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي هل جُوزُوا على صنِيعهم واستهزائهم بنا، ويجوزُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى: (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ) من قولِ الله؛ ومعناهُ: التحقيقُ، ومعنى ثُوِّبَ جُوزيَ.

آخر تفسير سورة (**المطففين**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ انْشَقَّتْ (الانْشِقَاقِ)

سُورَةُ الانْشِقَاق مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعْمِائَةٍ وَثَلاثُون حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتِسْعُ كَلِمَاتٍ، وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿إذا السَّماءُ انشَقَّتْ﴾ أعَاذَهُ اللهُ أنْ يُعْطِيَهُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ أبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الأَسَدِ الْمَخْزُومِيَّ وَكَانَ مُسْلِماً، جَادَلَ أخَاهُ الأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ الأَسَدِ فِي الإسْلاَمِ، وَكَانَ الأَسْوَدُ كَافِراً، فَأَخْبَرَهُ أبُو سَلَمَةَ بالْبَعْثِ، فَقَالَ لَهُ الأَسْوَدُ: وَيْحَكَ! أتَرَى أنِّي مُصَدِّقٌ أئِذا كُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أنُبْعَثُ ؟ فَأيْنَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ يَوْمَئِذٍ؟ وَمَا حَالُ النَّاسِ ؟ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ[2].

ومعنَاها: واذكُرْ إذا السَّماءُ انشقَّت لِنُزول الملائكة وهَيبَةِ الرَّحمنِ. ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي سَمِعَتْ وأطَاعت لأمرِ ربها بالانشقاقِ، وحُقَّ لها أن تُطيعَ ربَّها. يقالُ: أذِنْتُ للشَّيء إذا سمعتُ، وأذِنْتُهُ إذا سَمِعتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي بُسِطَتْ بسْطَ الأديمِ العُكَاظِيِّ، فجُعِلَتْ كالصَّحيفة الملساءِ، لا يبقَى جبلٌ ولا بناءٌ ولا شَجرٌ إلاّ دخلت فيها، ﴿ وَأَلْقَتْ ﴾ ؛ الأرضُ، ﴿ مَا فِيهَا ﴾ ؛ من الأمواتِ، ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ عن ذلك كما كانت من قبلُ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي سَمعت وانقادَتْ لأمرِ ربها، وحُقَّ لها أن تَسْمَعَ وتُطيعَ.

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي ﷺ بإسناد ضعيف.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٣ ص٤٦٤. وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٩٦١.

وجوابُ (إذا) في هذه السُّورة محذوفٌ؛ تقديرهُ: رأى الإنسانُ عندَ ذلك ما قدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ، وَقِيْلَ: جوابهُ: فَمُلاَقِيهِ، والمعنى: إذا كان يومُ القيامةِ لَقِيَ الإنسان كَدْحَهُ وهو عملهُ. وَقِيْلَ: جوابهُ: (يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً)؛ تقديرهُ: إذا السَّماء انشقَّت لَقِيَ كلُّ كادحٍ ما عَمِلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾، اختلَفُوا في الخطاب لِمَن هو، فروَى عبدُالله بن عِمران: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ: [أنَا ذلِكَ الإنْسَانُ، أنَا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَجْلِسُ جَالِساً فِي قَبْرِي، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إلَى السَّمَاءِ بحِيَالِ رَأسِي حَتَّى أنْظُرَ إلَى عَرْشِ رَبي، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إلَى الأَرْضِ السُّفْلَى حَتَّى أنْظُرَ إلَى الثَّوْرِ وَالثَّرَى، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أنْظُرَ إلَى الْجَنَّةِ وَإلَى مَنَازلِ أصْحَابي، وَأنَّ الأَرْضَ تَتَحَرَّكُ تَحْتِي فَأَقُولُ لَهَا: مَا لَكِ أيَّتُهَا الأَرْضُ ؟ فَتَقُولُ: إنَّ رَبي أمَرَني أنْ ألْقِيَ مَا فِي جَوْفِي وَأنْ أتَخَلَّى، فَأكُونَ كَمَا كُنْتُ إذْ لاَ شَيْءَ فِيَّ](١).

والمعنى على هذا القول: إنَّكَ عاملٌ لربكَ عَملاً فمُلاقي ربَّكَ ترجعُ إليه فيُجازيَك. وقال بعضُهم: الخطَابُ للمكذّب بالبعثِ، وهو أُبَيُّ بنُ خَلَفِ الجمحيُّ، والمعنى: إنَّكَ عاملٌ عَملاً في كُفرك، فتُرَدُّ إلى ربكَ في الآخرةِ، فتلقَى جزاءَ عمَلِكَ.

والظاهرُ: أنَّ الخطابَ لجميعِ الناس. والكَدْحُ في اللُّغة هو السَّعيُ الدَّؤُوب في العملِ في الدنيا والآخرة، قال الشاعرُ(٢):

فَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أمُوتُ وَأخْرَى أبْتَغِي الْعَيْشَ أكْدَحُ

والمعنى: أيُّها الإنسانُ سترى جزاءَ ما عمِلتَ من خيرٍ أو شرٍّ، فانظرِ اليومَ ماذا تعملُ وفيمَ تُتعِبُ نفسكَ، فلا تعمَلْ إلاَّ لله حتى تستريحَ من الكَدْحِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٥٦ عزاه السيوطي إلى أبي القاسم الختلي في الديباج عن ابن عمر، وذكره مختصراً.

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٣٥، وهو تَميم بن أبي بن مقبل (٧٠ ق.هـ-٣٧هـ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ أي مَنْ أعطِيَ ديوانَ عمَلِهِ بيمينِهِ، فسوفَ يُحاسَب حِساباً هيِّناً. والحسابُ الهيِّنُ: هو أنْ يَعرفَ جزاءَ عملِهِ، وما لَهُ من الثواب، وما يُحطُّ عنه من الوزْر، وخرج ما عليه من المظالِم، ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ ، أي فينقلبُ إلى أهله من الحور العين وأقربائه من المؤمنين، ﴿ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ بهم، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أيُحَاسَبُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: [يَا عَائِشَةُ مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ] قَالَت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ (فَأَمَّا مَنْ أوتيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرا)، قَالَ: [يَا عَائِشَةُ لَيْسَ ذلِكَ الْحِسَابُ، إنَّمَا ذلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ يعني الكافرَ تكون يَمِينهُ مَغلُولةً إلى عُنقِهِ، وتُلوَى يدهُ اليُسرَى من ورائهِ، فيُدفَعُ إليه كتابهُ من ورائهِ، فإذا رأى إلى ما فيهِ من سيِّئاته، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾ دعَا بالويلِ والثُّبور على نفسهِ: وَاوَيْلاَهُ؛ وَاثبُوراهُ. والثُّبورُ: الْهلاَكُ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يدخُل ناراً موقدةً، قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعُ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ (وَيُصَلَّى) بضمِّ الياء وتشديدِ اللام على وجهِ الْمُبالَغة؛ أي يَكثرُ عذابُه في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي كان مَسرُوراً في أهلهِ في الدنيا بمعاصي اللهِ، وكان لا يحزنهُ خوفُ القيامةِ، وكان يمنعهُ السُّرور في أهلهِ عن إقامةِ فرائضِ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ معناه: إنه ظَنَّ في الدُّنيا أنْ لا يرجعَ إلى اللهِ في الآخرةِ، فلذلك كان يركبُ المآثِمَ، والمعنى: أنه ظنَّ أنْ لن يرجعَ إلى اللهِ تعالى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ ؛ أي ليس كما ظنَّ، بل يحور إلينا ويُبعَثُ؛ أي بَلَى ليَرجِعَنَّ إلى ربه بعد البعثِ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي عالِماً به قبلَ أن يخلقَهُ بأنَّ مرجعَهُ ومَصيرَهُ إليه. والْحَوْرُ في اللغة: هو الرجوعُ.

---

(١) أخرجه الطبري باسانيد في جامع البيان: الحديث (٢٨٤٥٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي أقسِمُ بربِ الشَّفَقِ، و(لا) هاهنا زائدةٌ. والشَّفَقُ عند أكثرِ أهلِ العلمِ: الْحُمْرَةُ التي تُرى بعدَ سُقوطِ الشَّمسِ، وعند أبي حنيفةَ هو البياضُ. والشَّفَقُ في الأصلِ هو الرِّقَّةُ، ومنه شَفِيقٌ إذا كان رَقِيقاً، ومنه الشَّفَقَةُ لرقَّةِ القلبِ، فإذا كان هكذا فالبياضُ منه أولى من الْحُمرَةِ؛ لأنَّ البياضَ أرَقُّ من الْحُمرةِ، والحمرةُ أكثفُ من البياضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ معناهُ: والليلِ وما جَمَعَ وردَّ إلى مأمَنِهِ ومَبيتِهِ مَن كان مُنتشراً في النهار، يقال: طعامٌ مَوْسُوقٌ؛ أي مجموعٌ في الغرائرِ، والوَسْقُ مِنَ الطعامِ: ستُّون صاعاً، قال عكرمةُ: ((مَعْنَاهُ: وَاللَّيْلِ وَمَا جَمَعَ فِيْهِ مِنْ دَوَابِهِ وَعَقَارِبِهِ وَحَيَّاتِهِ وَظُلْمَتِهِ)). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إذا اجتمعَ ضَوءهُ، وتكاملَ واستدارَ في الليالِي البِيْضِ، يقالُ: اتَّسَقَتِ الأمُورُ إذا تكامَلت واستَوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ جوابُ القَسَمِ، وهو خطابٌ لكلِّ الناسِ[1] اذا قُرِئت بضمِّ الباءِ على الجمعِ، والمعنى: أيُّها الناسُ لَتَركَبُنَّ يومَ القيامة حالاً بعد حالٍ، وشدَّةً بعد شدةٍ، تقولُ العربُ: وقعَ في بناتِ طَبَقٍ، تريدُ الدَّواهِي العظامِ.

ويقالُ: أرادَ بالآيةِ تغيُّرَ الأحوالِ مِن حالِ النُّطفةِ إلى حالِ العَلَقَةِ، ومِن العلقةِ الى الْمُضغَةِ، ومِن الْمُضغَةِ إلى الصِّغَرِ، ومِن الصِّغَرِ إلى الشَّبابِ، ومِن الشَّبابِ إلى الكُهُولَةِ، ومِن الكُهولَةِ إلى الكِبَرِ، ومِن الكِبَرِ إلى الموتِ، ومن الموتِ الى البعثِ، ومن البعثِ الى الحسابِ، ومن الحسابِ الى الصِّراطِ، ومن الصِّراطِ الى موضعِ الجزاءِ، إمَّا إلى الجنَّةِ أو إلى النارِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائي (لَتَرْكَبَنَّ) بفتحِ الباءِ، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطَّاب وابن مسعود وابنِ عبَّاس قال: ((يَعْنِي: يَا مُحَمَّدُ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ؛ أيْ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ، وَدَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَرُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ)).

---

(١) في المخطوط: (لكل الناس لجميع الناس).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ما لِـهؤلاء المشـركين لا يُؤمنون بهذا القرآن، وبما جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ من عندِ الله بعد ظُهور الْحُجَجِ والأدلَّـة، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يُصلُّون للهِ، ولا يخضعون ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، وهذا بيانُ وجـوب سَـجدَةِ التِّـلاوة؛ لأنـه ذمَّهم على تَركِها عند السَّماع. وظاهرُ الآيةِ يقتضي وجوبَ السَّجدةِ عند سماعِ سـائر القُرآن، خصَّصنا ما عدَا مواضعِ السُّجود بالإجماعِ، فاستعملنَا في مواضعِ السُّـجود، إذ لو لم يفعل ذلك لألغينا حُكمَ الآية رَأساً.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي بمـا يُضمِـرُون في قُلوبهم، والإيْعَاءُ: جعلُ الشَّيءِ في الوِعاء، والقلوبُ أوْعِيَةٌ لِمَا يحصلُ فيها من معرفـةٍ أو جهالة أو عزيمةٍ أو خيرٍ أو شرٍّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي أخْبرهُم بعذابٍ وَجيـعٍ، مكان البشَارَةِ للمؤمنين بـالنَّعيم المقيـم، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي لكن المؤمنين المطيعِين لَهم ثوابٌ لا يُكدِّرُ عليهم بـالْمَنِّ، ويقالُ: (غيرُ مَمنُونٍ) أي لا يُنقَصُ على مرِّ الدُّهور، ويقالُ: غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

آخر تفسير سورة (**الانشقاق**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْبُرُوج

سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَمِائَةٌ وَتِسْعُ كَلِمَاتٍ وَاثْنَتَان وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ الْبُرُوجَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ وَكُلِّ يَوْمِ عَرَفَةٍ يَكُونُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾ ؛ أي ذاتَ النُّجوم. وقِيْلَ: ذاتِ القُصور على ما رُوي [إنَّ فِي السَّمَاءِ قُصُوراً يَسْكُنُهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ][2]. والأَظهرُ: أن البروجَ ها هنا منازلُ الكواكب السَّبعة، سُميت بُروجاً لارتفاعِها وسِعَتِها، وهي اثنا عشرَ من الْحَمَلِ إلى الحوتِ، تسيرُ الشَّمسُ في كلِّ برجٍ ثلاثين يَوماً وبعضَ يوم، ويسيرُ القمرُ في كلِّ برجٍ يومَين وثُلثَ يومٍ، فذلك ثمانيةٌ وعشرون يَوماً ثم يستترُ في لَيلتين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ ﴾ ؛ هو يومُ القيامةِ، وُعِدَ أهلُ السَّموات والأرضِ أن يصيروا إلى ذلك اليوم لفصلِ القضاء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن الشاهدَ النبيُّ ﷺ كما قال تعالى ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾[3]، والمشهودَ يومُ القيامةِ كما قال تعالى ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[4].

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري عن ابن عباس في جامع البيان: الأثر (٢٨٥١٥)، وعن الضحاك في الأثر (٢٨٥١٦).

(٣) النساء / ٤١.

(٤) هود / ١٠٣.

وَقِيْلَ: الشاهدُ جميع الأنبياءِ كما قال تعالى﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّـةٍ شَـهِيداً﴾[١] والمشهودُ جميعُ الأمَم. ويقال: الشاهدُ يوم الجمُعة، والمشهودُ يومُ عرفةَ كمـا قـال ﷺ: [خَيْرُ الأَيَّـامُ يَـوْمُ الْجُمُعَـةِ وَهُـوَ الشَّـاهِدُ، وَالْمَشْـهُودُ يَـوْمُ عَرَفَـةَ، وَالْمَوْعُـودُ يَـوْمُ الْقِيَامَةِ][٢]. ويقالُ: الشاهدُ يوم النَّحرِ، والمشهودُ يوم الجمُعةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾؛ هذا جوابُ القسَمِ، تقديرهُ: لقد قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ، والمعنى: قتلَتهُم النارُ. والأخْدُودُ: شَقٌّ يُشَـقُّ في الأرضِ، جمعُها أخَادِيدُ. ويجوز أنْ يكون معنى (قُتِلَ): لُعِنَ على الدُّعاء عليهم.

وقصَّة ذلك ما رُوي: أنَّ رَجُلاً مِنَ النَّصارَى كَانَ أجَّرَ نَفْسَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ لِيَعْمَـلَ لَهُ عَمَلاً، فَرَأَتِ ابْنَةُ الْمُسْتَأجِرِ النُّورَ فِي الْبَيْتِ لِقِرَاءَةِ الأَجِيرِ الإنْجِيلَ، فَذَكَرَتْ ذَلِـكَ لأَبيهَا فرَمَقَهُ حَتَّى رَآهُ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أخْبَرَهُ أنَّهُ عَلَى دِينِ عِيسَى، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ نَبيِّنَا ﷺ، فَتَابَعَهُ هُوَ وَسَـبْعَةٌ وَثَمَـانُونَ إنْسَـاناً مِـنْ بَيْـنِ رَجُلٍ وَامْرَأةٍ.

فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَهُودِ وَاسْمُهُ يُوسُفُ بْــنُ ذِي نُـوَّاسٍ الْحِمْـيَرِيِّ، فَخَـدَّ لَـهُمْ فِـي الأَرْضِ وَأَوْقَدَ فِيْهِ النَّـارَ، وَطَـرَحَ فِيـهِ النِّفْـطَ وَالْقَصَـبَ وَالْقَطِـرَانَ، وَعَرَضَـهُمْ عَلَـى الْيَهُودِيَّةِ، فَمَنْ أبَى مِنْهُمْ أنْ يَتَهَوَّدَ دَفَعَهُ فِي النَّارِ، وَمَنْ رَجَعَ عَـنْ دِيـنِ عِيسَـى تَرَكَـهُ. وَكَانَ فِي آخرِهِمْ امْرَأةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ رَضِيعٌ، فَلَمَّا رَأتِ النَّارَ صَدَّتْ، فَقَالَ لَهَا الصَّبِيُّ: يَـا أمَّاهُ قِفِي فَمَا هِيَ إلاَّ غُمَيْضَةٌ، فَصَبَرَتْ فَأُلْقِيَتْ فِي النَّارِ، وَارْتَفَعَتِ النَّارُ أرْبَعِينَ ذِرَاعاً، فَأَحْرَقَتِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الأُخْدُودِ.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَطْرَحُونَهُمْ فِي النَّارِ، فَمَنْ أبَى مِنْــهُمْ ضَرَبُـوهُ بالسِّيَاطِ حَتَّى أَلْقَوْهُمْ جَمِيعاً فِي النَّارِ، فَأَدْخَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمُ الْجَنَّةَ قَبْلَ أنْ تَصِلَ أجْسَامُهُمْ إلَى النَّارِ).

---

(١) النحل / ٣٥.

(٢) أخرجه الطبري بألفاظ عديدة في جامع البيـان: الحديث (٢٨٥٢١) عـن أبـي هريـرة بألفـاظ، والحديث (٢٨٥٢٦) عن علي ﷺ موقوفاً. وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسـط: ج٢ ص٥٣: الحديث (١٠٩١). وذكره ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٠٤).

وعن وهب بن منبه: (أن رجُلاً كان على دينِ عيسى، فوقعَ في نجرانَ فدعاهُم فأجابوهُ، فسارَ إليه ذو نُوَّاسٍ اليهوديُّ بجُنودهِ من حِميَرَ، وخيَّرهم بين النار واليهوديَّة، فخدَّ لهم الأخاديدَ وحرَّقَ اثنى عشرَ ألفاً). وقال الكلبيُّ: (كَانَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ سَبْعِينَ ألْفاً).

ورُوي: أن اليهودَ لَمَّا ألقوا مَن كان على دينِ عيسى، كان معهم امرأةٌ معَها ثلاثةُ أولادٍ أحدُهم رضيعٌ، فقالَ لها المِلكُ: ارجعِي عن دينكِ وإلاَّ ألقيتُكِ وأولادَكِ في النار، فأبَتْ. فأخذ ابنَها الأكبرَ فألقاهُ في النار، ثم قالَ لها: ارجعِي عن دينكِ، فأبتْ.

فأخذ ابنَها الثاني فألقاهُ في النار، ثم قالَ لها: ارجعِي عن دينكِ، وأخذ الطفلَ منها ليُلقيَهُ في النار، فهمَّتْ بالرُّجوع عن دينِها، فقال لها الطفلُ: يا أماهُ لا ترجعِي عن الإسلامِ واصبري فإنَّكِ على الحقِّ، فأُلقِيَ الطفلُ وأمُّه في النار، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) الأخدودُ: هي الْحُفَرُ المشقوقةُ في الأرضِ مستطيلةٌ وجمعها أخادِيدُ، يقال: خَدَدْتُ في الأرضِ؛ أي شققتُ فيها حفرةً طويلة، وعن عطيَّة قال: (خَرَجَتْ عُنُقٌ مِنَ النَّار فَأَحْرَقَتِ الْكُفَّارَ عَنْ آخِرِهِمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ ﴾ ؛ أي ذاتِ الحطَب والنفطِ. قِيلَ: أرادَ بالوقُودِ أبدانَ الناسِ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ ﴾ ؛ جمعُ قاعدٍ مثل شاهِدٍ وشُهودٍ، وكان الكفارُ قُعوداً على شَفِيرِ الأخدودِ على الكراسِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ ﴾ ؛ أي وهم على ما يفعلهُ الْجَلاَوزَةُ الذين كانوا يُلقون المؤمنين في النار شهودٌ؛ أي حضورٌ يرَون ذلك منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ ؛ فيه بيانُ ما لأجلهِ قصدُوا إحراقَ المؤمنين، ومعناهُ: وما طَعَنُوا وما أنكرُوا عليهم شيئاً إلاَّ إيمانَهم باللهِ المنيعِ بالنِّقمة مِمَّن عصاهُ، المستحقُّ للحمدِ على كلِّ حال، والمعنى: ما عَلِمُوا منهم عَيباً وما وجَدُوا لهم جُرماً ولا رأوا منهم سُوءاً إلاَّ من أجلِ أن يُؤمِنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ، ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، الذي له القدرةُ على أهلِ السَّموات والأرضِ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ ؛ أي عالِمٌ بجزاءِ كلِّ عاملٍ بما عَمِلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين أحرَقوا وعذبوا المؤمنين، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ ؛ من ذلكَ، ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ الذي أصابَهم في الدُّنيا، يقال: فَتَنْتُ الشيءَ إذا أحرقتُهُ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ﴾[1]. وَقِيلَ: أرادَ بالفتنةِ الامتحانَ، وهو قولُهم للمؤمنين: إنْ رجعتُم عن الإيمانِ وإلاَّ قذفناكم في النار، وهذا هو الإكراهُ، وهو من أعظمِ الفتنِ في باب الدِّين.

وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لو تابُوا بعدَ الكفرِ والقتلِ لقُبلَتْ توبتُهم، وفيه دليلٌ أيضاً على أنَّ الأَولى بالْمُكْرَهِ على الكفرِ أنْ يصبرَ على ما خُوِّفَ به، وإنْ أظهرَ كلمةَ الكُفرِ كالرُّخصة له في ذلك، ولو صبرَ حتى قُتل كان أعظمَ لأجرِهِ، لأنه تعالى أثنَى على الذين قُتلوا في الأخدودِ، وبيَّن أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلامٍ من الله، ويقال إنَّهُ جوابُ القسَمِ المذكور في أوَّل السُّورة، ويقال: جوابُ القسَمِ محذوفٌ؛ تقديرُهُ: والسَّماءِ ذات البُروجِ لتُبعثُنَّ يومَ القيامةِ ولتُجزَونَ على أعمالِكم. والبطشُ في اللغة: هو الأخذُ بالعُنفِ على سبيلِ القدرة والقوَّة، وفيه تخويفٌ لكلِّ مَن أقامَ على الكفرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ الخلقَ أوَّلاً من النُّطفة ويعيدُهم بعد الموتِ خلقاً جديداً، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي هو كثيرُ التَّجاوُز والسَّتر على عبادهِ، كثيرُ الْمَحبَّةِ للمؤمنين بإحسانهِ عليهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي ذُو التَّشريفِ. والمجيدُ في اللغة: هو العظيمُ الكريم لِمَا يكونُ فيه مِنَ الخيرِ، قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف (الْمَجِيدِ) بالخفضِ نعتاً للعرشِ، وقرأ غيرُهم بالرفعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يفعلُ ما يشاء لا يدفعهُ دافعٌ، ولا يمنعهُ مانعٌ.

---

(١) الذاريات / ١٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي هل بلغَكَ - يا مُحَمَّدُ - حديثُ الجمُوعِ من الكفَّار كيف فعَلُوا؟ وكيف فعلَ اللهُ بهم؟ وهذا استفهامٌ بمعنى التقريرِ. ثم بيَّن أولئِكَ الجنودَ فقالَ تعالى: ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ وإنما خصَّ فرعون وثمود بالذِّكر وهم بعضُ الجنودِ؛ لاختصاصهم بكثرةِ العددِ والعُدَد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل هؤلاءِ المشركون في تكذيبٍ بكَ وبما أنزلَ إليك عن ما أوجبَ الاعتبارَ بفرعون وثمود، كأنه تعالى يقولُ: قد ذكَرنا أمثالَ مَن قبلكم مِنَ المكذِّبين وما حلَّ بهم من النِّقمة؛ ليعتبرُوا ويرتدعوا، فلم يفعَلُوا بل هم في تكذيبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي وعِلمُ اللهِ محيطٌ بهم، وقدرتهُ مشتملةٌ عليهم، ﴿ بَلْ ﴾ ؛ هذا الذي أتى به مُحَمَّدٌ، ﴿ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي شريفٌ كريم ليس كما يزعُمون أنه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلين، ولكنَّه؛ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ عندَ الله وهو أمُّ الكتاب.

قرأ نافعُ (مَحْفُوظٌ)(١) بضمِّ الظاء، نعتُ القرآن، وقرأ الباقون بالخفض على نعت اللَّوح، فمَن جعلَ قولَهُ تعالى (مَحْفُوظٌ) للقرآن فمعناهُ محفوظٌ من الزِّيادة والنُّقصان والتبديلِ والتغيُّر؛ لأنه معجزٌ لا يقدرُ أحدٌ أن يزيدَ فيه، وعن ابن عبَّاس أنه قال: ((إنَّ فِي صَدْرِ اللَّوْحِ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَدِينُهُ الإسْلاَمُ، وَمُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَمَنْ آمَنَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَدَّقَ وَعَبْدَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ، أدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)).

قال: ((وَاللَّوْحُ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، طُولُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَعَرْضُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، حَافَّتَاهُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ، وَدَفَّتَاهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، قَلَمُهُ نُورٌ وَكَلاَمُهُ نُورٌ مَعْقُودٌ بِالْعَرْشِ، وَأصْلُهُ فِي حِجْرِ مَلَكٍ مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ))(٢)، وبالله التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**البروج**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) نقله الطبري في جامع البيان: النص (٢٨٥٦٩).

(٢) أخرجه أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٧٥. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩ ص٢٩٨.

سُورَةُ الطَّـارِقِ

سُورَةُ الطَّارق مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَتِسْعَةٌ وَثلاثُون حَرْفاً، وإِحْدَى وَسُتُّونَ كَلِمَةً، وَسَبْعَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ ﴾ ؛ أوّلُ السُّورة قَسَمٌ، وجوابُـهُ (إِنْ كُـلُّ نَفْـسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ). والطارقُ كلُّ ما يأتِي لَيلاً، يعني بذلـك النَّجـمَ يظـهرُ لَيـلاً ويخفـى نهاراً، وكلُّما جاءَ ليلاً فهو طارقٌ، ومنه حديثُ جابرٍ: [نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَطْـرُقَ الْمُسَافِرُ أهْلَهُ لَيْلاً، وَقَالَ: حَتَّى تَسْتَحِدَّ الْمَعِيبَةُ وَتَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ][2]. وقالت هندُ[3]:

نَحْـــنُ بَنَـــاتُ طَـــارِقْ ... نَمْشِـــي عَلَـــى النَّمَـــارِقْ

تريدُ: إنَّ النَّجمَ[4] أتَانا يومَ أحُد في شَرفِهِ وعلُوِّه. وقال ابنُ الرُّومي:

يَـا رَاقِـدَ اللَّيْـلِ مَسْـرُوراً بأَوَّلِـهِ ... إِنَّ الْحَـوَادِثَ قَـدْ يَطْرُقْـنَ أَسْـحَارَا

---

(١) تقدم عزوه تكراراً وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير: الحديث (٦٧٨). والبخاري في الصحيـح: كتـاب النكـاح: باب لا يطرق أهله ليلاً: الحديث (٥٢٤٣). ومسلم في الصحيح: كتـاب الإمـارة: بـاب كراهيـة الطروق ليلاً: الحديث (١٨٣/ ٧١٥).

(٣) اختلفوا في إسناده إلى هند بنت عتبة، أو هند بنت بياضة بن رباح أو رياح بـن طـارق الأيـادي، أو هند بنت الفند الزماني. وقالت هند هذا الرجز يومَ أحد تحض على الحرب. والرجـز بأكملـه في لسان العرب: مادة (طرق).

(٤) أدرج الناسخ (رجل) وهو غير مناسب، والصحيح: (النجم)، كما نقله الثعلبي في التفسـير. وفي الصحاح: ج ٤ ص٢٦٨: (طرق) قـال الجوهـري: (أي إنَّ أبانـا في الشـرف كـالنجم المضـيء)، (والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح).

لاَ تفْرَحَــنَّ بلَيْـــلٍ طَـــابَ أوَّلُـــهُ فَــرُبَّ آخِــرِ لَيْـلٍ أجَّـجَ النَّـــارَا[١]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ﴾؛ تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ من شأنهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ ﴾؛ تفسيرٌ للطارق، والثاقبُ: وهو النَّيِّرُ المضيءُ من النجومِ كلِّها، وعن ابنِ عبَّاس: (ثُقُوبُهُ تُوقِدُهُ بنَارهِ كَأَنَّهُ ثَقَبَ مَكَاناً فَظَهَرَ). ويقالُ: ثقَبَ النارَ فتثقَّبَتْ اذا أضأتَها فأضَاءَتْ، أثْقِبْ نَارَكَ، أي أضِئْهَا[٢]، ويقالُ معناه: الثاقِبُ العالِي الشديد العلُوِّ، وعن عليٍّ ﷺ أنه قالَ في هذه الآية: (زُحَلُ يَطْرُقُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ باللَّيْلِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيَخْتَفِي عِنْدَ الصُّبْحِ)[٣]. وقال مجاهدُ: ((الثَّاقِبُ: الْمُتَوَهِّجُ))[٤]. وقال عطاءُ: ((الثَّاقِبُ هُوَ الَّذِي تُرْمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ فَتُحْرِقُهُمْ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾؛ (مَا) هنا صلةٌ كما قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾[٥] أي فبرَحمَةٍ من اللهِ، والمعنى: إنْ كلُّ نفسٍ لعَلَيها حافظٌ من الملائكةِ يحفَظُها ويحفظُ عليها عملَها وأجلَها، حتى إذا انتهَى إلى المقاديرِ كُفَّ عن الحفظِ.

وقرأ الحسنُ وابن عامرٍ وعاصم وحمزةُ بالتَّشديد، يعنُون ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظٌ، وهي لغةُ هُذيل، يقولون: نَشدتُكَ اللهَ لَمَّا قُلتَ، يعنون إلاَّ قُلتَ، قال ابنُ عبَّاس: ((هُمُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ))[٦]. قال الكلبيُّ: ((مَعْنَاهُ حَافِظٌ مِنَ اللهِ يَحْفَظُ قَوْلَهَا وَفِعْلَهَا)).

---

(١) في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٧٨؛ قال الثعلبي: (وانشدنا أبو القاسم المفسر، قال أنشدني أبو الحسن محمد بن الحسن قال: أنشدني أبو عبدالله محمد بن الرومي قال...) وذكر الشعر. وفي هذا النقل نظر.

(٢) في المخطوط: (ثقبت لسانها) وهو غير مناسب، وضبط حرفه كما في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨١).

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٧٩).

(٥) آل عمران / ١٥٩.

(٦) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٧٤؛ عزاه السيوطي إلى ابن جرير الطبري. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨٤) بإسناد ضعيف.

وعن أبي أمامة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [وُكِّلَ بالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسُتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ الْبَصَرُ سَبْعَةُ أمْلاَكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذُبُّ الرَّجُلُ الذُّبَابَ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ، وَلَوْ وُكِّلَ الْعَبْدُ إلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي مِن أيِّ شيءٍ خلقَهُ اللهُ في رحِمِ أمِّه، ثم بيَّن ذلك فقالَ: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي مدفُوق مَصْبُوبٍ مُهراق في رحِم المرأة، يقال: سِرٌّ كاتِمٌ؛ أي مكتومٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ يعني مـاءَ الرجُلِ وماءَ المرأةِ؛ لأن الولدَ مخلوقٌ منهما، فماءُ الرجُلِ من صُلبهِ، وماءُ المرأة من ترائبها.

والترائبُ: جمعُ التَّريبَةِ وهو موضعُ القلادةِ من الصَّدر، وهي أربعةُ أضلاعٍ من يُمنَةِ الصدر، وأربعةُ أضلاعٍ من يُسرَةِ الصَّدر، وسُئل عكرمةُ عن الترائب فقالَ: ((هَذِهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ))[(٢)].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي إنَّه على إحياءِ الإنسان بعدَ الموتِ والبلَى لقادرٌ، وعن مجاهدٍ أنَّ معناه((إنَّهُ عَلَى رَدِّ ذلِكَ الْمَاءِ إلَى الإحْلِيلِ كَمَا كَانَ لَقَادِرٌ))[(٣)] كأنهُ يقولُ: إنَّهُ على ردِّ الإنسان من الكِبَرِ إلى الشَّباب، ومن الشَّباب إلى الصِّبا، ومن الصِّبا إلى النُّطفة، ومن النُّطفة إلى الإحليلِ، ومن الإحليلِ إلى الصُّلب قادرٌ، فكيف لا يقدرُ على إحيائهِ بعدَ الموتِ.

ثم أخبرَ متى يكون البعثُ، فقالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي استعدُّوا ليومِ تظهرُ فيه سرائرُ الضمائرِ التي لم يطَّلع عليها أحدٌ من البشرِ، وقِيْلَ: أراد بالسَّرائرِ الأعمالَ التي أسرَّها العبادُ فلم يُظهِرُوها، يُظهِرُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ.

---

(١) في مجمع الزوائد: كتاب القدر: باب دفع ما لم يقدر عليه العبد: ج ٧ ص٢٠٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٥٨٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٠٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾؛ أي فما للإنسان يومئذٍ من قوَّةٍ يَدفعُ بها عذابَ اللهِ عن نفسهِ، ولا ناصرٍ ينصرهُ ويُعِينهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾؛ أقسَمَ اللهُ بالسَّماء الراجعةِ في كلِّ عامٍ بالمطرِ بعدَ المطرِ على قدر الحاجة، حاجةِ العباد إليه، وبالأرضِ الصَّادعة عن النباتِ الذي هو قوتُ الخلائقِ، إنَّ القرآنَ حقٌّ يفصلُ به بين الحقِّ والباطلِ، وليس هو باللَّعب.

والمعنى: (وَالسَّمَاءِ ذاتِ الرَّجْعِ) بالغيب وأرزاق العباد كلَّ عامٍ، لولا ذلك لَهَلكُوا أو هلَكت مواشيهم، (وَالأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ)؛ أي تتصدَّعُ عن النباتِ والأشجار والأنْهار، نظيرهُ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾[1] إلى آخرهِ. قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)؛ أي إنَّ القرآنَ حقٌّ وجِدٌّ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أي وما هو باللَّعِب والباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾؛ يعني كفارَ مكَّة يريدون الإيقاعَ بالنبيِّ ﷺ من حيث لا يشعرُ، وذلك أنَّهم تواطَئُوا على قتلِ النبيِّ ﷺ، فأعلمَ اللهُ نبيَّهُ أنه يجازيهم جزاءَ كيدِهم، فذلك معنى قولهِ تعالى (وَأَكِيدُ كَيْداً). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾؛ أي أجِّلْهم وأنظِرهُم، ولا تَعجَلْ في طلب هلاكهم، فإنَّ الذي وعدتُكَ فيهم غيرُ بعيدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) أي أجِّلْهُم أجلاً قليلاً، فقَتَلهم اللهُ تعالى يومَ بدر، و(رُوَيدا) كلامٌ مبنيٌّ على التصغير، ويقال: أرْوَدْيَةَ، وقد يوضعُ (رُوَيْد) موضعَ الأمر، يقالُ: رُوَيْدَ زَيداً؛ أي أرودْ زَيداً أو أصلهُ من رَادَتِ الرِّيحُ تَرُودُ رَوَدَاناً؛ إذا تحرَّكت حركةً خفيفة، ويجوزُ أن يكون (رُوَيْداً) منصوبٌ على المصدر، كأنه قالَ: أرْوِدْهُم رُوَيداً. وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**والطارق**) والحمد لله رب العالمين

(١) عبس / ٢٦-٢٧.

سُورَةُ الأَعْلَى

سُورَةُ الأَعْلَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَوَاحِدٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَاثْنَتَان وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَ عَشَرَةَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ حَرْفٍ أنْزَلَهُ اللهُ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ](1).

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ (سَبحِ اسْمَ رَبِكَ الأَعْلَى) وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ رَبِيَ الأَعْلَى مِيكَائِيلُ)). قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [يَا جِبْرِيلُ أخْبِرْنِي عَنْ ثَوَابِ مَنْ قَرَأَهَا فِي صَلاَةٍ أوْ فِي غَيْرِ صَلاَةٍ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَقُولُهَا فِي سُجُودٍ أوْ فِي غَيْرِ سُجُودٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ فِي مِيزَانِهِ أثْقَلَ مِنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَجِبَالِ الدُّنْيَا، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي أنَا الأَعْلَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ فَوْقِي شَيْءٌ، إشْهَدُوا يَا مَلاَئِكَتِي أنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَأدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ جَنَّتِي. فَإذا مَاتَ زَارَهُ مِيكَائِيلُ كُلَّ يَوْمٍ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حَمَلَهُ عَلَى جَنَاحِهِ فَيُوقِفُهُ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ: يَا رَب شَفِّعْنِي فِيْهِ، فَيَقُولُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ فِيْهِ، اذْهَبْ بِهِ إلَى الْجَنَّةِ](2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ؛ والأُمَّـةُ داخلون معَهُ في هذا الخطاب، والمعنى: صَلِّ لربكَ ونَزِّهْهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به من الصِّفاتِ، وقُل: سُبحانَ ربيَ الأعلَى. وقد يُذكر الاسمُ ويراد به تعظيمُ المسمَّى، كما قال

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٨٢ عن أبي بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٨٢. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٣.

الشاعر[(١)]:

إلَـى الْحَـوْلِ ثُـمَّ اسْـمُ السَّـلامِ عَلَيْكُمَـا وَمَـنْ يَبْـكِ حَـوْلاً كَـامِلاً فَقَـدِ اعْتَـذرْ

وقال قومٌ: معناهُ: نَزِّهْ ربَّكَ الأعلَى عمَّا يقولُ فيه الملحِدُون ويصفهُ به المشركون، وجعلُوا الاسمَ صفةً. ويجوز أنْ يكون معناهُ: نَزِّهِ اللهَ عن إجرائهِ على غيرِه، وكان عليٌّ وابنُ عبَّاس وابنُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ إذا قَرَأ أحَدُهُمْ بهَذِهِ السُّورَةِ قَالَ:((سُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى))[(٢)]، والأعلَى من صفاتِ الله بمعنى العَليِّ مثل الأكبرِ بمعنى الكبير، وليس هذا من علُوِّ المكانِ وإنما معناهُ القاهرُ القادرُ، فلا شيءَ أقدرُ منه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾؛ أي خلقَ الإنسانَ وكلُّ ذي روحٍ، فسوَّى خلقَهُ باليدَين والرِّجلين والعينَين والأُذنين وسائرِ الأعضاء، وعدَّلَ الخلقَ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾؛ أي قدَّرَ الذي خلقَهُ حَسَناً وذميماً، وقدَّرَ عليه السعادةَ والشقاوةَ، فهدَى كلَّ مكلَّف من الضَّلال إلى الهدى، ومن الباطلِ إلى الصواب، ومن الغيِّ إلى الرَّشاد. وَقِيْلَ: هدَى الإنسان لسبيلِ الخيرِ والشرِّ، وبصَّرَهُ السبيلَ إمَّا شاكراً، وإما كفوراً.

وَقِيْلَ: ألْهَمَ كلَّ حيوانٍ ما يحتاجُ إليه في أمرِ معيشته، وعرَّفَهُ كيف يأتِي الذكرُ الأنثى، وجعلَ الهدايةَ في قلبِ الطفل حتى طلبَ ثديَ أمِّه، وميَّزه من غيرِه، وهدَى الفرخَ لطلب الرزق، وهدى الأنعامَ لمراتعِها. وَقِيْلَ: معنى قولهِ (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أي قدَّرَ مدَّة الجنين في الرحمِ تسعةَ أشهر، أو أقلَّ، أو أكثرَ، فهدى للخروجِ من الرَّحِم. وَقِيْلَ: قدَّرَ الأرزاقَ وهداهم لطلبها. وَقِيْلَ: الذنوبَ على عبادِهِ وهَدَاهُم للتوبة. وَقِيْلَ: قدَّرَ الخلقَ على صُوَرهم، وعلى ما جرَى لهم من الأرزاقِ، فهَدَاهُم إلى مَعرفةِ توحيدِه. قرأ الكسائيُّ والسلمي (قَدَرَ فَهَدَى) مخفَّفاً.

---

(١) لبيد العامري (ت ٤١هـ) من قصيده له يخاطب بها ابنتيه، مطلعها:

تَمَنَّـى ابْنَتَـايَ أنْ يَعِيـشَ أبُوهُمَـا وَهَـلْ أنَـا إلاَّ مِـنْ رَبيعَـةَ أوْ مُضَـرْ

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٣٣) عن ابن عمر، و(٢٨٦٣٤) عن علي، و(٢٨٦٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهم جميعاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي أنبتَ الكلأ الأخضر بالمطرِ للبهائم، ثم، ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فجعلَ النبتَ بعد الْخُضرَةِ هَشيماً يابساً بَالياً كالغُثاء الذي يقذفهُ السَّيل على جنَبات الوادِي، وقولهُ تعالى: (أحْوَى) أي أسودَ، وقد يدخلُ النبت الأحوَى لحاجةِ البهائم إليه، وقد يكون حَطباً للناسِ، وهذا كلُّه إخبارٌ عن قدرةِ الله تعالى وإنعامِه على العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي سيُقرؤكَ جبريلُ القرآنَ بأمرنا فلا تنساهُ، فلم ينسَ النبيُّ ﷺ حَرفاً من القرآن بعد نُزول هذه الآيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ أي إلاَّ ما شاءَ الله أنْ تنساهُ، وهو ما نُسِخَتْ تلاوتهُ، فنأمُرك ألاَّ تقرأهُ حتى تنساهُ على وجهِ الأيام، وهذا نسيانُ النَّسخ دون التضييعِ.

وَقِيْلَ: إلاَّ ما شاء اللهُ أن تنساهُ[1] ثم تذكره بعد ذلكَ. وَقِيْلَ: إنما ذكرَ الاستثناءَ لتحسين النَّظم على عادةِ العرب، تذكرُ الاستثناءَ عُقيب الكلام وهو كقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللهُ﴾[2] ربُّك، معلومٌ أنَّ اللهَ تعالى لم يشأْ إخراجَ أهلِ الجنة من الجنَّة ولا إخراجَ أهلِ النار من النار، ولكن المرادَ به ما ذكرناه.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما يقرؤهُ العباد من القرآن، وما يذكرونهُ من الذِّكر في سرٍّ أو جهرٍ. وَقِيلَ: يعلمُ العلانيةَ من القولِ والعمل، ويعلمُ السرَّ وما يحدِّثُ الإنسان نفسَهُ بعده، ويعلمُ إعلانَ الصَّدقة وإخفاءَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي نيسِّرُكَ لعمل الجنَّة، ونوفِّقُكَ للشَّريعة السهلةِ وهي الحنيفيَّة السَّمحةُ، ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي عِظْ باللهِ إنْ نفعَتِ المواعظُ، وليس على وجه الشَّرط، فإنَّ الموعظةَ تنفعُ لا محالةَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي سيتَّعظُ بالقرآن مَن يخشى عذاب اللهِ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي يتجنبُ التذكُّر والعظَةَ ويتباعدُ عنها الأشقى في علمِ الله فلا يتذكرُ ثواباً.

---

(١) كتب الناسخ: (تنساه دفعةً) ثم شطب (دفعة).

(٢) الأنعام / ١٢٨ .

ورويَ أن المرادَ بقوله (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى): عبدُالله بن أمِّ مكتومٍ[1]، ويدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ، والمرادَ بالأشقى الذي يتجنَّبُ الموعظةَ الوليدُ بن المغيرةِ، ويدخلُ فيه كلُّ كافرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾؛ وهي السُّفلى من أطباقِ النار، وَقِيْلَ: سُمِّيَتْ نارُ جهنَّم النارَ الكبرى؛ لأنَّها أعظمُ من هذه النار،كما رُوي في التفسيرِ: أنَّ نارَ الدُّنيا جزءٌ من سَبعين جزءٍ من نار جهنَّم، ولقد غُمِستْ في البحرِ مرَّتين حتى لانَتْ، ولولا ذلك ما انتفعَ بها أحدٌ. ورويَ: أن نارَ الدُّنيا تستجيرُ أن يَردَّها اللهُ إلى نارِ جهنَّم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي لا يموتُ مَوتاً فيستريحُ من عذابها، ولا يحيَا حياةً يجدُ فيها روحَ الحياةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي صارَ إلى البقاءِ الدَّائمِ والنعيمِ المقيمِ مَن تزكَّى بالإسلامِ والتَّوبة من الذنوب، والمعنى: قد أفلحَ من تطهَّرَ من الشِّرك وقالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وكان عمَلُهُ زَاكياً صالحاً، وأدَّى زكاةَ مالِه، ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي وافتتحَ الصَّلاة بذكرِ اسمِ الله، وصلَّى الصلواتِ المفروضات، وكان ابنُ مسعودٍ يقولُ: ((رَحِمَ اللهُ امْرءاً تَصدَّقَ ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ يَقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ))[2].

وَقِيْلَ: معناهُ: قد أفلحَ من أدَّى زكاةَ الفطرِ ثم صلَّى صلاةَ العيدِ، ويستدلُّ بهذه الآية على جوازِ افتتاحِ الصَّلاة بغيرِ التَّكبيرِ؛ لأنه تعالَى ذكرَ الصَّلاة عُقيب اسمِهِ، إذِ الفاءُ للتَّعقيب من غيرِ تراخٍ، فلا فصلَ في الآيةِ بين التكبيرِ وبين سائرِ الأركان.

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٨٦؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير عن أبي الأحوص ﷺ) منقطعاً في رواية، ووصله في رواية أخرى عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٩٢٤١). ومن رواية أبي الأحوص عند الطبري في جامع البيان: النص(٢٨٦٥٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ قـرأ العامَّـة بالتـاء، كذلك قراءةُ ابنِ كعبٍ: (بَلْ أنْتُمْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[١]، والخطـابُ للكفـار؛ كأنـه قال: بل أنتم أيُّها الكفارُ تختارون الدُّنيا على الآخرةِ، وقرأ أبو عمرو (يُؤْثِرُونَ) باليـاء يعني الأشقياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ثـوابُ الآخـرةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها وأدومُ. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنـه قـال: [مَـا الدُّنْيَـا فِـي الآخِرَةِ ((إلاَّ))[٢] كَرَجُلٍ أدْخَلَ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ يَرْجِعُ][٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أرادَ به قولَهُ تعالى (قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذكَرَ اسْمَ رَبهِ فَصَلَّـى) كمـا هـو في القـرآن، ويقـال: مذكـورٌ في الصُّحف الأُولى: أنَّ الناسَ يُؤْثِرون الحياةَ الدُّنيـا، وأن الآخـرةَ خـيرٌ وأبقـى، أرادَ بـه السُّورة كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، قال قتادةُ: ((تَتَابَعَتْ كُتُبُ اللهِ تَعَالَى أنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأبْقَى))[٤]. ويقال: إن في صُحف إبراهيمَ: ((ينبغِي للعاقل أنْ يكون حَافظاً للسانهِ عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنهِ))[٥].

وقال أبو ذرٌ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَم الأنْبيَاءُ ؟ فَقَالَ: [مِائَةُ ألْفِ نَـبيٍّ، وَأرْبَعَـةٌ وَعُشْرُونَ ألْفَ نَبِيٍّ] قُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ: [ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ] .

---

(١) ذكر الطبري القراءتين في جامع البيان: النص (٢٨٦٥٨).

(٢) (إلاَّ) سقطت من المخطوط.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج٢٠: الحديث(٧١٣-٧٢٢). وفي الأوسط:ج ٥: الحديث (٤١٩٢). والإمام أحمد في المسند:ج ٤ ص٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٠. وإسناده صحيح.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنـذر عـن قتادة ﷺ...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٤٦). والطـبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٦٢).

(٥) هو جزء مـن حديـث طويـل عـن أبي ذر ﷺ يسـأل رسـول الله ﷺ؛ أخرجـه ابـن حبـان في الصحيح: الرقم (٣٦١)، قال الشيخ شعيب: إسناد ضعيف جداً.

قُلْتُ: أَكَانَ آدَمُ نَبِيّاً ؟ قَالَ: [نَعَمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَخَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ. يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعَرَبِ: هُودُ وَصَالِحُ وَشُعَيْبُ وَنَبِيُّكَ] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَمْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ؟ قَالَ: [مِائَةٌ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، مِنْهَا عَلَى آدَمَ عَشْرُ صَحَائِفَ، وَعَلَى شِيتٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً، وَعَلَى أَخْنُوخَ وَهُوَ إِدْرِيسُ ثَلاثُونَ صَحِيفَةً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرُ صَحَائِفَ، وَالتَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ][1].

آخر تفسير سورة (**الأعلى**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ينظر ما قبله، إسناده ضعيف جداً.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثُمائةٍ وإحْدَى وَثمَانُونَ حَرْفاً، وَاثْنَتَان وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَسِتٌّ وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾؛ أي قد أتاكَ حديثُ الغاشيةِ، يعني القيامةَ تغشَى كلَّ شيءٍ بالأهوال؛ لأنَّها داهيةٌ تغشَى جميعَ الناسِ، وقال سعيدُ بن جبير: ((أرَادَ بالْغَاشِيَةِ نَارَ جَهَنَّمَ تَعُمُّ أهْلَهَا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِب، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾، أي وجوهٌ يومَ القيامة خاشعةٌ ذليلة، وهي وجوهُ الكفرةِ والمنافقين في الآخرةِ، ﴿ عَامِلَةٌ ﴾، أي تُجَرُّ في النار على وجُوهها، ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي في تعَبٍ وعناء ومشقَّة وبلاءٍ من مُقاساتِ العذاب، قال الحسنُ: ((لَمْ تَخْشَعْ للهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَعْمَلْ لَهُ، فَأَخْشَعَهَا فِي الآخِرَةِ وَأعْمَلَهَا وَأنْصَبَهَا بمُعَالَجَةِ الأَغْلاَلِ وَالسَّلاَسِلِ))[3]. وقال قتادةُ: ((تَكَبَّرَتْ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، فَأعْمَلَهَا وَأنْصبهَا فِي النَّار))[4]. وقال الضحَّاك: ((يُكَلَّفُونَ ارْتِقَاءَ جَبَلٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي النَّار)).

---

(١) رواه الثعلبي في تفسيره عن أبي بن كعب بإسناد واه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٦٧) مختصراً.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٧١) بمعناه.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٧٢).

والنَّصَبُ: الدَّأبُ فِي العملِ، وقال عكرمةُ والسديُّ: ((عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا بمَعَاصِي اللهِ، نَاصِبَةٌ فِي النَّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[١]. وقال سعيدُ بن جبير: ((هُمُ الرُّهْبَانُ أصْحَابُ الصَّوَامِعِ الَّذِينَ يَتْعَبُونَ وَيَنْصَبُونَ فِي الْعِبَادَةِ، ثُمَّ لاَ يَخْلصُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ لِوُقُوعِ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ مُوَافَقَةِ الْعِلْمِ)). ويقالُ: همُ الخوارجُ. ويقال: المرادُ به كلُّ مَن عمِلَ عَملاً، وخلَطَ بعملهِ ما يُبطِلهُ من ربًا أو شركٍ أو عُجب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ ﴾؛ أي تلزَمُ ناراً قد انتهَى حرُّها، قال ابنُ مسعود: ((يَخُوضُ فِي النَّار كَمَا تَخُوضُ الإبلُ فِي الْوَحْلِ)).

قرأ العامَّة (تَصْلَى) بفتح التاء، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمِّها اعتباراً بقوله: ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ ﴾؛ أي من عَين متناهيةٍ في الحرِّ، قال الحسنُ: ((قَدِ انْتَهَى طَبْخُهَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ إلَى تِلْكَ السَّاعَةِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ ﴾؛ قال مجاهدُ وعكرمة وقتادة: ((وَهُوَ نَبْتٌ ذُو شَوْكٍ لاَطِئٍ بالأَرْضِ، تُسَمِّيهِ قُرَيْشٌ الشِّبْرِقُ حين يكون رطباً، فَإذا يَبسَ فَهُوَ الضَّرِيعُ))[٢] يَصِيرُ عِنْدَ الْيُبْسِ كَأظْفَارِ الْهِرَّةِ سُمّاً، لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ وَإنَّمَا تَأْكُلُهُ الإبلُ فِي الرَّبيعِ مِنْ فَوْقِهِ[٣]. وقال ابنُ زيدٍ: ((أمَّا فِي الدُّنْيَا فَإنَّ الضَّرِيعَ الشَّوْكُ الْيَابسُ، وَأمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ شَوْكٌ فِي النَّارِ))[٤].

وقال الكلبيُّ: ((الضَّرِيعُ لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ، إذا يَبسَ لاَ يَرْعَاهُ شَيْءٌ)). وقال عطاءُ: ((هُوَ شَيْءٌ يَطْرَحُهُ الْبَحْرُ الْمَالِحُ تُسَمِّيهِ أهْلُ الْيَمَنِ الضَّرِيعُ)). وعن رسولِ الله ﷺ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٩١؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٩٢٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٦٨٤) عن مجاهد، و(٢٨٦٨٣) عن عكرمة، و(٢٨٦٨٥) عن قتادة.

(٣) هكذا رسمها الناسخ، وهي أقرب إلى (فَرَقِهِ)، ويكون المعنى: أي من خوف الجوع أو من شدة الجوع. والله أعلم.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٩٨٦٩٠).

قال: [الضَّرِيعُ شَيْءٌ يَكُونُ فِي النَّار يُشْبِهُ الشَّوْكَ أمَرّ مِنَ الصَّبِرِ، وَأنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ، وَأشَدُّ حَرّاً مِنَ النَّار، سَمَّاهُ اللهُ ضَرِيعاً][1].

وقِيْلَ: إنَّ اللهَ يرسلُ على أهلِ النار الجوعَ حتى يعدلُ ما بهم من العذاب، فيستَغيثون من الجوعِ فيُغاثون بالضَّريع، ثم يستَغيثون فيُغاثون بطعامٍ ذِي غُصَّةٍ، فيذكُرون أنَّهم كانوا يسلِكُون الغصصَ في الدُّنيا بالماءِ، فيُسقَون فيَعطشون ألفَ سنةٍ، ثم يُسقَون من عينٍ آنية لا شربة هنيَّة ولا مريَّة، فكلَّما أدنوهُ من وجُوهِهم سلخَ جلودَ وجُوههم وسوَّدَها، فإذا وصلَ إلى بطونِهم قطَّعَها، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ﴾[2].

فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المشركون: إنَّ إبلَنا لتسمَنُ على الضَّريع، فأنزلَ اللهُ قولَهُ تعالى: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ وكَذبوا، فإن الإبلَ لا ترعاهُ إلاّ ما دامَ رَطْباً، وأما إذا يبسَ فلا تقربهُ دابَّةٌ، ورَطبُه يُسمَّى شَبْرَقاً لا ضَريعاً، والمعنى: لا يُسمِنُ مَن أكلَهُ ولا يسدُّ جوعةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هذه صفةُ وجوهِ أهل الجنَّة يقول: وجوهُهم يومئذٍ نَضِرَةٌ حسَنةٌ جميلةٌ، آثارُ النِّعمة عليها ظاهرةٌ، وهي لعمَلِها راضيةٌ بما أدَّاها إليه من الثواب والكرامة، ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مُرتفعة في القدْرِ والشَّرف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي لا يسمَعُ أصحابُ تلك الوجوهِ كلمةً ذات لَغْوٍ ولا حِلفاً كَاذباً ولا كَلاماً باطلاً، وذلك لأنَّ سماعَ ما لا فائدةَ فيه يثقلُ على العُقَلاء، ولا يتكلَّمُ أهلُ الجنَّة إلاّ بالحكمةِ وحمدِ الله تعالى على ما رزَقهم من النَّعيم المقيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي فيها لكلِّ إنسانٍ في قصرهِ عينٌ جارية من كلِّ شرابٍ يشتهيهِ، يجري إلى حيث يشاءُ على حسب إرادته ومحبَّته.

---

(١) في الدر المنثور: ج٨ ص٤٩٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس).
(٢) محمد / ١٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ في الهواءِ رفيعةُ القدر بعضُها فوقَ بعضٍ، من الذهب والفضَّة وغير ذلك من الجواهر العظيمة، عليها مِن الفُرُش والحجال. قال ﷺ: [لَوْ أُلْقِيَ مِنْ أَعْلاَهَا فِرَاشٌ لَهَوَى إلى قَرَارِهَا مِائَةَ خَرِيفٍ][(١)] والحكمةُ في ذلك الارتفاعِ أنْ يرى المؤمنُ بجلوسهِ عليها جميعَ ما خوَّلَهُ اللهُ من الْمُلكِ والنعمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ الأكوابُ: جمع كُوبٍ، وهو الكوزُ الذي لا عُرَى لـه ولا خراطيمَ، موضوعةٌ على حافَّة العين الجارية مُعدَّةٌ لأشربَتِهم وهو من اللُّؤلؤ الرطب على ما وردَ في الحديثِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ هي جمعُ نُمْرَقةٍ، وهي الوِسَادَةُ المنسوجةُ من قُضْبَان الذهَبِ المكلَّلة بالدُّرِّ والياقوتِ، قد صُفَّ بعضُها إلى بعضٍ للراحة[(٢)] ورفع المنْزِلِ، قال الشاعرُ:

كُهُولٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ الزَّرَابيُّ هي الطَّنَافسُ العجيبةُ، واحدتُها زَرِيبَةٌ، وهي البسُطُ العريضةُ، والمبثوثةُ الكثيرة المبسوطة المفرَّقة في المجالسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ فيه تنبيهٌ على قُدرة اللهِ تعالى، يقول: أفلاَ يَرونَ إلى الإبلِ مع عِظَمها وشدَّتِها كيف تبرُكُ إذا أُريدَ ركوبُها فتُحمَلُ عليها وتُركَبُ، ثم تقومُ فيقودها الصغيرُ وينَخِّيها ويَحمِلُ عليها الحِمْلَ الثقيلَ وهي باركةٌ، فتنهَضُ بثقلهِ دابةٌ بحملِها ((وليس ذلك في شيء من الحيوان)) إلا البعير[(٣)].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في المخطوط: (للرحة).

(٣) ما بين (( )) سقط من المخطوط، وضبط كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥، ولأن سياق عبارته كما هو عند المصنف رحمه الله.

وَقِيْلَ في وجه اتصال هذه الآية بما قبلَها: أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا وصفَ للمشركين سُرُرَ أهلِ الجنة مع علوِّها وارتفاعِها، وأنَّها تنحطُّ لصاحبِها إذا أرادَ صُعودَها ثم ترتفعُ، استبعَدُوا ذلك، فذكرَ اللهُ ما يزيلُ استبعادَهم وكانوا أربابَ إبلٍ، فأرَاهم دلائلَ توحيدِهِ فيما في أيديهم.

وتكلَّمَت الحكماءُ في وجه تخصيصِ الإبل من بين سائر الحيوانات، فقال مقاتلُ: ((لأنَّهُمْ لَمْ يَروا بَهيمَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْهَا، وَلَمْ يُشَاهِدُوا الْفِيلَ ((إلاَّ)) الشَّاذ مِنْهُمْ))[١]. وقال الحسنُ: ((لأنَّهَا تَأكُلُ النَّوَى، وَتُخْرِجُ اللَّبَنَ)). وَقِيلَ: لأنَّها مع عِظَمها تلينُ للحملِ الثقيل وتنقادُ للقائدِ الضعيف يذهبُ بها كيفَ شاءَ.

وحكى الأستاذ أبو القاسم بن حبيبٍ: أنه رأى في بعض التفاسيرِ: أنَّ فأرةً أخذت بزمام ناقةٍ، فجعلتِ الفارةُ تجرُّ الناقةَ وهي تتبعُها حتى دخلت الجحرَ، فجرَّت الزمامَ فبَركت، فجرَّته فقرَّبت فمَها من جحرِ الفارةِ، فسبحان الذي قدَّرها وسخَّرها وذلَّلها[٢].

وقال أبو عمر[٣]: ((الإبلُ هِيَ السَّحَابُ، وَهِيَ الْيَقُ بما بَعْدُ مِنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ وَالْجِبَال)) إلاَّ أنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي اللُّغَةِ، وإنما يقولون للسَّحاب: الإبلّ بتشديدِ اللام[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ في الهواءِ فوق كلِّ شيء لا تنالُها الأيدِي، بلا عمادٍ تحتها ولا علاَّقة فوقَها، ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ فجعلها مرساةً مثبَّتة لا تزلزَلُ، وفجَّر في أعلاها العُيونَ لمنافعِ الناس، ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي بُسطت على وجهِ الماء. فالذي فعلَ هذه الأشياءَ قادرٌ على أن يخلُقَ نعيمَ الجنة بالصفاتِ التي ذكرَها.

---

(١) ذكره مقاتل بمعناه في التفسير: ج ٣ ص٤٧٩.
(٢) نقله بنصه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص١٨٩.
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥؛ قال القرطبي: (قد ذكر الأصمعيُّ أبو سعيد عبدالملك ابن قُرَيْب، قال أبو عمرو...) وذكره.
(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٥؛ نقل القرطبي تفصيل ذلك عن الماوردي.

قال أنسُ بن مالك: ((صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ، فَقَرَأ: (أفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإبلِ كَيْفَ خَلَقْتُ، وَإلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعْتُ وَ.... نَصَبْتُ، و... سَطَحْتُ) برفعِ التَّاءِ))[١]، وقرأ الحسنُ بالتشديدِ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي عِظْهُم يا مُحَمَّدُ بالقرآنِ، إنما أنتَ واعظٌ مبلِّغٌ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي بمسلَّطٍ تُجبرهم على الإيمان، وتَمنعُهم عن الكفرِ، وهذا كان من قبلِ آية القتلِ فنُسخ بها، وتَسيطَرَ الرجلُ إذا تسلَّطَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي لكن مَن أعرضَ عن الإيمان وثبَتَ على كُفرهِ فَكِلْهُ إلى الله تعالى لستَ له بمذكِّر؛ لأنه لا يقبلُ منكَ، وسيعذِّبهُ الله في الآخرةِ بأعظمِ النيران، وإنما قالَ ذلك لأنَّ من المعذبين مَن هو أشدُّ عذاباً من غيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي طِبْ نَفساً يا مُحَمَّدُ وإنْ عاندُوا وجحَدُوا، فإنَّ إلينا مرجعَهم؛ أي إلينا مرجعُهم وجزاؤُهم، والإيَابُ: الرُّجُوعُ والمعادُ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾؛ وإخراجَ ما لهم وعليهم حتى يظهرَ مقدارُ ما يستحقُّون من العذاب.

آخر تفسير سورة (**الغاشية**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) نقله أيضاً الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص١٩٠.

(٢) والمعنى بتشديد الطاء وإسكان التاء: (سَطَّحْتُ).

سُورَةُ الْفَجْـرِ

سُورَةُ الْفَجْرِ مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ خَمْسُـمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَمِائَـةٌ وَتِسْعٌ وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَثَلاثُونَ آيَةً. قال ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، وَمَـنْ قَرَأَهَا فِي اللَّيَالِي الْعَشْرِ غَفَرَ اللهُ لَهُ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ ﴾ ؛ أقسَـمَ اللهُ بِـرَبِ الفجـرِ، والفجرُ: هو الصُّبْحُ الذي يطلعُ في آخرِ الليلِ، وهو دلالةٌ على نِعَمِ اللهِ تعـالى وعلـى توحيدِه، وفي ذكرِه حثٌّ على الشُّكر، وترغيبٌ في إقامةِ صلاةِ الفجرِ. وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) هنَّ عشرُ ذي الحجَّة، شرَّفها اللهُ تعالى، لتَسارُعِ الناس فيها إلى الخَـيراتِ والطاعات. وعن ابنِ عبَّاس: ((يَعْنِي الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ شَـهْرِ رَمَضَـانَ))[2]. وَقِيْـلَ: العشرُ الأوَّل من الْمُحَرَّمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ ﴾ ؛ الشَّفْعُ: هو يومُ النَّحرِ، يُشْفَعُ بما قبلَهُ من الأيامِ من الشَّهْرِ. والوَتْرُ: يومُ عرفةَ أوترَ بما قبلَهُ من أيَّام الشهرِ. وعن الحسنِ وقتادة: ((أنَّ هَذا قَسَمٌ بالْخَلْقِ كُلِّهِم، فَإنَّهُمْ شَفْعٌ وَوَتْرٌ)). وقال مقاتلُ: ((الشَّـفْعُ آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَالْوَتْرُ هُوَ اللهُ تَعَالَى))[3]. وقال مجاهدُ ومسروق: ((هُوَ الْخَلْقُ كُلُّهُ))[4]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[5] الكفرُ والإيمـانُ؛ والشَّـقاوة والسـعادةُ؛

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٣٩.

(٣) في التفسير: ج ١٣ ص٤٨١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٣٧).

(٥) الذاريات / ٤٩ .

والسعادةُ؛ والهدَى والضَّـلالُ؛ والليـلُ والنـهار؛ والسـماءُ والأرض؛ والـبَرُّ والبحـرُ؛ والشَّمسُ والقمرُ؛ والجنُّ والإنس. والوَتْرُ هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الواحدُ الأحد الفردُ.

وَقِيْلَ: الشفعُ: صلاةُ الفجر، والوَترُ: صلاةُ المغرب. وَقِيْلَ: الشـفعُ: درجـاتُ الجنَّات؛ لأنَّها ثمان، والوَترُ: دركاتُ النار؛ لأنَّها سبعٌ، كأنه أقسمَ بالجنَّة والنار. وَقِيْلَ: الشفعُ: صفاتُ المخلُوقِين من العزِّ والذُّل؛ والقدرةِ والعجز؛ والقوَّة والضعفِ؛ والعلم والجهل؛ والبصر والعمَى، والوَتْرُ: انفرادُ صفات الله تعالى؛ عِـزٌّ بـلا ذلٍّ؛ وقـدرةٌ بـلا عجزٍ؛ وقوَّة بلا ضعفٍ؛ وعلمٌ بلا جهل؛ وحياة بلا موتٍ.

قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلـف (وَالْوِتْـرُ) بكسـرِ الـواو، واختـارَهُ أبـو عُبيد[1]؛ لأنه أكثرُ في الكلامِ وأنشأ، ومنه وترُ الصلاةِ، ولم يسمع شـيء مـن الكـلام، الوَتْرُ بالفتح، وقرأ الباقون بالفتحِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ ﴾؛ قسَمٌ بربِ الليلِ إذا يسرِ بمُضيِّـه وانقضائهِ إلى طُلوعِ الفجرِ. ويقالُ: إنه أقسمَ بليلةِ المزدلفة اذ أسرِيَ فيها، وعلـى هـذا قالَ بعضُهم: إن المرادَ بالفجرِ يومُ عرفةَ.

ووجهُ حذف الياءِ من (يَسْـرِ) أنَّـها رأسُ آيـةٍ، ورؤوسُ الآي كـالفواصلِ مـن العشر. قرأ نافعُ وأبو عمرو بالياءِ في الوصل، وقرأ ابنُ عامر وعـاصم بحذفِـها وَصـلاً ووقفاً، وقرأ ابنُ كثير ويعقوب بالياء في الحالتين[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ ﴾؛ لفظـهُ لفـظُ استفهامٍ بمعنى التَّقرير، يقولُ: بعدَ هذا الذي عُقِلَ قَسَمٌ، والحِجْرُ: هو العقلُ، وجوابُ القَسَمِ (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ألم تعلم كيفَ صنعَ ربُّكَ بعادٍ وكيف أهلكَـهم، ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾، وأمـا إرَمَ فـهو صفـةٌ

---

(١) نقله النحاس في إعراب القرآن: ج ٥ ص١٣٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٥ ص٣٤٥. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٥ ص١٣٦.

لعادٍ، وهي عَادَان: عادٌ الأُولى وهي إرَمَ، وعادٌ الآخرة. ولم يُصْـرَفْ إرَمَ؛ لأنَّـها اسـمٌ للقبيلةِ، وكان إرمَ أبا عادين[1] فنُسبوا إلى أبيهم[2]. وَقِيْلَ: إن إرمَ كانت قبيلةً من عـادٍ وكان فيهم الملكُ، ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذاتِ الْعِمَادِ) أي القامَات الطّوال والقوى الشدائد، يقـال رجـلٌ مَعْمَدٌ ورجل عَمدَانٌ إذا كان طَويلاً قويّاً، قال ابنُ عباس:((كَانَتْ قَامَةُ الرَّجُـلِ مِنْـهُمْ أَرْبَعمِائَةِ ذِرَاعٍ، لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ فِي زَمَانِهِمْ قُوَّةً وَخَلْقاً))[3]. ويقـال: إنـه اسـمُ مدينـةِ ذات العماد والذهب والفضَّة، بناها شدَّادُ بن عـاد. والقـولُ الأول أقـربُ إلى ظـاهرِ الآيةِ؛ لأنَّ الغرضَ بهذه الآية زجرُ الكفَّار، وكان اللهُ بيَّن بإهلاكِـهم مـع قوَّتِـهم أنـه على إهلاك هؤلاء الكفار أقدرُ.

وقصَّة مدينة إرم ذات العماد ما روَى وهبُ بن منبه عن عبدِالله بن قُلابة: أنـه خرجَ في طلب إبلٍ له شرَدت. فبينما هو في صحَارى عـدَن، إذ وقـع علـى مدينـةٍ في تلك الفَلَوات، عليها حصنٌ وحولَ الحصنِ قصورٌ كثيرة وأعلامٌ طِوَال.

فلما دنَا منها ظنَّ أن فيها أحداً يسألهُ عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنَزل عن دابَّته وعقلَها، وسلَّ سيفَهُ ودخلَ من باب الحصنِ، فلما خلـفَ الحصـنَ وراءه إذ هو ببابَين عظيمين وخشبُهما من أطيب عود، والبابـان مرصَّعـان باليـاقوتِ الأبيـض والأحمر، ففتحَ أحدهما فإذا هو بمدينةٍ فيها قصورٌ، كلُّ قصر تحته أعمـدَةٌ مـن زبرجـد وياقوتٍ، وفوق كلِّ قصر منها غُرَف، وفوقَ الغـرف غـرفٌ مبنيَّـة بـالذهب والفضـة واللؤلؤِ والياقوت، ومصاريعُ تلك الغرف من أطيب عود مرصَّعة باليـاقوتِ الأبيـض والأحمر، والغرفُ مفروشةٌ كلُّها باللؤلؤ والمسكِ والزعفران.

---

(١) في المخطوط: (عادان).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٤٥؛ قـال القرطبي: (وقـال مَعْمَـرُ: إرم: إليـه مجمـع عـادٍ وثمود، وكان يقال: عادُ إرَامَ، وعادُ ثمود).

(٣) في أحكام القرآن: ج ٤ ص١٩٣٠؛ قال ابن العربي: (وهو باطل؛ لأن في الصحيح أن الله خلـق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن). وينظر: البدايـة والنهايـة لابـن كثير: باب خلق آدم: ج ١ ص٨٧، ط دار إحياء التراث العربي.

ثم نظرَ في الأزقَّة فإذا في كلِّ زُقاق شجرٌ مثمر، وتحتَ الأشجار أنهار مطَّردة ماؤُها في مجاري من فضَّة. فقال الرجلُ: هذه هي الجنَّة التي وصفَها اللهُ تعالى في كتابهِ، فحملَ معه من لُؤلؤها ومِسكِها وزعفرانِها، ورجعَ إلى اليمنِ وأعلمَ الناس بأمرهِ.

فبلغَ معاويةَ فأحضرَهُ وسألَ كعبَ الأحبار: هل في الدُّنيا مدينةٌ من ذهب وفضَّة؟ قال: نعم، قال: أخبرني مَن بنَاها ؟ قال: بناها شدَّادُ بن عاد، واسمُ المدينةِ إرَمُ ذاتُ العمادِ، وهي التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلادِ. قال معاويةُ: فحدِّثني بحديثِها.

قال: يا معاويةُ إنَّ رجُلاً من عادٍ الأُولى كان له إبنان: شدَّاد وشديدُ، كان قد قهرَ البلاد وأخذها عَنوةً، وليس هو من قومِ هود، وإنما عادٌ هو من ذريَّته، فأقامَ شدَّادُ وشديد ما شاءَ الله أن يُقيما، ثم ماتَ شديد وبقي شدَّاد، فملَكَ وحده وتدانَتْ له ملوكُ الأرضِ، وكان وَلِعاً بقراءة الكُتب.

فلمَّا مرَّ فيها بذكرِ الجنَّة، دعَتْهُ نفسهُ إلى بناءِ مثلها عُتُواً على اللهِ تعالى، فأمرَ ببناءِ هذه المدينة المذكورةِ، فأمَّر على صَنْعَتِها مائة أميرٍ، مع كل أميرٍ ألفٌ من الأعوان، وكتبَ إلى كلِّ ملكٍ في الدنيا أن يجمعَ له ما في بلادهِ من الجواهرِ، وكانت تحت يدهِ مائتانِ وستُّون ملِكاً.

قال معاويةُ: كم أقامَ في مدَّة بنائِها ؟ قال: أقَامُوا ثلاثمائةِ سَنةٍ في بنائِها وعمارتِها. قال: فكم كان عمرُ شدَّاد ؟ قال: سبعُمائة سَنة، وإنما سمَّاها اللهُ ذاتُ العمادِ؛ لأجل الأعمِدة التي تحتَها من الزبرجد والياقوتِ.

قال كعبٌ: فلما فرَغُوا من بنائها أعلَمُوا شدَّاداً بذلك فقال لَهم: انطَلِقوا واجعلوا فيها حِصناً واجعلوا حولَهُ ألفَ قصرٍ، عند كلِّ قصرٍ ألفَ علَم حتى أجعلَ في كلِّ قصر وَزيراً من وُزرائي. فرجَعُوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصُون، ثم أتوهُ فأخبروهُ بفراغِ ذلك، فأمرَ الوُزَراء أن يتهيَّأوا بالنقلةِ إليها، وأمرَ جُندَهُ ونساءَهُ وخدَمهُ أن يتجهَّزوا، فأقَامُوا في جهازهم عشرَ سنين.

ثم سارَ الملكُ بجيشٍ لا يُحصِي عددَهم إلاّ اللهُ، فلما صارَ إليها، ليسكُنَها وبلغَ إلى أن صارَ بينه وبينها مسيرةَ يومٍ وليلة، بعثَ الله عليهم جَميعاً هو وجنودهُ ووزراؤه

صيحةً عظيمة من السَّماء فهلَكُوا ولم يبقَ منهم أحدٌ، ولم يدخل شدَّاد ولا أحدٌ من قومِهِ تلك المدينةَ، ولم يقدر أحدٌ على دخولِها إلى يومِ القيامة، وسيدخلُها رجلٌ من المسلمين في زمانِكَ ولا يبلغُها أحدٌ غيره أبداً.

قال معاويةُ: فهل تقدرُ أن تصِفَهُ يا أبا إسحق ؟ قال: نعم؛ هو رجلٌ أحمر قصير، على حاجبهِ خالٌ وعلى عُنقه خالٌ، يخرج في طلب إبلٍ له فيقعُ على تلك المدينةِ، فيدخُلها ويحمل شيئاً مما فيها، وكان الرجلُ حينئذ مختفياً عند معاويةَ، فقام ليذهبَ، فالتفتَ كعبٌ التفاتةً فرآهُ، فقال: هو هذا يا أميرَ المؤمنين. فقال له معاويةُ: لقد فضَّلَكَ الله يا كعبُ على غيركَ من العُلماء. فقال: يا أميرَ المؤمنين ما خلقَ الله شيئاً في الدُّنيا إلاَّ وقد فسَّرَهُ في التَّوراة لعبدِهِ موسى عليه السلام[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾؛ معناهُ: ألم ترَ كيف فعلَ ربُّكَ بأصحاب ذاتِ العِمَادِ، (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بالْوَادِ) وهم قومُ صالح، كانوا يقطَعون الصخرَ، وينحِتُون من الجبال بُيوتاً آمِنين بقُرب المدينةِ التي كانوا نازلين فيها، ومعنى قوله (بالْوَادِ) القُرى. قال أهلُ التفسير: أوَّلُ مَن جابَ الصَّخرَ؛ أي قَطَعَ الصُّخورَ، ونحتَ الجبال والرُّخام ثمودُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾؛ عَطفاً على ثمود. واختلَفُوا في معنى (ذِي الأَوْتَادِ) قال بعضُهم: معناهُ: ذو الجنودِ والْجُموعِ. وقال بعضُهم: ذو الْمُلكِ الثابتِ، وجنودهُ الذين كانوا يشدُّون أمرَهُ، سُموا أوتاداً؛ لأنَّ قِوامَهُ بهم. ويقالُ: معناه: أنه كان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّهُ على الأرض، ووتَّدَ على رجليهِ ويديه ورأسِهِ على الأرضِ بأربعة أوتادٍ حتى يموتَ مُمَدّاً[2] كما فعلَ بأمرِ امرأته آسِيَّةَ[3].

---

(١) لا أظن إلا أن هذه القصة مختلقة من نسج خيال القُصَّاص وأوهام خيالاتهم، بل ربما لتنفث فكرة القدرية الغيبية في أذهان عامة المسلمين، وكنتُ أرجو أن يترفَّع أهلُ التفسير عن ذكر مثل هذه الإسرائيليات التي أفسدت أذهان عامة المسلمين وأضعفت الفهم للاسلام في عقولهم.

(٢) في المخطوط: (مدبا).

(٣) أخرج الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٨٣): (عن أبي رافع قال: أوتدَ فرعون لامرأته أربعة أوتادٍ، ثم جعلَ على ظهرِها رحاً عظيمة حتى ماتت).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ الذين أفرَطُوا في الظُّلم والفسادِ والكفر والقتلِ بغير حقٍّ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي صبَّ عليهم لوناً من العذاب. وَقِيلَ: وجعَ عذابٍ. وَقِيلَ: هذا على الاستعارةِ؛ لأن السَّوطَ عند العرب غايةُ العذاب، يقال سَاطَهُ يَسُوطُهُ سَوْطاً؛ إذا خلطَهُ، والسَّوطُ مما يخلطُ الدمَ واللحمَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي بحيث يرَى ويسمع، وقال مقاتلُ: ((يَجْعَلُ رَصَداً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَرْصُدُ النَّاسَ عَلَى الصِّرَاطِ مَعَهُمُ الْكَلاَلِيبُ)). وقال الضحاكُ: ((بِمَرْصَدٍ لأَهْلِ الظُّلْمِ وَالْمَعْصِيَةِ))[2]. وقال عطاءُ: ((مَعْنَاهُ: إنَّ رَبَّكَ لاَ يَفُوتُهُ أحَدٌ، وَإنَّهُ لاَ مَحِيصَ عَنْهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بهِمْ وَإلَيْهِ الْمَصِيرُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴾؛ معناهُ: فأمَّا الإنسانُ الذي لا يعرف نعمةً عليه عند سَعَةِ الرزق وتضييقه، ﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾؛ فيقولُ عند السَّعة: ربي أكرمَنِي بالمالِ والسَّعة، ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾؛ ويقولُ عند ضيقِ الرِّزق عليه إذا كان رزقهُ على مقدار البُلغةِ: ربي أهانَنِي بالفقرِ، وضيق المعيشةِ، وأذلَّني بذلك، ولم يَشْكُرِ الله على ما أعطاهُ من سَلامة الجوارحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي حاشَا أن يكون إكرامُ الله لعبادهِ مَقصوراً على توسعةِ النِّعَم عليه، وأن تكون إهانةُ اللهِ لعباده مقصورةً على تضييقِ الرزق عليهم، بل يوسِّعُ الله تعالى النِّعَمَ على من يشاءُ على ما تقتضيه الحكمةُ. قال الحسنُ: ((أكْذبَهُمْ جَمِيعاً؛ يَقُولُ: مَا بالْغِنَى أكْرَمْتُ، وَلاَ بالْفَقْرِ أهَنْتُ)).

---

(١) يريد أن الجَلدَ بالسياط يخلط الدم واللحم في بدن المعذَّب؛ حين يُضرب؛ يقولون: ضرب فلان بالسِّياط، وهو ما تسبب في ظهور الازرقاق في الجلد بعد حين بسبب اختلاط الدم باللحم تحت الجلد: جامع البيان: التأويل في الأثر (٢٨٧٨٧) وما بعده.

(٢) أخرجه بمعناه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٧٩٠).

وقوله (كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) معناهُ: لا يعرفون حقَّ اليتيمِ بالعطيَّة والصدقة، ولا يحفظُون مالَهُ عليه، وفي هذا بيانٌ أنَّ إهانةَ اللهِ إنما تكون بالمعصيةِ لا بما توهَّمَ الكافرُ. وروي أنَّ هذه الآيات نزَلت في أميَّة بن خلَف، كان في حجرهِ يتيمٌ كان لا يحسنُ إليه ولا يعرفُ حقَّهُ.

ومعنى (كَلاَّ) ردٌّ عليه؛ أي لم أبتليهِ بالغنى لكرامتهِ عليَّ، ولم أبتليهِ بالفقرِ لهوانهِ عليَّ، والفقرُ والغنَى من تقديري وقضائي، فلا أكْرِمُ[1] من أكرمتهُ بالغنَى، ولا أهينُ من أهَنتهُ بالفقرِ، ولكني أكرمُ مَن أكرمتهُ بطاعتِي، وأهين مَن أهنتهُ بمعصيتِي. قِيْلَ: معناهُ: أهَنتُ مَن أهنتُ من أجلِ أنه لم يكرمِ اليتيمَ، قال ﷺ: [أنَا وَكَافِلُ الْيَتِيم كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ][2]. وقال: [كَافِلُ الْيَتِيم كَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ، وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ][3]، وَ[مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأسِ يَتِيمٍ تَعَطُّفاً عَلَيْهِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ][4]. وقال عيسَى عليه السلام: ((الْفَقْرُ مَشَقَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَسَرَّةٌ فِي الآخِرَةِ، وَالْغِنَى مَسَرَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَشَقَّةٌ فِي الآخِرَةِ)).

قرأ ابنُ عامرٍ (فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) بتشديدِ الدال، وهما لُغتان، وكان أبو عمرو يقول: ((قَدرَ بمَعْنَى قَتَّرَ، وَقَدَّرَ هُوَ أنْ يُعْطِيَهُ مَا يَكْفِيهِ))[5] .

---

(١) في المخطوط: (فلا أكره) وهو غير مناسب. وأثبتناه كما في تفسير الثعلبي: ج ١٠ ص٢٠١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٦ ص١٧٣: الحديث (٥٩٠٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٣٣. والبخاري في الصحيح: كتاب الطلاق: باب اللعان: الحديث (٥٣٠٤)، وفي كتاب الأدب: باب فضل من يعول يتيماً: الحديث (٦٠٠٥).

(٣) في مجمع الزوائد: باب ما جاء في الأيتام: ج ٨ ص١٦٠؛ قال الهيثمي: (عن عائشة... رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٧٧٩).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٦٠؛ قال الهيثمي: (عن أبي أمامة... رواه أحمد والطبراني وفيه علي ابن يزيد الألهاني وهو ضعيف). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٥٠و٢٥٦. والطبراني في الكبير: ج ٨ ص٢٠٢: الحديث (٧٨٢١).

(٥) في المخطوط: (وكان ابن عمر يقول...) والصحيح كما أثبتناه؛ قال الطبري: (وذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول...) وذكره. ينظر: جامع البيان: مج ١٥ ج ٣٠ ص٢٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي لا يحثُّون الناسَ على الصَّدقةِ على المساكين، قال عمرانُ بن الْحُصَين: [مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيباً إلاَّ وَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَنَهَى عَنِ الْمَسْأَلَةِ][1].

واختلفَ القرَّاءُ في هذه الآيةِ، فقرأ أبو عمرو[2] (يُكرِمُونَ) وما بعده بالياءِ كلها، وقرأ الباقون بالتاءِ، وقرأ أهلُ الكوفة (تَحَاضُّونَ) بالألفِ وفتح التاء؛ أي يَحُضُّ بعضُهم على ذلكَ والتَّحَاضُّ: الحثُّ، وروي عن الكسائي (تُحَاضُّونَ) بضم التاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي تأكلون الميراثَ أكلاً شَديداً؛ أي تلمُّون بجميعهِ من قولهم: لَمَمْتَ ما على الْخِوَان؛ إذا أكلتَهُ أجمعَ، قال الحسنُ: (هُوَ أنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ نَصِيبَ نَفْسِهِ وَنَصِيبَ صَاحِبِهِ مِنَ الْمِيرَاثِ))[3]، ويقال: أرادَ أكلَ ميراثِ اليتيم بغير حقٍّ؛ لأنه هو الذي سبقَ ذِكرُه، ويقال: المرادُ أن يصرفَ ما ورثَهُ من نصيب نفسه إلى الباطلِ.

وفائدةُ تخصيصِ الميراث التَّنبيهُ به على حُكمِ غيرهِ؛ لأنه إذا منعَ عن الأكلِ[4] أحلَّ أموالَهُ بالباطلِ، ففي أكلِ غير ذلك أولى، ويقال معنى (أَكْلاً لَمّاً) أي يأكلُ نصيبَهُ ونصيبَ غيرِهِ، قال بكرُ بن عبدالله: ((اللَّمُّ: الاعْتِدَاءُ فِي الْمِيرَاثِ، يَأْكُلُ مِيرَاثَهُ وَمِيرَاثَ غَيْرِهِ))[5].

وقال ابنُ زيد: ((اللَّمُّ: الَّذِي يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ يَجِدْهُ وَلاَ يَسْأَلُ عَنْهُ أحَلاَلٌ هُوَ أمْ حَرَامٌ؟ وَيَأْكُلُ الَّذِي لَهُ وَلِغَيْرِهِ، وَذلِكَ أنَّهُمْ كَانُوا لاَ يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَلاَ الصِّبْيَانَ))[6].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٨ ص٣٧٨: الحديث (٧٧٦٥)؛ عن الحسن قال: قال سمرة بن جندب، وقال الطبراني: (ولم يرو هذا الحديث عن يزيد بن إبراهيم إلا بهز بن أسد، تفرد به الرَّبالي).

(٢) في المخطوط: (ابن عمر).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠١).

(٤) في المخطوط: (الكل).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠٧).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٠٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٩٢٧٩).

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَطَعَ مِيرَاثاً فَرَضَهُ اللهُ، قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي حُبّاً كثيراً شَديداً، لا تنفقونَهُ في سبيلِ الله، تحرصون عليه في الدُّنيا، وتعدِلون عن أمرِ الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: كَلاَّ ما هكذا ينبغي أنْ يكون الأمرُ، فلا تفعلُوا ذلك، وانزَجِروا عنه وارتَدِعوا، و(كَلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ وزجرٍ، ثم أوعدَهم فقال تعالى (إذا دُكَّتِ الأَرْضُ) أي ستَذكُرون وتندمون إذا زُلزلتِ الأرض، قصرت بعضها ببعضٍ حتى استَوت الأرضُ، وصارت كالصَّخرة الملساءِ، وتكسَّرَ كلُّ شيءٍ على ظهرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي وجاء أمرُ ربكَ بالمجازاةِ والمحاسَبة، والملائكةُ صُفوف صَفّاً بعدَ صفٍّ عند حساب الناس، يشاهدون ما يجري عليهم، ويقالُ: إن الملائكةَ يصُفون صَفّاً واحداً حولَ الجنِّ والإنس يُحيطون بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ ؛ جاء في التفسير: أنَّها تُقاد يومَ القيامة بسبعين ألفَ زمام، على كلِّ زمامٍ سبعين ألفَ ملَك، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ، ويُكشَفُ عنها غطاؤُها حتى يراها العبادُ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ ؛ أي يتحسَّرُ ويندمُ على ما فاتَهُ لَمَّا رأى النارَ والعذاب، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي ومِن أين لَه في ذلكَ الوقتِ توبةٌ تنفعهُ، أو عِظَةٌ تُنجيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي يا لَيتَني عملتُ في حياتي الفانيةِ لحياتي الباقيةِ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ

(١) لم أقف عليه.

(٢) النازعات / ٣٦ .

أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ؛ قراءة العامَّة بكسرِ الذال، و(يُوثِقُ) بكسر الثاءِ، معناهُ: لا يعذِّبُ كعذاب الله أحدٌ، ولا يوثِقُ كوثاقه أحدٌ.

وقرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والثاء، ومعناه: لا يعذبُ عذابُ الكفار الذي لم يقدِّموا لحياتِهم أحدٌ، ولا يوثَقُ مثل وثاقهِ أحدٌ. قِيلَ: إن هذا الإنسانَ المعذَّبَ أميةُ بنُ خلفِ الْجُمَحِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، المرادُ بها نفسُ المؤمنِ، يقولُ لها الملائكةُ عند قَبضِها، وإذا أعطيت كتابَها بيمينِها التي أيقنَت بأنَّ اللهَ ربُّها، وعَرفت توحيدَها خالقها فاطمأنّت بالإيمانِ وعمِلت للآخرةِ، وصدَّقت بثواب الله، ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ ارجعي إلى ما أعدَّ اللهُ لكِ من نعيمِ الجنة، راضيةً عن اللهِ بالثواب، مرضيَّةً عنده بالإيمانِ والعمل الصالحِ، فادخُلي في جُملَةِ عبادي الصالِحين، وادخُلي جنَّتي التي أعِدَّت لكِ.

وقال مجاهدُ: ((مَعْنَاهُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُنِيبَةُ الَّتِي أيْقَنَتْ أنَّ اللهَ خَالِقُهَا، الْمُطْمَئِنَّةُ إلَى مَا وَعَدَ اللهُ، الْمُصَدِّقَةُ بمَا قَالَ، الرَّاضِيَةُ بقَضَاءِ اللهِ الَّذِي قَدْ عَلِمَتْ بأَنَّ مَا أصَابَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهَا، وَمَا أخْطَأَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهَا))(١). وَقِيلَ: معناهُ: المطمئنَّةُ بذكرِ الله المتوكِّلة على اللهِ، الواثقةُ بما ضَمِنَ لها من الرِّزق.

وعن عبدِالله بنِ عمرٍو بنِ العاصِ قال: [إذا تُوُفِّيَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أرْسَلَ اللهُ مَلَكَيْنِ مَعَهُمَا تُحفَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لِنَفسِهِ: أيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، اخْرُجِي إلَى رَوحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٌّ عَنْكِ رَاضٍ. فَتَخْرُجُ كَأَطْيَب رِيحِ الْمِسْكِ. فَتُشَيِّعُهَا الْمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ جَاءَ مِنَ الأَرْضِ روحٌ طَيِّبَةٌ، فَلاَ تَمُرُّ بِبَابٍ إلاَّ فُتِحَ لَهَا، وَلاَ بمَلَكٍ إلاَّ صَلَّى عَلَيْهَا، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: رَبَّنَا هَذا عَبْدُكَ فُلاَنٌ، كَانَ يَعْبُدُكَ وَلاَ يُشْرِكُ بكَ شَيْئاً. فَيَقُولُ اللهُ: يَا مِيكَائِيلَ اذْهَبْ بهَذِهِ النَّفْسِ، فَاجْعَلْهَا مَعَ أنْفُسِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أسْأَلَكَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٨٨٣٣).

ثُمَّ يَأْمُرُ بِأَنْ يُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً عَرْضُهُ، وَسَبْعِينَ ذِرَاعاً طُولُهُ، وَيُجْعَلُ لَهُ فِيهِ نُوراً كَالشَّمْسِ، وَكَانَ كَالْعَرُوسِ يَنَامُ فَلاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، فَيَقُومُ مِنْ نَوْمِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَشْبَعْ مِنْهُ](١).

وعن جعفرَ عن سعيدٍ قال: قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: مَا أَحْسَنَ هَذا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ: [يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهُ لَكَ](٢).

آخر تفسير سورة (**الفجـر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٠٣-٢٠٤ مع اختلاف في بعض ألفاظه. وذكره القرطبي مختصراً في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٨٣٥). ونسبه السيوطي في الدر المنثور: ج ٨ ص٥١٣ إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن سعيد ابن جبير. وذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الحديث (٣٥٥٩١) عن أبي بكر ﷺ وفيه: [سيقولها لك عند الموت].

سُورَةُ الْبَلَـد

سُورَةُ الْبَلَـدِ مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ ثلاثُمِائَـةٍ وَعُشْـرُونَ حَرْفـاً، وَاثْنَتـان وَثَمَـانُونَ كَلِمَـةً، وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: [مَـنْ قَرَأَهَـا أعْطَـاهُ اللهُ الأَمْـنَ مِـنْ غَضَبـهِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾ ؛ يعني مكَّة، أقسَـمَ اللهُ بـها إعْظَامـاً لهـا، وحرف (لاَ) زائدةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ ﴾ ؛ أي وأنتَ -يا مُحَمَّدُ- حِلٌّ بمكَّة، يعني: وأنتَ مقيمٌ فيها، وقيل: أنتَ حَلالٌ فيها، تصنعُ ما تريدُ مـن القتلِ والأسرِ، يعني: وأنتَ حلالٌ لكَ أن تتصرَّفَ فيها، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنبيِّه عليه السلام مكَّة يومَ الفتحِ حتى قاتلَ، وقتَـلَ ابـن خَطَـل[2] وهـو متعلِّـقٌ بأسـتار الكعبَـة، ومِقْيَسُ بن صُبَابَة[3] وغيرَهُما[4].

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف، وقد تقدم وسيأتي.

(٢) في المخطوط:(ابن حنظل)، والصحيح هو عبدالله بن خطل، كان معلقاً بأستار الكعبة، فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر رسول الله ﷺ. أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٨٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥١٧؛ قال السيوطي: (أخرجـه ابـن مردويـه عن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: [فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ]). وفي السيرة النبوية لابـن هشـام: ج ٤ ص٥٣؛ قال: قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي.

(٣) ذكره مقاتل في التفسـير: ج ٣ ص٤٨٥. ويقـال: مقيـس بـن حُبابـة أو خبابـة. قتلـه نُمَيلَـةُ بـن عبدالله، رجل من قومه. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج ٤ ص٥٢-٥٣.

(٤) وغيرهما، كالحويرث بن نُقَيذِ بن وهبٍ، وهو الذي آذى ابنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، قتله علي بن أبي طالب. ينظر: السيرة النبوية: ج ٤ ص٥٢-٥٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ﴾؛ فهذا قسَمٌ بآدمَ وذريَّته، وجواب القسَم: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي في شدَّةٍ من حين يَنفُخ فيه الروحَ إلى أن يصلَ إلى الآخرةِ، ليعلم أنَّ الدُّنيا دارُ كَدٍّ ومشقَّة، والجنةُ دار الراحةِ والنعمة. والمكابدَةُ في اللغة: هو أن يُكَابدَ الإنسان أمرَ المعاشِ والمعاد، قال الحسنُ: ((تُكَادُ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَشَدَائِدُ الآخِرَةِ، لاَ تَلْقَى ابْنَ آدَمَ إلاَّ يُكَابِدُ أمْرَ الدُّنْيَا فِي مَشَقَّةٍ))(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾؛ كنايةٌ عن الإنسان، وقد جاءَ في التفسيرِ: أنه نزلَ في أبي الأشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحِيِّ، كان قويّاً شَديداً يضعُ الأديمَ العُكاظيَّ فيقفُ عليه ويقولُ: من أزالَني عنه فلَهُ كذا وكذا، فيجتمعُ عليه عشرةُ أقوياءِ ويجرُّون الأديمَ، فكان ينقطعُ الأديمُ ولا تزولُ قدمَاهُ عن مكانِهما.

والمعنى: يظنُّ هذا الكافرُ بشدَّتهِ وقوَّته أنْ لن يقدرَ عليه أحدٌ؛ أي على أخذهِ وعقوبته أحدٌ، وأنْ لَنْ يُبعَثَ(٢)، واللهُ قادرٌ عليه، فيقالُ: إنه لَمَّا نزلَ ذلك حُصِرَ بطنهُ وانحصرَ بولهُ فكان يتمرَّغُ في التراب ويقولُ: قتَلَنِي ربُّ مُحَمَّدٍ(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ ﴾؛ يعني هذا الكافرَ المذكورَ يقولُ: أهلكتُ مَالاً كثيراً في عداوةِ مُحَمَّدٍ وأصحابهِ فلم ينفَعني ذلك. واللُّبَدُ: كلُّ ما لُبدَ بعضهُ على بعضٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناه: أيظنُّ أنه لم يُحصِ عليه ما أنفقَ، وأنه لا يُسأل عنه مِن أين اكتسبَهُ، وفيمَ أنفقَهُ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾؛ ذكرَ اللهُ مِنَّتَهُ عليه فقال: ألَمْ نجعل له عينَين يبصرُ بهما، ولِسَاناً يتكلَّمُ به، وشفتَين يستعينُ بهما على الكلامِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٨٧٢ و٢٨٨٧٣).

(٢) في المخطوط: (وألَن يبعث).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٩٧٩. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٦٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي وبيَّنا لـه وعرَّفناهُ الخير والشرَّ، ليسلكَ طريقَ الخيرِ، ويجتنبَ طريقَ الشرِّ، وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ قرأ (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) وَقَالَ: [أيُّهَا النَّاسُ إنَّهُمَا نَجْدَانِ: نَجْدُ الْخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرِّ][(١)].

وَقِيلَ: معنى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ): أَلْهمنَاهُ مصَّ الثَّديين، والثديَان هما النَّجدان، وهذا قولُ سعيدِ بن المسيَّب والضحاك، وروايةٌ عن ابنِ عبَّاس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾؛ معناهُ: فلا جادَ بمالهِ بإنفاقه في طاعةِ الله، وهلاَّ دخلَ في عملِ البرِّ، وأنفقَ مالَهُ في فكِّ الرِّقاب وإطعامِ الجياعِ ليجاوزَ العقبةَ، فيكون خيراً له من إنفاقهِ في عداوة مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقال مجاهدُ والضحَّاك والكلبيُّ: ((يَعْنِي بالْعَقَبَةِ الصِّرَاطَ، يُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ آلاَفِ سَنَةٍ سَهْلاً وَصُعُوداً وَهُبُوطاً، بِجَنْبَيْهِ كَلاَلِيبُ وَخَطَاطِيفُ كَأَنَّهَا شَوْكُ السَّعْدَانِ، فَنَاجٍ سَالِمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ مَنْكُوسٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ كَالْفَارِسِ، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَعْدُو، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَمْشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ وَمِنْهُمُ الزَّالِقُ. وَاقْتِحَامُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إلَى الْعِشَاءِ)).

وقال قتادةُ: ((هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى، يُقَالُ: إنَّ الْمُعْتِقَ وَالْمُطْعِمَ يُقَاحِمُ نَفْسَهُ وَشَيْطَانَهُ مِثْلَ مَنْ يَتَكَلَّفُ صُعُودَهُ))، قال ابنُ زيدٍ: ((مَعْنَى الآيَةِ: فَهَلاَّ سَلَكْتَ الطَّرِيقَ الَّذِي فِيهَا النَّجَاةُ))[(٢)].

ثُمَّ بيَّن ما هي، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾؛ تعظيمُ لشأنِ العقبةِ، تقولُ: ما أعلمَكَ يا مُحَمَّدُ بأيِّ شيء تجاوزُ عقبةَ الصِّراط، قال سُفيان

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن ﷺ ...) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: النصوص (٢٨٨٩٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٩٠٩).

بن عُيينة: ((كُلُّ شَيْءٍ قَالَ اللهُ فِيْهِ: (وَمَا أَدْرَاكَ) فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ، وَمَا قَالَ فِيْهِ: (وَمَا يُدْرِيكَ) فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ))(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ من قرأ بضمِّ الكاف فمعناهُ: اقتِحامُها فكُّ رقبَة من رقٍّ أو شر أو ظُلمِ ظالِم أو من سُلطان جائرٍ. والاقتحامُ: الدُّخول في الشَّيء على الشدَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾؛ منكَ، ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾؛ لاصقاً بالتُّراب من الجهدِ والفاقة، ويقالُ: إن الْمَتْرَبَةَ شدَّةُ الحاجةِ إذا افتقرَ. ومَن قرأ (فَكَّ) بالنصب (أَوْ أَطْعِمْ) فمعناهُ: أفلاَ فكَّ الرقبةَ وهلاَّ أطعَمَ في يومٍ ذي مَسغَبة.

وعن البراءِ بن عازبٍ قال: جَاءَ أعْرَابيٌّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: [لَئِنْ كُنْتَ أقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ: فُكَّ الرَّقَبَةَ وَأعْتِقِ النَّسْمَةَ] قَالَ: أوَلَيْسَا سَوَاءً يَا رَسُولَ اللهِ ؟! قَالَ: [عِتْقُ النَّسْمَةِ أنْ تَنْفَرِدَ بعِتْقِهَا، وَفَكُّهَا أنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا، فَإنْ لَمْ تُطِقْ ذلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلاَّ مِنْ خَيْرٍ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ أفعالَ القُرْب إنما تنفعهُ إذا كان معَ ذلك من الذين آمَنُوا. وحرفُ (ثُمَّ) ههنا للتَّرادُف في الإخبار، لا للترادُفِ في المحالِّ، كأنه قالَ: وكَان مُؤمناً قبلَ ذلك مِن الذين يتواصَون بالصبرِ. ويجوزُ أن يكون معناهُ: فعَلَ ذلك ثُمَّ ثبتَ على الإيمانِ إلى أنْ يلقَى اللهَ تعالى.

---

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٣٤٨.

(٢) في مجمع الزوائد: كتاب العتق: باب العتق والإعانة: ج ٤ ص٢٤٠؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد ورجاله ثقات). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٢ ص٢٧٨ عن أبي موسى الأشعري: الحديث (١٤٩٠) بإسناد ضعيف.

وقولهُ تعالى: (وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) أي وصَّى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على طاعـةِ الله، والصبرِ عن معاصيه، (وَتَوَاصَوْا بالْمَرْحَمَةِ) أي وأوصَى بعضُهم بعضاً بالتَّراحُم على الناسِ واليتَامَى والمساكين والضعيفِ والمظلوم، وفي الحديثِ: [مَنْ لَمْ يَرْحَـمِ النَّـاسَ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ][1].

وقولهُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ ﴾ معناهُ: أولئكَ الذين اجتمَعت فيهم هذه الخصالُ هم أصحابُ اليُمْنِ والبركةِ، وهم الذين يُعطَـون كُتبَـهم بأيمانِـهم، ويؤخذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ ﴾ ؛ أي هـم أصحابُ الشُّؤم على أنفُسِهم، وهم الذين يُعطَون كُتبَهم بشمائلِهم، ويؤخذُ بهم ذاتَ الشِّمال ((إلى)) النـار. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠ ﴾ ؛ أي مُطبَقَـةٌ أبوابُها عليهم مسدودةٌ، من قولِكَ: أوصدتُ البابَ وأوصدْتهُ إذا أطبقتَهُ، ومَنه سُـمِّيَ البابُ الوصيدَ.

قال ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْبَلَدِ أعْطَاهُ اللهُ الأَمَانَ مِنْ غَضَبهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][2].

آخر تفسير سورة (**البلد**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٤ ص٤٣٧: الحديث (٣٧٣٣) عن ابن مسعود، وقـال: تفرد به إسماعيل بن عياش.

(٢) تقدم في بدء السورة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

سُورَةُ الشَّمْس مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَسَبْعَةٌ وَأَرْبَعُون حَرْفاً، وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً. قالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا فَكَأنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾ ؛ أقسمَ اللهُ سبحانه بالشمسِ ونحوها مما ذكرَهُ من أوَّل السُّورة لما فيها من دلائلِ وحدانيَّة اللهِ تعالى فقالَ (وَالشَّمْس وَضُحَاهَا) أرادَ بالضُّحى ارتفاعَها، قال مجاهدُ: ((مَعْنَاهُ: وَالشَّمْسِ وَضَوْئِهَا))[2] ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾ ؛ أي إذا تَبعَ الشَّمسَ وطلعَ بعد غُروبها، وذلك في أوَّل ليلةِ الهلال إذا سقَطت الشمسُ ريءَ[3] الهلالُ، وكذلك في نصفِ الشَّهر إذا غربَت الشمسُ يتبعُها القمرُ في الطلوعِ من المشرق، وأخذ موضعَها وصار خلفَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ ﴾ ؛ أي إذا بيَّن الشمسَ، وذلك أن الشمسَ إنما تضيءُ وتتبيَّن إذا انبسطَ النهارُ، وأما في حال طُلوعِها فهي تطلعُ لا نورَ لها، ثم يضحِّيها اللهُ تعالى. ويجوز أن يكون معناهُ: إذا جلاَّ ظُلمةَ الليلِ أو جلاَّ الدُّنيا، فيكون هذا كنايةً عن غيرِ مذكور، وقولُه: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ ﴾ ؛ أي إذا يغشَى الشمسَ فيذهبُ بنورها، وتُظلِمُ الدنيا عند غروبها.

---

(١) رواه الثعلبي عن أبي بإسناد ضعيف. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٣٦٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٨٩٤٠).

(٣) ريء: أصلهُ (رئي) قدمت الياء على الهمزة، أو رُؤيَ الهلالُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ ﴾ ؛ أي والسَّماء وما بناهَا؛ وهو تأليفُها الذي نشاهدهُ في سعتِها، وارتفاعِ سَمكِها، وقرارها بغير عمَدٍ. و(مَا) مع الفعلِ بتأويل المصدر، ويجوز أن يكون معناهُ: والسماءِ والذي بنَاها كما يقال: سبحانَ من سبَّحتُ له وسبحانَ من سبَّحَ الرعدُ بحمدهِ(١).

والمعنى(والسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا)أي ومَن خلقَها، وهو اللهُ تعالى كما قال تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾(٢) ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾(٣) وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ ﴾ ؛ معناه على القولِ الأول: والأرضِ وطَحوِها وهو بسطُها على وجهِ الماء، وعلى القولِ الثاني والأرضِ ومَن طحَاها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾ ؛ معناه على القول الأوَّل: والأنفس كلّها وتسويتُها باليدينِ والرجلين والعينينِ والأذنين وغيرِ ذلك من الحواسِّ، وما ألْهمَها اللهُ من طريقِ فجورِها لتترُكَهُ، وطريقَ تقواها لتلزمَهُ، فعرَفَتْ ذلك بأدلَّة اللهِ، وعلى القولِ الثاني: ونفسٍ ومَن سوَّاها، فبيَّن لها ما تأتِي، وما تبقي، وخذلَها للفجور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ ﴾ ؛ جوابُ القسَم، يقولُ: قد فازَ ونجَا من طهَّرَ نفسَهُ بالإيمان والطاعةِ فصار زاكياً طَاهراً بنعيم الجنة، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ ؛ أي وقد خَسِرَ من دسَّ نفسَهُ؛ أي أهملَها في الكفرِ والمعاصي.

ويقال: معناهُ: قد أفلحَ من زكَّى اللهُ نفسَهُ؛ أي أصلحَها اللهُ وطهَّرَها من الذنوب ووفَّقَها للتقوَى، وقد خابَ وخسِرَ مَن دسَّاها، دسَّا اللهُ نفسَهُ أي شَهرَها وأخذلَها وأخملها وأخفَى محملها حتى عمِلت بالفجور وركبتِ المعاصي. وَقِيْلَ: معنى (دَسَّاهَا) أغوَاها وأضلَّها وأثَّمَها وأفجرَها. وقال ابنُ عبَّاس: ((أَهْلَكَهَا)).

---

(١) هو معنى قول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٥ ص٢٥٣؛ قال: (وقيل: معنى (ما) ههنا معنى (مَنْ).) وأصله قاله الطبري في جامع البيان: ج ٣٠ ص٢٦٣.

(٢) النساء / ٣ .

(٣) النساء / ٢٢ .

والأصلُ في جواب القسَم أن يقالَ: (لَقَد أفلحَ) باللامِ، وإنما حُذفت؛ لأن الكلامَ إذا طالَ صار طولهُ عِوَضاً من اللامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي كذبت قومُ صالح الرسُل بطغيانِهم، والطَّغْوَى مصدرٌ كالفتوَى والدَّعوَى، والمعنى: كذبت ثمودُ بطغيانِها وعُدوانِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي حين قامَ أشقَاها لعقرِ الناقةِ، وصار هو السببَ لهلاكِ الكلِّ. قِيْلَ: إنه كان أشقَاهُم رجلٌ يقال له مُصدِّع، وهو الذي ابتدأ عقرَها، وقال الكلبيُّ: ((كَانَا اثْنَيْنِ مُصدِّع وقُدَار)). والمعنى إذِ انبعثَ أشقَاها، وإنما ذكرَها بلفظ التأنيثِ؛ لأنَّ الهاء راجعةٌ إلى القبيلةِ، وَقِيْلَ: المرادُ بقولهِ (أشْقَاهَا) قِدَارُ بنُ سالف، وكان رجُلاً أشقرَ أزرقَ قصيراً ملتزقَ الخلقِ، واسم أمه قديدةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لهم صالحُ عليه السلام: احذرُوا ناقةَ اللهِ التي هي الآيةُ الدالَّة على توحيدهِ أن تُصِيبُوها بمكروهٍ فتُؤخَذُوا بذلك، واحذرُوا سُقيَاها؛ أي شُربَها ونوبَتها؛ أي لا تُزاحموها في يومِها. هذا نَصبٌ كما يقال: الأسَدَ الأسَدَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ ؛ أي فكذبوا صَالحاً فيما قالَ لهم: إنَّكم إنْ أصَبْتُموها بسوءٍ أخذكم عذابُ يومٍ عظيم، فعقَروها وقتَلوها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي فأطبقَ عليهم بالصَّيحة، وأرجفَ بهم الأرضَ، ودمَّر عليهم، يقالُ: دَمْدَمْتَ على الميت إذا أطبقتَ عليه القبرَ.

---

(١) أي (ناقةَ) منصوبٌ على التحذير، كقولك: الحِذارَ الحِذارَ، الصبيَّ الصبيَّ، الأسدَ الأسدَ، أي احذروا ناقةَ الله.

قال ابنُ الأنباريِّ: ((أصْلُ الدَّمْدَمَةِ: الْغَضَبُ))(١) والمعنى: غَضِبَ عليهم ربُّهم فسوَّى عليهم العقوبةَ، فلم ينفلِتْ منهم صغيرٌ ولا كبير. ويجوزُ أن يكون معناهُ: فسوَّاها؛ أي سوَّى الأرضَ عليهم حتى لم يُرَ لهم أثرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾؛ أي ولا يخافُ اللهُ عاقبةَ إهلاكِهم. وَقِيْلَ: إنَّ قولَهُ تعالى (وَلاَ يَخَافُ) راجعٌ إلى رسولِهم صالحٍ عليه السلام، كان لا يخافُ عند التدميرِ من عاقبةِ أمرهم. وَقِيْلَ: هو راجعٌ إلى قولهِ تعالى (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) كأنه قالَ: قامَ لعقرِها وهو كالآمِنِ من نُزولِ الهلاكِ به وبقومهِ جهلاً منهُ.

آخر تفسير سورة (**الشمس**) والحمد لله رب العالمين

(١) قاله ابن الأنباري في الزاهر: ج ١ ص٢٨٩، تحقيق د. حاتم صالح الضامن- العراق.

سُورَةُ اللَّيْـــلِ

سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثُمِائَةٍ وَعَشْـرَةُ أحْـرُفٍ، وَإحْـدَى وَسَبْعُون كَلِمَـةً، وَإحْدَى وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَـا أعْطَـاهُ اللهُ حَتَّـى يَرْضَـى، وَعَافَـاهُ مِـنَ الْعُسْرِ، وَيَسَّرَ لَهُ الْيُسْرَ].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾ ؛ أقسَمَ اللهُ بالليلِ إذا يغشَـى الأفُـقَ، ويعـمُّ الأشياءَ كلَّها بـالظلام، ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ ؛ أي أضـاءَ، وأنـارَ، وذهـبَ بظُلمةِ الليلِ، ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾ ؛ وأقسَمَ بخلقةِ الذكـرِ والأنثـى لإبقاءِ النَّسلِ، وَقِيْلَ: معناهُ: ومَن خلقَ الذكر والأنثى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ ؛ أقسَمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من دلائلِ وحدانيَّة الله على أنَّ أعمالَ العبادِ في الدُّنيا مختلفةٌ، منـهم مَـن يريـدُ الدنيـا فيجعلُ سَعيَهُ لها، ويعملُ في هلاكِ رَقبته، ومنهم مَن يريدُ الآخـرة ويجعـلُ سـعيَهُ لهـا، ويعملُ في فِكَاكِ رقبتهِ، وشتَّان ما بين العمَلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ ﴾ ؛ بيَّن اللهُ اختـلافَ سَـعيهم بقولهِ: فأمَّا مَن أعطَى الحقوقَ من مالهِ، واتَّقى المعاصيَ واجتنـبَ المحارمَ، ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ ﴾ ؛ أي أيقنَ بالخلفِ في الدُّنيا، والثواب في الآخـرة، وَقِيْـلَ: معنـاهُ: وصدَّقَ بالجنةِ، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ ﴾ ؛ فسنوفِّقهُ للعودِ إلى الطاعةِ مرَّة بعد أخرى لتسهل(١) عليه طريـقَ الجنـة. وعـن أبـي الـدَّرداءِ قـال: قـالَ رسـولُ الله ﷺ: [مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ إلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَأعْطِ مُمْسِكاً

---

(١) في المخطوط: (تسهل).

تَلَفاً][١]. وقال الضحَّاك: ((مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) بـ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ))[٢]. وَقِيلَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي بَخِلَ بمالهِ، ومنعَ ما يلزمهُ من حقوقِ اللهِ، واستغنَى عن ربه، ولم يرغَبْ في ثوابهِ، فعمِلَ عملَ مَن يستغني عن اللهِ، ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾؛ وكذب بثواب المصدِّقين في الجنةِ، وكذب بالتوحيدِ والنبوَّة، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي يخذلُه بمعاصيهِ ومصيرهُ النار، والمرادُ به أبو جهلٍ، ويدخلُ فيه كلُّ مَن عمِلَ مثلَ عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي ما ينفعُ هذا الكافرَ الذي بَخِلَ بماله كثرةُ مالهِ بعد موتهِ إذا هوَى وسقطَ في هوى النار، لم يؤدِّ منهُ فريضةً، ولا وَصَلَ منه رَحِماً. وقال مجاهدُ: ((مَعْنَى (إذا تَرَدَّى): إذا مَاتَ))[٤]، وقال قتادةُ: ((إذا هَوَى فِي جَهَنَّمَ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي أنْ نبيِّنَ طريقَ الهدى من طريق الضَّلالة، وأن نبيِّن الحقَّ من الباطلِ، وقال الفرَّاء: ((مَعْنَاهُ: مَنْ سَلَكَ الْهُدَى فَعَلَى اللهِ سَبِيلُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[٥]))[٦] ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾؛ معناهُ: وإنَّ لنا للآخرةَ، فنُعطي منها ما شئنا على ما توجبهُ الحكمة لِمَن كان أهلاً لذلك، وإن لنا للأُولى وهي الدُّنيا، فنُعطي منها مَن نشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي خوَّفتُكم يا أهلَ مكة إنْ لم تؤمنوا بالقرآن ناراً تتوقَّدُ وتتوهَّجُ. ولا يجوز أن يكون هذا بمعنى الماضِي؛ لأنه لو كان مَاضياً لقيلَ: تلظَّتْ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠١٠).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٠٦).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠١١).
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٢٧).
(٥) النحل / ٩ .
(٦) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٧١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾، أي لا يدخلُها ولا يلزمُها إلاّ الأشقَى في علمِ الله تعالى، ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾؛ وهو الكافرُ الذي كذبَ بتوحيدِ الله تعالى والقرآن، وأعرضَ عن الإيمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي سيُباعَدُ عنها التقيُّ، ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي لم يفعَلْ مجازاةً لبرٍّ أسدِيَ إليه ولا لمثابةِ الدُّنيا، ولكن أعطى ما أعطَى لطلب ثواب الله ورضاهُ، ولسوفَ يُعطيهِ اللهُ في الآخرة من الثواب حتى يرضَى.

قِيْلَ: إنَّ قولَهُ (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى) إلى آخر السُّورة نزلَت في أبي بكرٍ ﷺ، حدَّثنا هشامُ بنُ عروة عن أبيه: ((أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ أعْتَقَ سَبْعَةً، كُلُّهُمْ كَانُوا يُعَذبُونَ فِي اللهِ تَعَالَى، وَهُمْ: بلاَلُ؛ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ شَهِدَ بَدْراً وَأحُداً وَقُتِلَ يَوْمَ بئْرِ مَعُونَةَ شَهِيداً. وأمُّ عُمَيس وَزَنِيرَةَ، فَأُصِيبَ بَصرُهَا حِينَ أعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشُ: مَا أذْهَبَ بَصرَهَا إلاَّ اللاَّتُ وَالْعُزَّى! فَقَالَتْ:كَذبُوا وَبَيْتِها الله، فَرَدَّ اللهُ بَصرَهَا. وَأعْتَقَ النَّهْدِيَّةَ وَابْنَتَهَا، وَكَانَتَا لامْرَأةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، وَمَرَّ بجَاريَةِ بَنِي مُؤَمَّلٍ حَيٍّ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَعُمَرُ بْنُ الْخطَّاب يُعَذِّبُهَا لِتَرْكِ الإسْلاَمِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ، فَاشْتَرَاهَا أبُو بَكْرٍ فَأعْتَقَهَا.

فَأمَّا بلاَلٌ فَكَانَ لِبَعْضِ بَنِي جُمَحٍ مُوَلَّداً مِنْ مُوَلَّدِيهِمْ وَهُوَ بلاَلُ بْنُ رَبَاح، وَكَانَ اسْمُ أمِّهِ حَمَامَةٌ، وَكَانَ صَادِقَ الإسْلاَمِ طَاهِرَ الْقَلْب، وَكَانَ أمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ يُخرجُهُ إذا حَمِيَتِ الظَّهِيرَةُ فَيطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ، فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ، وَيُقَالُ لَهُ: لاَ تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أوْ تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذلِكَ الْبَلاَءِ: أحَدٌ أحَدٌ.

فَمَرَّ بِهِ أبُو بَكْرٍ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ بِهِ ذلِكَ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ: (ألاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذا الْمِسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى؟) فَقَالَ: أنْتَ أفْسَدْتَهُ فَأنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ:(عِنْدِي غُلاَمٌ أسْوَدُ أجْلَدَ مِنْهُ، وَأقْوَى عَلَى دِينِكَ أعْطِيكَهُ بِهِ). قَالَ: قَدْ قَبلْتُ، قَالَ: (هُوَ لَكَ). فَأعْطَاهُ أبُو بَكْرٍ غُلاَمَهُ ذلِكَ وَأخَذ بلاَلاً فَأعْتَقَهُ. فَقَالُوا: لَوْ أبَيْتَ أنْ تَشْتَرِيَهُ إلاَّ بأُوْقِيَّةٍ لَمَا مَنَعْنَاكَ. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: (وَلَوْ أبَيْتُمْ إلاَّ بمِائَةِ أوْقِيَّةٍ لأَخَذْتُهُ).

وَأَمَّا النَّهْدِيَّةُ وَابْنَتُهَا فَكَانَتَا لامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار، مَرَّ بِهِمَا أَبُو بَكْرٍ وَهُمَا يَطْحَنَان، وَسَيِّدَتُهُمَا تَقُولُ: وَاللهِ لاَ أُعْتِقُكُمَا أَبداً، فَقَالَ لَهَا أَبو بَكْرٍ: (يَا أُمَّ فُلاَنٍ خَلِّ عَنْهُمَا)، فَقَالَتْ: بَلْ أَنْتَ خَلِّ عَنْهُمَا، أَنْتَ أَفْسَدْتَهُمَا، فَقَالَ: (بِكَمْ هُمَا؟) قَالَتْ: بِكَذا وَكَذا، قَالَ:(أَخَذْتُهُمَا بذلِكَ وَهُمَا حُرَّتَانِ للهِ تَعَالَى) ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: (قُومَا وَارْبَعَا لَهَا طَحِينَهَا)، قَالَتَا: أَلاَ نَفْرَغُ مِنْ طَحِينِهَا وَنَرُدُّهُ إِلَيهَا ؟ قَالَ: (ذلِكَ إِلَيْكُمَا إِنْ شِئْتُمَا).

فَقَالَ أَبو قُحَافَةَ لأَبِي بَكْرٍ: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَاباً ضِعَافاً، فَلَوْ أَنَّكَ أَعْتَقْتَ رِجَالاً جِلاَداً يَمْنَعُونَكَ وَيُقَوِّمُونَ دُونَكَ؟) فَقَالَ أَبو بَكْرٍ: (يَا أَبَهْ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ اللهَ)، فَنَزَلَ فِيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى..) إِلَى قَوْلِهِ: (وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ))[1].

وعن سعيدِ بن المسيَّب قال: ((بَلَغَنِي أَنَّ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ الْجُمَحِيَّ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعْطِيَهُ بلالاً قَالَ لَهُ: لاَ أَبِيعُهُ مِنْكَ إِلاَّ بِغُلاَمِكَ مِنْطَاس، وَكَانَ مُشْرِكاً، فَرَاوَدَهُ أَبو بَكْرٍ عَلَى الإِسْلاَمِ فَأَبَى، وَكَانَ لِمِنْطَاسَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِينَاراً وَمَوَاشٍ وَجَوَارٍ.

فَرَاوَدَهُ أَبو بَكْرٍ عَلَى الإِسْلاَمِ، وَيَكُونُ مَالُهُ لَهُ فَأَبَى، فَأَبْغَضَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ أُمَيَّةُ ذلِكَ بَاعَهُ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: مَا فَعَلَ أَبو بَكْرٍ ذلِكَ لِبِلاَلٍ إِلاَّ لَيَدٍ كَانَتْ لِبِلاَلَ عِنْدَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى))﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ بثواب الله في العُقبى عِوَضاً عمَّا فعل في الدُّنيا[2].

آخر تفسير سورة (الليل) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ١٠ ص٣٤٤١ مختصراً. وأخرج بعضه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٢٠. وحكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٨٩.

سُورَةُ الضُّحَى

سُورَةُ الضُّحَى مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَان وَتُسْعُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَإحْدَى عَشْرَة آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا كَانَ فِيمَنْ يَرْضَاهُ اللهُ لِمُحَمَّدٍ أنْ يَشْفَعَ، وَيُكْتَبُ لَهُ بعَدَدِ كُلِّ يَتِيمٍ وَسَائِلٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ][(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: ((لَمَّا سَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، وَعَنْ ذِي الْقَرْنَين، وَأصْحَاب الْكَهْفِ، قَالَ لَهُمْ: [سَأُخْبِرُكُمْ غَداً] وَلَمْ يَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، فَاحْتَبَسَ الْوَحْيُ عَنْهُ وَأبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لِتَرْكِهِ الاسْتِثْنَاءَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ: إنَّ مُحَمَّداً وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلاَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ تَكْذِيباً لَهُمْ، وَأقْسَمَ بِبَيَاضِ النَّهَار وَسَوَادِ اللَّيْلِ أنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُوَدِّعْهُ وَلَمْ يَقِلْهُ)).

وفيه إضمارٌ تقديرهُ: وربِ الضُّحى وهو النهار كلُّه، وقال بعضُهم: ساعةُ ارتفاعِ الشَّمس على ما هو المعهودُ من الكلامِ. وقولهُ تعالى (وَاللَّيْلِ إذا سَجَى) أي إذا أظلمَ، واشتدَّ ظلامهُ حتى يسترَ الأشياءَ كلَّها بالظلامِ، ومنه قولُهم: فلانٌ يُسْجَى بثوبهِ؛ أي مُغطًّى، ومنه قولُهم: سَجَى قبرَ المرأةِ. وَقِيْلَ: معناهُ: إذا سكَنت الأشياءُ فيه، ومن ذلك: بحرٌ سَاجٍ؛ أي ساكنٌ، ويقالُ: بلدٌ ساجيةٌ إذا كان أهلُها في سكونٍ، وكذلك طريقٌ ساجٍ؛ أي آمنٌ، قال الشاعرُ:

أنَا ابْنُ عَمِّ اللَّيْلِ وَابْنُ خَالِهِ ... إذا سَجَى دَخَلْتُ فِي سِرْبَالِهِ

---

(١) عن أبي بن كعب، أخرجه الثعلبي وغيره بإسناد واهٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) أي ما تركَكَ منذُ اختارَكَ، ولا بغضَكَ منذ أحبَّكَ، وهذا جوابُ القسَمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي لثوابُ الآخرةِ مما أعدَّهُ اللهُ لكَ فيها من الكرامةِ والمقامِ المحمود خيرٌ لكَ من الدُّنيا التي هي مشوبةٌ بالأحزانِ والزَّوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: سيُعطيكَ خالقُكَ في الآخرةِ من الشَّفاعة، وثواب الطاعةِ حتى ترضَى. ويجوزُ أن يكون هذا وعْداً له مِن الله بالنُّصرة والتمكينِ وكثرةِ المؤمنين.

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: ((رضَى مُحَمَّدٌ أنْ لاَ يَدْخُلَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ))(١). وَقِيْلَ: الشفاعةُ في جميعِ المؤمنين، وعن عليٍّ ﷺ قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أشْفَعُ لأُمَّتِي حَتَّى يُنَادِي رَبي عَزَّ وَجَلَّ: أرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَأَقُولُ: رَضِيتُ](٢).

وعن جعفرَ بن مُحَمَّدٍ قال: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى فَاطِمَةَ وَهِيَ تَطْحَنُ بيَدِهَا وَتُرْضِعُ وَلَدَهَا، فَلَمَّا أبْصَرَهَا كَذلِكَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: [يَا بُنْتَاهُ تَعَجَّلِي(٣) فَتجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا بحَلاَوَةِ الآخِرَةِ، فَقَدْ أنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)](٤). وعن ابنِ عبَّاس قالَ: ((يُعْطِيهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ ألْفَ قَصْرٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ تُرَابُهُ الْمِسْكُ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مِنْ كُلِّ مَا يُشْتَهَى عَلَى أحْسَنِ الصِّفَاتِ))(٥).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٥٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٣ ص١٧٩ بسند ضعيف.

(٣) في المخطوط: (تعجني) ويبدو أنه تصحيف من الناسخ؛ وأثبتنا الصحيح من الدر المنثور.

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٤٣٠؛ قال السيوطي: (أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن لال وابن النجار عن جابر) وذكره.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٥١). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩٨)، وقال: صحيح الإسناد.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾؛ عـدَّدَ عليـه نِعمَـةُ الموصولةَ إليه من صِغَرِهِ إلى كِبَرِه، والمعنى: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً عن أبيكَ فضمَّكَ إلى أبي طالبٍ، وربَّاكَ في حِجرِهِ، وفضَّلَكَ على أولادِهِ، وقد كان أبوهُ ماتَ وهو في بطنِ أمِّـه، وماتت أمُّه وهو ابنُ سَنتين، وماتَ جدُّه وهو ابنُ ثماني سنين.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ أي ضَالاً عن علمِ النبـوَّة، وأحكامِ الشَّريعة غافلاً عنها، فهداكَ إليها، دليلهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِنْ كُنـتَ مِـنْ قَبْلِـهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[١]، وقولهُ تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾[٢]. ولا يجوزُ أن يقـالَ في معناهُ: إنه ﷺ كانَ على دينِ قومِهِ، فهداهُ الله؛ لأنه تعالى لا يختارُ للرِّسالةِ مَن كفرَ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ النبي ﷺ كان ضَلَّ في صِغَره عن قومهِ في شِعاب مكَّة، فوجدَهُ أبو لَهب فردَّهُ على جدِّهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وجـدَكَ ضَائعـاً بـين قـومٍ ضـوَّالٌ لا يعرِفـون حُرمَتك، فهدَاهُم الله تعالى إلى معرفةِ قَدرِك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أي ووجدَكَ فقيراً فأغناكَ بمال خديجةَ والغنائمِ، وذلك أنَّها كانت تبذلُ مالَـها للنبيِّ ﷺ. والعَيْلَـةُ في اللغـة: الفقرُ، يقالُ: عالَ الرجلُ إذا كثُرَ عيالهُ وافتقرَ، قال الشاعرُ[٣]:

وَمَـا يَـدْرِي الْفَقِـيرُ مَتَـى غِنَـاهُ ... وَمَـا يَـدْرِي الْغَنِـيُّ مَتَـى يَعِيـلُ

وحذفَ الكاف من قولهِ تعالى (فَآوَى، فَـأَغْنَى، فَـهَدَى) لمشـاكَلة رؤوسِ الآي؛ ولأن المعنى معروفٌ، قال مقاتلُ: ((وَكُلُّ فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْفُصُول قِـرَاءَةُ جِـبْرِيلَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: [بَلَى يَا رَب] ثُمَّ قَالَ: [يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أَهْـلُ الْمَـنِّ، يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أَهْلُ الْمَنِّ]))[٤].

---

(١) يوسف / ٣ .
(٢) الشورى / ٥٢ .
(٣) أحيحة بن الجلاح الأوسي، شاعر جاهلي (ت ١٢٩ ق.هـ).
(٤) أخرجه مقاتل بن سليمان في التفسير: ج ٣ ص٤٩٥ بغير إسناد. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥٤٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه والديلمي عن ابن عباس).

وعنه ﷺ قالَ: [سَأَلْتُ رَبي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أنّي لَمْ أسْألْهَا قَطُّ، قُلْتُ: يَا رَب اتَّخَذْتَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبحْنَ، وَأعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ كَذا وكَذا.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ألَمْ أجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أجِدْكَ ضَالاً فَهَدَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أجِدْكَ عَائِلاً فَأغْنَيْتُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ فَلاَ أذْكَرُ إلاَّ وَتُذْكَرُ مَعِي ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أوْتِكَ مَا لَمْ أوتِ نَبيّاً قَبْلَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب، قَالَ: ألَمْ أتَّخِذْكَ حَبيباً كَمَا اتَّخَذْتُ إبْرَاهِيمَ خليلاً؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَب][1].

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾؛ وهذا حثٌّ للنبيِّ ﷺ على محاسنِ الأخلاقِ ليقتَدي به الناسُ، ويجِدُوا في سُلوكِ طريقته. ومعنى قهرِ اليتيم: أنْ يقهرَهُ على مالهِ، وأن يظلمَهُ بقولٍ أو فعلٍ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (فَلاَ تَكْهَرْ) بالكافِ[2]، ومعناه: الزجرُ والاتعاظُ. وتخصيصُ اليتيمِ لأنه لا ناصرَ له غيرُ اللهِ. وفي الحديث: [اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لاَ نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللهِ][3].

وعن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنْ ضَمَّ يَتِيماً فَكَانَ فِي مُؤْنَتِهِ وَنَفَقَتِهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَسَحَ برَأسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ][4]. وقال ﷺ:

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص٢٥٩: الحديث (١٢٢٨٩). وفي المعجم الأوسط: ج ٤ ص٣٩٠: الحديث(٣٦٦٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٥٤؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط). وأخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٩٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٥٨).

(٣) هو معنى حديث أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: [دَعْوَةُ الْمَظْلُوم تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أبْوَابُ السَّمَوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ]. صحيح ابن حبان: الحديث (٨٧٤) بإسناد حسن.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٤ ص٢٢١: عن أنس ﷺ. ضعيف جداً، فيه سليمان بن عمرو، كذاب.

[إنَّ الْيَتِيمَ إذا بَكَى اهْتَزَّ لِبُكَائِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ اللهُ: يَا مَلاَئِكَتِي مَنْ أَبْكَى هَذَا الْيَتِيمَ الَّذِي غَيَّبْتُ أَبَاهُ فِي التُّرَابِ؟ فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ: رَبَّنَا أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: يَا مَلاَئِكَتِي أُشْهِدُكُمْ أنَّ كُلَّ مَنْ أَسْكَتَهُ وَأَرْضَاهُ أنْ أُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1]. قَالَ: ((فَكَانَ عُمَرُ إذا رَأى يَتِيماً مَسَحَ عَلَى رَأسِهِ وَأعْطَاهُ شَيْئاً)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾؛ وهو الزجرُ بالصِّياح في الوجهِ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إذا سَأَلَ السَّائِلُ فَلاَ تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ رُدُّوا عَلَيْهِ بِوَقَارٍ وَلِينٍ أوْ بِبَذْلٍ يَسِيرٍ أوْ بِرَدٍّ جَمِيلٍ، فَإنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بِإنْسٍ وَلاَ جَانٍّ، يَنْظُرُونَ كَيْفَ صُنْعُكُمْ فِيمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ][2]. وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ متى يُباح أن يُردَّ الفقيرُ؟ فقالَ: [إذا رَدَدْتَهُ ثَلاَثاً تَلَطُّفاً فَلاَ يَذْهَبْ، فَلاَ بَأْسَ أنْ تَزْبُرَهُ][3].

وكان الحسنُ يقول: ((أرَادَ بِالسَّائِلِ فِي هَذِهِ الآيَةِ سَائِلَ الْعِلْمِ لاَ تَرُدُّهُ خَائِباً)). وقال يحيَى بنُ آدم في هذه الآيةِ قال: ((إذا جَاءَكَ طَالِبُ الْعِلْمِ فَلاَ تَنْهَرْهُ)). وعن أبي هريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَمْنَعَنَّ أحَدُكُمُ السَّائِلَ أنْ يُعْطِيَهُ إذا سَأَلَ، وَإنْ رَأى فِي يَدَيْهِ قُلْبَيْنِ مِنْ ذهَبٍ][4]. وعن إبراهيمَ بن أدهم قَالَ: ((نِعْمَ الْقَوْمُ السُّؤَّالُ. يَحْمِلُونَ زَادَنَا إلَى الآخِرَةِ، يَجِيءُ السَّائِلُ إلَى بَابِ أحَدِكُمْ فَيَقُولُ: هَلْ تُوَجِّهُونَ إلَى أهْلِيكُمْ شَيْئاً)).

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠١. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٣ ص١٤٢، وفيه حسين بن أبي جعفر، منكر الحديث، ضعيف.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥: الحديث (٤٨٣٠) عن أبي هريرة ﷺ. وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص٩٩؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه ضرار بن صرد، وهو ضعيف، وقال أبو حاتم: صدوق يكتب حديثه ولا يحتج به).

(٤) في مجمع الزوائد: ج ٣ ص١٠١-١٠٢؛ قال الهيثمي: (رواه البزار وفيه الحسن بن علي الهاشمي النوفلي، وهو ضعيف، وقال ابن عدي: هو أقرب إلى الضعف منه إلى الصدق). وأسنده ابن عدي في الكامل: ترجمة الحسن: الرقم (٨٣/ ٤٥٢): ج ٣ ص١٦٤، وهو كما نقل الهيثمي. والقُلب -بالضم والسكون-: السِّوار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي حدِّثِ الناسَ بما أنعمَ اللهُ عليك من النبوَّة والإسلامِ، وذلك أنَّ مِن شُكرِ النِّعَمِ التحدُّث تعظيماً للمنعمِ. ويقال: إن الشُّكرَ على مراتب، فالمرتبةُ الأُولى: أن تعلمَ أنَّ النعمةَ من اللهِ، والثانية: أن تؤدِّي عليها حقوقَ اللهِ، والثالثةُ: أن تعترفَ بذلك وتُخبرَ الناسَ بها، والرابعة: الاستظهارُ بها على معصيةِ الله.

وفي الحديثِ: [إذا أنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أحَبَّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ](١)، وقال ﷺ: [مَنْ أعْطِيَ خَيْراً فَلَمْ يُرَ عَلَيْهِ، سُمِّيَ بَغِيضَ اللهِ مُعَادِياً لِنِعْمَةِ اللهِ](٢). قالَ ﷺ: [مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يُشْكِرِ الْكَثِيرَ، ومَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بالنِّعْمَةِ شُكْرٌ](٣).

آخر تفسير سورة (**الضحى**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٣٢؛ قال الهيثمي: (عن عمران بن حصين... رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٣١ عن بكر عن عبدالله المزني. والحديث مرسل.

(٣) عن النعمان بن بشير. في مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢١٣؛ قال الهيثمي: (رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٧٨ و٣٧٥.

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلاثَةُ أَحْرُفٍ، وَتِسْعٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا جَاءَنِي وَأَنَا مُغْتَمٌّ فَفَرَّجَ عَنِّي][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ النبي ﷺ شُقَّ بطنهُ من عند صدرِهِ إلى أسفلِ بَطنِهِ فاستُخرِجَ منه قَلْبُهُ فغُسِلَ في طشتٍ من ذهب بماءِ زَمزَمَ، ثم مُلئَ إيماناً وحكمةً وأُعيدَ مكانَهُ، قال: وهذا معنى شرحِ الصَّدر. ويقالُ: إنَّ شرحَ الصَّدر، وترحيبهُ وتليينهُ؛ لاحتمال الأذى والصبر على المكارهِ، والطمأنينةُ بالإيمان وشرائعهِ. وَقِيلَ: معناهُ: أَلَمْ نُلَيِّنْ لَكَ قلبكَ ونوسِّعْهُ بالإيمانِ والنبوَّة والعلم والحكمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي حطَطْنا عنك ذنبَك، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] وقولهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي أثقلَ ظهرك، ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ أي شرَّفناكَ وعظَّمنا قدرَكَ بما أوجبناهُ على خلقِنا من التصديقِ بنبوَّتكَ. وَقِيلَ: معناهُ: قَرَنَّا ذِكرَكَ بذِكرِنا، فلا يُذكر اللهُ إلاّ وتُذكَرُ معه في كلمةِ الشَّهادة والأذانِ والخطبة وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ إنَّ مع الشدَّة التي أنتَ فيها من جهادِ ((هؤلاء)) المشركين رجاءَ أن يُظفِرَكَ اللهُ عليهم حتى ينقادُوا للحقِّ طَوعاً وكَرهاً[3]، (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً) لتأكيد الوعدِ وتعظيم

---

(١) ضعيف، أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. (٢) الفتح / ٢ .

(٣) في المخطوط: حرف الناسخ العبارة ورسم: (إنَّ مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين=

الرَّخاء. وَقِيْلَ: معناهُ: فإن مع العُسرِ يُسراً في الدُّنيا، إنَّ مَع العُسرِ يُسراً في الآخرةِ.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وأصحابِهِ فيما كانوا فيه من الشدَّة والفقر، يقولُ: إنَّ مع الشدَّة رخاءً وسَعةً. ورُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نزلت هذه الآيةُ قالَ لأصحابِهِ: [أَبْشِرُوا فَقَدْ آتَاكُمُ اللهُ الْيُسْرَ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ][1].

وإنما قالَ ذلك؛ لأنَّ العسرَ مَعرفةٌ، و(يُسراً) نكرةٌ، والمعرفةُ إذا أُعيدت كان الثانِي هو الأولُ، والنَّكرة إذا أُعيدت كان الثانِي غيرُ الأوَّل، واليُسر الأوَّل هو اليُسر في الدنيا يعقبُ العسرَ، واليسرُ الثانِي هو اليسرُ في الآخرةِ بالثواب، يقولُ الرجل لصاحبِهِ: إذا اكتسبتَ دِرهماً فأنفِقْ دِرهماً، يريدُ بالثاني غيرَ الأول، فإذا فقالَ: إذا اكتسبتَ دِرهماً فأنفِقِ الدرهمَ، فالثانِي هو الأولُ.

وعن ابنِ مسعود قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ الْعُسْرُ فِي جُحْرٍ لَطَلَبَهُ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ، إنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي إذا فرغتَ من أُمُور الدُّنيا فانصَبْ لِمَا أُمرت به من الإبلاغِ والعبادة. وعن الحسنِ أنه قال: ((فَإذا فَرَغْتَ مِنَ الْجِهَادِ فَانْصَبْ لِلْعِبَادَةِ)) أي اتْعَبْ لَها. وعن عِمرانَ بنِ الحصين أنه قال: ((إذا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلاَةِ فَاتْعَبْ لِلدُّعَاءِ، وَسَلْهُ حَاجَتَكَ، وَارْغَبْ إلَيْهِ))[3]. وقوله (فَانْصَبْ) من النَّصَب والدُّؤْب في العملِ. وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾؛ أي ارفَعْ حوائجَكَ إلى ربكَ، ولا ترفعها إلى أحدٍ من خلقِهِ.

آخر تفسير سورة (**الشرح**) والحمد لله رب العالمين

=وخا بأن يظهرك الله عليهم حتى ينقادوا الخلق) وضبط النص كما في جامع البيان: ج ٣٠ ص٢٩٧ كلام الإمام الطبري: تفسير الآية

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٠٦٩) عن الحسن مرسلاً بأسانيد، و(٢٩٠٧٠) عن قتادة مرسلاً. والحاكم في المستدرك:كتاب التفسير: الحديث(٤٠٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٧١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٧٣) عن ابن عباس.

سُورَةُ وَالتِّين

سُورَةُ وَالتِّينِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي آيَاتٍ[١].

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التِّينِ أعْطَاهُ اللهُ خَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةُ وَالْيَقِينُ مَا دَامَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ قَرَأَهَا صِيَامَ يَوْمٍ][٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾؛ هذا قسَمٌ بربِّ التين والزيتون، وجوابُهُ (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ). وسُئل ابن عباسٍ عن التين والزيتون فقالَ: ((هُوَ تِينُكُمْ هَذا)).

وفي تخصيص التِّين من بين سائر الفواكه أنه ثَمَرُ شجرةٍ مثل الخبيص على مقدار اللُّقمة، ظاهرهُ مثلُ باطنهِ، وباطنهُ مثل ظاهره، لا يخالطهُ قِشْرٌ، ولا نوَى على صفةِ ثمار الجنَّة. والزيتونُ ثمرُ شجرةٍ يُعصَرُ منها الزيتُ بما فيه من الطِّيب، وإصلاحِ الغذاء في أكثرِ الأطعمة مع الاصطباح به والادِّهان به. وعن قتادةَ قال: ((التِّينُ هُوَ دِمَشْقُ، وَالزَّيْتُونُ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ))[٣]، وقال القتيبيُّ: ((هُمَا جَبَلاَنِ بالشَّامِ، يُقَالُ لَهُمَا طُورُ تَيْنَا وَطُورُ زَيْنَا؛ لأَنَّهُمَا يُنْبتَانِهِمَا)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾؛ هو الجبلُ بمَديَنَ الذي كلَّم اللهُ تعالى بها موسى عليه السلام، وسِينِينَ وسيناءَ من أسماءِ ذلك الجبل، وعن السديِّ أنه قال: ((مَعْنَى سِينِينَ الشَّجَرُ)).

---

(١) في تفسير سورة الانشراح قال: (ثمان آيات) وهنا قال: (ثماني آيات) والاستعمالان جائزان. فأثبتناه كما في المخطوط.

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٠٨٨).

ويقال: معناهُ: المباركُ. وعن عكرمةَ: ((أنَّ مَعْنَاهُ الْجَبَلُ فِي الشِّتَاءِ؛ لأَنَّهُ كَثِيرُ النَّبَاتِ وَالأَشْجَارِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾؛ يعني مكَّة؛ لأنَّ أهلَها في أمنٍ من الغارةِ، وكانوا إذا سافرُوا لم يُتعرَّض لَهم لحرمَةِ الحرَمِ، والصيدُ في الحرمِ آمنٌ، ومَن قتلَ قتيلاً، ثم لجأ إلى الحرمِ لم يقتصَّ منه في الحرمِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي في أحسنِ صُورةٍ واعتدال على أحسنِ صورة وهيئَةٍ، وعلى كمالٍ في العقلِ والفهمِ، وذلك أنَّ اللهَ خلقَ كلَّ شيءٍ منكبّاً على وجههِ إلاّ الإنسانَ. وَقِيْلَ: خلقنا الإنسانَ مديدَ القامةِ يتناولُ ما يأكلهُ بيدِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي رددناهُ إلى أرذلِ العمُرِ، وإلى حالِ الهرَمِ وفقْدِ العقلِ بعد الشَّباب والقوَّة. وقال بعضُهم: معناهُ: رددناهُ إلى أسفلِ دركاتِ النار في أقبحِ صُورةٍ.

ثم استثنَى المؤمنين المطيعينَ، فإنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى أسفلِ سَافِلين، ويجوز أنْ يكون هذا استثناءً منقطعاً بمعنى لكن، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؛ أي الطاعاتِ فيما بينهم وبين ربهم، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي ثوابٌ غير مقطوعٍ؛ أي لا ينقطعُ ثوابُهم بموتِهم.

وفي الحديث: [إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا عَمِلَ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ، ثُمَّ مَرِضَ أوْ هَرِمَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَاتِهِ،كَمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ، لاَ يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ][(١)].

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَدُفِنَ فِي قَبْرِهِ قَالَ مَلَكَان: يَا رَب قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ فُلاَنٌ، فَأْذنْ لَنَا أنْ نَصْعَدَ إلَى السَّمَاءِ فَنُسبحَكَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِي يُسَبحُونَنِي، فَيَقُولُونَ: يَا رَب فَأَيْنَ تَأْمُرُنَا ؟ فَيَقُولُ: قُومَا

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٥٨ و٥٥٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أبي موسى الأشعري). وقال: (وأخرجه البخاري أيضاً) في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (٢٩٩٦).

عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَسَبحَانِي وكَبرَانِي وَاحْمَدَانِي وَهَلِّلاَنِي، وَاكْتُبَا ثَوَابَ ذَلِكَ لِعَبْدِي حَتَّى أبْعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي ما يحملك على التكذيب أيُّها الكافرُ بعدَ هذا البيان من الله تعالى بمجازاةِ الله في الآخرة. وَقِيْلَ: معناهُ: ما يكذِّبُكَ أيُّها الإنسانُ بعدَ الصُّورة الحسَنة والشباب، ثم الهرمِ والموت والحساب، أفلا تعتبرُ بحالِكَ لتعلمَ أنَّ الذي خلقَكَ قادرٌ على أنْ يبعثَكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي أليسَ اللهُ بأفضلِ الفاضلين وأعدل العادلين. وكان ﷺ إذا قرأ هذه السُّورةَ قالَ: [بَلَى يَا رَب أنْتَ أحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأنَا عَلَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ][2].

آخر تفسير سورة (**التين**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١١٦ مختصراً وبلفظ قريب منه.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب مقدار الركوع والسجود: الحديث (٨٨٧). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٤٧)، وقال: (هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي، عن أبي هريرة ولا يسمى). أي يروى عن إسماعيل بن أمية قال: سمعت رجلاً بدوياً أعرابياً، يقول: سمعت أبا هريرة يرويه يقول. والحديث أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (٢٩١٤٨) عن قتادة مرسلاً، و(٢٩١٤٩) عن ابن عباس.

سُورَةُ الْعَلَق

سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَتَان وَثَمانُونَ حَرْفاً، وَاثْنَتَان وَتُسْعُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَاهَا أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأ الْمُفَصَّلَ كُلَّهُ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ ؛ قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ((أوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، كَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِبَ إلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بغَار حِرَاءَ فَيَتَعَبَّدُ فِيْهِ حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ.

فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأ، فَقَالَ: [مَا أنَا بقَارِئٍ] قَالَ: [فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى اخَذ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقَالَ لِي: اقْرَأ، فَقُلْتُ: مَا أنَا بقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ كَذلِكَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقَالَ لِي: اقْرَأ، فَقُلْتُ: مَا أنَا بقَارِئٍ، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقَالَ لِي: [اقرأ باسم ربكَ الذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِن عَلَقٍ]. فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: [زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي]، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَأَخْبَرَ خَدِيجَةَ بالْخَبَرِ وَقَالَ: [خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي].

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ إلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا، وَكَانَ امْرءاً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالْعَبْرَانِيَّةِ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ ضَعُفَ بَصَرُهُ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلَ: يَا ابْنَ أخِي مَاذا رَأيْتَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بمَا رَأى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى، فَيَا

(١) تقدم وسيأتي، وهو حديث ضعيف أو موضوع.

لَيْتَنِي أكُونُ حَيّاً حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال ﷺ: [أوَمُخْرِجِيَّ هُـمْ ؟!][(١)] قَـالَ: لَـمْ يَأْتِ أحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْـتَ بـِهِ إلاَّ عُـودِيَ وَأوذِيَ، وَإنْ يُدْرِكْنِـي يَوْمُـكَ أنْصُـرْكَ نَصْـراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ إنَّ وَرَقَةَ لَمْ يُدْرِكْ وَقْتَ الدَّعْوَةِ أنْ تُوُفِّي))[(٢)].

واختلَفُوا في الباءِ في قوله (باسْمِ ربِّكَ) قال بعضُهم: هي زائدةٌ؛ وتقديرهُ: اقـرأ اسمَ ربكَ، كما يقالُ: قرأتُ بسُورةِ كذا. وقال بعضُهم: افتحِ القراءةَ بسمِ الله. وَقِيْـلَ: معناهُ: اقرأ القرآنَ بعَونِ اللهِ وتوفيقه. وقولهُ تعالى (الَّـذِي خَلَـقَ) أي خلقَـكَ. وَقِيْـلَ: خلَقَ الأشياءَ كلَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾، قال بعضُهم: أرادَ بـه آدمَ، خلقَهُ من طينٍ يعلَقُ باليدِ. وقال بعضُهم: الإنسـانُ هـذا اسـم جنسٍ، والعلَـقُ جمعُ العلقَةِ، وهي الدمُ الخاثر المنعقدُ الذي يضربُ إلى السوادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾؛ أي اقـرأ القـرآنَ في صَلاتِـكَ وتبليغِكَ إلى الناسِ وربُّكَ الأعظمُ الذي يعطِي من النِّعَمِ ما لا يقدرُ على مثلهِ غـيرهُ. ويجوزُ أنْ يكون الإكرامُ ههنا أنه تعالى يُعِينهُ على حفظِ القرآن وتبليغـهِ، ويُثِيبـهُ علـى ذلك جزيلَ الثواب. وَقِيْلَ: الأكـرمُ الحليـمُ علـى جـهلِ العبـاد، فـلا يعجِّـلُ عليـهم بالعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾؛ أي الذي علَّـمَ الملائكـةَ مـا في اللوحِ المحفوظ، وأضيفَ إلى القلمِ؛ لأنَّه هو الذي كَتَبَ ما في اللـوحِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: الذي علَّمَ الناسَ علمَ الكتابةَ بالقلمِ، وهو نعمةٌ عظيمة، ولولاَ القلمُ لضاعتِ الحقوقُ ودُرسَت العلومُ واختلَّتْ أمورُ المعايش.

---

(١) سقطت من المخطوط.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي: باب (٣): الحديث (٣). والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٥٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ ؛ أي علَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها. وَقِيْلَ: علَّمَ جميعَ الناس بالقلم من أمر دينهم ما لم يعلَمُوا من قبل. وَقِيلَ: الإنسانُ ههنا مُحَمَّدٌ ﷺ، بيانُهُ ﴿وعلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ ؛ أي حقاً إن الإنسانَ الذي خلقَهُ اللهُ من علَقٍ وتَمَّمَ نعمتَهُ عليه ليطغَى بأنعُمِ اللهِ، ويتكبَّرُ على توحيدِهِ، ومعنى (لَيَطْغَى) لَيتجاوَزَ حدَّهُ، فيستكبر على ربهِ، ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ ، أنْ رأى نفسَهُ مُستغنياً بكثرةِ ماله. رُوي: أنَّ هذه الآيةَ نزَلت في أبي جهلٍ[2]، وكان ﷺ يقولُ: [أعُوذ بكَ مِنْ فقرٍ يُنسِي، وَمِنْ غِنًى يُطْغِي][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾ ؛ فيه تخويفٌ بالرَّجعة إلى الآخرةِ للحساب؛ أي إنَّ إلى ربكَ المرجعَ في الآخرةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾ ؛ نزلت في أبي جهلٍ نهى النبيَّ ﷺ عن الصَّلاة حين فُرضت عليه، وكان يؤذيهِ، ويعبَثُ به حتى يشغله عن الصَّلاة، وكان يهدِّدُ النبيَّ ﷺ وكان يقولُ: إذا رأيتُ مُحَمَّداً يصلِّي توطَّأْتُ عُنقَهُ، وهذه الآيةُ متروكة الجواب، معناهُ: أرأيتَ يا مُحَمَّدُ الذي ينهَى عن الصَّلاةِ لاَ تراهُ يُفْلِحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ ﴾ ؛ معناهُ: أرأيتَ أيُّها الناهِي إنْ كان المنهيُّ عن الصلاةِ على الهدى، ﴿ أَوْ أَمَرَ ﴾ ، الخلقَ، ﴿ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾ ، أكُنتَ تنهاهُ وتعاديه على ذلك. وَقِيْلَ: معناهُ: أرأيتَ - يا مُحَمَّدُ - إنْ كان الناهِي على الهدى، أو أمرَ بالتقوى، أليسَ كان خيراً له.

---

(١) النساء / ١١٣.

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان، وأسنده عن مجاهد وقتادة وابن عباس في الآثار (٢٩١٦٠-٢٩١٦٣).

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٤٤٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: أخـبرني يـا مُحَمَّدُ إن كذبَ أبو جهلٍ بالقرآن، وتولَّى عن الإيمان؛ أي أعرضَ عنـه، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ ، ألَمْ يعلم أبو جهلٍ أنَّ الله يرى صُنعَهُ.

وقولهُ تعـالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ قسَـمٌ مـن اللهِ تعالى: لئِنْ لم يمتنِعْ أبو جهلٍ عن مقالتهِ وصُنعهِ لنأخُذنَّ بمقـدَمِ شـعر رأسـه، ولنـأمُرنَّ بجذبهِ إلى النار، والسَّفْعُ في اللغة: هو الجذبُ الشديد، والعربُ لا تأنَفُ من شيءٍ أنفَها من ذكرِ النَّاصية. وَقِيْلَ: معنى السَّـفْعِ الإحـراقُ، واللَّفْـحُ نظـيرهُ، والمعنـى: لَنُحرِقَـن موضعَ ناصيتهِ، وقال الحسنُ: ((مَعْنَاهُ: لَنَجْمَعَــنَّ نَاصِيَتَـهُ وَقَدَمَيْـهِ)) كمـا قـال تعـالى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ إبدالُ الاقـدام النكرةِ مـن المعرفة، والمراد بالناصيةِ هاهنا صاحبَ الناصيةِ كاذبٌ خاطئ، يـأكلُ رزقَ الله، ويعبدُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ قـال ابـنُ عبَّاس: ((لَمَّا قَالَ أبُو جَهْلٍ لِلنَّبيِّ ﷺ: ألَمْ أنْهكَ عَنِ الصَّلاَةِ، انْتَهَرَهُ النَّبيُّ ﷺ وَأغْلَـظَ لَهُ وَتَهَدَّدَهُ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ: أتُـهَدِّدُني وَأنَـا أكْـبَرُ أهْـلِ الْـوَادِي، وَاللهِ لأَمْـلأَنَّ عَلَيْـكَ الْوَادِي خَيْلاً جُرْداً وَرجَالاً مُرْداً))[٢]، فأنزلَ اللهُ تعالى (فَلْيَدْعُ نَادِيَه، سَـنَدْعُ الزَّبَانِيَـةَ) أي فليدعُ قومَهُ وعشائرَهُ ليعاونوهُ، سندْعُ الزبانيةَ ليأخذوهُ.

والنَّادي في اللغة: المجلسُ، والمراد بالمجلس هاهنـا أهـلُ المجلـس. والزبانيـةُ: هـم الملائكةُ الموكَّلون بتعذيب أهل النار، واحدُهم زَبْنٌ، والزَّبْنُ الدفعُ، يقالُ: زَبَنَتِ الناقـةُ الحالبَةَ إذا ركضَتْهُ برجلِها، قال ﷺ: [لَوْ نَادَى نَادِيَهُ لأَخَذَتْهُ الزَّبَانِيَةُ عَيَاناً][٣].

---

(١) الرحمن / ٤١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٨ و٢٩١٦٩).

وقولهُ تعـالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾؛ هـذا قسَمٌ من اللهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: ليسَ كما يقولُ أبو جهلٍ، لا تُطِعْهُ فيما يأمُركَ به مـن تركِ الصَّلاة، وصلِّ لله واقتربْ إلى رحمتهِ بالسُّجود على رغمِ مَن ينهاكَ عنه.

رُوي[1]: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُصلي بعدَ هذه السُّورة، فأتاهُ أبو جهلٍ ليُؤذيَهُ علـى عادتهِ، فوجدَهُ يقرأ هذه السُّورة، فخافَ وانصرفَ. فقيل له: أخِفْتَهُ؟! وما الذي منعَكَ أن تفعلَ به ما هَمَمـتَ بـه؟قـال: وجـدتُ عنـده حارساً يحرسـهُ، وسَـمعتهُ يـهدِّدُني بالزَّبانية، أما الحارسُ فهو فحلٌ أهوَى إلَيَّ أرادَ أن يـأكُلَني، واللهِ مـا أدري مـا زَبانِيَتـهُ فهربتُ[2].

آخر تفسير سورة (**العلـق**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في المخطوط: (فرُوي).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩١٦٧).

سُورَةُ (الْقَــدْرِ)

سُورَةُ الْقَدْر مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَا عَشَرَ حَرْفاً، وَثَلاثُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَـاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا صَامَ رَمَضَانَ، وَأَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّا أنزلنـا القـرآنَ في ليلة القدر، والهاءُ في قوله (أَنْزَلْنَاهُ) كنايةٌ عن المضمَـرِ المذكـور في السُّورة الـتي قبـلَ هـذه السُّورة، وهو القرآنُ، فإنه تقدَّمَ في أوَّلها ﴿اقْرَأْ﴾؛ أي اقـرأ القـرآنَ. ويجـوزُ أن يكـون معناهُ: إنَّا أنزلنا جبريلَ بهذا القرآنِ في ليلةِ القدر في شهرِ رمَضان.

وذلك أنَّ القرآنَ أُنزلَ جُملةً واحدةً إلى السَّماء الدُّنيا إلى الكَتَبَةِ، ثم أُنـزل بعـدَ ذلك نُجوماً في عشرين سَنَة - وَقِيْلَ: ثلاثٍ وعشرين -. وسُـميت هـذه الليلـةُ ليلـةَ القدرِ؛ لأنَّها ليلة الحكمِ والقضاء، يقدِّرُ الله فيها كلَّ شيءٍ يكون في السَّـنة إلى السَّـنة، ومعنى تقديرِهِ: أنْ يأمُرَ الملائكةَ أنْ يكتبوهُ ويقرأوه.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ ﴾ ؛ تعجُّــبٌ وتعظيـمٌ لحرمَتها؛ أي ما أعلمكَ يا مُحَمَّدُ ما شرفُ هـذه الليلـةِ لـولا أنَّ اللهَ أعلمَـكَ بذلـك، ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾ ؛ أي العملُ فيها خيرٌ مـن العمـلِ في ألفِ شهر، وعلى هذا قالُوا: إنَّ مَنْ صلَّى فيها رَكعتين كان له ثوابُ من صلَّـى ليـالي ألفَ شهرٍ ركعَتين، بل ثوابُ هاتَين الركعتين أكثرُ من ثواب تلك الصلاةِ كلِّها.

وسببُ نزول هذه السورة: أنَّ رسولَ الله ﷺ ذكرَ يوماً لأصحابـهِ: [أنَّ أرْبَعَـةً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَهُمْ: أيُّوبُ وزكريَّا وحِزْقِيلُ ويُوشَعُ بْنُ نُونٍ عَبَدُوا اللهَ ثَمَـانِينَ سَـنَةً

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٤٧.

لَمْ يَعْصُوهُ فِيهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ]، فتعجَّبَ أصحابُ النبيِّ ﷺ من ذلك، فأتى جبريلُ فقالَ له: عجِبَتْ أمَّتُكَ من عبادةِ هؤلاء النَّفر ثمانين سَنة لم يعصُوا اللهَ فيها طرفةَ عينٍ، فقد أنزلَ الله عليكَ خيراً منه، ثم قرأ (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...) إلى آخرها، وقالَ: هذا أفضلُ مما عجِبتَ منه أنتَ وأمَّتك، فسُرَّتِ الصحابةُ بذلك(١).

ورُوِي: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ حَمَلَ السِّلاَحَ عَلَى عَاتِقِهِ فِي سبيلِ الله ألفَ شهرٍ، فعجبَ المسلمون من ذلك عَجباً شَديداً، وتمنَّى النبيُّ ﷺ أنَّ يكونَ مثلُهُ في أمَّته، فأعطاهُ الله ليلةَ القدر(٢).

واختلَفُوا في وقتِها؛ فقال بعضُهم: كانتْ على عهدِ رسول الله ﷺ ثم رُفعت، والصحيحُ: أنَّها لم تُرفع وأنَّها إلى يوم القيامة، لِمَا رُوي عنِ النبيِّ ﷺ قِيلَ لَهُ: هَلْ رُفِعَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: [بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ](٣). عن عبدِالله بن حسن قال: قلتُ لأبي هريرة ﵁: زعَمُوا أنَّ ليلةَ القدر قد رُفعت، قال: ((كَذبَ مَنْ قَالَ)) قُلْتُ: أهيَ كلَّ شهرِ رمضان؟ قال: ((نَعَمْ))(٤).

وقال بعضُهم: هي في ليالِي السَّنة كلِّها، وأنَّ مَن علَّقَ طلاقَ امرأتِهِ أو عتقَ عبدِه بليلة القدر لم يقع شيءٌ من ذلك إلى مُضي سَنة من يومِ حلفِهِ. والجمهورُ من العلماءِ: أنَّها في شهر رمضان في كلِّ عامٍ. وسُئل الحسنُ عن ليلةِ القدر فقالَ ((وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؛ إِنَّهَا فِي كُلِّ رَمَضَانَ))(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير: ج ٢٠ ص٣٤٥٢: الحديث (١٩٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٢٠ ص٣٤٥٢: الأثر (١٩٤٢٥). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الصيام: في فضل ليلة القدر: الأثر(٣٦٧١) عن أبي ذر ﵁.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩١٨٧) من حديث ابن عمر ﵄.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩١٨٦).

واختلفُوا في أيِّ ليلةٍ هي، فقال أبو رَزين العُقَيلي: ((هِـيَ أوَّلُ لَيْلَـةٍ فِـي شَـهْرِ رَمَضَانَ))[(١)]، وقالَ الحسنُ: ((هِيَ لَيْلَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ، وَهِيَ اللَّيْلَـةُ الَّتِي كَـانَتْ صَبِيحَةَ وَقْعَةِ بَدْرٍ)).

والصحيحُ: أنَّها في العشرِ الأواخرِ من رَمضان، وقال أبو سعيدٍ الخدري: ((هِيَ لَيْلَةُ إحْدَى وَعِشْرِينَ))[(٢)]، وعن أُبَيِّ بـن كعبٍ قـالَ عـن رسـولِ الله ﷺ أنَّـهُ قـالَ: [تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنْ كُلِّ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ][(٣)].

ورُوي أن عمرَ قال لابنِ عبَّاس: ((أخْبِرْنِي برأيكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. فقالَ: إنَّ اللهَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ، السَّمَوَاتُ سَبْعٌ؛ وَالأَرْضُونَ سَبْعٌ؛ وَالطَّوَافُ سَبْعٌ؛ وَالرَّمْـيُ لِلْجِمَـارِ سَبْعٌ، فَلاَ أرَاهَا إلاَّ فِي سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ)).

قال: ((وَعَدَدُ حُرُوفِ سُورَةِ الْقَدْرِ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (سَلاَمٌ) هِيَ سَبْعٌ وَعُشْرُونَ، فَيَجِبُ أنْ تَكُونَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ))، وأرادَ بالحرفِ الكلمةَ، فقالَ له عمـرُ: ((وَافَـقَ رَأيِي رَأيَكَ. ثم ضربَ على منكبِهِ فقالَ: مَا أنْتَ بأقَلِّ الْقَوْمِ عِلْماً))[(٤)].

وعن ابنِ عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قال رسولُ الله ﷺ في ليلـةِ القـدرِ: [مَـنْ كَانَ مُتَحَرِّياً فَلْيَتَحَرَّهَا فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ][(٥)]. وعن أُبي بن كعـبٍ قـالَ: سمعتُ

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٣٥.

(٢) لم يذكر الشاهد على قوله وأضمره، وهو ضمن حديث أبي سعيد ﷺ، أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الصيام: باب فضل ليلة القدر: الحديث (٢١٣/ ١١٦٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب الصوم: باب الاعتكـاف في المساجد: الحديث (٣٦٩٠) بإسناد صحيح.

(٤) بمعنى هذا النص في الدر المنثـور: ج ٨ ص٥٧٦-٥٧٨؛ قـال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن راهويه ومحمد بن نصر والطبراني والبيهقي من طريـق عكرمـة عـن ابـن عبـاس)، وقـال: (وأخرجه ابن سعد وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﷺ) وقال: (أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس).

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٧٨؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد عـن ابـن عمـر رضـي الله عنهما) وذكره.

رسولَ الله ﷺ بأُذُنَيَّ وإلاَّ فصُمَّتَا: [أنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ][1].

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: ((إنَّهُ قَسَّمَ كَلِمَات هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى عَدَدِ لَيَالِي رَمَضَانَ، فَلَمَّا بَلَغَ إلَى السَّابعَةَ وَالْعِشْرِينَ أشَارَ إلَيْهَا فَقَالَ: هِيَ))[2]. وقال بعضُهم: هي ليلةُ إحْدَى وعشرين.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ السَّابعِ وَالْعِشْرِينَ أو التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ، وَأنَّ الْمَلاَئِكَةَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بعَدَدِ الْحَصَى][3]. وعن رسول الله ﷺ: [فِي اللَّيْلَةِ مِنْ عَلاَمَتِهَا أنَّهَا لَيْلَةٌ سَمِحَةٌ لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَاردَةٌ، تَطْلُعُ الشَّمْسُ صَبيحَتَهَا لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ][4].

وقال بعضُهم: إنَّ من علامتِها أنَّ ماءَ البحرِ فيها يكون عَذباً سَلِساً!

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبيِّ ﷺ إذا أدْرَكْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا أقُولُ؟ قَالَ: [قُولِي: اللَّهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي][5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ ؛ أي تَنزلُ ملائكةُ السَّموات السبعِ إلى السَّماء الدُّنيا وجبريلُ معهم، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أمَرَهم اللهُ به في تلك الليلةِ.

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان: الحديث (٣٦٩١) بإسناد حسن.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٠٥.

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه الطيالسي وأحمد وابن مردويه عن أبي هريرة).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨١؛ قال السيوطي: (أخرجه الطيالسي ومحمد بن نصر والبيهقي وضعفه عن ابن عباس).

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٥٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة ومحمد بن نصر) وذكره. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٧١ و١٨٣. والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٥١٣)، وقال: حديث حسن صحيح.

وقد يقامُ حرفٌ من مقامِ الباء، كما في قولهِ تعالى ﴿يَحْفَظُونَـهُ مِـنْ أَمْـرِ اللهِ﴾[1] معناهُ: أي بأمرِ الله، فكذلكَ معنى (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) أي بكُلِّ أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ تعالى في تلـك الليلةِ إلى مثلِها من السَّنة القابلة. ويقال: إنَّ الملائكةَ ينْزلون إلى الدُّنيا في تلك الليلـة، ويسلِّمون على المؤمنينِ على كلِّ قائمٍ وراكع وساجد إلى طُلوع الفجرِ.

قرأ طلحةُ بن مُصَرِّف (تُنْزَلُ الْمَلاَئِكَةُ) مخفَّفاً[2]. والمرادُ بالرُّوح جبريلُ في قـول أكثر المفسِّرين، وقال مقاتلُ: ((الرُّوحُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، لاَ تَرَاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إلاَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، يَنْزِلُونَ مِنْ غُرُوب الشَّمْسِ إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ)). وَقِيْلَ: هو ملَكٌ عظيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ ؛ تمامُ الكلامِ عند قولهِ تعالى (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ)، ثم ابتدأ فقالَ: (سَلاَمٌ هِيَ) أي ليلةُ القدر، سلامةٌ هيَ؛ أي خيرٌ كلُّها ليس فيها شرٌّ، قـال الضحَّاك: ((لاَ يُقَدِّرُ اللهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ السَّلاَمَةَ، فَأَمَّا اللَّيَالِي غَيْرَهَا فَيَقْضِي فِيـهِنَّ الْبَلاَءَ وَالسَّلاَمَةَ)). قال مجاهدُ: ((هِيَ سَالِمَةٌ لاَ يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أنْ يَعْمَلَ فِيـهَا شَـرّاً ولاَ أذًى)). وقال الشعبيُّ: ((هُوَ تَسْلِيمُ الْمَلاَئِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَىأهْـلِ الْمَسَـاجِدِ مِـنْ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ إلَى أنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ)).

وفي قراءةِ ابنِ عبَّاس (مِنْ كُلِّ أمْرٍ سَلاَمٌ) معنـاهُ: مِـن كـلِّ ملَـك سـلامٌ علـى المؤمنِين في هذه الليلة، وَقِيْلَ: على هذه القراءة أيضاً أن (مِنْ) بمعنى (على)؛ تقديـرهُ: على كلِّ امرئ من المسلمين سلامٌ من الملائكةِ، ونظيرهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَنَصَرْنَـاهُ مِـنَ الْقَوْمِ﴾[3] أي على القوم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي إلى مطلعِ الفجر، و(حتَّى) حرفُ غايةٍ، قرأ الأعمشُ والكسـائي وخلـف (مَطْلِـع) بكسـرِ الـلام، وقـرأ البـاقون بفتحها وهو الاختيارُ؛ لأن المطلَع بفتحِ اللام بمعنى الطُّلـوع، يقـالُ: طلَعـت الشـمسُ

---

(١) الرعد / ١١ .

(٢) في الجامع لأحكام القـرآن: ج ٢٠ ص١٣٤؛ قـال القرطـبي: (وقـرأ طلحـة بـن مُصَـرِّف وابـن السميقع، بضم التاء على الفعل المجهول).

(٣) الأنبياء / ٧٧ . .

طُلوعاً ومَطْلَعاً، وأما المطلِعُ بكسر اللام، فإنه موضعُ الطُّلوع، ولاَ معنى للاسمِ ها هنا.

والحكمةُ في إخفاءِ ليلة القدر على العبادِ: أنَّهم لو عَرفوها لقصدُوها بالعبادةِ، وأهملوا في سائرِ الليالِي، وإذا لم يعرِفوها بعينها عبَدُوا اللهَ في جميع ليالِي شهرِ رمضانَ رجاءَ أن يُدركوها.

آخر تفسير سورة (**القدر**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ لَمْ يَكُن

سُورَةُ (لَمْ يَكُنِ) مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَأرْبَعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِ آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [لَوْ يَعْلَم النَّاسُ مَا فِي (لَمْ يَكُن) لَعَطَّلُوا الأَهْلَ وَالْمَالَ وَتَعَلَّمُوهَا، لاَ يَقْرَأهَا مُنَافِقٌ أَبَداً، وَإنَّ الْمَلاَئِكَةَ الْمُقَرَّبُونَ لَيَقْرَأوهَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لاَ يَفْتُرُونَ عَنْ قِرَاءَتِهَا. وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَقْرَأهَا فِي لَيْلٍ إلاَّ بَعَثَ اللهُ مَلاَئِكَةً يَحْفَظُونَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَدْعُونَ لَهُ بالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَإنْ قَرَأهَا نَهَاراً أعْطِيَ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلَ مَا أضَاءَ عَلَيْهِ النَّهَارُ وَأظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ][1]. وقال ﷺ: [مَنْ قَرَأ (لَمْ يَكُنِ) كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَيِّتاً وَمُقْبلاً].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ؛ وهم اليهودُ والنصارى، ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ وهم عَبدةُ الأوثانِ، ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ ؛ أي مُنتهين عن كُفرِهم وشِركهم، وَقِيلَ: لم يكونوا زائلين، ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ الواضحةُ، وهي مُحَمَّدٌ ﷺ أتاهُمْ بالقرآن، فبيَّن ضلالتَهم وجهالتَهم ثم دعاهُم.

ثم فسَّرَ البيِّنة فقال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ ؛ من الباطلِ والتناقُض، ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مستقيمةٌ عادلة، ومعنى قولهِ تعالى (رَسُولٌ مِنَ اللهِ) يعني مُحَمَّداً ﷺ (يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً) أي يقرأ عليهم ما

---

(١) في أحكام القرآن: ج ٤ ص١٩٦٩؛ قال ابن العربي: (وهذا حديث باطل، وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ قال لأبيٍّ بن كعبٍ: [إنَّ اللهَ قَدْ أمَرَنِي أنْ أقْرَأ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾] قال: وَسَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: [نعَمْ]، فَبَكَى).

تضمَّنَتْهُ الصُّحفُ المطهَّرَةُ من المكتوب، سُـمِّيت مطـهَّرةً؛ لأنَّـها مطـهَّرةٌ مـن البـاطلِ والتناقض، ولا يَمسُّها إلاّ المطهَّرون من الأنجاسِ وهم الملائكـةُ، وأرادَ بـها الصُّحـف التي في أيدِيهم كما قال ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾(١)، في تلك الصُّحف (كُتُبٌ قَيِّمَـةٌ) أي مستقيمةٌ في جهة الصَّواب، لا تؤدِّي إلى اعوجاجٍ، ولا تدلُّ إلاّ على الحقِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾؛ فيه تقريعٌ لليهودِ والنصارى، فإنَّهم ما اختلفُوا في أمر النبيِّ ﷺ إلاَّ من بعدِ ما جاءَهم النبيُّ ﷺ بالقرآنِ والمعجزات، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾؛ أي ما أمر هؤلاءِ الذين سبقَ ذِكرُهم من اليهودِ والمشركين في جميعِ كُتب اللهِ إلاَّ أنْ يعبُدوا اللهَ، ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ في دينِهم؛ ﴿ حُنَفَآءَ ﴾؛ مائلين عن كلِّ دينٍ سِوَى الإسلام؛ وَ أنْ: ﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ بحقوقِـها في مواقيتِـها، وَ أنْ: ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ﴾؛ يُعطوا: ﴿ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾؛ المفروضـةَ، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ﴾؛ اللهِ ﴿ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾؛ أي المستقيمةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾؛ أي شرُّ خليقـةٍ، ومنـه بَـرَئَ اللهُ، والبرْئَةُ بالهمزِ هم الخليقةُ، ومنه بَرَأَ اللهُ الخلقَ، ومنه البارئ بمعنى الخالقُ. ومن قرأ بغيرِ الهمزِ كأنه تركَ الهمزَ على وجهِ التخفيف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾؛ أي خيرُ الخليقـةِ، ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴾؛ أي بساتين إقامةٍ، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾؛ الأربعةُ، ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾؛ بإيمانِهم، ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾؛ بالثَّواب الذي أكرمَهم اللهُ بـه، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾؛ بامتثالِ أوامره، واجتناب معاصيه.

آخر تفسير سورة (**البينة**) والحمد لله رب العالمين

(١) عبس / ١٥-١٦ .

سُورَةُ الزَّلْزَلَـةِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَأرْبَعُونَ حَرْفاً، وَخَمْسٌ وَثَلاثُون كَلِمَةً، وَثَمَان آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا أرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ قَرَأ الْقُرْآنَ كُلَّهُ][1]. وَقَالَ: [(إذا زُلْزِلَتْ) تَعْدُلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، وَ(قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ) تَعْدُلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَ(قُلْ يَا أيُّهَا الْكَافِرُونَ) تَعْدُلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ][2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئل عن قيامِ السَّاعة متى يكونُ، فأنزلت هذه السُّورة لبيان أشراطِها وصفاتِها. والزَّلْزَلَةُ هي الحركةُ الشديدةُ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إذا رُجَّتِ الأرْضُ رَجّاً﴾[3]، وذلك أنَّ الأرضَ تحركُ يومئذ حركةً شديدةً حتى يتقطَّعَ جميعُ ما فيها من بناءٍ وجبلٍ وشجرٍ، حتى يدخلَ فيها كلُّ ما على وجهها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لفظَتِ الأرضُ عند ذلك ما فيها من الأمواتِ والأموالِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَألْقَتْ مَا فِيهَا

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٧٨٥؛ وقال: (أخرجه الثعلبي من حديث بإسناد أهل البيت).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: كتاب فضائل القرآن: الحديث (٢٨٩٣)، وقال: حديث غريب.

(٣) الواقعة / ٤ .

وَتَخَلَّتْ﴾[١]. وفائدةُ إلقاءِ الكُنوز وإظهارها أنْ تتحسَّرَ عليها نفوسُ الذين كنَزوها، وأنْ يُعذَّبُوا بها، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾؛ الإنسانُ هاهنا اسمُ جنسٍ أريد به الذين يخرُجون من جوفِها، يقولُ كلٌّ منهم ما للأرض وما حالُها؟ ولأيِّ شيء زلْزالُها؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾؛ أي يومئذٍ تخبرُ الأرض بما عُمِلَ على ظهرِها من خيرٍ، أو شرٌّ عبرةً للمتفكِّر فيها، تقولُ في المؤمن: صلَّى عَلَيَّ وحجَّ وصامَ، فيفرحُ المؤمنُ، وتقولُ في الكافر: أشركَ عليَّ وسرقَ وزنا وشربَ الخمرَ، فيحزنُ، وذلك الإخبارُ بأنَّ اللهَ ألهمَها وأنطقَها، كما أنطقَ اللهُ الجوارحَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾؛ أي أذِنَ لها وأمرَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾؛ أي يصدُرون من قبورهم متفرِّقين إلى أرضِ المحشر فِرَقاً فرقاً أهلُ كلِّ دينٍ على حِدَةٍ، فيُسار بهم إلى موضعِ الحساب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾؛ من كتُبهم التي تسجِّلُ[٣] أعمالَهم فيها. وَقِيْلَ: يرجِعون من موضعِ الحساب متفرِّقين ليُرَوا جزاءَ أعمالِهم، فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾؛ اختلفُوا في مثقالِ الذرَّة، قال بعضُهم: هو ما يقعُ في الكون من شعاع الشمس من الهباء[٤]، وقال بعضُهم: هي النملةُ الحمراء الصغيرة[٥]، وذلك أنَّ قوماً كانوا لا يرون أنَّهم يُؤجَرون على قليلٍ من الخير، ولا يُعاقَبون على قليلٍ من الشرِّ، فأنزلَ اللهُ هذه، وحثَّهم على كلِّ خيرٍ قلَّ أو كثُرَ،

(١) الانشقاق / ٤ .
(٢) التوبة / ٣٥ .
(٣) في المخطوط: (يستحب).
(٤) الهبوبة: الريحُ تثير الغَبَرَةَ.
(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٣٠) من تفسير ابن عباس وابن سنان وابن وهب ويزيد بن هارون.

وحذرَهم من كلّ شرٍّ قلّ أو كثُر، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قـالَ: [اتَّقُـوا النَّـارَ وَلَـوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإنْ لَمْ تَجِدُوا فِبكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ][(1)].

آخر تفسير سورة (**الزلزلــة**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير: ج ١٧ ص٧٨: الحديـث (١٩١-١٩٥) بإسـناد صحيـح. وأحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥٦ وغيرها. والبخاري في الصحيح: كتاب الزكاة: باب اتقـوا النـار ولو بشق تمرة: الحديث (١٤١٧).

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَلاَثَةٌ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ بَاتَ بِالْمُزْدَلِفَةِ وَشَهِدَ جَمْعاً][1]، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾؛ أقسمَ اللهُ تعالى بالخيولِ العادياتِ في سَبيلهِ إكراماً للغُزاة، ولله أن يُقسِمَ بما شاءَ من خلقهِ، وليس لنا أن نُقسِمَ إلاّ بهِ. والضَّبْحُ حَمْحَمَةُ الخيلِ، وما يُسمع من أصواتِ أنفاسِها إذا عَدَتْ[2].

وعن عليٍّ ﷺ: ((أنَّ الْمُرَادَ بِالْعَادِيَاتِ الذاهِبَةَ إِلَى الْعَدُوِّ، يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ مُعَدّاً يَوْمَئِذٍ إلاَّ فَرَسٌ وَاحِدٌ رَكِبَهَا الْمِقْدَادُ))[3]. وانتصبَ قولُهُ (ضَبْحاً) على المصدر تقديرهُ: والعادياتِ تَضْبَحُ ضَبحاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ ﴾؛ أي فالْمُظهِرَاتِ بسَنابكها النارَ بوطئِها بنعالها للحجارةِ، وبضربها الحصَى بعضَها ببعضٍ كنار القادح، والقَدْحُ والإِيْرَاءُ بمعنى واحدٍ، وتقديرهُ: فالقادحاتِ قَدحاً.

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي في الوسيط وابن مردويه. عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف: ج ٤ ص٢٦٧ إليهما وهو حديث موضوع، وتقدم الكلام فيه وسيأتي.

(٢) في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٤٧) أسند الطبري عن علي ﷺ قال: (الضَّبْحُ مِنَ الْخَيْلِ: الْحَمْحَمَةُ، وَمِنَ الإبلِ النَّفَسُ).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٥٥ ذكر القرطبي: (قال الشعبي: تمارى علي وابن عباس).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾؛ يعني الخيلَ تُغِيرُ عند الصُّبح في سبيلِ الله، أضافَ الإغارةَ إليها وأرادَ بذلك ركَّابَها، وذلك أنَّهم كانوا يَسِيرُون إلى العدوِّ ليلاً ويأتوهم صُبحاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾؛ أي هجَمت بالمكان الذي انتهت إليه غُباراً. وإنما لم يذكر المكان؛ لأن في الكلام دَليلاً عليه، وذلك أن إثارةَ الغُبار لا يكون إلاّ بمكان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾؛ أي دخَلن في ذلك المكانِ في وسطِ جمعِ المشركين للإغارةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾؛ هذا جوابُ القسَمِ هاهنا، والإنسانُ عبارةٌ عن جنسِ الناس، وَقِيْلَ: المرادُ به الكافرُ، والكَنُودُ هو الكافرُ، الذي [يَمْنَعُ رِفْدَهُ، وَيَأْكُلُ وَحْدَهُ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ][(١)] وهكذا قال النبيُّ ﷺ، وقال الكلبيُّ: ((الْكَنُودُ بِلِسَانِ مِعَدٍّ: العاصِ))، وبلسان مضر وربيعة وقضاعة: الكفورُ، وبلسان بني مالك: البخيلُ. وقال الحسن: ((يَعُدُّ الْمَصَائِبَ، وَيَنْسَى النِّعَمَ))[(٢)] وقال عطاءُ: ((الْكَنُودُ الَّذِي لاَ خَيْرَ فِيْهِ)). والأرضُ الكنُود الذي لا تُنبتُ ثانياً، وَقِيْلَ: هو الحقودُ الحسود.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّ اللهَ على صُنع هذا الكنودِ وكُفرانهِ لنِعَمِهِ لشهيدٌ يُحصِي عليه أعمالَهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ الإنسانَ على نفسهِ لشهيدٌ، يشهدُ بذلك حالهُ في بُخلهِ، وإعراضهِ عما يجبُ عليه، فالهاء على هذا القولِ راجعةٌ للإنسان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٢٨٦) عن أبي أمامة. وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٦٠٣؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب والحكيم الترمذي وابن مردويه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٨٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾؛ الضميرُ عائدٌ على الإنسان، معناهُ: إنَّ الإنسانَ في حقِّه، ويقالُ في معناه: وإنَّه لِحُبه المالَ لبخيلٌ، ويقالُ: رجل شديدٌ إذا كان بَخيلاً.

قال ابنُ زيد: ((سُمِّيَ الْمَالُ خَيْراً وَعَسَى أنْ يَكُونَ خَبيثاً وَحَرَاماً، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ خَيْراً، وَسَمَّى الْمَالَ خَيْراً، وَسَمَّى الْجِهَادَ سُوءً، فقال ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[1]))[2] أي فقالَ وليس هو عندَ الله سوءٌ ولكن يسمُّونه سوءً. ومعنى الآيةِ شأنهُ من أجلِ حب المال الشديد بخيلٌ، ويقال للبخيلِ: شديدٌ ومتشدِّدٌ، قال طَرفة:

أرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ[3] الرِّجَالَ وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

والفاحشُ البخيل، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾[4] أي بالبُخلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾؛ معناهُ: أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ إذا بُعث الموتى من قبورهم، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾، أي وأظهرَ ما في صُدورهم من الخيرِ والشرِّ والسَّخاء والبُخل، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي عالِمٌ يعلمُ ما أسَرُّوه وما أعلنوه، ويجازيهم على أعمالهم.

ولولا دخولُ اللام في جواب (إنَّ) لجاءت مفتوحةً لوقوعِ العلم عليها، ولكنْ لما دخَلت اللامُ كُسرت (إنَّ) على عادةِ العرب، كما في قولِهِ تعالى ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾[5].

---

(١) آل عمران / ١٧٤ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٢٩١). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٦٢ بلفظه.

(٣) يقالُ: اعْتَامَهُ وَاعْتَمَاهُ؛ أي اختارَهُ.

(٤) البقرة / ٢٦٨ .

(٥) المنافقون / ١ .

ويحكى: أنَّ الحجاجَ غلطَ في قراءةِ هذه السُّورة فقالَ (أنَّ رَبَّهُمْ) بالفتحِ، واستدركَ الغلطَ من جهةِ العربية وحذفَ اللام فقالَ: (خَبيرٌ) فالتفتَ الحسن إلى أصحابهِ وقالَ: ((ألاَ تَنْظُرُونَ إِلَى عَدُوِّ اللهِ يُغَيِّرُ كِتَابَ اللهِ لِيُقَوِّمَ لِسَانَهُ!))[1].

آخر تفسير سورة (**العاديات**) والحمد لله رب العالمين

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٦٣؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو السَّمَّال (أنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبيرٌ). وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٤٦٨؛ قال ابن عادل الحنبلي: (ويحكى عن الحجاج أنه لما فتح همزة (أن) استدرك على نفسه، وتعمد سقوط اللام، وهذا إن صحَّ كفرٌ، ولا يقال: إنه قراءة ثابتة، كما نقل عن أبي السمال فلا يكفر. لأنه لو قرأها كذلك ناقلاً لها لم يمنع منه، ولكنه أسقط اللام عمداً إصلاحاً للسانه، واجتمعت الأمة على أن من زاد حرفاً، أو نقص حرفاً من القرآن عمداً فهو كافر). وقال: (قال شهاب الدين: ولا يحفظ عن الحجاج إلا هذا الأثر السوء، والناس ينقلونه عنه كذلك، وهو أقل من أن ينقل عنه).

سُورَةُ الْقَارِعَـةِ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَاثْنَان وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَسِتٌّ وَثَلاثُونَ كَلِمَـةً، وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا ثَقَّلَ اللهُ مَوَازِينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾؛ القارعةُ من أسماءِ القيامة، سُميت بذلك؛ لأنَّـها تقرعُ القلوبَ بالأهوالِ والأفزاعِ. والمعنى: ستأتيكَ القارعةُ، ويقال: إنَّ القارعـةَ هـي الصيحـةُ العظيمـة، وقولـهُ تعـالى: ﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾، تفخيـمٌ لأمـرِ القيامـة، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، تقديرهُ: القارعةُ ما هي؟ وأيُّ شـيء هـي؟ وما أعلَمَك ما هي لو لَمْ أعلِمْكَ؟ وهذا كما يقال: وأيُّ فقيهٍ؟

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾؛ معناهُ: يوم يَمُوجُ الناسُ بعضُهم في بعضٍ حين يُخرَجون من قبورهم، كالجرادِ الكثـير المتفرِّق الذي يدخلُ بعضهُ في بعضٍ، ويركبُ بعضهُ بعضاً يعني الغوغاءَ، وهي صغـارُ الجرادِ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾[2] وسُـمي الجرادُ فَرَاشاً؛ لأنه يتفرشُ حين يتفرَّقُ، ويقالُ: الفراشُ ما يطير حولَ السِّراجِ من البَقِّ ونحوهِ، وإنما شبَّهَ الناسَ يومئذ بالفراشِ؛ لأنَّهم يذهَبون في ذلك اليومِ على وُجوهِـهم لا يدرون من أينَ يجيئون، ولا أين يذهَبون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾؛ معناهُ: تصيرُ في ذلك اليومِ بعدَ القوَّة والشدة كالصُّوف، والمنفوشُ: المنـدوفُ، وذلـك أوهَى ما يكون من الصُّوف.

---

(١) هو بعض الحديث في فضائل السور عن أبي، بإسناد واه.

(٢) القمر / ٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾؛ يعني بالطَّاعات والحسناتِ، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾؛ أي ذاتِ رضىً يرضَاها الله، وَقِيْلَ: معنى (رَاضِيَةٍ) أي مَرْضِيَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾؛ أي خفَّت من الأعمال الصالحة فمسكَنُهُ ومأواهُ الهاويةُ، يأوي إليها، كما يأوي الولدُ إلى أمه. وَقِيْلَ: يَهوِي على أمِّ رأسهِ في النار دَركَةً من دركاتِ النار.

واختلَفُوا في كيفيَّة وزن الأعمال، فقال بعضُهم: تُوزَنُ صحائفُ الحسَنات في كفَّة، وصحائفُ السيِّئات في كَفَّة. وقال بعضُهم: يخلقُ الله من الحسَناتِ نوراً يكون علامةً للحسناتِ، فتوضعُ في كفَّة الحسناتِ، ويخلقُ من السيِّئات ظُلمةً تكون علامةً للسيِّئات، فتوضعُ في كفَّة السيِّئات.

واختلَفُوا فيمَنْ يزنُ الميزانَ، قال بعضُهم: يتولاَّهُ ملَكٌ من الملائكةِ موكَّلٌ بالموازين. وقال بعضُهم: يتولاَّهُ جبريلُ فيَقِفُ بين الكفَّتين ويزنُ الأعمالَ، فمَن رجَحت حسناتهُ على سيِّئاته نادَى بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ: الآنَ فلانُ بنُ فلان، سَعِدَ سعادةً لا شقاءَ بعدَها أبداً، ومَن رجَحتْ سيِّئاتهُ على حسناتهِ نادَى الملَكُ بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ: الآنَ فلانُ بنُ فلانٍ، شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾؛ أي ما أعلَمَك- يا مُحَمَّدُ- ما الهاويةُ لو لَمْ أُعلِمْكَ؟ وهذه الهاءُ تسمى هاء السَّكْتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾؛ تفسيرٌ للهاويةِ؛ ومعناهُ: نارٌ قد تناهَتْ حرارَتُها منتهاها.

ويُروى: ((أنَّ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ كَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ قَطَعَتْهُ الْعَبْرَةُ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، فَفَارَقَ الدُّنْيَا وَمَا خَتَمَهَا)).

آخر تفسير سورة (**القارعــة**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ التَّكَاثُر

سُورَةُ التَّكَاثُرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَثَمَان وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَثَمَانِي آياتٍ[١]. قال ﷺ: [مَنْ قَرَاهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ بالنَّعِيمِ الَّذِي انْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَاعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ][٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾ ؛ أي شغلَتْكم المباهاةُ والمفاخرَةُ بكثرةِ المال والعدد عن طاعةِ ربكم حتى مِتُّمْ ودُفِنتُم في المقابر قبلَ أنْ تَتوبُوا، ويقالُ لِمَن مات: زارَ حُفرتَهُ، وتوَسَّدَ لَحْدَهُ. هذا خطابٌ لِمَن حرصَ على الدُّنيا وجَمَعَ أموالها وهو يريدُ التكاثُرَ والتفاخر بها.

وَقِيْلَ: إنَّ هذه السُّورةَ نزلت في حَيَّيْنِ من قُريش؛ أحدُهما: بنو عبدِ مَناف، والآخرُ: بنو سَهْمٍ، فعَدُّوا أيُّهم أكثرَ، فكثَّرهم بنو عبدِ مناف، فقال بنو سهمٍ: إنما أهلَكَنا البغيُ في الجاهليَّة، فعُدُّوا أمواتَنا وأمواتَكم وأحياءَنا وأحياءَكم، فتعادُّوا فكثَّرهم بنو سهمٍ، فأنزلَ اللهُ هذه السورة تَهديداً لهم. والمعنى: شغَلَكم التفاخرُ بالأنساب والمناقب عن توحيدِ الله حتى عدَدتُم الموتَى في المقابر.

ثم زادَ في وعيدهم فقال: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ ؛ أي حقّاً سوفَ تعلمون ماذا تَلقَون من العذاب عند الموت وفي القبر، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ ، أي ثم حقّاً سوف تعلَمُون ماذا تَلقَون في الآخرةِ من عذابها، ولا

---

(١) (وثماني آيات) سقطت من المخطوط.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٤ ص٧٨٦ وإسناده ضعيف.

بدَّ أن يكون المرادُ بهذا الثاني غيرَ المرادِ الأول، وكيف يكون هذا تِكرَاراً، وقد دخل بينهما حرفُ (ثُمَّ) التي هي للتراخي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾ ؛ قال بعضُهم: جوابُ هذا محذوفٌ؛ أي حقّاً لو علِمتُم ماذا ينْزِلُ بكم في الآخرةِ علمَ اليقينِ لَمَا تفاخَرتُم في الدُّنيا، وما ألْهاكُم التكاثرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ ؛ أي لَتَرَوُنَّ الجحيمَ في الموقفِ إن متُّم على هذا، ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ ، مُعاينةً، إذا دخلتُموها، وتشاهدون في الآخرةِ كلَّ ما شكَكتُم فيه في الدُّنيا، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ ؛ ثم لتُسأَلُنَّ يومَ القيامةِ عن اشتغالِكم بنعيمِ الدُّنيا حتى تركتُم ما لَزِمَكم من الفرائضِ.

واختلَفُوا في هذا السُّؤال، قال بعضُهم: هو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ للكفَّار في النار، يقالُ للكافرِ وهو في النار: أين ذهبَ تفاخُركَ ومُلكُكَ ومملكتُكَ وعدَدُكَ، ويؤيِّدُ هذا ما رُوي: أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أكْلَةٍ أكَلَهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ أبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنْصَارِيِّ مِنْ لَحْمٍ وَخُبْزِ شَعِيرٍ وَمَاءٍ عَذْبٍ وَبُسْرٍ قَدْ ذَنَّبَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أتَخَافُ عَلَيْنَا أنْ يَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي نُسْأَلُ عَنْهُ ؟ فَقَالَ ﷺ: [إنَّ ذلِكَ لِلْكُفَّار، ثُمَّ ثَلاَثٌ لاَ يَسْأَلُ اللهُ الْعَبْدَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ صُلْبَهُ، وَمَا يُكِنُّهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَهُوَ مَسْؤُولٌ بَعْدَ ذلِكَ عَنْ كُلِّ نِعْمَةٍ](١).

وقالَ ﷺ: [مَا أنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ صَغِيرَةٍ أوْ كَبِيرَةٍ فَقَالَ عَلَيْهَا: الْحَمْدُ للهِ، إلاَّ أُعْطِيَ خَيْراً مِمَّا أخَذ](٢).

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٧٧؛ قال القرطبي: (ذكره القشيري أبو نصر). وبمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٣٢٨) عن أبي هريرة ﷺ، و(٢٩٣٢٩) عن أبي عسيب.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص١٩٣: الحديث (٧٧٩٤) عن أبي أمامة ﷺ.=

وعن أنسٍ قالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: [مَنْ عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ مِنْ قِبَلِ اللهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا][(١)].

وسُئل ابنُ مسعودٍ عن النعيمِ المذكور في هذه الآيةِ فقال: ((الأَمْنُ وَالصِّحَّةُ))، وسُئل عليٌّ ﷺ عَنْ ذلكَ فقال: ((خُبْزُ الشَّعِيرِ، وَالْمَاءُ الْقِرَاحُ)). ويقالُ: إنَّه باردُ الشَّراب، وظلُّ المساكنِ، وشبَعُ البطونِ. ويقالُ: يُسْأَلُ عن الماء البارِدِ في شدَّة الحرِّ، وعن الماءِ الحارِّ في شدَّة البردِ.

وهذا كلُّه محمولٌ على ما إذا تشاغلَ بشيءٍ من هذه المباحات، فتركَ بها واجباً عليه، وأمَّا إذا لم يكن ذلك، فإنه لا يُسأل عنها ولا يُحاسَبُ عليها .

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [النَّعِيمُ الْمَاءُ الْبَارِدُ وَالرُّطَبُ][(٢)]. وقال عبدُالله ابنُ عمرَ:((هُوَ الْمَاءُ الْبَارِدُ فِي الصَّيْفِ)). وفي الخبرِ المأثور: [أَنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلُ اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ:[أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ؟ أَلَمْ أُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟][(٣)].

=والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: باب الدعاء بعد أكل الطعام: الحديث (١٩١٤). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٩٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه سويد بن عبدالعزيز، وهو متروك). أما الحاكم فقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وفي إسناد الحاكم عن جابر عبدالرحمن بن مقيس، قال أبو زرعة: (عبدالرحمن بن مقيس كذاب). والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٢١١: الرقم (١٣٧٩) بلفظه. وابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب فضل الحامدين: الحديث (٣٨٠٥) بمعناه بإسناد حسن، حيث اختلف في (شبيب ابن بشر).

(١) لم أقف عليه.

(٢) هو معنى حديث أخرجه الطبري في جامع البيان عن جابر: الرقم (٢٩٣٢٦)، و عن أبي هريرة الرقم (٢٩٣٢٧ و٢٩٣٢٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٣٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: [إذا شَرِبَ أحَدُكُم الْمَاءَ، فَلْيَشْرَبْ أبْرَدَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ] قِيلَ: وَلِمَ ؟ قَالَ: [لأنَّهُ أطْفَأُ لِلْمَرْءِ، وَأنْفَعُ لِلعِلَّةِ، وَأبْعَثُ لِلشُّكْرِ][1] . وقال أبو حاتم: ((الْمَاءُ الْبَارِدُ يَسْتَخْرِجُ الْحَمْدَ مِنْ وَسَطِ الْقَلْبِ))[2].

وقال رجلٌ للحسن: إنَّ لَنَا جاراً لاَ يَأْكُلُ الْفَالُوذجَ وَيَقُولُ: مَا أقُومُ بشُكْرِه، فَقَالَ: ((مَا أجْهَلَ جَارَكُمْ هَذا! إنَّ نِعْمَةَ اللهِ بالْمَاءِ الْبَارِدِ أكْثرُ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الْحَلْوَاءُ))[3].

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ أكَلَ خُبْزَ الْبُرِّ وَشَرِبَ الْمَاءَ الْبَاردَ وَكَانَ لَهُ ظِلٌّ، فَذاكَ النَّعِيمُ الَّذِي يُسْأَلُ عَنْهُ][4].

وعن ابن عبَّاس قالَ: ((لَمَّا نزلَتْ (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) قَالَتِ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَأيُّ نَعِيمٍ نَحْنُ فِيْهِ، وَإنَّمَا نَأْكُلُ فِي أنْصَافِ بُطُونِنَا الشَّعِيرَ؟! فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ: [أنْ قُلْ لَهُمْ: ألَيْسَ تَجِدُونَ النِّعَالَ وَتَشْرَبُونَ الْمَاءَ الْبَارِدَ ؟ فَهَذا مِنَ النَّعِيمِ])).

وعن أنسٍ قال: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ عَلَيَّ مِنَ النِّعْمَةِ شَيْءٌ؟ قَالَ: [نَعَمْ؛ التَّنَعُّلُ، وَالظِّلُّ، وَالْمَاءُ الْبَارِدُ][5].

وَقِيْلَ: يسأَلُ اللهُ العبادَ يومَ القيامةِ عن خمسٍ: شِبَعِ البطونِ، وبارِدِ الشَّرابِ، ولذةِ النومِ، وظلِّ المساكنِ، واعتدالِ الخلْقِ. وعن إبراهيمَ النخعيِّ: ((مَنْ أكَلَ فَسَمَّى، وَفَرَغَ فَحَمَدَ اللهَ تَعَالَى، لَمْ يُسْأَلْ عَنْ نَعِيمِ ذَلِكَ الطَّعَامِ)).

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٧٨، وعزاه له الصالحي في سبل الهدى: ج ١٢ ص١٠٤؛ ولفظه: [أطْيَبُ لِلْمَعِدَةِ...].

(٢) عزاه الثعلبي أيضاً إلى أبي حاتم، قال: عن أبي العباس الأزهري يقول... وذكره). ينظر: الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٧٨.

(٣) تقدم.

(٤) في كنز العمال: الحديث (٤٧١٥). عزاه المتقي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي. وينظر: مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص٣٩. وبمعناه عن ابن عباس عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الخطيب وابن عساكر والبزار.

(٥) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦١٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن أنس ...) وذكره.

وقال ابنُ عبَّاس: ((النَّعِيمُ صِحَّةُ الأَبْــدَانِ وَالاسْـتِمَاعُ وَالإِبْصَــارُ، وَيَسْـأَلُ اللهُ العِبَادَ فِيمَا اسْتَمعُوهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُـلُّ أُوْلَئِـكَ كَـانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1]))[2].

وَقِيْلَ: إنَّ من نعمةِ الله على عباده الأكلُ والشراب، وتسهيلُ خروجِ الأخبَثين، قال بكرُ بن عبدِالله: ((يَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ! يَأْكُلُ مُتَلَذِّذاً وَيَخْرُجُ ذلِكَ سَهْلاً)).

آخر تفسير سورة (**التكاثـــر**) والحمد لله رب العالمين

(١) الإسراء / ٣٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٢٢).

سُورَةُ الْعَصْرِ

سُورَةُ الْعَصْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَأَرْبَعَ عَشَرَةَ كَلِمَةً، وَثَلاَثُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ : [مَنْ قَرَأَهَا خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالصَّبْرِ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ](١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ ﴾ ؛ معناهُ: والدَّهر، أقسَمَ اللهُ بالدهرِ في تردُّدِهِ وتقلُّبهِ لِمَا فيه من الدَّلالة على وحدانيَّة اللهِ، ويجوز أنْ يكون المرادُ به: وربِ العصرِ، وقال بعضُهم: المرادُ بالعصرِ العشِي، وفائدةُ ذكرِهِ: ما فيه من الدَّلالة على توحيدِ الله من إقبالِ اللَّيل، وإدبار النهار، وذهاب سُلطان الشمسِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ ﴾ ؛ هذا جوابُ القسَم، والإنسانُ ها هنا جنسٌ أرادَ به جميعَ الناس، ولذلك استثنَى منهم المؤمنِين المطيعين. وَقِيْلَ: المرادُ بالإنسان هاهنا الكافرُ بخُسرهِ نفسَهُ ومالَهُ وأهلَهُ ومنْزلَهُ وخدَمَهُ في الجنَّة، ويرثهُ المؤمن.

ويقال: معنى الْخُسْرِ هاهنا نقصانُ العُمر، كلُّ إنسانٍ رأسُ ماله ((العمر))، والمؤمنُ وإنْ كان ينقصُ من عُمره الذي هو رأسُ ماله، فإنه يربحُ عليه بالطاعةِ فلا يعدُّ ذلك خُسراناً؛ لأنه لا يتوصَّلُ إلى الربحِ إلاّ بإخراجِ رأسِ المال من يده، فمعنى الخسران لا يتحقَّقُ إلاّ في الكافرِ.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَإنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْراً مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَغْبُوطٌ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَمَنْ لَمْ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٨٣.

يَكُنْ فِي الزِّيَادَةِ فَهُوَ فِي النُّقصَانِ، وَمَنْ كَانَ فِي النُّقْصَانِ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾؛ فهؤلاء همُ الذين يتمسَّكون بما يؤدِّيهم إلى الفوز بالثواب، والنجاةِ من العقاب، فإنَّهم لا يُقصِرون على طاعةِ أنفسهم بل يحثُّون غيرَهم على الطاعةِ لِيُقْتَدَى بهم وليَكُونوا سَبباً في طاعةِ غيرهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَتَوَاصَوْا بالحقِّ) أي أوصَى بعضُهم بعضاً باتِّباع القرآنِ، وطاعة اللهِ، (وَتَوَاصَوا بالصَّبرِ) على الشَّدائد في ذاتِ الله.

وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: قَرَأتُ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ (وَالْعَصْرِ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَفْسِيرُهَا؟ فَقَالَ: [أقْسَمَ رَبُّكَ بآخِرِ النَّهار (إنَّ الإنْسَانَ) وَهُوَ أبُو جَهْلٍ (لَفِي خُسْرٍ)، (إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا) يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيق (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب،(وَتَوَاصَوا بالْحَقِّ) يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ، (وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ] رضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ[(٢)].

آخر تفسير سورة (**العصـر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٥ ص٢٣٦٢: الحديث (١٧٦٥)؛ قال العراقي: (لا أعلمُ هذا إلا في منامٍ لعبد العزيزِ بن أبي رواد، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في النومِ، فقلتُ: يا رسولَ الله أوصني، فقالَ ذلك). وعلَّقه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﷺ في الرقم (٥٩١٠).

(٢) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٢٨٤، وحكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٠.

سُورَةُ الْهُمَزَة

سُورَةُ الْهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثلاثُونَ حَرْفاً، وَثلاثُونَ كَلِمَةً، وَتِسْعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطِي مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَن اسْتَهْزَأ بمُحَمَّدٍ ﷺ وَأصْحَابهِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: ((نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ ابْنِ شُرَيْقٍ، كَانَ يَهْمِزُ النَّاسَ وَيَلْمِزُهُمْ مُقْبلِينَ وَمُدْبرِينَ))[2]. وقال مقاتلُ: ((نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ))[3]. وحرف (كُلٍّ) يقتضي أنَّ هذا الوعيدَ لكلِّ كافرٍ يغتابُ الناسَ ويَعيبُهم. والويلُ كلمةٌ تقولها العربُ في كلِّ مَن وقعَ في هلَكةٍ، ويقالُ: إنه وادٍ في جهنَّم مملوءٌ من القيحِ والصَّديد مما يسيلُ من أهلِ النار.

والْهُمَزَةُ: الطاعنُ على غيرهِ بغير حقٍّ بالسَّفَهِ والجهلِ، واللُّمَزَةُ: الْمُغتَابُ الْمِعيَابُ، وعن أبي العاليةِ قال: ((الْهُمَزَةُ: الَّذِي يَلْمِزُ مِنْ خَلْفٍ، وَاللُّمَزُ: هُوَ الْعَيْبُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ﴾[4] أي لا يعيبَنَّ بعضُكم على بعضٍ)). وقال ابنُ عبَّاس: ((الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: هُمُ الْمَشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ))[5].

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٢٨٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٥٩) وأبهم الاسم: قال رضي الله عنه: (مُشْرِكٌ يَلْمِزُ النَّاسَ وَيَهْمِزُهُمْ). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٣ صريحاً.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٥١٧.

(٤) الحجرات / ١١.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٣٤٩).

وَقِيْلَ: الْهُمَزَةُ: الذي يأكلُ لحومَ النـاسِ ويغتابُـهم، واللُّمَـزة: الطعَّـان عليـهم. وَقِيْلَ: اللُّمَزة: الذي يُكرِمُ الناسَ بلسانهِ ويهمِزُهم بعينهِ، وقال ابنُ كَيسان: ((الْهُمَزَةُ: الَّذِي يُؤْذِي جَلِيسَهُ بسُوءِ اللَّفْظِ، وَاللُّمَزَةُ: الَّـذِي يَكْسِـرُ عَيْنَـهُ عَلَـى جَلِيسِـهِ، وَيُشِـيرُ برَأسِهِ، وَيُومِئُ بعَيْنَيْهِ، وَيَرْمِزُ بحَاجِبِهِ))[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عامر ونافع وعاصم (جَمَعَ) بتخفيفِ الميم، وقرأ غيرُهم بالتشديدِ، ومعنى الآية: الذي جمعَ مالاً كثيراً من الحرامِ وعدَّدَهُ لنوائبِ دهرهِ. وَقِيْلَ: عدَّهُ وأحصاهُ وأحرَزهُ، وقرأ الحسنُ (وَعَدَدَهُ) بالتخفيفِ؛ أي جَمَعهُ وعدده؛ أي وخدَمـهُ واتباعـهُ، تقـول العـربُ: جمَعـتُ الشيءَ إذا كان متفرِّقاً، وجمَّعتُ الشيء بالتشديدِ اذا أكثرتُ الجمعَ منه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: يحسـبُ هـذا الكافر الطاعنُ اللعَّانُ أنَّ كثرةَ مالهِ تُخلِدُهُ وتُبقيه؟ أي يعملُ عملَ مـن يظـنُّ أن مالـه يُبقيهِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا ﴾ ؛ أي حاشا أن يخلُدَ أحدٌ في الدنيا. ويجـوزُ أن يكـون معناه: حقـاً؛ ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي ليُطرَحـنَّ فيـها، وقـرأ الحسـنُ (لَيُنْبَذَان) أي ليطرحَانِّ هو ومالهُ. والْحُطَمَةُ: اسمُ دركَةٍ مـن دركـاتِ النـار، سُـميت بذلك؛ لأنَّها كثيرةُ الحطْمِ للكفار، وأصلُ الْحَطْمِ الكسرُ، يقالُ: رجلٌ حَطَمَـةٌ إذا كـان كثيرَ الأكلِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ تفخيـمٌ لشـأنِها، وقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي لا تَخمَدُ أبداً، وقَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي تُشرِفُ على القلوبِ، تأكلُ كلَّ شيءٍ مـن الجلـودِ واللُّحوم والعظامِ والعُروقِ حتى يبلغَ إحراقُها إلى القلوبِ.

---

(١) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٤٨٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ ﴾؛ أي إنَّ الحطَمةَ عليهم؛ أي على الكفار مُطبَقَةُ الأبوابِ مغلقةٌ لا تدخلُ فيها رَوْحٌ، ولا يخرج منها غمُّها[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾؛ قرأ أهلُ الكوفة (عُمُدٍ) بضمَّتين، وقرأ غيرُهم بالنصبِ، واختارَهُ أبو عبيد لقوله تعالى ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2]، والعَمَدُ والعُمُدُ جمعُ عَمُودٍ، قال الفرَّاء: ((هُوَ جَمْعُ عِمَادٍ، وَهُوَ الاسْطِوَانَةُ))[3]، والمعنى: تُمَدُّ أيديهم وأرجلُهم إلى عَمَدٍ ممدودةٍ في النار، وتُجعَلُ في أعناقهم السلاسلُ؛ ليكونَ ذلك زيادةً في تعذيبهم.

آخر تفسير سورة (الهمـزة) والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص١٨٦؛ قال القرطبي: (وتُشَدُّ تلك الأطباقُ بالأوتاد، حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها، فلا يدخل عليهم رَوْحٌ).

(٢) لقمان / ١٠.

(٣) في معاني القرآن: ج ٣ ص٢٩١؛ قال الفرَّاء: (والعُمُدُ، والعَمَد جمعَان صَحِيحَان للعَمُود، مثل: الأديم، والأَدَم، والأُدُم، والإهابُ والأَهَبُ، والأُهُبُ ويقال: إنَّها عُمُدٌ من نار).

سُورَةُ الْفِيــل

سُورَةُ الْفِيلِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفِيلِ عَافَاهُ اللهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَذْفِ وَالْمَسْخِ][(١)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ ﴾ ؛ وذلك أنَّ فئةً من قريشٍ خرَجُوا تُجَّاراً إلى أرضِ النجاشيِّ، فسَارُوا حتى دَنَوا من ساحلِ البحرِ، ثم نزَلوا بحضرةِ بيتٍ، وكان ذلك البيتُ مُصلًّى للنجاشيِّ وقومهِ من النَّصارى، فأجَّجُوا ناراً استعمَلُوها لبعضِ ما احتاجوا إليه، ثم رحَلُوا ولم يُطفِئوا تلك النار، وكان ذلك في يومٍ عاصف، فهاجَتِ الريحُ فاحترقَ البيتُ الذي كان مُصلًّى للنجاشيِّ، وكانوا يعظِّمون ذلك البيتَ كتعظيمِ العرب الكعبةَ، فقَصَدُوا بذلك السبب مكَّة عازمين على تحريقِ بيتِ الله تعالى، ويستبيحُوا أهلَ مكَّة.

فبعثَ النجاشيُّ أبرهةَ، فخرج أبرهةُ في سائرِ الحبشة، وخرجَ معه بالفيلِ، فسَمِعتْ بذلك العربُ، فأعظَموهُ ورأوا جهادَهُ حقّاً عليهم حين سَمعوا أنه يريدُ هدمَ الكعبةِ، فخرجَ إليه ملِك من مُلوك حِميَرَ يقالُ له ذو نَفَرْ، فدعَا قومَهُ ومن أجابَهُ من العرب إلى حرب أبرهةَ وجهادهِ، فأجابَهُ من أجابَهُ فقاتلَهُ، فهُزِمَ ذو نفَرٍ وأصحابُهُ، وأخِذ ذُو نفر أسيراً، فلما أرادَ أبرهةُ أن يقتلَهُ قال له ذو نفر: لا تَقتُلني فإنِّي عسَى أن يكون بقائِي معكَ خيراً لكَ من قتلِي، فتركَهُ من القتلِ وحبسَهُ معه في وثاقٍ، وكان أبرهةُ رجُلاً حَليماً.

---

(١) وهو شطر من حديث ضعيف. أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان:ج ١٠ ص٢٨٨.

ثم مضَى أبرهةُ علىوجههِ للذي يريدُ، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَـمَ عـرضَ لـه نُفيل بن حبيبِ الخثعميُّ فقاتلَهُ فهزمَهُ أبرهةُ، وأخِذ نُفيل أسـيراً وأتِـيَ بـه إلى أبرهـةَ، فلما هَمَّ بقتلهِ قال له: لا تقتُلنِي فإنّي دليلُكَ في أرضِ العرب، فخَلَّى سـبيلَهُ، وخـرجَ معه يدلُّهُ. حتى إذا مرَّ بالطائفِ خرجَ إليه مسعودُ الثقفيُّ في رجالٍ من ثقيـفٍ، فقـالوا له: أيُّها الملكُ؛ إنما نحن عبيدُكَ سامِعون لك مطيعون، ليس لنا عندَكَ خـلافٌ، وليس بينَنا هذا الذي تريدُ هدمَهُ - يعنون اللاَّتَ - إنما تريدُ البيتَ الذي بمكَّة، ونحنُ نبعـث معكَ مَنْ يدلُّكَ عليه، فتجاوزَ عنهم، واللاتُ بيتٌ لَهم بالطائفِ كانوا يعظّمونـه نحـو تعظيمِهم الكعبةَ.

قال ابنُ اسحق: فبَعَثُوا معه أبَا رغالٍ يدلُّه على الطريقِ إلى مكَّة، فخـرجَ أبرهَـةُ ومعه أبو رغَالَ، فهنالِكَ رجَمتِ العربُ قَبْرَهُ، فهو القبرُ الذي يُرجم بالْمَغْمَسِ، فلمـا نزلَ أبرهةُ بالمغمسِ بعثَ رجلاً من الحبشةِ يقال له: الأسودُ بن مقصودٍ، على خيلٍ له حتى انتهى إلى مكَّة، فسَاقَ إليه أموالَ أهلِ يَمامة من قريشٍ وغـيرِهم، وأصـابَ فيـها مِائتي بعيرٍ لعبدِ المطَّلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبـيرُ قريـش وسـيِّدُها، فـهَمَّت قريشُ وكِنانةُ وهُذيل ومَن كان بذلك الحرمِ أن يُقاتِلُوه، ثم عرفُوا أنه لا طاقةَ لهم بـه فـترَكُوا ذلك.

وبعثَ أبرهةُ حناطةَ الْحِمْيَري إلى مكَّـة وقـال لـه: سَـلْ عـن سـيِّد هـذا البلـدِ وشريفِهم، وقل له: إنّي لم آتِ لحربكم، إنما جئتُ لهدمِ هــذا البيـتِ، فـإن لم تعرُضـوا دونَهُ بحربٍ فلا حاجةَ لي بدمائِكم، فإنْ هو لم يُردْ حَربي فأتِني به. فلمَّـا دخـلَ حناطـةُ مكَّة سألَ عن سيِّد قريشٍ وشريفِها، فقيل له: عبدُ المطَّلب بن هاشمٍ، فجاءَهُ فقـال لـه ما أمَرهُ أبرهةُ، فقال له عبدُ المطَّلب: ما لنا به من طاقةٍ ولا نريدُ حربَهُ، ولكن هذا بيتُ الله وبيتُ خَليلهِ إبراهيمَ، فإن لم يمنعْهُ منه فهو بيتهُ وحَرمـهُ، وإنْ لم يَحُـلْ بينـه وبينـهُ، فَوالله ما عندَنا دفعٌ عنه.

فقالَ له حناطةُ: انطلِقْ معي إليه، فإنه قد أمَرني أن آتيَهُ بكَ. فانطلقَ معـه عبـدُ المطلب حتى أتَى المعسكرَ، فسألَ عن ذي نَفرٍ وكان له صَديقاً حتى دخلَ عليه وهو في مجلسِهِ، فقال: يا ذا نفر، هل عندَكَ من غِنًى فيما نزلَ بنا، فقالَ: وما غِنَى رجـلٍ أسـيرٍ

بيد ملكٍ ينتظرُ أن يقتلَهُ غُدُوّاً أو عشيّاً، ما عندي من غِنًى في شيءٍ إلاّ أنَّ أُنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأُرسِلُ إليه وأُوصيه بكَ، وأُعَظِّمُ عليه حقَّكَ، وأسألُهُ أن يستأذن لكَ الملكَ، ويكلِّمُه بما يُدنِيكَ إليه، ويشفعُ لكَ عندَهُ بخيرٍ إنْ قَدِرَ على ذلك. فقال: افْعَلْ.

فبعثَ ذُو نَفْرٍ إلى أُنيس فقالَ له: إنَّ عبدَ المطلب سيدُ قريشٍ وصاحبُ عِيرِ مكَّة، يطعمُ الناسَ بالسهلِ، والوحشَ في رؤوس الجبال، وقد أخذ له الملكُ مِائتي بعيرٍ، فاستأذِنْ له عليهِ واشفع لهُ عنده بما استطعتَ. فكَلَّمَ أُنَيس أبرهةَ فقال: أيُّها الملكُ هذا سيِّدُ قُريشٍ ببَابكَ يستأذنُ عليكَ، وهو رجلٌ يُطعِمُ الناسَ بالسهلِ، والوحشَ في رؤوسِ الجبال، فأْذنْ له حتى يدخُلَ عليكَ فيكلِّمَكَ في حاجتهِ.

فأذِنَ له أبرهةُ، وكان عبدُ المطلب من أوسَمِ الناسِ وأجملِهم، فلما رآهُ أبرهة أجَلَّهُ وأكرمَهُ عن أن يُجلِسَهُ تحتَهُ، وكرِهَ أن تراهُ الحبشةُ يجلسُ معه على سرير مُلكهِ، فنَزلَ أبرهةُ عن سريرهِ، فجلسَ على بساطه وأجلسَهُ معه إلى جنبهِ، ثم قالَ لتَرجُمانهِ: قلْ له اذكرْ حاجتَكَ، فقالَ له: حاجَتي أن يرُدَّ عليَّ الملِكُ مِائتي بعيرٍ أخذها. فلمَّا قال له ذلكَ، قال له أبرهةُ: لقد كنتَ أعجبْتَني حين رأيتُكَ، ثم قد زهدتُ فيكَ حين كلَّمتَني في مائتي بعيرٍ أخذتُهَا لكَ، وتتركُ شيئاً هو دِينُكَ ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمهِ فلم تكلِّمني فيه.

قال له عبدُ المطلب: إنِّي أنا ربُّ الإبلِ، وإنَّ للبيتِ ربّاً سيمنعُكَهُ. قال: ما كان ليمتنعَ منِّي، قال: أنتَ وذاكَ. فردَّ أبرهةُ على عبدِ المطَّلب إبلَهُ، فأخذها ورجعَ إلى قومهِ، فأمَرَهم بالخروجِ من مكَّة والتحرُّز في شَعَفِ الجبالِ والشِّعاب خوفاً من معرَّةِ الجيشِ إذا دخلَ.

ثم قامَ عبدُ المطلب فأخذ بحلَقةِ باب الكعبة، وقامَ معه نفرٌ من قريشٍ يدعُونَ اللهَ ويستنصرونَهُ على أبرهةَ وجُندهِ، فقال عبدُ المطلّب وهو آخذٌ بحلقةِ باب الكعبة:

لاَهُــــمَّ[1] إنَّ الْعَبْـــدَ يَمْـــ ـــنَعُ رَحْلَــهُ فَــامْنَعْ حِلاَلَــكْ[2]
لاَ يَغْلِبَــــنَّ صَلِيبُــهُمْ ومِحَالُــهُمْ غُــدْواً مِحَــالَكْ[3]
عَمَــدُوا حِمَــاكَ بجَهْلِــهِمْ جَــهْلاً ومَــا رَقَبُــوا جَلاَلَــكْ
إنْ كُنْــتَ تَارِكَــهُمْ وكَعْبَـــتَنَـا فَــأَمْرٌ مَــا بَــدَا لَــكْ

ثم أرسلَ عبدُ المطلب حلقةَ الباب، وانطلقَ هو ومَن معه من قريشٍ إلى شـعَفِ الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةَ فاعلٌ بمكَّة إذا دخلَها، فلما أصبحَ أبرهـةُ تـهيَّأ لدخولِ مكَّة، وهيَّأ فِيلَهُ وعبَّأ جيشَهُ، وكان اسمُ الفيل مَحْمُوداً، وأبرهـةُ مُجمِعٌ لهدمِ البيت.

فلما وجَّهوا الفيلَ إلى مكَّة أقبلَ نُفيل بن حبيب حتى قامَ إلى جنب الفيـل، ثـم أخذ بأُذنهِ فقال: ابركْ مَحْمُوداً أو ارجِعْ رَاشِـداً مـن حيـث أتيـتَ، فـإنَّك في بلـدِ الله الحرامِ. ثم أرسلَ أذُنه، فبَركَ الفيلُ وخرجَ نُفيل يشتدُّ حتى صعدَ الجبلَ، فضَربُوا الفيلَ ليقومَ فأبَى، فضربوهُ في رأسهِ بالطَّبَرْزِين وهو الكُلاَّب ليقومَ فأبَى، فأدخَلُوا محاجنَ لهم في مِرَاقِهِ[4] فبَزَغُوهُ[5] بها ليقومَ فأبَى، فوجَّهوهُ رَاجعاً فقامَ يُهَرولُ، ووجَّهوهُ نحوَ الشَّام فعَلَ مثلَ ذلك، ووجَّهوهُ إلى المشرق ففعلَ مثل ذلك، ووجَّهوهُ نحو مكَّة فبَرَكَ، فجَعَلَ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً من البحرِ أمثالَ الْخَطَاطِيفِ، مـع كـلِّ طـائرٍ منهم ثلاثةُ أحجارٍ يحمِلُها، حَجَراً في منقارهِ وحجَـرَانِ في رجليـهِ أمثـالُ الحمَّـص، لا تصيبُ أحداً منهم إلاَّ هلَكَ، وليس كلُّهم أصابَتْ.

---

(١) (لاَهُمَّ): أصلها اللهم. والعرب تحذف الألف واللام منها وتكتفي بما بقي، كما تقول: لاه أبـو؛ أي لله أبوك. وكما قالوا: أجنك تفعل كذا وكذا؛ أي من أجل أنك تفعل كذا وكذا.

(٢) الحِلال بالكسر جمع حِلَّة؛ وهي جماعة البيوت. والمراد هنا القول الحلول في المكان.

(٣) المِحال: القوة والشدة. وغَدْواً: غداً، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، ولم يسـتعمل تامـاً إلا في الشعر.

(٤) مراقه: أسفل بطنه. والمحاجن: جمع مِحجَن وهي عصا مِعوَجَّة.

(٥) بزَغُوهُ: أدمَوهُ، ومنه الْمِبزَغ، وهو الْمِشْرَطُ للحجَّام ونحوه.

وخرَجُوا هاربين يبتَدرون الطريقَ الذي جاءوا منها، ويسألُون عن نُفيل بن حبيبٍ ليدُلَّهم على الطريقِ إلى اليمنِ، فقال نُفيل حين رأى ما أنزلَ اللهُ بهم من نِقمَتِهِ:

أيْنَ الْمَفَرُّ وَالإلَهُ الطَّالِبْ وَالأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبْ

وكان أبرهةُ أشرَمَ من ضربةٍ ضربَهُ إياها إريَاطُ بحربةٍ على جَبهتِهِ، فشَرَمَتْ حاجبَهُ وعينه وأنفَهُ وشفَتَيْهِ، فكان يُسمى الأشرمُ من حينئذٍ.

قال ابنُ اسحق: فجعل عسكر أبرهة يتساقَطون من الحجارةِ بكلِّ طريقٍ، ويهلكُون على كلِّ منهلٍ، وأصيب أبرهةُ في جسدهِ وخرَجُوا به معهم تسقطُ أناملُهُ أنْمُلَةً أنملَةً، كلَّما سقطت أنملة منها تبعَتها مِدَّةٌ تَمُثُّ[1] قَيحاً ودماً[2]، حتى قَدِموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخِ الطائر، فما ماتَ حتى انصدعَ صدرهُ عن قلبهِ[3].

فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ كان مما يعدُّ الله على قريشٍ من النِّعم عليهم وفضلهِ ما رَدَّ عنهم من أمرِ الحبشة لبقاءِ أمرهم، فقالَ تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...) إلى آخرِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ معناهُ: ألم يجعل مكرَهم في بُطلان حيث لم ينتفعوا به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ من البحر؛ ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي كثيرةٍ يتبَعُ بعضُها بعضاً، وقِيْلَ: أقاطيعُ كالإبلِ الْمُؤَبَّلَةِ، والأبابيلُ: جماعةٌ في تفرقةٍ، زمرةٌ لا واحدَ لها عند أبي عُبيدة والفرَّاء، ويقالُ: واحدُها أبولٌ كما يقال عَجُولٌ وعجاجيلُ، ويجوز أنْ يكون واحدُها إبيلٌ، كما يقالُ: إكْلِيلٌ وأكاليلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي بحجارةٍ من طين مَطبُوخٍ خالصةٍ، كما يُطبَخُ الآجُر. وَقِيْلَ: السجِّيلُ الشديدُ، كأنه قالَ: من شديدِ

---

(١) تمث: ترشح.

(٢) في المخطوط: (مدة ثم قيح ودم). والصحيح كما أثبتناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٩٤٠٥) وفيه بعض اختلاف في اللفظ والشعر.

عذابه، وعن أبي صالحٍ قال: ((رَأَيْتُ فِي بَيْتِ أمِّ هَانِئ بنْتِ أبي طَالِبٍ نَحْواً مِنْ قَفِيزٍ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ سُودٍ مُخَطَّطَةٍ بِخُطُوطٍ حُمْرٍ عَلَى قَدْرِ بَعْرِ الْغَنَمِ، كَأنَّهَا جَزْعُ ظفاري[1]))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ؛ أي جعلَهم كورَق الزَّرعِ الذي وقعَ فيه الدُّود فخرقَهُ، وكان ابنُ عبَّاس يقولُ في صفةِ الطَّير الأبابيل: ((لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْر، وَأكُفٌ كَكَفِّ الْكِلاَب، وَكَانَ إذا وَقَعَ الْحَجَرُ عَلَى رَأسِ الإنْسَانِ مِنْهُمْ خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ))[3].

واختلَفُوا في تاريخِ عامِ الفيلِ، فقال الكلبيُّ: ((كَانَ قَبْلَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً)). ورُوي: أنَّهُ كان في العامِ الذي وُلدَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ، وعلى هذا أكثرُ العلماء، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ((رَأيْتُ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِسَهُ بمَكَّةَ أعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ))[4].

آخر تفسير سورة (**الفيل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) جَزَعَ الوادي: قطعَهُ عَرْضاً، وبابه قطع. والجزعُ منعطف الوادي. والْجَزْعُ خَرَزٌ معروف في سوادهِ بياضٌ كالعروق. ونسبته إلى ظفاري هي مدينة في أقصى اليمن. ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج ٨ ص٥٨٦.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٣١-٦٣٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وأخرجه ابن المنذر عن أبي الكنود وأخرجه أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية) وذكره بمعناه عنهم وألفاظ قريبة.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٩٣٨٤).

(٤) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٣٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن إسحق في السيرة والواقدي وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن عائشة وذكره).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثلاثةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَسَبْعَ عَشَرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ طَافَ بِالْكَعْبَةِ وَاعْتَكَفَ بِهَا].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ ﴾؛ اختلَفُوا في هذه اللامِ المذكورة، قال بعضُهم: هي لام كَي أي "متعلق بـ" ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[1] أو لِيُؤلِفَ قُرَيشاً[2].

ثم فسَّرَ الإيلافَ فقال تعالى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ ﴾؛ أي ليُؤلِفَهم رحلةَ الشّتاء ورحلةَ الصيفِ. وإنما قال ذلكَ لأنَّهم لَمَّا خافوا من أبرهـة، فتفرَّقوا في البلادِ، فمَنَّ الله عليهم فقهَرَ عدوَّهم.

وكانت مكَّة بلداً لم يكن فيها زرعٌ ولا شجَر؛ ولا رطبٌ، وكان معاشُ أهلها ما يُنقَلُ إليها، فأهلكَ اللهُ عدوَّهم ليأتَلِفوا؛ لأن تأليفَ رحلةِ الشتاء والصيفِ في التجارة، ولولا تجارتُهم في هاتين الرّحلتين لاضطرُّوا إلى الخروجِ والتفرُّق في البوادِي، فأرادَ اللهُ أن يكثُروا بمكَّة إلى أن يبعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ منهم نبيّاً إليهم وإلى غيرِهم.

---

(١) الفيل / ٥.

(٢) في جامع البيان: مج ١٥ ج ٣٠ ص٣٩٥: تفسير الآية؛ قال الطبري: (وأما القول الذي قاله من حكينا قوله، أنه من صلة قوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ فإن ذلك لو كان كذلك ... قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

وكان بعضُهم يعدُّ السُّورَتين سورةً واحدة، وقال سُفيان بن عيينة: ((كَانَ لَنَا إِمَامٌ لاَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا وَيَقْرَأُهُمَا مَعاً))(١). وقال عمرُو بن مَيمون:((صَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّاب ﷺ صَلاَةَ الْمَغْرِب، فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الأُوْلَى ﴿وَالتِّينِ﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ وَ ﴿لإِيْلاَفِ قُرَيْشٍ﴾))(٢). والمعنى: أنَّ هلاكَ أصحاب الفيل كان سَبباً لبقاءِ إيلافِ قُريش، ونظامِ حالهم.

وقريشٌ هم ولَدُ النَّضِرِ بن كِنَانَةَ، فمن ولَدَهُ النَّضِرُ فهو قُرَشِيٌّ، ومن لم يَلِدْهُ فليس بقرَشِيٍّ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ](٣). وسُمُّوا قُريشاً من التَّقْرِيشِ؛ وهو التكسُّبُ والتقلب والجمعُ والطلب، وكانوا قوماً تُجَّاراً على المال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) بدلٌ من الإِيلافِ الأوَّل. واختلَفُوا في انتصاب (رِحْلَةَ)، فقيل: انتصبَ على المصدر؛ أي ارتِحالُهم رحلةً، وإنْ شئتَ نصَبتَهُ بوقوعِ (إِيْلاَفِهِمْ) عليه، وإنْ شئتَ على الظَّرفِ.

واختلَفُوا في تفسيرِ رحلة الشتاء والصيف، فرُوي عن ابنِ عبَّاس قال: ((كَانُوا يَشْتُونَ بِمَكَّةَ. فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أنْ يُقِيمُوا بِالْحَرَمِ، وَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ))(٤). وَقِيلَ: كانت لهم في السَّنةِ(٥) رحلَتان: إحدَاهُما في الشِّتاء إلى اليمنِ لأنَّها أدفأُ، والأُخرى في الصَّيفِ إلى الشَّام، وكان الحرَمُ جَدْباً لا زرعَ فيه ولا ضرعَ ولا شجرَ، وإنما كان قريشٌ يعيشُونَ بتجارتِهم ورحلَتِهم، وكان لا يتعرضُ لهم أحدٌ بسوءٍ،

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠٠.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٠٠.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٢ ص٥٥: الحديث (١٦١) من طرق عن الأوزاعي، وإسناده صحيح. ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ: الحديث (٢٢٧٦/١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٤٢٢) مطولاً، والأثر (٢٩٤٣٣).

(٥) في المخطوط: (في الشتاء) لا يستقيم المعنى.

وكانت الناسُ تقول: سُكَّان حرمِ الله، فلولا الرِّحلتان لم يكن لأحدٍ بمكة مقامٌ، ولـولا الأمنُ بجوار البيت لم يقدِرُوا على التصرُّف.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ ؛ الَّذي[1] سبَّبَ أرزاقَهم وأمنَهم مِن خوفِ العدوِّ ومِن خوفِ الطريقِ. ويقالُ: أرادَ بالإطعامِ: أنَّ أهلَ مكة كانوا أصابَتهم سُنون كسِنِيِّ يوسُف بدعاءِ النبيِّ ﷺ عليهم حتى أكَلُوا الجِيفَ والعظامَ المحرَّقة، فأزالَ اللهُ عنهم الجوعَ وأمَّنَهم بعد ارتفاعِ ذلك من الْجُذام الذي يُبتلى به ذلك الوقت أهلُ البلـدِ الـتي وراءَ مكَّة. وَقِيْلَ: معناهُ: لا يتعرض لهم[2] أحدٌ في الجاهليَّة.

آخر تفسير سورة (**قريش**) والحمد لله رب العالمين

(١) في المخطوط: (أي) وهو غير مناسب.

(٢) في المخطوط: (لا يعرض أحد) لا يستقيم المعنى.

سُورَةُ الْمَاعُـونَ

سُورَةُ (الْمَاعُونَ) مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَعُشْرُونَ حَرْفاً، وَخَمْسٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسَبْعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ ثَوَابَ الْمُصَلِّينَ الْخَاشِعِينَ].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾ ؛ قال مقاتلُ والكلبي: ((نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ))[1]، معناهُ: أرأيتَ أعلِمْتَ يا مُحَمَّدُ الذي كذبَ بالبعثِ والحساب والجزاء.

وكان العاصُ بن وائلٍ أوّلَ من أنكرَ إظهارَ البعثِ، وكان في حُجرهِ يتيمٌ ظلمَهُ ومنعَهُ حقَّهُ وأكلَ ميراثَهُ، وكان لا يُطْعِمُ المسكينَ بنفسهِ، ولا يأمرُ غيرَهُ بالإطعام. وهذه السُّورة فيها تَهديدٌ له ولكلِّ مَن يعملُ عمَلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَدُعُّ الْيَتِيمَ) الدَّعُّ: هو الدفعُ على وجههِ العنيف[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾ ؛ أرادَ بذلك المنافقين الذين يَسهُونَ في صلاتِهم عن ذكرِ الله من حيث لا يقصُدون عبادتَهُ والتقرُّبَ إليه، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾ ؛ إذا رآهُم المخلِصون صَلُّوا معَهم رياءً، وإذا لَم يروهم لم يُصلُّوا. وفي هذا بيانُ أنه ليس المرادَ في الآيةِ سهوُ نسيانٍ.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٥٢٧. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢١٠.

(٢) في جامع البيان: ج ٣٠ ص٤٠٠؛ قال الطبري: (هو الذي يدفعُ اليتيمَ عن حقّه، ويظلمه). وفي الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٠٤؛ قال الثعلبي: (الدعُّ: الدفعُ في جَفوَةٍ).

وعن الحسن أنه قالَ: ((يَسْهُونَ عَنْ مِيقَاتِهَا حَتَّى تَفُوتَ))، وقال مجاهدُ: ((يَسْهُونَ عَنْهَا، وَيَلْهُونَ وَلاَ يُفَكِّرُونَ فِيهَا))، وعن أنسٍ قال: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ السَّهْوَ هَا هُنَا فِي صَلاَتِهِمْ، وَإِنَّمَا جَعَلَ السَّهْوَ عَنْ صَلاَتِهِمْ)). وعن عطاءِ بن دينار أنه قالَ: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي قَالَ: (عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ) وَلَمْ يَقُلْ: فِي صَلاَتِهِم سَاهُونَ))(٣). وَقِيْلَ: السَّاهي عنها هو الذي إذا صَلاَّها؛ صَلاَّها رياءً، وإذا فاتَتْهُ لم يندَمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ رُوي عن ابنِ مسعود وابن عبَّاس ((مَا يَبْذُلُهُ الْجِيرَانُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ الْفَأْسِ وَالْمِسْحَاةِ وَالْقِدْرِ وَالدَّلْوِ وَأَشْبَاهِ ذلِكَ))(٤). وَقِيْلَ: الماعونُ: ما لا يحلُّ منعهُ مثل الماءِ والملح والنار.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ ؟ قَالَ: [الْمَاءُ وَالنَّارُ وَالْمِلْحُ] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هَذا الْمَاءُ فَمَا بَالُ النَّارِ وَالْمِلْحِ؟ قَالَ: [يَا حُمَيْرَاءُ مَنْ أَعْطَى نَاراً فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَا طُبِخَ بِذلِكَ النَّارِ، وَمَنْ أَعْطَى مِلْحاً فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَا طُيِّبَ بِذلِكَ الْمِلْحِ، وَمَنْ سَقَى شُرْبَةً مِنَ الْمَاءِ حَيْثُ يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ سِتِّينَ رَقَبَةً، وَمَنْ سَقَى شُرْبَةً حَيْثُ لاَ يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا نَفْساً](٥).

وعن عليٍّ ﷺ: ((أَنَّ الْمَاعُونَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ))(٦).

آخر تفسير سورة (**الماعون**) والحمد لله رب العالمين

---

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان عن ابن عمر عن ابن مسعود في الآثار (٢٩٤٧٥)، وعن ابن مسعود بأسانيد: الآثار(٢٩٤٨٥-٢٩٤٨٦)، وعن ابن عباس في الأثر (٢٩٤٨٨). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٦٤٣؛ قال السيوطي: (اخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود).

(٥) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢١٥؛ قال القرطبي: (ذكره الثعلبي في تفسيره، وأخرجه ابن ماجة في سننه. وفي إسناده لين). وهو في سنن ابن ماجة: كتاب الرهون: باب المسلمون شركاء في ثلاث: الحديث (٢٤٧٤). وهو إسناد ضعيف؛ لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٤٩٥)، بلفظ: (منعُ الزكاةِ والفأس والدلو والقِدر). وفي الآثار (٢٩٤٧١) بأسانيد عديدة بلفظه أو مختصراً. وعنه أخذ مجاهد وقتادة وسعيد ابن جبير وابن الحنفية وابن زيد.

سُورَةُ الْكَوْثَــر

سُورَةُ (الْكَوْثَر) مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَعَشْرُ كَلِمَاتٍ، وَثَلاَثُ آيَاتٍ.

قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا سَقَاهُ اللهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، وَأُوتِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ قُرْآنٍ قَرَأَ بِهِ الْعِبَادُ فِي كُلِّ يَوْمِ عِيدٍ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، والكوثـرُ في اللغة: الخيرُ الكثير، وهو فَوْعَلٌ[2] من الكَثرةِ كنَوْفَلٍ من النَّفلِ. واختلفوا في الكوثر في هذه السُّورة؛ قال ابنُ مسعودٍ: ((أُريدَ بِهِ الْقُرْآنَ))[3]، وقال الحَسـنُ: ((النُّبُـوَّةُ وَرِفْعَـةُ الذِّكْرِ وَالنَّصْرُ عَلَى الأَعْدَاءِ))[4].

وعن أنسٍ وأبي سعيدٍ الخدري أنَّ النبي ﷺ قالَ: [رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِـي نَـهْراً فِي الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ اللُّؤْلُؤ-وَقِيلَ: مِنَ الزُّبُرْجَدِ، وَقِيلَ:مِنَ الذهَب- وَمَجْرَاهُ عَلَى الـدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَطِينُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِـنَ الْعَسَلِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لاَ يَظْمأُ بَعْدَهَا أَبَداً].

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٣٠٧.

(٢) في المخطوط: (هو فواعل) ، والصحيح أن وزن (كوثـر): (فَوْعَـلُ) وليـس (فواعـل)، أي مـن الكثرة، وصف مبالغة في المفرط المكثر، مثل النوفل مـن النفـل، والجوهـر مـن الجـهر، والعرب تسمي كل شيء كثيراً في العدد، والقدر، والخطر: كوثراً. ينظر: اللباب في علوم الكتـاب: ج ٢٠ ص٥٢٠.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥١٧) عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٢١) عن عكرمة بألفاظ وأسانيد عديدة.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت: ((الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، مَنْ أدْخَلَ إصْبَعَيْهِ فِي أذُنَيْهِ سَمِعَ خَرِيرَ ذلِكَ النَّهْرِ))(١).

والكوثرُ يصبُّ في حوضِ رسولِ الله ﷺ، وصفةُ الحوضِ: حصاؤه الياقوتُ الأحمر، والزبرجدُ الأخضرُ، والدرُّ والمرجان، وَحَمْأتُهُ المسكُ الأذفر، وترابه الكافورُ، ماؤهُ أشدُّ بياضاً من اللبنِ وأحلى من العسلِ، وأبردُ من الثلجِ، يخرجُ من أصلِ سِدرَةِ المنتهى، عرضهُ وطوله ما بين المشرقِ والمغرب، وحولهُ من الآنيةِ والأباريق عددَ نجومِ السَّماء، لا يشربُ منه أحدٌ فيظمأُ بعدَهُ أبداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي فاشكُرِ اللهَ على هذه النعمةِ العظيمة بالصَّلاة والنحرِ، قال ابنُ عبَّاس: ((إنَّهُ أرَادَ بذلِكَ صَلاَةَ الْعِيْدِ، ثُمَّ نَحْرَ الْبُدْنِ يَوْمَ الأَضْحَى)). وَقِيْلَ: أرادَ بذلك صلاةَ الفجرِ في يوم النحرِ. وَقِيلَ: أرادَ بذلك جميعَ الصَّلوات المكتوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾؛ أي مُبغِضَكَ هو الأبترُ الذي لا عَقِبَ له ولا خيرَ له في الدُّنيا والآخرة، ونزلَ ذلك في العاصِ بن وائل السَّهمي، كان يكلِّمُ النبيَّ ﷺ على باب المسجد الحرام بعد موتِ عبدِالله بن رسول الله ﷺ.

فلما انطلقَ النبيُّ ﷺ قيل للعاصِ: مَن هذا الذي كُنتَ معه قَائماً تُكلِّمهُ؟ قال: هذا الأبترُ محمد. يريدُ أنه ليس له ابنٌ يخلفُه ويقوم مقامَهُ، فأنزلَ اللهُ هذه السُّورة إكراماً للنبيِّ ﷺ وجواباً للخبيثِ، يقول: سَنُميتُهُ عن أهلهِ وماله فلا يُذكَرُ بخيرٍ أبداً، وأما أنتَ يا مُحَمَّدُ فقد جَعَلْتُ ذِكرَك مع ذكرِي فلا ينقطعُ ذِكرُكَ أبداً، والشَّانِئُ من الشَّنَئَانِ وهو البُغْضُ.

آخر تفسير سورة (**الكوثر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٠٩ و٢٩٥١٠). وفي الدر المنثور: ج ٨ ص٦٥٠؛ عزاه السيوطي إلى هناد وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها.

سُورَةُ (الْكَافِرُونَ)

سُورَةُ (الْكَافِرُونَ) مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَسِتٌّ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسِتُّ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ رُبُعَ الْقُرْآنِ، وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَيُعَافَى مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ](١)، وَقَالَ ﷺ: [مُرُوا صِبْيَانَكُمْ فَلْيَقْرَؤُهَا عِنْدَ الْمَنَامِ فَلاَ يَعْرِضُ لَهُمْ شَيْءٌ](٢). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ((لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ أَشَدُّ لِغَيْظِ إبْلِيسَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ؛ لأَنَّهَا تَوْحِيدٌ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ))(٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾؛ نزلت في رهطٍ من المشركين من قريشٍ، منهم الحارثُ بن قيسٍ السهميِّ؛ والعاصُ بن وائل؛ والوليدُ بن المغيرةِ؛ والأسودُ بن عبدِ يَغُوث؛ والأسودُ بن عبدِ المطَّلب؛ وأمية بن خلَف، قالوا: يا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فاتَّبعْ دِينَنا، ونتَّبعْ دِينَك ونُشركك في أمرنا كلِّه، تعبدُ آلهتنا سَنة، ونعبدُ إلَهكَ سَنة، فقال: [مَعَاذ اللهِ أنْ أشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ] قالُوا: فاسْتَلِمْ بعضَ آلِهَتنا نُصدِّقْكَ ونعبدْ إلَهك(٤).

---

(١) إسناده ضعيف؛ أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب فضائل القرآن: باب (١٠): الحديث (٢٩٨٥)، وقال: حسن. وفيه سلمة بن مروان، وهو ضعيف.

(٢) ذكره أيضاً الثعلبي في التفسير: ج ١٠ ص٣١٥.

(٣) ذكره الثعلبي في التفسير:ج ١٠ ص٣١٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٥.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٥؛ قال القرطبي: (ذكره ابن إسحق وغيره). وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٦٤)، والحديث (٢٩٥٦٣) عن ابن عباس.

فأنزلَ اللهُ تعالى هذه السُّورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) أي قُل لَهم: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ توحيدَ اللهِ، ليست في حالَتي هذه بعَابدٍ ما تَعبُدون من الأصنام، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي ولا أنتم عابدون إلَهي بجهلِكم الإخلاصَ في عبادةِ الله، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾ ؛ فيما استقبلُ، ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ من الأصنامِ، ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ ﴾ ؛ فيما تستقبلون، ﴿ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ ﴾ ، إلَهي الذي أعبدهُ.

وفي هذه القصَّة أنزَلَ اللهُ تعالى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[1]، فلمَّا نزلت هذه السورةُ غدَا رسولُ الله ﷺ إلى المسجدِ الحرام وفيه ملأٌ من قريشٍ، فقامَ على رُؤوسِهم، ثم قرأها عليهم، فأيَسُوا منه عندَ ذلك وآذوهُ وآذوا أصحابَهُ.

وأما تكرارُ الكلامِ فمعناهُ: لا أعبدُ ما تَعبُدون في الحال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحال، ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم في الاستقبال، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الاستقبالِ. وهذا خطابٌ لِمَن سبقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنون.

وقال بعضُهم: نزلَ القرآنُ بلغة العرب، ومن مذهب العرب التكرارُ في الكلامِ على وجه التأكيدِ حَتماً للإطْماعِ، كما أنَّ من مذهب الاختصار إرادةُ التخفيفِ والإيجاز، ومثلُ هذا كثيرٌ في الكلامِ والأشعار، كما رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ صعدَ المنبرَ فقال: [إنَّ بَنِي مَخْزُوم اسْتَأْذَنُونِي فِي أنْ يُنْكِحُوا عَلِيّاً فَتَيَاتِهِمْ، فَلاَ آذَنُ، فَلاَ آذَنُ، إنَّ فَاطِمَةَ بِضْعَةٌ مِنِّي، يَسُوءُنِي مَا يَسُوءُهَا، وَيَسُرُّنِي مَا يَسُرُّهَا][2].

(١) الزمر / ٦٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب القسم والنشوز: باب ذب الرجل الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف: الحديث (١٥١٦٦). وأوله: [إنَّ بَنِي الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي] وفيه [فَلاَ آذَنُ، ثُمَّ لاَ آذَنُ، ثُمَّ لاَ آذَنُ] وإسناده صحيح. ومن طريق أبي الوليد أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصلاة: باب الشقاق: الحديث (٥٢٧٨) مختصراً.

وكذلك قالَ الشاعرُ:

يَـا عَلْقَمَـهْ يَـا عَلْقَمَـهْ يَـا عَلْقَمَـهْ خَـيْرَ تَمِيـمٍ كُلِّـهَا وَأَكْرَمُـهْ

وقالَ:

أَخَـيْرُكُمْ نِعْمَـةً كَـانَتْ لَكُـمْ كَـمْ وَكَـمْ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾؛ قرأ نافعُ (وَلِيَ) بالتحريكِ، ومعناه: لكم جزاؤُكم على عبادةِ الأوثان، ولِي جزائِي على عبادةِ الرَّحمن.

وَقِيْلَ: إن هذه الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّيف.

آخر تفسير سورة (**الكافـرون**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ النَّصْـر

سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّةٌ[(١)]، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَتِسْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَثَلاَثُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا شَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَتْحَ مَكَّةَ][(٢)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: ((نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ))، ومعناهُ: إذا جاءَ نصرُ الله على الأعداءِ من قُريشٍ وغيرِهم، وجاءَ فتحُ مكَّة، ﴿ وَرَأَيۡتَ ﴾ ؛ يا مُحمَّدُ، ﴿ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ الإسلامِ، ﴿ أَفۡوَاجٗا ۝٢ ﴾ ؛ جماعاتٍ جماعاتٍ بعدَ أن كانوا في ابتداءِ الإسلام واحداً واحداً واثنين اثنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي صَلِّ له مع شُكرِك إياهُ على إنعامه عليكَ، ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ ﴾ ؛ لذنبكَ وللمؤمنين والمؤمناتِ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ ؛ أي مُتجاوزاً عن المستغفرين. فلمَّا نزلت هذه السُّورة جعلَ رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ التسبيحَ، وعاشَ رسولُ الله ﷺ بعدَ هذه السُّورة سنتينَ[(٣)]، وكان كثيراً

---

(١) قال المفسرون: سورة النصر مدنيَّة بالإجماع، نزلت بمنى في حجَّة الوداعِ، وتُسمى سورة التَّوديع. وقال مقاتلُ: (نَزَلَتْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ). ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٥٣٠. والجامع لأحكام القرآن: ج ٢٠ ص٢٢٩. واللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٣٧.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣١٨.

(٣) في المخطوط: (سنتين) من غير نقط وغير واضحة. وضبطت كما في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٨٢): عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: (السُّورَةُ عَلَمٌ، وَحَدَّ حَدَّهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَنَعَى لَهُ نَفْسَهُ. أي إنَّكَ لَنْ تَعِيشَ بَعْدَهَا إلاَّ قَلِيلاً). قال قتادةُ: (واللهِ ما عاشَ بعد ذلك إلا قليلاً، سنتَينِ، ثم تُوفِّيَ ﷺ).

ما يقولُ: [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ] فقِيلَ له في ذلــك، فقالَ ﷺ: [قَدْ جُعِلَتْ لِي عَلاَمَةٌ فِي أُمَّتِي، إذا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا][(١)].

وكان الحسنُ يقول: ((اخْتُمُوا أَعْمَالَكُمْ بِخَيْرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرُبَ أَجَلُهُ أَمِـرَ بِكَثْرَةِ التَّسْبِيحِ وَالاسْتِغْفَار)).

آخر تفسير سورة (**النصر**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري في الصحيـح: كتـاب التفسـير: سـورة (١١٠): بـاب (١و٢): الحديـث (٤٩٦٧ و٤٩٦٨) عن عائشة رضي الله عنها. ومسـلم في الصحيـح: كتـاب صـلاة المسـافرين: الحديـث (٢١٧و٢١٨/ ٤٨٤) واللفظ له. والطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٥٦٩).

سُورَةُ تَبَّتْ (الْمَسَدِ)

سُورَةُ الْمَسَدِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفاً، وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ.
قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا رَجَوْتُ أنْ لاَ يَجْمَعَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أبي لَهَبٍ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾؛ روي عن ابنِ عبَّاس أنه قال: (("لَمَّا")[2] نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ﴾[3] صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا وَنَادَى: [يَا صَبَاحَاهْ] فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ ﷺ: [يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، لَوْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلاً بسَفْحِ الْجَبَلِ قَدْ أظَلَّتْكُمْ أكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟] قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: [فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ] فَقَالَ أبُو لَهَبْ: تَبّاً لَكَ! ألِهَذا دَعَوْتَنَا؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ).))[4].

والتَّبَاتُ: الْخُسرَانُ الذي يؤدِّي إلى الهلاكِ، والمعنى: خَسِرَتْ يداهُ من كلِّ خيرٍ. وأضافَهُ[5] إلى اليَدَين؛ لأنَّ العملَ أكثرُ ما يجري على اليدَين.

ومعنى قولهِ (وَتَبَّ) أي وخَسِرَ هو بنفسهِ خُسراناً لا يفلِحُ بعدَهُ أبداً، واختلفُوا في المعنى الذي ذكرَهُ اللهُ بالكُنيَةِ، قال بعضُهم: إنما ذكرَهُ بها؛ لأنه كان اسمهُ عبدُ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٢٣.

(٢) (لَمَّا) سقطت من المخطوط، وهي من مقتضى السياق.

(٣) الشعراء / ٢١٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٥٨٨) بأسانيد. والبخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب ذكر شرار الموتى: الحديث (١٣٩٤)، وتفسير سورة الشعراء: الحديث (٤٧٧٠)، وتفسير سورة تبت: الحديث (٤٩٧٢ و٤٩٧٣).

(٥) في المخطوط: (وأضافَ).

العُزَّى فلذلك ذُكِرَ بالكُنيَةِ. وقال بعضُهم كان مشهوراً بهذه الكُنيَة. وقال بعضهم: كانت وَجنَتاهُ حمراوَين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لا تنفعهُ كثرة مالهِ في الآخرة ولا ينفعهُ ما أعدَّ من الكَيدِ والحِيَلِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ما أغنَى عنه مالهُ وولده، سُمِّي الولدُ كَسْباً؛ لأن ولدَ الرجُل من كسبهِ، قال ﷺ: [إنَّ أفْضَلَ مَا أكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ](1).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي سيدخلُ أبو لَهب ناراً لا يسكنُ لَهبُها ولا يطفأُ جَمرُها، قرأ أبو رجاء (سَيُصَلَّى) بالتشديد وضمِّ الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ اسمها أمُّ جَميل بنتُ حرب، أختُ أبي سفيان، يُصْلِيها اللهُ معه، وكانت عَوراء، وقولهُ تعالى (حَمَّالَةَ الْحَطَب) أي نقَّالَةً للكذب، قال ابنُ عباس: ((إنَّهَا كَانَتْ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ))(2)، تقولُ العرب: فلانٌ يَحْطِبُ على فلان؛ أي ينمُّ عليه.

وقال الضحَّاك: ((كَانَتْ تَأْتِي بالشَّوْكِ وَالْفَضَلاَتِ، فَتَطْرَحُهَا باللَّيْلِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ وَأصْحَابهِ لِتَعْقِرَهُمْ، وَكَانَتْ تُعَيِّرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْفَقْرِ، فَعَيَّرَهَا اللهُ تَعَالَى بالاحْتِطَاب))(3).

وهو ما تحمله من الشوكِ. قراءةُ العامَّة (حَمَّالَةُ) بالرفع، على أنه خبر لمبتدأ، ويجوز أن يكون نعتاً وخبرُ المبتدأ (فِي جِيدِهَا)، ومن نصبَ (حَمَّالَةَ) فعلى الذمِّ

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص٢٤٥: الحديث (٤٤٨٣ و٤٤٨٤) عن عائشة بإسناد صحيح. وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٦٦٤٣). وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب في الرجل يأكل من مال عمله: الحديث (٣٥٢٨). والبخاري في التاريخ الكبير: ج ١ ص٤٠٧: الترجمة (١٣٠١).

(2) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (٢٩٥٩٨) من قول عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وقتادة.

(3) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٥٩٦).

والشتمِ، كقوله تعالى ﴿مَلْعُونِينَ﴾[(١)] والمعنى: أعني حَمَّالَةَ الحطب، وفي قراءةِ عبدِ الله (وَمُرَيَّتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَب)[(٢)]، وقراءة أبي قلابة[(٣)] (وَامْرَأَتُهُ حَامِلَةَ الْحَطَبِ) على وزن فاعلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾؛ أي في عنُقها حبلٌ في الآخرةِ له ثقلُ الحديدِ، وحرارةُ النار، وخشونةِ اللِّيف، وقال ابنُ عبَّاس: ((مَعْنَاهُ: فِي عُنُقِهَا سِلْسِلَةٌ ذرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ وُضِعَتْ مِنْهَا حَلْقَةٌ عَلَى جَبَلٍ لَذَابَ، كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، تَدْخُلُ فِي فِيْهَا، وَتَخْرُجُ مِنْ دُبُرِهَا، وَيُلْوَى سَائِرُ بَاقِيهَا فِي عُنُقِهَا، وَذلِكَ لأَنَّهَا كَانَتْ لَهَا قِلاَدَةٌ فَاخِرَةٌ وَكَانَتْ تَقُولُ: لأُنْفِقَنَّهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ))[(٤)].

ويقال: إنَّها اختنَقت في الدُّنيا بحبلٍ من ليفٍ خنَقَها اللهُ به فأهلَكها، ويجعلُ في الآخرةِ في عنُقها حبلٌ من نار تُساق به إلى النار.

والْمَسَدُ في اللغة: الْفَتْلُ، والممسُود: المفتولُ. وَقِيْلَ: المسَدُ: الحديدةُ التي تدورُ عليها البكَرَةُ تجعلُ في عنقِها سلسلةً، وتُجعَلُ السلسلةُ في تلك الحديدةِ، فهي تُجتَذبُ بها في النار وتختلفُ بها في النار،كما تختلفُ بالدَّلوِ في البئرِ على البكَرةِ، يُشْهرُها الله بهذه العلامةِ في جهنَّم، تُرفَعُ مرَّة، وتُخفَضُ أخرى مع سائرِ أنواع العقوباتِ.

آخر تفسير سورة (**المسد**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) الأحزاب / ٦١.

(٢) قرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما (وَمُرَيَّتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) على التصغير، وعنه أيضاً (وَمُرَيْئَتُهُ). إلا أنه أقر الهمزة تارة، وأبدلها بالياء وأدغم فيها أخرى.

(٣) في المخطوط: (وقراءة أبي قلابة (وامرأته حمالة الحطب على وقراءة أبي قلابة) مكررة، والصحيح في حال إثبات قراءة، تكون العبارة:(وقراءة عياض: (وامرأته حمالةٌ للحطب، بالتنوين وجر المفعول بلام زائدة تقوية للعمل كقوله تعالى:﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج / ٦]) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٥٥. وعلى ما يبدو أن خطأ عند الناسخ، فكرر قراءة أبي قلابة، وهذا هو الراجح والله أعلم. ورقة (٥٢٨).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٠٥) مختصراً.

سُورَةُ الإِخْـلاَصِ

سُورَةُ الإِخْلاَصِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً، وَخَمْسَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الإِخْلاَصِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَيُعْطَى مِنَ الْحَسَنَاتِ بِعَدَدِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ، وَبِعَدَدِ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ](١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى الْغَزْوِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُقَالُ لَهُ كُلْثُومُ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى بِهِمْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ وَسُورَةً، ثُمَّ سُورَةَ الإِخْلاَصِ، فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: [مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ، فَقَالَ لَهُ: [حُبُّكَ إِيَّاهَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ](٢).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكٍ، فَلَمَّا أَنْ قَدِمَهَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ بِأَحْسَنِ طُلُوعٍ بِضِيَاءٍ وَشُعَاعٍ وَنُورٍ لَمْ تَكُنْ طَلَعَتْ بِمِثْلِهِ فِيمَا مَضَى، فَتَعَجَّبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ مَاتَ الْيَوْمَ مُعَاوِيَةُ اللَّيْثِيُّ بِالْمَدِينَةِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَالَ: [فَبِمَ ذَلِكَ ؟] قَالَ: بِكَثْرَةِ تِلاَوَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قَائِماً وَقَاعِداً وَفِي مَمْشَاهُ، فَهَلْ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أَقْبِضَ لَكَ الأَرْضَ فَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: [نَعَمْ] فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: [اسْتَكْثِرُوا مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا نِسْبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَرَأَهَا خَمْسِينَ مَرَّةً رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دَرَجَةٍ، وَحَطَّ عَنْهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَيِّئَةٍ، وَكَتَبَ لَهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

---

(١) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٥ ص٢٣٦٣: الحديث (٣٧٦٧)؛ قال العراقي: (رواه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه).

(٢) علقه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب الجمع بين السورتين في الركعة: عن قتادة. وفي الشرح قال ابن حجر: (رواه ابن منده في كتاب التوحيد من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وأشار إلى أنه غير حديث عائشة الذي أخرجه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه.

حَسَنَةٍ، وَمَنْ زَادَ زَادَهُ اللهُ](١).

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا إحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّةِ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتٍ أحْمَرَ، فِيهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفِ غُرْفَةٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا خَمْسِينَ مَرَّةً بَنَى اللهُ لَهُ مَنَازِلَ مِنْ نُورٍ، وَأجَازَهُ عَلَى الصِّرَاطِ، وَمَنْ قَرَأَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَ سِتِّينَ سَنَةً](٢).

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَهَا تَنَاثَرَ الْخَيْرُ عَلَى رَأسِهِ مِنْ عَنَانِ السَّمَاءِ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُ الرَّحْمَةُ، وَنَظَرَ اللهُ إلَيْهِ وَجَعَلَهُ فِي كِلاَيَتِهِ(٣) وَحِرْزِهِ وَأعْطَاهُ مَا سَأَلَ](٤). وَفَضَائِلُهَا أكْثَرُ مِنْ أنْ تُحْصَى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ ؛ اختلفَ المفسِّرون في سبب نُزول هذه السُّورة فروي عن ابن عبَّاس: ((أنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبيِّ ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إلَيْهِ)). وعن مقاتلٍ: ((أنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيَّ قَالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنْعَتْ لَنَا رَبَّكَ مِنْ ذهَبٍ هُوَ أمْ مِنْ فِضَّةٍ أمْ مِنْ نُحَاسٍ أمْ مِنْ حَدِيدٍ أمْ مِنْ صُفْرٍ، فَإنَّ آلِهَتَنَا مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؟! قَالَ: بَيِّنْ لَنَا أيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ؟! وَكَيْفَ هُوَ؟ فَشَقَّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ))(٥).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٧٢؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن سعد وابن الضريس والبيهقي في الدلائل والشعب) وذكره.

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٧٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الحافظ أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي في فضائل ﴿قل هو الله أحد﴾ عن عبدالله بن أبي فروة).

(٣) التَّكَلُّلُ: الإحاطة، لأن الإكليل يُجعل كالحلقة ويوضع هنالك أعلى الرأس. لسان العرب (كلل): ج ١٢ ص١٤٦.

(٤) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ١٠ ص٣٣٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٣ ص٤٣٥ مطولاً.

وعن سعيدِ بن جُبير: ((أنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّكَ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنْ دُخَانٍ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ رَبِّكَ مِمَّ خَلْقُهُ ؟!))[1]. وروِي أنَّهم قالوا: إنَّ هَذا الْخَلْقَ خَلْقُ اللهِ فَمَنْ خَلَقَهُ ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى جَعَلَ لَحْمَهُ يَرْبُو عَلَيْهِ وَحَتَّى هَمَّ أَنْ يُبَاسِطَهُمْ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ جِبْرِيلُ: أَنِ اسْكُنْ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورَةَ.

وقال ابنُ[2] كيسانَ: ((قَالَتِ الْيَهُودُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ، فَمَا طُولُهُ وَمَا عَرْضُهُ؟ فَارْتَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ عَنْ وَجْنَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ جَوَاباً لَهُمْ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً)).

والمعنَى: قُل لهم يا مُحَمَّدُ: الذي سألتُم عن تَبيين نسَبِهِ هو اللهُ، وهذا الاسمُ معروفٌ عند جميعِ أهلِ الأديانِ والملل، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[3]. والأحَدُ والواحدُ في اللغةِ بمعنى واحد، وقال ثعلبُ: ((وَاحِدٌ وَأَحَدٌ وَفَرْدٌ سَوَاءٌ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾؛ معناهُ: هو اللهُ الذي يصمَدُ إليه في الحوائجِ وإليه المفزَعُ في الشدائدِ، تقولُ العربُ: صَمَدْتُ إلى فلانٍ أصْمُدُ صَمْداً بسكونِ الميم إذا قصدته، والْمَصْمُودُ: المقصودُ.

وعن ابنِ عبَّاس:(أنَّ الصَّمَدَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِه، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَهُ هَذِهِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦١٧).

(٢) في المخطوط: سقط (ابن).

(٣) الزخرف / ٨٧.

الصِّفَاتِ كُلَّهَا لاَ تَنْبَغِي إلاَّ لَهُ))[1].

وقال قتادةُ: ((الصَّمَدُ: الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ))[2]، وَقِيلَ: هو الدائمُ، وقال السديُّ: ((الصَّمَدُ الْمَقْصُودُ إلَيْهِ فِي الرَّغَائِب، الْمُسْتَعَانُ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِب))، والعربُ تسمي السيِّدَ الصمدَ، قال الشاعرُ:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قال: ((الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ يَلِدُ إلاَّ سَيُورَثُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوتُ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ لاَ يُورَثُ وَلاَ يَمُوتُ))[3].

وكتبَ أهلُ البصرةِ إلى الحسنِ بن عليٍّ يسألوهُ عن معنى الصَّمَدِ، فكَتَبَ إليهم: ((بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَلاَ تَخُوضُوا فِي الْقُرْآنِ بغَيْرِ عِلْمٍ، فَإنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَدْ فَسَّرَ الصَّمَدَ فَقَالَ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾)).

وعن محمَّد بن الحنفية قال: ((الصَّمَدُ الغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ))، وعن زيدِ بن عليٍّ قال: ((الصَّمَدُ الَّذِي أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾؛ أي لَمْ يلِدْ أحداً فيرِثُ مُلكَهُ، ولم يُولَدْ عن أحدٍ فيَرِثُ عنه المُلْكَ، والحاصلُ من هذا يرجعُ إلى نفي الحدثِ والحاجة عن الله تعالى؛ لأنه لو كان مَولوداً لكان مُحدَثاً، ولو كان له ولدٌ لكان مُحتاجاً، لأن أحداً لا يَستَولِدُ إلاَّ لحاجتهِ إلى الولد والاستمتاع، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن هذه الصِّفات كما قال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٣٦).

(٣) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٦٩؛ قال السيوطي: (أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم في السُّنة والبغوي في معجمه وابن المنذر في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء عن أبي بن كعب ﷺ).

(٣) الأنعام / ١٠١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾؛ تقديرهُ: ولم يكن أحدٌ كُفُؤاً له؛ أي ليس كمثلهِ شيءٌ، و"في" قوله تعالى (كُفُواً) ثلاثُ قراءاتٍ، قرأ حمزةُ ويعقوب وخلَف ساكنةُ الفاءِ مهموزةٌ، ومثله مرويٌّ عن أبي عمرٍو ونافع، وقرأ حفصُ عن عاصم كُفُوّاً مثقلة غيرُ مهموزةٍ، وقرأ الباقون كُفُؤاً مهموزة مضموم الفاء، والكفؤُ والكفاء والكفَى واحدٌ، وهو المثلُ والنظير، تعالَى اللهُ عن المثلِ والنظير.

آخر تفسير سورة (**الإخلاص**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْفَلَقِ

سُورَةُ الْفَلَقِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَثَلاَثٌ وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَخَمْسُ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَكَأنَّمَا قَرَأ الْكُتُبَ الَّتِي أنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى كُلَّهَا][1].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرِ الْجُهَنِيِّ: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [ألاَ أخْبِرُكَ بخَيْرِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [قُلْ أعُوذُ بِرَب الْفَلَقِ، وَ قُلْ أعُوذُ بِرَب النَّاسِ][2].

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [لَنْ تُقْرَأ سُورَةٌ أحَبُّ إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قُلْ أعُوذُ بِرَب الْفَلَقِ، فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لاَ تَدعَهَا فِي صَلاَةٍ فَافْعَلْ][3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: ((هَذِهِ السُّورَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا أنْزِلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ سُحِرَ، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَتَعَوَّذَ بهِمَا، وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: لَبيدُ بْنُ أعْصَمَ، سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَاشْتَدَّ شَكْوَاهُ حَتَّى تُخُوِّفَ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب. ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٢٠ ص٥٧٤-٥٧٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٢: الحديث (٩٤٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٧ ص٢٩٤: الحديث (٩٥١).

فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إذْ أتَاهُ مَلَكَان؛ أحَدُهُمَا عِنْدَ رَأسِهِ وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأسِهِ لِلثَّانِي: أيُّ شَيْءٍ بِهِ؟ قَالَ: سِحْرٌ، قَالَ: مَنْ فَعَلَ بِهِ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أعْصَمَ الْيَهُودِيُّ، قَالَ: فَأيْنَ جَعَلَهُ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ لِبَنِي زُرَيْق، وَجَعَلَهُ فِي صَخْرَةٍ فِي كُوبَةٍ، قَالَ: فَمَا دَوَاؤُهُ ؟ قَالَ: نَبْعَثُ إلَى تِلْكَ الْبِئْرِ فَيُنْزَحُ مَاؤُهَا، ثُمَّ تُقْلَعُ الصَّخْرَةُ فَتُسْتَخْرَجُ الْكُوبَةُ مِنْ تَحْتِهَا فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً. وَإنَّمَا قَالَ ذلِكَ؛ لِكَي يُفْهِمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَانْتَبَهَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ فَهِمَ مَا قَالاَ.

فَأرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرِ فِي نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِهِ إلَى تِلْكَ الْبِئْرِ، فَانْتَهَى إلَيْهَا عَمَّارُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مَاؤُهَا كَهَيْئَةِ الْحِنَّاءِ مِنْ ذلِكَ السِّحْرِ، فَنَزَحُوا ذلِكَ الْمَاءَ حَتَّى بَدَتِ الصَّخْرَةُ فَإذا تَحْتَهَا كُوبَةٌ، فَأخَذُوهَا وَإذا فِي الْكُوبَةِ وَتَرٌ فِيهِ إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَجَاءَ بِهَا إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأحْرِقَتْ وَأنْزِلَتِ الْمُعَوِّذَتَان إحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فَحَلَّتْ كُلُّ آيَةٍ عُقْدَةً، وَأمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَكَانَ ﷺ يُعَوِّذُ بِهِمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَكَانَ لَبِيدُ بَعْدَ ذلِكَ يَأتِي النَّبِيَّ ﷺ فَمَا رَأى فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ قَطُّ وَلاَ ذَاكَرَهُ إيَّاهُ.

وفي بعض الروايات: أنَّ بَنَات لَبِيدِ بْنِ أعْصَمَ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ النَّبِيَّ ﷺ، فَذهَبَ بِذلِكَ لَبِيدُ فَجَعَلَهُ فِي وِعَاءِ الطَّلْعِ - أعْنِي كُوزِي النَّخْلِ - وَجَعَلَهُ فِي بِئْرٍ تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا أطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذِلِكَ بَعَثَ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ حَتَّى أخْرَجَاهُ. وَقِيلَ: بَعَثَ عَلِيّاً فِي اسْتِخْرَاجِهِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ[(١)].

والفَلَقُ على قول الكلبيّ وقتادة : ((الصُّبْحُ عِنْدَ بَيَانِهِ وَظُهُورِهِ))، وعن ابن عبَّاس: ((أنَّ الْفَلَقَ الْخَلْقُ يَخْرُجُونَ مِنْ أصْلاَب آبَائِهِمْ وَأرْحَامِ أمَّهَاتِهِمْ كَمَا يَنْفَلِقُ الْحَبُّ مِنَ النَّبَاتِ)). وهذا القول أعمُّ من الأولِ وأقربُ إلى تعظيمِ الله تعالى، لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجزية والموادعة: باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر: الحديث (٣١٧٥)، وأطرافه في (٥٧٦٣ و٥٧٦٥ و٦٠٦٣ و٦٣٩١). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب السحر: الحديث (٢١٨٩) مختصراً.

الفلَقَ كلمةٌ جامعة من لطائفِ القرآن، واللهُ تعالى فالِقُ الإصباحِ وفالقُ الحب والنوَى، وفالقُ البحرِ لموسى.

ومعنى السُّورة: قُل يا مُحمَّد: امتَنِعْ واعتَصِمْ واستَعِذْ بربِّ الفلقِ من شرِّ كل ذي شرٍّ من الجنِّ والإنسِ والسباع والحيَّات والعقارب وغيرها، وعن كعب الأحبار أنه قالَ: ((الْفَلَقُ بَيْتٌ فِي النَّارِ لَوْ فُتِحَ بَابُهُ صَاحَ جَمِيعُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ شِدَّتِهِ))[1]. قال السديُّ: ((الْفَلَقُ بِئْرٌ فِي جَهَنَّمَ))[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾؛ الغَاسِقُ: هو الليلُ إذا اشتدَّت ظُلمَتهُ، ووقُوبُ الليلِ دخولهُ في الظَّلام، هكذا عن قتادةُ، وأصل الغَسَق: الجريانُ بالضَّرر من قولهم: غَسقَتِ القَرْحَةُ إذا جرَى صَدِيدُها، والغَاسِقُ صديدُ أهلِ النار، والغاسِقُ كلُّ هاجمٍ بالضَّرر كائناً ما كان، وسُمِّي الليلُ غَاسِقاً؛ لأنه تخرجُ فيه السِّباعُ من آجَامِها، والهوامُّ من مكانِها.

وإنما أضيفُ الشرُّ إلى الليلِ؛ لأن الإنسانَ يحذرُ في أوقاتِ الليل من الشرِّ ما لا يحذرُ مثلَهُ بالنهار، كأنه قالَ تعالى: ومن شرِّ ما في الغاسقِ، كما يقالُ: أعوذُ بالله من هذا البلدِ إذ كثُرَ فيه الظُّلم والفسادُ.

وعن عليٍّ ﷺ أنه قال: ((الْغَاسِقُ هُوَ الظَّالِمُ، وَوُقُوبُهُ دُخُولُهُ عَلَى الظُّلْمِ)). ويقالُ: الغاسقُ سقوطُ الثُّريا؛ لأن الطوَاعِين والأسقامَ تكثرُ عند سقوطِها، وترتفعُ عند طلوعِها.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: أرَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقَمَرَ فَقَالَ: [تَعَوَّذِي باللهِ مِنْ شَرِّ هَذا الْغَاسِقِ إذا وَقَبَ] أيْ إذا كَسَفَ وَاسْوَدَّ[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٦٦٦). والترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣٣٦٦) بإسناد صحيح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي من شرِّ السَّواحِرِ ينفُثْنَ؛ أي يسحَرْنَ في عُقَدِ السحر، وهن الجماعات السواحر، وذلك أنّهن إذا أردنَ الإضرارَ بإنسان نفَثْنَ عليه ورقَّيْنَهُ بكلام فيه كفرٌ وشرك وتعظيمُ الكواكب من الأدويةِ الضارَّة والسُّموم القاتلةِ بالاحتيال، ثم يزعُمن إذا ظهر الضُّر عليه أنَّ ذلك من رُقَاهِنَّ.

وإذا أردنَ نفعَ إنسان نَفَثْنَ عليه، واحتَلنَ أنْ يَسقِينَهُ شيئاً من الأدويةِ النافعة، ثم إذا اتَّفقَ للعليلِ خفَّةُ الوجعِ أوهَمْنَ أنّهن اللَّواتي نفعنَهُ من النفعِ والرقى. والنَّفثُ هو أن يُلقِي الإنسان بعضَ ريقه على منَ يعوِّذهُ، يقالُ: نَفثَ يَنْفُثُ، وتَفلَ يَتْفُلُ بمعنى واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن الحاسدَ يستعظمُ نعمةَ صاحبهِ ويريدُ زوالَها، فيحملهُ ذلك على الظُّلم والبغي والاحتيالِ بكلِّ ما يقدرُ عليه لإزالةِ تلك النعمةِ عنه. والحسَدُ في اللغة بمعنى زَوَالِ النِّعمةِ عن صاحبها لِمَا يدخلُ على النفسِ من المشقَّة بها.

ويقالُ: معناهُ: التلهُّف على جودِ الله تعالى، وهذا هو الحسدُ المذموم، وأما إذا تَمنَى لنفسهِ نعمةً من اللهِ تعالى مثلَ نعمةِ صاحبهِ من غيرِ أنْ يتمنَّى زوالَها عنه، فذلك يكونُ غِبْطَةً، ولا يكون حَسَداً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ: استعاذةٌ من شرِّ عين الحاسد، واستدلَّ على ذلك بما رُوي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ عَائِشَةَ أنْ تَسْتَرْقِي مِنَ الْعَيْنِ[(١)]، وَيُسْتَحَبُّ لِلْعَائِنِ عِنْدَ إعْجَابهِ بمَا يَرَاهُ أنْ يَقُولَ: مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله، كما رُوى أنس عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ رَأى شَيْئاً يُعْجِبُهُ فَقَالَ: اللهُ اللهُ! مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ][(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الطب: باب رقية العين: الحديث (٥٧٣٨). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب استحباب الرقية من العين: الحديث (٥٦/ ٢١٩٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٦٩٦ و٥٦٩٧) عن أنس بن مالك. وفي=

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [الْعَيْنُ حَقٌّ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذا اسْتَغْسَلْتُمْ فَاغْسِلُوا][(١)].

وإنما خُتمت السورةُ بالحسدِ؛ ليُعلَمَ أنه أخَسُّ من الأشياءِ التي قبلَهُ، وهو أخسُّ الطبائعِ.

آخر تفسير سورة (**الفلــق**) والحمد لله رب العالمين

=فيض القدير شرح الجامع الصغير: ج ٦ ص١٣٠: الحديث (٨٦٨٤)؛ قال المناوي: (هو لفظ رواية الديلمي والبزار، قال الهيثمي: وفيه أبو بكر الهذلي، ضعيف جداً). وأخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال: ج ٤ ص٣٤٦ في ترجمة أبو بكر الهذلي: الرقم (٤٦/ ٧٧٨).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (٢٩٦٧٥). والطبراني في المعجم الكبير: ج ١١ ص١٧: الحديث (١٠٩٠٥). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب الطب والمرضى والرقى: الحديث (٤٢/ ٢١٨٨).

سُورَةُ النَّاسِ

سُورَةُ النَّاسِ مَدَنِيَّةٌ(١)، وَهِيَ سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَعُشْرُونَ كَلِمَةً، وَسِتُّ آيَاتٍ. قَالَ ﷺ: [قَالَ لِي جِبْرِيلُ: ألاَ أخْبِرُكَ بأفْضَلَ مَا يُتَعَوَّذُ بِهِ ؟ قُلْتُ: مَا هُوَ ؟ قَالَ: الْمُعَوِّذَتَانِ فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا](٢).

وَقَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَلَقِ وَسُورَةَ النَّاسِ أعْطَاهُ اللهُ مِنَ الأَجْرِ كَأنَّمَا قَرَأَ جَمِيعَ الْكُتُبِ الَّتِي أنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ](٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ: امتنِعْ واعتصمْ بخالقِ الخلْقِ المقتدر عليهم، المالكِ لنفعِهم وضرِّهم وحياتِهم وموتِهم، المستحقِّ للعبادةِ الذي إليه مفزَعُهم وملجأهم، من شرِّ الشيطانِ ذي الوَسْوَاسِ المستقر المختفِي عن أعيُنِ الناسِ، ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ ﴾، الذي يَصِلُ بوسوستهِ إلى صُدورِ الناسِ، كما جاء في الحديث: [إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَتَعَوَّذُوا باللهِ مِنْهُ](٤).

---

(١) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٩٣؛ قال السيوطي: (أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قال: أنزل بالمدينة ﴿قلْ أعوذُ بربِّ النَّاسِ﴾) وغالبُ قول المفسرين أنها مكيَّة.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأصله أخرجه أصحاب السنن عن عقبة بن عامر وغيره من الصحابة.

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب، وهي واهنة، والحديث المرفوع في ذلك موضوع. ينظر: الكشاف: ج ٤ ص٨١٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٣٣٧. والبخاري في الصحيح: كتاب بدء الخلق: باب=

قال قتادةُ: ((إنَّ الْخَنَّاسَ لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ الْكَلْبِ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ، جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، إذا غَفِلَ الْعَبْدُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَسْوَسَ، وَإذا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ))(١). ورُوي: أن عيسَى عليه السلام دعَا ربَّهُ أن يُرِيَهُ موضعَ الشيطان من ابنِ آدم، فجلَى له فإذا رأسهُ رأسُ الحيَّة واضعٌ رأسه على ثمرةِ القلب، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّهُ خَنَسَ، وإن لم يذكُرْ ربَّهُ وضعَ رأسَهُ على ثمرةِ قلبه وحَدَّثَهُ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾؛ قِيْلَ: ذلك عائدٌ على الوسواسِ، كأنه قالَ: شرِّ الوسواسِ الذي هو من الجِنَّةِ، والوسواسِ الذي هو من الناسِ. ويقالُ: معناه: من شرِّ كلِّ ماردٍ من الجنِّ والإنسِ. وَقِيْلَ: إنَّ قولَهُ تعالى (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) عائدٌ على لفظ الناسِ المذكور في قولهِ تعالى (فِي صُدُورِ النَّاسِ)؛ لأن اسمَ الناسِ يصلحُ للإنس والجنِّ، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾(٣) فجعلَهم رجالاً، والشيطانُ يوسوس في صدور الجنِّ، كما يوسوسُ في صدور الإنس، ودليلُ هذا قولهُ تعالى في أوّل السورةِ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) أرادَ به ربَّ الإنس والجنِّ جميعاً.

وباللهِ التوفيقُ.

آخر تفسير سورة (**الناس**)

وبحمد الله تعالى وفضله ومنِّهِ تمَّ ضبط هذا التفسير على أصله الموسوم (التفسير الكبير – تفسير القرآن العظيم) للعالم الإمام الحافظ أبي القاسم أحمد بن سليمان الطبراني رحمه الله.

=صفة إبليس: الحديث (٢٣٨١). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أن يقول: هذه فلانة؛ ليدفع ظن السوء به: الحديث (٢٤/ ٢١٧٥)، وله قصة عن صفية بنت حُيَيٍّ أم المؤمنين.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٩٦٨١) مختصراً، واللفظ لابن عباس رضي الله عنهما في الأثر (٢٩٦٧٨).

(٢) في الدر المنثور: ج ٨ ص٦٩٤؛ قال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن عروة بن رويم).

(٣) الجن / ٦.

تَمَّ الْجُزْءُ الْمُبَارَكُ بِمَعُونَةِ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَسُلْطَانِ الصِّدِّيقِينَ وَإِمَامِ الْمُقَرَّبِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ آمِينَ.

وكان الفراغُ من تعليقِ هذا الجزء العظيمِ قدرهُ، الشريفِ مجدهُ، يومَ الثُّلاثاء المباركِ على يدِ أقلِّ العباد وأحقرِهم، خُوَيدِمُ نعالِ الفقراء الطفيلي فيما بينهم ....(١) الشافعي، قُبَيلَ العصرِ بافتتاحِ شهر رجبَ الفردِ، سَنَة أربعةٍ وستِّين وتسعمائة، ومستنسخهُ الشيخ الفاضلُ قاضي القُضاة وشيخُ الإسلامِ العالِمِ العلاَّمة البحرُ، أدامَ الله تعالى نعمةَ مولانا المذكور ولا زالَ عَلَمُ عِلمهِ مرفوعاً أبداً، وبناءُ مجدهِ مُنتَصباً بحفظٍ من العِدَى، ولا زالت أقلامهُ لأفعالِ الشكِّ جازمةً، ووفور السَّعدِ عن أعدائهِ متعديَّةً، ولآرائهِ لازمةً، لا زالَ بابُ مولانا للخيرِ والصِّلة، وحالُ محارمهِ متَّصلة لا منفصلة، بمَنِّهِ وكرمهِ إنه على ما يشاءُ قديرٌ وبالاجابة جديرٌ آمين.

(١) رسم الحرف غير واضح؛ لكثرة السواد عليه. وأسقط الناسخ رحمه الله اسمه من الذكر.

فهرس المجلد السادس

سورة الأحقاف	
الآيات	الصفحة
١-٣٥	٥
سورة محمد	
الآيات	الصفحة
١-٣٨	٢٨
سورة الفتح	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٤٦
سورة الحجرات	
الآيات	الصفحة
١-١٨	٧٠
سورة ق	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	٩٢
سورة الذاريات	
الآيات	الصفحة
١-٦٠	١٠٦
سورة الطور	
الآيات	الصفحة
١-٤٩	١٢١
سورة النجم	
الآيات	الصفحة
١-٦٢	١٤٣

سورة القمر	
الآيات	الصفحة
١-٥٥	١٥٢

سورة الرحمن	
الآيات	الصفحة
١-٧٨	١٦٤

سورة الواقعة	
الآيات	الصفحة
١-٩٦	١٨٤

سورة الحديد	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٢٠٢

سورة المجادلة	
الآيات	الصفحة
١-٢٢	٢٢٨

سورة الحشر	
الآيات	الصفحة
١-٢٤	٢٣٣

سورة الممتحنة	
الآيات	الصفحة
١-١٣	٢٥٤

سورة الصف	
الآيات	الصفحة
١-١٤	٢٦٦

سورة الجمعة	
الآيات	الصفحة
١-١١	٢٧٢

سورة المنافقون	
الآيات	الصفحة
١-١١	٢٨١
سورة التغابن	
الآيات	الصفحة
١-١٨	٢٨٨
سورة الطلاق	
الآيات	الصفحة
١-١٢	٢٩٣
سورة التحريم	
الآيات	الصفحة
١-١٢	٣٠٠
سورة الملك	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	٣١١
سورة القلم	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٣١٩
سورة الحاقة	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٣٣٤
سورة المعارج	
الآيات	الصفحة
١-٤٤	٣٤٥
سورة نوح	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٣٥٣

سورة الجن	
الآيات	الصفحة
١-٢٨	٣٦٠
سورة المزمل	
الآيات	الصفحة
١-٢٠	٣٦٩
سورة المدثر	
الآيات	الصفحة
١-٥٦	٣٧٩
سورة القيامة	
الآيات	الصفحة
١-٤٠	٣٩١
سورة الانسان	
الآيات	الصفحة
١-٣١	٣٩٩
سورة المرسلات	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	٤١٤
سورة النبأ	
الآيات	الصفحة
١-٤٠	٤٢٠
سورة النازعات	
الآيات	الصفحة
١-٤٦	٤٣١
سورة عبس	
الآيات	الصفحة
١-٤٢	٤٣٩

سورة التكوير	
الآيات	الصفحة
١-٢٩	٤٤٦
سورة الانفطار	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٤٥٤
سورة المطففين	
الآيات	الصفحة
١-٣٦	٤٥٨
سورة الانشقاق	
الآيات	الصفحة
١-٢٥	٤٦٥
سورة البروج	
الآيات	الصفحة
١-٢٢	٤٧٠
سورة الطارق	
الآيات	الصفحة
١-١٧	٤٧٥
سورة الأعلى	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٤٧٩
سورة الغاشية	
الآيات	الصفحة
١-٢٦	٤٨٥
سورة الفجر	
الآيات	الصفحة
١-٣٠	٤٩١

سورة البلد	
الآيات	الصفحة
١-٢٠	٥٠٢
سورة الشمس	
الآيات	الصفحة
١-١٥	٥٠٧
سورة الليل	
الآيات	الصفحة
١-٢١	٥١١
سورة الضحى	
الآيات	الصفحة
١-١١	٥١٥
سورة الانشراح	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٢١
سورة التين	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٢٣
سورة العلق	
الآيات	الصفحة
١-١٩	٥٢٦
سورة القدر	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٣١
سورة البينة	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٣٧

سورة الزلزلة	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٣٩
سورة العاديات	
الآيات	الصفحة
١-١١	٥٤٢
سورة القارعة	
الآيات	الصفحة
١-١١	٥٤٦
سورة التكاثر	
الآيات	الصفحة
١-٨	٥٤٨
سورة العصر	
الآيات	الصفحة
١-٣	٥٥٣
سورة الهمزة	
الآيات	الصفحة
١-٩	٥٥٥
سورة الفيل	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٥٨
سورة قريش	
الآيات	الصفحة
١-٤	٥٦٤
سورة الماعون	
الآيات	الصفحة
١-٧	٥٦٧

سورة الكوثر	
الآيات	الصفحة
١-٣	٥٦٩
سورة الكافرون	
الآيات	الصفحة
١-٦	٥٧١
سورة النصر	
الآيات	الصفحة
١-٣	٥٧٤
سورة المسد	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٧٦
سورة الإخلاص	
الآيات	الصفحة
١-٤	٥٧٩
سورة الفلق	
الآيات	الصفحة
١-٥	٥٨٤
سورة الناس	
الآيات	الصفحة
١-٦	٥٨٩